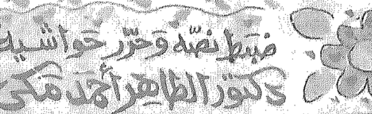


طوق الحمامة في الإلفة والألاف

للإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي







سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No . 497 — MA - 1992 العدد ٤٩٧ ذو القعدة ـ مايو ١٩٩٢

FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع فئة ٣٠٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليره ، لبنان ٣٤٠٠ ليره ، الكويت ٢٥٠ر١ دينار ، الأردن ٤٠٠ر٢ دينار ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٥ درهم ، البحرين ٢٠٠ر١ دينار ، الدوحة ١٢ ريال ، دبى / أبوظبى ١٢ درهم ، مسقط ٢٠٠ر١ ريال ، غزه والضفة والقدس ٢ دولار ، لندن ٥٠ر١ جك .

طَوقُ الحَمَامَة

فى الإِلفَةِ والأُلاَّف

للإمام الفقيه

ابن حزم الاندلسى

أبى محمد على بن أحمد بن سعيد

حققه وقدم له وعلق عليه

دكتور الطّاهر أحمد مكى

الغلاف بريشة الفنان :

حـــــلمى التـــونى

كلمة المحقق

فى نهاية النصف الأول من القرن السابع عشر ، هبط الأستانة سفير مستشرق يُدعى فون وارنر ، جاء يمثل بلاده هولندة لدى بلاط آل عثمان ، وقُدِّر له أن يبقى فيها اثنين وعشرين عاما ، من سنة ١٦٤٤ إلى ١٦٦٥ م ، لكنه ما لبث أن شُغل باهتماماته العقلية ، فولّى وجهه شطر المخطوطات العربية ، وقد أُشرب حبها طالبا جادّاً فى مدرسة المستعربين الشهيرة فى ليدن ، وأصبح البحث عنها شاغله الأول ، ينسخها ويشتريها ، ويحتال عليها إن لم تواته الأولى أو الثـانية ، ولم يكن فى حاجة إلى زمن أو خبرة ليدرك أنه فى عاصمة الخلافة بين ذخائر لا تنفد من التراث العربى ، جاء بها السلاطين نهبا من البلاد الأخرى ، أو نقلها العسكريون سطواً ليتبركوا بها ، ويتاجروا فيها من بعد .

ثم جاءته الفرصة بأبعد مما يمكن أن يجرى به خياله ، فتوفى على أيامه حاجى خليفة الشـهير ، عام ١٦٥٨ م ، صـاحب كتـاب « كشف الظنون » ، وكان يملك واحدة من كبريات مكتبات الأستانة الخاصة ، جمعها أثناء عمله فى الجيش العثمانى ، وارتحاله عبر

البلاد الإسلامية ، في بغداد وهمدان وحلب . لقد اشترى منها وارنر ، ومن غيرها ، كتبا كثيرة بلغت ألف مخطوط ، بين عربي وفارسي وتركي وعبري ، اشتملت على شتى العلوم ، من لغة وأدب وتاريخ ، وشريعة وفلسفة وطب ، وتنوعت في طابعها ، تميز بعضها بجمال خطه ، وبعضها بأصالته وقدمه ، وبعضها بندرته ، ثم أهدى ذلك كله إلى جامعة ليدن في هولندة ، لتنضم إلى مخطوطات عربية أخرى كثيرة وقيمة .

وكان « طوق الحمامة » بين هذه المخطوطات النادرة . من أي البلاد جاء ؟ من صاحبه الأول ؟ . لا أحد يدري . وقُدر لهذه النسخة أن تستقر مجهولة في مكتبة ليدن قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما .

مع مطلع القرن التاسع عشر عهدت الجامعة إلى عدد من المستشرقين بفهرسة المخطوطات العربية التي تملكها ، وكان من نصيب المستشرق الهولندي رينهارت دوزي ، المتخصص في الدراسات الأندلسية ، أن يكتشف نسخة « طوق الحمامة » وأن يعرف العالم بها في أول طبعة تصدر لفهرس المخطوطات العربية في جامعة ليدن ، وحمل وصف المخطوطة رقم ٤٦١ من مجموعة وارنر .

وعندما نشر دوزي كتابه « تاريخ مسلمي إسبانيا » ، عام ١٨٦١ ، نقل من كتاب « طوق الحمامة » الصفحات المتصلة بقصة

حب ابن حزم الأولى ، وترجمها فى فرنسية رقيقة عذبة ، فذاعت فى كل أنحاء أوربا ، وأعطت الكتاب شهرة واسعة وعن دوزى ترجمها إلى الألمانية فون شاك ، فى كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » وقد نقلناه إلى العربية ونشرته دار المعارف بالقاهرة ، وعنه ترجمها الروائى الأديب خوان فاليرا عندما ترجم الكتاب كله إلى الإسبانية ، ثم جاء من بعده مواطنه بونس بويجس فترجمها إلى اللغة الإسبانية ثانية ، من اللغة العربية مباشرة . وقد حاول بونس هذا ، ومن بعده العالم الإسبانى الجليل ميجيل أسين بلاثيوس ، أن ينشر النص العربى ، لكن الموت اختطف أولهما فى سن فتية ، وشُغل الثانى بكتاب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم ، وهو أقرب إلى اهتماماته الفلسفية ، فلم يقدر للمحاولة أن تتم .

وفى صيف ١٩٠٧ سافر المستشرق الروسى الشاب د . ك . بتروف إلى مدينة تيوبنجين فى ألمانية ، ليلقى الأستاذ زايبولد ، وكان المستشرق الألمانى الوحيد المتخصص فى الدراسات الأندلسية ، فحمل بتروف على أن ينشر النص العربى لطوق الحمامة وعاد المستشرق الروسى إلى مقره فى مدينة بطرسبرج ، وكان يعمل أستاذاً فى جامعتها الإمبراطورية ، وفى ذهنه أن يدفع بالفكرة إلى حيّز الوجود ، لكن مواطنه المستشرق البارون روزن

(١٨٤٩ - ١٩٠٨) وكان أكبر منه عمراً وأعرق فى مجال الاستشراق ، اعترض عليه ، فقد رأى أن قيام مستشرق ناشئ بمثل هذه المحاولة ، معتمداً على مخطوطة وحيدة ، عمل بالغ الصعوبة ، ومحفوف بالمخاطر .

لكن بتروف مضى فى المحاولة ، وعاونه مواطنه المستشرق كراتشكوفسكى فى تصحيح تجارب الطبع ، وصدرت الطبعة الأولى للنص العربى كاملا ، فى سلسلة الكتب التى تنشرها كلية الآداب ، فى جامعة بطرسبرج الإمبراطورية ، وطبع فى مطبعة بريل العربية الشهيرة فى ليدن ، عام ١٩١٤ . ولا يملك المرء إلا أن ينحنى تقديراً لهذه المحاولة الجريئة ، لقد بذل بتروف جهداً عظيما ، فأعطانا صورة صادقة للمخطوطة ، وضبط الشعر بالشكل ، وبعض كلمات النص ، وألحق به فهرسا للقوافى ، وآخر للأعلام ، وقدم له باللغة الفرنسية فى صفحات تبلغ الثمانى والثلاثين ، وكان موفقاً فى محاولته إلى حد بعيد . لكنه لم يكن متخصصا فى الدراسات الأندلسية ، وكانت على أيامه فقيرة وواهنة خارج نطاق إسبانيا ، فلم يصلح من أخطاء الأصل إلا قليلا من الألفاظ ، التى يمكن تداركها للوهلة الأولى .

ولكن ذلك لا يمس روعة العمل الذى قام به ، فما أشد صعوبة الخطوة الأولى ، وأشق إنجاز العمل الرائد ! .

غير أن النص العربى ، كبقية النصوص العربية الأخرى التى طُبعت فى أوربا ، ظل محدود الانتشار للغاية ، حتى أن نسخاً منه لمَّا تزل معروضة للبيع حتى يومنا ، ومع هذا أثار اهتمام كافة المستشرقين ، وعُنى به كبارهم ، فعلّق على الطبعة العربية كل من بروكلمان وجولد تسيهر ، وأشادا بالعمل ، وصححا بعض ما وقع فيه من أخطـاء ، ومن الطبيعى أن تحـــدث فى كتاب ينشر للمرة الأولى ، عن مخطوطة وحيدة .

نشر بتروف الكتاب عن مخطوطة مجموعة وارنر ، وجاءت فى ٢٧٦ صفحة ، مجلدة ، وتتراوح مسطرتها بين عشرة أسطر وخمسة عشر سطرا ، واضحة الخط ، مشكولة الشعر ، وكُتبت منها العناوين ، وأمثال كلمات : « حدث » و« خبّر » بالحبر الأحمر ، بخط أكبر قليلا من المعتاد فى بقية النص . والناسخ يقظ جداً ، لا يخونه قلمه إلا نادراً ، وإنما يجئ الغموض من صعوبة المعنى ، وهى ليست بخط المؤلف ، وإنما كتبها ناسخ مولع بالنص ، وفرح بقدرته على إكمال نسخه ، وأتمه فيما يقول ، فى مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (٧٣٨ هـ = ١٣٣٧ م) أى بعد وفاة ابن حزم بما يقرب من ثلاثة قرون ، ولم يعطنا أية إشارات إلى النسخة الأم التى نقل عنها ، ولا يذكر أنه عارض ما نسخ بما نسخ عنه .

ولا نعرف الناسخ ، ولا المكان الذى أتم فيه عمله ، وفيما يبدو

قام به رغبة فى اقتناء الكتاب ، ولم ينسخه مأجوراً عليه ، ولا قاصداً بيعه ، وسجل على نفسه أنه : « حذف أكثر أشعارها ، وأبقى العيون منها ، تحسينا لها . وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلا لوجدان المعانى الغريبة من لفظها » .

وأراه حذف أكثر الشعر ، وأضاع علينا نصوصا هامة ، فقد كان ابن حزم فى أشعاره طويل النفس ، ثرىّ المدد ، لا يكتفى بالمقطوعة ، ولا يقنع بالقصيدة العادية ، مغرما بالطوال منها ، وشاهدنا على ذلك قصيدة طويلة وحيدة ، جاءت فى ٨٦ بيتا ، وأبقى عليها الناسخ كاملة ، ربما لأنها جاءت فى آخر الكتاب ، فأراد أن يسوّد بها ما تبقى لديه من صفحات بيضاء ، أو لأنها جاءت من الشعر الوعظى المحبّب إلى نفسه .

وشاهدنا عليه أيضا ، طابع ابن حزم فيما وصلنا من شعره ، فقصائده فيه ، جاءت فى عدد منها لا بأس به من القصائد الطوال .

ولا أظن الناسخ وقف باختصاره عند الشعر وحده .

فقد أورد لنا المقرّى ، فى كتابه نفح الطيب ، فى الجزء الثانى ، ص ٢٨٨ ، القصة التالية : قال ابن حزم فى « طوق الحمامة » : إنه مّر يوما هو وأبو عمر ابن عبد البر ، صاحب « الاستيعاب » ، بسكة الحطابين من مدينة إشبيلية ، فلقيهما شاب حسن الوجه ، فقال

أبو محمد : هذه صورة حسنة ، فقال له أبو عمر : لم نر إلا الوجه ، فلعل ما سترته الثياب ليس كذلك ، فقال ابن حزم ارتجالا :

وذى عَذَل فيمن سباني حُسْنُهُ يطيل ملامي في الهوى ويقولُ :
أمن أجل وجهٍ لاح لم تر غيره ولم تدر كيف الجسمُ ، أنت عليل
فقلت له : أسرفتَ فى اللوم فاتّئدْ فعندىَ ردٌّ لو أشاء طويل
ألم تر أنّى ظاهرىٌّ وأنّنى على ما أرى حتى يقوم دليل

وهذه القصة ساقطة من نسخة « الطوق » التى بين أيدينا ، ولا يمكن ردّها بالشك فى رواية المقرّى ، لأن جوّها أشبه الأجواء بما فى « الطوق » . وأزعم أن يد الناسخ امتدت إلى ما هو أكثر منها ، مما لم يرض من حكايات وقصص « الطوق » ، وأكاد أقول ، وإلى ما لم يفهم من قضاياه أيضا .

وبعد طبعة بتروف بسبعة عشر عاما ، قام محمد ياسين عرفة ، صاحب مكتبة عرفة فى دمشق ، بطبع النص العربى ثانية ، عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م ، وصدّره بفقرات مقتبسة ومترجمة عن مقدمة بتروف للكتاب باللغة الفرنسية ، وبموجز لحياة ابن حزم ، وقدم له الشاعر الكبير محمد البزم . وكانت الطبعة قريبة من طبعة بتروف ، بعد أن حذف الناشر منها الفهارس ، واستغنى عن ضبط الشعر ، برغم أنه جاء مضبوطا كله فى الأصل ، وفى طبعة المستشرق الروسى ، ولم يتقدم بالنص خطوة واحدة نحو ما هو أصوب وأدق .

وفى عام ١٩٤٩ ظهـرت الطبعـة الثـالثة باللغـة العربية لكتـاب « طوق الحمامة » ، قام عليها المستشرق الفرنسى ليون برشيه ، وكان يعمل أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة الجزائر ، وفى مدينة الجزائر نفسها صدرت ، ولكن دائرة ذيوعها كانت محدودة للغاية ، وقد بذل برشيه ، وهو معروف بأبحاثه اللغوية ، جهداً طيبا فى تصحيح الأخطاء ، ولكنها أعتى منه ، فلم يستطع غير تصويب القليل ، غير أن تعليقاته اللغوية والفقهية ذات أهمية كبرى .

وبعد هذه الطبعة بعام واحد ، قام الأستاذ حسن كامل الصيرفى بطبع الكتاب للمرة الرابعة فى القاهرة ، عام ١٩٥٠ ، والحق أنه حاول أيضا أن يصحح بعض كلمه ، وأن يقوّم بعض أبيات شعره ، وزاده شاعرية قادرة ، ومعرفة باللغة متمكنة ، وهما وحدهما لا تكفيان .

كان الكتاب فى حاجة إلى من يعرف الأندلس تاريخا وتراثا وحضارة ، يأخذ من ذلك كله ليقـوّم نصّا صعباً جاءنا فى مخطوطة وحيدة ، وكان حظ الأستاذ الصيرفى من المعرفة بالأندلس متواضعا فيما يبـدو ، ومن ثم فإن جهوده لم تغن شيئا ، جاء الكتاب وعدد من فقراته مضطرب خاطئ ، ومعظم الأسماء الواردة فيه مغلوط مشوّه ، وجاء الطابع فأفسد ضعف ما أصلح الناشر ، فسقطت من الكتاب جمل وكلمات ، ضاع معها المعنى أو اضطرب ، فكانت هذه

الطبعة ، برغم ما بذل فيها من جهد ، وبرغم أنها طبعت ثانية عام ١٩٦٤ أسوأ من طبعة دمشق ومن طبعة بتروف .

صحيح أن الأستاذ إبراهيم الإبيارى قدّم لهذه الطبعة ، وتربطه بالأندلس أوشاج من النسب ، ولكنه فيما بدا لى كتب المقدمة مجاملا عجلا ، وليس مشاركا مسئولا ، فلا أكاد أتصوّر أن الرجل الذى عاش حياته قارئا وكاتبا ومحققا يمكن أن يخطئ فى موطن ستندال ، فينسبه إلى إيطاليا وهو أديب فرنسى شهير ، ولا أكاد أتصــور أن يقــول ، « جيران صاحب المرية » ، لمجرد أنها وردت فى الأصــل كذلك ، ومن له أدنى معرفة بالأندلس يعرف أن صحّتها « خيران » .

كان من الضرورى أن يتقدم دارس ليصنع من أجل « طوق الحمامة » شيئا ، أن يقترب به على الأقل من مستوى الترجمات الأجنبية ، ووجدتنى مدفوعا إلى هذا العمل . لقد نما هذا الإحساس عندى منذ بدأت أتردّد بين صفحات الكتاب فكراً وإحساسا ونظرا ، وأعانى الكثير من غموض النص ، ومن تحريف الأسماء ، ومن غيبة الهامش ، ويدا لى للحظات كثيرة أن المهمة عسيرة ، فترددت ، فليس أصعب من تحقيق كتاب مخطوطته وحيدة ، ونصه ملئ بالأخطاء ، والناقلون عنه قلة لا يذكرون ، أو إن شئت الدقة لا يوجدون ، وأخيراً صحّ العزم منى ، لأن التقدّم خطوة

إلى الإمام ، خير من الإحجام والوقوف به حيث كان ، وقد أفدت من جهود المستشرقين قبلي ، وهي كبيرة وجليلة ، وعلى الأخص ما قام به الإسباني الأستاذ إميليو غرسية غومث ، وما قام به الفرنسي ليفي بروفنسال .

لكن « طوق الحمامة » ليس نصًا يقوّم ، ولا هوامش تحرّر ، ولا أعلاماً يعرف بها فحسب ، وإنما هو قبل ذلك خلق أدبي عميق ، وثقافة علمية أصيلة ، وهو في كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عدداً من القضايا الهامة والخطيرة .

حين وقف دوزى على قصة الحب الرقيقة لابن حزم ، استكثرها على العرب ، وعلى المسلمين ، برغم أن الرجل علماني لا يحب الكنيسة ولا يتعاطف مع رجال الدين ، وقال إن هذا الغزل العف ، لا تعرفه الأخلاق العربية ، ولا الديانة الإسلامية ، وأنه تحدّر إلى ابن حزم إرثاً من أجداده الأول المسيحيين .

وتصدى له ميجيل أسين بلاثيوس ، في دراسته عن ابن حزم ، فنّد آراءه ، ووضع كل شئ في مكانه الصحيح ، بقدر ما تتيح الكنيسة لرجالها من حرية في الرأى والتفكير ، فقد كان بلاثيوس راهباً ، لا ينشر شيئاً قبل أن يمرّ على الرقيب الكنسي .

وعندما نقرأ كتاب « الحب المحمود » لكاهن بلدة هيتا الإسباني ، نحسّ بأن الرجل قرأ ابن حزم ، وأفاد منه ، وسار على

خطوه ، برغم أنه جاء بعده إلى الحياة ، فى الجانب المسيحى ، بفترة من الزمن تبلغ حوالى ثلاثة قرون .

وقد استوقف نظر غرسية غومث الشبه بين أفكار « باب السفير » ، وبين رواية فرناندو دى روخاس (١٤٥٣ – ١٥٤١ م) ، ويمكن ترجمة عنوانها : « بالقوّادة La Celestina » ، دون أن يذهب إلى أبعد من هذه الإشارة .

وطوّف كتاب « الطوق » ، شرّق وغرّب على نحو لم يعرفه غير قليل من كتب التراث العربى ، ونقل إلى بعض اللغات فى أكثر من ترجمة ، وكان حريًا بنا أن نقف عند هذه التراجم كلها .

والكتاب سيرة ذاتية ، أو هو قريب منها ، للجانب العاطفى من حياة ابن حزم ، وهادٍ إلى الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ، ممن شغلوا مناصب رفيعة ، فى الإدارة والقضاء والجيش على أيامه . وإذا كان الكتاب مصدراً هاما لهذا الجانب من حياة فقيه قرطبة العظيم ، فإن تتبّع خطاه فى رحلة الحياة أمر ضرورى لإلقاء بعض الضوء على فصول الكتاب ، وإنارة أحداثه و وتفسير ما وراء جمله ومعانيه .

وكان لعدد من علماء الأجانب ، مستشرقين ومفكرين لا يعرفون من العربية حرفا ، رأى فى الكتاب . لقد قدّم الفيلسوف الإسبانى العالمى أورتيجا إى جاسيت للترجمة الإسبانية ، وقال رأيه فى فكر ابن حزم ، وأبدى آخرون آراءهم فى لغات أخرى ومهمّ أن يعرف

القارئ العربى كيف يرى غيرنا هذا العالم الجليل ، ومن هنا كانت ترجمة هذه الفصول ، أو بعضها ، ضرورة لا مناص منها .

كل ذلك وأكثر منه دار بخاطرى ، وأخذت له أهبتى ، وحررت منه فصولاً كثيرة ، تتصل بعدد من هذه القضايا ، ثم وجدتها تتجاوز حجم الكتاب ، فلم أشأ أن أجعلها مقدمة له ، وآثرت أن أجمعها فى دراسة مستقلة ، وإن ربطتها بالنص نفسه أقوى الوشائج ، فلا يقرأ أحدهما بمعزل عن الآخر وصدرت بعنوان : « دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة » .

لقد قوّمت الفقرات المضطربة ، وصوّبت الأسماء المحرفة ، وعرّفت بالأعلام ما كان ممكنا ، صنعت ذلك ما أعانتنى عليه كتب التاريخ والمصادر الأخرى ، وأبقيت الجمل الغامضة على ما هى عليه ، خشية أن يكون تقويمى لها ، إهدارا لفكرة أرادها المؤلف ، أو عدوانا على غاية ارتضاها ، أو انحرافا بما خفى من رأيه ، أو انعطافا نحو جـــانب ما فكّر فيه ، ولو بعث اليوم حيًا لأنكره غاضبا .

كان « طوق الحمامة » أروع كتابٍ دَرَسَ الحب فى العصر الوسيط ، فى الشرق والغرب ، فى العالمين الإسلامى والمسيحى ، تتبع أطواره ، وحلّل عناصره ، وجمع بين الفكرة المفلسفة والواقع التاريخى ، وواجه أدق قضاياه فى وضوح وصراحة ، كان ابن حزم

الدارس الواقعى فى كل خطاه ، أفكاره محلّقة ، وقدماه على الأرض ، ويصدر فى نظرته عن تجربة عميقة ، ذات أبعاد إنسانية واسعة ، وعن إدراك ذكيّ لطبائع البشر وسير الحياة ، فجاءت نتائجه صادقة ، لمّا تفقد بريقها ولا توهّجها ، وإنها لتقف الآن فى مستوى أرقى الدراسات عن الجنس والحب .

وأشهد أننى وقفت أكثر من مرة أمام بعض الحقائق ، وبعض الفقرات ، كان فيها ابن حزم ، كعادته ، جريئا صريحا ، مرتفع الصوت ، لا يُكنى ولا يُلمح ولا يشير ، وإنما يعالج قضاياه مفكراً دارسا ، لا يتأثم ولا يتردد ، وهممت أن أدع هذه الفقرات ومع شئ من الفكر والتأمل ، رأيت ذلك جرما ، لا فى حق النص فحسب ، وإنما فى حق التراث العربى ، وفى حق أجيالنا الصاعدة فى أن تعرف كل شئ .

إن ما يرتضيه ابن حزم الأديب العالم ، والفقيه الظاهرى ، وما يقبله ذوق المسلمين فى قرطبة الزاهرة ، عاصمة الأندلس أيام الخلافة ، وما بعدها ، فى القرن العاشر الميلادى وما تلاه ، ليس تديّنا ولا ورعا ولا تطورا ولا محافظة أن ترفضه قاهرة القرن العشرين ، ورائدة النهضة فى العالمين العربى والإسلامى ، ومن هنا أبقيت النص على حاله كاملا .

ولما كانت الطبعة التى تقدمها دار الهلال تستهدف القارئ

المتذوق عن كل طبقات المجتمع ، والحديث عن الحب لذيذ وممتع وشائق ، للفتى والفتاة ، ولمن امتدت به السنون من الرجال والنساء ، فقد تخففت من كثير من هوامش الكتاب التي تعنى الباحثين وحدهم ، وبوسعهم أن يعودوا إليها فى طبعات دار المعارف ، ولكن طبعة الهلال تتميز عن هذه بكثير من التصويبات التى اهتديت إليها خلال أعوام مضت ، وعبر قراءات واسعة ، فجعلت النص أكثر وضوحا وأقرب إلى الكمال .

وبعد ..

فالكتاب بين يدى القارئ ، ولست أقول إننى بلغت به كل ما أريد ، ولكنى أزعم أننى تقدمت به على طريق الصواب خطوات .

ولعل فى قادم الأيام ما يعيننا على أن نبلغ به حد الكمال . والله ولى التوفيق .

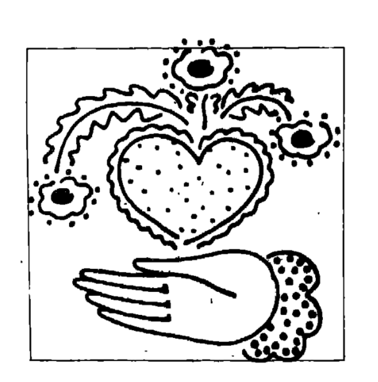
رمضان ١٤١٢ هـ

مــارس ١٩٩٢

د . الطاهر أحمد مكى

طَوْقُ الحَمَامَةِ

فى الإِلْفَةِ والأُلاَّف





وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه :

أفضلُ ما أبتدئ به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبده ورسوله خاصة ، وعلى جميع أنبيائه عامة .

وبعد ..

عصمنا الله وإياك من الحيرة ، ولا حملنا مالا طاقة لنا به ، وقيض لنا من جميل عونه دليلا هادئاً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدبا صارفا عن معاصيه ، ولا وكّلنا إلى ضعف عزائمنا ، وخَوَر قوانا ، ووهاء بنيتنا ، وتلدد آرئنا ، وسوء اختيارنا ، وقلة تمييزنا ، وفساد أهوائنا .

فإن كتـابك وردني من مدينة المرية [1] إلى مسكني بحضرة

(١) المرية Almeria: ثغر هام على شاطئ البحرالأبيض المتوسط ، أمر ببنائها عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ = ٩٥٥ م ، وعظمت في دولة المنصور بن أبي عامر ، وكانت إحدى القواعد البحرية الهامة للأسطول الإسلامي ، وميناء هام للاستيراد والتصدير ، تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ، ولا تزال قلعتها العربية قائمة ، وازدهرت في الأعوام الأخيرة بفضل السياحة ، ويربطها بمدينة مليلة على الشاطئ المغربي خط بحري منتظم .

شاطبة [1] ، تذكر من حسن حالك ما يسرّني ، وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك .

ثم لم ألبث أن اطّلع على شخصك ، وقصدتني بنفسك ، على بعد الشُّقة ، وتنائي الديار ، وشَحط المزار ، وطول المسافة ، وغَول الطريق ، وفي دون هذا ما سلّى المشتاق ، ونسّى الذاكر ، إلاّ من تمسك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة ، ووكيد المودّات ، وحق النشأة ، ومحبة الصبى ، وكانت مودته لله تعالى .

ولقد أثبت الله بيننا من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون ، وكانت معانيك في كتابك زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إليّ بإقبالك غرضك ، وأطلعتني على مذهبك ، سجيّة لم تزل علينا من مشاركتك لي في حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ، يحدوك الودّ الصحيح الذي أنا لك على أضعافه ، لا أبتغي جزاء غير مقابلته بمثله .

وفي ذلك أقول مخاطبا لعبيد الله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن

---

(١) شاطبة Jativa : مدينة عتيقة ، وكانت تسمى قديماً Saetabis، وهي من أعمال محافظة بلنسية ، واشتهرت في العصر الإسلامي بصناعة الورق ، وتنسب إليها ، ولا تزال حتى اليوم مركزاً هاماً لصناعته ، وإليها ينسب أيضا أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافري الشاطبي ، وعاش في القرن السابع الهجري ، الثالث عشر الميلادي ، وجاء مصر ، واتخذ من الاسكندرية سكناً ، وتوفي بها ، وإليه ينسب حي الشاطبي في المدينة الآن .

أمير المؤمنين الناصر (١) رحمه الله ، فى كلمة لى طويلة ، وكان لى صديقا :

أودُّك وُدّاً ليس فيــه غضاضةٌ
وبعضُ مودَّات الرجال سَرابُ

وأمْحضتُك النصحَ الصريحَ وفى الحشى
لوُدّك نقــشٌ ظاهرٌ وكتاب

فلو كان فى رُوحى هواكَ اقتلعْتُه
ومُزّق بالكفين عنه إهابُ

وما لى غيرُ الـودّ منك إرادةٌ
ولا فى سواه لى إليك خطاب

إذا حُزْتُهُ فالأرضُ جمعاءُ والورى
هباءٌ وسكانُ البلاد ذُباب

وكلفتنى - أعزك الله - أن أصنف لك رسالة فى صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزايداً ولا مفننا ، لكن مُورداً لما يحضرنى على وجهه ، وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسعة باعى فيما أذكره ، فبدرت إلى

(١) عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء بنى أمية بالمغرب سلطاناً ، وأطولهم فى الخلافة مدة وزماناً ، وحكم من ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م إلى ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م .

مرغوبك ، ولولا الإيجاب لك لما تكلفته ، فهذا من اللغو ، والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلاّ فيما نرجو به رَحْب المنقلب ، وحسن المآب غدا وإنْ كان القاضى حُمام بن أحمد [1] حدّثنى عن يحيى بن مالك ، عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أجِمُّوا النفوس بشئ من الباطل ليكون عونا لها على الحق ومن بعض أقوال الصالحين من السلف المرضى : « من لم يحسِن يتفتّى لم يحسن يتقرى » وفى بعض الأثر : « أريحوا النفوسَ فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد » .

والذى كلفتنى لابد من فيه من ذكر ما شاهدتُه حضرتى ، وأدركتْه عنايتى ، وحدّثنى به الثقات من أهل زمانى ، فاغتفرْ لى الكناية عن الأسماء ، فهى إمّا عورة لا نستجيز كشفها ، وإمّا نحـافظ فى ذلك صديقاً ودودا ورجلا جليلا وبحسبى أن أسمىّ من لا ضرر فى تسميته ، ولا يَلحقنا والمسمّى عيب فى ذكره ، إمّا لاشتهار لا يُغنى عنه الطى وترك التبيين ؛ وإما لرضا المُخَبرُ عنه بظهور خبره ، وقلة إنكار منه لنقله .

وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنتَ ومن رآها علىّ أنى سالك فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه ،

(۱) كان واحد عصره فى البلاغة ، وفى سعة الرواية ، حسن الشعر ، تولّى قضاء يابرة وشنترين والأشبونة ، وسائر الغرب ، وأثنى عليه ابن حزم كثيراً ، توفى ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م .

فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإن إخوانى يجشموننى القولَ فيما يعرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم . وكفانى أنى ذاكر لك ما عَرض لي مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبه إليّ .

والتزمت فى كتابى هذا الوقوفَ عند حدك ، والاقتصار على ما رأيت أو صح عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدّمين ، فسبيلُهم غير سبيلنا ، وقد كثرت الأخبار عنهم ، وما مذهبى أن أنضى مطية سواى ، ولا أتحلى بحلى مستعار ، والله المستغفر والمستعان ، لا رب غيره .

★★★

وقسمت رسالتى هذه على ثلاثين بابا ، منها فى أصول الحب عشرة . فأولها باب (فى ماهية الحب) ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة أثنا عشر بابا ، وإن كان الحب عرضا والعرض لا يحتمل الأعراض ، وصفة

والصفةُ لا توصف ، فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضا أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها علمُنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ؛ إذ لا تقع فيها الكمية ولا التجزّى ، لأنها لا تشغل مكانا ، وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها ما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البَيْن ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بأبان لكل واحد منهما ضدٌّ من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما : باب العاذل وضده باب الصديق المساعد ، باب الهجر وضده باب الوصل .

ومنها أربعة أبواب لا ضد لها من معانى الحب ، وهى : باب الرقيب وباب الواشى ، ولا ضد لهما إلاّ ارتفاعهما ، وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإنْ كان المتكلّمون قد اختلفوا فى ذلك ، ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار ، وليس التصاقب من معانى الحب التى نتكلم فيها ، وباب السلو وضده الحب بعينه ، إذ معنى السلو ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف ، ليكون خاتمة إراد نا وآخر كلامنا ، الحضُّ على طاعة اللّه عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن .

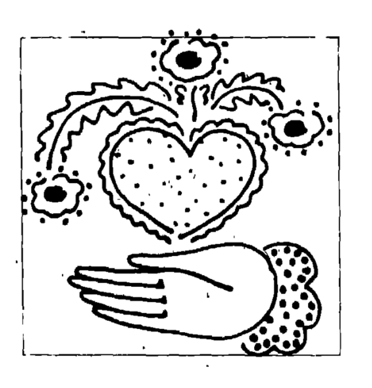
لكنّا خالفنا فى نسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة فى دَرج هذا الباب ، الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها ، واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ؛ ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده ، فاختلف المساق فى أبواب يسيرة ، واللّه المستعان .

وهيأتها فى الإيراد أولها هذا الباب الذى نحن فيه ، وفيه صدر الرسالة ، وتقسيم الأبواب ، والكلام فى ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب فى النوم ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلاّ مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طىّ السر ، ثم باب

إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفّف .

١

الكلام فى ماهية الحب



الحب - أعزك الله - أوله هزل وآخره جد . دقّت معانيه لجلالتها عن أن توصف ، فلا تدرك حقيقتها إلاّ بالمعاناة ، وليس بمنكَر فى الديانة ، ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل ، وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ؛ منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن ابن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، محمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه ، وعن جميعهم ، وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها [1] ، ومثل هذا كثير ، ولولا أن حقوقهم

---

(١) يشير ابن حزم فى هذه الفقرة إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائه .

على المسلمين واجبة – وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنمّا هو شئ كانوا ينفردون به في قصورهم مع عيالهم فلا ينبغي الإخبار به عنهم – لأوردتُ من أخبارهم في هذا الشأن غير قليل .

وأمّا كِبار رجالهم ، ودعائم دولتهم ، فأكثر من أن يُحصَوْا ، وأحداثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفّر ، عبد الملك بن أبي عامر بواجد ، بنت رجل من الجنانين حتى حملهُ حبّها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامريين الوزيرُ عبد الله بن مسلمة ، ثم تزوّجها بعد قَتْله رجلٌ من رؤساء البربر [1] .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن ميمون القرشي الحسيني أخبرني : أنّ نزار بن معد صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن

---

(١) هذه الفقرة جاءت مضطربة تماما في الخطوط وفي كل الطبعات العربية ، فقد وردت على النحو التالي : « ... من كلف المظفر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحد ، بنت رجل من الجبائين ، حتى حمله حبها أن يتزوجها ، وهي التي خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة ... » وقد صححتها على النحو الذي أوردناه . لأن كلمة « المظفر » لقب لعبد الملك بن أبي عامر وليست اسما لابن له ، وكانت حبيبته بنتاً لجنّان ، أي بستاني ، وليس لجباء ، والذي خلف عليها هو الوزير عبد الله بن مسلمة بعد فناء دولة المنصور بن أبي عامر وأولاده ، فليس للوزير عبد الله ولد اسمه عامر ، واسم الجارية واجد وليس « واحد » .
والمظفر خلف أباه المنصور ، بعد موته ، وكان مثله حاجبا بالاسم ، وحاكما بالفعل ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م .

نزار ، الذى ولى الملك بعده وادّعى الإلاهية ، إلا بعد مدّة من مولده ، مساعدة لجارية كان يُحبها حباً شديدا ، ولم يكن له ذكر ، ولا من يرث ملكه ويحيى ذكره سواه [١] .

ومن الصالحين والفقهاء فى الدهور الماضية ، والأزمان القديمة ، من قد استُغْنى بأشعارهم عن ذكرهم : وقد ورد من خبر عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود وشعره ما فيه الكفاية ، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة [٢] ، وقد جاء من فتيا ابن عبّاس رضى الله عنه مالا يُحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لا عَقل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ما حكاه محمد بن داود رحمه الله عن

---

(١) نزار بن معد ، خليفة مصر الفاطمى ، الملقب بالعزيز ، وحكم من ٩٧٦ إلى ٩٩٦ م ، وأما المنصور ابنه ، فهو ثالث الخلفاء الفاطميين فى مصر ودخل التاريخ تحت اسم الحاكم بأمر الله ، وحكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢١ .

(٢) فقهاء المدينة السبعة : أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ، وعروة بن الزبير بن العوام ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن ياسر ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، وعبيد الله ابن عتبة بن مسعود الوارد فى النص .

بعض أهل الفلسفة : الأرواح أكرٌ مقسومة لكنْ على سبيل مناسبة قواها فى مقّر عالمها العلوى ، ومجاورتها فى هيئة تركيبها [1] .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمِثْل إلى مثْله ساكن ، والمجانسة عمل محسوس ، وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد ، والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تشابه موجود فيما بيننا ، فكيف بالنفس وعالَمها العالم الصافى الخفيف ، وجوهرها الجوهر الصعَّاد المعتدل ، وسنْخها المهيأ لقبول الاتفاق والميل والتوق والانحراف والشهوة والنفار ، كل ذلك معلوم بالفطرة فى أحوال تصرف الإنسان فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : « هُوَ الذى خَلَقكم من نَفْسٍ وَاحدة وجعل منها زوجَها ليَسكُن إليها » [2] فجعل علة السكون أنّها منه .

---

(١) أبو بكر محمد بن داود الظاهرى ، ابن مؤسس المذهب الظاهرى ، ولد عام ٢٥٥ هـ = ٨٦٨ م ، وتوفى ٢٩٧ هـ ٩١٠ م ، ألّف كتاب « الزهرة » ، وقد نشر لويس نيكل وإبراهيم طوقان نصفه عن مخطوطة وحيدة فى دار الكتب المصرية ، عام ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م ، والفقرة الواردة هنا اقتبسها ابن حزم من كتاب الزهرة ص ١٥ ، ونصها هناك :

« وزعم بعض المتفلسفين أن الله جل ثناؤه خلق كل روح مدوّرة الشكل ، على هيئة الكرة ، ثم قطعها أيضا ، فجعل فى كل جسد نصفا ، وكل جسد لقى الجسد الذى فيه النصف الذى قطع من النصف الذى معه ، كان بينهما عشق للمناسبة القديمة ، وتتفاوت أحوال الناس فى ذلك على حسب رقة طبائعهم » .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٨٩ .

ولو كان علّةُ الحب الصورة الجسدية لوجب ألاّ يُستحسن الأ نقْص من الصورة ، ونحن نجد كثيرا ممن يُوثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ، ولا يجد محيدا لقلبه عنه ، ولو كانَ للموافقة فى الأخلاق لَمَا أحبّ المرء من لا يساعده ولا يوافقه . فعلمنا أنه شئ فى ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها ، فَمَنْ وَدَّكَ لأمر ولّى مع انقضائه .

وفى ذلك أقول :

ودادى لكَ الباقى على حَسْب كونْه
تنـاهَى فلم يَنْقُص بشىء ولم يَـزدْ

وليسـتْ لـه غيـر الإرادة علّـة
ولا سـبَبٌ حاشاهُ يعلمـه أحَـد

إذا ما وجـدْنا الشىءَ علَّة نفسه
فذاك وجودٌ ليس يفنى على الأبد

وإمّا وجـدناه لشىء خـلافَـهُ
فإعـدامُـه فى عـدمنا ماله وجدْ

وممّا يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلها محبة المتحابّين فى الله عز وجل ، إمّا لاجتهاد فى العمل ، وإمّا لاتفاق فى أصل النّحلة والمذهب ، وإمّا لفضل علْم يمنحه الإنسان . ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة

التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللّذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من إتصال النفوس .

وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، زائدة بزيادتها ، وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها ، حاشى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس ، فهى التى لا فناء لها إلا بالموت .

وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه ، وذا السّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب ، واهتاج له الحنين ، ولا يعرض فى شئ من هذه الأجناس المذكورة ، من شَغل البال والخبل والوسواس ، وتبدّل الغرائز المركبة ، واستحالة السجايا المطبوعة ، والنُّحول والزفير ، وسائر دلائل الشجا ما يعرض فى العشق ، فصح بذاك أنه استحسان رُوحانى وامتزاج نَفسانى .

فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك لكانت المحبة بينهما مستوية، إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال وحظهما واحد . فالجواب عن ذلك أنْ نقول : هذه لعمرى معارضة صحيحة ، ولكن نفس الذى لايحبُ مَنْ يحبُه مكتنفة الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تحس بالجزء الذى كان

متصلا بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها ، كالمغنطيس والحديد ، فقوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكّمها ، ولا من تصفيتها ، أنْ تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أنّ قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابس ، تطلب ما يشبهها ، وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك لم ينجذب ، إذ لم يبلغ مِن قوته أيضا مغالبة المُمسك له ممّا هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض ، واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظم جرم المغناطيس ، ووازت قواه جميع قوى الحديد ، عادت إلى طبعها المعهود .

وكالنار فى الحجر ، لا تبرز على قوة النار فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلاّ بعد القدح ، ومجاورة الجرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابّان

إلاّ وبينهما مشاكلة ، واتفاق الصفات الطبيعية ، لابد من هذا وإن قلّ ، وكلّما كثرت الأشباه زادت المجانسة ، وتأكّدت المودة ، فانظر هـــذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليـه وسلم يؤكده : « الأرواحُ جنودٌ مُجنَّدة ما تعَارفَ منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلف » ، وقول مرويّ عن أحــد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا ما اغتم إبقراط حين وُصِفَ له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه [١] .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولّى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برئ فمالك وله ؟ فقال الملك : لعمرى مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها . فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميّزت هذا الطبع فىّ ، فما هو إلاّ أنْ حركت هذه الموافقة ،

---

(١) إبقراط Hippocrate (٤٦٠ – ٣٧٧ ق م) ، طبيب إغريقى ، من أشهر أطباء العصر القديم ، ويدعى أبا الطب ، ولم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى إبقراط .

وقابلت نفسه بهـذا الطبع الذى بنفسى ، فأمر بإطلاقى وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له (١) .

وأما العلّة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة ، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شئ حسن ، وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميّزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحّت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة . وإن للصور لتوصيلا عجيباً بين أجزاء النفوس النائية (٢)

وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعْيه غنما للابن خاله ، مهراً لابنته شارطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بهيم ليعقوب ، وكل أغرّ للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفاً ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى ترده الغنم ، ويتعمّد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بهْماً ونصفاً غُرّاً (٣) .

---

(١) أيضاً لم يهتد أحد من الباحثين إلى مصدر هذه الفقرة التى أوردها ابن حزم منسوبة إلى أفلاطون .

(٢) تتردد هذه الفكرة كثيراً فى الشعر الإيطالى ، على امتداد القرن الثالث عشر الميلادى ، وأثارت انتباه النقاد لكن أحداً لم يدرسها فى إطار مقارن مع فكرة ابن حزم .

(٣) التوراة ، سفر التكوين ، الإصحاح الثلاثون ، والقصة فى التوراة طويلة ذات تفاصيل ، ولكنها تتفق فى خطوطها الرئيسية مع ما أورده ابن حزم ولابان خال يعقوب النبى ، وقد زوجه ابنته ، وهو اسم عبرى معناه الأبيض .

وذُكر عن بعض القافة أنه أُتي بابن أسود لأبيضيْن ، فنظر إلى أعلامه فرآه لهما غير شك ، فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه . فأُدخل البيت الذى كان فيه مَضْجعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورةَ أسود فى الحائط فقال لأبيه : من قِبل هذه الصورة أُتيتَ فى ابنك .

وكثيرا ما يصرف شعراء « أهل الكلام » هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون المرئىّ فى الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهـــو المستفيض فى شعر النّظام إبراهيم بن سيّار (١) وغيره من المتكلمين .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علّةُ النّصرِ فى الأعداء تعرفها
وعلّةُ الفـــر منهم إنْ يَفـــرّونا

إلاّ نِزاعُ نفــوسِ النــاسِ قاطبةً
إليك يالؤلؤاً فى النــاس مكنــونا

مَن كنتَ قُدامــــه لا ينثنى أبداً
فهم إلى نورك الصعّاد يَعشـونا

---

(١) النظام ، إبراهيم بن سيار ، توفى حوالى سنة ٨٤٥ م ، كان رأس المعتزلة فى البصرة ، وأستاذ الجاحظ ، وحاول أن يقاوم الميول الثنوية الفارسية فى الإسلام ، وأعلن أن الشك هو أول وأهم ما تتطلبه المعرفة ، وتشبه نظريته هذه فى أساسها نظرية الفيلسوف الإغريقى Anaxajoras ، وعاش بين ٥٠٠ و٤٢٨ قبل الميلاد .

ومن تكن خلْقَه فالنفسُ تَصرفُهُ

إليك طوعاً فهم دأباً يكُرُّونا

ومن ذلك أقول :

أمِن عالم الأملاك أنت أم انسيٌّ

أبنْ لى فقد أزْرَى بتمييزىَ العيٌّ

أرى هيئة إنسيةً غير أنه

إذا أعمل التفكيرُ فالجرْم علْوىّ

تبارك مَن سوّى مذاهب خلْقه

على أنك النورُ الأنيقُ الطبيعىّ

ولا شكَّ عندى أنك الروحُ ساقه

إلينا مثالٌ فى النفوس اتّصالىّ

عدمنا دليلاً فى حدوثك شاهداً

نَقيس عليه غيرَ أنك مَرْئىّ

ولولا وقوعُ العين فى الكون لم نقل

سوى أنك العقلُ الرفيعُ الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمّى قصيدة لى « الإدراك المتوهم » منها :

ترى كلَّ ضدٍّ به قائماً

فكيف تحُدُّ اختلاف المعانى

فيــأيُّها الجسـمُ لا ذا جهاتٍ

ويا عَرضـاً ثابتـاً غيـرَ فان

نَقضْتَ علينـا وجُوهَ الـكلام

فما هـو مُذ لُحتَ بالمسـتبان

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ، ولا علة ويستثقل بعضهما بعضا بلا سبب .

والحب - أعزّك اللّه - داء عياء ، وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقام مستلذ ، وعلة مشتهاة ، لا يودّ سليمها البرءَ ، ولا يتمنى عليلهـا الإفـاقة . يزُيّن للمرء ما كان يأنف منه ، ويسـهل عليه ما كان يصعبُ عنده ، حتى يحيل الطبائع المركبة ، والجبلّة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصا فى بابه إن شاء اللّه .

★ خبر :

ولقد علمت فتى من بعض معارفى قد وحلَ فى الحب ، وتورّط فى حبائله ، وأضرّ به الوجدُ ، وأنضحه الدنف ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى اللّه عز وجل فى كشف ما به ، ولا ينطق به لسان ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكّن ممن يحب ، على عظيم بلائه وطويل همّه ، فما الظن بسقيم ولا يريد فَقْدَ سقمه ، ولقد جالسته يوماً فرأيت من إكبـابه ، وسـوء حاله وإطراقـه ما ساءنى ، فقلت له فى بعض قولى : فرّج اللّه عنك ، فلقد رأيت أثر الكراهية فى وجهه .

وفى مثله أقـول من كلمة طويلة :

وأسـتلذُّ بـلائى فيـكَ يا أمـلى
ولستُ عنك مدى الأيّام أنصرفُ
إن قيـل لى أتسـلىٌ عن مـودّته
فمـا جـوابىَ إلا اللامُ والألف

★ **خبـر :**

وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشى ، المعروف بالشمبانسى [(١)] ، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية [(٢)] ، أنه لم يحب أحداً قط ، ولا أسف على إِلْف بان منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والألفة إلى حدّ الحب والعشق منذ خُلق .



(١) ترجم له الضبى فى كتابه : « بغية الملتمس » ، رقم ١٢٩٦ ، وقال إنه شاعر أديب ، وكان لابن حزم صلة به ، وورد فى كل طبعات الطوق العربية « المعروف بالشلشى » وهو خطأ ، وقد صححناه عن « البغية » .

(٢) الأمير الأموى ، هشام الأول ، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن الداخل .

٢

باب علامات الحب

وللحب علامات يقفوها الفطن ، ويهتدى إليها الذكى .

فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارع ، وهى المنقبة عن سرائرها ، والمعَبِّرة لضمائرها ، والمعربة عن بواطنها ، فترى الناظر لا يطرف ، يتنقل بتنقل المحبوب ، وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

فـليس لعينى عنــدَ غيرِك موقف

كأنّك ما يحـكون من حجـر البَهْتِ

أُصرِّفـها حيث انصرفتَ وكيفمـا

تقلّبتُ كالمنعوت في النّحو والنّعتِ

ومنها الإقبال بالحديث ، فما يكاد يقبل على سوى محبوبه ولو تعمد ذلك ، وإن التكلُّف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدَّث ، واستغراب كل ما يأتى به ولو أنّه عين المحال وخرق

العادات ، وتصديقه وإنْ كذب ، وموافقتُه وإنْ ظلم ، والشهادة له وإنْ جار ، واتباعه كيف سلك ، وأى وجه من وجوه القول تناول .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنوّ منه ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال عنه ، [والزهد فيها ، والرغبة عنها] ، والاستهانة بكل خطب جليل داع إلى مفارقته ، والتباطؤ فى المشى عند القيام عنه .

وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنــكِ لم أمشِ إلاّ مَشْىَ عانٍ يُقادُ نحوَ الفنــاءِ

فى مجيئ إليـك أحتثُّ كالبـد ر إذا كان قاطعــا للسـماءِ

وقِيامى إنْ قمتُ كالأنجمِ العا ليــةِ الثابتــات فى الإبطــاءِ

ومنها بَهت يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة ، وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه ، أو عند سماع اسمه فجأة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا ما رأتْ عينــاى لابسَ حُمرةٍ تقطّع قــلبى حســرةً وتفطّرا

غَـدا لدماءِ الناس باللحظ سافكاً وُضرّجَ منهــا ثوبُهُ فتَعفّــرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً

به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعىّ فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويُرغّب فى نفسه فكم بخيل جاد ، وقُطوب تطلّق ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرّب ، وجاهل تأدّب ، وتَفِل [1] تزين ، وفقير تجمّل ، وذى سن تفتّى ، وناسك تفتّك ، ومصون تبذّل .

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجّج حريقه ، وتوقّد شعله ، واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سرارا ، والإعراض عن كل ما حضر إلا عن المحبوب جهارا .

ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهْوى الحديثَ إذا ما كانُ يُذكرُ لى
فيــه ويعبُــق لى عـن عنبرٍ أرج

إنْ قـال لم أستمع ممن يُجالسنى
إلى سوى لفظه المستطرفِ الغُنُجِ

ولو يكــونُ أميــرُ المؤمنــين معى
ما كنتُ من أجـله عنـه بمُنعــرج

---

(١) أرجح أن تكــون « وتفر » ، وربمـا كان ذلك أقرب إلى الصــواب ، لأن « تفل » معناها : المتغير الريح ، أما « تفر» فمعناها : اتسخ ، والتافر الرجل الوسخ .

فــإنْ أقـمْ عنــه مضــطرًا فإنّى لا

أزالُ مُلتفتـــا والمشْىُ مشىُ وَجِى

عينـاى فيــه وجســمى عنــه مـرتحلٌ

مثـلُ ارتقاب الغريق البرَّ فى اللجَجِ

أغَصُّ بالمــــاء إنْ أذكُر تبــاعُدهُ

كـمنْ تثاءب وســـط النقْع والوَهَج

وإنْ تقُلْ : مُمكنٌ قصدُ السماء أقُلْ :

نعَـــم وإنّى لأدرِى مَوْضـــع الدَّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساط الكثير الزائد ، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشئ يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمُّد لمس اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة ، وشربُ فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، ، وتحرّى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة ، والأسباب المحرّكة ، والخواطر المهيّجة ، والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادّها ، ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها ، تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام ، فهذا الثلج إذا أدمن حبسه فى اليد فعل فعْل النار ، ونجد الفرح

إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذا كثر واشتد أسال الدمع من العينين ، وهذا فى العالم كثير .

فنجد المحبيْن إذا تكافيا فى المحبة ، وتأكدت بينهما تأكّدا شديداً ، أكثر بهما جدُّهما بغير معنى ، وتضادُّهما فى القول تعمدا ، وخروجُ بعضهما على بعض في كل يسير من الأمور ، وتتبع كل منهما لفظة تقع من صاحبه ، وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليْبدو ما يعتقده كلّ واحد منهما فى صاحبه .

والفرقُ بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولّدة عن الشحناء ومخارجة التشاجر سرعةُ الرضى : فإنك بينما ترى المحبيّن قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدّر ، يصلُح عند الساكن النفس ، السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ، ولا ينجبر عند الحقـود أبدا ، فلا تلبث أن تراهما قد عادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرتْ المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مراراً ، وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يخالجك شك ، ولا يدخلنك ريب ألبتّة ، ولا تتمارَ فى أن بينهما سراً من الحب دفينا ، واقْطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف ، ودونكها تجربة صحيحة ، وخبرة صادقة ، هذا لا يكون إلا عن تكافٍ فى المودّة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيرا .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره ، ويجعلها هِجِّيراه ، ولا يرتاح لشئ ارتياحه لها ، ولا ينهنه عن ذلك تخوّف أنْ يَفطن السامع ، ويفهم الحاضر ، وحبك الشئ يُعمى ويُصم . فلو أمكن ألا يكون حديث فى مكان يكون فيه إلا ذِكر من يحبه لما تعدّاه .

ويعرض للصادق المودة أن يبتدئ فى الطعام ، وهو له مُشته ، فما هو إلا وقت ما تهتاج له مِن ذكرْ من يحبّ ، صار الطعامُ غصّةً فى الحلق ، وشجى فى المرئ ، وهكذا فى الماء وفى الحديث ، فإنه يفاتحه مبتهجا . فتعرض له خطرة من خطرات الفكر فيمن يحب ، فتستبين الحوالة فى المنطقة ، والتقصير فى حديثه ، وآية ذلك الوُجومُ والإطراق ، وشدة الانغلاق ؛ فبينما هو طلْق الوجه ، خفيفُ الحركات ، صار مُنطبقاً متثاقلا ، حائر النفس ، جامد الحركة ، يبرم من الكلمة ، ويضجر من السؤال .

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأنس بالانفراد، ونحولُ الجسم دون حد يكون فيه ، ولا وجع مانع من التقلّب والحركة والمشى ، دليلٌ لا يكذب ومُخبر لا يخون ، عن كلمة فى النفس كامنة .

والسهر من أعراض المحبين ، وقد أكثر الشعراء فى وصفه ، وحكوا أنهم رعُاة الكواكب ، وواصفو طول الليل ، وفى ذلك أقول ، وأذكر كتمان السر ، وأنه يُتوسّم بالعلامات :

تَعلَّمتِ السحائبُ من شئونى
فعمَّت بالحيا السُّكُب الهتُونِ
وهذا الليلُ فيكَ غَدا رفيقى
بذلك أمْ على سهرى مُعينى
فإن لم ينقُضِ الإظلام .. (١)
ألاَ ما أطقتْ نومـا جُفونى
فليس إلى النهارِ لنا سبيلُ
وسُهْدٌ زائد فى كلِّ حين
كأنَّ نجومَه والغيمُ يُخفى
سناها عن مُلاحظةِ العُيون
ضميرى فى ودادك يا مُنايا
فليس يبين إلاَّ بالظُّنون

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النُّجوم كأنَّنى أنْ
أرْعى جميع ثُبوتها والخُنَّسِ
فكأنَّها والليلَ نيرانُ الجوى
قد أضرِمتْ فى فكْرتى من حِنْدِسِ
وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ
خضراءَ وُشِّح نبْتها بالنَّرجس

(١) بياض بالأصل .

لو عاش بطليموسُ أيقن أننَّى

أقوى الورزى فى رصْد جْرى الكُنَّس

والشئ قد يَذكر لما يُوجيه : وقع لى فى هذه الأبيات تشبيه شيئين بشـيئين فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل » وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشـياء فى بيت واحد وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد ، وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردها ، وهى :

مَشُوقٌ مُعَنًّى ما ينَـام مُسـهّدٌ

بخمْر التـجنّى مـا يـزالُ يُعَرْبِدُ

ففى سـاعة يُبـدى إليـك عجَائباً

يَمرّ ويَسـتحلى ويُدنى ويُبعـد

كأنّ النوى والعْتبَ والهجْرَ والرّضى

قـرانٌ وأنـدادٌ ونحـسٌ وأسـعُدُ

رثَى لغـرامى بعـد طـول تمنّـع

وأصبحتُ محسوداً وقد كنتُ أحسُدُ

نَعمنـا على نَوْر من الروض زاهـر

سقته الغـوادى فهو يُثْنِى ويحمَدُ

كأنَّ الحيَا والمُزن والروض عـاطراً

دمـوعٌ وأجفـانٌ وخـدٌّ مُوَرّدُ

ولا ينكرن عليّ مُنكر قولي « قران » ، فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قراناً .

ولي أيضا ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في هذه القطعة ، وهي :

خلوتُ بهـا والـراحُ ثـالثةٌ لنـا

وجُنْحُ ظـلام الليـل قـد مـد وانبلجْ

فتـاةٌ عـدمتُ العيشَ إلاَّ بقربهـا

فهل في ابتغاءِ العيش ويْحك من حرجْ

كأنّي وهي والكأس والخمرَ والدُّجى

ثَرىً وحَياً والدُّرُّ والتبـرُ والسَّبَـج

فهذا أمرا لا مزيد فيه ، ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك .

ويعرض للمُحبين القلقُ عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاء مَن يحب فيعرضُ عند ذلك حائل .

★ خبر :

وإنّى لأعلم بعض من كان محبوبُه يعدُه الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائيا وذاهباً لا يقرّبه القرأر ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلا مدبرا قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة .

ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجياً
لقاءَك يا سُؤلى ويا غايةَ الأمل

فأيْأسنى الإظلامُ عنك ولم أكنْ
لأيأسَ يومً إن بدا الليلُ يتصل

وعندى دليلٌ ليس يكذبُ خُبْرُهُ
بأمثاله فى مُشْكل الأمر يُستدل

لأنك لو رُمْتَ الزيارةَ لم يكنْ
ظلامٌ ودام النُّورُ فينا ولم يزلْ

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا تُدرى حقيقته إلا بالوصف ، فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجلية ، فإمًّا أنْ يذهب تحمُّله إنْ رجا العفو ، وإمًّا أنْ يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوّفَ الهجر .

ويعرض للمُحب الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه ، وسيأتى مفسَّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد ، والحُمرة المقطّعة ، تغلب عندما يرى من إعراض محبوبه عنه ونفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلّة الحركة والتأوّه وتنفُّس الصُّعداء .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصبر مَسجون   ودمع العين مَسْفوح [1]

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته ، حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاءُ من علامات المحبّ ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع ، هامل الشئون ، تُجيبه عينه ، وتحضُره عبرته إذا شاء . ومنهم جَمود العين ، عديم الدّمع ، وأنا منهم .

وكان الأصل فى ذلك إدمانى أكل الكُندر [2] لخفقان القلب ، وكان عرض لى فى الصبا ، فإنى لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبى يتفطّر ويتقطع ، وأحس فى قلبى غُصة أمرَّ من العلقم تحول بينى وبين تَوْفية الكلام حقَّ مخارجه ، وتكاد تشوقنى النفس أحيانا ، ولا تجيب عينى ألبتة إلا فى الندرة بالشئ اليسير من الدمع .

---

(١) فى الأصل : « ودموع العين سارحة » ، وقد قومه الأستاذ حسن كامل الصيرفى وأخذت بتقويمه .

(٢) الكندر : ضرب من العلك كان يمضغ لقطع البلغم .

★ **خبـر :**

ولقد أذكرنى هذا الفصل : يوماً ودّعت أنا وأبو بكر محمد بن إسـحاق صـاحبى أبا عامر محمـد بن عامر [1] صديقنا ، رحمه الله ، فى سفرته إلى الشرق [2] التى لم نَرَه بعدها ، فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه ، ويُنشد متمثلاً بهذا البيت :

(١) كان صديقاً ودوداً لابن حزم ، ورافقه عندما ترك قرطبة بعد أن نهبها البربر ، وسنلتقى به أكثر من مرة عبر صفحات الكتاب ، وكان هو الذى وجه إليه ابن حزم رسالته عن فضل أهل الأندلس ، وحفظ لنا المقرى نصها كاملا فى كتابه نفح الطيب ، جـ ٤ ص ١٥٤ .

★ أما أبو عامر محمد بن عامر ، فثمة احتمال بأنه يعنى أبا عامر محمد ابن عبد الله بن يحيى بن أبى عامر ، وقد عرض له الضبى فى « البغية » دون تفصيل ، وخصه بالترجمة رقم ١٧١ ، وأشار إلى أن ابن حزم ذكره . أو أننا بصدد حفيد المنصور بن أبى عامر ، الابن الوحيد للحاجب العامرى الثانى ، المظفـر عبد الملك بن أبى عـامر ، وحـكم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، من زوجتـه « خيال » ، وقد خلفه عليها بعد موته القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين فى مالقة وقرطبة إبان عصر ملوك الطوائف ، فقامت على تربية أبى عامر « الذلفاء » : جدته لأبيه . وكانت سنه حين سقطت دولة العامريين سبعة أعوام ، فغادر قرطبة سرًا إلى سرقسطة ، وأقام فى كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبى ، وفيما بعد عاد إلى قرطبة عام ٤١٢ هـ = ١٠٢١ م ، وحاول أن يقيم لنفسه إمارة فى مقاطعتى جيان ومرسية ، وتسمى بالمعتصم ، وبعد اضطرابات كثيرة لاذ أخيراً بحصن فى مقاطعة الغرب Algarve ، جنوبى البرتغال الآن ، وهناك مات بالجدرى عام ٤٢١ هـ = ١٠٣٠ م .

(٢) فى الطبعات العربية « المشرق » ، وصحتها « الشرق » ، أى الأندلس ، وليس المشرق المقابل للمغرب فى مصطلح مؤرخى العصر الوسيط ، لأن أبا عامر هذا لم تعرف له أية رحلة إلى المشرق .

ألا إنَّ عينا لم تَجُد يومَ واسطٍ عليك بباقي دَمعها لجَمُودُ (١)

وهو في رثاء يزيد بن عمر بن هُبيرة (٢) رحمه الله ، ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة (٣) ، وجعلت أنا أكثر التفجع والأسف ولا تساعدني عيني ، فقلت مُجيباً لأبي بكر :

وإنَّ امرءاً لم يُفنِ حُسنَ اصطبارِه

عليك وقد فارقْتَه لجليدُ

وفي المذهب الذي عليه الناس أقول من قصيدة قلتها قبل بلوغ الحُلم ، أولها :

---

(١) البيت من قصيدة لأبي عطاء السندي ، واسمه مرزوق ، مولى أسد بن خزيمة .

(٢) يزيد بن عمر ، أو عمرو ، بن هبيرة الفزازي ، عامل مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية في المشرق ، على العراق ، وقد أعيا أبا جعفر المنصور أمره ، فقتله غدراً في واسط ، عام ١٣٢ هـ – ٧٥٠ م .

(٣) مالقة Malaga : مدينة قديمة ، تقع على البحر الأبيض المتوسط ، كانت في العصر الإسلامي آهلة عامرة متصلة الكروم ، نافقة التجارة ، بها من الصناعات الهامة صناعة الفخار المذهب والزجاج والوشي ، وشهرت بالنبيذ الجيد ولا تزال ، وكانت إلى جانب هذا ميناء هاماً للتصدير والاستيراد ، وحافظت على طابعها هذا دواماً ، وهي اليوم مركز سياحي كبير ، ولا تزال قلعتها العربية قائمة على جبل يطل على البحر ، وزرتها أكثر من مرة ، ويربطها بكل من مدينتي سبتة وطنجة على الشاطئ المغربي خط ملاحي ، وكانت من بين أواخر المدن التي خسرها المسلمون في الأندلس ، فقد سقطت في يد الكاثوليك عام ١٤٨٧ م .

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ

ودمعٌ على الخدّيْن يَحمى ويَسفحُ

إذا كتم المشغوفُ سرٌ ضلوعِهِ

فإنّ دموعَ العين تُبدى وتَفضحُ

إذا ما جُفونُ العين سالتْ شئُونُها

ففى القلب داءٌ للغرام مُبرّح

ويعرض فى الحُب سوء الظن ، واتهام كل كلمة من أحدهما ، وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين . وإنى لأعلم من كان أحسن الناس ظنا ، وأوسعهم نفسا ، وأكثرهم صبراً ، وأشدّهم احتمالا ، وأرحبهم صدراً ، ثم لا يحتمل ممن يُحب شيئاً ، ولا يقع له معه أيسر مخالفة ، حتى يبدى من التّعديد فنونا ، ومن سوء الظن وجوها .

وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

أسيءُ ظنّى بكلّ مُحتقَر

تأتى به والحقيرُ من حَقَرَهْ

كى لا يُرى أصلُ هجرةٍ وقلى

فالنارُ فى بَدءِ أمرها شررة

وأصلُ عُظْم الأمورِ أهوَنُها

ومن صغير النّوى ترى الشَجَرةْ

وترى المحُب ، إذا لم يَثق بنقاء طَوّية محبوبه له ، كثيرَ التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزيّناً لحركاته ومرامى طرفه ، ولا سيما إن دُهىَ بُمتجنّ وبلُى بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المحب لمحبوبه ، وحفظه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتبّعه لحركاته ، ولعمرى لقد ترى البليد يصير فى هذه الحالة ذكيا ، والغافلَ فطناً .

★ خبـر :

ولقد كنتُ يوماً بالمريَّة ، قاعداً فى دكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، وكان بصيرا بالفراسة محسناً لها ، وكنّا فى لَمّة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسى [1] : ما تقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنّا ناحيةً ، اسمه حاتم ، ويكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعة يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لبَهْت مُفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمُريب .

---

(١) لم أجد فيما بين يدى من المصادر ما يلقى ضوءاً على شخصيتى إسماعيل بن يونس الطبيب ، ومجاهد بن الحصين القيسى .

٣

باب من أحب فى النوم

ولابُد لكل حُب من سبب يكون له أصلا ، وأنا مبتدئ بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ، ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يبتدأ أبدا بالسهل والأهون ، فمن أسبابه شئ لولا أنّى شاهدته لم أذكره لغرابته .

★ **خبـر :**

وذلك أنّى دخلتُ يوما على أبى السرى عمار بن زياد صاحبنا ، مولى المؤيد (١) ، فوجدته مفكرا مهتماً ، فسألته عمَّا به ، فتمنَّع ساعة ثم قال : لى أعجوبةٌ ، ما سُمعَتْ قط . قلت : وما ذاك ؟ قال رأيتُ فى نوْمى الليلةَ جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها ، وهمْتُ بها ، وإنى لفى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة تزيد على الشهر مغموماً مهموماً لا يهنئه شئ وَجْداً ، إلى أنْ عذلتُهُ وقلتُ له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلّق وهمك

(١) المؤيد ، هشام الثانى ، حكم مرتين : أولاهما من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ م ، والثانية من ١٠٠٩ إلى١٠١٣ م ، ولم أهتـد إلى ترجمـة لأبى السرى عمار بن زياد .

بمعـدوم لا يوجد ، هل تعلم مَن هى ؟ قال : لا والله . قلت : إنك لقليل الرأى ، مُصـاب البصيرة ، إذ تحب مَن لَم تره قط ، ولا خُلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقتَ صورة من صور الحمَام [1] لكنتَ عندى أعذر ، فمازلتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخل فى باب التمنى وتخيل الفكر.

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ياليتَ شعرِىَ من كانتْ وكيف سرَت

أطلعة الشـمس كانتْ أم هى القمرُ

أظنُّهـا العقـل أبـداه تدبُّرُهُ

أو صـورةُ الـروح أبْدتْها لىَ الفكر

---

(١) يشير ابن حزم إلى ملمح جميل من ملامح الحضارة الإسلامية فى الأندلس ، فحين فتحها المسلمون ابقوا على التراث الرومانى الذى وجدوه ، ويتمثل فى عدد كبير من التماثيل الجميلة ، وأفادوا منها فى تزيين البيوت والحدائق والحمامات بخاصة وقد رسم لنا أبو تمام بن رباح الحجام صورة شعرية جميلة ، لتمثال مريم العذراء ، تحمل المسيح بين يديها ، وكان موضوعاً فى حمام الشطارة فى إشبيلية :

ودمية مرمر تزهى بجيد ... تناهى فى التورد والبياض

لها ولد ولم تعرف حليلا ... ولا ألمت بأوجاع المخاض

ونعلم أنها حجر ، ولكن ... تتيمنا بألحاظ مراض

وقد أورد نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٣ ، هذه الأبيات غير منسوبة لأحد .

أو صورةٌ مُثّلتْ فى النفسِ من أملى

فقــد تَحيَّرَ فى إدراكهـــا البصر

أوْ لم يــكن كلُّ هــذا فهى حــادثةٌ

أتَى بهــا ســبباً فى حَتْفىَ القَــدَر

٤

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المُعاينة ، وهذا أمر يترقّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة ، والهم والوجد ، والسهر على غير الإبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار ، تأثيراً في النفس ظاهراً ، وأن تسمع نَغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال .

وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أساس ، وذلك أنّ الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يُمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثل فى هاجسه غيرَها ، قد مال بوَهْمه نحوها ، فإنْ وقعت المعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربّات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحبُّ النساء فى هذا أثبتُ من حُب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكّنه منهن .

وفى ذلك أقول شعراً منه :

ويامـــــن لامنى فــى حُبِّ مَنْ لـــم يَره طَرْفِى

لقد أفرطتَ فى وصـفِكَ لى فى الحبِّ بالضَّعفِ

فَقُلْ : هل تُعـرَفُ الجنّةُ يوماً بِســوى الوصْفِ

وأقول شعراً فى استحسان النغمة دون وقوع العين على العيان منه :

قد حلَّ جيْش الغرام سمْعِى وَهْوَ عـلى مُقلتىَّ يبـــدو

وأقول أيضا فى مخـالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية:

وصـفُوك لِى حتى إذا أبصرتُ ما وصَفوا علمتُ بأنه هَذيانُ

فالطبْلُ جِـلدٌ فـارغٌ وطـــنينُهُ يرتاعُ منه ويَفْرَقُ الإنسانُ

وفى ضد هذا أقول :

لقد وصـفوك لى حتى التقيْنَا فصـارَ الظنُّ حقًّا فى العيانِ

فأوصـــافُ الجنان مُقصّراتٌ على التحقيق عن قَدْر الجنَانِ

وإنَّ هذه الأحـوال لتحدُث بين الأصدقاء والإخوان ، وعنى أحدّثُ .

★ خبـر :

إنه كان بينى وبين رجل من الأشراف ودّ وكيد ، وخطاب كثير ،

وما تراءينا قط ، ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن . فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشـخاصنا كُرهاً وفَرطَ قِلى
كما الصحائف قد يُبدلْن بالنَّسْخ

ووقع لى ضـد هذا مع أبى عامر بن أبى عامر [1] رحمة الله عليه . فإنى كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تنقيلا يُحمل إليه عنى وإلىَّ عنه ، ويؤكّده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صحبة السلطان ، ووجاهة الدنيا . ثم وفق الله الاجتماع به فصار لى أودّ الناس ، وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لِىَ كَسَّبَنيه اللقـــاءُ وأوجـدنى فيه علْقاً شريفا
وقد كنتُ أكـرهُ منه الجـوارَ ومـا كنتُ أرغَبــهُ لِى أليفــاً
وكان البغيضَ فصار الحبيبَ وكان الثقيلَ فصار الخفيفا
وقد كنتُ أُدْمنُ عنـه الوجيفَ فصـرتُ أديمُ إليـه الوجيفـا

(١) الحديث أكيداً عن ابن لعبد الملك المظفر ، وعرضنا له من قبل ، فى الباب الثانى ، وينفى أننا بصدد المظفر نفسه فارق السن بينه وبين ابن حزم ، فلقد كان والد ابن حزم والمظفر نفسه فى خدمة هشام الثانى المؤيد ، كما يفهم ذلك من كلام المؤلف .

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرى [1] فكان لى صديقاً مدة على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

(١) ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، الترجمة رقم ١١٠٧ ، وأورد اسمه كاملا : عبد الواحد (بدلا من عبد الرحمن) بن محمد بن موهب بن محمد التجيبى ، أبو شاكر ، ويعرف بابن القبرى ، وقال إنه فقيه محـدث أديب خطيب ، نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وأورد له الضبى ، برواية ابن حزم ، أبياتاً من الشعر ، وذكر أنه توفى عام ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م وسنلتقى به فيما بعد مرة أخرى فى الباب الثامن والعشرين .

٥

باب من أحب من نظرة واحدة

وكثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة ، وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف الذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرءُ صورة لا يعلم منْ هى ، ولا يدرى لها اسما ولا مستقرا ، وقد عرض لغير واحد .

★ خبر :

حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق [١] عن ثقة أخبره ، سقط عنى اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء [٢] ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرمادى [٣] كان مجتازاً عند

(١) عن أبى بكر محمد بن أحمد بن إسحاق ، انظر : الباب الثانى ، الهامش رقم ٥ .

(٢) القاضى محمد بن يحيى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن الحذاء ، فقيه محدث حافظ ، له رحلة إلى المشرق ، توفى عام ٤١٦ هـ = ١٠٢٥ م ، وقد خصه الضبى فى كتابه « البغية » بترجمة قصيرة .

(٣) يوسف بن هارون الرمادى الكندى ، يكنى أبا عمر ، من كبار شعراء الأندلس على أيام المنصور بن أبى عامر ، وجانب كبير من شعره ضاع ولم يصلنا ، والرمادى ليس نسبة إلى موضع بالمغرب كما وهم الحميدى فى كتابه «جذوة المقتبس» ، وإنما الصورة العربية لكنيته باللغة الرومانثية على أيامه ، فقد كان يلقب بأبى جنيش ، فنقل إلى الرمادى ، لأن جنيش فى رومانثية الأندلس ، وفى الأسبانية المعاصرة ، تعنى الرماد ، توفى سنة ٤١٣ هـ = ١٠٢٢ م .

باب العطارين (١) بقرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه ، وتخلّل حبُّها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة (٢) . فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَّبض ، فلما صارت بين رياض بنى مروان - رحمهم الله - المبنية على قبورهم فى

(١) باب العطارين ، أحد أبواب مدينة قرطبة السبعة ، ويقع فى الجانب الغربى من المدينة ، ومنه يبدأ الطريق المؤدى إلى إشبيلية ، ومن هنا كان يعرف أيضاً باسم باب إشبيلية ، وحوله كانت تقوم تجارة العطور وأدوات الزينة، فأصبح ملتقى النساء من كل أنحاء المدينة ، وعلى مقربة منه كان حى الرقاقين ، الذين يصنعون الرقاق ، ومسجد النخيلة .

(٢) القنطرة جسر قديم على الوادى الكبير ، وتقول الرواية إن الإمبراطور الرومانى أوجست Auguste (٦٣ ق م - ١٤ م) أمر بإنشائه ، وبقى طوال العصر الإسلامى موضع رعاية الدولة وعنايتها ، وكان أول تجديد أصابه على يد الوالى السمح الخولانى ، بأمر من عمر بن عبد العزيز ، ثم جدد ورمم بعد ذلك فى عصور مختلفة أكثر من مرة ، وكان يقع عند نهاية الشارع الرئيسى فى قرطبة الإسلامية ، ويسمى بالمحجة العظمى ، ويبدأ من أعلى المدينة ، عند باب عبد الجبار ، ماراً بين قصر الخلافة والمسجد الجامع ، حتى يصل إلى باب القنطرة ، ويعرف أيضاً باسم باب الوادى ، والوادى تعنى النهر فى لغة الأندلس ، وباسم باب الجزيرة الخضراء ، وكان يصل بين المدينة وربضها الواقع على الضفة الأخرى من النهر ، ويدعى ربض شقندة ، وكان يعد من المدينة لا من ضواحيها ، لأنه قديم ومسور ، وكان يسكنه العمال وأهل الأسواق ، وفيه اندلعت الثورة على الحكم الأول ، وإلى الربض نسبت ، وقد انتصر فيها الحكم بعد عناء ، فنفى سكانه ، وأتى على بنيانه ، وتحول فى جانب منه إلى مقبرة عرفت باسم مقبرة الربض .

مقبَرة الربضُ ، خلْف النهــر ، نظــرت منه منفــرداً عن النــاس ، لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليّته بها . فقالت له : دع عنك هذا ، ولا تطلُب فضيحتى ، فلا مطمع لك فىّ البتة ، ولا إلى ما ترغبه سبيل فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : يا سيدتى : أحرة أم مملوكة ؟ فقالت : مملوكة ، فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلْوَة ، قال : ولمن أنت فقــالت له : علْمُكَ والله فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها : يا سيدتى ، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتَنى اليومَ ، فى مثل تلك الساعة من كلُ جمعة . فقالت له : إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا ؟ فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا . فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمرو ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين والربض من ذلك الوقت إلى الآن ، فما وقعت لها على خبر ، ولا أدرى أسماءٌ لحَستَها أم أرض بلعتها ، وإن فى قلبى منها لأحرّ من الجمر ، وهى خلْوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعـد ذلك على خَبرها بعد رحيله فى سببها إلى سرَقَسطة (١) فى قصة طويلة (٢) ، ومثل ذلك كثير .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عَيْنى جَنَتْ فى فؤادِى لوعة الفِكَرِ

فأرْسَلَ الدمـع مُقْتَصًا من البصرِ

---

(١) سرقسطة : فى شمال شرقى الأندلس ، مدينة قديمة جداً ، وقد جعل منها الإمبرطور الرومانى أوجست مستعمرة حربية أعطاها اسمه -Caesarau gust ، وحرف على أيام القوط فاصبح C esargustc، وصار على أيام المسلمين سرقسطة ، ومنها جاءت التسمية الإسبانية Zaragoza وكانت على أيام المسـلمين قاعدة الثغر الأعلى ، وعرفت بعروس الإبرو ، النهر الذى تقع عليه ، وسميت بالمدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض ، ومن آثارها الإسلامية القائمة حتى يومنا هذا قصر الجعفرية La Jaferia ، وكان مقراً لبنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف ، وقد سقطت المدينة صلحاً فى يد الكاثوليك فى ٤ من رمضان ٥١٢ هـ = ١٩ من ديسمبر ١١١٨ م ، بعد حصار دام تسعة شهور ، وأصبحت حاضرة مملكة أرجون المسيحية ، وتخلفت فيها جاليات إسلامية كبيرة ، حملت اسم المدجنين ، وعاشت فيها ، وفى مقاطعتها ، قروناً طويلة ، وقامت بدور بارز فى نقل الحضارة الإسلامية إلى الغزاة الكاثوليك ، وبخاصة فى مجال المعمار ، وشهرت طريقتهم باسم فن المدجنين ، وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة .

(٢) أورد الضبى جانباً من هذه القصة ، فى ترجمته ليوسف ، انظر :

– البغية ، الترجمة رقم ١٤٥١ .

فكيف تُبْصرُ فعلَ الدمع مُنتصفاً
منها بإغراقها فى دَمْعها الدُرر
لم ألْقَهَا قبل إبصارى فأعرِفَها
وآخرُ العهد منها ساعةُ النظر

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جارية معروفة الاسم والمكان والمنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحب من نظرة واحدة ، وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة ، فهو دليل على قلة الصبر ، ومُخبرٌ بسرعة السلو ، وشاهد الطرافة والملل ، وهكذا فى جميع الأشياء أسرعها نموا أسرعها فناء ، وأبطؤها حدوثا أبطؤها نفاداً .

★ **خبر :**

إنى لأعلم فتى من أبناء الكُتاب رأته امرأة سرية النشأة ، عالية المنصب ، غليظة الحجاب ، وهو مجتاز ، ورأته فى موضع تَطلع منه كان فى منزلها ، فعلقتْه وعَلقها ، وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشف الحيل وذكر المكائد ، لأوردت مما صح عندى أشياء تحير اللبيب ، وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنّه ، وكفانا .

٦

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصح محبته إلا بعد طول المخافتة ، وكثير المُشاهدة ، ومتمادى الأنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مرُّ الليالى ، فما دَخل عسيراً لم يخرج يسيراً ، وهذا مذهبى ، وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم ، وهو فخّار ، فهاب وجزع : ادخل كرها واخرج كرهاً . حُدّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إنْ أحس من نفسه بابتداء هوى ، أو تَوَجس من استحسانه ميلا إلى بعض الصور ، استعمل الهجر وترك الإلمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويحال بين العَيْر والنزوان ، وهذا يدل على لصوق الحب بأكباد أهل هذه الصفة ، وأنه إذا تمكن منهم لم يحل أبداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبْعُدُ عن دواعِي الحبّ إنّى　　رأيتُ الحزمَ من صِفةِ الرشيدِ
رأيتُ الحُبَّ أوّلُهُ التصدّى　　بعَيْنِكَ فى أزاهيـــر الخُدودِ

فبَيْنـــا أنتَ مُغتبـــطٌ مُخَلَّىً إذا قد صِرْتَ فى حلَقِ القيود
كــمُغترٍّ بضَحضــاحٍ قَريبٍ فــزلَّ فغابَ فى غَمْرِ المـدُوِد

وإنى لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ، ولا أكاد أصدقه ، ولا أجعل حُبه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد ، نافذاً فى حجاب القلب ، فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حُب قطُّ إلا مع الزمن الطويل ، وبعد ملازمة الشخص لى دهراً ، وأخْذى معه فى كل جدّ وهزل ، وكذلك أنا فى السلو والتوقّى ، فما نسيت وداً لى قط ، وإن حَنينى إلى كل عهد تقدّم لى لَيَغَصُّنى بالطعامُ وَيُشرقنى بالماء ، وقد اســتراح من لم تكن هذه صفته ، وما مللت شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشئ قط أول لقـائى له ، ومـا رغبت فى الاســتبدال إلى ســبب من أسبابى مذ كنت ، لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم ، ولكن فى كل ما يستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم ، وغير ذلك ، وما انتفعت بعيش ، ولا فارقنى الإطـراق والانغــلاق ، مذ ذقت طعم فراق الأحــبة ، وإنه لشَجى يعتــادنى ، وولوع همّ ما ينفــك يطْرقنى ، ولقد نَغَّص تذكّرى ما مَضى كل عيش أستأنفه ، وإنى لقتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا ، والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

مَحَبَّةُ صِدْقٍ لم تكن بنتَ ساعةٍ
ولا وَرِيتْ حين ارتيادٍ زنَادُها

ولكنْ على مَهْلٍ سَرَتْ وتولَّدتْ
بطول امتزاجٍ فاستقرّ عمادُها

فلم يَدْنُ منها عزْمها وانتقاضُها
ولم يَنْأ عنها مُكْثُها وازديادُها

يؤكّد ذا أنّا نرى كلَّ نشأة
تَتِمُّ سريعا عن قريبٍ معادها

ولكنِّي أرضٌ عزازٌ صلَيبةٌ
منيعٌ إلى كلّ الغروسِ انقيادُها

فما نفذتْ منها لديْها عُروقُها
فليستْ تُبالى أن يجود عهادُها

ولا يظن ظانّ ، ولا يتوهّم متوهم ، أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمها العُلْوى ، بل هو مؤكد له ، فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأعراض ، وأحاطت بها

الطبائع الأرضية الكونية ، فسترت كثيراً من صفاتها ، وإن كانت لم تحله لكن حالت دونه ، فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس ، والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ، ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يُشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع .

وأما ما يقع من أول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدىّ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ، فإذا غَلبت الشهوة ، وتجاوزت هذا الحد ، ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمي عشقا ، ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحب اثنين، ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفا ، وهى على المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثان .

وفى ذلك أقول :

كذب المُدعِي هــــوى اثنين حتْمـا   مثل ما فى الأصول أكْذب مانى

ليس فى القــلب موْضعُ لحبيبيـ   ـن ولا أحْــدثُ الأمـور بثـانى

فكمـا العقلُ واحدُ ليس يهـوى   خالقـا غيــر واحـد رحمــــان

فــكذا القلبُ واحـدُ ليس يهــوى   غــيرَ فَـرد مُبــاعد أو مــدان

هُوَ فى شرْعــة المــودّة ذو شِرْ   كٍ بعيــدٌ مِن صــحّةِ الإيمــان
وكذا الدّين واحــدٌ مســــتقيم   وكَفَــورٌ مَــن عنْــده دينــان

وإنى لأعرف فتى من أهل الجد والحسب والأدب ، كان يبتاع الجارية وهى سالمة الصدر من حبه ، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه ، وقطوب دائم كان لا يفارقه ، ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيرا ريثما يصل إليها بالجماع ، ويعود ذلك الكُرْهُ حبا مُفرطا ، وكلفا زائدا ، واستهتارا مكشوفا ، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه هذا الأمر في عدة منهن ، فقال بعض إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسم نحوى وقال : إذاً والله أخبرك . أنا أبطأ الناس إنزالا . تقضى المرأة شهوتها ، وربما ثنت ، وإنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد ، وما فترت بعدها قط ، وإنى لأبقى بـُمّنتى بعد انقضائها الحين الصالح ، وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة الا عند تعمدى المعانقة ، وبحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى (١) .

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولد المحبة . إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

---

(١) نلتقى بالفكرة نفسها ، فى أكثر من موضع ، من مؤلفات الشاعر اللاتينى اوفيد Ovide (٤٣ ق م – ١٧ م) : « غراميات Amours » و « فن الحب L'Art d'Aimer » ، وقد ترجمه الدكتور ثروت عكاشة بعنوان: « فن الهوى » و « شفاء الحب Remede de L'amour » .

٧

باب من أحب صفة

لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم - أعزّك الله - أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يُخالف ، وحدّاً لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفَاذاً لا يرد ، وأنه ينغص المِرَر ، ويَحُلّ المُبرم ، ويحلّل الجامد ، ويخل الثابت ، ويحل الشغافَ ، ويُحلّ الممنوع .

ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون في تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط في معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير في حَدْسهم ، وقد وصفوا أحباباً لهم في بعض صفاتهم بما ليس بمستحسن عند الناس ، ولا يُرْضي في الجمال ، فصارت هجيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم ، ثم مضى أولئك إمّا بسلوّ أو بَيْن أو هجر ، أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ، ولا بان عنهم تفضيلُها ، على ما هو أفضل منها في الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ، بل صارت تلك

الصفات المُستجادة عند الناس مهجورة عندهم ، وساقطة لديهم ، إلى أن فارقوا الدنيـا وانقضت أعمـارهم ، حنينا منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه ، وما أقول إنّ ذلك كان تصنّعا لكن طبعا حقيقيًا ، واختياراً لا دَخَل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طيّ عَقْدهم بغيره .

وإنى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعضُ الوقص ، فما استحسن أغيد ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَـر ، فما أحبّ طويلة بعد هذا ، وأعرف أيضاً مَن هوى جارية فى فمها فَوه لطيف ، فلقد كان يتقذّر كل فم صغير ويذُمه ، ويكرهه الكراهية الصحيحة ، وما أصف من منقوصى الحُظوظ فى العلم والأدب ، لكن عن أوفر قسطاً فى الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدّراية .

وعنى أخبرك :

أنى أحببتُ فى صباى جارية لى شقراء الشعر . فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على صورة الحسن نفسه ، وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، ولا تؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عَرض لأبى رضى الله عنه ، وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفـــاء بنى مروان – رحمهم الله – ولا ســـيما ولدُ الناصر [١] منهم ، فكلهم مجبـــولون على تفضـــيل الشـــقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف ، وقد رأيناهم ، ورأينا من رآهم ، من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعا إلى أمهاتهم ، حتى قد صار ذلك فيهم خلقة ، حاشى سليمان الظافر [٢] رحمه الله ، فإنى رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر [٣] ، رضى الله عنهما ، فحدثنى

---

(١) يشير إلى عبد الرحمن الناصر ، أول وأعظم خليفة أندلسى ، وحكم من ٩١٢ إلى ٩٦١ .

(٢) سليمان الظافر ، ويعرف بالمستعين ، تولى الخلافة خلال فتنة قرطبة عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وتسمى حينئذ الظافر بالله ، إلى جانب لقب المستعين بالله ، ثم أخرج من قرطبة مهزوماً ، وعاد إليها ثانية خليفة عام ١٠١٣ م ، وبقى فى الخلافة حتى عام ١٠١٦ م . وكان من أهل العلم والفهم ، أديباً فصيحاً شاعراً ، له رسائل وأشعار بديعة ، وقد أمدنا ابن الأبار فى الحلة السيراء بتفصيلات وافية ودقيقة عن الأحداث التى اضطرب فيها .

(٣) الحكم المستنصر ، ثانى خلفاء بنى أمية فى قرطبة ، ولى الخلافة بعد أبيه الناصر ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م ، وظل خليفة حتى وفاته فى ٣٦٦ هـ = ٩٧٦ م . وكان حسن السيرة ، جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جماعاً للكتب فى أنواعها ، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، ويحكى ابن حزم ، عن تليد الخصى وكان على خزانة العلوم : أن عدد الفهارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، وفى كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير . وأقام للعلم سوقاً نافقة جلبت إليها بضائعه من كل قطر .

الوزير أبى رحمه الله وغيره : أنهما كانا أشقَّرين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيّد [1] ، ومحمد المهدى [2] ، وعبد الرحمن المرتضى [3]

(١) هشام المؤيد ، ابن الحكم المستنصر ، تولى الخلافة بعد أبيه ، وكان صبياً غراً ، مشتغلا باللعب والفتك والخلاعة ، فحجر عليه وزيره المنصور بن أبى عامر ، ولم يترك له سوى الخطبة والضرب باسمه للدينار والدرهم ، وبدأ ما يعرف فى تاريخ الأندلس بعصر الحجابة ، وفيه كانت القـوة الفعلية بيد المنصور ، الذى تسمى بالحاجب ، وقد تولى هشام الخلافة على فترتين ، من ٩٧٦ إلى ١٠٠٨ ، ومن ١٠٠٩ إلى ١٠١٣ .

(٢) المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أول من ثار من بنى أمية الأندلسيين على الحاجب العامرى الثالث ، عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكانت العامة تسميه شنجول ، أخذا من كلمة Sanchuelo تصغير لفظ Sancho أى شانجه الصغير ، وشانجه ملك نبرة (٩٧٠ – ٩٩٥ م) جدة لأمه ، فقد تزوج المنصور بن أبى عامر ابنة ملك نبرة ، واعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم عبدة ، وأنجب منها المنصور عبد الرحمن هذا ، وحاول أن يجعل من نفسه ولى عهد الخليفة ، وقد تزعم المهدى الثورة دفاعاً عن حق بنى أمية فى الخلافة ، وثأر لأبيه ، وكان عبد الرحمن قد قتله ، وتبعته عامة قرطبة ، ودفع بهم إلى مدينة الزاهرة مقر العامريين فانتهبوها ، وقتل عبد الرحمن ، وأعلن نفسه خليفة عام ١٠٠٨ ، ولكن خلافته لم تطل فقد قتل عام ١٠١٠ بعد أحداث أسيفة .

(٣) عبد الرحمن بن محمد ، من ولد عبد الرحمن الناصر ، نصب خليفة بشرق الأندلس ، وتسمى المرتضى ، وقد حاول بمن معه أن ينتزع قرطبة من القاسم بن حمود ، وهو فى طريقه إليها اصطدم بزاوى بن زيرو بن مناد ، أمير غرناطة ، وكان ابن حزم مع الخليفة المرتضى فى حملته هذه ، وقد اقتتل الفريقان أياماً ، ثم انهزم الأندلسيون ، بتعبير ابن بسام ، بقيادة المرتضى ، أمام بربر غرناطة بقيادة زاوى ، وتفرق جيش المرتضى لا يلوى أحد على أحد ، تاركين وراءهم زادهم وعتادهم ، وفر المرتضى نفسه إلى وادى آش ، وهناك اغتالته عصابة مستأجرة ، فى ٤٠٨ هـ = ١٠١٨ م .

رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مرارا ، ودخلت عليهم ، فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب فى جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم فى ذلك فجروا عليها ، وهذا ظاهر فى شعر أبى عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر ، وهو المعروف بالطليق [١] ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانهم ، وأكثر تغزله فبالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يصحبه ذلك فى سواه فقد وقع من ذلك ، ولا فيمن طبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ، ثم غلب عليه هوى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة ، فأحاله عما عهدتْه نفسُه حوالة صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول ، وهو يعرف فضل ما كان عليه أولا ، فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلاّ الأدنى ، فأعجب لهذا التغلب الشديد ، والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقا ، لا من يتحلى بشيم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله ، فيزعم أنه

(١) ورد الاسم محرفاً فى الطبعات العربية على النحو التالى : « ... فى شعر عبد الملك بن مروان » ، وقد صححناه ، وهو أشهر من أن يخطئ إنسان فى كتابة اسمه ، ولمعرفة الشاعر الطليق ، انظر :

★ غرسية غومث : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ص ٥٨ وما بعدها ، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى ، ط ٤ ، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥ .

يتخيّر منْ يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخّير والارتياد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه .

منهمْ فتىً كان فى مَحبوبه وقصُ
كأنمَّا الغَيْدُ فى عَيْنيه جنّانُ

وكان مُنبسطاً فى فضْلِ خيرَته
بحجّةٍ حقُّها فى القوْل تبْيان

إن الْمَهَا وبها الأمثالُ سائرةٌ
لا يُنْكِرُ الحسنَ فيهِ الدهرَ إنسان

وقْصٌ فليس بها عنقاءُ واحدةٌ
وهل تُزانُ بطولِ الجيدِ بُعْران

وآخرُ كان فى محبوبِه فَوَهٌ
يقول حَسْبىَ فى الأفواهِ غِزْلان

وثالثٌ كان فى محبوبِه قصرٌ
يقول إنّ ذواتِ الطُّول غيلان

وأقول أيضا :

يَعِيبونَها عندى بشُقْرَة شَعرها
فقلتُ لهم هذا الذى زانها عندْى

يعَيبـــون لون النُّوْر والتِّبر ضِلَّـةً

لرأيِ جَهـــولٍ فى الغــواية ممتـدّ

وهل عابَ لونَ النرجسِ الغضّ عائبٌ

ولون النجـومِ الزاهــراتِ على البُعْدِ

وأبعــدُ خلــقِ اللّهِ مـن كُل حــكمةٍ

مُفَضّلُ جِرْمٍ فاحـم اللــون مُســودّ

بهِ وُصِــفتْ ألــوانُ أهـــل جهنَّمٍ

ولِبْســةُ باكٍ مُثْكلِ الأهـــلِ مُحْتَدّ

ومُذ لاحت الرايــاتُ سُــوداً تيقَّنتْ

نفوُس الورَى أنْ لا سبيلَ إلى الرُّشد

٨

باب التعريض بالقول

ولابد لكل مطلوب من مَدخل إليه ، وسبب يتُوصّل به نحوه ، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول ما يستعمل طلاب الوصل ، أو أهل المحبة فى كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول : إمّا بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثُل ، أو تعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب ما يرونه من أحبتهم ، من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة ، وإنى لأعرف من ابتدأ كشف محبته إلى من كان يحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يبتدئ به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلا زاد ، وإنْ يعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشئ مما ذكرنا ، أو ايراده لبعض المعانى التى حددنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لموْقف بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً ، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول جنس ثان ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ، ومعرفة المحبّة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكىّ . وعقد المواعيد ،

والتقرير ، وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ ما يذهبان إليه ، فيجيب السامع عنه بجواب غير ما يتأدى إلى المقصود بالكلام ، على حسب ما يتأدى إلى سمعه ، ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلٌ واحد منهما عن صاحبه ، وأجابه بما يفهمه غيرهما ، إلا من أيد بحسّ نافذ ، وأعين بذكاء ، وأمد بتجربة ، ولا سيما إنْ أحس من معانيهما بشئ ، وقلما يغيب عن المتوسم المجيد فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها فى بعض وصْلها على بعض مالا يجمل . فقالت : والله لأشكونّك فى الملأ علانية ، ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر الملوك ، وأركان الدولة ، وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفى جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفى المجلس مغنيات غيرُها ، فلما انتهى الغناء إليها سوّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَــزالٌ قد حـكى بـدرَ التّمــامِ
كشــمسٍ قد تجلّتْ من غَمــامِ

ســـبَى قلْبى بألحـــاظ مِراضٍ
وقَــدٌ الغصــنِ فى حُسنِ القَوام

خضعتُ خضوعَ صبٍّ مستكينٍ

لـــه وذلّلتُ ذلّـــة مُسْـــتَهام

فَصِلْنى يا فـــديْتك فى حــلالٍ

فمـــا أهـــوى وِصـــالاً فى حرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عتـــابٌ واقـــعٌ وشِكاةُ ظُلمٍ

أتتْ من ظـــالمٍ حـــكَمٍ وخَصْمٍ

تشكّتْ ما بـــها لم يدر خـــلقٌ

ســوى المشـكُوّ ما كانت تُسمّى

٩

باب الإشارة بالعين

ثم يتلو التعريض بالقول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارة بلحظ العين ، وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقام المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطع به ويُتواصل ، ويُوعد ويهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الأوعاد ، وينبه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يمكن تصويره ولا وصفُه إلا بالأقل منه ، وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بموّخر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى إطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشار إليه .

والإشارة الخفية بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة

من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام ، وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُسل ، ويدرك بها المراد ، والحواس الأربع أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأضحها دلالة ، وأوعاها عملا ، وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق ، وتمّيز الصفات وتفهم المحسوسات ، وقد قيل ليس المُخبرُ كالمعاين ، وقد ذكر ذلك افليمون [١] صاحب الفِراسة ، وجعلها معتمدة فى الحكم .

وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعها شّعاعاً مجلوًا صافيا ، إما حديداً مصقولا أو زجاجاً أو ماء ، أو بعض الحجارة الصافية ، أوسائر الأشياء المجلوة البراقة ، ذوات الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر مّناع كدر ، انعكس شماعها فأدرك الناظر نفسه ومازها عياناً ، وهو الذى ترى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك ، ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين ، فتمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك ، والثانية بيسارك قبالة وجهك ، ثم تزويها قليلا حتى يلتقيا بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك ، وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك ، أذ لم تجد منفذا فى التى

(١) افليمون Philemon أشهر مؤلف إغريقى فى علم الفراسة ، وقد ازدهر فى القرن الثانى للميلاد .

بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم ، وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظام خالف فى الإدراك ، فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد .

ولو لم يكن من فضل العين إلا أن جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكانة ، لأنها نوريّة لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شئ أبعد مرمى ، ولا إناى غاية منها ، لأنها تُدرَك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلاّ لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقل الركات ، وليس هذا لشئ من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب ، ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوّت قبل سماع الصوت ، وإنْ تعمّدت إدراكهما معاً وإن كان إدراكهما واحداً لمَا تقدمت العينُ السمعَ (١) .

---

(١) عرض ابن حزم لنظريته فى الرؤية تفصيلا فى كتابه : « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » .

١٠

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك ، إذا امتزجا ، المراسلةُ بالكتب ، وللكتب آفاق .

ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكُتب ، وبحلّها في الماء ، ويمحو أثرها ، فَرُب فضيحة كانت بسبب كتاب .

وفي ذلك أقول :

عزيزٌ عليَّ اليومَ قطعُ كتابِكُمْ
ولكنّـــه لم يُلْفَ للـــودّ قاطِــعُ

فآثرتُ أن يَبقى ودادٌ ويَنمحي
مِدادٌ فإن الفَرعَ للأصـلِ تابع

فكم من كتــابٍ فيـه ميتَةُ ربِّه
ولم يَدرِه إذْ نمّقتّهُ الأصــابع

وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال ، وجنسه أملح الأجناس ، ولعمري إن الكتاب للسان في بعض الأحايين ، إما لحصْرٍ في الإنسان ، وإمّا لحياء ، وإمّا لهيبة . نعم ، حتى إن لوصول الكتاب إلى المحبوب ، وعلِم المُحب أنه قد وقع بيده ورآه ، للذة

يجدها المحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يَعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ممن كان يدرى ما يقول ، ويحسن الوصف ، ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارة جيدة ، ويجيد النظر ، ويدقق فى الحقائق، لايَدع الْمراسلة وهو ممكن الوصول ، قريب الدار و أتىّ المزار ، ويحكى أنها من وجوه اللذة ، ولقد أخْبرتُ عن بعض السُّقَّاط الْوضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيح ، وضَرْب من الشّبق فاحش .

وأمّا سَقْىُ الحبْر بالدمع فأعرف من كان يفعل ذلك ، ويُقارضه محبوبه بسقى الحبر بالرّيق .

وفى ذلك أقول :

جــوابٌ أتانى عن كتابٍ بعثتــهُ

فســـكَّن مُهتــاجً ،هيَّجَ ســـاكناً

ســقْيتُ بدَمــع العينِ لمَّـــا كتبْتُه

فَعَالَ مُحبٌ ليس فى الـودّ خائنـاً

فمازال ماءُ العينِ يمحــو سُطـورهُ

فيا ماءَ عَيْنى قد محوْتَ المحاسنا

غَــدا بدمُوعى أولُ الخطّ بيننــا

وأضحى بدَمعِى آخرُ الخطّ بائنا

★ خبــر :

ولقد رأيتُ كتاب المُحب إلى محبوبه ، وقد قطّع في يده بسكين له ، فسال الدم ، واستمدّ منه ، وكتب به الكتاب أجمعَ ، ولقد رأيت الكتاب بعد جُفوفه فما شككتُ أنه بصبْغ اللك [1] .

---

(١) صاغ ابن قزمان هذه الفكرة زجلا ، ونلتقى بها عنده فى آخر دور من الزجل رقم ١١٢ من ديوانه :

وكن لرسولى قريب الحجاب .

وإن كان وترضى وترسل كتاب .

بدمى سطر إليك الجواب .

ونبرى عظمى مكان القلم .

١١

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة ، وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تخيُّره وارتياده ، واستجادته واستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى .

فينبغى أن يكون الرسول ذا هيئة ، حاذقاً يكتفى بالاشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ، ويضع من عقله ما أغفله باعثه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه ، كأنما كان للأسرار حافظا ، وللعهد وفيا ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

رسولُكَ سيفٌ فى يمينكَ فاستجدْ
حُساماً ولا تضربْ به قبل صقْلهِ
فمــن يكُ ذا ســيفٍ كهَامٍ فَضُرُّهُ
يعـودُ على المعْنىّ منْــه بجهـله

وأكثر ما يستعمل المحُبون فى إرسالهم إلى من يُحبونه ، إما خاملا لا يُؤبه له ، ولايُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أو لهيئة رثة أو بذاذة فى طلعته .

وإما جليلا لا تلحقه الظّنن لنسك يظهره ، أو لسن عالية قد بلغها ، وما أكثر هذا فى النساء ، ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين ، وإنى لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها .

أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة ، والسراقة والدلّلة، والماشطة والنائحة ، والمغنية والكاهنة ، والمعلمة والمستخفة ، والصناع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسل إليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الأوصاف ، وعسير يُسر ، وبعيد قُرب ، وجموح أنس ، وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها ، وقلة الثقة بكل واحد ، والسعيد من وعظ بغيره ، وبالضد تتميز الأشياء ، أسبل اللّه علينا وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية [1] .

---

(١) ترك هذا الباب أثراً واضحا فى الأدب الإسبانى ، فرواية لاثليستينا La Celistna ، أو القوّادة ، لمؤلفها فرناندو دى روخاس Fernando de Rojas (١٤٥٣ - ١٥٤١ م) بطلتها عجوز مهمتها التوفيق بين الرءوس فى الحرام ، وقد أفاد مؤلفها أو مؤلفوها ، من هذا الفصل مباشرة ، أو عن طريق مؤلفات إسبانية أخرى أفادت من ابن حزم، وعرضنا لهذه القضية فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

★ **خبر :**

وإنى لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة ، ويُعقد الكتاب فى جناحها ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

تحيَّرها نوح فما خابَ ظَنُّـهُ
لديْهَـا وجاءتْ نحوَهُ بالبشائرِ

سأودِعها كُتْبى إليكِ فهاكهَـا
رَسائلَ تُهدَى فى قوادِمِ طائرِ

١٢

باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سُئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأنْ يُرى أنه عِزهاة خلىّ ، ويأبى السرُّ الدقيق ، ونأر الكلف المتأججة فى الضلوع ، إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى الفحم ، والماء فى يبيس المدر ، وقـد يمـكن التمـويه فى أول الأمـر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال .

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب المرء المسلم أن يعفَ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلّبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ، وأما المحبة فخِلْقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة .

وفى ذلك أقــول :

يلوُم رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى

وســـيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ

يقولون : جانبتَ التصاُونَ جُملةً

وأنتَ عليهــم بالشريعــةِ قــانتُ

فقــلتُ لهم : هــذا الرّياءُ بعيْنــه

صُراحـــاً وَزّىٌّ للمــــرائين ماقتِ

متى جاء تحريمُ الهَوى عن محمدٍ

وهــل منْعُهُ فى مُحكم الذكرِ ثابت

إذا لــم أُوَاقِـــعْ مَحْرَماً أتّقِى به

مَجيئ يومَ البعثِ والوجــهُ باهــت

فلستُ أبالى فى الهوى قول لائم

ســواء لعمــرى جاهرُ أو مُخافت

وهــل يلزمُ الإنســانَ إلاّ اختيارُهُ

وهل بخبـايا اللفظ يُؤْخَذُ صامت

★ خبـر :

وإنى لأعرف بعض من أمتحن بشئ من هذا فسكّنَ الوجدَ بين جوانحه ، فرام جحده إلى أن غلظ الأمر ، وعرف ذلك فى شمائله

من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرّض ، وكان مَن عرض له بشئ نجهه وقبّحه ، إلى أنْ كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوما قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره ، وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذا اجتاز بهما الشخص الذى كان يتهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب ، وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره ، فقيل له ما عدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل .

ففى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما عـاش إلا لأن المـوتَ يرحمه

ممَّا يُرى مِن تباريحِ الضنى فيه

وأنا أقول :

دموعُ الصبّ تَنْسَفِكُ وسِـتْرُ الصـبّ ينهتكُ

كأنّ القـلب إذ يبدو قطاةٌ ضَمَّهـا شَرَك

فيا أصحابَنا قولوا فإنّ الـرأىَ مشـتَرَكُ

إلى كَـمْ ذا أكَاتِمُـهُ ومـا لِى عنه مُتَّـرك

وهذا إنمّا يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع

المحب وغلبته ، فيكون صاحبه متحيرا بين نارين محرقتين . وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وفى ذلك أقول :

دَرَى النـاسُ أنىّ فتًى عاشقٌ
كئـيبٌ معُنًّى ولـكن بمـن

إذا عاينـوا حـالتى أيقنوا
وإنْ فَتّشوا رجعـوا فى الّظنن

كخـطّ يُرى رَسْـمُهُ ظـاهراً
وإنْ طلبـوا شَرْحَـه لم يَبِنْ

كصَـوتِ حَمـامٍ عـلى أيْكةٍ
يُرُجّعُ بالصـوْتِ فى كل فـن

تَلَذُّ بفحـواهُ أسـماعُنا
ومعنـاهُ مُسْـتعجَمٌ لم يَبِن

يقـولون : باللّهِ سَـمِّ الذى
نفَى حُبُّـه عنـك طِيبَ الوسَن

وهيهـاتَ دونَ الـذى حاولوا
ذَهـابُ العُقُول وخَـوضُ الفِتَن

فهم أبدًا فى اختلاج الشكوك

بـــظنٌ كَقْطــعٍ وقَطْــعٍ كظــن

وفى كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسرّ عنـــدى مـــكانٌ لو يحـــلُّ به

حيٌّ إذًا لا اهتـــدى رَيْبُ المنون لَهُ

أميتُــــهُ وحيــاةُ السرّ ميتتُـــــه

كما سُرورُ الْمعنّى فى الهوى الوَلَهُ

وربما كان سبب الكتمان توقّى المُحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

★ خبــر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزّل فيه بصبح أم المؤيّد [1] رحمه اللّه ، فغنّت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلها .

---

(١) كانت السيدة صبح ، أم هشام المؤيد ، مرتبطة عاطفياً بالمنصور بن أبى عامر ، على نحو ما أشرنا من قبل ، ويرجح أنها كانت عشيقته فى سنى شبابه ، وأياً ما كان الأمر ، فمن الثابت أنها كانت وراءه فى رحلة المجد التى قطعها من موظف صغير فى بلاط الخليفة ، إلى أقوى رجل فى الدولة ، ولعله أحس بأن فى الأبيات تعريضاً به .

★ خبر :

وعلى مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث [١] . واستئصالُ آلِ مُغيث ، والتسجيل عليهم ألا يستخدم بواحد منهم زبداً ، حتى كان سبباً لهلاكهم ، وانقراض بيتهم ، فلم يبقى منهم إلا الشريد الفالّ ، وكان سبب ذلك تغزّله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير .

ويُحكى عن الحسن بن هانئ [٢] أنه كان مغرما بحب محمد بن هارون ، المعروف بابن زُبيدة [٣] ، وأحسّ منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال : إنّه كان لا يقدر أن يُديم النظر إليه إلاّ مع غلبة السكر على محمد .

وربما كان سبب الكتمان ألا يَنفِر المحبوب به ، فإني أدرى من كان محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان

---

(١) بنو مغيث أسرة قرطبية عريقة ، تنسب إلى مغيث بن الحارث ، ويسمى مغيثا الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك ، ودخل الأندلس مع طارق بن زياد ، واضطلع بفتح قرطبة ، وأصبح ابنه عبد الواحد حاجباً ، أى وزيراً ، لعبد الرحمن الداخل ، ثم لهشام ابنه من بعد ، وتوفى على أيام الحكم الأول ، وخلّف أبناء ثلاثة : عبد الملك ، وعبد الكريم ، وعبد الحميد ، وقد تولوا مناصب هامة ، وبخاصة عبد الكريم ، وبقى لبيتهم جلالة إلى أمد طويل .

(٢) الحسن بن هانئ ، الشهير بأبى نواس ، الشاعر العباسى المعروف .

(٣) محمد بن هارون ، ابن هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه من ٨٠٩ إلى ٨١٣ م ، ثم قتل فى صراعه مع أخيه المأمون .

منه مناط الثريا قد تعلّت نجومها ، وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أنْ باح إليه بما يجد ، فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب ، وتمنّع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ، ووقع التصنّع والتجنّى ، لقد كان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد فى بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلاّ فى الطيف ، ولا نقطع القليل والكثير ، ولعاد عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الكتمان الحَياء الغالب على الإنسان ، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصداً ، ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجد لئلا يَشمت به عدو ، أو يريهم ومَنْ يُحب هوان ذلك عليه .

١٣
باب الإذاعة

وقد تعرض فى الحب الإذاعة ، وهو من مُنكرَ ما يحدُث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزّيا بزىّ المحبين ، ويدخل فى عدادهم ، وهذه خلافة لا تُرضى ، وتخليج بفيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب ، وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفا ولا عَدْلا ، وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكّمه على العقل ، حتى يمثل الحَسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن ، وهنالك يرى الخير شراً ، والشر خيراً ، وكم مَصون الستر ، مُسبل القناع ، مسدول الغطاء ، وقد كشف الحبُّ ستْره ، وأباح حريمه ، وأهمل حِماه ، فصار بعد الصيانة علَماً ، وبعد السكون مثلا . وأحب شئ إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ،

ولطالت استعانته منه ، فسَهُلَ ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتى من سَرَوات الرجال ، وعلْية إخوانى ، قد دُهِي بمحبة جارية مقصورة ، هام بها ، وقطعة حُبها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى أنْ كانت هى تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه .

★خبر :

وحدّثنى موسى بن عاصم بن عمرو [1] وقال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله ، وقد أمرنى بكتاب أكتبه ، إذ لمحتْ عينى جارية كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ، ورميتُ الكتاب عن يدى ، وبادرتُ نحوها ، وبُهت أبى وظن أنه عرض لى عارض ، ثم راجعنى عقلى ، فمسحتُ وجهى ، ثم عدت واعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير ، وضعف فى السياسة ، وما شئ من الأشياء إلاّ وللمآخذ فيهُ سنّة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، وأخَرق فى سلوكها ، انعكس عمله عليه ، وكان كَدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء ، وكلما زاد عن وجه

(١) لم أهتد إلى أية ترجمة لهذه الشخصية ، أو للشخصيات الأخرى التى سوف ترد فى هذا الباب .

السّيرة انحرافاً ، وفى تجنّبها إغراقاً ، وفى غير الطريق إيغالا ، ازداد عن بلوغ مراده بعداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولا تسْعَ فى الأمرِ الجسيم تهارُنـاً
ولا تسـعَ جَهراً فى اليسير تُريدُهُ

وقـابلْ أفـانينَ الزمـانِ متى يَـرِدْ
عليـك فـإنّ الدهـرَ جَمٌّ ورُودُهُ

فأشكالُها من حُسْنِ سَعْيك يكْفِكَ الـ
ـيسيرُ بُغيرٌ والشريد شـريده (١)

ألم تبصـر المصْـباحَ أوّلَ وَقْدِه
وإشـعالِه بالنفـخ يُطفا وُقـودُهُ

وإن يَتَضَرّمْ لفحُـه ولهيبُـهُ
فنفـخُك يُذْكيـه وتبـدو صُـدودُه

★ خبـر :

وإني لأعرف من أهل قرطبة ، من أبناء الكتاب وجلّة الخَدَمة ، مَن اسمه أحمد بن فتح، وكنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم ، وطلاب الأدب ، يبز أصحابه فى الانقباض ، ويفوتهم فى

(١) هكذا ورد هذا البيت فى الأصل .

الدعة لا يُنظر إلا فى حلَقة فضل ، ولا يُرى إلا فى محفل مرضىّ ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائنا بنفسه ، ذاهباً بها ، ثم أبعدت الأقدارُ دارى من داره ، فأول خَبر طرأ علىّ بعد نزولى شاطبة ، أنه خلع عذاره فى حب فتى من أبناء الفنّائين [1] ، يسمى إبراهيم بن أحمد ، أعرفه لا تستاهل صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ، ووفْر تالد ، وصحّ عندى أنه كشف رأسه ، وأبدى وجهه ، ورَمى رَسَنه ، وحسَر مُحياه ، وشمّر عن ذراعيه ، وصمد صمْد الشهوة ، فصار حديثاً للسمّار ، ومدافَعاً بين نقلة الأخبار ، وتُهودى ذكره فى الأقطار ، وجرت نقلته فى« الأرض راحلة بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلاّ على كشف الغطاء ، وإذاعة السـر ، وشُنعة الحديث ، وقبح الأحدوثة ، وشرود محبـوبه عنه جملة ، والتحظير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنيا عن ذلك ، وبمندوحة واسعة ، ومعزل رحب عنه ، ولو طوى مكنون سرى ، وأخفى باليات ضميره ، لأستدان لباس العافية ، ولم يُنهج بُرد الصيانة ولكان له فى لقاء من بلى به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمـال وتعفف كاف ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به ، والحُجّة عليه

---

(١) وردت فى كل الطبعات العربية « الفتّانين » ، جمع فتّان ، أى الصائغ ؛ وبهذا المعنى ترجمها كل الذين نقلوا طوق الحمامة إلى لغاتهم ، وصححها ليفى بروفنسال « الفنائين » ، وتردد غومث عند ترجمته « طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، بين أن تكون « الفتّانين » ، جمع فتان ، بمعنى المثير للفتن ، وبين تصحيح بروفنسال ، ثم ارتضاه أخيراً ، وترجمها فى النص الإسبانى : ابن أحد المغنين .

قائمة ، إلاّ أنْ يكون مختلطاً فى تمييزه ، أو مصاباً فى عقله بجليل ما فدَحه ، فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وأمّا إنْ كانت بقية ، أو ثبتت مُسكة ، فهو ظالم فى تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسّراً فى باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث :

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المحب مِن محبوبه غدرا أو مللا أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصافَ منه إلاّ بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والإشتهار ، وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار ، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف .

وربما كان الكشف من حديثٍ يَنتشر ، وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور سره ، إمّا لاعجاب وإمّا لاستظهار على بعض ما يؤمله ، وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد .

وقرأت فى بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ، ولا يصدّقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوّه بذكرهن ، ولا أدرى مامعنى هذا ، على أنه يُذكر عنهن العفاف ، وأىّ عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

١٤

باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع مَن يحبه ، وترى المرء شَرِس الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حميّ الأنف ، أبىّ الخسف ، فما هو إلاّ أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورّط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليانا ، والصعوبة سهولة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاماً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فهـل للوصـال إلينـا مَعـادُ

وهـل لتصـاريف ذا الدهـر حدْ

فقد أصبحَ السيفُ عبدَ القَضيبِ

وأضحى الغـزالُ الأسيرُ أسدْ

وأقول شعراً ، منه :

وإنّى وإنْ تَعْتِبْ لأهْـونُ هالكٍ

كذائبِ نُقْرزل من يد جهْبـذِ

على أنّ قتلى فى هواك لذاذةٌ

فيا عجبٌ من هالك متلذّذ

ومنها :

ولو أبصرَتْ أنوارَ وجهك فارسٌ

لأغناهُم عن هُرمزان ومَوْبذ (١)

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى ، متبرماً بسماع الوجد ، فترى المحبّ حينئذ يكتُم حزنه ، ويكظم أسفه ، وينطوى على علته ، وإنّ الحبيب مُتجنٍّ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب ، والإقرار بالجريمة ، والمرء منها برئ ، تسليماً لقوله ، وتركاً لمخالفته ، وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقى الجلد .

وأقول شعرا إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :

وقد كنتَ تلقانى بوجهٍ لقُرْبه

تَدانٍ وللهجرانُ عن قُرْبه سَخَطُ

وما تكرهُ العَتبَ اليسيرَ سجيّتى

على أنه قد عِيبَ فى الشعرِ الوخْط

(١) يشير إلى عبادة الفرس للنار قديماً .

فقد يُتعب الإنسانُ فى الفكر نفسـهُ
وقد يَحْسنُ الخيلانُ فى الوجه والنقْط

تـزين إذا قلّتْ ، ويَفْحُشُ أمـــرُها
إذا أفرطت يومـاً ، وهل يُحمَدُ الفَرْط

ومنـه:

أعنْهُ فقد أضْـحىَ لفرْطِ هُمُـومِهِ
يُبكىّ إذا القرطاُس والحبرِ والخَط

ولا يقولن قائلا : أنّ صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة فى النفس ، فقد أخطأ ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان ، ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جاراً للمذالة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنســان لا يكلف بأمَته التى يملك رقّهـا ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها ، فكيف الانتصارُ منها ، وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين علْية الرجال الذين تُحصى أنفاســهم ، وتُتّبع معــانى كلامهم ، فَتُوجّـه لهـا الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يوقعونها سدى ، ولا يُلقونها هملا ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة ، وقضــيب مُناّد ، يجفو ويرضى متى شــاء لا لمعنى .

وفى ذلك أقول :

ليس التذلُّلُ فى الهوى يُستنكرُ
فالحُبُّ فيه يَخضَعُ المُستكبرُ

لا تعجبوا من ذِلّتي فى حالة
قد ذَلَّ فيها قبلىَ المُستنصر[1]

ليس الحبيبُ مماثلاً ومُكافياً
فيكونَ صبرُك ذلّةً إذ تصبر

تُفّاحةٌ وقعتْ فالم وَقْعُها
هل قَطْعُها منك انتصاراً يُذْكر

★ خبر :

وحدّثنى أبو دلف الوراق ، عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمجريطى [2] ، أنه قال ، فى المسجد الذى بشرقىّ

(١) فى الطبعات العربية « المستبصر » ، وصحتها المستنصر ، وهو الخليفة الحكم الثانى ، وكان عاشقاً لجاريته صبح ، أم ابنه الخليفه هشام المؤيد ، وفيما بعد سوف تصبح عشيقة المنصور بن أبى عامر .

(٢) مسلمة المجريطى ، فلكى ورياضى أندلسى ، توفى عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٧ م ، ومن بين مأثور كتبه : « رسالة الاسطرلاب » و « ثمار العدد » ، وملخص لزيج البتانى سماه « تعديل الكواكب » . وله ترجمة لكتاب « قبة الفلك » لبطليموس ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل بسويسرا عام ١٥٣٦ وينسب إليه مؤلف آخر هو أقرب إلى كتب الخرافات منه إلى كتب العلم ، يسمى « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، ويعرف فى الترجمات الإسبانية باسم « بكتاريش pictariX » ، وهى تحريف لبقراطيش ، وهو أبقراط .

مقبرة قريش بقرطبة ، الموازى لدار الوزير أبى عمرو أحمد بن محمد بن حدير [1] رحمه الله : فى هذا المسجد كان مرض مقدّم بن الأصفر أيام حداثته ، بعشق عجيب ، فتى الوزير أبى عمرو المذكور ، وكان يترك الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذه الحرس غير ما مرة فى الليل ، فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ، ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ، ويلطم خديه وعينيه ، فيسر

(١) أخطأت الطبعات العربية فى كل مرة عرضت فيها لهذا الاسم ، فذكرت أنه : « الوزير ابن عمر أحمد بن محمد حدير » ، وصححته على نحو ما فى الأصل .

وبنو حدير بيت أندلسى عريق ، من البيوتات الكبرى ، التى تقاسمت المناصب العالية ، وكان لهم دور ملحوظ فى الحياة العامة طوال أيام الدولة الأموية .

كان حدير الجد الأعلى قائما على باب السدة ، الباب الرئيسى فى قصر الإمارة فى قرطبة . على أيام الحكم الأول ، وحين اندلعت ثورة الربض عام ٢٠٢ هـ = ٨١٨ م وقضى عليها الحكم أمر حديراً أن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين فلم يستجب له ، وتولى الحكم إعدامهم بعيداً عنه .

وولى آبنه موسى الخزانة الكبرى على أيام عبد الرحمن الأوسط .

وولى حفيد له ، موسى بن محمد بن سعيد بن موسى الحجابة ، أى رئاسة الوزارة تقريباً ، لعبد الرحمن الناصر . وتوفى ٣١٩ هـ = ٩٣١ م .

وكان أبو عمر أحمد بن محمد الذى معنا فى نص الطوق ، شقيقاً لموسى ، وقائما على ديوان المظالم ، أيام عبد الرحمن الناصر ، وتوفى ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م .

بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عينى ، وكان على هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مَسلمة بهــــذا الحــــديث غير مرة بحضرة عجيب ، عنـدما كان يَرى من وجـاهة مقدم بن الأصـــفر وعَرْض جاهه وعافيته ، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا ، واختص بالمظفّر بن أبى عامر [1] اختصاصاً شديداً ، واتصـــل بوالدته وأهله ، وجـــرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات ، وتســـهيل وجوه الخير غيرُ قليل ، مع تصرّفه فى كل ما يتصرّف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

★ خبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد [2] ، صاحب

ولم أستطع ، فى ضوء ما لدى من مصادر ، تحديد شخصية أبى دلف الوراق ولا مقدم بن الأصفر .

(١) المظفر ، الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، ولى الحجابة بعد أبيه ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، وسنلتقى به كثيراً عبر الكتاب .

(٢) يعــرض ابن حـــزم فى هذه الفقــرة لثـلاثة من أبنـاء منـذر بن ســعيد البلوطى ، وكان منذر من أشــهر الفقهاء والخطبـاء والقضــاة فى عصر الخلافة . من أصـــل بربرى ، من فحص الـــبلوط ، وتســـمى اليوم وادى قلعة رباح Calatrava ، ورحل إلى المشرق ، حيث أمضى عامين دارساً بين مكة والقاهرة ، وعينه عبد الرحمن الناصر قاضى الجماعة فى قرطبة ، فكان شديد الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، وظل فى منصبه هذا ١٦ عاماً ، إلى أن توفى ، وخلف ثلاثة أبناء هم سعيد وحكم وعبد الملك .

الصلاة فى جامع قرطبة ، أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله ، جارية يحبها حبا شديدا ، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إنّ لحيتك أستبشع عظَمها ، فإنْ حذفْتَ منها كان ما ترغبه . فأعمل الجلمين (١) فيها حتى لطفت ، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به ، وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر : اعرض عليها أنىّ أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجّها فى ذلك المجلس بعينه ، ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده .

فأنا أدركت سعيدا هذا ، وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة ، وانتهابهم إياها (٢) وحَكَمُ المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم ، وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه ، وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهما بهذا

---

(١) فى الطبعات العربية « الجملين » ، وصححتها على نحو ما فى الأصل .

(٢) كان اقتحام البرابر قرطبة عنوة ، وانتهابهم لها وتدميرهم امعالمها ، فى نهاية شوال من ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، وتعرف فى المصادر العربية بفتنة البربر ، وتسميها المصادر الأجنبية « الحرب الأهلية » ، وكانت سيئة النتائج إلى حد كبير ، وتركت فى نفس ابن حزم أثرا واضحاً ، وشكلت حياته بقوة ، وخصصتها بدراسة مفصلة فى كتابى : « دراسات عن ابن حزم » .

المذهب أيضاً ، ولى خطة الرد [1] أيام الحكم رضى الله عنه ، وهو الذى صلبه المنصور بن أبى عامر إذ اتهمه هو ، وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة ، أنهم يُبايعون سرًا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن، وصُلب عبد الملك بن منذر ، وبدّد شمل جميع من اتهم ، وكان أبوهم قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضا ، وكان أخطب الناس وأعلمهم بكل فن ، وأورعهم وأكثرهم هزلا ودعابة .

وحَكَمُ المذكور فى الحياة ، وفى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة ، قد كُف بصره ، وأسن جدا .

★ **خبر :**

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أنى أعرفُ مَن كان سَهِر الليالى الكثيرة ، ولقى الجهد الجاهِد فقطّعتْ قلبَهُ ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه ، لاتعفُّفاً ولا تخوّفاً ، لكن توقُّفاً عند مُوافقة رضاه ، ولم يجد من نفسهُ مُعينا على إتيان ما لم

---

(١) فى الطبعات العربية « خطبة » وهو خطأ واضح ، وقد صححتها .

وخطة الرد أشبه ما تكون بمحاكم الاستئناف ، تعاود النظر فى أحكام القضاة إذا جدت ظروف تتطلب المراجعة ، وقد يحيل القاضى ، على صاحب خطة الرد مالا يتبين فيه وجه الحق ، وفيما بعد أدمجت فى خطة « صاحب المظالم » .

بَرّ له إليه نشاطاً وهو يجد ما يجد ، وإنى لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندّم لعذر ظهر من المحبوب .

فقلت فى ذلك :

غافِصِ الفُرصــةَ واعلم أنَّها   كمُضىّ البرقِ تمضى الفُرصُ

كــم أمــورٍ أُمْكِنَتْ أمْهِلُهَــا   هىَ عنــدى إذ تولّتْ غُصَصُ

بادرِ الــكنزَ الــذى ألفيتَــهُ   وانْتهــز صيْداً كبـازٍ يَقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبى المظفّر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود [1] صديقنا ، وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فكانت هجيراه .

★ خبر :

ولقد سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب [2] من أهل القيروان أيام كونى بالمرية [3] ، وكان طويل اللسان جدًّا ، متقفا للســؤال فى كل فن ، فقــال لى ، وقد جرى بعض ذكر الحب

---

(١) لم أجد أية ترجمة فيما بين يدى من مصادر لأبى المظفر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود ، صديق ابن حزم هذا .

(٢) لم أهتد له إلى أية ترجمة .

(٣) فى الأصل العربى « بالمدينة » ، ولكن ابن حزم لم يعش أبداً فى مدينة قرطبة نفسها ، أو ما كان يطلق عليه اسم المدينة منها ، وإنما عاش حياته كلها فى ضواحيها ، أو بعيداً عنها ، ومن ثم رجحت أن أصلها « المرية » ، وسياق النص يدعم رأيى .

انظر مصورا مدينة قرطبة فى القرن العاشر ، الملحق بهذا الكتاب .

ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى ، وتجنب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإنْ كره . فقال : لكنّى لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواى ، ومُراده على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الحَتف ، فقلت له : إنّى إنّما أحببته لنفسى ، ولا لتلذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ما تمنى به الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إنْ بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلىّ ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفا . فقال : وأى آفة أعظم من الحب .

١٥

باب المخالفة

وربما اتبع المحب شهوته ، وركب رأسه ، فبلغ شِفاءه من محبوبه ، وتعمَّد مسرته منه على كل الوجوه ، سخط أو رضى ، ومَن ساعده الوقت على هذا وثبت جنانه ، وأتيحت له الأقدار ، استوفى لذته جميعها ، وذهب غمه ، وانقطع همّه ، ورأى أمله ، وبلغ مرغوبه، وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنــا بلَّغتُ نفسِى المُنى ... من رَشــاً مازال لى مُمْرِضــاً

فمــا أبالي الكُرْهَ من طــاعةٍ ... ولا أبالِي سَخَطاً مــن رِضــاً

إذا وجــدتُ المـــاءَ لابُــدَّ أنْ ... أُطفى به مُشْعل جَمْرِ الغضا

١٦

باب العاذل

والحُب آفاتٌ .

فأولها العاذل ، والعُذّال أقسام ، فأفضلهم صديق قد أسقطتَ مؤونة التحفظ بينك وبينه ، فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ، وهى من الحظ والنهى ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ولا سيما إن كان رفيقاً فى قوله ، حسن التوصل إلى ما يورد من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، وبالأحيان التى يزيد فيها الأمر ، والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعُّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل . ووقع لى مثل هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه ، وذلك أن أبا السرى عمار بن زياد [١] صديقنا ، أكثر من عذلى على نحوٍ نَحْوتُه ، وأعان علىّ بعض من لامنى فى ذلك الوجه

(١) التقينا به فى الباب الثالث ، وسنلتقى به مرات أخرى فيما بعد ، وهو شخصية لا تعرض لها المصادر التى بين ايدينا .

أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئاً كنتُ أو مصيباً ، لوكيد صداقتى ، وصحيح أُخوتى به .

ولقد رأيت من اشتد وجده ، وعظم كلفه ، حتى كان العَذل أحب شئ إليه ، ليرى العاذل عصيانه ، ويستلذ مخالفته ، ويحصّل مقاومته اللائمة ، وغلبته إياه . كالملك الهازم لعدوه ، والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويُسَرُّ بما يقع منه فى ذلك ، وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أحبُّ شىءٍ إلىَّ اللــــومُ والعــــذلُ
كَىْ أسمعَ اسم الذى ذكراهُ لى أملُ
كأنّنى شــاربٌ بالعــذْل صــــافيةً
وباسمِ مولاى بعد الشَرْبِ أنتقل [1]

---

(١) انتقل : أكل من النقل ، وهو ما يقدم مع الشراب من مشهيات .

١٧

باب المساعِد من الإخوان

ومن الأسباب المتمناة فى الحب أن يهب اللّه عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المحالفة ، مستوى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيـل المداخـــل ، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخـلاق ، سرى الأعـراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صـحيح الأمانة ، مأمون الخيـانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَنَاء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الإنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه فى خلوة فكره ، ويفاوضه فى مكتوماته ، وإن فيه

للمحب لأعظمَ الراحات . وأين هذا ؟ فإنْ ظفرت به يداك فشُدّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلي الأحزان ، ويقصر الزمان، وتطيب الأحوال ، ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأيا حسنا .

ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراءَ والدخلاءَ كي يخفّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهظ الأحمال ، ولكي يستغنوا بآرائهم ، ويستمدوا بكفايتهم ، وإلاّ فليس في قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها ، ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان ، وقلّة ثقته منهم ، لما جرّبه من الناس ، وأنه لم يعدم مَن باح إليه بشئ من سرّه أحد وجهين : إمّا إزراء على رأيه ، وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأنس، وكان ينفرد في المكان النازح عن الأنيس ، ويناجي الهوى ، ويكلّم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما يجدها المريض في التأوّه ، والمحزون في الزفير، فإن الهموم إذا ترادفت في قلب ضاق بها ، فإن لم يُنْض منها شيئا باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى ، لم يلبث أن يهلك غمّا ويموت أسفاً .

وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء ، فعندهم من المحافظة على هذا الشأن ، والتواصي بكتمانه ، والتواطؤ على طيه إذا اطلعن

عليه ، ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلاّ وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة ، مرميّة عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا فى النُّدرة ، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

★ **خبر :**

وإنى لأعلم امرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك ، وعندها جليّة أمرها ، فأخذتها ، وكانت غليظة العقوبة ، فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء أن تبوح لها بشئ مما ذُكر لها ، فلم تفعل البتة .

★ **خبر :**

وإنى لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ، ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتـاب لفتى إلى جارية كان يَكْلَف بها ، وكان فى غير ملكها ، فعرّفته الأمر ، فرام الإنكار ، فلم يتهيـأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا ، فوالله لاأطلعتُ على سرّكما أحداً أبداً ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك

من مالى ، ولو أحاط به كله ، لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ، ولا يَشعر بذلك أحد .

وإنك لترى المرأة الصالحة المسنّة ، المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيُها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مُقلّة .

وما أعلم علّة تمكن هذا الطبعَ من النساء ، إلاّ أنّهن متفرّغات البال من كل شئ ، إلاّ من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خُلقن لسواه ، والرجالُ مُقتسون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومُكابدة الأسفار ، والصيد ، وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ، وملاقاة الفِتن ، وتحمُل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل ، وقرأت فى سير ملوك السودان أنّ الملك منهم يوكّل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهنّ ضريبةَ من غَزْل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، لأنهم يقولون : إنّ المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح .

ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن ، ولا جالستُ الرجال إلاّ وأنا فى حدّ الشباب ، وحين تفيّل

وجهى ، وهن علمننى القرآن ، وروّيننى كثيراً من الأشعار ، ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وكُدى ، وإعمال ذهنى مذأول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جداً ، إلاّ تعرّف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به . فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل ، وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

١٨
باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيبُ ، وإنّه لحُمّى باطنة ، وبرسام ملحّ ، وفكر مُكِبّ . والرقباء أقسام :

فأولهم مُثْقِل بالجلوس ، غير متعمد ، فى مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شئ من سرّهما ، والبوح بوجدهما ، والانفراد بالحديث ، ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشدّ منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائقٌ حال دون المُراد ، وقَطَعَ متوفّر الرجاء .

★ خبر :

لقد شاهدت يوماً مُحبّيْنِ فى مكان قد ظنّا أنّهما انفردا فيه ، وتأهّبا للشكوى ، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حِمًى ، فلم يلبثا أنْ طلع عليهما مَن كانا يَستثقلانه ، فرآنى فَعَدل إلىّ ، وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب ، وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب ، لرأيت عجباً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيلُ جلُوساً وهو أثقلُ جالسٍ

ويُبدي حديثاً لستُ أرضى فُنونَهُ

شَمامٌ ورَضْوى واللُّكامُ ويَذْبُلُ

ولبنانُ والصَّمّانُ والحزْنُ(١) دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بطرف ، وتوجس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فُيدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفَّى بالحركات ، ويرمُق الوُجوه ، ويحصّل الأنفاس ، وهذا أعدى من الجرب ، وإنيّ لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته .

وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصلٌ لا يُغبُّ قَصْداً أعْظِم بهذا الوصال غمَّا

صارَ وصِرْنا لفَرْطِ ما لا يَزُولُ كالاسم والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لا حيلةَ فيه إلاّ بترضيه ، وإذا أُرضيَ فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذي ذكرتْه الشعراء في أشعارها .

ولقد شاهدتُ مَن تلطّف في استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلا في وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له .

ففي ذلك أقول :

---

(١) في الطبعات العربية « والحرب » ، وصححتها « والحزن » ، لتوائم المعنى ، وأعتقد أنها في الأصل كذلك ، وأن « والحرب » تحريف من الناسخ .

وربَّ رقيبٍ أرْقبـــوه فلـم يزلْ على سيِّدِي عمْداً ليُبْعِدَني عَنْهُ
فما زالت الألطافُ تحكمُ أمرَهُ إلى أنْ غدا خوْفِي له آمِناً منه
وكان حُسَاماً سُلَّ حتى يَهُدَّني فعـادَ مُحبّـا ما لنعمتِـه كُنْـه

وأقول قطعة ، منها :

صـارَ حيـاةً وكان سَهْمَ رَدَىً وكان سمَّـا فصـارَ دِرياقـاً

وإنى لأعرف من رقب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً ، وثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه ، وأصلَ البلاء فيه .

وأمّا إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ، ولا وجد إلى ترضّيه سبيل ، فلا طَمع إلاّ بالإشارة بالعين همساً ، وبالحاجب أحياناً ، والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المشتاق .

وفى ذلك أقول شعراً أوّله :

على سيِّدِي منىّ رقيبٌ محافظٌ وفىَّ لمـــن والاه لليس بنـــاكثِ

ومنــه :

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانة فى الهوَى ويفعلُ فيها فعْلَ بعض الحوادثِ
كأنَّ لــه فى قلبــه ريبــةً تُرى وفى كُلّ عين مُخبـرٌ بالأحــادثَ

ومنه :

على كلّ مَن حـولِى رقيبـانِ رُتّبـا
وقد خصّنى ذو العرشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديماً ، ودُهى به ، وطالت مدته فيه ، ثم عُرّىَ عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان

راغباً فى صيانة من رقّب عليه ، فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .

وفى ذلك أقول :

رقيبٌ طالما عَـرَفَ الغـــراما   وقاسَى الوَجْدَ وامْتنعَ المَناما
ولاقَى فى الهــوَى ألماً أليمــا   وكـاد الحُبُّ يُوردُهُ الحِمـــاما
وأتقنَ حيــلةَ الصـــبِّ المُعَنىَّ   ولم يَضَـعِ الإشـــارةَ والكلاما
وأعْقبــهُ التسـلّى بعــد هــذا   وصار يرى الهوى عاراً وداماً
وصُيِّر دون مَن أهـــوى رقيباً   ليُبْعِــدَ عنه صــبّاً مُسـتهاما
فــأىُّ بَليّــة صـــبَّتْ علينـــا   وأىُّ مصـــــيبةٍ حلّت لِمـــاما

ومن طريف معانى الرقباء أنى أعرف محبين مذهبهما واحد فى حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدى بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه .

وفى ذلك أقول :

صَبَّانِ هَيْمــانانِ فى واحِـدٍ   كِلاهُمـــا عن خِدْنه مُنْحـرِفْ
كالكلبِ فى الآرىِّ لا يعتـلفْ   ولا يُخلى العَيْرَ أنْ يعتلفْ (١)

(١) الآرى : محبس الدابة .
وقد انتقل هذا المثل إلى اللغة الإسبانية فأصبح : « ككلب الجنان ، لا يأكل ولا يدع سيده يأكل » .

١٩

باب الوشي

ومن آفات الحب الواشى ، وهو على ضربين :

أحدهما واش يريد القطع بين المتحابيّن فقط ، وإنّ هذا لأفترهما سوءة ، على أنه السم الذّعاف ، والصاب الممقر ، والحتف القاصد ، والبلاء الوارد ، وربما لم يَنجح ترقيشه .

وأكثر ما يكون الواشى فإلى المحبوب ، وأما المحب فهيهات ، حال الَجريض دون القريض ، ومنع الحَرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى ، وقد علم الُوشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخلىّ البال ، الصائل بحوزة الملك المتعتب عند أقل سبب .

وإنّ للُوشاة ضروباً من التنقيل .

فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطئ البُرء إلاّ أن يوافق معارضاً للمُحب في محبته ، وهذا أمر يوجب النفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون

المحبوب ذا عقل وله حظ من التمييز ، ثم يدعه والمطاولة فإذا تكذب عنده نَقْل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفّظ ، ولم يسمع لسره إذاعة ، علم أه إنما زوّرله الباطل ، واضمحل ما قام فى نفسه .

ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه ، وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلّته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى أن ضاق صدره وباح بما نقل إليه . فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره ، لعلمت أن الهوى سلطان مطاع ، وبناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة ، والرمى بالمقاليد ، فبعد لأىٍ ما صَلُحَ الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يظهر المُحبُّ من المحبة ليست بصحيحة ، وأنّ مذهبه فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذّذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما ، وقد وقع من هذا نبذ كافية فى باب الطاعة .

وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أنْ يكون المُحب فتى حسن الوجه ، حلو الحركات ، مرغوباً فيه ، مائلا

إلى اللذات ، دنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر ، سريّة المنصب ، فأقرب الأشياء سعيها فى إهلاكه ، وتصدّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم من سُقى السم فقطع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حُدَيْر ، والد أحمد المتنسك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابنى لُبْنَى ، من قبل قطر الندى جاريته .

وفى ذلك أقول محذراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمنُ النســـوانَ غَيْرُ مُغفَّلٍ   جهولٌ لأسبابِ الردَى مُتَأَرِّضِ
وكم واردٍ حوضَ من الموتِ أسودٍ   تَرشَّفهُ من طيِّبِ الطعمِ أبيض

والثانى واش يسعى للقطع بين المُحبين ، لينفرد بالمحبوب ويستأثره ، وهذا أشد شىء وأقطعه ، وأجزم لاجتهاد الواشى واستنفاده جُهده .

ومن الوُشاة جنس ثالث ، وهو واش يَسعى بهما جميعاً ، ويكشف سرّهما ، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحب مساعداً .

وفى ذلك أقول :

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشفُ أمّرنَا   ومـا بســـوَى أخبــارنا يَتنفَّسُ
وماذا عليه من عَنــائِى ولوعتِى   أنا آكلُ الرُمّانَ والولْدُ تَضرَس (١)

(١) يعكس هذا البيت ثقافة ابن حزم الواسعة ، ومعرفته بما فى الكتب الدينية الأخرى . فالبيت مقتبس من التوراة ، ونص الفقرة هناك : « الآباء أكلوا الحصرم ، وأسنان الأبناء ضرست » . أنظر : سفر حزقيال ، الإصحاح الثامن عشر .

ولابد أن أورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وأن كان خارجاً منه ، وهو شيء فى بيان التنقيل والنمائم ، فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا فى أول الرسالة ، وما فى جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النمّامون ، وإنّ النميمة لَطبْع يدُل على نتن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخُبْث النشأة ، ولابد لصاحبه من الكذب .

والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كلّ ذى عَيب وإن كان عظيما ، وأكِل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب ، فهو عندى ماح لكل محاسنه ، ومُعَف على جميع خِصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرنى من رأى ، كذّاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلاّ أن أطلّع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرِّض لمتاركته ، وهى سمة ما رأيتها قط فى أحد إلاّ وهو مزنون فى نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء فى ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخِ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك ، والملول فإنه أوثق ما تكون به لطول

الصحبة وتأكّدها يخذلك ، والكذّاب فإنه يجنى عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : « حسن العهد من الايمان » .

وعنه عليه السلام : « لا يؤمن الرجل بالايمان كله حتى يدع الكذب فىَ المُزاح » .

حدّثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد ، عن محمد بن على بن رِفاعة ، عن على بن عبد العزيز ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه . والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

واللّه عز وجل يقول : « يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفْعلون . كَبِرَ مَقْتًا عندَ اللّهِ أنْ تَقولوا ما لا تفْعلون »(١) .

وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه سئل : هل يكون المؤمن بَخيلا ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمنَ جَبانًا ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذّابًا ؟ قال : لا » .

حدّثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن

---

(١) سورة الصف : الآيتان ٣ ، ٤ .

عبيد اللّه بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن عبيد اللّه بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « لا خير في الكذب في حديث سئل فيه » .

وبهذا الإسناد عن مالك أنّه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العبد يكّذب وينكت في قلبه نُكتة سوداء ، حتى يسودّ القلب ، فيُكتب عند اللّه من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضي اللّه عنه أنه قال : « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر ، والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار » .

وروى أنه أتاه صلى اللّه عليه وسلم رجل فقال : يا رسول اللّه إنى أستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب ، فمُرنى أيّها أترك . قال أترك الكذب فذهب منه . ثم أراد الزنا ففكّر فقال : آتى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فإنْ قلت : نعم ، حدّنى ، إنْ قلت : لا ، نقضت العهد ، فتركه . ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه ، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوءٍ ، وجالبٌ لمقت اللّه عز وجل ، وعن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه أنه قال : « كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » . وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً : مَن إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

وهل الكُفر إلا كذب على اللّه عز وجل ، واللّه الحق ، وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكّدت البغضاء والإحن المردية ؤلاّ بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلا عن غيره ، بالعين التى ينظر بها من الكلب . واللّه عز وجل يقول : « ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة »[1] ويقول جل من قائل : « يا أيُّها الذين آمَنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فَتَبَيَّنُوا » [2] . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : « ولا تُطعْ

(١) سورة الهمزة ، الآية رقم ١ .
(٢)سورة الحجرات ، الآية رقم ٦ .

كلَّ حلاَّفٍ مَهين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنميم . مَنَّاع للخيرِ مُعتدٍ أثيم عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم » (١) . والرسول عليه السلام يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات »(٢) ويقول : « إياكم وقاتل الثلاثة » . يعنى المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوجهين ألاّ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يجعله من أخسّ الطبائع وأرذلها » .

وَلِى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى الشاعر رحمه الله(٣) ، وقد نقل إليه رجل من إخوانى عنى كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثيرَ الوهم ، فأغضبه وصدّقه . وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ، ولكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالجبر ، شعراً منه :

ولا تَتَبَدَّلْ قالةً قد سمعتَها تُقالُ ولا تَدرِى الصحيحَ بما تدرِى

كمن قد أراقَ الماءَ للآلِ أنْ بدا فلاقىَ الردَى فى الأفْيَح المَهْمَهِ القفْرِ

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى شعراً ، منه :

ولا تَزْعُمَا فى الجدِّ مَزْحًا كمولجٍ فسادَ علاجِ النفسِ طىَّ صلاحِها

(١) سورة القلم ، الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ .
(٢) قتات : نمام .
(٣) لم أهتد إلى أية ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى .

ومَن كان نَقْلُ الزورِ أمضى سلاحِهِ   كمثـــلِ الحُبـــارَى تتّقِى بسُلاحها

وكان لى صديق مرة ، وكثر التدخيلُ بينى وبينه ، حتى كدح ذلك فيه ، واستبان فى وجهه ، وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنى والتربُص والمُسالمة ما أمكنت ، ووجدت بالانخفاض سبيلا إلى معاودة المودّة ، فكتبت إليه شعراً . منه :

ولى فى الذى أبْدِى مرام لوانّهـــا   بَدَتْ ما ادعّى حُسْنَ الرمايةِ وَهْرِزُ (١)

وأقول مخاطباً لعُبيد الله بن يحيى الجزيرى (٢) ، الذى يُحْفَظُ لعمه الرسائل البليغة ، وكان طبْع الكذب قد استولى عليه ، واستحوذ على عقله ، وألفه ألفة النفس الأمل ، ويؤكد نقله كذبه بالأيمان المؤكّدة المُغلظة ، مجاهراً بها ، أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدّث من قد صحّ عنده أنه لا يصدّقه ، فلا يزجره ذلك عن أن يحدّث بالكذب :

---

(١) وهرز : قوّاس صائب الرماية ، فارسى الأصل ، كان مشهوراً بذلك فى الجاهلية .

(٢) لانتوفر على معلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عبيد الله بن يحيى هذا ، ولكن المصادر التاريخية تمدنا بمعلومات طيبة عن عمه أبى مروان عبد الملك بن ادريس الجزيرى ، المشار إليه فى النص ، فقد ذكر الحميدى أنه : « عالم أديب شاعر ، كثير الشعر ، غزير المادة ، معدوداً فى أكابر البلغاء ، من ذوى البديهة ، وله فى ذلك رسائل وأشعار مروية » . وكان شاعر المنصور بن أبى عامر ، ثم ابنه المظفر من بعده ، وقد سخط عليه المظفر ، واتهمه بالتآمر ، وألقى به فى السجن ، فتوفى بالمطبق فى ذى القعدة من عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م .

بدا كـــلُّ ما كَتَمْتَهُ بينَ مُخْبِرٍ وحـــال أرَتْنى قُبْحَ عَقدك بَيِّنًا

وكم حالةٍ صـــارتْ بَياناً بحالةٍ كما تُثْبِتُ الأحكامُ بالحَبَلِ الزنا

وفيه أقول قطعة منها :

أنَمُّ من المــرآة فى كلِّ ما دَرَى وأقطعُ بين الناسِ مِن قُضْبِ الهِنْد

أظنُّ المنـايا والزمان تعلَّمـــا تَحيلُهُ بالقْـــع بين ذوى الـــوُدِّ

وفيه أيضاً من قصيدة طويلة :

وأكْذَبُ من حُسْنِ الظنـونِ حديثُهُ وأقْبَحُ من دَيْنٍ وفقـــرٍ مُـــلازِمِ

أوامرُ ربِّ العرشِ أضْيعُ عنـــدَهُ وأهونُ من شكوَى إلى غير راحم

تجمَّعَ فيه كـــلُّ خِزْيٍ وفَضــحةٍ فلم يُبقِ شتْماً فى المقـال لشاتم

وأثقلُ من عَذْلٍ على غـــيرِ قابلٍ وأبردُ برداً من مدينـة سالم (١)

(١) مدينة سالم Medinaceli ، مدينة كبيرة ، لاتزال تحتفظ باسمها العربى حتى يومنا هـذا ، فى الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وعلى بعد ١٣٥ ك. م. من مدريد ، وهى من أعمال مقاطعة سورية Soria ، وتدين بعمرانها إلى بربرى من قبيلة مصمودة ، يدعى سالم بن ورعمال ، وإليه تنسب ، وكان سالم ، فيما يبدو ، من كبار قادة البربر ، ودخل الأندلس فى سن مبكرة ، وقد أصبحت المدينة مركزاً عسكرياً هاماً ، وعنى بها عبد الرحمن الناصر ، وانتدب لبنائها أكبر قواده ، وبها توفى المنصور بن أبى عامر ، عام ١٠٠٢ م ، أثناء عودته من حملة قام بها ضد قشتالة Castilla† ، وهى الحملة الخمسون من حملاته ، ودفن معه فى القبر الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، ونقش على قبره الأبيات الآتية :

آثاره تنبيك عن أخبــــاره حتى كـــأنك بالعيـان تراه

تا الله لا يأتى الزمان بمثـــله أبداً ولا يحمى الثغور ســواه

غير أن تعليق صـاحب تاريخ إسبانيا المقدسة ، كان ينضح بغضاً يقول : « وفى سنة ١٠٠٢ مات المنصور ودفن فى الجحيم » .

ولقد ترددت على المدينة أكثر من مرة ، وذكرى المنصور ماتزال فى أذهان الناس ، أقاصيص وحكايات ، ولكن المدينة لا تعرف له قبراً !

وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجـرٍ ورِقْبـةٍ جُمِعْنَ على حَرَّانَ حَيْـرانَ هائمِ

وليس من نبه غافلا أو نصح صديقا أو حفظ مسلما أو حكى عن فاسق أو حدّث عن عدو ما لم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، منقِّلاً . وهل هلك الضعفاء ، وسقط من لا عقل له ، إلا في قلّة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما صفتان متقاربتان في الظاهر ، متفاوتتان في الباطن ، إحداهما داء ، والأخرى دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضيّ في الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش .

فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن يقع في طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ، ومضاء تقديره ، فيما يَرده من أمور دنياه ، ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلا له ، وسراجاً يستضيء به ، فحيثما سلك به سلك ، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة ، وباعث الرسول عليه السلام ، ومرتّب الأوامر والنواهي ، أعلم بطريق الحق ، وأدرى بعواقب السلامة ، ومغبات النجاة ، من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه في ظنه .

٢٠

باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل . وهو حظ رفيع ، ومرتبة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجددة (١) ، والعيش السنىّ ، والسرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة ، ولولا أن الدنيا دار مَمَر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إنّ وصْل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى .

ولقد جرّبت اللذات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود

---

(١) منذ نشر بتروف ، المستشرق الروسى ، النص العربى لطوق الحمامة ، عام ١٩١٤ ، وتوالت ترجماته ، وعامة المستشرقين يقفون عند هذه الجملة لابن حزم : « الحياة المجددة » ، فقد كانت العنوان الذى أعطاه الشاعر الإيطالى دانتى Dante (١٢٢٥ – ١٣٢١ م) ، لأهم أعماله الادبية : « الحياة المجددة La Vita Novs » . أكان مجرد التقاء فكر بين عبقريين ، أم أن الأديب الإيطالى عرف كتاب الطوق ؟ سؤال فى انتظار من يجيب عليه . وهذا ما سأحاوله فى دراسة مقارنة بين طوق الحمامة لابن حزم ، والحياة الجديدة لدانتى ، مع ترجمة نص كتابه الى العربية للمرة الأولى ، وسوف تنشر قريبا بعنوان : الحب عند دانتى وابن حزم : دراسة مقارنة .

بعد العدم ، ولا الأوْبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل لاسيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر ، حتى يتأجّج عليه الجوى ، ويتوقّد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غِبِّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حَبيب قد رضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه . وإنه لمعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام .

وفى ذلك أقول :

وسائلٍ لِيَ عمَّا لِي مِن العُمُرِ وقد رأى الشيبَ فى الفوْدَيْن والعُذُر

أجَبْتُهُ ساعةٌ لا شيءَ أحسبُه عُمراً سواها بحكْمِ العقْل والنظَر

فقال لى : كيف ذا ؟ بيِّنه لى ، فلقد أخْبَرْتَنى أشنعَ الأنباءِ والخَبَر

فقلت : إنَّ التى قلبى بها عَلِقٌ قَبَّلْتُها قبلةً يوماً على خَطَر

فما أعُدُّ ولو طالتْ سِنِيَّ سوَى تلكَ السويعةِ بالتحقيقِ مِن عُمُرِى

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب ، وهو ينقسم قسمين : أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه .

وفيه أقول قطعة ، منها :

أُسامِرُ البــــدرَ لمّا أبطأتْ وأرى في نورِه من سَنَا إشراقها عَرَضا

فبِتُّ مُشْترطـــــا والوُدُّ مختلطاً والوَصْلُ مُنبسطاً والهجرُ مُنقبضاً

والثانى انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإن لمبادىء الوصل ، وأوائل الأسعاف لتولّجا على الفؤاد ليس لشىء من الأشياء .

وإنى لأعرف من كـان مُمتحنا بهـوى فى بعض المنـــازل المصاقبة ، فكان يصل متى شاء بلا مانع ، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلا ، ليلا متى أحب ونهاراً ، الى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة ، ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً . فقلت فى ذلك :

برغبةٍ لو إلى ربىَّ دعوتُ بهـــــا لــكان ذنبىَ عنـــــد اللهِ مغفورًا

ولو دعوتُ بهـــــا أسد الفلا لَغَدا إضرارُها عن جميع الناسِ مقصورًا

فجـــــاد باللثم لِى من بَعْد مَنْعتِهِ فاهتاجَ من لوعتِى ما كـــان مغمورا

كشاربِ الماءِ كي يُطفيء الغليلَ به   فغُصَّ فانصاع في الأجداثِ مقبورا

وقلت :

جرى الحبُّ مِنِّى مجرى النَّفَسْ   وأعطيْتُ عَينِى عِنانَ الفَرسْ

ولى سيدٌ لم يزل نافــــــــرا   وربُّتما جـادَ لى فى الخُلَس

فقبّلْتُهُ طالبًـــــا راحـــــةً   فزاد أليـــلا بقلبى اليَبَس

وكــــــان فؤادى كَنَبْتٍ هَشيمٍ   يَبيسٍ رمىَ فيـــه رَامٍ قَبَس

ومنهـــا :

ويا جوهرَ الصينِ سُحْقًا فقــد   غَنيتُ بيـــاقوتةِ الأنــدلسْ

★ خبــر :

وإنى لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، إلى أن ضَنَيَتْ بحبه ، وهو بغرارة الصِّبى لا يشعر . ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه ، لأنها كانت بكرا بخاتمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافقه . فلمَّا تمادى الأمر ، وكانا إلفين فى النشأة ، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى ، كانت تثق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لقنًا ذكيا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش

الكلام بوهمه ، إلى أن عِيل صبرُها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردين ، ولقد كان يعلم الله عفيفًا مُتصاونًا بعيدًا عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبلته فى فَمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنَّها حين تخطـو فى تأوُّدِها   قضيبُ نَرجسةٍ فى الروضِ مَيَّاسُ

كأنَّما خَلْدُها فى قلبِ عاشقها   ففيهِ مِن وقْعهـا خَطْرٌ وَوَسْوَاسُ

كأنَّما مَشْيُها مَشْىُ الحمـامةِ لا   كَدٌّ يُعـابُ ولا بُـطءٌ به باس

فبُهت وسُقط فى يده ، وفُت فى عضده ، ووجد فى كبده وعلته وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ، ووقع شرك الرَّدى ، واشتعلت فى قلبه النار وتصعَّدت أنفاسه ، وترادفت أوجاله وكثر قلقه ، وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عينا ، وكان هـذا بدء الحب بينهما دهرًا ، إلى أن جذت جملتهـا يدُ النوى ، وإن هـذا لمن مصائد إبليس ، ودواعى الهوى التى لا يقف لها أحد ، إلاَّ من عصمه الله عز وجل .

ومن الناس من يقول : إنَّ دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهذا حكم من تداوى برأيه وإن رفّه عنه سريعًا . ولقد بلغتُ من التمكن بمن أحبُّ أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتُنى إلا مستزيدًا ، ولقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة .

ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أحب ، فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل ، إلاّ وجدته مقصرًا عن مرادى ، وغير شاف وجْدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدتنى كلما ازددت دُنوًا ازددتُ ولوعًا ، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمُـــديةٍ وأُدخلتِ فيـــهِ ثمّ أُطبِقَ فى صَدْرِى
فأصبحتِ فيـــه لا تحلِّينَ غيرَه إلى مُقْتضى يومِ القيــامةِ والحَشْر
تعيشينَ فيه ما حييتُ فإن أَمُتْ سكنْتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَم القبر

ومافى الدنيا حالة تعدل محبّيْن إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البيْن ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّل ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، وأتاح الله لهما رزقاً دارًا ، وعيشاً قارًا ، وزمانًا هاديًا ، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الرّب من الحال ، وطالت صُحبتهما ، واتصلت إلى وقتُ

حلول الحِمام الذى لا مردّ له ، ولابد منه . هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد ، وحاجة لم تُقض لكل طالب ، ولولا أنّ مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل ، من حُلول فراق لم يكتسب ؛ واخترام منية فى حال الشباب أو ما أشـبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة .

ولقد رأيتُ مَن اجتمع له هذا كله ، إلاّ أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشراسة الأخـلاق ، ودالة على المَحبـة ، فكانا لا يتهنّيان العيش ، ولا تطلع الشمس فى يوم إلاّ وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخُلق ، لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، الى أن دنت النوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتب لهذا العالم .

وفى ذلك أقول :

كيف أذُمُّ النـــوَى وأظلِمُهَا وكلُّ أخـلاقِ مَن أُحِبُّ نَوَى

قد كان يَكفى هوًى أضيقُ به فكيفَ إذْ حَلَّ بِى نَوىً وهَوَى

وروى عن زياد بن أبى سفيان رحمه الله أنه قال لجُلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقى من قريش ؟ قيل ؟ فأنت . قال أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل فمن أيها الأمير . قال : رجل مُسلم ، له زوجة مسلمة ، لهما كفاف من العيش ، قد رضيت به ورضى بها ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب .

ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على الرقة ، الرائقة المعنى ، لا سيما إن كان هوى يتكتّم به . فلو رأيتَ المحبوبَ حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضّبه بمحبِّه ، وخجلته في الخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيلّه في استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجبًا ، ولذة مخفيّة لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ، ولا أغوص على حياتها ، ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل ، وإنّ للمُحبين في الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكية ، والأفكار القوية .

ولقد رأيت في بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ	جوزتَ ما شئتَ على الغافلِ
وفيهما فرْقٌ صحيحٌ له	علامةٌ تبدو إلى العاقل
كالتِّبر إنْ تمزجْ به فِضّةً	جازت على كلِّ فتىً جاهل
وإنْ تُصادفِ صائغًا ماهرًا	ميَّز بَيْنَ المحْضِ والحايل

وإني لأعلم فتى وجارية ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد ، وبينهما المُسند العظيم من المسـاند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقي رأساهما وراء المسند ، ويقبِّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكإنهما إنما يتمددان من الكلل . ولقد كان بلغ من تكافيهما في المودة أمرًا عظيمًا ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها .

وفي ذلك أقول :

ومِن أعاجيبِ الزمـــانِ التي ... طمَّتْ على السامعِ والقائلِ

رَغبـــــةُ مَركوبٍ إلى راكبٍ ... وذِلَّةُ المســـئول للســائل

وطَـــولُ مأســـورٍ إلى آسرٍ ... وصَوْلةُ المَقتـــولِ للقــاتل

ما إنْ سمعنَا في الوَرَى قبلَهَا ... خُضوعَ مأمولٍ إلى آمــــل

هـــل هَاهُنا وجــهٌ نراه سِـوى ... تواضـــع المَفعولِ للفــاعل

ولقد حدثتني امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد ، إجتمعا في مكان على طرب ، وفي يد الفتىٍ سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرَّها جرًا زائدًا فقطع إبهامه قطعًا لطيفًا ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها ، وأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

★ **خبر :**

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى ، وأخوها [1] الوزير القائد ، الذى كان قتله غالبٌ وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ، ويوسف بن سعيد العكّى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ، ابن الوزير يحيى بن إسحاق [2] فعاجلته المنية وهما فى أغض عيشهما ، وأنضر

---

(١) فى الأصل ، وفى الطبعات العربية « وأخوه » ، وقد صححتها فى ضوء المراجع التاريخية « وأخوها » ، والهامش التالى يزيد الأمر وضوحاً .

(٢) يحيى بن زكريا التميمى ، يعرف بابن برطال ، كان والد بريهة أم المنصور بن أبى عامر ، وكان ابنه زكريا ، خال المنصور ، قاضياً على بطليوس وباجة ، فى أيام الخلفاء الأول ، وتوفى عام ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م .

* وكان ابنه الثانى محمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من ٣٨١ هـ = ٩٩١ م الى ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، ثم ظهر اختلاله لكبر سنه ، فتخوف منه المنصور ، فنقله من القضاء إلى الوزارة ، ولكن ما لبث أن توفى عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م .

* أما الوزير القائد الذى أشار إليه نص « طوق الحمامة » دون أن يذكر اسمه ، فقد كان أخا لبنت زكريا التى يتحدث عنها ابن حزم ، وليس أخا القاضى كما يفهم من النص قبل تصحيحه . والمعركة التى يشير إليها ابن حزم ، وقعت عام ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ، بين المنصور بن أبى عامر وغالب بن عبد الرحمن ، من قواد الحكم الثانى .

* ويحيى بن إسحاق كان من قواد عبد الرحمن الناصر .

* أما القائدان الآخران ، مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكى ، فلم أهتد لهما إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ، ويحتفظ به من الحضر ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعًا من النفس شهيًا .

وفى ذلك أقول :

إنّ للوصْل الخفىّ محــــلاً ليس للوصلِ المكينِ الجليّ

لَذّةٌ تمزجُهَـــــا بارتقـــابٍ كمسيرٍ فى خــــلالِ النقّ

★ خبر :

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليل من أهل البيوتات ، أنه كان علَق فى صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بهـا . قال لى : فتنزهنا يومًا إلى بعض ضياعنا بالسهلة ، غربى قرطبـة ، مع بعض أعمـامى ، فتمـشينا فى البساتين ، وأبعدنا عن المنازل ، وانبسطنا على الأنهار ، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يفى الجميع . قال : فأمر عمى ببعض الأغطية فألقى علىّ ، وأمرَها

بالاكتنان معى ، فظُنّ بما شئت من التمكن على عين الملأ وهم لا يشعرون ، ويالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى : فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به ، وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك ، وهو يهتز فرحًا على بعد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول شعرًا منه :

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تَبكِي كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنّى

★ خبر :

ومن بديع الوصل ما حدثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل المصاقبة له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر . فكانت تقف له فى ذلك الموضع ، وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى قميصها ، فخاطبها مستخبرًا لها عن ذلك ، فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شىء ، فوقف لك غيرى فسلم عليك . فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك ، فإذا رأيت يدًا مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلا تجاوب .

وربما استُحلِى الوصال ، واتفقت القلوب ، حتى يقع التخلّج فى الوصال ، فلا يُلتفت إلى لائم ، ولا يُستتر من حافظ ، ولا يُبالى بناقل ، بل العذل حينئذ يُغرى .

وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كم دُرْتَ حولَ الحُبِّ حتى لقـــدْ حَصلْتَ فيه كحصـــول الفراشْ

ومنه :

تَعْشُو إلى الوصْلِ دواعِي الهَوَى كما سَرَىَ نحو سَنَا النارِ عاشْ

ومنه :

علّلنى بالوصـــلِ من سـيّدى كمثْلِ تَعْلِيلِ الظَمْاءِ العِطـــاشْ

ومنه :

لا تُوقفِ العـينَ على غـــايةٍ فالحُسنُ فيـــه مُستزيدٌ وباشْ

وأقول من قصيدة لى :

هـــل لقتيلِ الحبِّ مِن وَادى أمْ هل لعانى الحبِّ من فَادِى

أم هل لدهـــرى عودةٌ نحوَهَا كمثْلِ يومٍ مَرَّ فى الـــوادى

ظللتُ فيـــه سـابحًا صاديًا يا عجبًا للسابحِ الصـــادى

ضَنَيتُ يا مولاىَ وَجْدًا فمـــا تُبْصرُنى ألحـــاظُ عُوَّادى

كيف اهتدى الوجدُ إلى غائبٍ عن أعينِ الحـاضرِ والبادىِ

مَلَّ مُداواتى طبيبى فقـــدْ يَرْحمنى للسـقْمِ حُسَّادى

٢١

باب الهجــر

ومن آفات الحب أيضًا الهجر ، وهو على ضروب :

فأولها هجر يوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وإنه لأحلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ ، وحكم التسمية ، يوجب إدخاله فى هذا الباب ، لرجعت به عنه ، ولأجللته عن تسطيره فيه . فحينئذ ترى الحبيب منحرفًا عن مُحبه ، مقبلا بالحديث على غيره ، معرضًا بمعرض لئلا تلحق ظنته ، أو تسبق استرابته .

وترى المحب أيضًا كذلك ، ولكن طبعه له جاذب ، ونفسه له صارفة بالرغم ، فتراه حينئذ منحرفًا كمُقبِل ، وساكتًا كناطق ، وناظرا إلى جهة نفسه فى غيرها .

والحاذق الفطن إذا كشف بوهمه عن باطن حديثهما علِمَ أن الخافى غير البادى ، وما جَهَر به غير نفس الخبر ، وأنه لمن المشاهد الجالبة للفتن ، والمناظر المحركة للسواكن ، الباعثة للخواطر ، المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة .

ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها ، وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

يلومُ أبو العباسِ جهلاً بطبعهِ كما عَيَّر الحوتُ النعامةَ بالصدَى

ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُهُ غيرَ طائعٍ ولا مُكرَهٍ إلاّ لأمرٍ تُعمِّدا

وما كان ذاك البِرُّ إلاّ لغيرِهِ كما نَصَبُوا للطيرِ بالحبِّ مِصْيَدا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكَم وفنون الآداب الطبيعية :

وسرّاء أحشائى لمنْ أنا مؤثِر

وسَرّاء أنبائى لمن أتحببُ

فقد يُشربُ الصابُ الكريهُ لعلّةٍ

ويُترك صفْو الشّهْدِ وهو مُحبَّب

وأعْدلُ فى إجْهاد نفسىَ فى الذى

أريدُ وإنّى فيه أشقَى وأتعَب

هل اللؤلؤُ المكنونُ والدُّرُّ كلُّه

رأيتَ بغيرِ الغوْصِ فى البحر يُطلب

وأصرفُ نفسى عن وجوه طِباعِها

إذا فى سواها صَحَّ ما أنا أرغب

كما نَسَخَ اللهُ الشرائعَ قَبْلَنا

بما هو أدنى للصلاحِ وأقرب

وألقَى سَجايا كلِّ خَلقٍ بمثلِها

ونعتُ سجاياىَ الصحيحُ المهذّب

كما صار لونُ الماءِ لونَ إنائهِ

وفى الأصْل لونُ الماء أبيضُ مُعْجِب

ومنها :

أقمتُ ذَوى وُدّى مُقامَ طبائعى حَياتِى بها والموتُ منهنّ يَرْهَب

ومنها :

وما أنا ممن تَطَّبيهِ بشاشةٌ

ولا يقتضى ما فى ضميرى التحبُّبُ

أريدُ نِفاراً عندَ ذلك باطِناً

وفى ظاهرى أهلٌ وسهلٌ ومَرْحب

فإنّى رأيتُ الحربَ يَعْلُو اشــتعالُهَا

ومبـــــدؤها فى أول الأمـــرِ ملْعب

وللحيّة الرقشـــــاءِ وَشْى ولـــونُها

عجيبٌ وتحتَ الوشْى شُـــمٌ مركّب

وإنّ فِرنْدَ السّـــيفِ أعجبُ منظراً

وفيه إذا هُزَّ الحِمـــامُ المُـــذرّب

وأجعَـــلُ ذُلَّ النفس عِزّةَ أهـــلِهَا

إذا هى نـــالتْ ما بهـــا فيه مذهب

فقد يضعُ الإنسانُ فى التربِ وَجْهَهُ

ليأتى غـــداً وهو المَصـــونُ المقرّب

فذُلٌّ يســـوقُ العـــزَّ أجودُ للفتى

من العـــزِّ يَتـــلوه من الـــذلِّ مَركب

وكم ماكلٍ أربتْ عـــــواقبُ غَيِّـه

ورُبَّ طَـــوًى بالخِصْـــبِ اتٍ ومُعْقب

ومـــا ذاقَ عِزَّ النفس مَن لا يُـــذِلُّها

ولا التـــذَّ طعْمَ الروح مَن ليس يَنصَب

ورُودُك نهــــل الماءِ مِن بَعْدِ ظَمــــأةٍ

ألذُّ مِن العـــــــــَـــــلُ المكينِ وأعْذب

ومنها :

وفى كلُّ مَخلــوقٍ تراه تَفاضُـــــــلٌ

فَردْ طيِّبــــاً إنْ لم يُتحْ لك أطْيـــبُ

ولا تــرْضَ وِرْد الرَّنْــقِ إلاَّ ضـــرورة

إذا لم يكن فى الأرض حاشاه مَشرب

ولا تقـــربنْ مِلْحَ الميــــاهِ فإنّهـــا

شَــجىٌ والصــدَى بالحُرِّ أولى وأوجـب

ومنها :

فَخُــذْ من جَـــداها ما تيسَّـرَ واقتنعْ

ولا تَكُ مشــــــــغولاً بمن هو يَغْـــلبُ

فما لكَ شـــــــرطٌ عنـدها لا ولا يــدٌ

ولا هىَ إنْ حَصــــــّـــلتْ أمٌّ ولا أب

ومنها :

ولا تيأســـــنْ ممَّا يُنــــال بحيـــلةٍ

وإنْ بَعُـدَتْ فالأمرُ ينــــأى ويَصْــعُب

ولا تأمنِ الإظـــلامَ فالفجرُ طـــالعٌ

ولا تلتبسْ بالضـوءِ فالشـمسُ تَغْرب

ومنها :

ألِحَّ فــإنّ المـاء يكـدحُ فى الصفا

إذا طــال ما يأتى عــليه ويذهـــب

وكثِّرْ ولا تَفْشــــلْ وقلِّلْ كثيـــرَ ما

فَعلّتَ فمــــاءُ المزْنِ جَمٌّ وينضـــب

فلو يتغـــذّ المرءُ بالســــمٌ قاته

وقـــام لهُ منـــه غِــذاءُ مُجَرَّبٌ

ثم هَجْر يوجبه التدلل ، وهو ألذ من كثير الوصال ، ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كل واحد من المتحابين بصاحبه ، واستحكام البصيرة فى صحة عقده ، فحينئذ يُظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر مُحبِّه ، وذلك لئلا يصفو الدهر ألبتة ، وليأسف المحب إن كان مفرط العشق عند ذلك ، لا لما حلّ لكن مخافة أن يترقى الأمر إلى ما هو أجل ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل .

ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود ، فلما كثر ذلك قلت على

سبيل المزاح شعراً بديهياً ، ختمتُ كل بيت منه بقسم من قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهى التى قرأناها مشروحة على أبى سعيد الفتى الجعفرى [1] ، عن أبى بكر المقرئ [2] ، عن أبى جعفر النحاس [3] ، رحمهم الله ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، وهى :

تذكَّـــرتُ وُدّاً للحبيبِ كـــأنَّه

لخـولَةَ أطـلالٌ ببـرقةِ ثَهْمَـدِ

وعهدِى بعهـدٍ كان لى منـهُ ثابتٍ

يلوحُ كباقى الوشمِ فى ظاهرِ اليد

وقفتُ به لا مُوقنـاً برجـوعه

ولا آيســاً أبكِى وأبكِى إلى الغد

إلى أنْ أطالَ الناسُ عذْلِى وأكثروا

يقولون : لا تهـلكْ أسـىً وتجلّد

---

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عن أبى سعيد الفتى الجعفرى هذا ، ولكن كلمة الفتى كانت تطلق على من يعملون فى قصر الخلافة ، وهم من الخصيان عادة ، وكلمة الجعفرى تومئ إلى أنه كان مولى الحاجب جعفر ابن عبد الرحمن .

(٢) لم أهتد إلى ترجمة له .

(٣) أبو جعفر النحاس، أحمد بن محمد ، من أعلام النحاة بمصر فى القرن الرابع الهجرى ، غزير العلم ، واسع الرواية ، كثير التآليف ، تزيد مصنفاته فى رواية ياقوت على الخمسين ، وقد ضاع أغلبها . توفى فى ٥ من ذى الحجة عام ٣٣٨ هـ = ٢٦ من مايو ٩٤٩ هـ .

كأن فنونَ السخْطِ ممن أحِبُّه

خلايا سَفينٍ بالنواصفِ من دَدِ

كأن انقلابَ الهجْرِ والوصْلِ مَرْكبٌ

يجورُ به الملاّحُ طوراً ويهتدى

فَوَقْتُ رضىً يتلوهُ وَقْتُ تسخُّطٍ

كما قَسَم التُّرْبَ المفايِلُ باليد

ويبسم نحوى وهو غضبانُ معرضٌ

مظاهُر سِمْطَىْ لؤلؤ وزَبرْجَدِ

ثم هجر يوجبه العتاب لذنب يقع من المحب ، وهذا فيه بعض الشدة ، لكن فرحة الرجعة ، وسرور الرضى ، يعدل ما مضى ، فإن لرضى المحبوب بعد سخطه لذة في القلب لا تعدلها لذة ، وموقعا من الروح لا يفوقه شئ من أسباب الدنيا . وهل شاهد مشاهد ، أو رأت عين ، أو قام فى فكر ، ألذُّ وأشْهى من مقام قد قام عنه كل رقيب ، وبعد عنه كل بغيض ، وغاب عنه كل واش ، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحبّ منهما وطال ذلك قليلا ، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثَمّ مانع من الإطالة للحديث ، فابتدأ المحبّ فى الاعتذار والخضوع والتذلل ، والإدلاء بحجته من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف ، فطوراً يدلى ببراءته ، وطوراً يرد بالعفو ،

ويستدعى المغفرة ، ويقر بالذنب ولا ذنب له ، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض ، يسارقه اللحظ الخفى ، وربما أدامه فيه ، ثم يبسم مخيفاً لتبسمه ، وذلك علامة الرضى . ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر ، ويقبل القول ، وامتحت ذنوب النقل ، وذهبت آثار السخط ، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور ، ولو كان فكيف ولا ذنب، وختما أمرهما بالوصل الممكن ، وسقوط العتاب والإسعاد ، وتفرقا على هذا .

هذا مكان تتقاصر دونه الصفات ، وتتلكن بتحديده الألسنة ، ولقد وطئت بساط الخلفاء ، وشاهدت محاضر الملوك ، فما رأيت هيبة تعدل هيبة محب لمحبوبه ، ورأيت تمكن المتغلبين على الرؤساء ، وتحكم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ، ولا أعظم سروراً بما هو فيه من مُحِبٍّ أيقن أن قلب محبوبه عنده ، ووثق بميله إليه ، وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين أيدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين ، فما رأيت أذل من موقف محب هيمان بين يدى محبوب غضبان ، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين ، وكنت فى الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف ، ولا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى

أقصى غايات التذلل لو نفع ، وأغتنم فرصة الخضوع لو نجح ، وأتحلل بلساني ، وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنن القول فنونا ، وأتصدّى لكل ما يوجب الترضي .

والتجنّي بعض عوارض الهجران ، وهو يقع في أول الحب وآخره ، فهو في أوله علامة لصحة المحبة ، وفي آخره علامة لفتورها وباب للسلو .

★ خبر :

وأذكر في مثل هذا أني كنت مجتازاً في بعض الأيام بقرطبة ، في مقبرة باب عامر ، في لمة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبي القاسم عبد الرحمن بن أبي يـــزيد المصري [1] بالرصافة ، أستاذي رضي الله عنه ، ومعنا أبو بكر

(١) أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد الأزدي ، مصري الأصل والنشأة ، قدم قرطبة تاجراً عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٣ م ، وفيها أقام يتاجر في الأصواف ، ويضطلع بالتدريس ، وكان واسع الثقافة في اللغة الأدب والأنساب والأشعار ، فعظمت حلقته واتسعت ، وتكاثر عليه الطلاب ، وكان ابن حزم أحد طلابه ، وهو هنا يدعوه أستاذي ، وترك قرطبة عائدا إلى مصر عام الفتنة ، عندما اقتحم البرابر عاصمة الخلافة . وفي مصر توفي عام ٤١٠ هـ = ١٠١٩ .

عبد الرحمن بن سليمان البلوى [1] من أهل سبتة [2] ، وكان شاعراً مفلقاً ، وهو ينشد لنفسه فى صفة متجن معهود أبياتاً له ، منها :

سـريعٌ إلى ظهرِ الطريقِ وإنه ... إلى نَقْضِ أسبابِ المودَّةِ يُسْرِع

يطـولُ علينـــا أن نرقِّع ودَّهُ ... إذا كــان فى ترقيعِــهِ يَقَطّع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبى على

---

(١) أديب شاعر ، وخصه الضبى فى «البغية» بترجمة قصيرة ، ليست بذات أهمية .

(٢) سبتة Ceuta ، مدينة أندلسية عامرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط من عدوة المغرب ، فى مواجهة الجزيرة الخضراء ، وخلال دولة الإسلام فى الأندلس كانت تكون جزءاً منه تارة ، ومن المغرب تارة أخرى . وقد استولى عليها البرتغاليون عام ١٤١٥ م ، أى قبل سقوط دولة الإسلام فى الأندلس بثلاثة أرباع القرن ، وآل أمرها إلى إسبانيا عام ١٦٤٠ م .

وكانت فى عصرها الإسلامى مزدهرة ثقافياً ، تزخر بالأدباء والعلماء والصلحاء ، وبالمساجد والمدارس ، وألف عدد من المؤرخين كتباً ورسائل فى تاريخها ، على رأسهم القاضى عياض فله كتاب : «الفنون الستة فى أخبار سبتة» . وإليها ينسب سيدى عبد الرحيم القنائى ، صاحب المزار الشهير فى مدينة قنا بأعلى مصر .

ولقد اندثر ذلك /كله الآن ، استعجم لسانها ، وعفت رسومها الإسلامية ، وأصبح سكانها البالغ عددهم ٧٦ ألفاً كلهم من الإسبان . ويرجى لها مع تحرر المغرب ، ويقظة المسلمين أن تعود فى القريب العاجل إلى الوطن الأم .

الحسين بن على الفاسى رحمه الله تعالى [١] ، وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبى يزيد ، فسمعه فتبسّم رحمه الله نحونا ، وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله فهو أولى ، هذا على جدٍّ أبى على الحسين رحمه الله وفضله ، وتقربه وبراعته ، ونسكه وزهده وعلمه . وفقلت فى ذلك :

دعْ عنكَ نقضَ مودّتى متعمِّداً　　واعقدْ حبالَ وصالِنَا يا ظالُم
ولتــرجعنَّ أردْتَــهُ أو لم ترد　　كَرْهاً لِماَ قــال الفقيــهُ العــالم

ويقع فيه الهجر والعتاب . ولعمرى إن فيه إذا كان قليلا للذة ، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود ، وأمارة وبيئة المصدر ، وعلامة سوء ، وهى بجملة الأمر مطية الهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لطف وكان أصله الإشفاق .

وفى ذلك أقول :

لعــلَّك بَعْدَ عُتْبِك أنْ تجودا　　بمــا منهُ عتبت وأنْ تَــزيدا

---

(١) صححته «أبى على الحسين» بدلا من «أبى الحسين» ، وذكر ابن بشكوال فى الصلة أن اسمه الحسن ، وأجمع كلاهما على أنه يكنى أبا على . وأورد له حواراً مع ابن حزم ، وقد وصفه بقوله : «ناهيك به سروا ودينا وعقلا وعلماً وورعــا وتهذيباً وحسن خلق » .

فكم يوم رأينا فيه صحْواً ... وأسمْعنا بآخرِه الرعودا
وعاد الصحْوُ بعدُ كما علمنا ... وأنتَ كذاكَ نرجو أن تعودا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عتاب وقع فى يوم هذه صفته من أيام الربيع ، فقلتها فى ذلك الوقت ، وكان لى فى بعض الزمن صديقان ، وكانا أخوين ، فغابا فى سفر ثم قدما ، وقد أصابنى رَمَد فتأخرا عن عيادتى ، فكتبتُ إليهما ، والمخاطبة للأكبر منهما ، شعراً منه :

وكنتُ أعَـدِّد أيضاً علَى ... أخيكَ بمُؤلمةِ السَّامعِ
ولكنْ إذا الدَّجْنُ غَطَّى ذُكا ... ء فما الظنُّ بالقمرِ الطالع

ثم هجر يوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم ، وفيما يتولَّد من دبيب عقاربهم ، وربما كان سبباً للمقاطعة البتة .

ثم هجر الملل . الملل من الأخلاق المطبوعة فى الإنسان ، وأحرى لمن دُهى به ألا يصفو له صديق ، ولا يصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطولُ مُساعدته لمحبٍّ ، ولا يعتقد منه ودّ ولا بغض . وأولى الأمور بالناس ألا يعدّوه منهم ، وأن يفروا عن صحبته ولقائه ، فلن يظفروا منه بطائل . ولذلك أبعدنا هذه الصفة عن المحبين وجعلناها فى المحبوبين ، فهم بالجملة أهل التجنى والتظنِّى ، والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيا باسم الحُب وهو ملول فليس منهم ، وحقه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنْفَى عن أهل هذه الصفة ، ولا يدخل فى جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبى عامر محمد ابن عامر [1] رحمه الله ، فلو وصف لى واصف بعضَ ما علمته منه لما صدقته .

وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبة ، وأقلهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الود على قدر تسرعهم إليه ، فلا تثق بملول ، ولا تشغل به نفسك ، ولا تعنها بالرجاء فى وفائه . فإن دُفِعْتَ إلى محبته ضرورةٌ فعده ابن ساعته ، واستأنفه كل حين من أحيانه بحسب ماتراه من تلونه ، وقابله بما يشاكله . ولقد كان أبو عامر المحدَّثُ عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها ، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شروداً ، والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان .

هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق

(١) يرد على الخاطر للوهلة الأولى أنه المنصور بن أبى عامر ، ولكن ذلك مستحيل ، لأن المنصور توفى وعمر بن حزم ثمانى سنوات ، وفى سن كهذه يستحيل أن يقص عليه الحكايات التى سوف يوردها ابن حزم فى آخر الباب نقلا عنه ، وأرجح على سبيل اليقين أنه ابن لعبد الملك المظفر ، أى أنه حفيد المنصور بن أبى عامر ، وكان يحمل اسم جده .

والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد ، مع الشرف العظيم ، والمنصب الفخم ، والجاه العريض .

وأما حسن وجهه ، وكمال صُورته ، فشئ تقف الحدود عنه . وتكِل الأوهام عن وصف أقله ، ولا يتعاطى أحد وصفه .

ولقد كانت الشوارع تخلو من السيَّارة ، ويتعمدون الخطور على باب داره ، في الشارع الآخذ من النهر الصغير ، على باب دارنا في الجانب الشرقي بقُرطبة ، إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لا لشئ إلا للنظر منه . ولقد مات من محبته جوار كن علقن أوهامهن به ، ورثين له ، فخانهن مما أملنْه منه ، فصرن رهائن البِلىّ ، وقتلتهن الوحدة [1] .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء ، عهدى بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست ، ولا تجف دموعها . وكانت قد تصيرت من داره إلى أبي البركات الخيالي صاحب

---

(١) تقدم لنا هذه الفقرة معلومات جيدة ومفصلة عن بعض ألوان الحياة العامة في قرطبة ، وعن سكن ابن حزم وداره بخاصة .

البنيـان [١] . ولقد كان رحمه الله يُخبرني عن نفسه أنه يميل اسمه ، فضلاً عن غير ذلك .

وأما إخوانه فإنه تبدل بهم في عُمره على قصره مراراً ، وكان لا يثُبت على زى واحد كأبى بَراقش ، حيناً يكون فى ملابس المُلوك ، وحيناً فى ملابس الفتاك .

فيجب على من أمتحن بمخالطة من هذه صفته ، على أى وجه كان ، ألا يستفرغ عامة جُهده فى محبته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خصماً لنفسه ، فإذا لاحتَ له مخايل الملل قاطعه أياماً حتى نشط باله ، ويبعد به عنه ، ثم يُعاوده ، فربما دامت المودة مع هذا .

وفي ذلك أقول :

لا تــــــرجُـــوَنَّ ملولاً	ليــــس الملـــول بعُـــدَّهْ
وُدُّ الملـــولِ فـــــدَعْهُ	عـــاريَةٌ مســـــــتردَّهْ

---

(١) جاء هذا النص فى المخطوطة وفى الطبعات العربية على النحو التالى : «إلى البركات الخيال صاحب الفتيان» . وصحته : «إلى أبى البركات الخيالى صاحب البنيان» . فقد كان فى قصر الخلافة إدارة يطلق على صاحبها اسم : «صاحب البنيان» ، ولم تكن هناك خطة يطلق على القائم بها «صاحب الفتيان» . وكلمة «الخيالى» تشير إلى أنه كان مولى للسيدة خيال ، زوجة المظفر ، أكبر أبناء المنصور بن أبى عامر ، فنسب إليها . وقد تزوجت السيدة خيال ، بعد موت المظفر من القاسم بن حمود ، أحد مؤسسى دولة الحموديين ، وأمير قرطبة لسنوات .

ومن الهجر ضَرب يكون متولية المحبّ ، وذلك عندما يرى من جفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره ، أو لثقيل يلازمه ، فيرى الموت ويتجرّع غُصص الأسى والعض على نقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع وكبده تتقطّع .

وفي ذلك أقول :

هجرتُ من أهـواهُ لا عن قلًى	يا عجباً لعاشقِ الهاجر
لكنّ عينـي لـم تُطـقْ نظرةً	إلى مُحَيَّا الرَّشـأ الفادر
فالموتُ أحلى مَطْعماً من هَوىً	يُبـاحُ للـواردِ والصـادرِ
وفـي الفـؤادِ النـارُ مذْكيـةٌ	فاعجبْ لصَبٍّ جَزِعٍ صابرِ
وقـد أبـاحَ اللـهُ فـي دِينه	تقيّـةَ المأسـورِ للآسـر
وقد أحلّ الكفرِ خوفَ الردى	حتى ترى المؤمنَ كالكافر

★ خبر :

ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه ، أني أعرف مَن هام قلبه بمتناء عنه ، نافر منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلا ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل ، أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء ، عاد الهجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل .

فقلت فى ذلك :

كانتْ إلى دهرىَ لى حاجةٌ

مقرونةٌ فى البعدِ بالمُشترى

فساقها باللطف حتى إذا

كانتْ من القُربِ على مَحْجرِ

أبْعدها عنِّى فمادتْ كأنْ

لم تَبْدُ للعينِ ولم تظهر

وقلت :

دنا أملى حتى مَدَدْتُ لأخْذِهِ

يَداً فانثنَى نحوَ المجرَّةِ راحلاَ

فأصبحتُ لا أرجو وقد كنتُ موقناً

وأُضحى معَ الشِّعْرَى وقد كان حاصِلا

وقد كنتُ محسوداً فأصبحتُ حاسداً

وقد كنتُ مأمولاً فأصبحتُ آملا

كذا الدهرُ فى كرَّاته وانتقالِه

فلا يأمَنَنَّ الدهرَ من كان عاقلا

ثم هَجْر القلى ، وهنا ضلّت الأساطير ، ونفدت الحيل ، وعظم البلاء ، وهو الذى خلّى العقول نواهل ، فمن دُهى بهذه الداهية فليتصد لمحبوب محبوبه ، وليتعمّد ما يعرف أنه يستحسنه ، ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فربما عطفه ذلك عليه ، إنْ كان المحبوب ممن يدرى قدر المُوافقة والرغبة فيه ، وأمّا من لم يعلم قدر هذا فلا طمع فى استصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب ، فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليعتمد السلُوان ، وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ، ويسعى فى نيل رغبته على أى وجه أمكنه .

ولقد رأيت من هذه صفته ، وفى ذلك أقول قطعة أولها :

دُهيتُ بمن لو أدفعُ الموتَ دونَهُ

لقالَ إذاً يا ليتنِى فى المقابرِ

ومنها :

ولا ذنبَ لى إذ صرْتُ أحْلو ركائبِى

إلى الورْدِ والدُّنيا تُسىءُ مَصادرى

وماذا على الشمس المُنيرةِ بالضُّحى

إذا قَصَّرتْ عنها ضِعافُ البصائر

مـا أقبحَ بَعْـدَ وَصْـلٍ

وأحسنَ الوصلَ بعد هَجْرٍ

كـالوفْرِ تحويـه بعد فَقْرٍ

والفقْرِ يـأتيكَ بَعْدَ وَفْرِ

وأقول :

معهـود أخـلاقِك قسمـانِ

والدهرُ فيك اليوم صِنْفانِ

فإنَّك النعمـانُ فيما مَضَى

وكـانَ للنعمـانِ يومـانِ

يومُ نعيمٍ فيه سـعْدُ الورى

ويـومُ بأسـاءَ وعـُدْوانِ

فيـومُ نعمـاكَ لغيرى ويـو

مـى منكَ ذو بؤْس وهِجران

أليس حبىٌّ لك مُسْتَـأْهِلاً

لأن تُجـازيه بإحسـانِ

وأقول قطعة منها :

يـــا من جميـــعُ الحُســـْنِ مُنتظِمُ

فيـــه كُنظـم الـــدرِّ فـــى العِقـْدِ

مـــا بـــال حَتْفـِي منك يطْرقُنى

قَصـــْدا ووجْهـكَ طالـــعُ السـّعد

وأقول قصيدة أولها :

أســاعةُ توْدِيعك أمْ ســاعةُ الحَشـْرِ

وليلــةُ بَيْنـِي منك أمْ ليلــةُ النشــْرِ

وهـجـرُك تعـْذيبُ المـوحّد ينقضـِي

ويرجـو التـلاقيِ أمْ عـذابُ نوِي الكُفْرَ

ومنها :

ســقى اللـــّهُ أيامـــاً ولياليـاً

تحاكى لنا النّيلُوفَرَ الغضّ فى النشْرِ

فأوراقـــهُ الأيـــامُ حُســـناً وبهجـةً

وأوْســَطُه الليـــلُ المُقصــّرُ للعمُـر

لهونـــا بهـــا فـــى غَمْـرةٍ وتـــآلفٍ

تَمُرُّ فـــلا تـدْرى وتـــأتى فلا ندرى

فأعقبنـا منـه زمـان كـأنّه

ولاشـك حُسـنُ العقـد أعقبَ بالغدر

ومنها :

فلا تيـأسـى يـانفس عـلّ زمانَنـاً

يعـدْ بوجـه مُقبـلٌ غـير مـدْبر

كمـا صـرف الرحمـنُ مـلك أميـةٌ

إليهـم ولـسـوف يؤذى بالتجمـّل والصبر

وفى هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد ، أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى (١) رحمه الله ، فاقول :

أليسَ يُحيط الرّوح فينـا بكل مـا

دنَا وتناءى وهو فى حُجب الصدْر

---

(١) عبد الرحمن المرتضى ، أول أموى ثار على حجابة بنى عامر وطالب بالخلافة ، ومعه ناضل ابن حزم من أجل أن تكون لهم ، وقد هزم المرتضى فى غرناطة على يد زاوى بن زيرى .
أما أبو بكر هشام بن محمد الذى يهديه ابن حزم قصيدته ، فكان الأخ الأكبر لعبد الرحمن المرتضى ، وهو آخر خليفة أموى فى قرطبة ، ولد ٣٦٤ هـ - ٩٧٤ م ، وبويع بالخلافة فى ٤١٨هـ = ١٠٢٧ م ، ودخل قرطبة فى ٤٢٠هـ = ١٠٢٩ م ، وأزيح عن الخلافة فى ٤٢٢هـ = ١٠٣١ م ، ليموت مغموراً فى لاردة Lérida مدينة أندلسية فى الشمال الشرقى ، بعد ذلك بخمسة أعوام .

كذا الدهرُ جسم وهو في الدّهرِ رُوحهُ

مُحيطٌ بما فيه وإن شِئْتَ فاسْتقر

ومنها :

إتاوتُهــــا تُهـــــدىَ إليـــــه ومنـــّةً

تقبلُّهـــاَ منُهـــْم يقـــاومُ بالشـــُكر

كـــذا كـــلُّ نَهْرٍ في البـــلاد وإن طَمت

غزارتـــُه ينصبُّ فـــى لَججِ البَحْر

٢٢
باب الوفاء

ومن حميد الغرائز ، وكريم الشيم ، وفاضل الأخلاق فى الحُب وغيره الوفاء وإنه لمن أقوى الدلائل ، وأوضح البراهين ، على طيب الأصل ، وشَرف العنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات .

وفى ذلك أقول قطعة منها :

أفعالُ كـلِّ امرئٍ تُنْبـى بُعنصره

والعينُ تُغنيكَ عـن أنْ تطـلب الأثَـرا

ومنها :

وهـل تـرى قـطُّ دِفلى أنبتت عنبا

أو تذْخَرُ النحل فى أوكارها الصبْرا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم ، وحق واجب ، على المُحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلاّ خبيث المحتد ، لاخلاق له ، ولا خير عنده .

ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام فى أخلاق الانسان وصفاته المطبوعة والتطبع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع ، وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع ، لزدت فى هذا المكان ما يجب أن يوضع فى مثله . ولكن أنما قصدنا التكلم فيما رغبته من أمر الحب فقط . وهذا أمر كان يطول جداً ، إذ الكلام فيه يتفنن كثيرا .

★ خبر :

ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء فى هذا المعنى ، وأهواله شأناً ، قصة رأيتها عياناً ، وهو أنى أعرفُ مَنْ رضى بقطيعة محبوبه ، وأعز الناس عليه ، ومَنْ كان الموت عنده أحلى مِن هجر ساعة في جَنب طيّه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألا يكلمه أبداً ، ولا يكون بينهما خبر أو يفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب ذلك السر . كان غائباً فأبى من ذلك ، وتمادى هو على كتمانه ، والثانى على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية ، وهو الوفاء لمن غدر ، وهى للمحُب دون المحبوب ، وليس للمحبوب هاهنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهى خُطّة لايُطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر ، حر النفس ، عظيم الحِلمْ جليل الصبر ، حصيف العقل ، ماجد الخلق ، سالم النية .

ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التى قدمنا تفوقها جداً ، وتفوتها بعداً ، وغاية الوفاء فى هذه الحال

تَرْكُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيئ المعارضة بالفعل والقول ، والتأنيّ في جزء حَبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع في الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو توجس منها أيسر علامة .

فإذا وقع اليأس ، واستحكم الغيظ حينئذ ، والسلامة مِن غُرّك ، والأمن مِن ضرّك ، والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ماسلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع . فَرعْيُ الأذمّة حق وكَيدٌ ، وعلى أهل العقول ، والحنينُ إلى مامضى ، وألا ينسى ما قد فرغ منه ، وفنيت مدته ، أثبتُ الدلائل على صحة الوفاء ، وهذه الصفة حسنة جداً ، وواجب استعمالها في كل وجه من وجوه معاملات الناس فما بينهم ، على أي حال كانت .

★ خبر :

ولعهدي برجل من صَفوة إخواني قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما ثم غدرت بعهده ، ونقَضت وُده ، وشاع خبرهما ، فَوجد لذلك وجداً شديداً .

★ خبر :

وكان لي مرة صديق ففسدت نيّته بعد وكيد مودّة لا يُكفر بمثلها ، وكان عَلِمَ كل واحد منا سرّ صاحبه ، وسقطت المئونة ،

فلما تغيّر عليَّ أفشى كل ما اطلع لى عليه مما كنتُ اطلعتُ منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله فيَّ قد بلغنى ، فجزع لذلك ، وخشى أن أقارضه على قبيح فعلته . وبلغنى ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه ، وأعلمه أنى لا أقارضه .

★ خبر :

ومما يدخل فى هذا الدّرج ، وإن ليس منه ، ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ، ولكنه شبيه له على ماقد ذكرنا وشرطنا ، وذلك أن محمد بن وليد بن مكسير [1] الكاتب كان مُتصلا بى ، ومنقطعاً إلىّ أيام وزارة أبى رحمة الله عليه ، فلما وقع بقرطبة ما وقع [2] ، وتغيرت أحوال ، خرج إلى بعض النواحى فاتصل بصاحبها ، فعرض جاهُه ، وحدثت له وجَاهة وحال حسنة . فحللتُ أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى ، فلم يَوفّنى حقى بل ثقل عليه مكانى ، وأساء معاملتى وصُحبتى ، وكلفته فى خلال ذلك حاجة لم يقم بها ولا قَعد ، واشتغل عنها بما ليس فى مثله شغل ، فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجاوبنى مستعيباً على ذلك ، فما كلفته حاجة بعدها .

---

(١) لم أهتد إلى شخصية محمد بن وليد مكسير هذا ، ولعل لفظ « مكسير » محرّف .

(٢) يشير إلى اقتحام البربر مدينة قرطبة ، وانتهابهم لها عام ٤٠٣هـ = ١٠١٣ م .

ومما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبيات قلتها ، منها :

وليس يُحمدُ كتمانٌ لمكتتم

لكنَّ كَتْمَكَ ما أفشاهُ مُفشيهِ

كالجُودِ بالوفْرِ أسنى ما يكون إذا

قلَّ الوجود له أو ضنَّ مُعطيه

ثم مرتبة ثالثة ، وهى الوفاء مع اليأس الباتّ ، وبعد حلول المنايا ، وفجاءات المنون ، وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجل وأحسن منه فى الحياة مع رجاء اللقاء .

★ خبر :

ولقد حدّثتنى أمرأة أثق بها ، أنها رأت فى دار محمد بن أحمد ابن وهب المعروف بابن الركيزة ، من ولد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه ، [1] جارية رائعة جميلة ، كان لها

(١) بدر ، خادم عبد الرحمن الداخل ومولاه ، ورفيقه فى رحلته المضنية إلى شمال أفريقية تلاحقه سيوف بنى العباس ، ورسوله إلى أهل الأندلس بعد أن استقر به المقام لاجئاً فى رحاب أخواله من البربر ، وظل إلى جواره بعد أن انتصر ، وأقبلت عليه الدنيا وأصبح أول أمير أموى فى قرطبة .

أما محمد بن وهب المعروف بابن الركيزة فلم أعثر له على ترجمة .

مولى فجاءته المنية فبيعت في تركته ، فأبت أن ترضى بالرجال بعده ، وما جامعها رجل إلى أن لقيت اللهّ عز وجل ، وكانت تحسن الغناء فأنكرت علمها به ، ورضيت بالخدمة ، والخروج عن جملة المتخذات للنسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دَثُر ووارته الأرض ، والتأمت عليه الصفائح ، ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمها إلى فراشه مع سائر جواريه ، ويخرجها مما هى فيه فأبت ، فضربها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فبصرت على ذلك كله ، فأقامت على امتناعها ، وإن هذا من الوفاء غريب جداً .

وأعلم أن الوفاء على المحبّ أوجب منه على المحبوب ، وشرطه له ألزم ، لأن المحب هو البادى باللصوق والتعرض لعقد الأذمة ، والقاصد لتأكيد المودة ، والمستدعى صحة العشرة ، الأول فى عدد طلاب الأصفياء ، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال ، وخطمها بأشد خطام ، فمن قسره على هذا كله إنْ لم يرد إتمامه ؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم يَنْو خَتمها بالوفاء لمن أراده عليها ، والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ، ومقصود نحوه ، ومخّير فى القبول أو الترك ، فإن قبل فغاية الرجاء ، وإن أبى فغير مستحق للذم . وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه ، والتأنى لكل مايُستجلب به من الموافقة ، وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء فى شئ ، فحظ نفسه أراد الطالب ، وفى سروره سعِى وله احتطب ، والحب يدعوه

ويَحْدوه على ذلك ، شاء أو أبى ، وإنمـــا يَحمد الوفاء ممن يقدر على تركه .

وللوفاء شروط على المُحبين لازمة :

فأولها أن يحفظ عهدَ محبوبه ، ويرعى غيبته ، وتستوى علانيته وسريرته ويطوى شره ، وينشر خيره ، ويغطى على عيوبه ، ويحسّن أفعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ، ويرضى بما حمله ولا يكثر عليه بما ينفر منه ، وألا يكون طُلَعَة ثؤوباً ، ولا ملّة طَروقاً .

وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبة مثل ذلك ، وأن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ، ولا له الا ستشاطة عليه بأن يسومه الا ستواء معه فى درجته . ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره ، وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به .

وإن كانت الثالثة وهى السلامة مما يلقى بالجملة فليقنع بمـا وجد ، وليأخذ من الأمر ما استدف ، ولا يطلب شرطاً ، ولايقترح حقاً ، وإنما له ما سنح بجده ، أو ماحان بكده ، وأعلم أنه لاَيستبين قبح الفعل لأهله ، ولذلك يتضاعف قبحه عند من ليس من ذويه ولا أقول قولى هذا مُمتدحاً ، ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل « وأمَّا بِنِعْمة رَبِّكَ فحَدِّثْ » (١) .

---

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

لقد مَنحنى الله عز وجـل من الوفاء لكل من يَمُت إلىّ بلُقْيَةٍ واحدة ، ووهبنى من المحافظة لمن يتذمم منى ولو بمحادثته ساعة حظًا ، أنا له شاكر وحامد ، ومنه مُستمِدّ ومُستزيد .

وما شئ أثقل علىّ من الغدر ، ولعمرى ما سمحت نفسى قط فى الفكرة فى إضرار مَن بينى وبينه أقل ذمام ، وإنْ عظمت جريرته ، وكثرت إلىّ ذنوبه ، ولَقد دَهمنى من هذا غيرُ قليل فما جزيت على السُّوءِ إلاّ بالحسنى . والحمد لله على ذلك كثيراً .

وبالوفاء أفتخر فى كلمة طويلة ، ذكرت فيها ما مضّنا من النكبات ، ودهمنا من الحل والترحال والتحول فى الآفاق ، أولها :

ولَـمّـا فـتَولّى جميـلُ الصبر يَتبعـهُ

وصَرَّحَ الدمـعُ ماتُخفيـه أضلُعـهُ

جِسـمٌ مَلـولٌ وقلب آلفٌ فـإذا

حـلَّ الفراقُ عليـه فهـو مُوجِعـهُ

لـم تسـتقرّ بـه دارٌ ولا وطـنٌ

ولا تَدَفـأ منـه قطُّ مَضْجِعـهُ

كأنّما صيغَ مِن رهْوِ السحاب فما

تـَزال ريحُ إلـى الآفـاقِ تدفَعُـهُ

كأنَّما هو توحيدُ تضيق به

نفسُ الكفورِ فتأبىَ حين تُودَعُهُ

أوكوكبٌ قاطعٌ فى الأفقِ منتقلٌ

فالسيرُ يُغربُهُ حيناً ويُطلعُهُ

....

أظنُّهُ لوجَزَتْهُ أو تُساعدُه

أَلقتْ عليه انهمالَ الدمعِ يَتْبعُهُ (١)

بالوفاء أيضاً أفتخر فى قصيدة لى طويلة أوردتها ، وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب ، فكان سبب قولى لها أن قوماً من مخالفىَّ شرقوا بى ، فأساءوا العتب فى وجهى ، وقذفونى بأنى أعضِّد الباطل بحجتى ، عجزاً منهم عن مُقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لى ، فقلت ، وخاطبت بقصيدتى بعض إخوانى ، وكان ذا فهم ، منها :

وخُذني عصا موسى وهاتِ جميعَهُمْ

ولو أنَّهُمْ حيَّاتُ ضالٍ نَضانِضُ

---

(١) هناك فجوة بين فكرة البيت الأخير ، والبيت السابق له ، مما يقطع بأن الناسخ حذف أبياتاً بينهما ذهبت بتكامل المعنى ، وجعلت معنى البيت الأخير غامضاً ، ولهذا آثرت ان أشير إلى الحذف بسطر من النقط .

ومنها :

يُريفونَ في عيني عجائبَ جَمَّةً

وقد يتمنى الليثُ والليث رابض

ومنها :

ويَرْجونَ مالا يَبْلغونَ كمثلِ ما

يُرجِّيٌ مُحالاً في الإمامِ الروافضُ (١)

ومنها :

ولو جَلَدي في كلِّ قلبٍ ومُهْجَةٍ

لَماَ أثَّرتْ فيها العيونُ المرائضُ

أبتْ عن دنيِّ الوصْفِ ضربْةَ لازبٍ

كما أبتِ الفعل الحروفُ والخوافضُ

ومنها :

ورأيي لَهُ في كلِّ ما غاب مَسلكٌ

كما تَسْلُكُ الجسمَ العروقُ النوابض

يَبينُ مَدَبُّ النملِ في غيرِ مُشْكِلٍ

ويُسْتَرُ عنهم للقبول المرابض

(١) يشير إلى الرافضة ، وهي فرقة شيعية غالية .

٢٣

باب الغدر

وكما أنّ الوفاء من سريّ النعوت ، ونبيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذميمها ومكروهها ، وإنما يسمى غدراً من البادى به ، وأمّا المقارض بالغدر على مثله ، وإن استوى معه فى حقيقة الفعل ، فليس بغدر ولا هو معيباً بذلك ، والله عز وجل يقول : « وجزاءُ سيئة سيئةٌ مِثلُها » [١] وقد علمنا أن الثانية ليست بسيئة ، ولكن لما جانست الأولى فى الشبه أوقع عليها مثل اسمها . وسيأتى هذا مفسراً فى باب السلو إن شاء الله .

ولكثرة وجود الغدر فى المحبوب استغرب الوفاء منه ، فصار قليله الواقع منهم يقاوم الكثير الموجـود فى سـواهم ، وفى ذلك أقول :

قليلُ وفاءِ مَنْ يُهوَى يَجلُّ — وعُظْمُ وفاءِ مَنْ يَهوى يَقلُّ

فنادِرَةُ الجبان أجلُّ مِمّا — يجئُ به الشجاعُ المستَقِلُّ

---

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٠ .

ومن قبيح الغدر أن يكون للمحبّ سفير إلى محبوبه ، يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ، ويستأثر به دونه . وفيه أقول :

أقمتُ سفيراً قاصداً فى مطـالبى
وَثِـقْتُ بـه جَهْـلاً فضرَّبَ بيْننـا

وحـلَّ عـُرى ودِّى وأثبتَ ودَّه
وأبعـدَ عنىٌ كـلٌ مـا كـانَ مَمْكنا

فصرتُ شهيداً بعد ما كنتُ مُشْهِداً
وأصبحتُ ضَيْفاً بعدَ ما كان ضَيْفناً

★ خبر :

ولقد حدّثنى القاضى يونس بن عبد الله (١) قال : أذكر فى الصبى جارية في بعض السُدَد ، يهواها فتى من أهل الأدب ، من

---

(١) يونس بن عبد الله بن محمد بن مغيث ، يكنى أبا الوليد ، ويعرف بابن الصفار ، قاضى الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة والخطبة بجامعها .

وقد تقلب فى مناصب كثيرة ، فكان قاضى بطليوس ، وخطيب مسجد الزهـراء ، وتولى خطة الرد ، وكان مشاوراً ، وأصبح وزيراً . وكان محدثاً وفقيهاً ، وعالماً بالعربية ، وله مؤلفات عديدة فى الزهد ، ويقول الشعر النفيس فى معانى الزهد وما شابهه . ولد عام ٣٣٨هـ = ٩٤٩م ، وتوفى عام ٤٢٩هـ = ١٠٣٨ م .

أبناء الملوك ، وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما ، والرسول بكتبهما ، فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذى كان يُحبها ابتياعها ، فبدر الذى كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها ، وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها ، مضمخاً بالغالية ، مَصوناً مُكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يافاسقة ؟ قالت : أنت سقته إلىّ . فقال : لعله مُحدَث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلاّ مِن قديم تلك التى تعرف ، قال فكأنما ألقمته حجراً ، فسقط فى يديه وسكت .

٢٤

باب البين

وقد علمنا أنه لابد لكل مجتمع من افتراق ، ولكل دان من تناء ، وتلك عـادة الله فى العباد والبلاد ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

وماشئ من دواهى الدنيا يَعدل الافتراق ، ولو سالت الأرواح به فضلاً عن الدموع كان قليلاً . وسمع بعض الحكماء قائلاً يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق أقساماً :

والبين ينقسم فأولها مُدة يُوقن بانصرامها وبالعودة عن قريب ، وإنهّ لشجى فى القلب ، وغصة فى الحلق ، لاتبرأ إلا بالرجعة ، وأنا أعلم مَن كان يَغيب مَن يُحب عن بصره يوماً واحداً ، فيعتريه من الهلع والجزع وشُغل البال ، وترادُف الكرب ، مايكاد يأتى عليه .

ثم بَيْنٌ منع من اللقـاء ، وتحظير على المحبوب من أن يراه محبه ، فهذا – ولو كان من تحبه معك فى دار واحدة – فهو بين : لأنه بائن عنك . وإنّ هذا ليولدّ من الحزن والأسف غير قليل ، ولقد جرّبناه فكان مُرّاً .

وفى ذلك أقول :

أرَى دارَها فى كلِّ حينٍ وساعةٍ
ولكنَّ من فى الدار عنى مُغيَّبُ

وهل نافعِى قُرْبُ الدِّيار وأهلُهاً
على وصلِهمْ منّى رقيبٌ مُرَقَّبُ

فيالكَ جار الجَنْب أسمعُ حِسّهُ
وأعلَمُ أن الصِّينَ أدنى وأقرب

كصادٍ يرى ماءَ الطوِىِّ بعينه
وليس إليهِ من سبيل يُسبِّب

كذلك مَن فى اللحدِ عنك مُغَيبٌ
وما دونَه إلاّ الصفيحُ المُنصَّب

وأقول من قصيدة مطوّلة :

مَتى تشتفى نفسى أضَرَّ بها الوْجدُ
وتصقَبُ دارٌ قد طوى أهلَهَا البعْدُ

وعهدى بهندٍ وهى جارةُ بَيتنا
وأقربُ من هِندٍ لطالبها الهندْ

بلَى إنّ في قُربِ الديـــار لراحـــةً

كمـــا يُمسِكُ الظمآنَ أنْ يَدْنُو الوِرْدُ

ثم بَيْنٌ يتعمده المحب بُعداً عن قول الوُشاة ، وخوف أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أنْ يفشو الكلام فيقع الحجابُ الغليظ .

ثم بَيْنٌ يولده المُحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان وعَذره مقبول أو مطروح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

★ **خبر :**

ولعهدى بصديق لى داره المرية ، فعنّتْ له حوائج إلى شاطبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدة إقامته بها (١) . وكان له بالمرية علاقة هى أكبر همه ، وأدهى غمه ، وكان يؤمّل بتّها وفراغ أسبابه . وأن يُوشك الرّجعة ، ويُسرع الأوبة ، فلم يكن إلاّ حينٌ لطيفٌ بعد احتلاله عندى ، حتى جَيَّش الموّفق أبو الجيش مجاهد صــاحب الجــزائر الجيــوش وقرّب العســـاكر ، ونابذ خيـــران

(١) هذه الفقرة تتصـــل بالصديق الذى أشـــار ابن حزم فى المقدمة إلى أنه اقترح عليه أن يصنّف له رسالة « فى صفة الحب ، ومعانيه وأسبابه وأغراضه » .

صاحب المرية [1] وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتُحومِيَت السبل ، واحترس البحر بالأساطيل فتضاعف كربه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً ألبتة ، وكاد يَطفأ أسفًا ، وصار لا يأنس بِغير الوحدة ، ولا يلجأ إلاَّ الى الزفير والوجوم ، ولعمرى لقد كان ممن لم أُقدّر قط فيه أن قلبه يُذعن للود ، ولا شراسة طبعه تجيب إلى الهوى .

وأذكر أنى دخلت قرطبة بعد رحيلى عنها [2] ثم خرجتُ

---

(١) يطلق عليها فى المصادر العربية « الجزائر الشرقية » ، أو « جزائر شرقى الأندلس » ، وأصبحت تعرف منذ القرن الماضى باسم « جزر البليار » . وهى مجموعة من الجزر فى البحر الأبيض المتوسط على مقربة من الأندلس ، وشاركتها على امتداد تاريخها نفس المصير ، وأشهر جزرها : ميورقة ومنورقة ويابسة .

وقد حكم أبو الجيش ، الموفق بالله ، مجاهد بن عبد الله العامرى ، خلال عصر الطوائف ، جزر البليار ودانية من عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م إلى ٤٣٦ هـ = ١٠٤٤ م . وحكم خيران العامرى المرية من ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م إلى ٤١٩ هـ = ١٠٢٨ م .

ومجاهد وخيران كلاهما مولى صقلبى ، من موالى المنصور بن أبى عامر ، ولعبا فى الأحداث السياسية دوراً هاماً ، وبعد زوال العامريين ، وسقوط الخلافة ، أخذا بحظهما من التركة .

(٢) سوف يشير ابن حزم فيما بعد بإيضاح أكثر إلى هذه الرحلة ، التى قام بها إلى قرطبة ، وربما تمت فى الخفاء ، بعد أن غادرها مع دخول البربر إليها عام ٤٠٣ هـ = ١٠١٢ م .

منصرفًا عنها ، فضمني الطريق مع رجل من الكتّاب قد رحل لأمر مهم ، وتخلف سكن له ، فكان يرتمض لذلك .

وإنّي لأعلم من علَق بهوى له ، وكان في حال شَظف ، وكانت له في الأرض مذاهبُ واسعة ، ومناديح رَحبة ، ووجوه متصرف كثيرة ، فهان عليه ذلك ، وآثر الإقامة مع مَن يحب .

وفي ذلك أقول شعرًا ، منه :

لكَ في البلاد مَنادِحٌ مَعلومَةٌ والسيفُ غُفل أو يَبين قِرابه

ثم بَيْن رحيلٍ وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوْبة فيه على يقين خَبر ، ولا يَحدث تلاق ، وهو الخطب الموجع ، والهم المُفظع ، والحادث الأشنع ، والداء الدويّ ، وأكثر ما يكون الهلع فيه إذا كان النائي هو المحبوب ، وهو الذي قالت فيه الشعراء كثيرًا .

وفي ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذي عِلَّةٍ أعيا الطبيبَ علاجُهـا ستوردُني لاشكَّ مَنْهلَ مَصْرعي

رضيتُ بأنْ أُضْحَى قتيل ودادِهِ كجارعِ سمٍّ في رَحيق مُشعشع

فما لليـالي ما أقل حَيـاءَها وأولَعَهـا بالنفسِ من كلِّ مُولع

كأنَّ زَماني عَبْشميٌ يخـالُني أعنتُ على عثمانَ أهلَ التشيُّع

وأقول من قصيدة :

أظنّكَ تمثالَ الجِنـــانِ أباحَهُ لِمُجتهدِ النسّاكِ مِنْ أوليـــائِهِ

وأقول من قصيدة :

لأبْرِدَ باللُّقيا غليلاً من الهَوى توقّع نيرانَ الغَضَى هيمـانُهُ

وأقول شعرًا منه :

خَفِيت عن الأبصارِ والوَجْدُ ظاهرٌ

فأعجبْ بأعْراضٍ تَبِينُ ولا شَخْصُ

غـــدا الفلكُ الدوّارُ حَلقةَ خـــاتمٍ

مُحيطٍ بمـــــا فيـــه وأنتَ له فصٌّ

وأقول من قصيدة :

غنيتَ عن التشبيه حُســـنًا وبَهْجةً

كما غَنِيتْ شَمس السماءِ عن الحلى

عجبتُ لنفسى بعدَهُ كيفَ لم تمُتْ

وهجـــرانُه دَفْنِى وفقـــدانه نَعْيى

والجَسـد الغضِّ المُنعَّم كيف لمْ

تُذِبْهُ خشـنـاء.......... (١)

وإن للأوْبة من البَيْنْ الذى تشفق منه النفس لطول مسافته ، وتكاد تيأس من العودة فيـه ، لروعة تبلغ ما لا حـد وراءه ، وربما قتلت .

وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعدَ الفراقِ سرورٌ كسُرور المُفيقِ حـانتْ وفـاتُهْ

فرحـةٌ تُبهجُ النفـوسَ وتحيي مَن دنا منـه بالفـراقِ مماتُهْ

ربّما قـد تكـون داهيةُ الموْ تِ وتودى بأهلِهِ هجمـاتُهْ

كم رأينا من عبٍّ فى الماء عطشا ن فزارَ الحِمـامَ وهو حياتُهْ

وإنى لأعلم من نأت دارُ محبوبه زمنًا ، ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدر التسليم واستيفائه ، حتى دعته نوى ثانية فكاد أن يهلك .

وفى ذلك أقول :

---

(١) بياض فى الأصل

أطلتَ زمانَ البعدِ حتى إذا انقضىَ

زمانُ النّوى بالقربِ عُدتَ إلى البعـدِ

فلم يكُ إلا كَرَّةَ الطـــــرْفِ قُرْبُكُمُ

وعـــاودكم بُعْدِى وعـــاودَنى وَجْدِى

كذا حائرٌ فى الليل ضاقتْ وجوهُهُ

رأى البرقَ فى داجٍ من الليل مُسوَدٍّ

فأخلَفه منـــــهُ رجـــــاءُ دوامِهِ

وبعضُ الأراجِي لا تفيـدُ ولا تُجدى

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قرّتِ العينانِ بالقربِ منكُمُ   كما سَخُنَت أيامَ يَطْوِيكُمُ البعْدُ

فلله فيما قد مضى الصبر والرضا

ولله فيما قد مضى الشكر والحمد

★ خبر :

ولقد نُعى إلىّ بعض من كنت أحب من بلدة نازحة ، فقمت فاراً بنفسى نحو المقابر ، وجعلت أمشى بينها وأقول :

وددتُ بأنّ ظهــرَ الأرضِ بَطنٌ   وأنّ البطنَ منها صارَ ظهْرا

وأنىَ متُّ قبـــــل ورودِ خطبٍ   أتى فأثارَ فى الأكبادِ جمْرا

وأنّ دمي لمن قـــد بان غُسْلٌ   وأنّ ضلوعَ صدرى كنّ قبرا

ثم اتصل بعد حين تكذيب ذلك الخبر فقلت :

بُشْرَى أتتْ واليأسُ مُسْتحكمٌ   والقلبُ فى سبْعٍ طِبـاق شـدادْ

كستْ فؤادِي خُضْرةٌ بعــدما   كـان فؤادى لابسًـا للحـدادْ

جلّى سوادُ الغمِّ عنيَّ كمـــا   يُجليَ بلونِ الشمسِ لون السواد

هـــذا وما آملُ وصـــلاً سوَى   صـــدْقٍ وفاءٍ بقــــديم الوِدَاد

فالمُزْنُ قــد تُطلبُ لا للحَيـــا   لـــكنْ لظلٍّ باردٍ ذى امتـــداد

ويقع فى هذين الصنفين من البيْن الوداع ، أعنى رحيل المُحبّ أو رحيل المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة ، والمواقف الصعبة ، التى تفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كلُّ عين جمود ، ويظهر مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البيْن يجب التكلّم فيه ، كالعتاب فى باب الهجر .

ولعمرى لو أن ظريفًا يموت فى ساعة الوداع ، لكان معذورًا إذا تفكر فيما يحل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدل الســرور بالحزن ، وإنّها ساعة تُرقّ القلوب القاسية ، وتُلين

الأفئدة الغلاظ . وإنّ حركة الرأس ، وإدمان النظر ، والزفرة بعد الوداع ، لهاتكةُ حجابَ القلب ، وموصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجد في ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسم ، ومواطن الموافقة والوداع ، تنقسم قسمين : أحدهما لا يتمكن فيه إلاّ بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما لعله كان لايمكن قبل ذلك ألبتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا تمنى بعض الشعراء البَيْنَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأى ، فما يفى سرورُ ساعة بحزن ساعات ، فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومُعْوَج من القياس ، وإنما أثنيت على النوى فى شعرى تمنياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع . على أن تحمُّل مضض هذا الاسم الكريه ، وذلك عندما يمضى من الأيام التى لا التقاء فيها ، فحينئذ يرغب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم .

وفى الصنف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تنُوب عن بهجةِ الأنـوارِ بهجتهُ

كما تنوبُ عن النيرانِ أنفاسِي

وفى الصنف الثانى من الوداع أقول شعراً منه :

وجهٌ تحرُّ له الأنوارُ ساجدةً

والوجهُ تمٌّ فلم يَنقُصْ ولم يَزِيد

دفءٌ وشمسُ الضحى بالجَدْى نازلةٌ

وباردٌ ناعمٌ والشمسُ فى الأسدِ

ومنه :

يومُ الفِراق لعَمرى لستُ أكرهُهُ

أصلاً وإن شَتَّ شملُ الروح عن جسدي

ففيه عانقتُ من أهوى بلا جَزَع

وكان مِن قَبلِهِ إن سِيلَ لم تَجِد

أليسَ مِن عَجبٍ دمعى وعَبْرتها

يومُ الوصالِ ليومِ البَيْنِ ذو حَسَدَ

وهل هَجَسَ فى الأفكار ، أو قام فى الظنون ، أشنع وأوجع من هجر عتاب وقع بين محبين ، ثم فجأتهما النوى قبل حلول الصلح ، وانحلال عقدة الهجران ، فقاما إلى الوداع وقد نُسى العِتاب ، وجاء ماطمّ عن القُوى ، وأطال الكرى ؟

وفيه أقول شعراً ، منه :

وقد سَقَطَ العتب المقدمُ وامحىَ

وجـاءت جيــوش البيْنِ تجري وتُسْرِعُ

وقـد ذَعَـرَ البيْنُ الصـدودَ فراعـهُ

فولىَّ فما يُدرىَ لـه اليومَ مَوْضعُ

كـذئبٍ خــلا بالصيـدِ حتى أضلّه

هِزَبرٌ لـه مـن جانب الغيلِ مَطْلع

لئن سـرّني فى طَرْده الهجرَ أنّنى

لإبعـادِه عنّى الحبيبَ لَمــوُجَعُ

ولا بُدَّ عندَ الموت مِن بعضِ راحةٍ

وفى غبهـا المـوت الوحِيُّ المصرّعُ

وأعرف من أتى ليودّع محبوبه يوم الفراق فوجده قد فات ، فوقف على آثاره ساعة ، وتردّد فى الموضع الذى كان فيه ، ثم انصرف كئيباً متغير اللون كاسف البال ، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله .

وإن للبيْن فى إظهار السرائر المطوية عملاً عجباً ، ولقد رأيت

من كان حبه مكتوماً ، وبما يجد فيه مستتراً ، حتى وقع حادثُ الفراق فباح المكنون ، وظهر الخفى .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

بذلتَ من الودِّ ما كان قبل
منَعْتَ وأعطيتنيه جُزافا

وما لى به حاجة عند ذاك
ولو جُدْتَ قَبْلُ بلغتَ الشغافا

وما ينفعُ الطبُّ عند الحِمام
وينفعُ قبل الردَى مِن تَلافا

وأقول :

الآن إذ حلّ الفراقُ جُدْتَ لى
بخفىِّ حبٍّ كنتَ تُبدى بُخْلَهُ

فزدتنى فى حَسْرتى أضعافَها
ويْحِى فهلاَّ كانَ هذا قَبْلَهُ

ولقد أذكرنى هذا أنى حظيت ، فى بعض الأزمان ، بمودة رجل من وزراء السلطان ، أيام جاهه ، فأظهر بعض الامتساك ، فتركته حتى ذهبت أيامه ، وانقضت دولته ، فأبدى لى من المودة والاخوة غير قليل ، فقلت :

بذلتَ ليَ الإعراضَ والدهرُ مقبـلٌ

وتبذلُ لي الإقبالَ والـدهرُ مُعرضٌ

وتبسـُطُني إذ ليس ينفعُ بسـطُكُم

فهلاّ أبحتَ البسـطَ إذ كنت تَقْبض

ثم بَيْنُ الموتِ وهو الفوْت ، وهو الذي لايُرجى له أياب ، وهو المصيبة الحالة ، وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ، وهو الويل ، وهو المغطِّي على ظلمة الليل ، وهو قاطع كل رجاء ، وماحِي كل طمع ، والمؤيس من اللقاء . وهنا حارت الألسن ، وانجذم حبل العلاج ، فلا حيلة إلا الصبر طوعاً أو كرهاً ، وهو أجل ما يبتلى به المحبون ، فما لمن دُهى به إلاّ النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يمل ، فهى القرحة التى لا تُنكى ، والوجع الذى لا يفنى ، وهو الغم الذى يتجدد على قدر بلاء من اعتمدته فى الثرى ، وفيه أقول :

كلُّ بيْن واقـع	فمرجـّى لـم يَفَتْ
لا تُعجـِّلْ قَنِطـاً	لم يَفُتْ مَنْ لم يَمت
والذى قد مات فالـ	ـيأسُ عنه قـد ثَبتْ

وقد رأينا مَن عرض له هذا كثيراً .

وعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة . وتعجلّت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشدَّ الناس كلفاً ، وأعظمهم حبّاً بجارية

لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعْم . وكانت أمنية المتمنّى ، وغاية الحسن خَلْقاً وخُلُقا ، ومُوافقة لى ، وكنت أبا عذرها ، وكنّا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار ، واخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار . وسنىٌ حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمتُ بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ، ولا تفتر لى دمعة على جُمود عينى ، وقلة إسعادها ، وعلى ذلك فوالله ماسلوتُ حتى الآن ، ولو قبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف ، وببعض أعضاء جسمى العزيزة علىّ ، مسارعا طائعاً ، وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها ، ولقد عَفّى حُبّى لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده (١) .

ومما قلت فيها:

مهذّبةٌ بيضاءُ كالشمس إنْ بدتْ

وسائرُ ربّاتِ الحِجالِ نُجومُ

أطارَ هواها القلبَ عن مستقره

فبعدَ وقوعٍ ظلَّ وَهْوَ يحوم

(١) سبق لابن حزم أن تحدث عن نعم هذه ، وعن قصة أخرى له معها فى الباب الثانى .

ومن مراثىّ فيها قصيدة منها :

كـأنّىَ لـم آنسْ بألفـاظك التى

على عُقَدِ الألبـابِ هـُنَّ نـَوافثُ

ولـم أتحكّمْ فى الأمـانىِ كـأنّنى

لإفراط مـا حُكّمتُ فيهن عـابث

ومنها :

ويبدينَ إعراضـاً وهـنَّ أوالفٌ

ويُقسِمْنَ فى هَجرى وهنَّ حوانثُ

وأقول أيضـاً فى قصيدة أخاطب فيها ابن عمى أبا المغيرة عبد الوهاب أحمد بن عبد الرحمن بن حزم بن غالب [1] وأقرضه ، فأقول :

قِفا فاسألا الأطلالَ أين قطينُها

أمرتْ عليهـا بـالبِلى الملـَوان

على دراساتٍ مقفراتٍ عَواطلٍ

كأن المغانىِ فى الخفاءِ معانى

(١) ابن عم ابن حزم ، ورفيقه فيما بعد وزيرين فى وزارة عبد الرحمن بن هشام المستظهر ، توفى فى طليطلة عام ٣٤٨ هـ = ١٠٤٦ م ، وكان أديباً وشاعراً ومؤلفاً ، ولدينا عنه معلومات وافرة .

واختلف الناس فى أى الأمرين أشدّ : البين أم الهجر ؟ وكلاهما مُرتقى صعب ، وموت أحمر ، وبلية سوداء ، وسنة شَهباء . وكل يستبشع من هذين ماضادّ طبعه ، فأمّا ذو النفس الأبية ، الألوف الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلاشئ يعدل عنده مُصيبة البين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدتْه النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلّى نفسه ، ولا يصرف فكرته فى معنى من المعانى ، إلاّ وجد باعثاً على صَبابته ، ومحركا لأشجانه ، وعليه لا لهُ ، وحجة لوجده ، وحاضاً على البكاء على إلفه. وأمّا الهجر فهو داعية السلو ، ورائد الإقلاع .

وأما ذو النفس التوّاقة ، الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه ، وجالبُ حتفه ، والبين له مَسلاة ومنساة .

وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط ويوشك إنْ دام أن يحدث إضراراً .

وفى ذلك أقول :

وقــالوا ارتحــلْ فلعلّ السلُّو
يكــونُ وتــرغبُ أن تَرْغبــهْ
فقلتُ الردى لــي قبــلَ السلو
ومَنْ يشربُ السمَّ عن تجربهْ

وأقول :

سـبىَ مهجتـى هـواهُ

وأودتْ بهـا نـواه

كـأنّ الـغرامَ ضيفٌ

وروحـى غـدا قـراهُ

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ، ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البين وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق ، وهذا وإن لم يكن عندى من المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً فى الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، إنما يأخذ الناسُ أبداً الأسهل ويتكلفون الأهون . وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة ، لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرّعوا غصة الصبر قبل وقتها ، ولعلّ ما تخوفّوه لا يكون ، وليس من يتعجل المكروه وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم . وفيه أقول شعراً ، منه :

لبس الصبُّ للصبابةِ بيْناً

ليس مَن جانَبَ الأحبةَ منّا

غنـىٌّ يعيشُ عيـشَ فقيرٍ

خوفَ فقْرٍ وفقرهُ قد أبنّا

وأذكر لابن عمى أبى المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب

مِن الصدّ ، أبياتاً من قصيدة خاطبني بها ، وهو ابن سبعة عشر عاماً أو نحوها ، وهي :

أجزعْتَ أن أزِفَ الرّحيلُ

وَوَلَهْتَ أنْ نُصّ الذميلُ

كلاّ مُصابُك فادِحٌ

وأجلّ فراقهم جليل

كذَبَ الألى زعموا

بأن الصدّ مرتعُه وَبيل

لم يعرفوا كُنْهَ الغليلِ

وقد تحمّلت الحُمُول

أمّا الفِراقُ فإنّهُ

للموتِ إنْ أهوَى دليل

ولي في هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لا مِثْلُ يومِك ضَحْوَةُ التنعيم

في مَنْظرٍ حَسَنٍ وفي تَنْغيمِ

قد كانَ ذاكَ اليومُ نُدْرةَ عاقر

وصوابَ خاطئة وولْدَ عَقيم

أيــامَ بـرَق الــوصلِ ليــس بخلّبٍ

عنــدى ولا روضُ الهـوى بهشيم

مـنْ كــلّ غــانيةٍ تقــول ثُديُّهـا

ســيرى أمــامك والإزارُ أقيمـى

كلٌّ يُجاذبُهــا فحُمرةُ خدِّهـا

خَجــلٌ من التــأخيرِ والتقديمِ

مــابي سوى تلكَ العيونِ وليس في

بُرْئي ســواها فـى الـورى بزعيم

مثلُ الأفـاعي ليس فى شئ سوَى

أجســادها إبراءُ لـدغ سـليمِ

والبين أبكى الشعراءَ على المعاهد ، فأدروْا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا ، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا .

ولقد أخبرنى بعض الوراد من قرطبة ، وقد استخبرته عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مغيث ، فى الجانب الغربى منها ، وقد امحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيّرها البلى ،

وارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى مُوحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحُسن ، وشماباً مفزًعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى ، تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمّقة ، والمقاصير المزيّنة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، وتؤذن بفناء الدنيا ، وتُريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها ، بعد أن طال مازهدت فى تركها ، وتذكرت أيامى بها ، ولَذّاتى فيها ، وشهور صباى لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى ، وفى الآثار النائية ، والنواحى البعيدة ، وقد فرّقتهن يدُ الجلاء ، ومزقتهن أكفٌ النوى ، وخيل إلى بصرى فناء تلك النصبة بعد ماعلمتُه من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التى نشأت فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمتُ سمعى صوت الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التى رُبّيت بينهم فيها ، وكان ليلُها تبعاً لنهارها فى انتشار ساكنها ، والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها فى

الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عينى وأوجع قلبى ، وقزع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لى ، فقلت شعراً منه (١) .

لئنْ كان أظمانــا فقد طالما سقَى

وإنْ ســاءَنا فيهـا فقد طالما سـرّا

والبيْن يولّد الحنين والاهتياج والتذكّر . وفى ذلك أقول :

---

(١) فى هذه الفقرة يبكى ابن حزم ، فى نثر بليغ ، وعاطفة صادقة ، ما حل بمدينته قرطبة ، وما أصاب منازل أهله فيها على يد البرابر ، بعد أن اقتحموا المدينة ونهبوها عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م ، وأورد لنا ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام » تفاصيل الأحداث كاملة صفحة ١٠٩ وما بعدها ، وأتى على نص ابن حزم فى بكاء مدينته الحزينة وجاء الشعر منه فى عشرين بيتا ، واكتفى ناسخ مخطوطة الطوق ببيت واحد منها .

والنثر فى أعمال الأعلام يختلف عن النثر فى « الطوق » زيادة ونقصا . ويقول ابن الخطيب أنه وجد النص بخط ابن حزم فى خبر ذكره ، والمناسبة فيه تختلف عما فى الطوق ، ففى هذا يبكى ابن حزم ديارهم منفيا بعيدا ، حين جاءه خبرها وما حلّ بها ، وعند ابن الخطيب أنه بكاها بعد أن عاد إليها ، وألقى نظرة على خرائبها . وبين النصين بعض الاختلاف ، ومع فقدان أية مخطوطة أخرى ترجح واحدا من النصين على الآخر ، يصعب التفضيل بينهما ، والجزم أقرب إلى إرادة المؤلف . ولهذا آثرت أن أحتفظ بنص الطوق كما هو ، وألحقت بآخر الكتاب النص كما أورده ابن الخطيب ، ليوازن القارئ بينهما إذا شاء .

ليتَ الغرابَ يُعيدُ اليومَ لي فعسَى

يَبين بينهمُ عنّى فقد وقفا

أقولُ والليلُ قد أرخَى أجلّتهُ

وقد تألّى بألاّ ينقضِى فوفَى

والنجمُ قد حارَ فى أفقِ السماءِ فما

يمضِى ولا هو للتغوير مَنصرِفا

تخالُهُ مخطئاً وخائِفاً وجِلاً

أوْ راقباً موعدا أو عاشقاً دَنِفا

٢٥

باب القنوع

ولا بد للمحب ، إذا حُرم الوصل ، من القنوع بما يجد ! وإن فى ذلك لمتعللا للنفس، وشغلا للرجا ، وتجديداً للمنى ، وبعض الراحة . وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكن :

فأولها الزيارة ، وإنها لأمل من الآمال ، ومن سرى ما يسنح فى الدهر مع ما تبدى من الخفر والحياء لما يعلمه كل واحد منهما مما فى نفس صاحبه . وهى على وجهين :

أحدهما أن يزور المحبّ محبوبه ، وهذا الوجه واسع .

والوجه الثانى أن يزور المحبوب مُحبّه ، ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر وفى ذلك أقول :

فـإنْ تنـــأ عنّى بالوصـــالِ فــإننى
سأرضَى بلحظِ العينِ إنْ لم يكنْ وصلُ

فحســــــبىَ أنْ ألقـاكَ فى اليوم مرّة
وما كنتُ أرضىَ ضعفَ ذا منك لى قبل

كـــذا همـّةُ الـــوالى تكـــونُ رفيعـةً

ويرضى خلاصَ النفسِ إنْ وقع العزل

وأمّا رجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال ، وإن كنت أنا أقول فى قصيدة لى :

فها أنـا أُخْفى وأقنعُ راضيـاً

برجع سلامٍ إنْ تيسَّرَ فى الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلى ما هو أدنى منها . وإنما تتفاضل المخلوقات فى جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها .

وإنى لأعلم من كان يقول لمحبوبه : عدنى واكذب ، قنوعاً بأن يسلى نفسه فى وعده ، وإن كان غير صادق . فقلت فى ذلك :

إنْ كان وصلُكَ ليـس فيه مَطمعٌ

والقربُ ممنوعٌ فعِـدْنى واكـذبِ

فعسـى التعلّلُ بالتقائك مُمسِكٌ

لحيـــاةِ قلـــب بالصدود مُعـــذّب

فقد يُســـلّى المجـدبينَ إذا رأوْا

فى الأفقِ يلمعُ ضــوْء بَرْقٍ خُلَّب

ومما يدخل فى هذا الباب شئ رأيته ورآه غيرى معى ، أنَّ رجلا من إخوانى جرحه من كان يُحبه بمدية ، فلقد رأيته وهو يُقبِّل مكان الجُرح ، ويندُبه مرة بعد مرة .

فقلت فى ذلك :

يقولون : شَجَّكَ مَن هِمْتَ فيه
فقلتُ : لعمرىَ ما شجَّني

ولكنْ أحسَّ دمى قُربهَ
فطارَ إليه ولم ينثنِ

فيا قاتلى ظاملاً مُحسناً
فديتُك من ظالمٍ مُحسنِ

ومن القنُوع أن يُسَرَّ الإنسان ويَرضى ببعض آلات محبوبه ، وإنَّ لَه من النفس لموقعا حسنا ، وإن لم يكن فيه إلاَّ ما قص الله تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب بصيراً حين شَم قميص يوسف عليهما السلام .

وفى ذلك أقول :

لمَّا مُنعتُ القربَ من سيِّدى
ولجَّ فى هجرى ولم يُنصفِ

صرتُ بإبصاريَ أثوابَهُ

أو بعض ما قد مسَّهُ أكْتفى

كذاكَ يعقوبُ نبى الهدى

إذ شقَّهُ الحزنُ على يوسف

شمَّ قميصاً جاء مِن عندِه

وكان مكفوفاً فمنهُ شُفِى

وما رأيت قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خصل الشعر مبخرة بالعَنبر ، مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمصطلكى وبالشمع الأبيض المصفى ، ولُفَّتْ فى تطاريف الوَشْى والخز وما أشبه ذلك ، لتكون تذكرة عند البين .

وأما تهادى المساويك بعد مضغها ، والمصطكى إثر استعمالها ، فكثير بين كل متحابين قد حظر عليهما اللقاء . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أرَى رِيقَها ماءَ الحياة تيقُّناً

على أنهَا لم تُبقِ لى فى الهوَى حَشَا

★ خبر :

وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر ، أنه رأى

ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية [1] ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوما فى بعض المتنزهات ماشياً ، وامرأة خلفه تنظر إليه . فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه ، فجعلت تقبّله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله .

وفى ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلوموننى فى مَوْطِئ خُفِّه خطّا
ولو علِموا عادَ الذى لامَ يَحْسُدُ

فيا أهل أرضٍ لاتجودُ سحابُها
خُذوا بوصاتى تستقلّوا وتُحمدوا

خذوا من ترابٍ فيه موضعُ وَطئه
وأضمنُ أن المَحْل عنكم يُبعَّد

فكلُّ تراب واقعٌ فيه رجلُهُ
فذاك صعيدٌ طيِّبٌ ليس يُجحد

---

(١) لا تمدنا المصادر بأية معلومات عنها ، فقط يتحدث ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » ، الترجمة رقم ٤٥٣ ، فى إيجاز شديد عمن يدعى : سليمان بن أحمد بن محمد الأندلسى ، من أهل سرقسطة ، يكنى أبا الربيع ، وكانت له رحلة إلى المشرق . وثمة إحتمال بأن يكون سليمان هذا هو الذى يشير إليه ابن حزم .

كــذلك فعل الســامرىّ وقــد بـدا

لعينيـــه مــن جبريــل إثــرٌ ممجّد

فصيّر جوفَ العِجل مِن ذلك الثرى

فقـــام لـــه مِنــه خـــوارٌ ممــدّد

وأقول :

لقـد بُورِكتْ أرضٌ بهـا أنت قـاطنٌ

وبورِكَ من فيها وحَلّ بهـا السـعدُ

فأحجــارُها دُرٌّ وســـعدانُها وردٌ

وأمواهُهــــا شـــهدٌ وتربتُها نَدّ

ومن القنوع الرضا بمزار الطيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدث عن ذكر لايفارق ، وعهد لايحول ، وفكر لا ينقضى ، فإذا نامت العيون ، وهدأت الحركات سرى الطيف . وفى ذلك أقول :

زار الخيــالُ فتىً طـالتْ صَبابتـهُ

على احتفاظٍ من الحُرّاس والحفظهْ

فبتُّ فــى ليلتى جــذلانَ مُبتهجــاً

ولــذّةُ الطيفِ تُنسى لــذّة اليقظـه

وأقول :

أتَى طيفُ نُعْمٍ (1) مَضْجِعى بعد هَدْأةٍ
والليلِ سلطانٌ وظلٌ ممدّدُ

وعهدِى بها تحتَ الترابِ مُقيمةٌ
وجاءتْ كما قد كنتُ مِنْ قبل أعهد

فعدْنا كما كنّاً وعاد زماننا
كما قد عهدْنا قبلُ والعودُ أحمدُ

وللشعراء فى علة مزار الطيف أقاويل بديعة المرمى مخترعة ، كلٌّ سبق إلى معنى من المعانى ، فأبو إسحاق بن سيّار النّظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقّب على بهاء الأبدان . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى جعل علّته أنّ نكاح الطيف لايفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده . والبُحترى جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده ، وعلّة زواله خوف الغرق فى دموعه .

وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة ، وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء

(1) نعم : الجارية التى كان يعشقها ابن حزم ، وتحدث عنها فى الفصل السابق ، انظر الهامش رقم ٥ .

بهم ، وجريا فى ميدانهم ، وتتبعاً لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا ، أبياتاً بينت فيها مزار الطيف مقطّعة :

أغـارُ عليك مـن إدْراكِ طَرْفـى

وأشـفقُ أنْ يُذيبك لَمس كفّي

فـأمتنعُ اللقـاءَ حـذارَ هـذا

وأعتمـدُ التـلاقيِ حـين أغْفَـى

فروحـى إنْ أنـمْ بك ذو انفرادٍ

مـن الأعضـاءِ مُسـتترٌ ومخْفى

ووَصْلُ الـروح ألطفُ فيك وَقْعـاً

من الجسم المواصل ألفَ ضِعْف

وحال المزُور فى المنام ينقسم أقساماً أربعة :

أحدهما محبٌ مهجور قد تطاول غمه ، ثم رأى فى هجعته أن حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ، ثم استيقظ فأسف وتلهّف ، حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس وحديثها .

وفى ذلك أقول :

أنت فى مشـرقِ النهـارِ بخيلٌ

وإذا الليـلُ جـنَّ كنتَ كريمـا

تجعلُ الشمسَ منك لى عِوَضاً هيـ

ـهاتَ ماذا الفعـالُ منك قويما

زارنى طيفُـكَ البعيـدُ فيـأتى

واصلاً لـى وعـائداً ونديما

غير أنىَّ منعتنى مـن تمـام الـ

عيش لكنْ أبحتَ لـىِ التشـميما

فكـأنِّى من أهـل الاعراف لا الفر

دَوْس دارى ولا أخـافُ الجحيما

والثانى محب مواصل مشفق من تغير يقع ، قد رأى فى وسنه أن حبيبه يهجره فاهتَّم لذلك هماً شديداً ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الاشفاق .

والثالث محب دانى الديار يرى أنّ التنائى قد فدحه ، فيكترث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحاً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

رأيتك فـى نـومى كـأنّكَ راحـلُ

وقمنا إلى التـوديع والدمعُ هـاملُ

وزال الكَرى عنّى وأنت معانقى

وغَمّــى إذا عـاينتُ ذلك زائـل

فجددتُ تَعْنيقـاً وضمًّا كـأنّنى

عليـكَ مــن البيْنِ المفرّق واجـل

والرابع محب نائى المزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى ، ثم يقوم من سنته فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم ، وقد جعلت فى بعض قولى علة النوم الطمع فى طيف الخيال .

فقلت :

طاف الخيالُ على مستهترٍ كَلِفٍ

لولا ارتقابُ مزارِ الطيفِ لم يَنمِ

لا تعجبوا إذ سرَى والليلُ مُعتكرٌ

فنورُهُ مُذهِـبٌ فى الأرض للظلمِ

ومن القنوع أن يقنــع المحبّ بالنظــر إلى الجــدران ، ورؤيـــة الحيطــان التى تحتوى على من يحبّ ، وقد رأينــــا من هذه صفته . ولقد حــــدثنى أبو الوليد أحمد بن محمد بن إســحاق

الخازن [١] رحمه الله ، عن رجل جليل ، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا .

ومن القنوع أن يرتاح المحبّ ، إلى أنْ يرى مَن رأى محبوبه ، ويأنس به ، ومَن أتى من بلاده ، وهذا كثير . وفي ذلك أقول :

تَوحّشَ مـــن سـكّانه فكـــأنّهمْ
مســـــاكنُ عـــادٍ أعقبتْهُ ثمـــودُ

ومما يدخل في هذا الباب أبيات لي ، موجبها أني تنزهت أنا وجماعة من إخواني ، من أهل الأدب والشرف ، إلى بستان لرجل من أصحابنا ، فجلنا ساعة ، ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى . فتمددنا في رياض أريضة ، وأرض عريضة للبصر فيها منفسح ، وللنفس لديها مسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزرى بما أبدعه معبد و الغريض [٢] . وثمار مهدلة قد ذللت للأيدى ، ودنت للمتناول ، وظلال مظلة تلاحظنا الشمس من بينها ، فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج ، والثياب

(١) أبو الوليد أحمد بن محمد بن إسحاق ، والد أبي بكر محمد ، الذى عرفنا به فى الباب الثانى ، وكان أبو بكر صديقاً وودوداً لابن حزم . وكلمة الخازن تومىء إلى وظيفته ، أى القائم على الشئون المالية في دار الخلافة .

(٢) معبد ، أبو عياد معبد بن وهب ، زنجي الأب ، مولى لعبد الرحمن بن قطن فى المدينة المنورة ، وعمل فى شبابه صيرفياً ، ثم احترف الموسيقى فيما بعد ، وأصبح مغني الأمراء من بنى أمية فى المشرق ، ويصفه إسحاق ═ الموصلى بأنه « من أحسن الناس غناء ، وأجودهم صنعة ، وأحسنهم خلقاً ، وهو فحل المغنيين » . وتوفى عام ١٢٥ هـ = ٧٤٣ م .

المديجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات ، لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة ، مختلفة الألوان ، تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج ، وأخلاق جلاس تفوق كل هذا ، في يوم ربيعي ذي شمس ظليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق ، والمزن اللطيف ، وتارة تتجلى ، فهي كالعذراء الخفرة ، والخريدة الخجلة ، تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حذر عَيْنٍ مُراقِبَة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرض لي بذلك ، وتداعبنا حيناً ، فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً في ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكّرها بعد انصرافنا وهي :

ولـمَّا تروَّحْنـــاً بأكنافِ روْضةٍ
مهدّلةِ الأفنـانِ في تُرْبِها النَّدِي
وقـد ضَحكتْ أنوارُهـا وتضوَّعتْ
أســـاوِرُها في ظِـلّ فَيْءٍ ممـدَّد
وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسْنَ صَرِيفها
فـمن بين شـــاكٍ شَـجْوَهُ ومغرِّد

• الغريض ، ويكنى أبا يزيد ، أو أبا مروان ، والغريض لقب معناه المغنى المجيد ، وهو من أصل بربري ، وكان مولى للأخوات المعروفات باسم العبلات في مكة ، وتحول فيما بعد إلى ولاء السيدة سكينة بنت الحسين ، وحين حرم والي مكة الغناء والموسيقى التجأ إلى اليمن ، وتوفي عام ٩٨ هـ = ٧١٧ م .

والمــاءِ فيمــا بيننــا مُتصرّفٌ
والعـينِ مُرتــادٌ هنــاك واليــد

وما شـئتَ من أخلاقِ أروعَ ماجدٍ
كريمِ الســجايا للفخــار مُشيِّـد

فياليتنى فى السجن وهو معانقى
وأنتم معا فى قصر دار المجدّد[1]

تنغّص عنــدى كل مـاقد وصفْتهُ
ولـم يَهْننى إذْ غــابَ عنى سيّدى

فمـن رامَ منّا أن يبــدّل حالَـه
بحــالِ أخيــه أو بمـلكٍ مُخلّـد

فلا عـاش إلاّ فـى شـقاءٍ ونكبةٍ
ولا زالَ فــى بُؤْســىَ وخزْىٍ مردّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين .

وهذه الوجوه التى عددت وأوردت فى حقائق القناعة هى الموجودة فى أهل المودة ، بلا تزيُّد ولا إعياء .

---

(١) قصر المجدد : من القصور التى بناها عبد الرحمن الناصر إلى جانب قصر الزهراء ، القصر الرئيسى فى مدينة الزهراء .

وللشعراء فن من القنوع أرادوا فيه إظهار غرضهم ، وإبانة اقتدارهم على المعانى الغامضة ، والمرامى البعيدة ، وكلٌ قال على قدر قُوة طبعه ، إلاّ أنه تحكّم باللسان ، وتشدّق فى الكلام ، واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح فى الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما . ومنهم من قَنع باستوائهما فى إحالة الليل والنهار بهما ، وأشباه هذا ، وكلٌ مبادر إلى احتواء الغاية فى الاستقصاء ، وإحراز قصب السبق فى التدقيق .

ولى فى هذا المعنى قول لايمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولاً ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبيينى علة قرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بَعيدٌ قلتُ حسبى بأنّه

معِى فى زمان لا يطيقُ مَحِيدا

تَمُرُّ علَّى الشمسُ مثلَ مُرُورِها

به كلَّ يومٍ يَستنيرُ جديدا

فمنْ ليس بينى فى المسير وبينَه

سوى قطعِ يومٍ هل يكونُ بعيدا

وعِلم إلـهِ الخلقِ يجمعنا معاً

كفى ذا التدانى ما أريدُ مَزيدا

فبينت كما ترى أنى قانع بالاجتماع مع من أحب فى علم الله ، الذى السموات والأفلاك والعوالم كلها ، وجميع الموجودات ، لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ، ولا يشذ عنه منها شئ .

ثم اقتصرت من علم الله تعالى على أنه فى زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى فى إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً فى البادى إلى السامع : لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات ، وقطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان في بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان فإنهما بعض الزمان . وإنْ كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد ، فهذا يخطئه العيان ، وعللُ الردِّ عليه بينة ليس هذا موضعها .

ثم بيّنت أنه وإن كان فى أقصى المعمور من المشرق ، وأنا فى أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بينى وبينه إلا مسافة يوم ، إذا الشمس تبدو فى أول النهار المشارق وتغرب فى آخر النهار فى آخر لمغارب .

ومن القنوع فصل أورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ما عرّف نفوسنا من منافرته ، وهو أن يضل العقل جُملة وتفسد القريحة ، ويتلف التميز ، ويهون الصعب ، وتذهب الغيرة ، وتعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيمن يحب . وقد عرض

هذا لقوم . أعاذنـا الله من البلاء . وهذا لا يصلح إلا مع كلبية فى الطبع ، وسقوط من العقل الذى هو عيار على ما تحته ، وضعف حس . ويؤدى هذا كلُه حب شديد معم ، فإذا اجتمعت هذه الأشياء . وتلاحقت بمزاج الطبائع ، ودخول بعضها فى بعض . نتج بينهما هذ الطبع الخسيس ، وتولدت هذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح . وأما رجل معه أقل همة ، وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ، ولو مات وجداً ، وتقطع حبا .

وفى ذلك أقول زارياً على بعض المسامحين فى هذا الفصل :

رأيتُكَ رَحبَ الصدرِ ترضَى بمـا أتىَ

وأفضـلُ شـيءٍ أنْ تلينَ وتَسْـمَحا

فحظُك مـن بعضِ السوانِي مفضّلٌ

على أن يحوزَ المِلْكُ من أصلِها الرحى

وعضوَ بعيرٍ فيه فى الوزنِ ضعفُ ما

تُقَدِّره فى الجدْى فـاعْصِ الذى لَحا

ولَعْبُ الـذى تهـوَى بسَيفيْنِ مُعجِبٌ

فكُنْ ناحيـاً فى نحـْوِه كيفمـا نَحا

٢٦

باب الضنى

ولابد لكل محب صادق المودّة ، ممنوع الوصل ، إمّا ببَيْنٍ وإمّا بهجر وإمّا بكتمان واقع لمعنى ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جداً ، موجودا أبداً والأعراض الواقعة من المحبة غيرُ العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق ، والمتفرس الناقد .

وفى ذلك أقول :

يقولُ لِيَ الطبيبُ بغير علمٍ
تـداوَ فـأنتَ يـاهـذا عليلُ

ودائِي ليس يدريـه سـوائي
وربٌ قـــادرٌ مـلكٌ جليـل

أأكتُمـــهُ ويكشـــفُهُ شـهيقٌ
يـــُلازمنى وإطراقٌ طـويل

ووجهٌ شـاهداتُ الحزنِ فيه
وجسمٌ كالخيالِ ضَنٍ نحيل

وأثبتُ ما يكــون الأمرُ يومــاً

بــــلا شــــكٍّ إذا صــحّ الدليــل

فقــلتُ لــــه أبِــنْ عنــّى قليـلاً

فــــلا واللّهِ تعرفُ مــا تقــول

فقـــال أرى نُحــولاً زادَ جــدّاً

وعلّتُكَ التـــى تشـــكو ذُبـــول

فقلتُ لـه الذبولُ تَعِلُّ منه الــــ

جـــوارحُ وهـى حُمّـى تستحيل

وما أشـــكـو لعمرُ اللّـــــهِ حمّى

وإنّ الحرَّ فـــى جســـــمى قليل

فقـال أرى التفاتـاً وارتقابـاً

وأفكــــاراً وصمتـــاً لا يــــزول

وأحَســـبُ أنها السوداء فانظرْ

لنفسِــكَ إنهّـا عــرَضٌ ثقيــل

فقلتُ لــــه كـــلامُك ذا محـــالٌ

فمـــا للدّمــع مــن عَيْني يَسيل

فأطــرقَ باهتــاً ممّــا رآه

ألاَ فى مثلِ ذا بُهــتَ النبيــل

فقلتُ له دوائــى منه دائــى

ألاَ فى مثل ذا ضلّتْ عقــول

وشاهدُ ما أقولُ يرى عيــاناً

فرُعُ النبتِ إنْ عكِستْ أُصول

وتِرياقُ الأفاعى ليـــس شئٌ

سواهُ بِبرءِ ما لــدَغتْ كفيــل

وحدثنى أبو بكر محمد بقى الحجرى [1] ، وكان حكيم الطبع عاقلا فهيما ، عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره ، أنه كان ببغداد فى خان من خاناتها ، فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوجها . فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكراً ، وهو قد تكشف لبعض حاجته، فراعها كبر أيره ، ففرت إلى أمها وتفادت منه ، فرام بها كل من حواليها أن تُرد إليه ، فأبت وكادت أنْ تموت ، ففارقها ثم

(١) شــخصية لم أهتد إليها ، ولا أجــد لها فيما بين يدى من مصادر خبرا .

ندم ، ورام أن يراجعها فلم يمكنه ، واستعان بالأبهرى [1] وغيره ، فلم يقدر أحد منهم على حيلة فى أمره ، فاختلط عقله ، وأقام فى المارستان يعاني مدة طويلة حتى نقه وسلا وما كاد ، ولقد كان إذا ذكرها يتنفس الصعداء .

وقد تقدم فى أشعارى المذكورة فى هذه الرسالة ، من صفة النحول مفرّقاً ما استغنيت به عن أن أذكر هنا من سواها شيئاً خوف الإطالة . والله المعين والمستعان .

وربما ترقّت إلى أن يغلب المرء على عقله ، ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .

★ خبر :

وإنى لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القواد ، وقد بلغ حُبٌّ فتى من إخوانى جدا من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط . واشتهر الأمر وشاع جداً حتى علمه الأباعد ، إلى أن تدوركت بالعلاج وهذا إنما يتولد

(١) الأبهرى : أبو بكر محمد بن عبد الله ، من كبار علماء المذهب المالكى ، وكان ثقة ثبتاً مشهوراً ، تفقه ببغداد ، وشرح المختصرين الكبير والصغير لابن عبد الحكم ، وكان القيم برأى مالك فى العراق على وقته ، وترك من المؤلفات : كتاب الأصول ، وكتاب إجماع أهل المدينة ، وكتاب الرد على المازنى ، وغير ذلك . وتوفى ببغداد عام ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م . وبعد موته ضعف مذهب مالك فى العراق .

عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة وتمكّن الخلط السوداويّ ، خرج الأمر عن حدّ الحب إلى حدّ الوله والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المعاناة ، قَوِيَ جدًا ، ولم يوجد له دواء سوى الوصال .

ومن بعض ما كتبت إليه قطعة ، منها :

قد سلَبْتَ الفؤادَ منها اختلاساً

أيُّ خلقٍ يعيش دون فؤاد

فأغثْها بالوصل تَحْيَ شريفاً

وتَفُزْ بالثواب يَوْمَ المعاد

وأراها تَمْتاضُ إنْ دام هذا

من خَلاَخِيلها حُلَى الأقياد

أنتَ حقًا متيّم الشمسِ حتّى

عِشْقُها بين ذا الورَى لك بادي

★ خبر :

وحدثنى جعفر ، مولى أحمد بن محمد بن حُدير ، المعروف بالبلبينى (١) : أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن حدير،

(١) لم أهتد إلى شخصية جعفر المولى ، ونسبته البلبينى محرفة دون ما شك ، وتحتاج إلى تصحيح .

وذهاب عقله ، اعتلاقه بجارية لأخيه ، فمنعها منه ، وباعها لغيره ، وما كان في أخوته مثله ، ولا أتم أدباً منه .

وأخبرني أبو العافية ، مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة ، أن سبب جنون يحيي بن محمد [1] بن أحمد بن عباس بن أبي عبدة [2] بَيْعُ جارية له كان يجد بها وجْداً شديداً ، كانت أمه باعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريات .

---

(١) سقطت كلمة « بن محمد » من كل الطبعات العربية .

(٢) بنو عبدة ، بيت آخر أندلسي عريق ، من البيوتات الكبيرة التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأندلس ، على أيام دولة بني أمية ، وفي عصر الطوائف . وينسبون إلى حسان بن مالك ، أبو عبدة ، وكان جدهم الأعلى ، عبد الله بن جابر والد حسان ، مملوكاً لمروان بن الحكم ، وأبلى يوم وقيعة مرج راهط بلاء حسناً فأعتقه .

وقد دخل أبو عبدة الأندلس سنة ١١٣ هـ = ٧٣١ م ، أي قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بخمس وعشرين سنة . ولما توطد عبد الرحمن بالأندلس استوزر أبا عبدة واستقوده ، فاستعمله على إشبيلية . ومازال أبناؤه من بعده في نفس مكانته من أمراء وخلفاء بني أمية ، فاستعملوهم وزراء وقواداً وعمالاً .

وقد تفرع من بيت أبي عبدة بيت بني جهور ، أمراء قرطبة على عهد دول الطوائف ، على خلاف في سلسلة النسب بين المؤرخين ، لا يتسع لها المجال هنا ، وكانوا أكثر الأمراء اعتدالا وعدلا ، فنعمت قرطبة على أيامهم بالاستقرار والأمن . وقد ذهبت دولتهم على يد المعتمد بن عباد أمير إشبيلية ، حين استولى عليها عام ٤٦٣ هـ = ١٠٦٤ م ، وضمها إلى إمارته . ولدينا عن بني عبدة أخبار وافرة في عدد من المصادر والمراجع ، :

فهذان رجلان جليلان مشهوران فقدا عقولهما واختلطا ، وصارا في القيود والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البربر قرطبة وانتهابهم لها . فتوفى رحمه اللّه . وأما يحيى بن محمد فهو حيّ على حالته المذكورة فى حين كتابتى لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً ، وجالسته فى القصر قبل أن يمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذه الفقيه أبو الخيار اللغوى (١) ، وكان يحيى لعمرى حلواً من الفتيان نبيلا .

وأمّا مَن دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ، ولكن لم نسمهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد انبتّ الرجاء ، وانصرم الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد فى الدماغ ، وتلفت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا اللّه من البلاء بطوله ، وكفانا النقم بمنه .

---

(١) مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني ، من أهل قرطبة ، ويكنى أبا الخيار ، وكان ظاهرى المذهب ، توفى عام ٤٢٦ هـ = ١٠٣٤ م .

٢٧

باب السلّو

وقد علمنا أنّ كل ماله أول فلا بد له من آخر ، حاشى نعيم اللّه عز وجل ، بالجنة لأوليائه ، وعذابه بالنار لأعدائه . وأمّا أعراض الدنيا فنافذة فانية ، وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين : إمّا اخترام منية ، وإما سلّو حادث .

وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرّفة معها فى الجسد ، فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعمل فى طاعة اللّه تعالى ، أو للرياء فى الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة فى لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة فى الضمير ، وهذا أصحّ السلّو . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً .

والسلو المتولّد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس ، يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتر نزاعها ، ولا تقوى رغبتها .

ولى فى ذم السلو قصيدة ، منها :

إذا مـارنتْ فالحيُّ مَيْتٌ بلحظِهـا

وإنْ نَطقتْ قلتُ السـلامُ رطـابُ

كأنَّ الهوَى ضـيفٌ ألمّ بمهجتِي

فلحمِي طعامٌ والنجيـعُ شـرابُ

ومنها :

صبورٌ على الأزْمِ الذى العزُّ خَلْفَهُ

ولو أمْطرتْهُ بالحـريقِ سـحاب

جَزوعاً من الراحاتِ إنْ أنتجتْ له

خُمُولاً وفى بعضِ النعيمِ عـذابُ

والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين :

سلو طبيعى ، وهو المسمى بالنسيان ، يخلو به القلب ، ويفرغ به البال ، ويكون الانسان كأنه لم يحب قط ، وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخلاق مذمومة ، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان . وستأتى مبيّنة إن شاء الله تعالى ، وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح .

والثانى سلو تطبّعى ، قهر النفس ، وهو المسمى بالتصبّر ، فترى المرء يُظهر التجلّد وفى قلبه أشد لدغاً من وخز الإشفى ، ولكنه

يرى بعض الشر أهون من بعض ، أو يحاسب نفسه بحجة لا تصرف ولا تكسر ، وهذا قسم لا يذم آتيه ، ولا يلام فاعله ، لأنه لا يحدث إلاّ عن عظيمة ، ولا يقع إلاّ عن فادحة ، إمّا لسبب لا يصبر على مثله الأحرار ، وإما لخطب لا مرد له تجرى به الأقدار ، وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناس لكنه ذاكر ، وذو حنين واقف على العهد ، ومتجرّع مرارات الصبر ، والفرق العامى بين المتصبر والناسى ، أنك ترى المتصبّر وإن أبدى غاية الجلد ، وأظهر سبّ محبوبه والتحمّل عليه ، لا يحتمل ذلك من غيره .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

دعـونى وسـبِّى للحبيبِ فإنّنـى
وإن كنتُ أُبدِى الهجرَ لستُ معادياً

ولكـنْ سـبِّى للحبيـب كقـولهمْ
أجـادَ فلقَّاه الإلـهُ الداوهيـا

والناسى ضدّ هذا ، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها ، وقوة تمكّن الحب من القلب أو ضعفه ، وفى ذلك أقول ، وسميت السالى فيه المتصبّر ، قطعة منها :

ناسِى الأحبَّة غيرُ مَن يسلوهُمُ
حكْمُ المقَصِّرِ غيـرُ حكْمِ المقصِرِ

ما قاصرٌ للنفسِ غير مُجيبِهَـــا
ما الصابرُ المطبـوعُ كالمتصبِّرٌ

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يعذر السالى ويذم .

فمنها الملل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإنَّ مَن كان سلّوه عن ملل فليس حبه حقيقة ، والمتسم به صاحب دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ، ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٍ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإنْ كان يشبه الملل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول ، وصاحبه أحق بالذم .

ومنـها حياء مركّب يكون فى المحب ، يحـول بينه وبين التعريض بما يجده ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلي جديد المودة ، ويحدث السلو . وهذا وجه إنْ كان السالى عنه ناسياً فليس بمنصف ، إذ منه جاء سبب الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ آثر الحياء على لذة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحياء من الإيمان ، والبذاء من النفاق » .

وحدثنا أحمد بن محمد ، عن أحمد بن مُطَرِّف ، عن عبيد الله ابن يحيى ، عن أبيه ، عن مالك ، عن سلمة بن صفوان الزرقى ، عن زيد بن طلحة بن ركانة ، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل دين خلق ، وخلق الإسلام الحياء » .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المحب ، وابتداؤها مِن قِبَله ، والذمّ لاصق به فى نسيانه لمن يحب .

ثم منها أسباب أربعة هى من قبل المحبوب ، وأصلها عنده . فمنها :

الهجر ، وقد مر تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول ، وكثير العتاب ، واتصلت المفارقة ، يكون باباً إلى السلّو .

وليس من وصلك ثم قطعك لغيرك من باب الهجر فى شىء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَن مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صلة من الهجر أيضاً فى شىء ، إنما ذاك هو النفار . وسيقع الكلام فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى .

لكن الهجر ممن وصلك ثم قطعك لتنقيل واش ، أو لذنب واقع ، أو لشىء قام فى النفس ، ولم يمل إلى سواك ، ولا أقام أحداً غيرك مقامك . والناسى فى هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لا تقع حالة تقيم العذر فى نسيانه ، وإنما هو راغب عن وصلك ، وهو شىء لا يلزمه . وقد تقدم من أذمة الوصال وحق أيامه ، مايلّزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على جهة التصبّر والتجلّد هاهنا معذور ، إذا رأى الهجر متمادياً ولم ير للوصال علامة ، ولا للمراجعة دلالة . وقد

استجاز كثير من الناس أن يسموا هذا المعنى غدراً ، إذ ظاهرهما واحد ، لكن علتيهما مختلفتان ، فلذلك فرقنا بينهما فى الحقيقة .

وأقول في ذلك شعراً ، منه :

فكـونوا كمن لم أدرِ قطُّ فإنّنى

كـآخرَ لم تـدْرُوا ولم تَصِلوهُ

أنا كالصدَى ما قال كلٌّ أجيبهُ

فما شِئتمُوهُ اليومَ فاعتمـدوه

وأقول أيضاً قطعة ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، واستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع :

ألاَ لِلّهِ دهـرٌ كنـتَ فيـه

أعزَّ عليَّ مِن روحـي وأهلـي

فما بَرِحتْ يدُ الهجرانِ حتـىَّ

طـواك بنـانُها طيَّ السجلّ

سقانِي الصبرَ هجرُكُم كما قـدْ

سقانى الحبَّ وصلُكُم بِسَجْل

وجدتُ الوصلَ أصل الوجدِ حقًّا

وطولَ الهـجْرِ أصـلاً للتسلّي

وأقول أيضاً قطعة ، منها :

لو قِيلَ لي مِن قَبْلِ ذا
أنْ سوف تسلُو مَنْ تَوَدّ

لحلفتُ ألفَ قسامةٍ
لا كانَ ذا أبدَ الأبدْ

وإذا طويلُ الهجرِ ما
معهُ من السُلْوانِ بُدّْ

لِلّهِ هجرُكَ إنّه
ساعٍ لبرئِيَ مُجْتهِد

فالآنَ أعجبُ للسلوِّ
وكنتُ أعجبُ للجَلَدْ

وأرَى هواك كجَمرةٍ
تحتَ الرَّمادِ لها مَدَدْ

وأقول :

كانت جهنّمُ في الحشَى من حُبِّكمْ
فلقد أراها نارَ إبراهيمَا

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التي هي من قِبَل المحبوب ، فالمتصبر

من الناس فيها غير مذموم . لما سنورده إن شاء الله في كل فصل منها .

فمنها نِفار يكون في المحبوب ، وانزواء قاطع للأطماع .

★ خبر :

وإنى لأخبرك عنى [1] : أنى ألفت فى أيام صباى ، ألفةَ المحبة، جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ؛ وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرها ودَماثتها ، عديمة الهزل ؛ منيعة البذل ، بديعة البشر ،

(١) هذه القصة الجميلة التى سوف يرويها ابن حزم عن حب له ، أول ما عرف من كتاب الطوق ، وشاعت على نحو واسع ، ويعود الفضل فى ذيوعها إلى المستشرق الهولندى رينهارت دوزى (١٨٢٠ - ١٨٨٣ م) فلم تكد عينه تقع عليها ، حتى أخذ بها ، وترجمها فى فرنسية رقيقة ، عذبة وصافية ، فى كتابه : « تاريخ مسلمى إسبانيا » وعنه ترجمها إلى الألمانية المستشرق الألمانى فون شاك فى كتابه : « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » وترجمناه إلى العربية ، وصدر الجزء الأول منه بعنوان « الشعر العربى فى إسبانيا وصقلية » والجزء الثالث بعنوان « الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، وصدرا عن دار المعارف بالقاهرة . وحين ترجم الأديب الإسبانى خوان باليرا (١٨٢٧ - ١٩٠٥) هذا الكتاب إلى اللغة الإسبانية أعطى القصة العذرية نفسها ، ورغم ذلك قام المستشرق الإسبانى الشاب فرانسيسكو بونس بويجس (١٨٦٣ - ١٨٩٩) بترجمتها مرة ثانية من اللغة العربية مباشرة ، وقد أثارت القصة جدلاً كبيراً حول عفة ابن حزم ، وعذرية الحب فى الأندلس ، ودرسنا ذلك تفصيلاً فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

مُسبلة الستر ، فقيدة الذام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة القعود ، كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد مَن أمَّها ، تزدان فى المنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد فى أمرها ، غير راغبة فى اللهو .

على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها ، وأحببتها حباً مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبنى بكلمة ، وأسمع من فيها لفظة ، غير ما يقع فى الحديث الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شىء ألبتة .

فلعهدى بمُصطنع كان فى دارنا لبعض ما يصطنع له فى دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ، ودخلة أخى رحمه الله ، من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ، ثم تنقلن إلى قصبة كانت فى دارنا ، مشرفة على بُستان الدار ، ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها(١) ، مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراجيب

(١) الفحوص : الوديان والسهول والجبال المخضرة التى تحيط بقرطبة .

وأنا بينهن ، فإنى لأذكر أنى كنت أقصد نحو الباب الذى هى فيه ، أنساً بقربها ، متعرضاً للدنّو منها ، فما هو إلا أن ترانى فى جوارها فتترك ذلك الباب ، وتقصد غيره فى لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذى صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره .

وكانت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنّهنّ كنّ عدداً كثيراً . وإذا كلهن يتنقلن من باب إلى باب ، لسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . واعلم أنّ قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار .

ثم نزلن إلى البستان ، فرغب عجائزنا [1] وكرائمنا إلى سيدتها فى سماع غنائها ، فأمرتْها ، فأخذت العود وسوته

(١) تطلق كلمة « عجوز » فى لهجة أهل الأندلس ، على أية امرأة متزوجة . مهما كانت شابة ، فهى تتوقف على زواج الفتاة ، دون نظر إلى السن ، فكل متزوجة – حتى لو ترملت أو انفصلت عن زوجها فيما بعد – عجوز . والكلمة مستخدمة بهذا المعنى ، حتى يومنا هذا ، فى المغرب والجزائر وتونس ، وبخاصة فى المناطق التى استقبلت عدداً كبيراً من مهاجرى الأندلس ، حين طردوا من وطنهم بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، وقد تم الطرد النهائى للإسبان المسلمين عام ١٦١٣ م .

بخفر وخجل لاعهد لى بمثله ، وإن الشيء يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنّى طربتُ إلى شمس إذا غربتْ

كانتْ مغارِبُها جوفَ المقاصيرِ

شمسٌ ممثّلةٌ فى خَلْق جاريةٍ

كأنّ أعطافَها طىُّ الطوامير

ليستْ من الإنس إلاّ فى مناسبةٍ

ولا مِن الجنّ إلاّ فى التصاوير

فالوجهُ جوهرةٌ والجسمُ عَبْهرةٌ

والريحُ عنبرةٌ والكلُّ من نور

كأنّها حين تخطو فى مجاسدها

تخطو على البيضِ أو حدّ القوارير

فلعمرى لكأنّ المضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ، ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا . وهذا أكثر ما وصلتُ إليه من التمكن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لا تَلُمْهـــا على النفـــارِ ومَنْـــعٍ
الوَصْلِ ما هـــذا لهـــا بنكير
هل يكون الهـــلالُ غيرَ بعيـــدٍ
أو يكـــونُ الغـــزال غيرَ نَفـــور

وأقول :

مَنَعْتِ جمـــالَ وجهِـــك مُقْلَتيَّـــا
ولفظُـــكِ قد ضننـــتِ به عليَّـــا
أراكِ نـــذرتِ للرحمـــن صومـــا
فلســـتِ تكلِّمين اليـــوم حيَّـــا
وقـــد غنَّيْت للعبـــاس شـــعراً
هنيئـــا ذا لعبَّـــاسٍ هَنيَّـــا
فلو يلقـــاك عبـــاسٌ لأضـــحى
لفـــوزٍ قاليـــاً وبكـــمْ شَـجيَّا

ثم انتقل أبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة ، فى ربض الزاهرة ، إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث ، فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور أوجبت ذلك .

ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب ، والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس ، وخصتنا ، إلى أن تُوفِّى أبى الوزيرُ رحمه الله ، ونحن فى هذه الأحوال ، بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة .

واتصلت بنا تلك الحال بعده ، إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها ، وقد ارتفعت الواعية [1] ، قائمة فى المأتم وسط النساء ، فى جملة البواكى والنوادب ، فلقد أثارت وجدا دفيناً ، وحرّكت ساكناً ، وذكرتنى عهداً قديماً ، وحبا تليداً ، ودهراً ماضياً ، وزمناً عافياً ، وشهوراً خوالى ، وأخباراً بوالى ، ودهوراً فوانى ، وأياماً قد ذهبت ، وآثاراً قد دثرت ، وجدّدت أحزانى ، وهيجت بلابلى . على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى ، وتوقّدت اللوعة ، وتأكد الحزن ، وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا فلباه مجيباً . فقلت قطعة قطعة منها :

يُبَكّى لميتٍ مـاتَ وهـوَ مكّـرمُ
ولَلحَىُّ أولى بالدمـوع الـذوارفِ

(١) الواعية : الصراخ والصوت ، لا الصارخة .

فيا عجباً من آسف لامرىء ثوى

وما هُوَ للمقتول ظُلماً بآسف

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وغابت علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة ، وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر .

ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميّزها حتى قيل لى هذه فلانة ، وقد تغير أكثر محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض الماء الذى كان يُرى كالسيف الصقيل ، والمرآة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً ، فلم يبق إلا البعض المنبىء عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها بنفسها ، وعدمها الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا ، وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لابد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك .

وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إنّ حسن الرجال أصدق صدقاً ، وأثبت أصلا ، وأعتق جودة ، لصبره على مالو لقى بعضه

وجوه النساء لتغيرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكَنّ .

وإني لو نلت منها أقل وصل ، وأنست لي بعض الأنس ، لخولطت طرباً ، أولمت فرحاً ، ولكن هذا النفار الذي صبرني وأسلاني .

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحِبُهُ في كلا الوجهين معذور وغير ملوم ، إذ لم يقع تثبت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضي المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المحب نفساً لها بعض الأنفة والعزة تَسلّى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً ، أو كبيراً منقطعاً ، احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه ، ولا يلام الناسي لمن يحب في مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذي لا يحتمله أحد ، ولا يغضى عليه كريم ، وهو المسلاة حقاً . ولا يلام السالي عنه على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً ، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه ، ولولا أن القلوب بيد مقلّبها لا إله إلاّ هو ، ولا يكلف المرء صرف قلبه ، ولا إحالة استحسانه ، لولا ذاك لقلت أن المتصبِّر في سلوه مع الغدر يكاد أن

يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدْعَى إلى السلّو عند الحُرّ النفس ، وذوى الحفيظة ، والسرىّ السجايا ، من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة ، خسيس الهمة ، ساقط الأنفة .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَـــواك فلســـــتُ أقربُهُ غُــــرُورٌ
وأنتِ لكـــــلّ من يـــأتى ســـرورٌ

ومـــا أنْ تَصْبِـــرِينَ علـــى حبيـــبٍ
فحـــولكِ منهـــمُ عـــددٌ كثيـــر

فلـــو كنتُ الأميَـــر لما تعـــاطىَ
لقـــاءكَ خـــوفَ جمعهمُ الأميـــر

رأيتـــكِ كالأمـــانِى مـــا على مَن
يلُم بهـــا ولو كَثُــــروا غُــــرور

ولا عنهـــا لمن يـــأتِى دفـــاعٌ
ولو حَشَــــــدَ الأنـــامَ لهم نفيُر

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنّه من الله تعالى ، وهو اليأس ، وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بيْن لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابيْن بعلّة المحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها .

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبر . وعلى المحب القاسى ، فى هذا الوجه المنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة ، من الغضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل .

وإن لليأس لعملا فى النفوس عجيباً ، وثلجاً لحر الأكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ، ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع ، وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر .

وللشعراء فن من الشعر يذمون فيه الباكى على الدمن ، ويثنون على المثابر على اللذات ، وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانىء فى هذا الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكما بلسانه ، واقتداراً على القول .

وفى مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خلِّ هذا وبادر الـــدهرَ وارحـلْ ... فى ريـاضِ الرُّبَــى مَطِيَّ العقارِ

واحْدُها بالبــديعِ من نغمـاتِ الـ ... ـعــودِ كَيْمــاً تُحَثَّ بالمــزمار

إنَّ خيــراً من الوقوفِ على الــدا ... رِوقــوفُ البنــانِ بالأوتـــار

وبدا النرجـــسُ البـــديعُ كصبٍّ
حائرُ الطـــرفِ مـــائلاً كالمـــدار

لونُه لـــــونُ عاشـــق مُســـتهامٍ
وهــــو لا شــــكَّ هائمٌ بالبَهـــار

ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ومن أصدق من الله قيلا فى الشعراء : « ألم تَر أنَّهمْ فى كلِّ وادٍ يَهيمونَ ، وأنَّهمْ يقولونَ مالا يَفْعلونَ » [1] . فهـذه شـهادة الله العزيز الجبـــار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعر عن مرتبة الشعر خطأ .

وكان سبب هذه الأبيات أن ضنَى العامرية ، إحدى كرائم المظفرْ عبد الملك بن أبى عامر [2] ، كلفتنى صنعتها فأجبتها ، وكنت أجلها ، ولها فيها صنعة فى طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً . ولقد أنشدتها بعض إخوانى من أهل الأدب فقال سروراً بها: يجب أن توضع هذه فى جملة عجائب الدنيا .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) لم أجد فيما بين يدى من مصادر ما يزيدنى معرفة بضنى العـامرية هذه ، ابنة المظفر . أما أبوها فهو الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، وخليفته فى الحجابة ، وعرضنا له أكثر من مرة .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هي من المحب ، اثنان منها يُذمّ السالي فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يُذم السالي فيه ولا يذم المتصبِّر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها واحد يُذم الناسي فيه ولا يُذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم ، وثلاثة لا يذم السالي فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبِّراً ، وهي النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن وهو من قبل الله عز وجل ، وهو اليأس إما بموت أو بيْن أو آفة تزمن . والمتصبِّر في هذه معذور .

وعني أخبرك ، أني جُبلت على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما ، وأود التثبت من نفسي أحياناً ، لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلوّن ، قد استوت فيه الحضرة والغيب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تعزف بها نفسي عما دريته ، ولا تتطلع إلى عدم من صحبته . وعزة نفس لا تقرّ على الضيم ، مهتمة لأقل ما يرد عليها من تغيّر المعارف ، مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإني لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوّم الذي لا يكاد يطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحميت نفسي تصبّرت ، وفي القلب ما فيه .

وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

لى خلّتان أذاقانى الأســىَ جُرَعاً

ونَغصا عيشــتى واسْتَهْلكا جلَــدِى

كلتـــاهما تطّبينى نحــو جِبلّتِها

كالصَّيدِ ينشبُ بين الذئب والأســد

وفاءُ صدق فما فــارقتُ ذامقــة

فزالَ حُـــزنى عليــه آخِـر الأبَد

وعِزَّةٌ لا يحــلّ الضيْمُ ســاحتَها

صرامةٌ فيه بالأمــوال والـــولدِ

ومما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان آيس منه ، أن رجلا من إخوانى كنت أحللته من نفسى محلّها ، وأسقطت المؤونة بينى وبينه ، وأعددته ذخراً وكنزاً ، وكان كثير السمع من كل قائل ، فدب ذو النميمة بينى وبينه ، فحاكوا له ، وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنت أعهده ، فتربّصت عليه مدة فى مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزدد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

٢٨

باب الموت

وربما تزايد الأمر ، ورق الطبع ، وعظم الإشفاق ، فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء في الآثار : من عشق فعف فمات فهو شهيد .

وفي ذلك أقول ، منها :

فإنْ أهلكْ هوىً شهيداً وإنْ تَمُنْ بَقيتُ قَريرَ عَيْنِ
روَى هذا لنا قومٌ ثِقاتٌ ثووْا بالصدقِ عَنْ جَرْحٍ ومَيْنِ

ولقد حدثني أبو السري عمّار بن زياد صاحبنا ، عمن يثق به ، أن الكاتب ابن قزمان أمتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز ، وكان أسلم غاية في الجمال ، حتى أضجره لما به ، وأوقعه في أسباب المنية . وكان أسلم كثير الإلمام به والزيارة له ، ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفي أسفاً ودنفا (١) .

---

(١) أسلم بن عبد العزيز ، أسمه كاملا : أبو الحسن أسلم بن أحمد بن سعيد بن أسلم بن عبد العزيز وينتهي به نسبه إلى أبان بن عمرو ، مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه . وكان أسلم من كبار فقهاء الأندلس ، جلس إلى بقي بن مخلد ، وسمعه زمنا طويلاً ، ورحل إلى الشرق عام ٢٦٠هـ = ٨٧٣م =

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال : هلا أعلمتني ؟ فقلت : ولم ؟ قال كنت والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه ، فما علّي في ذلك ضرر .

وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنن ، مع حظ من الفقه وافر ، وذا بصارة في الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغاني وتصرّفها ، وهو صاحب تأليف في طرائف غناء زرياب

= حاجاً وتوقف في القاهرة فدرس على أعلام المالكية ، ثم عاد إلى قرطبة ، وتولى فيها قضاء الجماعة مرتين وله كتاب في « أغاني زرياب » كان مشهوراً على أيامه ، ضاع ولم يصلنا . توفي في شهر رجب من عام ٣١٩ هـ = يولية ٩٣١ .

• هاشم بن عبد العزيز ، أخو أسلم وكبيره ، وكان هاشم خاصاً بالأمير محمد بن عبد الرحمن : يؤثره بالوزارة ، ويرشحه مع بنيه ، ومفرداً ، للقيادة والإمارة ، وولاه كورة جيان وقد اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه ، إلى ما كان عليه من البأس والجود والفروسية والكتابة والبيان والبلاغة ، وقرض الأشعار البديعة ، إلى ماله من القديم والبيت والسابقة . ونكبه المنذر بن محمد لأشهر من خلافته ، بعد أن ولاه الحجابة ، أي رئاسة الوزارة تقريباً ، وأظهر عنه الرضا ، لأشياء حقدها عليه في خلافة أبيه محمد ، فحسبه ، ثم قتله ، وهدم داره ، ونكل بأسرته ، ولم تخل دار بقرطبة من بكاء عليه ، فقد كان رحمة مبسوطة للعامة والخاصة وكان مصرعه سنة ٢٧٣هـ = ٨٨٧م .

• ابن قزمان . إحمد بن قزمان ، الشهير بابن كليب الكاتب ، كان شاعراً أندلسياً نحوياً متفقهاً ، وكان يعشق أسلم ، وأوقف شعره عليه ، حتى =

وأخباره ، وهو ديوان عجيب جداً . وكان أحسن الناس خَلْقاً وخُلُقاً ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب الغربى من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء ، فعزف عنها لشئ بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السخط فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً ، وما فارقها النحول والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها ، ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة .ولقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها ، أنّها لقيتها وهى قد صارت كالخيط نحولاً ورقة ، فقالت لها أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : واللّه لا نسيته أبداً ، وإن كان جفانى بلا سبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيرا .

= فشت أخباره ، وجرت بها الألسنة ، وتنوشدت فى المحافل ، ومات بسبب حبه هذا كما فى القصة التى معنا ، ويظن أنه من أسلاف الشاعر الزجال ابن قزمان الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى .

• رواية ابن حزم لقصة ابن قزمان لأسلم بن عبد العزيز ، موجزة جداً وغامضة ، وأشك فى أن يد الناسخ قد امتدت إليها بالتلخيص ، ربما ورعا منه ، لأن تفاصيلها تضع يدنا على جانب غير محبب للورعين .

ولكن الضبى فى كتابه « البغية » ، وداود الانطاكى فى كتابه « تزيين الأسواق » أورد القصة تفصيلا ولا يتسع المقام لإيرادها هنا ، ولكن درسناها فى كتابنا : « دراسات عن ابن حزم » .

وأنا أخبرك عن أبى بكر رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قَنْد [1] ، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور بن أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها ، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها ، وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه ، تُغْضِبُ كل واحد منهما الكلمة التى لا قدر لها ، فكانا لم يزال فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام .

وكانت قد شفّها حبه ، وأضناها الوجد فيه ، وأنحلها شدة كلفها به ، حتى صارت كالخيال المتوسم دنفا ، لا يلهيها من الدنيا شئ ، ولا تسر من أموالها ، على عَرْضها وتكاثرها ، بقليل ولا كثير ، إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها ، إلى أن توفى أخى رحمه الله فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام ، فى اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً .

---

(١) ليس لدينا معلومات عن هذه الأسرة غير ما يقدمه ابن حزم هنا ، وكل ما نعرفه عنها ، أن عاتكة كانت رائعة الجمال ، وأن أباها قند كان مولى عبد الرحمن الناصر ، وأنه أصبح فى عهد المنصور بن أبى عامر قائد الثغر الأعلى ؛ ومقره مدينة سالم ، ويجب ألا نخلط بينه وبين مولى آخر لعبد الرحمن الناصر ، كان يحمل الاسم نفسه قند الأكبر ، وكان قائماً على خطة المواريث ، وتوفى عام ٣٠٤ هـ = ٩١٦ م .

ولقد أخبرتني عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ، ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته ، إلاّ سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنتُ هذا الذى ما كنتُ أتخوّف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدرت ، غفر الله لها ورضى عنها .

وأمّا خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطبنى (١) : فإنه كان رحمه الله

---

(١) بيت الطبنى ، أسرة قرطبية شهيرة ، ينسبون إلى طبنة ، قاعدة منطقة الزاب فى المغرب ، وتمتد جنوب مدينة قسنطينة الحالية ، بين شط هدنة وجبال أوراس ، ونزلت بها جماعات من مهاجرة العرب منذ أيام الفتح الأولى ، واختلطوا بالنازلين هناك من البربر ، ومعظمهم من هوارة . وكان الزاب الأعلى من الناحية الإدارية تابعاً لولاية أفريقية ، أى تونس الحالية ، ولهذا كان عربه يعدون أنفسهم من عرب أفريقية . أما الزاب الأسفل فكان معدودا فى المغرب الأوسط ، أى الجزائر الحالية .

وكان أول من طرأ على الأندلس منهم ، أبو مضر زيادة الله بن على التميمى ، على أيام المنصور بن أبى عامر ، ومالبث أبو مضر أن أصبح بأدبه وظرفه نديم المنصور . وقد استقر به المقام فى قرطبة ، وترك خلفا صالحاً وكثيراً ، فكان من أبنائه وأحفاده شعراء وأدباء وعلماء ورجال دولة ، وقد جمع ابن بسام فى كتابه : « الذخيرة » شطراً كبيراً من أشعارهم ، وأخبارهم متناثرة فى شتى مصادر تاريخ الأندلس .

كأنه قد خُلِقَ الحسن على مثاله ، أو خُلِقَ من نفس كل من رآه ، لم أشهد له مثلا حُسْناً وجمالا وخلقاً ، وعفة وتصاوناً وأدباً ، وفهماً وحلماً ووفاء ، وسؤدداً وطهارة وكرماً ، ودماثة وحلاوة ولباقة ، وإعضاء وعقلا ومروءة ، وديناً ودراية ، وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مفلقاً ، حسن الحظ ، وبليغاً مفنّناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمـان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، أستاذى فى هذا الشأن .

وكان بينه وبين أخيه أثنا عشر عاماً فى السن ، وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا ألفين لا نفترق ، وخدنين لا يجرى الماء بيننا إلاّ صفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جرانها ، وأرخت عزاليها ، ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب الغربى بقرطبة ، ونزولهم فيها ، وكان مسكن أبى عبد الله فى الجانب الشرقى ببلاط مغيث ، وتقلّبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة ، وسكنى مدينة المرية ، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً ، وآخر ما خاطبنى به رسالة فى درجها هذه الأبيات :

لیتَ شعْرى عن حَبْلِ وُدِّكَ هل يمـ
ـسى جديـداً لدىَّ غَيْرَ رَثيثِ

وأرانـــى أرَى مُحيـّاكَ يومـاً
وأنـــاجيك فـــى بـَلاَط مُغيث

فلو انَّ الديارَ يُنهضــهاً الشـوْ

قُ أتــاكَ البــلاطُ كالمســتغيثِ

ولو أنَّ القلـوبَ تَسْطيعُ ســيْراً

ســار قلبي إليكَ سَيْرَ الحثيث

كُنْ كما شئت لى فإنى مُحِبٌّ

ليس لى غيرُ ذكركمْ من حديث

لَكَ عنـدِى وإنْ تناســيتَ عَهْدٌ

فــى صميمِ الفــؤادِ غيُر نكيثِ

فكنّا على ذلك إلي أن انقطعت دولة بنى مروان ، وقُتل سليمان الظافر أمير المؤمنين (١) وظهرت دولة الطالبية (٢) ، وبويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملّكها ، واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلّبين والثوار فى أقطار الأندلس .

---

(١) يلقب عادة بسليمان المستعين .

(٢) الطالبية ، نسبة إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، لأنهم ينتسبون إلي أدريس الأول مؤسس دولة الأدارسة فى المغرب ، وكان إدريس يذهب بنسبه إلى الإمام على ، فهم علويون إذن ، وكانت بداية دولتهم فى الأندلس الأخوين عليا والقاسم ابن أبى حمود بن أبى العيش ، وقد عينهما الخليفة المستعين حاكمين على منطقة العدوة أى مضيق جبل طارق بشاطئيه الأوربى والإفريقى ، فاستقر علّى حاكماً فى مدينة سبتة ، وذهب القـــاسم =

وفى إثر ذلك نكبنى خيران صاحب المرية ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من البالغين – وقد انتقم الله منهم – عنى وعن محمد بن إسحاق صاحبى ، أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهرا ، ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر[1] ، ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن محمد بن هذيل التجيبى ، المعروف بابن المُقَفل[2] . فأقمنا عنده شهوراً فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة ، وأكملهم معروفاً ، وأتمهم سيادة .

ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية[3] عند ظهور أمير المؤمنين

= حاكما على الجزيرة الخضراء ، ولما قوى مركزهما أخذ يمهدان للاستيلاء على الخلافة . وهكذا اقتحم على بن حمود مدينة قرطبة فى ٢٢ محرم ٤٠٧ هـ = أول يوليو ١٠١٦ م ، وعزل المستعين وقتله ، وأخاه عبد الرحمن وأباه الحكم ، وتولى الخلافة متلقباً بالناصر لدين الله . وكان ذلك بداية غروب شمس الخلافة فى الأندلس .

(١) حصن القصر Aznalcazar قرية صغيرة ، ماتزال قائمة حتى يومنا هذا فى مقاطعة إشبيلية .

(٢) لم أهتدله إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر .

(٣) بالنسية Valencia مدينة ، ومحافظة ، كبيرة فى شرقى إسبانيا ، على شاطئ البحر المتوسط وهى مشهورة بخصبها ، ومزارعها الواسعة ، وبساتينها المثمرة ، وقد تأصلت فيها الحضارة العربية منذ وقت =

المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكنّاه بها . فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الواحد بن محمد بن مَوْهِب القبريّ (١) صديقنا ، فنعى إليّ أبا عبد اللّه بن الطبنى وأخبرنى بموته رحمه اللّه ، ثم أخبرنى بعد ذلك بمديدة القاضى أبو الوليد يونس بن محمد المُرَادى ، وأبو عمر وأحمد ابن محرزٍ (٢) : أن أبا بكر مصعب بن

= مبكر ، وازدهرت على نحو واضح ، وكانت منذ أيام الفتح الأولى ... عدد كبير من الأسر العريقة ، وموطن عدد من كبار الشعراء ، تميزوا بنهج فنى محدد ، فهم يصدرون فى إلهامهم عن الطبيعة ، ومنها اتخذوا مادة إبداعهم الشعرى . كابن خفاجة ، وابن الزقاق ، والرصافى وابن عميرة ، وغيرهم ، وتعرضت لغزو السيد القنبيطور ، فاقترن اسمه بها ، وقد سقطت نهائياً فى يد الكاثوليك بقيادة خايمة الأول ملك أرجون الملقب بالفاتح سنة ٦٣٦ هـ = ١٢٣٨ م .

(١) أبو شاكر عبد الواحد بن محمد بن موهب القبرى ، نسبة إلى بلدة قبرة Cabra، وتقع جنوبى قرطبة ، وإليها ينسب مقدم بن معافى القبرى ، مخترع الموشحات . وقد ترجم الضبى فى كتابه « البغية » لأبى شاكر ، وذكر أنه فقيه ومحدث وأديب وخطيب وشاعر ، وأورد له أبياتا من الشعر برواية ابن حزم ، وأنه نشأ بقرطبة ، وسكن شاطبة ، وولى الأحكام بها ، وتوفى ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م .

(٢) عن أبى الوليد يونس بن محمد المرادى ، انظر : الباب ٢٣ ، الهامش ٢ وأما أبو عمرو أحمد بن محرز ، فلم أستطع الاهتداء له إلى أية ترجمة فى المصادر المختلفة .

عبد الله الأزدى ، المعروف بابن الفرضى [1] ، حدثهما ، وكان والد مصعب هذا قاضى بلنسية أيام أمير المؤمنين المهدى ، وكان مصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً ، أيام طلبنا الحديث على والده ، وسائر شيوخ المحدِّثين بقرطبة ، قالا : قال لنا مصعب :

سألت أبا عبد الله بن الطبنى عن شبب علته ، وهو قد نحل ، وخفيت محاسن وجهه بالضنى ، فلم يبق إلا عين جوهرها ، المخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيِّره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجاباد على وجهه ، ونحن منفردان ، فقال لى : نعم ، أخبرك أنى كنت فى باب دارى بغدير ابن الشماس [2] فى حين دخول على بن حمود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت فى جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صور قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلى ، وهام به لبى ، فسألت عنه فقيل لى : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن

(١) مصعب بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدى ، يكنى أبا بكر، من أهل قرطبة ، وهو والد القاضى أبى الوليد بن الفرضى ، صاحب كتاب: « تاريخ علماء الأندلس » ، الذى قتل فى فتنة قرطبة .

وكان مصعب أديباً إخبارياً محدثاً شاعراً ، ولى الحكم بالجزيرة وتوفى بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م .

(٢) حى فى قرطبة .

قرطبة ، بعيدة المأخذ ، فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمرى يا أبا بكر لا فارقنى حبّه أو يوردنى رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته ، لكننى أضربت عن أسمه لأنه قد مات ، والتقى كلاهما عند الله عز وجل ، عفا الله عن الجميع .

هذا على أنّ أبا عبد الله ، أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولَه قط ، ولا فارق الطريقة المثلى : ولا وطئ حرماً قط ، ولا قارف منكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان فى طبقتنا مثله .

ثم دخلت أنا قرطبة ، فى خلافة القاسم بن حمود المأمون ، فلم أقدم شيئاً على قصد أبى عمرو القاسم بن يحيى التميمى [1] ، أخى عبد الله رحمه الله ، فسألته عن حاله ، وعزيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه منى . ثم سألته عن أشعاره ورسائله ، إذ كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية ، فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته ، وأيقن بحضور المنية ، ولم يشكّ فى الموت ، دعا بجميع شعره ، وبكتبى

(١) أبو عمرو القاسم بن يحيى التميمى ، أخو أبى عبدالله محمد بن يحيى التميمى ، الذى تحدثنا عنه فى الهامش رقم ٥ من هذا الباب ، وأورد له الضبى فى البغية ترجمة موجزة .

التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلّها ، ثم أمر بدفنها . قال أبو عمرو : فقلت له : يا أخى دعها تبقى . فقال : إنى أقطعها وأنا أدرى أنى أقطع فيها أدبا كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعينى حاضراً لدفعتها إليه ، تكون عنده تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ، ولا أحىّ هو أم ميت . وكانت نكبتى اتصلت به ، ولم يعلم مستقرى ، ولا إلى ما آل إليه أمرى .

فمن مراثىّ له قصيدة ، منها :

لـئن سـتَرَتْكَ بطـونُ اللحودِ فـوَجْدِىَ بَعـْدَكَ لا يَسـْتَتِرْ

قَصَدتُ ديارَكَ قصدَ المشُوقِ وللـــدهرِ فينـا كـرُورٌ ومـرّْ

فألفيتُهـاَ منـكَ قفراً خـلاءً فأكسـبتُ عَيْنِى عليـكَ العِبَرْ

وحدثنى منكَ أبو القاسم الهمذانى (١) رحمه الله قال : كان

(١) سوف يتحدث عنه ابن حزم فيما بعد ، فى الباب التاسع والعشرين ، الهامش رقم ٣١ ، وسوف يذكرنا أنه كان حيًا فى قرطبة عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م ، ومع ذلك يتساءل ، هل هو القاسم محمد بن على ابن البواق الهمدانى ، الذى ترجم له الضبى فى كتابه « البغية » ، رقم ٢٣٥ ، وأورد عنه سطوراً قليلة ، وذكر له أبياتاً من الشعر فى الزهد ، وقال عنه إنه توفى ٣٩٥ هـ = ١٠٠٤ م ؟

معنا ببغداد أخ لعبد الله ابن يحيى بن أحمد دحون الفقيه [1] ، الذى عليه مدار الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجل مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه اجتاز يوماً بدرب قطنة ، فى زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه ، فقالت له : ياهذا ، إن الدرب لا ينفذ ، قال : فنظر إليها فهام بها . قال : وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها . وخشى الفتنة فخرج البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

★ حكاية :

لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البربر ، أن رجلاً أندلسياً باع جارية ، كان يجد بها وجدا شديد ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع ، فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسى تخرج فأتى إلى الذى

---

(١) عبد الله بن يحيى بن أحمد الأموى ، يعرف بابن دحون ، ويكنى أبا محمد ، من أهل قرطبة ، كان من جلة الفقهاء وكبارهم ، عالماً بالفتوى ، عارفاً بالشروط وعللها ، بصيراً بالأحكام ، مشاوراً فيها . وكان أستاذاً لابن حزم وتوفى ٤٣١ هـ = ١٠٤٠ م .

وثمة فقيه آخر كان يعرف بابن دحون أيضاً ، وله المكانة نفسها ، ولكنه توفى ٢٣١ هـ = ٨٤٥ م .

ابتاعها منه ، وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه ، فتحمـل عليه بأهل البلد فلم يسعف منهم أحد . فكاد عقله أن يذهب . ورأى أن يتصدى إلى الملك ، فتعرض له وصاح ، فسمعه فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته ، واسترحمه وتضرع إليه ، فرق له كما تراه ، وأنا شفيعه إليك فأبى وقال : أنا أشد حباً لها منه . وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته .

فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولج واعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس ، ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف ، قال للأندلسى : ياهذا ، مالك بيدى أكثر مما ترى ، وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شراً مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك ، فقال له الأندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل هاهنا غير الرغبة والبذل ، ما أستطيع لك أكثر .

فلما يئس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه ، وانصب من أعلى العلية إلى الأرض ، فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل، ففضى أنه لم يتأذ فى ذلك الوقوع كبير أذى ، فصعد به إلى الملك ، فقال له : ماذا أردت بهذا ؟ فقال أيها الملك . لا سبيل

لى إلى الحياة بعدها ، ثمَ همَّ أن يرمى نفسه ثانية فَمنع .

فقال الملك : اللّه أكبر ، قد ظهر وجه الحكم فى المسألة ، ثم التفت إلى المشترى فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته ، وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن اللّه عز وجل وقاه فأنت قم فصحح حبك ، وترام من أعلى هذه القصبة ، كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك ، وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هى فى يدك ، ويمضى صاحبك عنك . وإن أبيت نزعت الجارية منك رغما ودفعتها إليه .

فتمنع ثم قال : أترامى . فلما قرب من الباب ، ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقرى ، فقال له الملك : هو واللّه ما قلت ، فهمّ ثم نكل، فلما لم يقدم قال له الملك : لا تتلاعب بنا ، ياغلمان ، خذوا بيديه ، ، ارموا به إلى الأرض ، فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك ، قد طابت نفسى بالجارية ، فقال : جزاك اللّه خيرا . فاشتراها منه ، ودفعها إلى بائعها : وانصرفا .

٢٩

باب قبح المعصية

قال المصنف رحمه الله تعالى :

وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ، ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ما خص الله تعالى عليه ورتَّبه فى الألباب السليمة ، من العفة ، وترك المعاصى ، ومقارعة الهوى ، ويخالفون الله ربهم ، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطبة ، فيواقعون المعصية فى حبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركب فى الإنسان طبيعتين متضادتين :

إحداهما لا تشير إلاّ بخير ، ولا تحض إلاّ على حسن ، ولا يتصور فيها إلاّ كل أمر مرضى ، وهى العقل ، وقائده العدل .

والثانية ضدٌّ لها لا تشير إلاّ إلى الشهوات ، ولا تقود إلاّ إلى الردَى ، وهى النفس ، وقائدها الشهوة ، والله تعالى يقول : « إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسوءِ » (١) وكنَّى بالقلب عن العقل فقال : « إنَّ فى ذلك لذكرَى لمنْ كـــانَ له قلبٌ أو ألقَـــى السمْعَ وهو شـــهيدُ » (٢) .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ .

(٢) سورة ق ، الآية ٣٧ .

وقال تعالى : « وحبَّبَ إليْكُمُ الإيمانَ وزيَّنهُ فى قلوبِكُمْ »[1] وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان ، وهما قوّتان من قوى الجسد الفعال بهما ، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين ، ففى كل جسد منهما حظه ، على قدر مقابلته لهما فى تقدير الواحد الصمد ، تقدّست أسماؤه ، حين خلقه وهّيأه . فهما يتقابلان أبداً ، ويتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقلُ النفس ارتدع الإنسان ، وقمع عوارضه المدخولة ، واستضاء بنور اللّه ، واتبع العدل ، وإذا غلبت النفسُ العقل عميت البصيرة ، ولم يتضح الفرق بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس ، وتردى فى هوة الردى ومهواة الهلكة . وبهذا حسن الأمر والنهى ، ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء .

والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل ما بينهما . وحامل الالتقاء بهما ، وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلاّ مع طول الرياضة ، وصحة المعرفة ، ونفاذ التميز ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن . ومداخلة الناس جملة ، والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له فى

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٧ .

النساء، ولا جارحة له تعينه عليهن وقديماً ورد : « من وقى شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شر الدنيا بحذافيرها » . واللقلق : اللسان . والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج .

ولقد أخبرني أبو حفص الكاتب . وهو من ولد روح بن زنباع الجذامي ، أنه سمع بعض المتسمين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير ، وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبقب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا وهب بن مسرة ، ومحمد بن أبي دَلِيم عن محمد بن وضاح ، عن يحيى بن يحيى [1]،

---

(١) تضم سلسلة الإسناد هذه خمسة من الأندلسيين :

• أحمد بن محمد بن أحمد بن برد ، أبو عمر ، ويقول الحميدى عنه في «الجذوة » إنه رآه بالمرية بعد عام ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م ، يزور ابن حزم في بيته ، أثناء إقامة هذا هناك ، أكثر من مرة ، وأورد له الضبي في « البغية » أبياتاً رقيقة من الشعر ، في وصف الطبيعة وفي الغزل . وسنلتقي به ثانية بعد قليل في حديث آخر .

• وهب بن مسرة بن مفرج التميمي ، يكنى أبا الحسن ، من وادي الحجارة مدينة قائمة حتى الآن شرقي مدريد ، درس الحديث ، وأصبح أستاذاً يدرس مدونة سحنون ، ومسند ابن أبي شيبة ، وأورد لنا فهرسة بشيوخه ، وتفسيراً للقرآن ، وضاعت كلها فيما أعلم . وتوفي عام ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م .

• عبدالله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم ، يكنى أبا محمد ، من قرطبة ، عمل قاضياً لمدينة إلبيرة ، ثم المرية ، وشغل منصب القضاء في قرطبة ، حيث توفي عام ٣٥١ هـ = ٩٦٢ م .

• محمد بن وضاح ، أبو عبدالله ، قرطبي المولد والنشأة ، وقف نفسه على درس الحديث وتدريسه ، ورحل إلى المشرق ، ودرس على الإمام أحمد بن حنبل، وجاء معه في أحد رحلاته بمسند ابن أبي شيبة ، وكتبا أخرى في الحديث ، عمر طويلاً ، وتوفي عام ٢٨٧ هـ = ٩٠٠ م . =

عن ملك بن أنس ، عن زيـــد بن أســـلم ، عن عطاء بن يســـار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث طويل : « من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة . فسئل عن ذلك فقال : ما بين لحييه وما بين رجليه » .

وإنى لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء ، فأطيل العجب من ذلك ، وإن لى قولا لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشيئين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثمّ من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفزَّه الحرص ، وتغَوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا وأمكنته ، حتماً مقضيا ، وحكما نافذا لا محيد عنه ألبتة .

ولقد أخبرنى ثقة صدق من إخوانى ، من أهل التمام فى الفقه والكلام والمعرفة ، وذو صلابة فى دينه ، أنه أحبَّ جارية نبيلة أديبة

= يحيى بن يحيى الليثى ، أشهر الفقهاء وأقوامهم نفوذاً فى عصر الإمـارة ، ينحدر من أصول بربرية ، ولد فى قرطبة . ورحل إلى المشرق طلباً للعلم ، وتتلمذ على الإمام مالك ، وقد أعجب الأســتاذ بطالبه ، وأطلق عليه لقب « عاقل الأندلس » . وجاء القاهرة ودرس فيها على أعلام المالكية ، وأمضى ثمانى سنوات بين المدينة والقاهرة ، وعاد إلى وطنه بعلم وفير . ورفض أن يتولى أى منصب رسمى ، ولكن نفوذه كان أكبر من أى موظف ، وابن حزم يجعله ثالث اثنين بلغ نفوذهما قدراً كبيراً ، فى عزل القضاة وتعيينهم وأثر بالتالى فى الاتجاه الثقافى : أبو يوسف فى العراق ، وسحنون فى المغرب ، ويحيى فى الأندلس . وتوفى يحيى عام ٢٣٤ هـ = ٨٤٩ م .

ومعلوماتنا عنه وفيرة ، ولا يخلو مصدر أندلسى من الإشارة إليه .

ذات جمال بارع ، قال : فعرضتُ لها فنفرت ، ثم عرضتُ فأبت ، فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد ، وهي لا تطيع ألبتة ، إلى أن حملني فرط حبي لها مع عميَ الصبا على أن نذرتُ أني متى نلت منها مرادي أنْ أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فما مرّت الأيام والليالي حتى أذعنت بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيت بعهدك ؟ فقال . أي والله ، فضحكت .

وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول في أسماعنا ، من أن في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا ، يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد أن يتوب إلى الله ، فلا يُمنع من ذلك . وينكرون على من تعرّض له بكلمة ، ويقولون له : أتحرم رجلاً مسلماً التوبة .

قال : ولعهدي بها تبكي وتقول : والله لقد بلغتني مبلغاً ما خطر قط لي ببال ، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح في الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإني رأيت الناس يغلطون في معنى هذه الكلمة ، أعني الصلاح ، غلطاً بعيداً ، والصحيح في حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هي التي إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هي التي إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التي تسهل الفواحش تحيلت في أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من

الرجال من لا يداخل أهل الفسوق . ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدّى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات ، والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة في الرماد ، لا تحرق من جاورها إلا بأنْ تُحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شيء .

وأمّا امرأة مهملة ، ورجل متعرض ، فقد هلكا وتلفا . ولهذا حَرُمَ على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تأمّل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر » . وإن فيما ورد من النهي عن الهوى بنص التنزيل لشيئاً مقنعاً . وفي ايقاع هذه الكلمة ، أعني الهوى . اسماً على معان . واشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويتها إلى هذه المقامات . وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه ، ومحارب لها .

وشيء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أني ما رأيت قط امرأة في مكان تحس أن رجلا يراها ، أو يسمع حسها ، إلاّ وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه في غنية ، مخالفيْن لكلامها وحركتها قبل ذلك . ورأيت التهمم لمخارج لفظها ، وهيئة تقبلها ، لائحاً فيها ، ظاهراً عليها ، لا خفاء به .

والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء .

وأمّا إظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاع المزاح عندخطور المرأة بالرجل ، واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان ، والله عز وجل يقول : « قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُروجَهُمْ » [1] وقال تقدست أسماؤه : « ولاَ يَضْرِبْنَ بأرجُلِهِنَّ ليعلمَ ما يخفينَ من زِينَتِهِنّ » [2] . فلو لا علم الله عز وجل برقة إغماضهن فى السعى لإيصال حبّهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن فى التحيّل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض ، الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرُّض فكيف بما دونه .

ولقد أُطلعت من سر معتقد الرجال والنساء فى هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة رُكّبت فِيَّ .

وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا أحمد ، حدثنا أحمد بن على ابن رفاعه ، حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن ســلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الغيرة من الايمان » . فلم أزل باحثاً

(١) سورة النور ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة النور ، الآية ٣١ .

عن أخبارهن ، كاشفاً عن اسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان ، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن ، ولولا أن أكون منبهاً على عورات يُستعاذ بالله منها ، لأوردت من تنبههن فى الشر ، ومكرهن فيه ، عجائب تذهل الألباب .

وإنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا ، يعلم الله وكفى به عليماً ، أنى برىء الساحة سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقى الحجزة ، وأنى أقسم بالله أجل الإقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك ، والمشكور فيما مضى ، والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن جحّاف المعافرى ، وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى ، عن القاضى بمصر بكر بن العلاء ، فى قول الله عز وجل : « وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » (١) ، أن لبعض المتقدمين فيه قولا ، وهو أنّ المسلم يكون مخبراً عن نفسه ، بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه ، التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه .

وكان السبب فيما ذكرته . أنى كنت وقت تأجج نار الصبا ، وشرة الحداثة ، وتمكن غرارة الفتوة ، مقصورا محظرا علىّ بين

---

(١) سورة الضحى ، الآية ١١ .

رقباء ورقائب ، فلما ملكتُ نفسى وعقلت ، صحبتُ أبا على الحسين بن على الفاسى ، فى مجلس أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى ، شيخنا وأستاذى رضى اللّه عنه ، وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ، ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا ، والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً ، لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة علماً وعملاً ودينا وورعاً فنفعنى اللّه به كثيراً ، وعلمت موقع الإساءة ، وقبح المعاصى ، ومات أبو على رحمة اللّه فى طريق الحج .

وقد ضمنى المبيت ليلة ، فى بعض الأزمان ، عند امرأة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها ، من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت ، ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت وانبعثت فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خريدةٌ صاغَهـــا الرحمنُ من نـُور

جلّتْ ملاحتُهـــاً عن كـلِّ تَقْديرِ

لو جاءني عملي في حُسْنِ صورتها

يومَ الحسابِ ويومَ النفْخ في الصُّور

لكنتُ أحظى عبادِ اللهِ كلِّهمُ

بالجنتَيْنِ وقُرْبِ الخرّدِ الحور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وقد طبّق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ، ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسىّ الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار ، خوفاً على لبى أن يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لا تتعدّى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل ، وفى ذلك أقول :

لاتُتْبِع النفسَ الهوىَ ودعِ التعرُّضَ للمِحنْ

إبليسُ حيٌّ لم يَمُتْ والعينُ بابٌ للفِتَنْ

وأقول :

وقائلٍ ليَ هذا ظنٌّ يزيدك غيّاً

فقلتُ دعْ عنك لومي أليسَ إبليسُ حيّاً

وما أوردَ اللّه تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب ، وداود بن إيشى رسل اللّه عليهم السلام ، إلاّ ليعلمنا نقصاننا وفاقتنا إلى عصمته ، وأنّ بنيتنا مدخولة ضعيفة ، فإذا كانا صلى اللّه عليهما ، وهما نبيان رسولان ، أبناء أنبياء رسل ، ومن أهل بيت نبوّة ورسالة، متكررين فى الحفظ ، مغموسين فى الولاية ، محفوفين بالكلاءة ، مؤيدين بالعصمة ، لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ، ولا فتح لوسواسه نحوهما طريق ، وبلغا حيث نصّ اللّه عز وجل علينا فى قرآنه المنزل ، بالجبلة الموكلة ، والطبع البشرى ، والخلقة الأصيلة ، لا يتعمد الخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيون مبرءون من كل ما خالف طاعة اللّه عز وجل ، لكنه استحسان طبيعى فى النفس للصور ، فمن ذا الذى يصف نفسه بملكها ، ويتعاطى ضبطها ، إلا بحول اللّه وقوته .

وأول دم سفك فى الأرض فدم أحد ابنى آدم على سبب المنافسة فى النســاء ، ورســـول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقـول : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء » وهذه امرأة من العرب تقول ، وقد حبلت من ذى قرابة لها ، حين سئلت : ما ببطنك يا هند ؟ فقالت: قرب الوساد وطول السواد .

وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلُمْ مَن عرَّضَ النفْسَ لما ليس يَرْضَى غيرُهُ عند المِحَنْ

لا تُقَرِّبْ عَرْفَجاً من لَهبٍ ومتى قرَّبْتَهُ قامتْ دُخَنْ
لا تُصرِّفْ ثقةً في أحدٍ فَسَدَ النَّاسُ جَميعاً والزمَنْ
خلِقَ النِّسْوَانُ للفحلِ كما خُلِقَ الفَحْلُ بلا شكٍّ لَهنْ
كلُّ شكلٍ يَتَشَهَّى شكلَه لا تكُنْ عنْ أحدٍ تَنْفِي الظنَنْ
صفةُ الصالحِ مَن إنْ صُنْتَهُ عن قبيحٍ أظْهَرَ الطوعَ الحسَنْ
وسواهُ مَن إذا ثقَّفْتَه اعملَ الحيلةَ في خَلْعِ الرسَنْ

وإني لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب ، فاستجلبه إلى منزله، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربّص فلم يأته . فلما كان بعد ذلك ، اجتمع به داعية فعدّد عليه ، وأطال لومه على إخلافه موعده ، فاعتذر وورى . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : « ما أخْلَفْنَا موْعدكَ بملكنا ولكنّا حُمِّلْنَا أوْزاراً من زِينَةِ القومِ »(١) . فضحك من حضر . وكُلِّفتُ أن أقول في ذلك شيئاً فقلت :

وجرحكَ لي جُرْحٌ جبَّارٌ فلا تَلُمْ
ولكنَّ جُرْحَ الحبِّ غيرُ جُبَارِ

(١) سورة طه ، الآية ٨٧ .

وقد صارتِ الخِيلانُ وَسْطَ بياضِهِ

كَنيلُوفَرٍ حَفَّتْـهُ روضُ بَهَـــارِ

وكم قـال لى من مُتُّ وَجْداً بحبِّـهِ

مقـالةَ مَحْلولِ المقـالةِ زارى

وقد كَثُرتْ منِّى إليـه مطــالبٌ

ألـحُّ عليه تـارةً وأُدارى

أما فى التوانى ما يبرِّد غُـلَّةً

ويُذْهِبُ شَوْقاً فى ضلوعِك سارى

فقلتُ له لَوْ كـانَ ذلك لم تكـنْ

عداوةُ جـارٍ فى الأنـامِ لجـارِ

وقد تَتَراءَى العَسْكَرانِ لدى الوغَى

وبينهمـا للمـوتِ سُبْلُ بـوار

ولى كلمتان قلتهما معرِّضاً ، بل مصرِّحاً ، برجل من أصحابنا كنا نعرفه كلنا ، من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل ، واقتفاء آثار النساك ، وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء ، باحثاً مجتهداً ، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرته ، فلم يمض الزمن حتى مكّن الشيطان من نفسه ، وفتك بعد لباس النسّاك ، وملك إبليس من

خطامه فسوّل له الغرور ، وزيّن له الويل والثبور ، وأجرّه رسنه بعد إباء ، وأعطاه ناصيته بعد شماس ، فخبّ في طاعته وأوضع ، واشتهر بعد ما ذكرته في بعض المعاصي القبيحة الوضرة ، ولقد أطلت ملامه ، وتشددت في عذله ، إذ أعلن بالمعصية بعد استتار ، إلى أن أفسده ذلك ضميره عليّ ، وخبثت نيته لي ، وتربّص بي دوائر السوء ، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجراراً إليه، فيأنس به ، ويظهر له عداوتي ، إلى أنْ أظهر الله سريرته ، فعلمها البادي والحاضر ، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ، ومنتاباً للفضلاء ، ورذل عند إخوانه جملة . أعاذنا الله من البلاء ، وسترنا في كفايته ، ولا سلبنا ما بنا من نعمته ، فياسوءتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به ، وأن العصمة ستفارقه ، لا إله إلا الله ، ما أشنع هذا وأفظعه . لقد دهمته إحدى بنات الحرس ، وألقت عصاها به أم طبق ، من كان لله أولا ثم صار للشيطان آخرا .

ومن إحدى الكلمتين :

أمّا الغلامُ فقــد حــانتْ فضيحَتُهُ

وإنّه كــان مَستوراً فقــد هُتكا

مازالَ يضحك من أهْلِ الهوَى عجباً

فالآنَ كلٌّ جهولٍ منه قد ضَحِكا

إليكَ لا تَلْحُ صبًا هائماً كَلِفاً

يرى التهتُّكَ في دين الهوَى نسكا

قد كان دهراً يُعاني النُسْكَ مجتهداً

يُعَدُّ في نُسْكِهِ كلُّ امرئٍ نُسُكاَ

ذو مَخْبَرٍ وكتابٍ لا يُفارقه

نحوَ المحدِّثِ يسعىَ حيثُ ما سلَكا

فاعتاضَ مِنْ سُمْرِ أقلامٍ بَنانَ فتًى

كأنَّهُ مِن لُجَيْنٍ صِيغ أو سُبِكا

يا لائمي سَفَهاً في ذاكَ قِلٌّ فلم

تَشْهَدْ جبِينَيْنِ يومِ الملتقَى اشْتَبَكَا

دَعْنِي و وِرْدِيَ في الأبارِ أطْلُبهُ

إليكَ عنيٌ كذا لا أبتغي البَرَكا

إذا تعفّفْتَ عفَّ الحبُّ عنكَ وإنْ

تركْتَ يوماً فإنَّ الحبُّ قد تَركا

ولا تحــلُّ من الهجــرانِ مُنْعقــداً
إلاَّ إذا مـا حلَّتَ الأزْرَ والتِكَكـا

ولا تُصحِّــحُ للســـلطانِ مملكــةً
أو تدخُلُ البرْدُ عن إنفاذهِ السِكَكا

ولا بغيرِ كثيرِ المسْــحِ يــذهبُ مـا
يعلُو الحديدَ من الأصداءِ إن سُبِكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا قد أحكم القراءات إحكاماً جيداً، واختصر كتاب الأنبارى فى « الوقف والابتداء » (١) اختصاراً حسناً ، أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين ، مثابراً على النسخ مجتهداً به . فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً به ، وباع أكثر كتبه ، واستحال استحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلمة ، وهى التالية للكلمة التى ذكرت منها فى أول خبره ، ثم تركتها .

---

(١) القاسم بن محمد بن بشار الأنبارى ، المتوفى عام ٣٠٣ هـ = ٩١٦م ، من أهل الأنبار ، سكن بغداد ، ووقف نفسه على العلم ، وعرف بالأدب والأخبـار ، ولدينا من مؤلفاته : شرح المفضليات ، وخلق الإنسان ، والأمثال ، وغريب الحديث ، وشرح القصائد السبع الطوال .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى (١) فى كتاب « اللفظ والإصلاح » : أن إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة ، مع علو طبقته فى الكلام ، وتمكنه وتحكمه فى المعرفة ، تسبّب إلى ما حرّم الله عليه من فتى نصرانى عشقه ، بأن وضع له كتاباً فى تفضيل التثليث على التوحيد . فياغوثاه ! عياذك يارب من تولّج الشيطان ، ووقوع الخذلان .

وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين ، حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثل مادهم عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الجزيرى ، فإنه رضى بإهمال داره ، وإباحة حريمه ، والتعريض بأهله ، طمعاً فى الحصول على بغيته من فتى كان عقله . نعوذ بالله من الضلال ، ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا ، وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل ، وتصاغ فيه الاشعار ، وهو الذى تسميه العرب الديوث . وهو مشتق من التدييث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديث ، أى مذلل . ولعمرى إن الغيرة

---

(١) أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، كان معتزلياً ، ثم صار شيعياً ، ثم تغير إلى الإلحاد ، وله مؤلفات تمثل ذلك الاضطراب الذى عاش فيه ، وتوفى عام ٣٠٢ هـ = ٩١٦ م .

لتوجد فى الحيوان بالخلقة ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب .

ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستوراً إلى أن استهواه الشيطان، ونعوذ بالله من الخذلان .

وفيه يقول عيسى بن محمد بن محمل الخولانى (١) :

ياجاعلاً إخـراج حُرِّ نســائه
شَرَكاً لصيْدِ جاذرِ الغــزْ لاَن

إنِّى أرَى شـرَكاً يُمزَّقُ ثـم لا
تَحْظَى بغيرِ مذلَّةِ الحـرْمان

وأقول أنا أيضاً :

أباحَ أبو مَرْوانَ حُرَّ نســائهِ
ليبلُغَ ما يهوَى من الرشأ الفَرْدِ

فعاتَبْتُهُ الديُّوثَ فى قُبْح فعلــهِ
فأنشدنِى إنشادَ مُسْتَبصِرٍ جلْدِ

لقد كُنتُ أدركْتُ المنَى غَيْرَ أنَّنِى
يُعَيِّرنِى قومِى بإدراكِها وحْدِى

(١) لم أهتد له إلى ترجمة له فيما وقفت عليه من مصادر .

وأقول أيضا :

رأيتُ الجزيـــرىَّ فيمـــا يُهانِى

قليلَ الرشـــادِ كثيرَ السـفَاهِ

يبيعُ ويبتـاعُ عِرْضاً بِعَــرضٍ

أمورٌ وجــدُّكَ ذاتُ اشــتباهِ

ويأخذُ ميمـــاً بإعطـاءِ هـــاءٍ

ألاَ هكــذا فليكنْ ذُو النـواهِي

ويبدلُ أرضـــاً تُغذّى النبــاتَ

بأرضٍ تُحَفُّ بشـوْكِ العِضَاَهِ

لقد خـابَ فى تَجْرِهِ ذو ابتيـاع

مَهَبَّ الرياحِ بمجْـرَى الميــاهِ

ولقد سمعته فى المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة ، كما يُستعاذ به من الخذلان .

ومما يشبه هذا أنى أذكر أنى كنت فى مجلس فيه إخوان لنا ، عند بعض مياسير ، أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين من كان بالحضرة أيضاً ، من أهل صاحب المجلس أمراً أنكرته ، وغمزاً استبشعته ، وخلوات الحين بعد الحين ، وصاحب المجلس

كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحـركته بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن . وهما هذان :

إنَّ إخـــوانَهُ المقيـمينَ بالأمْـ
س أتــوْا للــزِناءِ لا للْغِنــاءِ
قطعوا أمــرَهُمْ وأنتَ حمــارٌ
مــوقَرٌ مــِن بـــلادَةٍ وغبـاء

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أمللتنا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما ، فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هو أم متغافل ، وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها .

وقلت فيه قطعة منها :

أنتَ لا شكَّ أحســنُ النـاسِ ظنًّا
ويقينــــاً ونيَّــــةً وضميــراً
فانتبهْ إنَّ بعضَ مَنْ كان بالأمـ
سِ جليســـاً لنا يُعانى كبيـراً
ليسَ كلُّ الركوعِ فاعلم صـــلاةً
لاَ ولاَ كلُّ ذىِ لحاظٍ بصيــراً

وحدثني ثعلب بن موسى الكلاداني قال : حدثني سليمان بن أحمد الشاعر [1] قال : حدثتني امرأة اسمها هند كنت رأيتها في المشرق ، وكانت قد حجّت خمس حجّات ، وهي من المتعبّدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لي : يا ابن أخي ، لا تحسن الظن بامرأة قط ، فإني أخبرك عن نفسي بما يعلمه الله عز وجل : ركبت البحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا ، وأنا خامسة نسوة كلهن قد حججن ، وصرنا في مركب في بحر القلزم ، وفي بعض ملاحي السفينة رجل مضمر الخلق ، مديد القامة ، واسع الأكتاف ، حسن التركيب ، فرأيته أول ليلة قد أتى إلى إحدى صواحبي فوضع إحليله في يدها وكان ضخماً جداً ، فأمكنته في الوقت من نفسها . ثم مر عليهن كلهن في ليال متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعني نفسها ، قالت : فقلت في نفسي : لا نتقمن منك ، فأخذت موسى وأمسكتها بيدي ، فأتى في الليل على جاري عادته ، فلما فعل كفعله في سائر الليالي سقطت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له ، وقد أمسكته ، لا زلتَ أو آخذ نصيبي منك . قالت العجوز : فقضى وطره وأستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكتابة لعجبا ، ومن بعض ذلك قولي حيث أقول :

(١) لم أجد فيما بين يدي من مصادر ترجمة لثعلب بن موسى ، أما سليمان بن أحمد الشاعر ، فقد عرض لنا من قبل مرتين وعرفنا به .

أتانيِ وماءُ المُزْنِ فى الجوِّ يسفُكُ

كمحـضِ لُجَيْن إذ يمدُّ ويُسْبَـكُ

هلالُ الدياجِي انحـطَّ من جوِّأُفْقه

فَقُلْ فى محبٍّ نالَ ما ليس يُدْرَك

وكان الذى إنْ كُنتَ لىِ عنهُ سائِلاً

فمالِى جـوابٌ غَيْرَ أنِّىَ أضْحـكُ

لفرطِ سروريِ خِلْتُنىِ عنه نائمـاً

فيا عجبـاً مِن مُـوقنٍ يَتَشـكَّك

وأقول أيضاً قطعة منها :

أتَيْتنى وهلالُ الجـوِّ مُطَّلِـعٌ

قُبَيْلَ قَرْعِ النصـارَى للنواقيسِ

كحاجبِ الشيخ عمَّ الشيْبُ أكثَرهُ

وأخْمص الرَجْلِ فى لُطْفٍ وتَقْوِيس

ولاحَ فى الأفقِ قوسُ الله مكتسياً

مِن كلِّ لونٍ كأذنـابِ الطـواويس

وإنّ فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ،

وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولا سليمة ، وآراء نافذة ، وعزائم صحيحة ، فكيف بما أعدّ الله لمن عصاه من النكال الشديد يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رءوس الخلائق ، «يَوْمَ ترونَها تذهلُ كلُّ مُرْضِعةٍ عمَّا أَرْضَعَتْ ، وتَضَعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهاَ ، وتَرَى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ، ولكنَّ عَذَابَ اللّهِ شَدِيد »[1] . جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل ، فعهدتها أصفى من الماء ، وألطف من الهواء ، وأثبت من الجبال ، وأقوى من الحديد ، وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً عن الأعراض فى الأجسام ، وأضوأ من الشمس ، وأصح من العيان ، وأثقب من النجم ، وأصدق من كُدر القطا وأعجب من الدهر ، وأحسن من البر ، وأجمل من وجه أبى عامر[2] ، وألذ من العافية ، وأحلى من المنى ، وأدنى من النفس ، وأقرب من النسب ، وأرسخ من النقش فى الحجر .

ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت ، وأنفذ من السهم ، وأمر من السقم ، وأوحش من زوال النعم،

(١) سورة الحج ، الآية ٢

(٢) ابن المظفر عبد الملك ، وحفيد المنصور بن أبى عامر .

وأقبح من حلول النقم ، وأمضى من عقم الرياح ، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو ، وأشد من الأسر ، وأقسى من الصخر ، وأبغض من كشف الأستار ، وأنأى من الجوزاء ، وأصعب من معاناة السماء ، وأكبر من رؤية المصاب ، وأشنع من خرق العادات ، وأفظع من فجأة البلاء ، وأبشع من السم الزعاف ؛ وما لا يتولد مثله عن الذحول والتراث ، وقتل الآباء وسبى الأمهات . وتلك عادة اللّه فى أهل الفسق ، القاصدين سواه ، الآمّين غيره ، وذلك قوله عز وجل : « ياليتنى لم أتخذْ فلاناً خليلاً ، لقد أضلَّنِي عن الذكْرِ بعد إذْ جاَءنِي »[1] .

فيجب على اللبيب الاستجارة باللّه مما يورط فيه الهوى ، فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور[2] ، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر[3] ، فلما أُسِرَ هشام وقتل ،

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٨ .

(٢) ليست لدينا أية معلومات عن خلف مولى يوسف هذا .

(٣) أحداث الخلافة الأموية فى الأندلس عشية سقوطها كثيرة ومتشابكة ، ولا يجدى معها تعريف موجز ، لقد وثب المهدى : محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر على الخلافة ، وأسقط دولة العامريين ، ثم زاحمه فيها سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين ، وحاول هشام بن سليمان الملقب بالرشيد أن ينتزعها لنفسه ، والواقعة التى يشير إليها ابن حزم هنا ، كانت بين هشام بن سليمان الرشيد ، وبين محمد المهدى ، وحدثت فى شوال ٣٩٩ هـ = يونية ١٠٠٩ م ، وكانت الدائرة فيها على الرشيد ، فقد ظفر به المهدى وقتله .

وهرب الذين وازروه ، فَرّ خلف فى جملتهم ونجا . فلما أتى القسطلات [1] لم يطق الصبر عن جارية كانت له بقرطبة ، فكرّ راجعاً ، فظفر به أمير المؤمنين المهدى ، فأمر بصلبه . فلعهدى به مصلوباً فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل .

ولقد أخبرنى أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن الليث [2] رحمة الله ، أن سبب هروبه إلى محلة البرابر ، أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية يكلف بها ، تصيّرت عند بعض مَن كان فى تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف فى تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإنْ لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذى يستوى فى فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العصمة التى لا يفهمها من ضعفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوتُ ، فهو وإنْ انفرد فبمرأى ومسمع عن علاّم الغيوب الذى « يعلُم خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصدُورُ » [3] . و« يَعْلَمُ السرَّ وأخْفَى » [4] و« ما يكونُ مِن نَجْوَى

(١) لم تمر علىّ فى مكان آخر من المصادر الأندلسية التى بين يدى ، ومن ثم لم أستطع تحديد موقعها ، ولعل تحريفاً أصاب اللفظ عند كتابته .

(٢) من بني الليث ، أسرة قرطبية قديمة من أصل بربرى ، من زناتة ، كان يشغل الكثير من أفرادها عدداً من المناصب الهامة ، خلال الدولة الأموية .

(٣) سورة غافر ، الآية ١٩ .

(٤) سورة طه ، الآية ٧ .

ثلاثة إلاّ هو رابِعُهُمْ ، ولا خَمْسةٍ إلاّ هو سادِسُهُمْ ، ولا أدْنَى من ذلك ولا أكْثَر إلاّ هو مَعَهُم ، أينمــا كانوا (١) ، وهــو « عليمٌ بذاتِ الصــدور » . وهو « عالم الغيب والشهادة » ، « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم » . (٢) . وقال : « ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونعلمُ ماتُوَسْوِسُ به نفسُه ، ونحنُ أقربُ إليهِ مِن حبلِ الوريدِ . إذْ يَتلقَّى المُتَلَقِّيَانِ عنِ اليمينِ وعنِ الشِمالِ قَعِيدٌ ، مايَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتيد » (٣) .

وليعلم المستخف بالمعاصى ، المتكل على التسويف ، المعرض عن طاعة ربه ، أن إبليس كان فى الجنة مع الملائكة المقربين ، فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد ، وعذاب الخلد ، وصيرِّ شيطاناً رجيماً ، وأُبعِدَ عن رفيع المكان ، وهذا آدم صلى الله عليه وسلم ، بذنب واحد أخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها . ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين .

أفترى هذا المغتر بالله ربه ، وبإملائه ليزداد إثماً ، يظن أنّه أكرم على خالقه من أبيه آدم ، الذى خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، الذين هم أفضل خلقه عنده ؟ أو عقابه أعز عليه من عقوبته إياه ؟ . كلا ، ولكن استعذاب التمنِّى ، واستيطاء

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة ق ، الآيات : ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

مركب العجز ، وسخف الرأى ، قائدة أصحابها إلى الوبـال والخزى ، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نَهْيِ اللّه تعالى ، ولا حام من غليظ عقابه ، لكان فى قبيح الأحدوثة عن صاحبه ، وعظيم الظلم الواقع فى نفس فاعله ، أعظم مانع ، وأشد رادع ، لمن نظر بعين الحقيقة ، واتبع سبيل الرشد ، فكيف واللّه عز وجل يقول : « ولا يَقْتلُونَ النفْسَ التى حرَّمَ اللّهُ إلاَّ بالحقِّ ولا يَزْنونَ ، ومَنْ يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أثاماً ، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ يَخْلُدْ فيهِ مُهَاناً »[1] .

وحدثنا الهمذانى ، فى مسجد القمرى[2] ، بالجانب الغربى من قرطبة ، سنة إحدى وأربعمائه : حدثنا ابن سيبويه ، وأبو إسحاق البلخى ، بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة ، قالا : حدّثنا محمد بن يوسف : حدّثنا محمد بن إسماعيل : حدّثنا قتيبة بن سعيد : حدّثنا جرير عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد اللّه وهو ابن مسعود : قال رجل : « يا رسول اللّه ، أى الذنب أكبر عند اللّه ؟ . قال : أن تدعو للّه ندًا وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم

---

(١) سورة الفرقان ، الآيتان ٦٨ و ٦٩ .

(٢) لا يوجد فى مساجد قرطبة مسجد يحمل اسم « مسجد القمرى » ، ونظن أنها تصحيف عن كلمة « العمرى » وكان فى قرطبة مسجد يحمل هذا الاسم .

أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك » فأنزل الله تصديقها : « والذينَ لا يَدْعونَ مع اللهِ إلهاً آخرَ ، ولا يَقْتُلونَ النفس التى حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقِّ ، ولاَ يزنونَ » (١) . وقال عز وجل : « الزانيةُ والزانِى فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ منهما مائةَ جلْدة ، ولا تَأْخُذْكُمْ بهما رأفَةٌ فِى دينِ اللهِ ، إنْ كُنتمْ تُؤمِنُونَ باللهِ » (٢) .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق البلخى ، وابن سيبويه ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب الزهرى ، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن المسيب المخزوميين ، وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل ، عن يحيى بن بكير ، عن الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة ، وسعيد بن المسيب ، فقال : « يا رسول الله : إنى زنيت ، فأعرض عنه ، ثم ردّ عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال فهل أحصنت قال : نعم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : اذهبوا به فارجموه » .

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .

(٢) سورة النور ، الآية الثانية .

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبدالله قال : كنت فيمن رجمه ، فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب ، فأدركناه بالحرة (١) فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد ، مولى الحاجب جعفر ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، عن أبى بكر المقرىء ، عن أبى جعفر النحاس ، عن سعيد ابن بشر ، عن عمرو بن رافع ، عن منصور ، عن الحسن ، عن حطان بن عبد الله الرقاشى ، عن عبادة بن الصامت ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلاً : البكر بالبكر جلْد مائة ، وتغريب سنة ، والثيّب بالثيّب جلّد مائة والرجم » .

فيا لشنعة ذنب أنزل الله وحيه مبيناً بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقترفه . وتشدّد فى ألاّ يرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبة رجمه ، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لا ينقضه إلاّ ملحد ، أنّ الزانى المحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولها ، وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها ، وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت .

---

(١) الحرة : موضع قريب من المدينة

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبى الحسن ، وابن راهوية ، وداود وأصحابه [(١)] ، يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبفعل على رضى الله عنه ، بأنه رجم امرأة محصنة فى الزنا بعد أن جلدها مائة ، وقال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعى ، لأن زيادة العدل فى الحديث مقبولة .

وقد صح فى أجماع الأمة المنقول بالكافة ، الذى يصحبه العمل عند كل فرقة ، وفى أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى

---

(١) الحسن بن أبى الحسن يسار ، مولى زيد بن ثابت ، نشأ بالمدينة ، وحفظ القرآن ، ولازم الجهاد والعمل ، وكان أحد الشجعان الموصوفين ، حدث عن كثير من الصحابة ، وكان ثقة حجة مأمونا ، ناسكاً واسـع العلم ، توفى ١١٠ هـ = ٧٢٨ م .

● إسحق بن إبراهيم بن راهويه ، فقيه شافعى ، صاحب كتاب « الجامع الكبير » ، وأستاذ داود الظاهرى ، توفى عام ٢٣٨ هـ = ٨٥٢ م .

● أبو سليمان ، داود بن على بن خلف الأصبهانى ، المعروف بالظاهرى ، ولد بالكوفة سنة ٢٠٢ هـ = ٨١٥ م ، وكان فى بدء حياته أكثر الناس تعصباً للإمام الشافعى ، وصنف فى فضائله كتابين ، وإليه انتهت رياسة العلم فى بغداد ، ثم انتحل لنفسه مذهباً خاصاً ، أساسه العمل بظاهر الكتاب والسنة ، ما لم يدل دليل منهما ، أو من الإجماع ، على أنه يراد به غير الظاهر ، فإن لم يوجد نص عمل بالإجماع ، ورفض القياس رفضاً باتاً . وله فى تفسير مذهبه والدفاع عنه مصنفات كثيرة ، وتوفى ٢٧٠ هـ = ٨٨٣ م .

طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتد بهم ، أنه لا يحل دم امرىء مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله ، يشهر فيها سيفه ، ويسعى فى الأرض فساداً مقبلا غير مدبر ، وبالزنا بعد الإحصان . فإن حدّ ما جعل الله مع الكفر بالله عز وجل ومحاربته ، وقطع حجته فى الأرض ، ومنابذته دينه ، لجرم كبير ، ومعصية شنعاء ، والله تعالى يقول : « إنْ تجتنبوا كبائرَ ما تُنْهَوْنَ عنهُ نُكَفِّرْ عنكم سيئاتِكم »[1] ، و « الذين يَجْتنبونَ كبائرَ الإثْمِ والفواحِشَ إلاّ اللَّمَمَ إنَّ ربَّك واسعُ المغفرةِ »[2] ، وإن كان أهل العلم اختلفوا فى تسميتها ، فكلهم مجمع ، مهما اختلفوا فيه منها ، أن الزنا يقدم فيها ، لا اختلاف بينهم فى ذلك ، ولم يوعد الله عز وجل فى كتابه بالنار بعد الشرك إلاّ فى سبع ذنوب ، وهى الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصاً ذلك كله فى كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدم إلا فى الذنوب الأربعة التى تقدم ذكرها ، فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتداً قُبِلَ منه ، ودرىء عنه الموت . وأما القتل فإن قبل الولىّ الدية فى قول بعض الفقهاء ، أو عفا فى

(١) سورة النساء ، الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم ، الآية ٣٢ .

قول جميعهم ، سقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد فى الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقْدر عليه هُدِر عنه القتل ، ولا سبيل فى قول أحد مؤالف أو مخالف فى ترك رجم المحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه ألبتة .

ومما يدل على شنعة الزنا ما حدّثنا القاضى أبو عبد الرحمن : حدّثنا القاضى أبو عيسى ، عن عبيد الله بن يحيى ، عن أبيه يحيى بن يحيى ، عن الليث ، عن الزهرى ، عن القاسم بن محمد بن أبى بكر ، عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب فى زمانه ناساً من هذيل ، فخرجت جارية منهم ، فأتبعها رجل يريدها عن نفسها ، فرمته بحجر فقضت كبده ، فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعـــل الله عز وجل فيه أربعـــة شـهود ، وفى كل حكم شـاهدين ، إلاّ حياطة منه ألاّ تشيع الفاحشة فى عباده ، لعظمها وشنعتها وقبحها ، وكيف لا تكون شنيعة ، ومن قذف بها أخاه المسلم ، أو أخته المسلمة ، دون صحة علم أو تيقن معرفة ، فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تضرب بشرته ثمانين سوطاً .

ومالك رضى الله عنه يرى ألا يؤخذ فى شىء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلاّ فى قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن ، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن ، عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه أمر أن يجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزان ولا أمّى بزانية فى حديث طويل .

وبإجماع من الأمة كلها ، دون خلاف من أحد نعلمه ، أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ، احتياطاً من الله عز وجل ألاّ يثبت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة .

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً ، أنه لا حد فى الإسلام إلاّ والقتل يغنى عنه وينسخه إلاّ حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حد ثم قتل . قال الله تعالى : « والذينَ يَرمُون المُحصَنات ثمَّ لم يأتوا بأربعة شُهداءَ فاجلِدوهُمْ ثمانينَ جلْدةً ولا تَقْبلوا لهمْ شهادةً أبداً ، وأولئكَ هُم الفاسقونَ ، إلاَّ الذين تابوا » (١) . وقال تعالى : « إنَّ الذينَ يَرمون المُحصنات الغافلات المؤمِنات لُعِنُوا فى الدنيا والآخرة ولهمْ عذابٌ عظيم » (٢) . وروىَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الغضب واللعنة المذكوران في اللعان إنهما مُوجبتان » .

---

(١) سورة النور ، الآية ٤ و ٥ . (٢) سورة النور ، الآية ٢٣ .

حدثنا الهمدانى ، عن أبى إسحاق ، عن محمد بن يوسف ، عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : حدّثنا سليمان ، عن ثور بن يزيد ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق ، وأكْل الربا ، وأكْلُ مال اليتيم ، والتولّى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وإنّ فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، مالا يهون على ذى عقل ، أو من له أقل خلاق ! ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان ، وأنه غير مأمون الغلبة ، لما خفف الله عن البكرين ، وشدّد على المحصنين . وهذا عندنا ، وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل ، حكما باقياً لم ينسخ ولا أزيل ، فيترك الناظر لعباده الذى لم يشغله عظيم ما فى خلقه ، ولا يحيف قدرته كبير ما فى عوالمه ، عن النظر لحقير ما فيها ، فهو كما قال عز وجل : « الحَىُّ القيُّومُ لا تأْخُذُه سِنةٌ ولانَوْم » [1] . وقال : « يَعْلَمُ ما يَلِجُ فى الأرضِ وما يَخْرج منها وما يَنْزلُ من السماءِ وما يَعْرجُ فيها » [2] . وقال : « عالم الغيب لاَ يعزبُ عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض » [3] .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥ .
(٢) سورة سبأ ، الآية ٢ .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣ .

وإن أعظم ما يأتى به العبد هتك ستر اللّه عز وجل فى عباده .

وقد جاء فى حُكْم أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ، فى ضربه الرجل الذى ضم صبيًا حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنيّة . ومن إعجاب مالك رحمة اللّه باجتهاد الأمير الذى ضرب صبياً مكنّ رجلاً من تقبيله حتى أمنى الرجل ، ضربه إلى أن مات ، ما ينسى شدة دواعى هذا الشأن وأسبابه . والتزيّد فى الاجتهاد ، وإن كنا لا نراه، فهو قول كثير من العلماء ، يتبعه على ذلك عالم من الناس .

وأما الذى نذهب إليه فالذى حدثناه الهمدانى ، عن البلخى ، عن الفربرى ، عن البخارى قال : حدّثنا يحيى بن سليمان ، حدّثنا ابن وهب قال : أخبرنى عمرو أنّ بكيراً حدّثه عن سليمان بن يسار ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه عن أبى بردة الأنصارى قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « لا يُجْلد فوق عشرة أسواط إلا فى حد من حدود اللّه عز وجل » . وبه يقول أبو جعفر محمد بن على النسائى الشافعى رحمة اللّه .

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع ، قال اللّه تعالى : « أتأتونَ الفاحشةَ ما سَبَقَكُمْ بها مِن أحدٍ مِن العالمينَ » (١) . وقد قذف اللّه فاعلية بحجارة من طين مُسَوَّمة . ومالك رحمه اللّه يرى علَى الفاعل والمفعول به الرجم أحصنا أو لم يحصنا ، واحتج بعض المالكية فى

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٨٠ .

ذلك بأن الله عز وجل يقول فى رجمه فاعلية بالحجارة : « وما هى من الظالمين ببعيد » [1] فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قريبت منه ، والخلاف فى هذه المسألة ليس هذا موضعه .

وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن السرى [2] أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى [3] اسم المحروق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدى [4] ، أحرقه بالنار أبو بكر الصديق ، لأنه يؤتى فى دبره كما تؤتى المرأة .

وإنّ عن المعاصى لمذاهب للعقل واسعة ، فما حرّم الله شيئاً إلا وقد عوّض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

---

(١) سورة هود ، الآية ٨٣ .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم السرى ، المعروف بالزجاج ، العالم اللغوى والنحوى الشهير ، تلميذ المبرد ، توفى عن ثمانين عاما تقريباً ، سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .

(٣) أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ولد فى البصرة لأبوين يهوديين عام ١١٠ هـ = ٧٢٨ م ، وكان تلميذاً للعالم الجليل أبى عمرو بن العلاء ، وعرف بميوله الخارجية والشعوبية ، وألف فى النحو واللغة والأمثال ، وله كتاب فى مثالب العرب ، وآخر فى « أيام العرب » ، كان مصدراً رئيسياً لأبى الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » ، ولابن الأثير فى كتابه « الكامل فى التاريخ » ، وتوفى فى البصرة عام ٢٠٩ هـ = ٨٢٥ م .

(٤) شجاع بن ورقاء الأسدى : لم أجد له ترجمة فيما بين يدى من المصادر.

وأقول فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقـــولُ لنفســي ما مُبِينٌ كحـــالكٍ
وما الناسُ إلاَّ هـــالكٌ وابن هالكِ

صُنِ النفسَ عمَّا عابَها وارفُضِ الهوَى
فإنَّ الهوَى مفتــاحُ بابِ المهالك

رأيتُ الهوَى سَهْلَ المبــادِى لذيــذَهَا
وعُقباهُ مُرُّ الطعمِ ضَنْكُ المســالك

فما لذةُ الإنسانِ والمـــوتُ بعـــدَها
ولو عاش ضِعْفَىْ عُمْرِ نوح بن لامِك

فلا تَتَّبــعْ داراً قليــلاً لباثُهَــــا
فقد أنذرَتْنَا بالفنـــاءِ المُواشِـك

وما تــرْكُهَا إلاَّ إذَا هِــيَ أمْكنَــتْ
وكم تارك إضمـــارُهُ غيرُ تارك

فما تاركُ الآمالِ عُجْبــاً جُــؤاذِراً
كتاركِها ذاتِ الضرُوعِ الحــواشِك

وما قابِلُ الأمرَ الذى كــان راغبــاً
بشهوةِ مُشْتــاقٍ وعقلِ مُبــارِك

لأجْدَى عبـــادَ اللّهِ بالفـــوزِ عِنـــدَهُ

لدى جَنَّةِ الفِرْدوْسِ فوقَ الأرائك

ومن عرفَ الأمـــرَ الذى هو طـــالِبٌ

رأى سبباً ما فى يَـدىْ كلِّ مالك

ومن عرفَ الـرحمنَ لم يعصِ أمـــرَهُ

ولو أنَّهُ يُعْطَى جميعَ الممـــالك

سبيلُ التُّقى والنُسـك خيْرُ المســالكِ

وســالكُها مُستبصرٌ خيرُ سالك

فما فقد التنغيص من عــاج دُونـهـــا

ولا طاب عيشٌ لامرىء غيرِ ماسك

وطوبى لأقـــوامِ يؤمـــون نحـــوها

بخفَّـــةِ أرواح ولـينِ عـــرائك

لقـــد فقدوا غِلَّ النفـــوس وفُضِّلُوا

بعزِّ ســـلاطين وأمْنِ صعـــالك

فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما اشتهوا

وفازُوا بدار الخلْدِ رَحْبِ المبارك

عَصوْا طاعة الأجساد فى كل لـذّةٍ

بنورٍ مجلٍّ ظلمةَ الغىِّ هـاتك

فلولا اعتـدادُ الجسـم أيقنتَ أنهمْ

يعيشون عيْشاً مثلَ عيشِ الملائك

فيـاربِّ قدِّمْهُم وزدْ فى صـلاحهمْ

وصـلِّ عليهمْ حيثُ حلُّوا وبَارِكِ

ويانفسُ جِـدِّى لا تمـلىِّ وشـمِّرِى

لنيلِ سـرور الدهرِ فيما هنالك

وأنتِ متى دمَّرْت سعْيَك فى الهـوى

علِمْتِ بـأنَّ الحقَّ ليس كـذلك

فقد بيَّنَ اللّهُ الشـريعة للـورى

بأبْينَ مِن زُهْرِ النجـومِ الشوابك

فيانفسُ جِدِّى فى خَلاصك وانفُـذِى

نفاذَ السـيوفِ المُرْهَفاتِ البواتِكِ

فلوْ أعملَ النأس التفكُّر فِى الـذى

له خُلقُوا ما كـان حىٌّ بِضاحِكِ

٣٠

باب فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الانسان فى حبه التعفّف ، وترْك ركوب المعصية والفاحشة ، وألاّ يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم فى دار المقامة ، وألا يعصى مولاه المتفضل عليه الذى جعله مكاناً وأهلا لأمره ونهيه ، وأرسل إليه رسله ، وجعل كلامه ثابتا لديه ، عناية منه بنا ، وإحسانا إلينا .

وإن من هام قلبه ، وشغل باله ، واشتد شوقه ، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وشهوته ، وأن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصنا ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء ، وذكرها بعقاب الله تعالى ، وفكر فى اجترائه على خالقه وهو يراه ، وحذْرها من يوم المعاد ، والوقوف بين يدى الملك العزيز ، الشديد العقاب ، الرحمن الرحيم الذى لا يحتاج إلى بينة ، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علاّم الغيوب ، « يوم لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاّ مَنْ أتَى اللّهَ بَقلبٍ سليم » (١) ، « يوم تُبدّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسمواتُ » (٢) ، « يومَ تَجدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَملَتْ مِنْ خَيْرٍ

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .   (٢) سورة إبراهيم الآية ٤٨ .

مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بينها وبينَهُ أمداً بعيداً » [1] ، يوم « وعَنَتِ الْوجُوهُ للحيِّ القَيُّوم وقد خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً » [2] ، يوم « وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ولا يَظْلُم رَبُّكَ أحَداً » [3] ، يوم الطامة الكبرى ، « يوم يَتَذكَّرُ الإِنْسانُ ما سعَى وبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمَنْ يرى ، فأما مَنْ طغى وآثر الحياة الدُّنياَ فإنَّ الجحيمَ هى المأوَى . وأمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّهِ ونهى النفْسَ عَنِ الهوَى فإنَّ الجنَّةَ هى المأوَى » [4] ، واليوم الذى قال الله تعالى فيه : « وكُلَّ إِنْسانٍ أَلْزَمناهُ طائرَهُ فى عُنُقِهِ ونُخْرِجُ لهُ يومَ القيامَةِ كتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً . اقرأ كتابَكَ كَفَى بنفسِكَ اليْومَ عليْكَ حَسيباً » [5] . عندها يقول العاصى : « يا وَيْلَتَنَا! ما لهذا الكتابُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاْها » [6]،

فكيف بمن طوى قلبه على أحر من جمر الغضى ، وطوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرّع غصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرها عما طمعت فيه ، وتيقّنت ببلوغه ، وتهيأت له ، ولم يحل دونها حائل ، لحرّىّ أن يسرَّ غداً يوم البعث ، ويكون من المقربين فى دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوّضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر .

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ . (2) سورة طه الآية ١١١ .
(3) سورة الكهف ، الآية ٤٩ . (4) سورة النازعات ، الآيات :٣٥ إلى٤١ .
(5) سورة الإسراء الآيتان : ١٣ و ١٤ . (6) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .

حدثني أبو هارون بن موسى الطبيب [١] قال : رأيت شاباً حسن الوجه من أهل قرطبة ، قد تعبدّ ورفض الدنيا ، وكان له أخ في اللّه قد سقطت بينهما مؤونة التحفظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله ، فنهض لها على أن ينصرف مسرعاً . ونزل الشاب في داره مع امرأته ، وكانت غاية في الحسن ، وتِربْاً للضيف في الصبى ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس ولم يمكنه الانصراف إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت ، وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة ، تاقت نفسها إلى ذلك الفتى ، فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا اللّه عز وجل ، فهمّ بها ثم ثاب إليه عقله ، وفكّر في اللّه عز وجل ، فوضع إصبعه على السراج فتفقع ثم قال : يانفس ذوقي هذا ، وأين هذا من نار جهنم فهال المرأة ما رأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان ، فعاد إلى الفعلة الأولى . فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار [٢] .

---

(١) لم أستطع تحديد شخصية الطبيب أبي هارون بن موسى ، ويبدو أنه يهودي ، ولم أجد له أية ترجمة فيما بين يدي من مصادر .

(٢) هذه القصة تشبه حكاية وردت في كتاب « حياة الآباء » لمؤلفه روزفييد ومؤداها أن راهباً مسيحياً من طيبة ، أحرق أصابعه بالنار ليقاوم محاولة إغراء من امرأة عارية .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه ؟ أو ترى أن اللّه تعالى يضيع له المقام ؟ كلاّ إنه لأكرم من ذلك وأعلم .

ولقد حدثتنى امرأة أثق بها ، أنها علقها فتى مثلها من الحسن وعلقته ، وشاع القول عليهما ، فاجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا ، فقالت : لا واللّه لا كان هذا أبداً ، وأنا أقرأ قول اللّه : « الأخِلاّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌ إلاّ المتقين » (١) . قالت فما مضى قليل حتى اجتمعنا فى حلال (٢) .

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى ، أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفاركة فى الصبى ، فتعرضت لبعض تلك المعانى فقال لها : كلا . إنّ مِن شُكْرِ نعمة اللّه فيما منحنى من وصالك ، الذى كان أقصى آمالى ، أن أجتنب هواى لأمره ، ولعمرى إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف فى مثل هذا الزمان الذى قد ذهب خيره وأتى شره .

وما أقدّر فى هذه الأخبار – وهى صحيحة – إلاّ أحد وجهين لاشك فيهما : إمّا طبع قد مال إلى غير هذا الشأن ، واستحكمت

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٦٧ .

(٢) نقل داود الأنطاكى عن ابن حزم هذه القصة ، فى كتابة « تزيين الأسواق » ص ٨ .

معرفته بفضل سواه عليه ، فهو لا يجيب دواعى الغزل فى كلمة ولا كلمتين ، ولا فى يوم ولا يومين ، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم ، وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكنّ الله عصمهم بانقطاع السبب المحرك ، نظراً لهم ، وعلماً بما فى ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح ، واستدعاء الرشد ، لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت فى ذلك الوقت ، وخاطر تجرّد انقمعت به طوالع الشهوة فى ذلك الحين ، لخير أراد عز وجل لصاحبه ، جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه . آمين .

وحدّثنى أبو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء [1] ، عن رجال من بنى مروان ثقات [2] ، يسندون الحديث إلى أبى العباس الوليد بن غانم [3] ، أنه ذكر أنّ الإمام

---

(١) أورد له الضبى فى « البغية » ترجمة موجزة ، لم يزد فيها عن القول : « من أهل الأدب ، مشهور بالفضل » . الترجمة رقم ٢٢٥ .

(٢) بنو مروان ، أى أسرة بنى أمية التى حكمت الأندلس ، إمارة وخلافة ، من ٧٥٥ م إلى ١٠٣١ م .

(٣) أبو العباس ، الوليد بن عبد الرحمن بن عبد الحميد بن غانم ، من كبار رجال الدولة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٨٥٢ م – ٨٨٦ م) تولى له خطتى الوزارة والمدينة ، وقاد جيش الصائفة لابنه عبد الرحمن بن محمد ، وكان كاتباً مرسلاً بليغاً ، وابناه محمد وعبد الرحمن من أهل الأدب والبلاغة والشعر وقد توفى وليد فى شعبان عام ٢٩٢ هـ = ٩٠٥ م فى رواية ابن حيان ، وعام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م فى رواية ابن الأبار .

عبـــد الرحمن بن الحكم [1] غاب في بعض غزواته شهوراً ، وثقف القصر بابنه محمد [2] الذى ولى الخلافة بعده ، ورتبه فى السطح ، وجعل مبيته ليلاً وقعوده نهاراً فيه ، ولم يأذن له فى الخروج ألبتة : ورتّب معه فى كل ليلة وزيراً من الوزراء ، وفتى من إكابر الفتيان ، يبيتان معه فى السطح .

قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة ، وبعد عهده بأهله، وهو فى سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مبيتى فى ليلتى نوبة فتى من أكابر الفتيان ، وكان صغيراً فى سنه ، وغاية فى حسن وجهه .

قال أبو العباس : فقلت فى نفسى : إنى أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية ، وتزيين إبليس وأتباعه له ، قال : ثم أخذت مضجعى فى السطح الخارجى ، ومحمد فى السطح الداخل ، المطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى فى الطرف الثانى القريب من المطلع ، فظللت أرقبه ولا أغفل ، وهو يظن أنى قد نمت ، ولا يشعر باطلاعى عليه .

(١) أى عبد الرحمن الأوسط ، وحكم من ٨٢١ إلى ٨٥٢ م ، وهو ابن الحكم الأول ، وحكم من ٧٩٦ – ٨٢١ م ، ويعرف أحياناً باسم الحكم الربضى ، لثورة الربض التي انفجرت ضده بقيادة الفقهاء فى قرطبة على أيامه .

(٢) الأمير محمد ، وسيتولى الإمارة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن عام ٨٥٢ . وبقى فيها حتى وفاته عام ٨٨٦ م .

قال : فلما مضى هزيع من الليل ، رأيته قد قام ، واستوى قاعداً ساعة لطيفة ، ثم تعوّذ من الشيطان ، ورجع إلى منامه . ثم قام بعد حين ، ولبس قميصه واستوفز ، ثم نزعه عن نفسه ، وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة ولبس قميصه ، ودلّى رجليه من السرير ، وبقى كذلك ساعة ، ثم نادى الفتى باسمه فأجابه ، فقال له انزل عن السطح ، وابق فى الفصيل الذى تحته . فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد ، وأغلق الباب من داخله ، وعاد إلى سريره .

قال أبو العباس : فعلمت من ذلك الوقت أن للّه فيه مراد خير .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور [(١)] ، عن أحمد بن مطرف [(٢)]، عن عبيد اللّه ابن يحيى [(٣)] ، عن أبيه ، عن مالك ، عن حبيب بن

---

(١) يكنى أبا عمر ، قرطبى ، مولى لبنى أمية ، أول شيخ درس عليه ابن حزم ، فى مرحلة ما بعد التعليم الأول ، وكان واسع الثقافة فى التاريخ ، حافظاً للرأى والحديث ، أديباً شاعراً صديقاً حميماً لوالد ابن حزم ، وقد درس عليه ابن حزم مادة التاريخ . وعمل ابن الجسور كاتباً للقاضى منذر بن سعيد ، وخلفه فى خطة السوق ، وكان يعقد الوثائق دون أن يتخذ من ذلك مهنة له ، وكانت وفاته فى الطاعون الذى إجتاح قرطبة ، فى منزله ببلاط مغيث ، فى قرطبة يوم الأربعاء ، لأربع بقين من ذى القعدة ، عام ٤٠١ هـ = ١٠١٠ م .

(٢) أحمد بن مطرف بن هانى الجهنى ، يكنى أبا عمر ، من أهل قرطبة ، كان على هدى وسنة ، مجانبا لأهل البدع ، حافظاً مجوداً للقرآن وقتل شهيداً بجبل قنليش ، عام ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م .

(٣) عبيد اللّه بن يحيى بن يحيى ، يكنى أبا مروان ، وسبق أن ترجمنا لأبيه يحيى بن يحيى الليثى ، فى الباب الرابع ، الهامش رقم ٢٩ ، وكان عبيد اللّه كأبيه ، رحل إلى المشرق حاجاً وتاجراً وطالباً ، وسمع ببغداد ومصر ، وكان واسع المال ، عظيم الجاه ، مشاوراً فى الأحكام .

عبد الرحمن الأنصارى ، عن حفص بن عاصم ، عن أبى هريرة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لاظل إلاّ ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله . ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وإنّى أذكر أنى دُعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته ، وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولا مكروه ، فسارعت إليه ، وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح ، وأخذت زيى طرقنى فكر ، فسنحت لى أبيات ، ومعى رجل من إخوانى فقال لى : ما هذا الإطراق ؟ فلم أجبه حتى أكملتها ، ثم كتبتها ودفعتها إليه ، وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت . ومن الأبيات :

أراقُــــكَ حُسْنٌ غَيْبُهُ لكَ تــأْريق
وتبـريدُ وصــلٍ ســِرُّهُ فيك تَحْريقُ
وقُرْبُ مــــزارٍ يقتضِى لك فُــرْقَةً
وَشيكــاً ولولا القربُ لم يَكُ تَفْريق

ولـــذّةُ طَعْمٍ مُعْقبٍ لك علقمـــــاً

وصاباً وفَسْحٌ فى تضاعيفه ضيق

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار ، وإتعاب الأبدان ، وإجهاد الطاقة ، واستناد الواسع ، واستفراغ القوة فى شكر الخالق ، الذى ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها ، وامتن علينا بالعقل الذى به عرفناه ، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا التدبير الذى لو ملكنا خلقنا لم نهتد إليه ، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضلنا على أكثر المخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ، ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبة لهم ، وقال الله تعالى : « جزاءً بما كانوا يَعْمَلون »[1] . ورشدنا إلى سبيلها ، وأبصرنا وجه ظلها ، وجعل غاية إحسانه إلينا ، وامتنانه علينا ، حقاً من حقوقنا قبله ، ودينا لازماً له ، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التى رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيّفه الألباب ، ومن عرف ربه ، ومقدار رضاه وسخطه ، هانت عنده اللذات الذاهبة ، والحطام الفانى ، فكيف وقد أتى من وعيـــده ما تقشعر لســـماعه

(١) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا من عذابه مالم ينته إليه أمل ، فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ، وما الرغبة فى لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفنى التباعة منها ، ولا يزول الخزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمادى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى الجنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط فى هذا المكان لهو الضلال المبين ، وفى ذلك أقول :

أقْصَرَ عن لَهْوِهِ وعن طَرَبِهْ
وعفّ فى حبِّه وفى عُرُبِهْ

فليس شُرْبُ المُدام هِمّتَهُ
ولا اقتناصُ الظباءِ مِن أربِهْ

قد آنَ للقلبِ أنْ يُفيقَ وأنْ
يُزيلَ ما قدْ عَلاهُ مِن حُجُبِهْ

ألهاهُ عمَّا عَهِدتُ يُعجِبُهُ
خيفَةُ يَوْمٍ تُبْلَى السرائرُ بِهْ

يا نفسُ جدّى وشمِّرِى ودعِى
عنكِ اتباعَ الهوَى على لَغَبِهْ

وسارِعِى فِى النجاةِ واجْتهدِى
ساعيَةً فِى الخلاصِ مِن كُرَبِهْ

علِّيَ أحظَى بالفوزِ فيه وأنْ
أنْجوَ مِن ضيقهِ ومن لَهبهْ

يَأيُّهاَ اللاعبُ المجدُّ بهِ الـ
ـدهرُ أمَا تتَّقِي شبَا نُكَبهْ

كفاكَ مِن كلِّ ماوُعِظْتَ بهِ
ما قدْ أراكَ الزمانُ مِن عَجبِهْ

دَعْ عنكَ داراً تفنَى غَضارتُها
ومكْسَباً لاعِباً بِمكْتسَبِهْ

لم يَضْطَرِبْ فى محلِّها أحدٌ
إلاّ نَباَ حدُّهاَ بِمضْطَربهْ

مَنْ عرفَ اللّهَ حقَّ معرفةٍ
لوى وحلَّ الفؤادُ فى رَهَبِهْ

ما مُنْقضِى المُلْكِ مثلُ خالدِهِ
ولا صحيحُ التقَى كمُؤْتَشِبِهْ

ولا تَقىُّ الورَى كفاسِقِهِمْ
وليسَ صدقُ الكلامِ من كَذِبِهْ

فلو أمِنَّا مِن العِقابَ ولم
نخشَ مِنَ اللّهِ مُتَّقَى غَضَبِهْ

ولم نخفْ نـــارَهُ التـــى خُلِقتْ

لكل جـــانِي الكـــلامِ مُحْتقِبهْ

لكـــانَ فرْضاً لـــزومُ طـــاعتِه

وردُّ وَفْدِ الهـــوَى علَى عَقِـــبِه

وصحَّةُ الزهْدِ فـــى البقـــاءِ وأنْ

يَلْحـــقَ تفنيـــدُنا بِمُـــرْتقِبِهْ

فقد رَأيْنـــاَ فِعْلَ الزمـــانِ بأهْــ

ليه كفِعْلِ الشـــواظِ فى حَطَبِهْ

كم مُتْعبٍ فى الإلـــه مُهْجتَـــهُ

راحتُهُ فى الكـــريهِ من تَعَبِهْ

وطالبٍ باجتهـــادِهِ زهْـــرةَ الــ

ـدنيا عـــداهُ المَنونُ عن طَلَبِهْ

ومُدْركٍ مـا ابتغـــاهُ ذِى جَـــذَلٍ

حـلَّ بهِ ما يخـــافُ من سَبَبِهْ

وبـــاحثٍ جـــاهدٍ لِبُغْيتِـــه

فـــإنَّما بحثُهُ علـــى عَطَبِـــهْ

بَيْناَ ترَى المـــرءَ سـامياً مَلِكـــاً

صـارَ إلى السُّفْلِ مِن ذُرَى رُتَبِهْ

كالزَّرْعِ للرجْلِ فوقَهُ عملٌ

إنْ يَنْمُ حُسْنَ النُّمُوِّ فى قَصَبِهْ

كم قاطعٍ نفسَهُ أسىً وشجاً

فى إثْرِ جَدَّ يَجِدُّ فى هَرَبِهْ

أليس فى ذاك زاجِرٌ عَجَبٌ

يزيدُ ذا اللبِّ فى حُلَى أدَبِهْ

فكيف والنارُ للمسىءِ إذا

عاجَ عن المستقيمِ مِن عَقِبِهْ

ويومَ عَرْضِ الحسابِ يَفْضَحُه الـ

ـلَّهُ ويُبدِى الخفىَّ مِن رِيَبِهْ

من قد حباهُ الإلهُ رحمَتَهُ

موصولةٌ بالمزيدِ من نَشَبِهْ

فصار مِن جهلِهِ يصرِّفُها

فيما نهىَ اللّهُ عنه فى كُتُبِهْ

أليس هذا أحرَى العبادِ غداً

بالوقع فى وَيْلِهِ وفى حَرَبِهْ

شكراً لربٍّ لطيفُ قُدْرته

فينا كَحبْلِ الوريدِ فى كَثَبِهْ

رازِقِ أهـــلِ الزمـــانِ أجمعِهِـمْ

مَن كـــان مِن عُجْمِـهِ ومنْ عُرُبِهْ

والحَمْـــــدُ للّـــهِ فـــى تَفضُّـــلهِ

وقَمْعِهِ للزمـــانِ فى نُـــوبِهْ

اخْدَمنَـــا الأرضَ والســـماءَ ومَنْ

فـى الجوِّ من مـــائِهِ ومِن شُهُبِهْ

فاسَمَـعْ ودَعْ مَن عصـــاهُ ناحيـةً

لاَ يحْمِلُ الحِمْلَ غيـرُ مُحْتطبِهْ

وأقول أيضاً :

أعـــارتكَ دنيـــا مُسْتَردٌّ مُعـــارُها

غضارةَ عيشٍ سوف يذوِى اخْضِرارُها

وهل يتمنَّى المحْكمُ الـــرأىِ عيشةً

وقد حان مِن دَهْم المنايا مزَارُها

وكيف تـــلذُّ العيـنُ هجعةَ ســـاعةٍ

وقد طـالَ فيما عَايَنَتْهُ اعتبارها

وكيف تَقَرُّ النفــــسُ فى دارِ نَقْلةٍ

قد استَيْقَنَتْ أنْ ليس فيها قرارها

وأنَّى لها فى الأرض خـاطِرُ فكْرةٍ

ولم تدْرِ بعد المـــوتِ أين مَحَارُها

أليس لها في السعْيِ للفوزِ شاغلٌ
أمَا فِي توقيها العذابَ ازدِجارُها
فخابت نفوسٌ قادها لهْو ساعةٍ
إلى حَرِّ نارٍ ليسَ يُطْفَى أوارها
لها سائقٌ حادٍ حثيثٌ مبادرٌ
إلى غيرِ ما أضحَى إليهِ مدارُها
تُرادُ لأمْرٍ وهيَ تطلب غيرَهُ
وتقصدُ وجْهاً في سواهُ سِفارها
أمسرعةٌ فيما يسوءُ قيامَهَا
وقد أيقَنَتْ أنَّ العذابَ قُصارها
تُعَطِّلُ مَفروضاً وتَغْنَى بفضْلةٍ
لقد شفَّها طُغيانُها واغترارُها
إلى ما لَهاَ مِنْهُ البلاءُ سكُونُها
وعمَّا لهاَ منه النجاحُ نِفارُها
وتُعرِضُ عن ربٍّ دعاها لرشدِها
وتَتْبَعُ دنيا جَدَّ عنها فِرارها
فيا أيُّها المغرورُ بادرْ برجعةٍ
فللّهِ دارٌ ليسَ تخمُدُ نارها

ولا تتخيـــر فانيــاً دونَ خـــالدٍ

دليلٌ على محضِ العقولِ اختيارُها

أتعـلمُ أنّ الحقّ فيمــا تـــركتَه

وتسـلكُ سُبْلاً ليسَ يخفَى عُوَارُها

وتتــركُ بيضـــاءَ المنـــاهجِ ضَلّةً

لبهمــاءَ يُؤذِي الرِجْلَ فيهـا عثـــارُها

تَســـرُّ بلهــــوٍ مُعْقِبٍ بنــــدامةٍ

إذا ما انقضَى لا ينقضي مُسْتَارها

وتَفْنى الليـــالِي والمســرّاتُ كلُّها

وتبقَى تِبــاعاتُ الذنــــوبِ وعارها

فهـــل أنت يامغبونُ مستيقظٌ فقدْ

تبيَّن من سرِّ الخطـــوبِ اسـتتارُها

فعجِّلْ إلى رضـوانِ ربِّكَ واجتنـبْ

نواهيــــهُ إذ قــدْ تجلَّى منـــارهـــا

يُجِدُّ مرورَ الدهــــرِ عنك بــــلاعبٍ

وتُغْرَى بدنيـــا ســـاء فيـك سِرارهـا

فكم أمّةٍ قد غــــرَّها الدهـــرُ قبلنا

وهاتيــــكَ منـــها مقفــراتٌ ديارهـــا

تذكَّرْ على ما قد مضـى واعتبر بهِ
فإنَّ المذَكّي للعقـــولِ اعتبــارهـا

تحامىَ ذُراهـــا كلُّ باغٍ وطـــالبٍ
وكان ضماناً فى الأعادِى انتصارُها

توافتْ ببطنِ الأرضِ وانشتَّ شملُها
وعادَ إلى ذى ملْكَةٍ إســـتعارها

وكم راقـــدٍ فى غفلةٍ عـــن منيـــةٍ
مُشمِّرةٍ فى القصدِ وهو سعارها

ومَظلَمـــةٍ قدنالهـــا مُتســـلِّطٌ
مُدِلٌّ بأيْدٍ عند ذى العرْشِ ثارها

أراكَ إذا حــــاولتَ دنياك ســاعياً
على أنَّها بـــادٍ إليكَ ازْوِرارها

وفى طاعةِ الرحمنِ يُقْعدك الـــونَى
وتُبدىِ أنــاةً لا يصحُّ اعتذارها

تُحاذرُ إخوانـــاً ستفنَى وتَنْقضى
وتَنْسَى التى فَرضٌ عليك حِذارها

كأنىٌ أرَى منـــك التبرُّمَ ظـــاهراً
مُبِيناً إذا الأقدارُ حلَّ اضطرارها

هناك يقول المـــرءُ من لي بأعْصُرٍ

مضتْ كان مِلْكا في يديَّ خِيارها

تَنَبَّـــهْ ليـــومٍ قـــــد أظلَّك وِردُهُ

عصيبٍ يُوافي النفسَ فيها احتضارها

تبرَّأ فيهِ منـــــــك كلُّ مُخـــالِطٍ

وإنَّ مِن الآمــــــالِ فيهِ انهيارُها

فأودِعْتَ في ظلمـــاءَ ضَنْكٍ مَقَرُّها

يلوحُ عليهـــا للعيـونِ اغْبِرارها

تُنادَى فلا تدري المنادىَ مُفْـــرداً

وقد حُطَّ عن وجهِ الحياةِ خِمارها

تُنـــادَى إلى يـــومٍ شـــديدٍ مُفَزَّعٍ

وساعةِ حَشْرٍ ليس يَخفَى اشتهارها

إذا حُشِـــرَتْ فيه الوحوشُ وجُمِّعَتْ

صحائفُنا وانثالَ فينـــا انتثارها

وَزُيِّنتْ الجنّـــاتُ فيـــه وأُزْلِفَتْ

وأُذْكيَ من نارِ الجحيمِ استعارها

وكُوِّرتِ الشمسُ المنيـــرةُ بالضحى

وأسرَعَ من زُهْرِ النجومِ انكِدارها

لقد جلَّ أمرٌ كـــــان منه انتظامُها

وقد حــــلّ أمرٌ كان منه انتثارها

وســــيِّرتِ الأجبال والأرضُ بُدِّلتْ

وقد عُطِّلَتْ من مالكيها عِشارها

فإمّا لدارٍ ليس يفنىَ نعيمهــــا

وإمّا لـــــدارٍ لا يُفَكُّ إســـارُها

بحضـــرةِ جبّارٍ رفيقٍ مُعـــــاقبٍ

فَتُحْصىَ المعاصِي كُبْرُها وصِغارها

ويندمُ يومَ البعثِ جانِي صِغـــارِها

وتُهْلِكُ أهلِيهـــا هنـــاكَ كِبـــارها

ستُغْبَطُ أجســـادٌ وتحيا نفوسُها

إذا مـــا استوَى إسرارُها وجِهارها

إذا حفّهمْ عفـــوُ الإلــــهِ وفَضْله

وأســـكنَهمُ داراً حـــــلالاً عُقارها

سيلحقُهُمْ أهلُ الفُسوقِ إذا استوَى

بحَلْبَةِ سَبْقٍ طرفُهـــا وحمِـــارها

يَقُرُّ بنو الدنيـا بدنيـــاهُمُ التى

يُظَنُّ على أهلِ الحظـــوظِ اقتصارها

هى الأمُّ خير البِّر فيهـــا عُقوقُها

وليس بغيرِ البـذْلِ يُحْمَى ذِمارها

فما نال منهـــا الحظَّ إلا مُهِينُها

وما الهُلْكُ إلاّ قُرْبُها واعتمـارها

تهافتَ فيها طامعٌ بعد طـــامعٍ

وقـــد بان للُّبِّ الذكيِّ اختبارها

تَطامنْ لِغَمْرِ الحـــادثاتِ ولا تَكُنْ

لها ذا اعتمـارٍ يَجْتنيكَ غِمارها

وإيَّاكَ أن تغترَّ منهـــا بما ترَى

فقد صحَّ فى العقلِ الجلىِّ عيارها

رأيـتُ ملوكَ الأرضِ يبغــون عُدَّةً

ولذَّةَ نفسٍ يسْـتطاب اجترارها

وخَلَّوْا طريقَ القصْـدِ فى مبتغاهُمُ

لمتَّبِعِهِ الصِفَــارُ جَمّ صِغـارها

وإنَّ التـى يَبْغــون نَهْجَ بقيَّـــةٍ

مكينٌ لطلاَّب الخلاص اختصارها

هل العـزُّ إلاّ هِمـّةٌ صحَّ صونُهـا

إذا صان هِمَّاتِ الرجالِ انكسارُها

وهــــل رابــحٌ إلاّ امــــرؤ متوكِّلٌ

قنوعٌ غنيُّ النَفْـسِ بادٍ وقارُها

ويلقىَ ولاةُ الملكِ خَوْفاً وفـــكرةً

تَضيق بها ذرْعاً ويفنىَ اصطبارها

عِياناً نرى هذا ولكنَّ ســـكْرةً

أحاطتْ بنا ما إنْ يَفيق خُمارها

تدبَّرْ مَن البانِي على الأرضِ سقْفَهَا

وفى علمِه مَعْمورُهــا وقفـارها

ومَنْ يُمْسكُ الأجرامَ والأرضَ أمْرهُ

بـــلا عَمـدٍ يُبْنى عليه قرارها

ومن قدَّرَ التـــدبيرَ فيهــا بحكمةٍ

فصحَّ لديْهـــا ليلُها ونهــارها

ومن فَتَقَ الأمـواهَ فى صفْح وجهِها

فمنها يُغذَّى حبُّها وثمـــارها

ومن صيَّر الألوانَ فى نَوْر نَبْتِهـــا

فأشــــرقَ فيها وردُها وبَهَارها

فمنهنَّ مُخْضرٌّ يـــروقُ بَصيصـــه

ومنهنَّ ما يغشَى اللحاظَ احمرارها

ومن حَفَــر الأنهــارَ دون تكلُّفٍ

فثارَ من الصُمِّ الصلابِ انفجارها

ومن رتَّبَ الشمسَ المنيرَ ابيضاضُها

غُدُوًّا ويبدو بالعشــيِّ اصفرارها

ومن خلَقَ الأفلاكَ فــامتدَّ جــريُها

وأحْكمهــا حتى استقام مَدارها

ومــنَ إنْ ألمَّــتْ بالعقــول رَزِيَّةٌ

فليس إلى حيٍّ سواه افتقارها

تَجِدْ كَل هذا راجعٌ نحــو خــالقٍ

له ملْكُهــا مُنقــادةٌ وائتمارها

أبانَ لنا الآيــاتِ فــى أنبيــائه

فأمكنَ بِعد العجزِ فيها اقتدارها

فأنطقَ أفــواهاً بألفــاظِ حكْمةٍ

ومــا حلُّها إثْغــارُها واتغارها

وأبرزَ مِن صُمِّ الحجــارةِ نــاقةً

وأسمعَهُمْ فى الحينِ منها حوارِها

ليُـــوقنَ أقـــوامٌ وتَكفُرَ عصْبَةٌ

أتاها بأسبابِ الهلاكِ قُدارها [1]

وشقَّ لموسى البحـرَ دون تكـلُّفٍ

وبانَ مِن الأمواج فيه انحسارها

وسلَّمَ مِن نارِ الأتون خَليلهُ

فلم يؤْذِهِ إحــراقُها واعتِرارها

ونَجّى من الطوفان نوحاً وقد هَدَتْ

به أمَّةٌ أبـدَى الفسوقَ شرارها

ومكّنَ داودأ بـــأيْدٍ وابنَـــهُ

فتعسيرُهـــا مُلْقىً لهُ ويدارُها

وذلَّلَ جبَّـارَ البـلادِ لأمــرِه

وعلَّمَ مِن طَيْرِ السماءِ حوارها

وفضَّلَ بالقـــرآنِ أمَّةَ أحْمــدٍ

ومكَّنَ فى أقصىَ البلادِ مُغارها

وشقَّ له بـــدْرَ السـماءِ وخصّهُ

بآيـــاتِ حقٍّ لا يَخُلُّ مُعارها

(١) قدار بن سالف ، أحمر ثمود ، عاقر الناقة ، وقد أشار القرآن إلى قصتها ، وبسطت القول فيها كتب التفسير .

وأنقــــذنا من كُفْرِ أربـــابِنا بــه

وكان على قُطْبِ الهلاكِ منارها

فما بالُنا لا نتــرك الجهــلَ ونَحْنا

لنســلَم مِن نارٍ ترامىَ شرارُها

خـــاتمة (١)

هنا أعزك الله انتهى ما تذكرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند أمرك .

ولم أمتنع أن أورد لك فى هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء ويكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها ، ومفردات فى أبوابها ، ومنعمات التفسير ، مثل الإفراط فى صفة النحول ، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار ، وعدم النوم ألبتة ، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنّها أشياء لا حقيقة لها ، وكذب لا وجه له ، ولكل شىء حد ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، والنحول قد يعظم ولو صار حيث يصفونه لكان فى قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالى ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطعام لأن النوم غذاء الروح ، والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان فى كليهما ولكنّا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت أن ميسوراً البنّاء ، جارنا بقرطبة ، يصبر عن الماء أسبوعين فى حمّارة القيظ ، ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة .

---

(١) العنوان ليس في الأصل ، ورأيت إضافته تزيد الأمر وضوحاً .

وحدثنى القاضى أبو عبد الرحمن بن جحّاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصرت في رسالتى على الحقائق المعلومة ، التى لا يمكن وجود سواها أصلا ، وعلى أنى قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها ، لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم .

وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم فى هذه الرسالة ، مكنياً فيها عن أسمائهم على ما شرطنا فى ابتدائها .

وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ، ويحصيه الرقيبان ، من هذا وشبهه ، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله . ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفوّ ، وإلاّ فليس من السيئات والفواحش التى يتوقع عليها العذاب . وعلى كل حال فليس من الكبائر التى ورد النص فيها .

وأنا أعلم أنه سينكر علىّ بعض المتعصبين علىّ تأليفى لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أُحلّ لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته ، قال الله عز وجل « يا أيُّها الذينَ آمنوا اجْتَنِبوُا كثيراً مِن الظنّ إنّ بعضَ الظنّ إثْم »[1] .

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

وحدثنى أحمد بن محمد بن الجسور ، حدّثنا ابن أبى دَليم ، حدّثنا ابن وضّاح ، عن يحيى بن يحيى ، عن مالك بن أبى أنس ، عن أبى الزبير المكى، عن أبى شريح الكعبى ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والظن فإنه أكذب الكذب » .

وبه إلى مالك ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

وحدثنى صاحبى أبو بكر محمد بن إسحاق ، حدّثنا عبد الله بن يوسف الأزدى ، حدّثنا يحيى بن عائذ ، حدّثنا أبو عدى عبد العزيز ابن على بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر ، حدّثنا أبو على الحسن بن قاسم بن دُحيم المصرى ، حدّثنا محمد بن زكريا العلائى ، حدّثنا أبو العباس ، حدّثنا أبو بكر ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشرة كلمة من الحكمة ، منها : ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك على ما يغلبك عليه .

ولا تظن بكلمة خرجت من فى امرىء مسلم شراً ، وأنت تجد لها فى الخير محملا ، فهذا أعزك الله أدب الله ، وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدب أمير المؤمنين ، وبالجملة فإنى لا أقول بالمراياة ، ولا أنسك نسكاً أعجمياً . ومن أدّى الفرائض المأمور بها ، واجتنب

المحارم المنهيّ عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس ، فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك ، وحسبى الله .

والكلام فى مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع ، وفراغ القلب ، وإن حفظ شىء ، وبقاء رسم ، وتذكّر فائت لمثل خاطرى ، لعجب على ما مضى ودهمنى . فأنت تعلم أن ذهنى متقلب ، وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان ، وتغيّر الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغيّر الإخوان ، وفساد الأحوال ، وتبدّل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة في البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ، ونعمه التى غمرتنا لا تحد ، ولا يؤدى شكرها ، والكلُّ منَحهُ وعطاياه . ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى معيرها ، وله الحمد أولاً وآخراً ، وعوداً وبدءا ، وأنا أقول :

جعلتُ اليأسَ لى حِصْناً ودِرْعاً	فلم ألبسْ ثِيابَ المستضام
وأكثرُ مِن جميعِ الناسِ عندِى	يسيرٌ صاننى دُون الأنام

إذا ما صحَّ لِى دينى وعِرْضى | فلستُ لما تولَّى ذا اهتمــام
تولَّى الأمسُ والغدُ لستُ أدرِى | أأدْرِكُهُ ففيما ذا اغتمــــام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين ، الحامدين الذاكرين ، آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً .

كملت الرسالة ، المعروفة بطوق الحمامة ، لأبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم رضى الله عنه ، بعد حذف أكثر أشعارها ، وإبقاء العيون منها ، تحسيناً لها ، وإظهاراً لمحاسنها ، وتصغيراً لحجمها ، وتسهيلاً لوجدان المعانى الغريبة من لفظها ، بحمد الله تعالى وعونه ، وحسن توفيقه . وفرغ من نسخها مستهل رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (= ١٣٣٨ م) ، والحمد لله رب العـــالمين .

● ملحق

ابن حزم يبكى ديارهم فى قرطبة

● نص المرثية كما أورده ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الأعلام ، فى من بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام » ، ونشره ليفى بروفنسال بعنوان : « تاريخ إسبانيا الإسلامية » الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ويشغل النص الصفحات ١٠٦ - ١٠٨ .

قال :

« وممن رثى قرطبة أيضا من وجوه أهلها ، وأرباب النِّعم الموثَّلة بها ، وأكثر التفجّع على دياره منها ، لما استولى الخرابُ عليها عند فرار البرابر عنها ، الفقيه الأديب أبو محمدٍ علىُّ بنُ أحمد بن سعيد بن حزم ، ابن وزير آل عامر الأكبر ، فإنى وجدت بخطّه فى خبر ذكره قال :

« وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض

الغربية ، ومنازلِ البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد محت رسومُها ، وطمست أعلامُها ، وخفيتْ معاهدُها ، وغيّرها البلى، فصارتْ صحاريَ مجدبةً بعد العمران ، وفيافي موحشةً بعد الأنس ، وآكاماً مشوّهة بعد الحسن ، وخرائب مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، وملاعب للجان ، ومغانيَ للغيلان ، ومكامن للوحوش ، ومخابيَ للصوص ، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالليوث ، تفيض لديهم النعم الفاشية وتغصُّ منهم بكثرة القطين الحاشيةُ ، وتُكنِّسُ في مقاصيرهم ظباء الأنس الفاتنة ، تحت زِبْرِجٍ من غضارة الدنيا تذكّر نعيم الآخرة ، حال الدهر عليهم بعد طول النضرة ، فبدّد شملهم حتى ساروا في البلاد أيادي سَبا ، تنطق عنهم الموعظة .

فكأنّ تلك المحاريبَ المنمّقة ، والمقاصيرَ الموشّقة ، التي كانت في تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة ، يقيّد حسنُها الأبصارَ ، ويجلي منظَرُها الهموم ، كأنْ لم تغن بالأمس ، ولا حلّها سادةُ الأنس: قد عبث بها الخرابُ ، وعمّها الهدم ، فأصبحتْ أوحشَ من أفواهِ السباعِ فاغرةً ، تؤذّن بفناء الدنيا ، وتريك عواقبَ أهلها ، وتخبركَ عما يصير إليه كل ما قد بقي ماثلاً فيها وتُزهّدك فيها .

وكررتُ النظر ، ورددتُ البصر ، وكدتُ أستطارُ حزناً عليها ،

---

(١) انظر ص ١٢٦ من هذا الكتاب ، وقارنه بما ورد هنا .

وتذكرتُ أيام نشأتى فيها ، وصبابة لداتى بها ، مع كواعبَ غيدٍ ، إلى مثلهن يصبو الحليم ، ومثّلتُ لنفسى انطواءهنّ بالفناء ، وكونهن تحت الثرى ، إثْر تقطّع جمعنا بالتفرق والجلاء فى الآفاق النائية ، والنواحى البعيدة ، وصدّقت نفسى عن فناء تلك القصبة ، وانصداع تلك البيضة ، بعد ما عهدته من حسنها ونضارتها وزِبْرجِها وغضارتها ، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة ، والمرتبة الرفيعة ، التى رفلتُ فى حللها ناشئاً فيها ، وأرعيتُ سمعى صوتَ الصدى ، والبومَ زاقياً بها ، بعد حركات تلك المنصدعة بعرصاتها ، التى كان ليلها تبعا لنهارها ، وفى انتشارها بسكانها ، والتقاء عُمّارها ، فعاد نهارها تبعا لليلها فى الهدوء والاستيحاش ، والخفوت والإخفاش ، فأبكى عينى على جمودها ، وقرع كبدى على صلابتها ، وهــاج بلابلى على تكاثرها ، وحرّكنى للقول على نبوّ طبعى ، فقلت :

(الطويل)

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنــــا وغودرتْ

خلاءً من الأهلين موحشةً قَفْرَا

تــراها كأنْ لم تغنَ بالأمس بلْقَعاً

ولا عمرتْ من أهلها قبلنا دَهْرا

فيــادارُ لم يُفْرِقكِ منّا اختيــارُنا

ولو أنّنا نختــــار كنتِ لنا قبْرا

ولكنّ أقــداراً من اللّــه أنفــدتْ

تدمّرنـــا طوعاً لما حلّ أو قهْرا

ويا خيــر دارٍ قد تُركتِ حميــدةً

سقتْكِ الغوادى ما أجلّ وما أسْرَا

ويا مُجْتَلَىً تلك البســـاتين حفّها

ريــاضٌ قواريرٌ غدتْ بعدنا غبْرا

ويا دهــرُ بلّغْ ســاكنيها تحيّتي

ولو ساكنوا المروَيْنِ أو جاوزوا النهرا

فصبراً لسطو الدهـرِ فيهم وحكْمِهِ

وإن كان طَعْمُ الصبرِ مستثقلا مُرّاً

لئن كان أظمانا فقد طال ما سَقَى

وإنْ ســاءنا فيها فقد طالما سرّاً

وأيتها الــدارُ الحبيبـــة لا يَرُم

ربوعك جو المزْنِ يهمى بها القطرا

كأنك لم يســكُنْك غيدُ أوانــسٌ

وصيدُ رجالٍ أشبهوا الأنجم الزهْرا

تفـانَوْا وبانوا واسـتمرّتْ نواهُمُ

لمثلهم أســكبت مقلتى العبرا

سنصبرُ بعد اليُسْر للعسرِ طـاعةً

لعلّ جميلَ الصبرِ يُعقبنا يُسْرا

وإنىّ ولو عـادتْ وعُـدْنا لِعَهْدنا

فكيف بِمَنْ مِن هلها سكن القبرا

ويا دهـرَنا فيها متى أنت عـائدٌ

فنحمدُ منك العودَ إن عُدْتَ والكرّا

فيا ربَّ يـومٍ فى ذراهـا وليلةٍ

وصلنًا هناك الشمسَ باللهوِ والبدرا

فواجسمىَ المضنّى وواقلبىَ المغرى

ووانَفْـسِىَ الثكلى وواكبدى الحرّا

وياهَمُّ ما أعدى ويا شجو ما أبرا

ويا وَجْدُ ما أشجى ويا بَيْنُ ما أفْرا

ويا دهرُ لا تبعُدْ ويا عهدُ لا تُحـلْ

ويا دمـعُ لا تجمَدْ ويا سقم لا تبرا

سأندبُ ذاك العَهْدَ ما قامتْ الخضرا

على الناس سقفًا واستقلتْ بنا الغبرا

فهرس الكتاب

صفحة

رقم الإيداع : ٣٤٩٢ / ١٩٩٢
I . S . B . N
977 - 07 - 0766 - 7

روايات الهلال تقدم :

هاتف المغيب

بقلم

جمال الغيطانى

تصدر : ١٥ مايو ١٩٩٢

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

هـذا الـكـتـاب

مع إطلالة نسمات الربيع الرقيقة تتفتح الأزهار ، وتتلألأ الطبيعة بصفائها ، وتتهيأ النفوس للاستمتاع بالقراءة ، وما أجمل القراءة فى كتب التراث التى تسجل لنا عالماً حسياً نابضاً بتجارب الأمم ...

وكتاب «طوق الحمامة» من المخطوطات النادرة التى ظلت مجهولة قرابة مائة وخمسة وسبعين عاما ..

وهو كتاب نادر وخلق أدبى رفيع يحمل فى طياته ثقافة علمية أصيلة ، وهو فى كل صفحة ، ووراء كل خبر ، يثير عددا من القضايا المهمة والخطيرة .

والكتاب سيرة ذاتية يحكى لنا الجانب العاطفى من حياة «ابن حزم» ويصور لنا الحياة العاطفية لعدد من معاصريه ورفاقه ممن شغلوا مناصب رفيعة في الإدارة والقضاء والجيش على أيامه.

و «طوق الحمامة» أروع كتاب درس الحب في العصر الوسيط فى الشرق والغرب ، وأنسب كتاب للقراءة والاستمتاع فى فصل الربيع .

ولما كانت الطبعة التى تقدمها دار الهلال تستهدف القارئ المتذوق من كل طبقات المجتمع ، والحديث عن الحب لذيذ وممتع للفتى والفتاة ، ولمن امتدت به السنون من الرجال والنساء ، فقد خففنا كثيراً من هوامش الكتاب التى تعنى الباحثين وحدهم .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢١ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٢٠ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N


ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES



ستيفن هوكنج
العبقرى و الكون

تأليف
جون بوزلو
ترجمة
د. مصطفى إبراهيم فهمى





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO-498-ju- 1992
العدد ٤٩٨ ذو الحجة - يونية ١٩٩٢
FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع فئة ٢٠٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة ، لبنان ٢٢٠٠ ليرة ، الأردن ١٦٠٠ فلس ، الكويت ١٠٠٠ فلس ، السعودية ١٢ ريال ، تونس ٢ دينار ، المغرب ٢٥ درهما ، البحرين ١٫٢٠٠ دينار ، الدوحة ١٢ ريال ، دبى / ابو ظبى ١٢ درهم ، مسقط ١٢٠٠ بيسه ، غزة والضفة والقدس ٢ دولار ، لندن ١٫٥٠ جك ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريال .

العبقرى والكون

(الكون عند ستيفن هوكنج)

تعريف بأشهر عالم فى زماننا

تأليف

جون بوزلو

ترجمة

د . مصطفى إبراهيم فهمى

●

دار الهلال

الغلاف تصميم الفنان :

محمـــد أبو طــــالب

مقدمة المترجم

يدور هذا الكتاب حول واحد من أبرز علماء الرياضة والفيزياء النظرية فى النصف الثانى من القرن العشرين ، هذا إن لم يكن أبرزهم ، وهذا العالم هو ستيفن هوكنج استاذ الرياضيات بكمبردج فى انجلترا .

وقد سبق لى أن ترجمت مؤلفا لهوكنج نفسه هو « تاريخ موجز للزمان » - دار الثقافة الجديدة ، القاهرة - حيث يعرض هوكنج نظرياته وآراءه هو نفسه . على أنى قد وجدت أن كتاب « كون ستيفن هوكنج » لجون بوزلو هو كتاب يعد مكملا ومتكاملا مع كتاب هوكنج نفسه ، والكتاب من تأليف الكاتب العلمى الأمريكى المشهور جون بوزلو ، وقد كتبه بناء على اتصاله مباشرة مع هوكنج لسنوات عديدة ، بل إنه لم ينشره إلا بعد أن عرض عليه مخطوطته ووافق عليها ، وقد ثابر بوزلو على أن يلتقى مع هوكنج لقاءات حميمة كانت تتواصل أحيانا خلال شهور عديدة ، وتدور فيها أحاديث وحوارات ممتعة ، وكانت محصلة ذلك هى هذا الكتاب الذى يعرض لتاريخ حياة هوكنج ، ونشاطه وتفكيره العلمى منذ كان طالبا

وصراعـه الرهيب ضد مرض يصـيب الأعصاب والعضـلات بالضمور ، وهو صراع انتهى ببقائه حيا ضد المتوقع ، وإن كان قد ظل دائما مقعدا فى كرسى ذى عجلات ، ولكن إقعاد بدنه هذا لم يعق ذهنه الجبار عن الاستمرار فى التفكير الخلاق فى شتى المشاكل الفيزيائية والرياضية فى النظريات التى تدور حول الكون بمجراته وأجرامه السحيقة ، وذراته وجسيماته الدقيقة ، وكيف ينشأ الكون وكيف ينتهى ، بحيث يكاد المرء يعتقد أن هوكنج بمرضه الجسدى هذا قد تحول كيانه إلى مخ صرف ، وهذا فإن هوكنج رغم مرضه تزوج وأنجب ونال درجة الدكتوراه وزمالة الجمعية الملكية ثم كرسى الأستاذية الذى كان يشغله نيوتن نفسه .

وهو أثناء هذا كله ينبثق عنه فيض من نظريات جديدة ومجددة اهتز لها علماء العالم كله ، مثل نظرياته عن إثبات وجود الثقوب السوداء بفعل تقلص النجوم والمجرات ، وعن إثبات نشأة الكون بمفردة الانفجار الكبير . كذلك اسهاماته فى نظرية نشأة الكون كفقاعة . ونظريته عن المبدأ الإنسانى الذى يقول أن الكون هو ما هو عليه لأننا موجودون فيه ، ويبين الكتاب أيضا بعض مالاقاه هوكنج من معارضة كانت تصل أحيانا إلى حد التعنت ، قبل أن يقر الجميع فى النهاية بصحة معظم آرائه ، وكل هذا يُعرض

بأسلوب ممتع جلى يجعل القارئ يحس فى النهاية أن تعبيرات علمية مثل الانفجار الكبير والمفردة هى بمثابة تعبيرات روتينية .

ثم هناك ذلك التطلع فى لهفة إلى ظهور نظرية كبرى موحدة تفسر كل الفيزياء والكون ، وهذا هو حلم كل علماء الفيزياء ، وقد انفق اينشتين عشرات السنين الأخيرة من حياته وراء هذه النظرية دون أن يصل إليها ، وفى ملحق الكتاب نص محاضرة هوكنج فى حفل تنصيبه أستاذا بجامعة كمبردج حيث يذكر خلاصة آرائه عن هذه النظرية الموحدة . ترى هل يمكن وجود مثل هذه النظرية الموحدة الكبرى ؟ ربما نجد الإجابة عن ذلك بعد قراءة الكتاب .

وأخيراً لا يفوتنى هنا أن أقدم شكرى للدكتور عبد العظيم أنيس الذى كان له فضل إهداء هذا الكتاب لى .

المترجم

د . مصطفى إبراهيم فهمى

تمهيد

ذات صباح من ربيع ١٩٧٤ ، حُـمل شاب يرتدى حلته لأعلى درجات سلم لصرح ذى أعمدة بيضاء يطل على حديقة سانت جيمس فى لندن . كان هذا الشاب يجلس فوق كرسى ذى عجلات داخل مبنى عنوانه ٦ كارلتون هاوس تيراس ، وقد دفع بكرسيه إلى قاعة اجتماع كبيرة ليتلقى تكريما من أعظم ما يكرم به العلماء فى بريطانيا العظمى : وهو اختياره عضوا فى الجمعية الملكية ، وهى هيئة من أشهر الهيئات العلمية فى العالم .

كان ستيفن وليم هوكنج وقتها فى الثانية والثلاثين ، وبذلك فهو واحد من أصغر من تم اختيارهم للعضوية وقد منح له هذا التشريف بسبب ما أنجزه فى الفيزياء النظرية ، وتستدعى المراسم التقليدية التى ترجع إلى القرن السابع عشر ، أن يمشى الزملاء الجدد المنتخبون إلى المنصة ليصافحوا الرئيس ثم يوقعوا فى سجل الشرف . أما فى مراسم هذه الحالة ، فإن سير ألان هودجكن البيولوجى الحائز على جائزة نوبل ورئيس الجمعية ، هو الذى أنزل سجل الشرف من المنصة إلى كرسى ستيفن هوكنج ذى العجلات عند مقدمة القاعة . وبينما أخذ العضو الجديد يجهد فى إثبات

توقيعه كان ثمة صمت ممدود ، وما إن انتهى من التوقيع بابتسامة عريضة ، حتى انفجر التصفيق المدوى .

وقد قابلت هوكنج للمرة الأولى بعد ذلك بسبع سنوات فى ممر خارج قاعة الاجتماع نفسها التى جرت فيها مراسم قبوله للجمعية ، وتم تعارفنا بواسطة روجر بنروز ، وهو عالم رياضة وفيزياء نظرية فى جامعة أوكسفورد ، وبنروز صديق قديم لهوكنج شاركه أبحاثه ، وهو نفسه قد تم قبوله فى الجمعية قبلها بعامين لا غير ، وكان سبب هذا فى جزء منه هو عملهما المشترك .

وقد عانى هوكنج منذ ١٩٦٢ من مرض يؤدى إلى الضمور ويسمى مرض العصبة الحركية . وقد قضى هذا المرض وئيدا على معظم الوظائف العصبية والعضلية عند هوكنج . فهو لا يستطيع المشى ويتكلم بصعوبة بالغة ، وهكذا حذرنى بنروز هو وآخرون من أنى سأجد حالة هوكنج أسوأ مما قد أتوقع .

والحقيقة أنى صعقت . فهاك أمامى واحد من أبرز علماء العالم تقدما ، وقد قبع متدليا فى كرسيه ذى العجلات ، رغم أنه لا يكبرنى فى السن كثيرا ، وقد قدرت وزنه بما لا يزيد عن ١١٠ أرطال (حوالى ٥٠ كجم) ، ولما كان جد نحيل ، فقد كان من المستحيل تقدير طوله ، وإن كان يبدو أنه متوسط الطول - ربما خمسة أقدام وتسع بوصات ، وكان وجهه مفعما بالشباب ، أما جسده فإن بنيانه العضلى وهشاشته ينتميان لما لرجل عجوز ملازم لفراشه .

وعندما انتهى بنروز من اجراءات تعارفنا ، بدأ هوكنج يتكلم بصوت بلغ من انخفاضه أنه كان عليّ أن أنحنى لأسفل حتى أسمعه ، وبدا أنه يناضل حتى يتكلم ، فصوته أنين مجهد مرقم بالشهقات ، ونظرت إلى بنروز مسترشدا . وبسرعة ترجم إلى ما قاله هوكنج : « سوف أراك فى مكتبى الساعة الحادية عشرة من يوم الثلاثاء القادم » .

وسألت بنروز بعدها إذا كان هوكنج قد مر بنهار مجهد فى ذلك اليوم بالذات . فقال أن الأمر على العكس ، وأنه يعتقد أن هوكنج يبدو بوجه خاص فى أحسن حال .

وقد رأيت هوكنج بعدها مرات كثيرة فى كمبردج وفى الولايات المتحدة ، وفى كل مرة كنت أعجب كيف يمكنه القيام بما يقوم به . إنه لم يمش لفترة تزيد على اثنتى عشرة سنة ، وصوته جد ضعيف حتى أنه لا يستطيع فهمه إلا قلائل ممن هم على صلة وثيقة به ، ومع ذلك فإنه قد أنجز بعضا من أهم الخطوات فى الفيزياء النظرية فى جيله ، مغيرا بذلك من الطريقة التى تنظر بها إلى الكون .

وإذ زادت معرفتى بهوكنج ، أصبحت الحقيقة واضحة لى . إن انجازاته لا ترجع إلى مجرد ماله من إرادة للحياة ، ولا إلى حقيقة أنه قد بقى حيا بعد معاناة ، وإن كان من المؤكد أنه رجل صلب عنيد ، وإنما هو ناجح بسبب عقله وإذا كان مرضه قد ظل يعيث فيه

طيلة عقدين ، سالبا إياه قواه البدنية ، فإنه قد وصل إلى أن يعيش حياة الذهن .

إن ذهن هوكنج هو أقوى أدواته . إنه أيضا عمله ، ولعبته ، ومبعث استجمامه ومتعته – إنه حياته . وكرسيه ذو العجلات يضفي عليه ميزة خاصة فيما يتعلق بأعظم ما يشغل ذلك الذهن : وهو الكون الذى نسكنه ، كيف أتى هذا الكون للوجود ، وكيف يعمل ، وكيف سينتهى ، ولما كان هوكنج إنسان مخ بالكامل ، فإنه يبرهن بذلك على قدرة العقل البشرى على سبر غور الكون عندما يُـطلَق هذا الذهن القلق حرا .

الكواركات والأجرام السحيقة

« إن أعظم مغامرة فى التاريخ البشرى وأكثرها مثابرة لهى هذا البحث وراء فهم الكون ، وكيف يعمل ، ومن أين أتى ، ومن الصعب تصور كيف أن حفنة من أفراد يقيمون فى كوكب صغير يدور حول نجم تافه في مجرة صغيرة ، يتخذون لأنفسهم هدفا هو الفهم الكامل للكون بأسره ، مجرد نقطة صغيرة من الخليقة وتؤمن حقا بأنها قادرة على فهم الكل » .

وصاحب هذه المقولة هو موراى جل - مان ، وهو واحد من مجموعة من الفيزيائيين النظريين الذين شُغلوا بهذه المغامرة . فهم يبحثون وراء تفاعل وحيد يكون فى اللب من هذا الكون ، تفاعل واحد يشرح كل الظواهر التى تحيط بنا

ومهمة البحث عن هذا التفاعل الوحيد لهى من الأهمية حتى لقد راودت إينشتين ، فأنفق السنوات الثلاثين الأخيرة فى حياته فى بحث غير ناجح عن التوحد، ونحن الآن قد اقتربنا بعض الشئ من هذا ، وذلك بعد موت إينشتين بما يقرب من ثلاثين عاما ، على أنه مازال يبدو أن الكون يعمل وفق عدة منظومات من القوانين التى تُعمل مفعولها فى طبقات ، كل منها مستقل عن الآخر .

ومن بين هذه القوانين الأساسية للطبيعة فإن أكثرها وضوحا هو الجاذبية ، التى تتحكم فى أكبر الأشياء فى الكون - النجوم والكواكب ، وأنت وأنا . والقوانين الأساسية الثلاثة الأخرى التى كشف عنها العلماء تعمل على مستوى ما تحت الذرة (أى ما هو أصغر منها) : وهى القوة النووية القوية ، وهى أقوى ترليون المرات من الجاذبية ، وتجعل نواة الذرة متماسكة معا ، والقوى الكهرومغناطيسية التي تحفظ الالكترونات في مدارها حول النواة ، وتجعل المادة العادية تبدو جامدة ، والقوة النووية الضعيفة التى تسبب التحلل الاشعاعى فى بعض الذرات مثل اليورانيوم .

وإذ تلمّس إينشتين طريقه وسط متاهة من الرياضيات ، فإنه لم يتمكن من التوفيق بين هذه المنظومات المختلفة من القوانين الطبيعية ، وكان يؤمن من قلبه أنه يكمن فيما وراءها حقيقة نهائية بسيطة يمكن بواسطتها تفسيرها كلها كقانون وحيد ، وكان اعتقاده هذا قد بنى على دعوة جمالية صرف ، هى فكرة عن منظومة وحيدة من معادلات لا تقبل الاختزال ويمكن أن تفسر كل شئ .

ولا يؤمن كل الفيزيائيين بإمكان وجود توحد من هذا النوع . فهناك ولفجانج باولى ، المنظّر النمساوى ، الذى قال مرة مازحا « إن ما بعثره الله لا يمكن لإنسان أن يجمعه » . على أن وجود نظرية موحدة ليس مما يحتاجه العلم فعلا ليستمر فى تقدمه ،

والفيزيائيون لا يحتاجون إلى نظرية موحدة إلا بالمعنى الذى احتاج به السير ادموند هلارى إلى تسلق قمة إفرست .

وإذا تم العثور على هذا القانون الموحد ، فإما أنه قد يثبت أنه تقريبا بلا معنى ، وإما أنه قد يقـود إلى عصر ذهبى جديد فى العلم . ولا يعرف العلماء أى هذين الأمرين هو الذى سيحدث ، مثلما لم يكن لديهم أى فكرة عن أن نظرية النسبية الخاصة لإينشتين التى وحدت الكتلة والطاقة ستؤدى إلى عصر الذرة . أو أن نظرية ميكانيكا الكم ، وذلك النظام الرياضى الذى استخدمه الفيزيائيون لتفسير حركة الجسيمات تحت الذرية ، ستستخدم لصنع أول أشعة الليزر . إلا أن النظرية الموحدة قد ظلت وكأنها رؤيا دينية بالنسبة لبعض العلماء ، نظرة للواقع كنظرة زن ، حيث كل القوى وكل المادة فى الطبيعة تأتى من مصدر وحيد .

وعندما نلقى نظرة على العالم اليوم من حولنا فإن التوفيق بين قوى متباينة هكذا يبدو بعيدا عن الإمكان ، والسبب هو أننا نعيش فى كون بارد منخفض الطاقة ، كون يبدو أن القوى فيه مستقرة وغير متصلة ، ولكن الكون لم يكن دائما كما نلحظه اليوم . لقد برد الكون منذ لحظة منشئة بصورة درامية ، وإذ برد الكون الوليد ، فإنه خلف أثرا متصلا من أدلة قد تتبعها الفيزيائيون وراء حتى البداية، ومعظم الفيزيائيين يؤمنون أن مفتاح الكون يقبع هناك فى لحظة

الانفجار الكبير أوما بعدها بزمن قصير . ففى هذه اللحظة ربما كانت القوى الأربع موجودة كتفاعل وحيد فى الطاقة المكثفة للجيشـــان الأولى وذلك لفتـــرة جزء من الثـــانية . ويُـــعتقد أن هذا التفاعل هو جد أساسى بحيث أن كل القـوى التـــالية له قد انحدرت عنه .

وقد طور الفيزيائيون النظريون نظرية جيدة عما حدث خلال ما يقل عن جزء من بليون التريليون من الثانية بعد الانفجار الكبير ، وقد استخدموا فى ذلك آخر ما تم الوصول إليه من رياضيات إعادة التشكيل ، ورغم أن هذا يعد انجازا رائعا إلا أنه لا يعود بهم وراء فى الزمان بما يكفى لأن يمكنهم من أن يروا فى معادلاتهم اللحظة التى كانت فيها كل قوى وقوانين الطبيعة موحدة .

وفى مراحل لاحقة كان لكل من القوى الأربع زمنا للهيمنة فى تاريخ الكون ، بما يشبه فترات ارتقاء الأحزاب السياسية إلى الحكومات الديموقراطية . والقوة الأضعف فى الكون الذى نسكنه هى الجاذبية ، ولكنها القوى الأكثر انتشارا ، القوة الرئيسية ، وتأثير شد الجاذبية له مفعوله على مدى مسافات هائلة - على المجرات والنجوم والأجرام السحيقة ، والأخيرة هى تلك الموجودة على أبعد المســافات فى الكون ، وهى أقل ما هو مفهوم من أشـياء الكون ، وقد ظلت الجاذبية هى القوة الرئيسية طيلة ما يقرب من

حياة الكون كلها التى تبلغ أربعة عشر أو خمسة عشر بليون سنة ، وقبل ذلك ، فى الثوانى المعدودة الأولى بعد الانفجار الكبير ، كانت القوى النووية الضعيفة هى السائدة ، وقبل ذلك القوة الكهرومغناطيسية .

ومن المحتمل أن القوى النووية كانت تقريبا تسود بالكامل أثناء أول أجزاء من البليون من الثانية بعد الانفجار الكبير ، وهى لحظة كانت المادة والطاقة فيها شيئا واحدا ، ولم تكن النجوم والمجرات قد نشأت بعد . وفى أجزاء البليون من الثانية السابقة لذلك من تاريخ الكون ، كانت الطاقة من الكثافة بحيث لم يكن من الممكن تمييز أى من القوى الأربع إحداها عن الأخرى ، وعلى الأقل ، فإن معظم المنظِّرين قد أقنعوا أنفسهم بهذا السيناريو .

« إن مهمة الفيزيائى النظرى هى أن يكتشف ، باستخدام كل الوسائل الرياضية المتاحة له ، ماذا حدث قبل أن تبرد الأشياء بما يكفى لأن تنقسم القوى الأربع بحيث أدى ذلك إلى التعمية على التفاعل الأساسى » . كان هذا ما قاله لى شيلدون جلاشو أحد منظرى هارفارد ، ذات يوم مطير فى أغسطس ١٩٨٢ فى مركز أسبن الفيزيائى . « إن أفرادا كثيرين ، بما فيهم إياى ، يعملون على هذه المشكلة ذاتها . إلا أن أحدا لم يوضح بعد أن كل التفاعلات كانت فى الحقيقة نفس التفاعل الوحيد فى الكون المبكر جدا » .

وقد قاد جلاشو الطريق للبحث عن التفاعل الأساسى ، وخلال ستينيات هذا القرن حاول - دون نجاح - أن يجمّع بعض الجسيمات المعينة تحت الذرية والتى تعيش حياة قصيرة ، يجمعها بالطرق التى تؤدى إلى هذه القوى الموحدة ، وظلت طريقة تناوله هذه ينتج عنها لانهائيات رياضية لا يمكن أن تصلح ولا يمكن تفسيرها .

أما ستيفن وينبرج الذى كان وقتها فى معهد التكنولوجيا بماساتشوستس ، هو وعبد السلام فى الكلية الامبراطورية بلندن فقد كانا أكثر نجاحا ، وقد أنتج كل منهما على نحو مستقل فى عام ١٩٦٧ منظومة من المعادلات يبدو أنها تثبت أن القوة النووية الضعيفة هى والقوة الكهرومغناطيسية هما نفس القوة الواحدة ، وذلك إذا ما تجاهلنا عوامل تعمية معينة .

ووجه الجمال فى نموذج وينبرج - عبد السلام هو أنه قد تنبأ بأن أحداثا معينة ستحدث تحت ظروف معينة فى معجلات الجسيمات ، وهى تلك الأجهزة التى تسحق الذرات ، ويستخدمها الفيزيائيون لينزعوا عن الذرات طبقاتها الكثيرة ، وقد اشترك وينبرج وعبد السلام وجلاشو فى جائزة نوبل ١٩٧٩ عن هذا العمل .

وفى أثناء السبعينيات أنشأ فيزيائيون آخرون مجموعات مختلفة من الحسابات يُزعم أنها تبين أن القوى الضعيفة والكهرومغناطيسية ليست هى وحدها نفس القوة ، ولكن القوة

القوية التى تجعل نويات الذرات تتماسك معا ، هى أيضا عضو فى نفس العائلة ، وهذا النوع من الحسابات يسمى النظريات الموحدة الكبرى Grand unified theories(Guts) .

وبعض العلماء ليسوا جد واثقين من أن طريقة تناول النظريات الموحدة العظمى تصيب الهدف تماما . فيقول موراى جل - مان « إنها ليست كبرى ولا موحدة . بل ويمكن القول بأنها حتى ليست نظريات - فهى مجرد نماذج فُخم من أمرها » . على أنه يعترف أن هذا التناول قد يكون أكثر تناولاً واعداً لتقصى التفاعل الأساسى .

وجل - مان نفسه هو الذى أنشأ مفهوم الكواركات ، تلك الجسيمات تحت الذرية التى يؤمن معظم الفيزيائيين بأنها المكونات الأساسية للبروتونات والنيوترونات التى تتكون منها نويات كل ذرة فى الكون ، وقبل أن يتصور جل - مان الكواركات ويسميها (التسمية هى بطريقة غير مباشرة عن رواية جيمس جويس «يقظة فينيجان» من سطر فيها هو « ثلاثة كواركات للسيد مارك») كانت فيزياء الجسيمات فى حالة من التشويش ، وقد فشلت فشلا تعيساً فى أن تتواءم مع عشرات الجسيمات الجديدة التى تم العثور عليها فى المعجلات أثناء الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن ، وكنتيجة لتخليق كوارك جل - مان ، أمكن لفيزيائى الجسيمات أن ينظروا مرة أخرى إلى لب الذرة ككون صغير له كيانه الذاتى المنتظم بدرجة أو أخرى .

ويعترف جل – مان بأنه يود أن يرى توحيدا للقوى الأربع ، ولكنه غير واثق من أن ذلك سيتم فى حياته . « حتى الآن لم يستطع أحد أن يبين حتى أن القوى الثلاث التى تعمل من داخل الذرة لها نفس الأصل . ولعل البعض قريبون من تلك . لست أدرى ، على أن أحدا لم يبين لى ذلك بعد » .

وماذا عن الجاذبية ، تلك القوة التى نعرفها كلنا تقريبا ؟ أين يكون موقعها الملائم فى نظرية التوحيد الكبرى ؟ ورغم أن فيزيائى الجسيمات قد يكونوا على وشك الوصول إلى نظرية موحدة للكون فيما يتعلق بالقوى الثلاث التى تقوم بالدفع والشد من داخل الذرة ، إلا أن الجاذبية مازالت هى القوة المنعزلة فى الخارج ، وهذا على الرغم من حقيقة أن عالم الكونيات الواسع ، هو وعالَم الذرة الدقيق ، كلاهما سوف يتلاقيان فى النهاية إذ ينظر فيزيائيو الجسيمات للداخل بمعجلاتهم العملاقة وينظر علماء الكونيات للخارج بتلسكوباتهم ، ويأخذ كلاهما فى إدراك أنهما إنما ينظران إلى نفس الشئ .

وهناك مجموعات عديدة من العلماء الذين يعملون على توحيد كل القوى الأربع ويحاولون جمع الجاذبية مع القوى الثلاث الأخرى ، وقد قال لى جل – مان « إن معظمهم لا يدرون ما يفعلون . فهم فحسب يتلاعبون بشتى الحيل الرياضية » . على أنه أقر بشئ من

الحذر بأن ثمة مجموعة واحدة من المنظرين لديهم الفرصة لانجاز بعض التقدم نحو العثور على السر الأعظم للكون .

وهذه المجموعة يرأسها ستيفن هوكنج فى جامعة كمبردج بانجلترا ، ويقول جل - مان « إن هوكنج هو الفرد الوحيد من حزب النسبية الذى يفهم فيزياء الجسيمات . إنه إنسان رائع ، زميل مذهل بما لا حد له » .

ضد المتوقع

ستيفن هوكنج هو الأكبر من أربعة أطفال ينتمون إلى أسرة قارئة ووثيقة الارتباط . وكان أبوه باحثا بيولوجيا فى أمراض المناطق الحارة بالمركز القومى للبحوث الطبية ، وقد ولد ستيفن فى ٨ يناير سنة ١٩٤٢ باوكسفورد ، ونشأ فى لندن وفى مدينة سانت ألبانز التى تبعد شمالا بما يقرب من عشرين ميلا ، ودخل فى سن الحادية عشرة مدرسة سانت ألبانز ، وهى مدرسة خاصة كان والداه يأملان أن تعده لدخول جامعة أوكسفورد .

وحينما بلغ ستيفن الثامنة أو التاسعة من عمره ، كان قد أدرك أنه يريد أن يكون عالما ، وكان قد أظهر بالفعل موهبة فى فك الساعات والراديوهات ليعرف كيف تعمل ، والعلم فيما بدا له يكون حيث يمكن العثور على حقيقة الأشياء المحيطة به . على أنه وهو فى سن المراهقة وجد أن الكثير من العلم ليس بجد دقيق : «فالعلوم البيولوجية هى بالنسبة لى وصفية وغامضة بأكثر مما ينبغى » « هكذا قال هوكنج متذكرا . « وبالطبع فإنها قد أصبحت اليوم أكثر دقة بسبب البيولوجيا الجزيئية ، وعندما بلغ الرابعة عشرة ، كان قد قرر أن يصبح من الرياضيين أو الفيزيائيين ، وإذ خشى

والد هوكنج من أن إبنه هكذا لن يجد عملا قط ، فإنه حاول بلا نجاح أن يثنيه عن ذلك .

وفى نفس الوقت تقريبا كان تفكير هوكنج قد اتخذ منعطفا تشككيا ، وعندما بلغ الخامسة عشرة ، حاول إجراء نفس تجارب رمى النرد التى كان يتم اجراؤها فى برنامج ما وراء الحواس بجامعة ديوك فى الخمسينيات ، وبعد أن اتبع تجارب ديوك بدقة لبعض الوقت ، أصبح مقتنعا أن برنامج ما وراء الحواس إنما هو أمر زائف ، وهو يقول الآن « كلما ظهرت نتائج لهذه التجارب اتضح أن التكنيكات التجريبية تكون زائفة ، وعندما تكون التكنيكات سليمة ، لا يكون ثمة نتائج جيدة » .

وحتى اليوم فإنه يعتقد أن البارسيكولوجيا هى مضيعة للوقت ، ويقول ضاحكا « إن الناس الذين يأخذونها مأخذا جديا إنما هم فى الطور الذى كنت فيه وأنا مراهق » .

ورغم هذه الدفعات المؤقتة من النضج المبكر فإنه لم يكن طالبا مبرزاً فى المدرسة الثانوية . وكان والداه فى قلق من أنه ربما يرسب فى امتحان القبول لأوكسفورد ، ولما كان والده خريجا من كلية الجامعة باوكسفورد ، فإنه حاول أن يستخدم صلاته للتأكد من قبوله . إلا أن الأب كان يبخس قدر إبنه . فقد حصل ستيفن على ما يقرب من الدرجات النهائية فى مادة الطبيعة بامتحان القبول

وبلغ من حسن أدائه في اللقاء الشفوى أنه لم يعد هناك أى شك فى قبوله ، وهكذا فإنه دخل أوكسفورد ١٩٥٩ .

وفى أوكسفورد كان ستيفن طالبا محبوبا ، ومعروفا بسرعة بديهته ، وفى وقت من الأوقات كان هو موجه الدفة فى أحد قوارب التجديف الثمانية بالكلية ، ومعظم من يتذكرونه فى تلك الأيام يتذكرون طالبا طويل الشعر مفعما بالحيوية وله ميل للموسيقى الكلاسيكية وروايات الخيال العلمى . وقد اتخذ فى دراسته مسارا مستقلا متحررا وإن كان موجهه د . روبرت برمان ، يذكر أنه هو وغيره من الموجهين كانوا متنبهين إلى أن لهوكنج تفكيراً من الدرجة الأولى ، « يختلف تماما عن معاصريه » .

فهو بارع جدا فى الفيزياء حتى أنه لا يحتاج فيها إلا لأقل جهد ، ويقول برمان « إن الفيزياء المقررة على الطلبة هى ببساطة مما لا يشكل له أى تحد ، فهو يستطيع حل أى مسألة توضع أمامه دونما أى جهد يذكر » . وذات يوم بعد أن قرأ فى الفصل حلا توصل إليه ، كوم الورقة ورمى بها فى ترفع داخل سلة المهملات .

وقد استطاع هوكنج أن يثبت قدرته على النسيان فى اللحظات الحرجة – أو اللحظات المناسبة . ففى عامه الأخير فى أوكسفورد قدم طلبا للعمل فى وزارة الأشغال البريطانية .ثم نسى بعدها أن يظهر للامتحان ، ولو أنه كان قد نجح فيه لربما انتهى به الأمر إلى العمل فى العناية بالنصب التذكارية .

وعندما حل وقت التخرج ، كان هوكنج يحتاج إلى الحصول على مرتبة الشرف الأولى لينال منحة دراسية لدراسة برنامج فى الفيزياء للخريجين وذلك فى جامعة كمبردج ، المنافسة القديمة لأوكسفورد والتى تقع على مبعدة ثمانين ميلا بالشمال الشرقى منها . ودار اختبار شفوى حرج أجاب فيه هكذا عندما سأله أحد الممتحنين عن خططه : « لو حصلت على المرتبة الأولى ، سأذهب إلى كمبردج ، ولو حصلت على الثانية ، سأبقى فى أوكسفورد ، وهكذا فإنى أتوقع منك أن تعطينى المرتبة الأولى » ، والذين يعرفون هوكنج يتفقون على أن هذا هو هوكنج خالصا .

وقد علق د . برمان فى وقت لاحق عن لقاء هوكنج بممتحنيه بقوله « إنهم على الأقل كانوا من الذكاء بما يكفى لأن يدركوا أنهم يتحدثون إلى شخص أذكى منهم » . وتلقى هوكنج مرتبته الأولى ودخل برنامج الدراسة للخريجين بكمبردج فى السنة التالية .

وفى ذلك الوقت كان هوكنج قد استقر رأيه على أن يكون مستقبله فى العمل فى الفيزياء النظرية ، للتخصص فى علم الكونيات . وكان قد فكر فى مجالات أخرى فى الفيزياء ، ولكن هذا لم يكن إلا لزمن وجيز ، وذات مرة أثناء دراسته لمقرر صيفي خاص فى مرصد جرينيتش الملكى ، قام بمساعدة سير ريتشارد وولى فى قياس مكونات نجم مزدوج ، وكان وولى وقتها عالم الفلك

الملكى لبريطانيا العظمى وعندما نظر هوكنج من خلال تلسكوب المرصد ، أصابه احباط عميق إذ رأى مجرد نقطتى ضوء ضبابيتين يدخلان ويخرجان من نقطة بؤرة المنظار .

ومنذ ذلك الوقت فإنه لم ينظر من خلال تليسكوب إلا مرة أو مرتين ، وظل لا يتأثر بعلم الفلك الرصدى . فالنظرية هى دائما أكثر إثارة لهوكنج ، والنظريات الأكثر إثارة عن غيرها هى نظريات علم الكونيات ، لأنها تتناول ذلك السؤال ، وهو من أين يأتى الكون ؟ وأثناء وجوده فى مدرسة الخريجين بدأت تظهر عليه العلامات المبشّرة بعالم فيزياء نظرية سيصبح فى القمة ، وكان روجر بنروز وقتها باحثا مشاركاً فى كلية الملك فى لندن ، وهو يذكر أول لقاء له بهوكنج فى تلك الأيام ، ويقول بنروز متذكرا « كان معتادا على أن يسأل أكثر الأسئلة إحراجا ، أسئلة يصعب جدا الإجابة عنها ، وهو دائما يسدد ضربته مباشرة إلى أضعف جزء فى حجتك . على أنه لم يكن من السهل وقتها أن يتنبأ المرء بما سيصبح عليه هوكنج من فكر أصيل » .

وبدأت علامات المرض الخطير تظهر عليه فى بداية أول سنة فى مدرسة الخريجين – نقص فى القدرة على استخدام اليد وشلل بسيط جعل من الصعب على هوكنج أن يربط حذاءه ، وجعل من الصعب عليه أحيانا أن يتحدث ، وبعد شئ من الصعوبة فى أول

الأمر ، تمكن الأطباء من تشخيص مرضه ، وهو ضمور عضلى من تليف الجانب الوحشى ، أو مرض العصبة الحركية ، وهو مرض نادر يمكن أن يسبب الإقعاد ، ويسمى أحيانا بمرض « لو جريج » على إسم لاعب البيسبول الذى كان الضارب الأول لفريق يانكى والذى مات به ، وقد أودى نفس هذا المرض بحياة دافيد نيفن فى ١٩٨٣ .

ومرض العصبة الحركية يتميز بالتحلل التدريجى لخلايا عصبية فى النخاع الشوكى والمخ وهى الخلايا التى تنظم النشاط العضلى الإرادى ، وأول الاعراض هى ضعف فى الأيدى وانتفاضات في عضلاتها قد يصحبه تعثر فى الكلام أو صعوبة فى البلع ، وإذ تتوقف العصبات عن القيام بوظيفتها فإن ما تتحكم فيه من عضلات يصيبها الضمور ، ويتزايد ما يصيب ضحية المرض من عجز وإن بقى الذهن سليما . وتحدث الوفاة عادة إما من الإلتهاب الرئوى أو الاختناق ، وذلك عندما تصاب العضلات التنفسية فى النهاية بالفشل .

وكان الأطباء يأملون أن يصل مرض هوكنج إلى حالة مستقرة ، ولكن حالته ظلت تتدهور ، وقدر له أنه سيعيش لعامين فحسب . ويقول هوكنج متذكرا « كما يمكن فهمه فقد أصابنى الاحباط تماما من هذا التوقع لسير المرض » . ودفعه ترقب الموت المبكر إلى التبلد

بالاكتئاب طيلة عامين ، وهى فترة لم ينفق فيها فى أبحاثه إلا زمنا قليلا بينما أنفق معظم وقته فى حجرته وهو يستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية - لفاجنر فى معظم الوقت - ويقرأ روايات الخيال العلمى . كما أنه أيضا بدأ « يشرب بكمية لها قدرها » .

أما موجهه ، وهو منظّر اسمه « دنيس اسكياما » ويرأس جماعة النسبية العامة فى كمبردج ، فكان يدرك مدى امكانات طالبه كما كان أيضا فى قلق بشأن مرضه . « إنه دائما لديه احساس بما كنا نناقشه ، وبالنسبة للطلبة الآخرين اللامعين ، فقد يستغرق الأمر معهم عـــامين . أما ستيفن فلم يستغرق الأمر معه سوى شهر واحد ، وهو دائما يقول : « ولكن .. بالنسـبة لكل مقولة تذكرها له »، وسمح سكياما لهوكنج أن ينغمس فى اكتئـابه ، وإذا كان هوكنج يريد أن يغيب بالشراب لينسى متاعبه فلا بأس ، أما إذا كان لا يريد أن يعمل فى بحثه ، فان هذا سئ للغاية . على أن سكياما رفض ما طلبه والد هوكنج بأن يساعد إبنه على إنهاء أطروحته مبكرا .

وبمرور الشهور ، بدأت حالة هوكنج تستقر فى النهاية ، وادرك أن الموت لم يعد وشيكا ، وارتفعت معنوياته ، وعادت قدراته الطبيعية إلى الظهور بتشجيع أصدقائه وعائلته وموجهه . وبدأ أيضـــا يتبين أن عمله إنمـــا يدور فى مجال عقلى صرف - مجـــال

لا يكاد يتطلب أى مهـارة بدنيـة فى الإنســان ، والمرض لم يؤثر فى ذهنه ، وهكذا لن يؤثر فى عمله ، واختفى الاكتئاب وأخذ سكياما يدفعه للنشاط ، وبدأ يعمل ثانية فى أطروحته .

وفى ذلك الوقت وقع واحـد من أهم الأحداث فى حياة هوكنج : فقد حضر حفلة قابل فيها جين وايلد ، وهى طالبة تدرس اللغات فى لندن . وفى ١٩٦٥ ، بعد عامين من علاقة تودد ظلت تجرى بين لندن وكمبردج ، تم زواجهما ، وتقول جين « حين عرفته لأول مرة كان عنده بالفعل بدايات مرضه ، وهكذا فإنى لم أعرف قط ستيفن وهو فى كامل صحته وبدنه و وقد اتخذت قرارى ببساطة بما سأفعله ، وقد فعلته » .

كان زواج هوكنج هو نقطة التحول . « لقد جعلتنى مصمما على أن أعيش وأواصل طريقى . فجين فى الحقيقة قد أعطتنى الإرادة لأن أعيش » .

وكل من يعرف جين وايلد هوكنج يصفها بأنها امرأة رائعة ، وفى أثناء السنة الأولى لزواجهما ظلت على سفر ما بين لندن وكمبردج حتى تتمكن من انهاء دراستها للتخرج ، وفى نفس الوقت فإنها طبعت أطروحة بحث زوجها على الآلة الكاتبة . وظلت طيلة ما يقرب من عقدين وهى ترعى احتياجات هوكنج الجسمانية ، وتضمن لأسرة هوكنج أن تعيش نسبيا عيشة طبيعية ، بالرغم من عجز

هوكنج وبالرغم أيضا من الشهرة التى لحقت به أخيراً ، وقد ولد أول أطفالهم روبرت فى ١٩٦٧ ، وبعـدها بثلاثة أعوام ولدت الإبنة لوسى ، ثم ولد تيموثى فى ١٩٧٩ .

ومع أن جين هى والأفراد الآخرين المحيطين بستيفن يعملون على حمايته بقدر ما ، فإنهم جميعا ينزعون إلى تجاهل حالته ، وقد قالت جين ذات مرة « لا يقوم ستيفن بأى تنازلات بالنسبة لمرضه ، وأنا لا أقوم بأى تنازلات لستيفن » ، والمشكلة الرئيسية فى حياتهما ليست هى حالة زوجها البدنية ، وإنما المشكلة أنها لا تستطيع أن تتابع كل التفاصيل فى عمله فى الفيزياء النظرية .

وأثناء السنوات الثلاث التالية لحصوله على الدكتوراه ، عمل هوكنج كباحث مشارك فى كمبردج وبدأ فى المساهمة مع بنروز فيما أصبح بعدها أول عمل بحث رئيسى له ، الاثبات الرياضى لبداية الزمان ، ومرة أخرى أخذت حالته الجسمانية تسوء ، وبحلول أوائل السبعينيات أصبح هوكنج باستمرار ملازما لمقعده ذى العجلات ، ولكن ذهنه وقتها أصبح متوقدا ، وكان قبوله فى الجمعية الملكية فى ١٩٧٤ نصرا مذهلاً لرجل كان يعتقد منذ عشر سنوات أنه لن يعيش لعيد ميلاده الخامس والعشرين .

كانت هذه سنوات سعيدة لجين وستيفن هوكنج فى العمل وفى الحياة الشخصية معا ، ومن وقتها ظلت حالته مستقرة بشكل أو

آخر ، وإن كان بعض زملائه يعتقدون أنه قد أصبح من الصعب عليهم أن يفهموه فى السنة أو السنتين الأخيرتين ، ويخشى البعض من أصدقائه ، خاصة الذين لا يرونه بانتظام ، من أن حالته العامة قد بدأت تسوء ثانية فى السنوات المعدودة الأخيرة .

ويعمل هوكنج فى مبنى قذر من الطوب يضم قسم الرياضة التطبيقية والفيزياء النظرية ، ويبدو وكأنه مصنع مهجور من القرن التاسع عشر هو فى حالة ضياع بين الواجهات والأبراج القوطية فى كمبردج ، وبابه الرئيسى يواجه زقاقا متفرعاً من شارع سيلفر، وفى زقاق آخر تجاه مؤخرة المبنى ، ثمة منحدر من خمسة وعشرين قدما يستخدمه هوكنج ليدخل إلى المبنى من خلال باب دوّار ، وهو يتنقل كل يوم بواسطة كرسى ذى عجلات له محرك وينقله من بيته الذى يشغل الدور الأرضى من منزل فيكتورى بشارع وست عل بعد ما يقرب من نصف الميل .

ومكتبه الذى يتجه إلى حجرة انتظار كئيبة ليس فيها ما يرحب ، هو مكتب علمى فظ . وهو يحوى أرففا من مراجع الفيزياء ، وشاشة الكمبيوتر ، وصورا لثلاثة أطفال وسيمين ، ومقلّب صفحات خاص . ناضل هوكنج ضد البيروقراطية ليحصل عليه ، وهناك أيضا تليفون مجهز تجهيزا خاصا يقبع الآن بلا عمل ، وقد علقت على الجدران قوائم لأوراق بحث علمية بشريط لاصق بحيث يمكنه رؤيتها بسهولة .

ويكاد يستحيل أن تفهم هوكنج عند لقائه لأول مرة ، وبعد أن استمعت عن قرب ولساعات عديدة إلى صوته الرقيق الرتيب – الذى ترجمته لى جودى فيلا ، الشابة التى كانت تعمل آنذاك سكرتيرة له – وجدت أنى أستطيع أن أفهم ما يقرب من نصف ما يقوله . على أن بعض الكلمات لم تكن مفهومة حتى لفيلا ، التى ظلت تعمل معه لسنوات ، وكان هوكنج يضطر إلى تهجيها ، وقلت له بما أثار سروره ، أنه بالنسبة لى كأمريكى فإن جزءا من مشكلة فهمه هو بسبب لكنته الانجليزية .

وأثناء عمل هوكنج ، يحدث أحيانا ان يتدلى جسده لأسفل فى كرسيه ذى العجلات ، وأحيانا يهوى رأسه على صدره . وهو لا يكاد يتحكم فى رأسه ووجهه ، وأحيانا قد تنقلب ابتسامته إلى عبوس ، ومع ذلك فعندما دخلت أول مرة إلى مكتبه ، حيانى هوكنج بابتسامة فيها شقاوة ، وعيناه الزرقاوان تومضان من خلف عدسات نظارته السميكة .

وكان شعره البنى الذى تناثر فيه الشيب مصفوفا بطريقة البيتلز القديمة ، وهو عادة يرتدى الزى التقليدى للعلماء : سربال فضفاض ، وربطة عنق بالغة البهرجة وكثيرا ما تكون غير متلائمة مع القميص ذى الأقلام العريضة ، وسترة رياضية من التويد أو المربعات ، وحذاء أكاديمى لين أو حذاء برقبة من الواضح أن نعليهما لم يستخدما .

وهوكنج يفكر مترويا فى حرص قبل أن يتكلم بحيث لا يكون عليه أن يكرر حديثه ، وهو لا يهدر الكلمات واحيانا بعد أن يتوقف عن العمل لدقائق معدودة - لبعض أعمال السكرتارية أو لشرب الشاى - فإنه يستأنف الحديث من نصف الجملة تماما حيث كان قد توقف ، وهو يتجاهل كلية قيوده الجسمانية حتى أننى وجدت نفسى بعد فترة أفعل نفس الشئ .

وذات يوم أثناء حديثى معه ، كنت قد نسيت تماما حالته حتى أنى أخذت أتحدث دون حرص عن مشكلة أعانيها من مرفقى كنتيجة لمباراة فى الاسكواش أديتها فى لندن فى اليوم السابق ، ولم يعلق هوكنج ، وببساطة وجه كرسيه إلى خارج الغرفة وانتظرنى فى البهو لأعود إلى الموضوع الذى كنا نتناوله ، وهو الفيزياء النظرية .

وهوكنج فى معظم أيام عمله لا يفعل إلا أن يفكر ، وهو ينفق الكثير من وقته فى إنشاء طرق تناول جديدة لمشاكل الفيزياء . وذات صباح قال لى أحد زملائه ، وهو أيان موس « إن ستيفن يطلع علينا بأفكار من كل نوع . أما بقيتنا نحن فلا نفعل إلا أن نختبر هذه الأفكار لنرى إن كانت صالحة » .

وهوكنج يحظى بذاكرة خارقة ، وهو يستطيع أن يحل ويحفظ فى ذهنه معادلات معقدة بما يملأ صفحة إثر الصفحة ، وينسج

الهيروغليفيات الرياضية معا كما يرتب الشخص العادى الكلمات فى جملة ، ويقول ورنر إسرائيل ، وهو فيزيائى نظرى من جامعة ألبرتا وشريك هوكنج فى تأليف كتاب « النسبية العامة » ، أن النتاج الفذ لذاكرته يماثل ما كان يقوم به موتسارت من تأليف سيمفونية بأكملها فى رأسه .

وزملاؤه دائما يذهلهم ما يتذكره هوكنج ، وتقول سكرتيرة عملت معه أثناء زيارته لمعهد التكنولوجيا بكاليفورنيا أنه تذكر ذات مرة بعدأربع وعشرين ساعة خطأ بسيطا ارتكبه وهو يملى عليها – من الذاكرة – أربعين صفحة من المعادلات .

وقد أخبرنى أحد طلبة هوكنج أنه ذات مرة وهو يسوق السيارة بهوكنج إلى لندن لمؤتمر للفيزياء ، تذكر هوكنج رقم صفحة فيها خطأ صغير كان قد قرأه فى كتاب منذ سنوات مضت ، ويقول فيزيائيون آخرون أن المعادلات المعقدة التى تتدفق من ذهنه مكتملة فى التو لهى معادلات حاذقة ومهمة معا – إنها الجوائز النهائية لعالم فيزياء نظرية .

وأعمال هوكنج قد شدت إلى كمبردج مجموعة مبرزة من الفيزيائيين النظريين من جانبى الأطلسى ، وهم يجتمعون معظم الأيام عند الغداء ومرة أخرى عند تناول الشاى ليسهموا مع هوكنج بحكمتهم وقريحتهم . والجلسة تنتمى إلى تقاليد المعاهد فى القرن

التاسع عشر . أما موضوع النقاش فينتمى إلى روايات الخيال العلمى فى القرن الواحد والعشرين ، ويتواثب الحديث من الإزاحة الحمراء وتأثيرات الكم إلى الثقوب السوداء والمفردات عند بدء الزمان ، والسنين الضوئية التى تتجاوز ما يحيط بنا .

والحديث سريع ، ترقمه تعليقات ساخرة . وإذ يرتكب ستيفن خطأ رياضيا تافها يصيح أحد طلبة التخرج « هاك ، إن ستيفن قد لاحت عليه الشيخوخة » . ويبتهج هوكنج بمثل هذه التعليقات ، ويمكن أن تكون الجلسة هى الذروة لهذا اليوم . وذات مرة أخبرنى واحد من طلبته أن جلسة الشاى مع ستيفن قد يكون فيها ما ينور بأكثر من دورة دراسية كاملة عند شخص غيره .

ومن المذهل أن هوكنج قد أمكنه انجاز ما أنجزه ، والحقيقة أن الأطباء يعتقدون أن بقاءه حيا لهو معجزة ، وقد أخبرنى طبيب أمريكى له دراية بمرض هوكنج أن كل يوم يعيشه يسجل به طبيا رقما قياسيا جديدا .

ويهز زملاء هوكنج رءوسهم عند سماع التعليقات الدرامية من هذا النوع ، ويقول واحد من طلبته السابقين ، وهو مالكوم بيرى الذى يعمل الآن كعالم فيزياء فى جامعة برنستون ، « إن ستيفن هو ستيفن وحسب . إنه لا يأخذ الأمر بجدية بالغة ، وهكذا فإننا أيضا لا نفعل ذلك » .

أما جيرالد واسربرج الذى يعمل كعالم جيولوجيا وفيزياء فى معـهد التكنولوجيا بكاليفـورنيا ، فقـد قابل هوكنـج فى عدة مؤتمرات ، وهو يقول عنه ، « إنه من أكثر الأمثلة إذهالا فى تاريخ العالم بالنسبة لقوة الذكاء البشرى » .

على أن هوكنج ليس بلا نقاد له فى مجتمع الفيزياء الضيق المحكم ، وقد قال لى ذات مرة واحد من قمم المنظرين فى برنستون « إنه يعمل على نفس الأشياء التى يعمل عليها كل واحد غيره وهو فحسب يحظى بالكثير من الانتباه بسبب حالته » ، وقد اتهمه فيزيائيون آخرون بأنه يبالغ فى دراميته وكثرة نقاشه فى المؤتمرات العلمية . ورغم هذه المنازلات مع زملاء حساسين وغيورين ، فإن أعمال هوكنج قد حظيت بتقدير واسع . وقد نال فى ١٩٧٨ جائزة البرت إينشتين ، التى يعدها البعض أعلى تشريف فى الفيزياء النظرية .

وقد نال فى ١٩٨٢ شهادات شرفية من نوتردام ، وجامعة شيكاغو ، وبرنستون ، وجامعة نيويورك ، وقد منحته الملكة اليزابيث لقب كوماندور بالامبراطورية البريطانية ، وكثيرا ما لقبت وسائل الأعلام هوكنج بأنه بمثابة رد النصف الثانى من القرن العشرين على إينشتين ، وهوكنج نفسه يفند مثل هذه الأفكار بإحدى ملاحظاته النمطية : « ينبغى ألا تصدق كل ما تقرأ » .

عينا جاليليو

طرح ستيفن هوكنج عليّ أن جاليليو جاليلى ، عالم الفلك فى القرن السابع عشر ربما كان سيصبح أحسن عالم فى القرن العشرين ، ويقول هوكنج « إنه أول عالم بدأ بالفعل فى استخدام عينيه ، بالمعنى الفعلى والمجازى . وهو بهذا المعنى مسئول عن عصر العلم هذا الذى نستمتع به الآن » .

« وهو قد اســتخدم عينيه بما هو مفيد . فكان يعرف ما الذى رآه ، ويتصرف حسب ذلك . وهو يعرف كيف يصل إلى الاستنباطات الصحيحة ، وما إن يعرف أنه على صواب ، فإنه يتمسك بذلك » ، ويعتقد هوكنج أن علماء اليوم ، بعد ما يقرب من ٣٤٠ سنة من موت جاليليو ، مازالوا يستطيعون الافادة نوعا ما من نفس الموقف .

« إن العلماء اليوم عليهم أن يكونوا مثل جاليليو ، مستعدين لأن يخطـو خارج التيار الرئيسى ، ليخرجـوا إلى ما يتجـاوز الأفكار المقبولة السائدة ، وهذه هى الطريقة التى يصنع بها التقدم » . وضحك هوكنج ضحكا يكاد يكون صامتا لثوان معدودة . « وبالطبع فإن عليك أن تعرف أى طريق ستخطو إليه » .

وفى كل أسبوع ترد إلى هوكنج خطابات عديدة من أناس خارجين تماما عن التيار الرئيسى . وهى تسليه نوعا . وقد عرض علىّ ذات مرة خربشة همجية من المعادلات على صفحة واحدة أرسلها رجل من متشيجان ، وقال هوكنج « إنه يظن أنه قد وصل إلى سر الكون . ولكن هذا الرجل ليس بجاليليو » .

وجاليليو هو بالنسبة لهوكنج الجد الثقافى المباشر – كما كان كذلك أيضا بالنسبة لاينشتين ونيوتن – وذلك بمعنى أنه كان أول من عرّف الجاذبية ، وهى أكثر قوى الطبيعة انتشارا وإن كانت بالمفارقة أضعفها ، وبعد جاليليو اقتصر الأمر على تصحيح التفسير الأصلى أو إعادة تعريفه وتعديله . فقام نيوتن باصلاح وتهذيب عمل جاليليو ، أما إينشتين فقد صقل ووسع قوانين نيوتن الأساسية لتشمل الكون كله . والآن فإن هوكنج وغيره من علماء الكونيات يحاولون نفس الشئ مع نسبية إينشتين العامة ، وهى التفسير الحديث للجاذبية أى القوة التى تعد أكبر شاغل لمعظم علماء الكونيات .

وعندما نشر إينشتين فى ١٩٠٥ أوراق بحثه الثلاث فى الجزء ١٧ من المجلة الألمانية العلمية " سنويات الفيزياء " فإن أفكاره هذه كانت ثورية ؛ على أنه لم يكن من الواضح وقتها أن أوراق البحث هذه سوف تغير مسار تاريخ العلم . وكانت الورقة الأولى تتناول

الميكانيكا الاحصائية ، أما الثانية التى كان يعدها الورقة الأهم فكانت تتناول الظاهرة الضوء كهربية .

أما الورقة الثالثة فكانت هى القنبلة . لقد قدر لها أن تغير للأبد الطريقة التى ننظر بها إلى الزمان والمكان ، وهى تحدد نظرية النسبية الخاصة ، كما سميت بعد ذلك ، وقد تناولت المأثور القديم من أن الفضاء يتكون من أثير تتخلله المادة ، وأن الزمان يعمل بمثل ما ينساب النهر . وكانت هذه أفكارا قد ظلت تسيطر على العلم لمئات السنين .

وقد بين اينشتين أن الزمان والمكان ينبغى تعريفهما بمصطلحات يمكن استخدامها عند العلماء - وليس عند الشعراء أو الفلاسفة . فهى مما ينبغى أن يكون كميات يمكن للرجال العاديين أن يقيسونها باستخدام أدوات عادية - وليس مجرد تجريدات لا فائدة منها علميا . ولا يوجد ما هو أكثر من ذلك سواء بالنسبة للمكان أو الزمان . لقد كان ذلك حلا مباشرا من القرن العشرين لمشكلة من القرن التاسع عشر .

وإينشتين وقد ألغى هكذا بجسارة أفضل فكر للمائتى عام السابقة ، فإنه يطرح فرضين : أحدهما أنه أيا ما كانت حركة مصدر الضوء ، فإن الضوء ينتقل بسرعة ثابتة . وليس فى هذا جديد . فكل قياس تم حتى وقتها كان فيه ما يؤدى لذلك ، وكان من

الراسخ تماما أن الضوء ينتقل بسرعة ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثـانية (والرقم الدقيق الذى يستخدم الآن هو ١٨٦,٢٨٢ ميل فى الثانية) . إلا أن أحدا من كبار العلماء التجريبيين وقتها لم يكن يود أن يؤمن بدلالات ذلك البرهان الذى يقبع أمامهم مباشرة .

ولم ير أحد ما رآه اينشتين ، من أن سرعة الضوء هى دائما نفس السرعة ، وأنها لا تتغير مهما كان مصدرها أو اتجاهها . وإذ ثبت صدق ذلك ، فإن إينشتين كتب فى ورقة بحثه الثالثة ، أنها أيضا لا تتغير مهما كان المكان الذى يأتى منه الضوء . وبكلمات أخرى ، فإن سرعة الضوء ثابتة خلال الفضاء الخاوى حتى ولو كان مصدره يتحرك سريعا جدا - مثل مجرة أو نجم .

وكانت هذه فكرة من هرطقة تبدو وكأنها تنتهك الحس المشترك . فهى تعنى أن الضوء المنبثق عن نجم يتحرك نحونا تكون له نفس سرعة الضوء المنبثق عن نجم يتحرك بعيدا عنا . وهذه فكرة كانت ومازالت تثير البلبلة . ومن المنطقى أن نفترض أن رصاصة تنطلق من بندقية من فوق قطار يتحرك ستكون سرعتها هى سرعة الرصاصة مضافا إليها سرعة القطار .. أى سرعة أكبر من رصاصة من بندقية ثابتة .

ويقول إينشتين أن الأمر نفسه لا يصدق على الضوء : فسرعته دائما ثابتة ، وكنتيجة لذلك فإن سرعته تختلف عن سرعة أى شىء

آخر . فالرصاصة أو القمر أو الكوكب تكون سرعتها دائما منسوبة لشيء آخر . أما سرعة الضوء فلا تنسب لأى شيء ، إنها ثابت مطلق ، ودائما نفس الشيء .

والفرض الآخر هو أن من يجرى التجربة لا يستطيع أن يكتشف إلا الحركة النسبية . وبكلمات أخرى ، فإنه بالنسبة لشخص يقف على رصيف محطة بينما القطار يمر بها مسرعا ، فإن القطار هو الذى يتحرك وليس الرصيف . إلا أنه بالنسبة لشخص آخر فى القطار فإنه يمكنه أيضا أن يتصور أنه والقطار يقفان ثابتين بينما الشخص الذى على الرصيف هو وكل شيء آخر هناك يمر به مسرعا .

وهذان الفرضان - الأول الذى يفترض أن كل الحركة نسبية ، والآخر الذى يستثنى من ذلك سرعة الضوء حيث أنها ثابت مطلق ليبدوان فرضين متناقضين . إلا أنهما فى عالم النسبية الخاصة لا يتعارضان ، وقد أدى الفرضان إلى إلغاء فرض نيوتن الأساسى بأن الزمان مطلق ، وبأنه مثل النهر ينساب دائما من الماضى إلى الحاضر .

وللبرهنة على ثبات سرعة الضوء ، ونسبية كل حركة أخرى ، استخدم إينشتين تجارب فكرية مثل التالى : لو أن شخصا على رصيف المحطة رأى صاعقتين تبرقان ، إحداهما بعيدة إلى الشرق

والأخرى بعيدة إلى الغرب ، وهما تضربان الشريط الحديدى فى نفس الوقت ، فمن المنطقى أنه سوف يستنتج أنهما قد حدثتا فى نفس الوقت . ولكن لو كان أحد الأشخاص فى قطار يتحرك بسرعة كبيرة من الشرق إلى الغرب وكان القطار عند الرصيف مباشرة ، فسيبدو له وكأن البرق فى الغرب قد حط أولا .

والسبب حسب إينشتين ، هو أن الملاحظ الذى فى القطار يتحرك تجاه البرق الذى فى الغرب ، ولما كانت سرعة الضوء ثابتة ، فإن ضوءه يصل إليه أسرع قليلا عما يصله ضوء برق الشرق . والشخص الذى على الرصيف يرى البرقين متزامنين ، بينما الراصد الذى فى القطار يرى أحدهما أولا ثم الآخر . وكل منهما سيسجل ظواهر مختلفة هى فى الحقيقة واحدة . وفوق ذلك ، فلو أن البرقين وقعا فى وقتين مختلفين هونا ، وكانا برق الشرق أولا ، فإن الشخص الذى فى القطار هو الذى سيسجل أنهما قد ومضا متزامنين معا .

أى الملاحظين هو المخطىء ؟ كلاهما على صواب ، حيث الأمر يعتمد على تحديد إطار المرجعية عندهما – القطار أو الرصيف . وباستدلال مماثل ، بين إينشتين أن الزمان والمكان مرتبطان ويتقلبان تقلبا متساويا ، حسب حركة الراصد . وباستخدام رياضيات بسيطة بما هو معقول ، فإنه يبين مثلا أنه بالنسبة

للشخص الذى على رصيف المحطة ، يصبح طول نوافذ القطر الذى يمر به مسرعا طولا أقصر بالفعل . وكلما زادت سرعة القطار ، مقتربة من سرعة الضوء ، فإن طول النافذة ينكمش ليصبح لا شىء . وبالنسبة لشخص فى القطار ، فإن النوافذ ستبقى كما هى .

وما من شىء يظل هو نفسه فى عالم نسبية إينشتين الجديد الجسور ، وذلك بالطبع فيما عدا سرعة الضوء ، ونجم عن هذا التفكير بعض استنتاجات عجيبة . فمثلا ، لو أن الشخص الذى على الرصيف أمكنه أن يرى ساعة شخص فى القطار السريع ، فإن آلة الزمن هذه ستدور بسرعة أبطأ ، حتى فى القطارات الأرضية العادية ذات السرعات البطيئة . وبالطبع فإن من المستحيل قياس مدى إبطاء سرعة الساعة هنا ، لأنه صغير جدا . أما فى السرعات الأكبر ، التى تقارب سرعة الضوء ، فإن التغيرات تكون كبيرة .

ويرهن إينشتين رياضيا على أن الشخص الذى على الأرض ويرقب سفينة فضاء تبتعد بسرعة ١٦٠,٠٠٠ ميل فى الثانية ، أى ما يقرب من ٨٦ فى المائة من سرعة الضوء ، فإن الساعة التى فوق السفينة ستبدو له وكأنها تتحرك بنصف سرعتها فقط . وسيبدو أيضا وكأن كتلة السفينة قد تضاعفت بينما انكمشت أبعادها إلى

نصف حجمها السابق . وبالنسبة لعالم فلك فوق سفينة الفضاء ، سيبدو أن التغيرات تحدث لا فوق سفينته وإنما فوق الأرض ، حيث سيبدو الزمان أيضا كما لو كان يبطيء .

وباعلان أن الزمان يكون قياسه مختلفا بالنسبة للأشياء أو الأفراد التى يتحرك احدها بالنسبة للآخر ، فإن إينشتين أبطل للأبد فكرة الزمان المطلق (ومفهوم " للأبد " هو فكرة أخرى لم يعد لها أى معنى فى الكون النسبى) . وقد بين إينشتين بعد ذلك أن الفلكى الذى يسافر فى سفينة الفضاء بسرعة تقرب من سرعة الضوء سيزيد سنّه بأبطأ من أخيه التوأم الذى خلفه على الأرض .

وفى ورقته الرابعة والأخيرة فى ١٩٠٥ ، قام إينشتين بما قد يكون أكثر ضرباته جسارة . إنه من قبل قد أبطل الأفكار السابقة عن الزمان والمكان ؛ والآن فهو يفعل نفس الشىء بالنسبة للكتلة والطاقة . وقبل إينشتين كان ينظر إلى الكتلة والطاقة على أنهما منفصلان ومتميزان . فالحدس يخبرنا كما أخبر الفيزيائيين قبل إينشتين أن الكرة والطاقة التى ترمى بها ليسا نفس الشىء . وقد وجد إينشتين من فروضه فى النسبية الخاصة ، أن هذا التمييز ليس صحيحا . وباستخدام رياضيات النسبية الخاصة وبعض أفكار من ورقته عن الظاهرة الضوء كهربية وصل إينشتين إلى استنتاج أنه إذا كان شىء يبث الطاقة فى شكل الضوء ، فإن كتلته تتاقص بقدر الطاقة مقسومة على مربع سرعة الضوء – أى

أن ك = $\frac{ط}{س^{٢}}$: $m = \frac{E}{C^2}$. ومن هنا تبقى خطوة جبرية بسيطة للوصـــول إلى أشـــهر معـــادلة فى التـــاريخ وهى ط = ك س^{٢} $E= mc^2$ ، والتى نشرت فى ١٩٠٧ .

وبين إينشتين أن الكتلة والطاقة ليستا فحسب متكافئتين ، وإنما هما قابلتان للتبادل فيما بينهما . وكانت دلالات ذلك هائلة . فهو يعنى أن قدرا صغيرا من المادة يمكن فى الظروف الملائمة أن يتحول إلى قدر هائل من الطاقة يعادل القوة الانفجارية لأطنان من مادة ت ن ت .T.N.T (الديناميت) .

وقد تمت البرهنة على أن النسبية الخاصة تصلح للتطبيق ، وأن الكتلة والطاقة حقا تتبادلان معا فيما بينهما ، فتمت هذه البرهنة آلاف المرات فى معجلات الجسيمات ، تلك الآلات الهائلة التى تسحق الذرات سحقا ويستخدمها الفيزيائيون اليوم لاستكشاف نواة الذرة . وفى معمل فيرمى القومى للمعجلات ، وجد أن البروتونات التى يتم تعجيلها خلال أنبوبة تدور فيها لأربعة أميال تتضاعف كتلتها تضاعفا يبلغ الكثير من الآلاف عندما تصل السرعة إلى كسر له دلالته من سرعة الضوء .

وإينشتين عندما توصل إلى نظريته للنسبية الخاصة هى وفروضها ، فإنه عالج بذلك فحسب القوانين الجديدة التى تتناول قياس المكان والزمان بين راصدين يتحركون بسرعة متسقة ، أى

بسرعة لا تتزايد ولا تتناقص أو هم ينتقلون فى قوس مثل مدار الكواكب . وكان إينشتين يعرف أن عليه أن يحل مسائل الحركة المعجلة وهى مسائل أكثر تعقيدا .

وأحد أكبر مشاكل الحركة غير المتسقة يتناول الجاذبية ، حيث تظهر فى تعجيل السرعة عندما تشد جاذبية الأرض شيئا إلى سطح الأرض . والأمر الملحوظ بالنسبة للجاذبية ، والذى لاحظه نيوتن وجاليليو ، هى أنها فيما يبدو لها نفس التأثير فى كل الأجسام بصرف النظر عن وزنها . والمفروض أن جاليليو فى تجاربه الشهيرة من برج بيزا – وأن كانت فيما يحتمل مما يُشك فى وقوعها – قد بين أن الأشياء التى تختلف فى كتلتها تصل إلى الأرض فى نفس اللحظة عندما تُسقط فى نفس الوقت . وإذ كان هناك أى فارق ، من مثل أن تصل قذيفة مدفع إلى سطح الأرض بأسرع من الريشة ، فإن هذا الفارق يرجع إلى مقاومة الهواء .

وجاليليو ونيوتن كان يريان أن الجاذبية هى قوة فريدة فى الطبيعة : قوة تختص بها الأرض أو الأجرام السماوية الأخرى . أما إينشتين فقد رآها كظاهرة أوسع .

وهو يقول ، لنفترض أن عالما يركب مصعدا فى سفينة فضاء بعيدا عن تأثير جاذبية الأرض . ولنتصور أن المصعد فى داخل سفينة الفضاء له عجلة سرعة فى الصعود من ٣٢ قدم فى الثانية

لكل ثانية . وهذا هو بالضبط نفس المعدل الذى تشد به الجاذبية إلى الأرض شيئا مثل قذيفة مدفع أسقطت من أحد الأبراج . أما فى مصعد سفينة الفضاء ، البعيد عن تأثير الجاذبية ، فإن قدمى العالم ستظلان تضغطان فوق أرضيته إذ يقاوم جسده عجلة السرعة لأعلى وهو لو ألقى حجرا ، فإن الحجر سيهوى إلى الأرضية تماما مثلما على الأرض .

والعالم هكذا لا يستطيع القول بما إذا كان الشد لأسفل هو بسبب الجاذبية ، أو أنه بسبب القصور الذاتى لجسده الذى يقاوم عجله سرعة المصعد لأعلى . وهذا يعنى أنه لا يوجد فارق بين عجلة السرعة التى تسببها الجاذبية وتلك التى من مصادر أخرى . وقد سمى هذا مبدأ التكافؤ : فمجال الجاذبية له " وجود نسبى " .

ولو أن جاليليو وثب من برج بيزا ثم أسقط حجرا وهو فى طريقة لأسفل ، فإنه هو والحجر سيمضيان فى السقوط معا . وسيبدو لجاليليو أن الحجر فى حالة سكون ، ولو أوقفت تأثير الجاذبية مؤقتا ، فإن جاليليو يمكن أن يعد نفسه أيضا لثوانى معدودة فى حالة سكون .

وإذن فما هى الجاذبية ؟ استخدم إينشتين أفكارا من النسبية الخاصة ، وأضاف إليها أفكارا جديدة ليصف الجاذبية بطريقة فريدة – بتفسير يبين أن الجاذبية هى فى الحقيقة ليست قوة

بالمعنى العادى . وأضاف إينشتين للنسبية الخاصة نوعا مختلفا من الهندسة ، ذلك أنه وجد أن النوع القديم - الهندسة الاقليدية - هو أضيق من أن يسع طريقته الجديدة للنظر إلى الكون .

وكان لإينشتين صديق قديم هو مارسيل جروسمان ، وقد ساعدت مذكراته إينشتين على النجاح فى امتحان هام عندما كانا زميلين فى أحد فصـــول مدرسة ثانوية سويسرية منذ سنوات مضت ، وقد بين له صديقه هذا أين يبحث . فهناك نوع من هندسة لا إقليدية ، قد أنشأه رياضى ألمانى يدعى برناردريمان . وكان فيها الأداة الريــاضية التى تنقص إينشتين . هندسة المكان المقوس .

ولكن ما هى علاقة المكان المقوس والمصعد ذى السرعة المعجلة بالجاذبية ؟ ويقول إينشتين لنتصور ثانية أن مصعد سفينة الفضاء الذى يوجد فيه العالم قد زيد من عجلة سرعته زيادة هائلة بحيث أن سرعته بدأت تقترب من سرعة الضوء . ففى حالة كهذه ، فإن شعاع الضوء الذى يدخل من ثقب فى أحد الجدران سيبدو للعالم فى الداخل وقد انثنى قليلا لأسفل فى قوس بحيث يصل إلى الجدار الآخر عند نقطة أكثر انخفاضا .

وسبب ذلك أنه حسب معادلة إينشتين السابقة ، فإن الضوء والكتلة يتكافآن فى ظروف معينة . ولما كان للضوء طاقة ، فإن له

إذن كتلة ، وكل شىء له كتلة ينجذب بالجاذبية . والجاذبية ليست إلا نوعا من تعجيل للسرعة . وهكذا فإنه فى المصعد الذى تعجل سرعته ، يكون العالم والضوء متأثرين تأثيرا متساويا ، وهما معا مشدودان نحو ارضية المصعد . وبنفس الاستدلال ، فإن إينشتين يقول أنه لو مر شعاع ضوء بالقرب من شىء ثقيل مثل أحد الكواكب ، فإن الجاذبية ستثنى بالفعل مسار الضوء لناحية الكوكب .

وقد جعل إينشتين هذه المفاهيم معا فى عشر معادلات رياضية أو مسائل مجال ، نشرها على أنها نظريته عن النسبية العامة فى ١٩١٦ . وكنت هذه أكثر ثورية عن النسبية الخاصة ، ذلك أنها لم يكن لها تقريبا أى سابقة نظرية فى ذلك الوقت .

وأكثر ما هو رائع فى النسبية العامة هو أن إينشتين قد أبطل مفهوم الجاذبية كقوة . فهو يقول أنه فى الحقيقة لا يوجد شىء من مثل قوة الجاذبية . وإنما هناك بدلا من ذلك هندسة الكون – الهندسة المقوسة كما أعطاها ريمان – فهى المسئولة عن القوة التى نظن أنها الجاذبية . وسمى إينشتين فضاءه المنحنى متصل المكان – الزمان .

إنه يشبه نوعا البساط المطاطى المشدود (الترامبولين) . فلو وضعت عليه قذيفة مدفع ، سينتج عن ذلك إنبعاج كبير . أما البرتقالة فتصنع انبعاجا صغيرا فى الترامبولين وتنزع إلى أن

تتدحرج تجاه الحفره الأكبر . والنجوم والكواكب لها نفس التأثير فى الفضاء مثل تأثير الكرات فى الترامبولين ؛ فالأجرام السماوية تسبب بالفعل انبعاجا فى الفضاء من حولها ، مغيرة بذلك من هندسة الفضاء نفسه . والأشياء الأكبر فى هذا الفضاء المنبعج المقوس هى مثل قذيفة المدفع فوق ترامبولين ، تنزع لأن تجذب إليها الأشياء الأقل كتلة .

والنسبية العامة كانت تتحرك كما هو أبعد كثيرا من التفكير التقليدى آنذاك . فقد كانت فيزياء جديدة بالكلية ، وطريقة فى النظر إلى الكون هى جد مختلفة ، وهكذا كان هناك عدد ممن يكفرون بها .

وثمة ظاهرتان طبيعيتان موجودتان كان إينشتين واثقا من أنهما يثبتان صدق أفكاره عن الفضاء المقوس . والأولى تتناول مدار عطارد ، الذى ظل طيلة أكثر من قرن يرفض أن يتحرك فى مدار من قطع ناقص بمثل ما توصفه فيزياء نيوتن : فكان لمداره زيادة فى القوس تبلغ ٤٣ ثانية أكثر مما ينبغى ، عندما يكون الكوكب أقرب ما يكون للشمس . ولم يتمكن أحد من أن يفسر هذا الفارق ، وهو فارق صغير ولكنه مما أمكن قياسه بتكنولوجيا القرن التاسع عشر . وعندما طبقت معادلات إينشتين المجالية على مدار عطارد ، تنبأت هذه المعادلات بفارق هو بالضبط ٤٣ ثانية من القوس .

أما الاختبار الآخر للنظرية فكان أكثر صعوبة . فمعادلات إينشتين بينت أن الضوء الآتى من نجم بعيد ينثنى قليلا بفعل مجال الجاذبية الذى من حول الشمس - تماما مثل شعاع الضوء فى مصعد العالم بسفينة الفضاء . وحسب ما تتنبأ به المعادلات فإن الانحراف يكون بالضبط ١,٧٥ ثانية من القوس . والوقت الوحيد الذى يمكن فيه اختبار هذه الفكرة هو عندما تكون الشمس فى كسوف كلى ، لأن الضوء الآتى من أى نجم على نفس الخط مع الشمس يكون غير مرئى بسبب ضوء الشمس .

واتفق أن كان سيقع كسوف كلى فى نصف الكرة الجنوبى فى ٢٩ مايو ١٩١٩ ، بعد ما يقرب من ثلاثة سنوات من نشر النسبية العامة . ودفع المعهد الملكى بحملة إلى جزيرة برنسبل أمام الساحل الغربى لأفريقيا . وأثناء الكسوف وجد الفيزيائى البريطانى أرثر إدنجتون انحرافات فى ضوء النجوم تتفق تقريبا مع حسابات إينشتين . وعندما تم إبلاغ هذا الإثبات لإينشتين فى برلين ، أجاب بأنه لم يشك قط فيما ستكونه النتائج . وعندما سئل ماذا كان سيفكر فيه لو أن القياسات لم تثبت نظرية النسبية العامة ، أجـاب « كنت سأحس وقتها بالأسى للكون » .

وإذ بدا أن الملاحظات تثبت النسبية العامة - وكانت هذه هى الأولى من إثباتات كثيرة بأن الكون يسلك بما يكاد يكون بالضبط

حسب الطريقة التى تحتم النسبية العامة أنه ينبغى أن يسلكها – فإنه قد ولد هكذا علم الكونيات النظرية الحديث .

ويكاد يحدث دائما أن تعاد صياغة نظرة الانسان المتصورة عن الكون فى أعقاب فترة تكون النظرة القديمة عندها قد بدأت تفشل . ويتم اكتشاف حقائق جديدة . لا تتلاءم والنظام القديم للأشياء ، وتبدأ النظرة المتصورة القديمة فى التهاوى . وهكذا فإنه عندما ظهر إينشتين على المسرح كان العلم مهيئا لانقلاب فى المفهوم المتصور. وكان هناك عدد كاف من التصدعات فى صرح نيوتن بما يتطلب نظرة للأشياء تختلف اختلاف واسعا . أما السؤال عما إذا كان هناك الآن تصدعات فى صرح فيزياء القرن العشرين فيها الكفاية لأن تؤدى إلى نظرة تصورية جديدة ، فإن هذا لأمر غير مؤكد .

وهوكنج وقد ولد فى كون يتم توصيفه توصيفا كاملا ومقبولا بالنسبية العامة ، يعد من الجيل الثانى من العلماء الذين شبوا فى ظل عقيدتها . على أن التقدم قد تواصل سريعا فى القرن العشرين بحيث أن إينشتين قد أصبح بالفعل أقل من أن يكون مقدسا . فهل بدأت تتهاوى نظرة إينشتين للكون بالدرجة التى يمكن معها أن نكون على عتبة عصر علمى جديد؟

وهونج لا يجيب تماما عن هذا السؤال ، « إن المرء لا يستطيع القول بذلك حتى يحدث . وأحد أوجه الجمال فيما لم يُكتشف هو أنه لم يُكتشف » .

وصلة إينشتين

قال إينشتين وكتب فى مناسبات عديدة « إن الله لا يلعب النرد بالكون .» وكان هذا إعلانا عن سخطه الثابت على ميكانيكا الكم ، وهى ذلك النظام الرياضى الذى نشأ فى عشرينيات القرن وثلاثينياته لتفسير مسار الجسيمات تحت الذرية . وبعد عدة عقود عقب سيتفن هوكنج بقوله :

« إن النرد أحيانا يلقى به حيث لا يمكن رؤيته . » وليس قوله هذا فى قوة ما قاله إينشتين ولكنه يوضح وجهة نظر هوكنج : فالزمن والمعرفة قد تجاوزا أخيرا إينشتين * .

وهوكنج لديه فى مكتبه مجموعة صغيرة من الصور الضوئية والملصقات لإينشتين. ومن آن لآخر يستبدل بالقديم منها ما يصل من جديد . على أن كل ما قاله هوكنج لى عن إينشتين هو ، « حسن ، لقد كان فيزيائيا بارعا جدا . »

وقد تلقى إينشتين الكثير من التقدير عبر العالم كله بعد أن تم إثبات النسبية العامة تجريبيا . فاستقبله الملوك ، وشق محررو

* القول بأن النرد يكون حيث لا يمكن رؤيته يشير إلى إمكان وجوده داخل ثقب أسود .

الصحف والمجلات الطريق إلى بابه لإجراء مقابلات صحفية ؛ وأُلفت الكتب الشعبية عن النسبية العامة لمحاولة تفسير أسرارها . وكان هناك أيضا مقاومة للنسبية . وقد رفض بعض الناس أن يؤمنوا بأن رجلا بمفرده يستطيع باستخدام الهيروغليفيات الرياضية وحدها أن يعيد تعريف الكون كله .

ورغم كل هذا التقدير والجدل ، فقد ظل إينشتين يمضى قدما بعمله . وقد كان من المستحيل أن يتم له الحصول مرة أخرى على عمل فذ ثورى من نوع النسبية العامة ، ولكنه أراد أن يوسع منها . إن معادلاتها توصّف هندسة المكان - الزمان ، وهو على ثقة من أنها تصلح لهندسة كل الزمان - المكان ، أى الكون من بدايته حتى نهايته . وقد نشر فى السنة التالية ورقة بحث فى ١٩١٧ ، أرست أكثر من أى شىء آخر علم الكونيات الحديث - أى دراسة أصل الكون ، وتاريخه ، وشكله .

وكانت هذه الورقة عملا رائعا . فقد أرسى فيها مبدأ أشعة الليزر قبل الوصول إلى أول نوع منها بأربعين عاما ، وهذا فى حد ذاته إنجاز مذهل . ولكن الأهم من ذلك أنه وصف كيف يمكن لمعادلات النسبية العامة أن توصّف مسلك الأجرام الكبيرة من المادة فى الكون على مدى فترات طويلة من الزمان . ودخل فى التو فى المشاكل .

كانت المشكلة هى أن أفضل وأبسط التفسيرات لمعادلاته تدل على كون غير مستقر ، بل وكون من الممكن أنه يتمدد . وكان الفلكى الهولندى ويليم دى سيتر ، من ضمن كثيرين آخرين ، قد حل بالفعل المعادلات التى تدل على أن الكون غير ساكن ، فإما أنه يتمدد وإما أنه ينكمش ولكنه لايظل ثابتا . وحنق إينشتين لذلك . إنه يريد لمعادلاته أن تبين السماء كما صورها معظم الفلكيين : مستقرة لا تتغير ، موحدة الخواص - أى تتماثل فى كل اتجاه ، ومتجانسة - أى تتماثل فى كل مكان .

ووجد إينشتين طريقا شاذا نوعا ليخرج من هذه المشكلة . فحتى يجعل النسبية العامة تتلاءم مع نموذجه عن الكون ، فإنه عدل من معادلاته مضيفا إليها رقما سماه الثابت الكونى ، مشيرا إليه بأنه « تعديل بسيط » .

وكانت إحدى المشاكل المباشرة للثابت الكونى ، أن نظرية النسبية العامة هى نظرية كاملة فى حد ذاتها بحيث أنها لا تحتاج إلى ثوابت كونية . وهكذا فإن " مصطلحات دلتا " ، كما أطلق عليها ، كانت فى الحقيقة غير ضرورية . وكان إينشتين نفسه يعى ذلك بقوة ، فأعلن فى آخر جملة فى ورقة بحث ١٩١٧ ، " إن مصطلح (دلتا) هو ضرورى فقط بغرض أن يجعل من الممكن أن تتوزع المادة توزعا شبه - ساكن حسب ما تتطلبه حقيقة ما للنجوم من سرعات صغيرة .

وفى ١٩٢٢ قام الرياضى الروسى الكسندر فريدمان بحل معـادلات بإينشـتين استخدام الثابت الكونى وأيضا بدون استخدامه . وكما حدث مع إينشتين فإن حله باستخدام الثابت الكونى نتج عنه كون ساكن يظل كما هو للأبد . أما حل فريد مان الثانى والأكثر جسارة فقد أزاح مصطلحات دلتا ، وأدى إلى أول نموذج للكون المتمدد ، والحقيقة أنه أدى إلى نموذجين مختلفين . وقد بقى أن يتحدد أيهما هو الصحيح ؛ وكل منهما يقدم نظرة مختلفة عن مصير الكون النهائى .

ونموذجا فريد مان للكون المتمدد هما فى الحقيقة أساس الكونيات الآن . والأول هو نموذج تكون كثافة المادة فيه أقل من مقدار حرج معين ، بمعنى أن الكون لا نهائى وسيظل يتمدد للأبد . وفى النموذج الثانى - وهو النموذج الذى يقره معظم الفلكيين المحدثين - فإن الكثافة تكون أعظم من المستوى الحرج . وكنتيجة لذلك فإن تمدد الكون سوف يتوقف يوما ما . فالكون محدود ، ولكنه أيضا بلا حدية ؛ فانت فى الكون إذا أخذت فى الحركة فى خط مستقيم ، سوف تنتهى بالعودة إلى حيث بدأت .

وهذا مفهوم عجيب علينا أن نتقبله بالطريقة الطبيعية التى نتقبل بها أن البيض يُقلى فى مقلاة ساخنة . ويعتقد هوكنج أن كوناً كهذا يتقوس على نفسه ثانية ، هو مثل ثقب أسود هُائل

يتقوس أيضا حول نفسه . وكما يقول فإن التوصيفات الرياضية تكون هكذا على الأقل متماثلة .

ويقول هوكنج " يمكن النظر إلى هذا النموذج للكون بطريقة أخرى وكأنه بالونة هائلة تتمدد . " * والنقط التى عليها تمثل المجرات .

وفى ١٩٢٢ نشر إينشتين نقدا رياضيا لعمل فريد مان . وسرعان ما سحب نقده ، وأهمل الموضوع بالكلية لما يقرب من عشر سنوات .

وفى نفس الوقت ، كان قد تم بناء متتالية من التلسكوبات الأكبر والأكبر وذلك فى غرب الولايات المتحدة ، ورأت التلسكوبات فى السماوات ما كان فريد مان قد تنبأ به من قبل فى حساباته ، وفى ١٩٠٨ تم بناء عاكس من ٦٠ بوصة فى مونت ويلسون بكاليفورنيا ، وتم فى ١٩١٧ بناء تلسكوب من مائة بوصة فى نفس المرصد ، وكان إدوين هابل ، وهو بطل سابق هاو للملاكمة ، قد بدأ يعمل فى مونت ويلسون فى ١٩١٩ ، وبحلول عام ١٩٢٣ وصل إلى أول تقدير للمسافة بين مجرتنا ، أى درب التبانة ، ومجرة أندروميدا ، أقرب جار لنا .

وبين هابل أيضا أن أندروميدا هى تقريبا فى نفس حجم درب التبانة ، وهى أول إشارة إلى أن أجزاء الكون الأخرى هى مماثلة

* عندما تتمدد البالونة ، تتباعد النقط التى عليها إحداها عن الأخرى .

لجزئنا ، واكتشف هابل أثناء العشرينات أن المجرات البعيدة تتوزع توزعا متساويا عبر السماوات ، وأهم من ذلك أنه أثبت أنها كلها تسرع لتتباعد إحداها عن الأخرى مثل قذائف الرش من بندقية للرش .

وأعلن هابل فى ١٩٢٩ أن معطياته تبين أن المجرات تتحرك متباعدة بمعدل يتناسب طرديا مع بعدها عن درب التبانة ، وكان هذا هو أول دليل مباشر على أن الكون يتمدد ، وأصبح هذا معروفا بقانون هابل واقتنع معظم الفيزيائيين بأن تفسير فريد مان لإينشتين هو أكثر صحة من تفسير إينشتين لإينشتين . وانتهى إينشتين إلى الإقرار بأن الثابت الكونى هو أسوأ خطأ فى حياته العلمية .

وقبل ملاحظات هابل ، كانت حسابات فريدمان تقوم بدور لا يزيد إلا قليلا عن مجرد ألعوبة للمنظّرين . ولكنها بربطها بقانون هابل ، أرست ما يعرف اليوم بالمبدأ الكونى . وعقيدته الأساسية هى أن الكون على وجه التقريب متماثل فى كل الاتجاهات . والكون يبدو على وجه التقريب أيضا متماثلا لأى راصد أيا ما كان موقعه فى الكون . ومنذ الثلاثينيات تكاد كل ملاحظة أن تثبت أن الكون يتمــدد ، على أن إثبــات المبــدأ الكونى ليس بالضرورة مؤيدا بالمعطيات الفلكية .

وقد قال لى هوكنج ونحن نتحدث عن هذا الفرض ، « الحقيقة

أن ليس هناك ما يضمن أن الكون متماثل في كل النقاط . إن المرء ليتوصل في النهاية إلى صورة يمكن أن يكون للكون فيها فروع مختلفة . ومن الممكن أننا موجودون في فرع من الكون لا يسمح لنا برؤية كل سائر الكون . والحقيقة أنه ثمة احتمال يزيد عن الصفر بأن يكون للكون أشكال كثيرة مختلفة » .

ومع هذا فإن النسبية العامة مقرونة بتفسير فريد مان وملاحظات هابل قد أمدت لأول مرة بصورة كاملة للكون - وإن لم تكن بالضرورة صورة دقيقة بالكامل . على أن علماء الفلك لم يبدأوا في إدراك مدى شمولية هذه الصورة بالفعل إلا بعد أن ظهر هوكنج وروجر بنروز على المسرح بعد ذلك بعشرات السنين .

وقد قال لي هوكنج « إن أحد ملامح حلول فريدمان الذي لم يؤخذ مأخذا جديا وقتها هو أن هذه الحلول قد دلت على أنه كان ثمة فترة فريدة في الماضي حيث تركزت كل المادة في نقطة واحدة، وهذه هي النقطة المعروفة (بالمفردة) ، وقد أحس معظم الناس وقتها أن الظروف في الكون الحقيقي لا يمكن قط أنها كانت بمثل هذا التطرف » .

وقد أخبرني هوكنج أنه في الوقت الذي ركز فيه هو وبنروز تفكيرهما على مشكلة تفسير أصل الكون حسب النسبية ، كان نموذج فريد مان يقدم نظرة جيدة إلى حد معقول بالنسبة لما حدث

وراء حتى أول مائة ثانية أو ما يقرب . ثم قال « وبالطبع ، فقد كنا متلهفين فى الواقع إلى الكشف عما حدث قبل ذلك » .

والمشكلة بالنسبة لنماذج فريد مان ، مع كل ما فيها من إبداع ، هى أن الكون الحقيقى يحوى أوجها من عدم الإنتظام ، ويقول هوكنج « عندما يرتد المرء وراءً فى الزمن ، فإن أوجه عدم الانتظام هذه قد تصبح أكبر وتكون السبب فى أن الجسيمات المنفردة وهى تتجمع ، يفوت الواحد منها من الآخر ، مما يؤدى إلى حدوث نوع من تمرجح بلا مفردة ، وفى هذه الحالة فإن النقاط تفوت إحداها من الأخرى أثناء الانكماش ، وهكذا فإن الكون يعاود بالفعل تمدده دون أن يصل قط إلى المفردة .

وكما قال لى هوكنج « وكنتيجة لذلك ، فإن أحدا لم يأخذ نموذج فريد مان مأخذا جديا جدا كتفسير لما حدث أثناء خلق الكون ، والحقيقة أن معظم الناس كانوا يعتقدون أنه ليس هناك بداية حقيقية ، وقد أثبتنا لهم خطأهم » .

وبالسير بنموذج فريد مان إلى الخلف أى فى انكماش نظرى – بمعنى العودة وراء فى الزمان – فإن الفيزيائيين هكذا يحاولون الكشف عما حدث عند أول بداية الكون ذاتها ، والأهم جوهريا هو أنهم يريدون إثبات أن الكون ، كما يطرح نموذج فريد مان ، له بداية حيث كانت كل المادة تتركز فى نقطة واحدة ، وأنه كان

هناك انفجار كبير انبثقت فيه هذه النقطة لتنفجر فتخلق كوننا ، وفضاءنا ، وزماننا ، وكان على هوكنج وزميله روجر بنروز أن ينجزا هذا العمل الفذ .

كان بنروز وقتها عالم رياضة شاب وعالم فيزياء نظرية فى كلية بيركبك بجامعة لندن ، وكان قد أثبت نفسه بالفعل كواحد من أكثر علماء الرياضة تقدما ، وكان أستاذا فى حل الألغاز والأحاجى الهندسية والرياضية ، وقد كان مصدر الهام لصور عديدة رسمها الفنان الهولندى التشكيلى م . س إشر . ولم تكن اهتمامات بنروز مجرد صدفة - فوالده كان من علماء الوراثة المبرزين وأحد من يبتكرون الأحاجى الرياضية ، كما كان أحد إخوته بطلا لبريطانيا فى الشطرنج لعشر مرات ، أما عمه فرسّام سيريالى رائد وصديق لبابلو بيكاسو ومؤرخ لسيرته .

وقد قال لى هوكنج « إن أول مجال رئيسى عملنا فيه هو عما إذا كان الزمان له أو ليس له بداية أو نهاية ، ووقت أن بدأت العمل على المشكلة فى ١٩٦٢ ، كان الرأى السائد أن ليس للزمان بداية ».

وأحد المواضيع المنطقية لمنظّرى الانفجار الكبير عندما يبحثون عن النماذج التى يمكن رصدها ، هو أن يبحثوا ظاهرة النجوم المتقلصة . فهذه النجوم وهى تتقلص على نفسها بوزنها الخاص بها ، قد تؤدى فى النهاية إلى ثقب أسود توجد فى اللب منه

« المفردة » ذات الاشكال . وأهم شئ أنه سيكون لديهم هكذا – بالطريق العكسى – بعض من خواص الكون المتمدد .

وتاريخ أى نجم – سواء من حجم متوسط مثل الشمس أو كبير مثل قلب العقرب Antares الذى يبلغ قطره مسافة فلك الأرض – هو أساسا صراع مشدود بين قوة حرارته وإشعاعه الهائلة التى تتوجه إلى الخارج – والتى هى نتاج التفاعلات التى تقع بين ذرات النجم – وقوة الجاذبية القوية التى تتوجه للداخل . فإذا كان النجم ثقيلا بما يكفى ، فإن أيا من قوى التفاعل الثلاث الأخرى التى تعمل فى الكون – القوة النووية القوية ، والنووية الضعيفة والكهرومغنطية – لن تستطيع أن تقاوم تأثير شد الجاذبية فى مادة النجم نفسه ، ويبدأ النجم فى التقلص على ذاته .

ما الذى يمنع أن يستمر تقلص النجم إلى الأبد ، حتى يسحق النجم نفسه إلى شذرة جد صغيرة تحوى كل مادته ، نقطة واحدة من كثافة لا نهائية ؟ وإذ تخيل الفيزيائيون نجما يتقلص بما لا نهاية له ، فإنهم لم يتمكنوا من تحديد ما الذى سيحدث عندما يصل النجم إلى النقطة التى يسمونها المفردة . إن المفردة هى نهاية الطريق ، موضع حيث يحدث ببساطة أن يختفى المكان والزمان ، ويقول لى هوكنج « عند المفردة ، تنهار المفاهيم الطبيعية عن المكان والزمان ، ويحدث نفس الشئ للمعادلات » .

وقد آمن منظرون كثيرون بأن المفردات ينتهى بها الأمر بألا تصبح شيئا بأكثر من تجريدات رياضية ، وقد تطلب الأمر أن ينجز بنروز عملا رياضيا ذكيا ألمعيا حتى يبين أن النجم الذى يتقلص إلى مالا نهاية ليس مجرد ألعوب نظرية ، وأن هذا النجم سينتهى إلى مفردة فيزيائية حقيقية ، وبين بنروز أن المكان والزمان يمكن أن يصلا إلى نهاية فيزيائية وليس مجرد نهاية مجازية .

وفى ١٩٦٥ وقد شُدّ هوكنج بهذا الإثبات للمفردة ، فإنه بدأ يعمل بالاشتراك مع بنروز .وقد أنشأ خلال السنوات الثلاث التالية العديد من النظريات التى تعد مفاتيحا بشأن بنية المكان والزمان والمفردات ، وهى تبين أن الكون قد بدأ كمفردة .

وإثبات أن الكون قد بدأ كمفردة ذات كثافة لا نهائية تشبه الناتج الختامى لنجم فى تقلصه النهائى ، لم يكن بالمهمة السهلة . ويقول هوكنج متذكرا « كانت هذه بالطبع النقطة التى تنهار عندها كل معادلاتنا . وثمة حلول لمعادلات إينشتين كان معظم الناس فى تلك الأيام يعتقدون أنها غير واقعية ، فهى تمثل كونا متسقا ومتوحد الخواص لأكثر مما ينبغى » .

ويقول هوكنج ضاحكا « معظم من كانوا يشتغلون على هذه المشكلة كانوا يؤمنون بأنه حتى تقترب من الحقيقة سيكون عليك أن تصل إلى حل معقد فيه الكثير من أوجه عدم الانتظام وعلى نطاق

واسع . ولم يكن أحد يريد أن يصدق أن الحقيقة يمكن أن تكون بسيطة بمثل ما كانت عليه » .

وإذ يرتد السير وراءً بتمدد الكون إلى انكماش نظرى ، تكون إحدى المشاكل التى تجابه الفيزيائيين هى إمكان أن يحدث أن الجسيمات ذات الحركة العشوائية يفوت أحدها من الآخر ، وكان هذا تفكير مجموعة من المنظرين الروس فى ١٩٦٣ ، عندما طرحوا نظرية تنادى بتناوب أطوار من الانكماش والتمدد أثناء الانفجار الكبير بما يسمح للجسيمات بأن تتفادى الاصطدام أحدها بالآخر

ويضحك هوكنج وهو يقول « كان أول عمل بحث كبير لى هو إظهار أنهم على خطأ » . وقد عمل هوكنج وبنروز على هذه المشكلة بين ١٩٦٥ ، ١٩٦٨ ، وشرح هوكنج لى طريقة تفكيرهما . « لقد أنشأنا تكنيكا رياضيا جديدا كان فى الواقع تحليلا للطريقة التى يمكن بها للنقاط التى فى المكان – الزمان أن تكون فى علاقة سببية إحداها بالأخرى ، والأمر أنه فى النسبية العامة لا يمكن لأى إشارة أن تنتقل بأسرع من الضوء ، وهكذا فانه لا يمكن لحدثين أن يكونا على علاقة معا إلا إذا أمكن وصلهما بحيث يمكن أن تصل من واحد للآخر بسرعة تساوى أو تقل عن سرعة الضوء » . ويعنى هذا أن هوكنج هو وبنروز لم يكونا فى حاجة إلى تفسير ما سيحدث للجسيمات الفردية لحظة الانفجار الكبير ، مثلما كان كل فرد آخر

يحاول أن يفعل . « والحقيقة أننا وجدنا أنه يمكنك استخدام الخواص المختصة بالمقياس الكبير (Large Scale Properries) لإثبات أنه لابد من أنه كان هناك مفردة فى البداية ، وهو تناول أسهل كثيرا . ويعنى هذا أن للزمان بداية » .

واستمر هوكنج وبنروز ليثبتا ليس فقط أن الكون يمكن أن يبدأ بمفردة ، بل إنه بالفعل « لابد » له من أن يبدأ من مفردة .

ويقول هوكنج « إن ما فعلناه هو أننا بينا أن حل النسبية العامة الأبسط هو الحل الصحيح ، والحقيقة أنه مع كل تعقد الكون ، فإن من الرائع بالفعل أن حل النسبية العامة الصحيح كان أيضا هو الحل الأبسط » .

وتفسير فريد مان لنظرية النسبية العامة لإينشتين قد نتج عنه أول صورة لكون كامل . أما هوكنج وبنروز فقد أضافا إلى مسودته التقريبية تفسيرا للكون المبكر حسب النظرية النسبية يتطلب أن توجد على الأقل مفردة واحدة .

وهذه المفردة التى كشف عنها هوكنج وبنروز بحساباتهما ، رغم أنها يقينا أمر حقيقى وفيزيائى ، إلا أنها رياضيا حدث فى المكان - الزمان حيث ينهار السلوك الفيزيائى الطبيعى . ولما كانت حساباتهما تبين أن كوننا حسب النظرية النسبية وتسيطر عليه خصائص فيزيائية حقيقية يجب أن تكون له مفردة كهذه فان المغزى

لهو واضح : أنك لا تستطيع أن تنظر للكون مستخدما النسبية العامة بدون أن تجد أن هناك انفجار كبير أو شئ ما يشبهه تماما عند البداية . والتحليل النظرى للانفجار الكبير – وهو أول كل شئ قط – كان خطوة من أكبر الخطـوات فى علم الكونيات منذ طبق فريد مان رياضياته على النسبية العامة .

وفى نفس الوقت – أثناء الستينيات – أثبتت الاكتشافات الفلكية عمل فريد مان النظرى ، وكان أهم هذه الاكتشافات (بعد هابل) هو اشعاع الخلفية الذى يتوزع فى تساو خلال الكون كله والذى عثر عليه دون قصد ارنولد بنزياس وروبرت ويلسون فى ١٩٦٤ ، ويقول هوكنج « لقد تم تفسيره تفسيرا صحيحا كأثر متبق من الانفجار الكبير ، وقد تنبأ به جورج جاموف وزملاؤه بما يرجع وراءً إلى ١٩٤٨ ، ولكن أحدا وقتها لم يأخذ هذا التنبؤ مأخذا جد جدى ، وكان هذا فى جزء منه نتيجة لمشاكل نموذج فريد مان .

وهناك كشف آخر له دلالة هائلة ، وهو اكتشاف أن عنصر الهليـوم يكوّن ما يقرب من ٢٥ فى المائة من كتلة كل المادة فى الكون ، وأن نسبة الـ ٧٥ فى المائة الأخرى تتكون كلها تقريبا من الهيدروجين . « وقد تنبأت حسابات جاموف وما تلاها من تحسينات لها بأنه بعد المفردة بما يقرب من مائة ثانية لابد من أن ربع كل البروتونات والنيوترونات التى كانت مخلوقة قبلها قد تغيرت إلى

هليوم ومعه كمية صغيرة من الديتريوم . وكان من الصعب تفسير وجود كمية كبيرة هكذا من الهليوم بأى طريقة أخرى غير الطريقة التى بينتها حسابات جاموف . وهكذا فإن هذا كان كشفا مُرضيا للمنظّرين ، بما يقارب الكشف عن اشعاع الخلفية المتخلف عن الطور المكثف للكون .

وقد أكدت هذه الاكتشافات عمل المنظّرين إذ بينت أن للكون أصل من انفجار ساخن كثيف . وإذ أدت هذه الاكتشافات إلى ذاك فإنها وضحت أن المنظّرين لديهم القدرة على ما هو أكثر من مجرد التأمل ، وأنهم يمكنهم التوصل إلى بعض الاستنتاجات الصحيحة عن مولد الكون وتاريخه . وقد عمل هوكنج وبنروز على ضم كل هذه الملاحظات معا ، مفسرين كيف أن الانفجار الكبير ليس فحسب معقولا فى الواقع والنظرية ، بل إنه ضرورى .

ومما يثير السخرية ، أن إينشتين رغم ما كان فى الثابت الكونى من خطأ عظيم ، فانه قد وصل إلى استنتاج مماثل قبل ذلك بسنوات . فهو عندما ألغى – بعون غير مباشر من فريد مان – ثوابت دلتا الفظيعة ، وجد أن النسبية العامة تتطلب أن يُشغل الكون بمفردة واحدة على الأقل فى تاريخه ، ولكنه نبذ هذه المفردة بصفتها نقطة فى المعادلات حيث النظرية ببساطة تنهار .

وحسب الصورة المقبولة بأكثر للانفجار الكبير ، فإن كل مادة

الكون كانت تشكل غازا مضغوطا وساخنا للغاية فى كرة نار أولية وذلك منذ ١٠ إلى ١٥ بليون سنة .

ويقول هوكنج ونحن نستكمل حديثنا عن الكون المبكر جدا « إن أكبر سوء فهم بشأن الانفجار الكبير هو أنه قد بدأ ككتلة من مادة فى مكان ما من فراغ الفضاء ، وليست المادة وحدها هى التى خلقت أثناء الانفجار الكبير ، وإنما خلق أيضا المكان والزمان ، وهكذا فبمعنى أن الزمان له بداية ، فإن للمكان أيضا بداية » .

وسألته عما إذا كان بالفعل يؤمن بأن الزمان فى الحقيقة قد بدأ فعلا بالانفجار الكبير ؟ أجاب قائلا « عندما ترتد وراءً إلى الكون المبكر جدا ، يصبح مفهوم الزمان العادى مضببا . فأنت لا تستطيع أن تبقى على الفكرة الطبيعية عن الزمان وراءً بما لا نهاية له . فثمة نقطة ما على مقربة من الانفجار الكبير حيث ببساطة لا توجد أى طريقة لتعريف الزمان ، وبهذا المعنى فإن الزمان له بداية » .

وقد استخدمت فيزياء النسبية العامة لإثبات وجود المفردة عند بداية الكون . ويقول هوكنج « إن مشكلة هذا التناول هى أن النسبية العامة التى استخدمت للتنبؤ بالمفردة عند الأصل ، لهى نظرية كلاسيكية محض ، وهكذا فإنه لا يوجد فى النسبية العامة ما يأخذ فى الحسبان المسلك الكمّى للجسيمات تحت الذرية التى تم خلقها بالانفجار الكبير» .

وحركة وكتلة الجسيمات تحت الذرية توصّفها ميكانيكا الكم . وميكانيكا الكم نظام رياضى نشأ أثناء العشرينيات والثلاثينيات ، وهو أجنبى تماما عن النسبية العامة . وهو يوصّف التفاعلات التى تحدث على المستوى تحت الذرى ، ويوجد فى اللب منه مبدأ عدم اليقين الذى أعلنه لأول مرة فى ١٩٢٧ فيزيائى ألمانى هو ويرنر هايزنبرج .

ويقرر مبدأ عدم اليقين أن أزواجا معينة من الكميات ، مثل موضع الالكترون وعزمه ، لا يمكن قياسها معا فى نفس الوقت . ويعنى هذا أن الالكترون ليس هو بتلك القطعة من المادة التى هى موضوعية ومطلقة وقابلة للتحديد مثلما كان يوصفها الفيزيائيون الكلاسيكيون ، وإنما هو نوع من كيان موضوعى هو بمعنى منبسط Smeared فى الخارج حول النواة .

ومبدأ عدم اليقين يميز ميكانيكا الكم عن كل سائر الفيزياء لأنه يعلن رياضيا أن الجسيمات الذرية والنووية تتوزع على نحو عشوائى وغير مؤكد . وموقع أى جسيم عند أى لحظة لا يمكن توصيفه إلا باستخدام منظومة من الاحتمالات والاحصائيات .

وهذا العنصر من عدم إمكان التنبؤ هو الذى جعل ميكانيكا الكم غير مقبولة عند إينشتين . فهو قد أصر على أن ينظر للكون كمكان منظم قابل للتنبؤ . والنسبية العامة هى انعكاس متقن لهذه النظرة .

وبالنسبة لإينشتين فإن منظومة الكم هى غير مهيأة فلسفيا ورياضيا لأن توجد فى نفس الكون مع النسبية العامة . على أن الفيزيائيين اليوم يعتبرون أنها تتساوى أهمية مع النسبية العامة . وميكانيكا الكم مثلها مثل النسبية العامة قد صمدت دائما لكل اختبار تجريبى يصمم لها . وتُجرى هذه التجارب فى معجلات للجسيمات تحطم مكونات الذرة متناثرة حتى تتم معرفة ما تتكون منه ، وهى عملية يشبهها بعض المنظّرين فى حرقة بأنها مثل سحق ساعة لرؤية ما يتناثر منها .

ويبدو أن ميكانيكا الكم تطرح أن عالم ما تحت الذرة – بل وحتى العالم الذى يتجاوز الذرة – ليس له بنية مستقلة على الإطلاق إلى أن يتم تعريفه بالذكاء البشرى (وهذه النظرة للكون فيها ما يشابه الفلسفة الشرقية ، وقد أدت ، بما يثير فزع هوكنج ، إلى وفرة من أدبيات شعبية من مثل ما كتبه فريتجوف كابرا بعنوان " طاو الفيزياء " * وما كتبه مايكل تالبوت بعنوان " الصوفية والفيزياء الجديدة " وهى محاولات لربط ميكانيكا الكم بالصوفية الشرقية) وقد عجز الفيزيائيون عن التوفيق بين منظومة ميكانيكا الكم هذه والنظرة التى تضعها النسبية العامة عن الكون . وبينما تتيح النسبية

* المذهب الطاوى فلسفة دينية مبينة على تعاليم لاوتسى وتعد أحد الأديان الثلاثة بالصين وهى الطاوية والبوذية والكونفوشيوسيه . والطاو هو المبدأ الأول الذى انبثق منه كل وجود وتغير فى هذا الكون . (المترجم) .

العامة وجود مفردة كاملة التحدد كالسن المدبب عند بداية الزمان ، فإن ميكانيكا الكم لا تسمح بذلك ، لأنها تمنع أن يحدد فى الوقت نفسه على نحو مضبوط موضع وسرعة وحجم أى جسيم واحد أو مفردة .

وفى النهاية ، فإن ميكانيكا يجب أن يؤتى بها لتقوم بدورها على المسرح إذا كنا نريد أن نفهم وقائع الكون الدقيق جدا عند بدايات الأولى ذاتها . ولا يمكن أن يأمل المنظرون فى أن يجدوا النظرية الميدانية الموحدة التى تشرح وقائع الكون كله إلا إذا وفّقوا بين هذين المجالين من الفيزياء اللذين يبدوان وكأنهما مما لا يقبل التوفيق .

وقد بين عمل هوكنج أن صياغة نظرية كهذه ستتطلب أيضا فهما عميقا للثقوب السوداء ، التى تحوى فى بنيتها الجرداء المحظورة مشابهات رياضية لبداية الزمان فيها المفتاح لهذه البداية .

لقاء الثقب الأسود

في ٤ سبتمبر ١٩٧٨ نشرت مجلة « تايم » في صفحة الغلاف قصة الثقوب السوداء ، وكان هذا هو أوج الإثارة الشعبية عن هذه الأشياء غير المرئية والتي كثيرا ما أُسيء فهمها . وتم ذكر هوكنج على نحو بارز في عمود جانبي ، وأشير إليه على أنه « واحد من أهم المنظّرين العلميين في هذا القرن ، ولعله نظير لإينشتين » .

وعندما سألت هوكنج عن هذه المقارنة ضحك وقال « لا يصح أبدا مقارنة شخصين مختلفين – وأقل من ذلك صحة أن يقارن بين فيزيائيين مختلفين » . وأضاف وهو يقفل الموضوع « إن الناس لا يمكن تقديرهم تقديرا كميا » .

وهوكنج لا يجاول فكرة أنه استاذ في الثقوب السوداء ، ورغم أن انتباهه الآن مركز على أشياء أخرى – هي أساسا الكون المبكر جدا – فإنه مازال ينظر إلى الثقوب السوداء على أنها تروع وتسلي . وهو دائما على استعداد لأن يتحدث عنها .

وعندما سألته كيف يكون اللقاء مع أحد الثقوب السوداء ، أجاب ضاحكا « إنك لا تستطيع من هنا أن تصل إلى هناك . » ثم سألني بهزة من كتفيه لا تكاد ترى ، عن مدى عمق ما أود أن

أخوضه من الرياضيات بينما أخذ يشرح بالتفصيل عمله فى الثقوب السوداء .

وكما يقول هوكنج فإن الثقوب السوداء **هى شقوق فى نسيج المكان والزمان** جد كثيفة ومشوهة بتأثير قوى جاذبية لا يمكن تخيلها حتى أن الفيزيائيين ظلوا طيلة سنين يعتقدون أنه لا يمكن أن يهرب منها أى شىء بما فى ذلك الضوء . وهكذا فإنها بالتعريف غير مرئية . ولم ير أحد ولن ير أحد قط ثقبا أسود ، مهما كانت قوة تلسكوبه .

وهوكنج واثق من أنها موجودة . وهو يقول " إنها قد تكون كثيرة العدد بما يبلغ ألف مليون فى مجرتنا وحدها " . وسألته عن الدليل ، وأقر أنه حتى هذه اللحظة فإن وجودها يمكن إثباته فحسب كحلول خاصة لمعادلات النسبية العامة وببعض معطيات فيزيائية قليلة مبعثرة وغير مباشرة .

ورغم هذا الغموض ، فإن الفيزيائيين أخذوا فى الأعوام الأخيرة يطرقون موضوع الثقوب السوداء ، وسبب ذلك فى معظمه هو عمل هوكنج ، وهم يطرقون الموضوع حتى يفسروا كل شىء إبتداءً من خلق المجــرات والأجرام السـحيقة حتى المصير النهائى للكون نفسه .

ويقول لى هوكنج " إن هذا يشبه إلى حد ما استخدام مالا

يفسَّر من أجل تفسير مالا يفسَّر . " وهوكنج مثله مثل أى شخص آخر يبتهج بألغاز وغموض هذه الأجرام التى تعد أكثر الأجرام السماوية غموضا . " فى داخل الثقوب السوداء ينتهى أمر الزمان والمكان كما نعرفهما طبيعيا . وهذه فكرة مثيرة للإزعاج . "

ولو أن شيئا ، من مثل كويكب أو عالم للفلك ، اقترب من حرف ثقب أسود أكثر مما ينبغى فإنه أولا سيمتط شكله مثلما يمتط رباط مطاطى – وبعدها فإنه سيتلاشى داخل الثقب دون أى أثر . وبهذا المعنى ، فإن الثقوب السوداء **هى بمثابة مكانس شفاطة كونية** تمتص كل شىء تلاقيه ، إبتداءً من النجوم العملاقة حتى جسيمات غبار الفضاء والفوتونات التى تكون الضوء وليس فى الإمكان الفرار من ثقب أسود .

وهو كنج والمنظرون الآخرون مقتنعون بأن نظرية الفيزياء الموحدة التى طال البحث عنها – النظرية التى سوف تفسر التفاعل الرئيسى للكون – إنما هى قابعة على طرف الثقوب السوداء أو التكوينات الغريبة المشابهة التى انبثقت عند نقطة أو أخرى فى تطور الكون .

والتكوين الرياضى الذى من هذا النوع ينبغى أن يكون قادرا ، على الأقل من الوجهة النظرية ، على تفسير تكوين أى قطعة من المادة فى الكون ، كما يفسر أيضا كل القوى التى تتفاعل فيما بين

هذه المادة – وهذا يشبه نوعا مزج وصفة وحيدة تصلح للحساء والأسمنت وكل شيء يقع فيما بينهما ، وكل هذا وقد تم التعبير عنه رياضيا . ويؤكد لى هوكنج أنه رغم أن ذلك يبدو أمرا بعيد المنال فإن الفيزياء الآن على بعد عشرين عاما أو أقل من الوصول لهذه النظرية التى تشمل كل شيء .

وعندما سألت هوكنج كيف اهتم لأول مرة بالثقوب السوداء ، قال لى " إن الثقوب السوداء هى ما وضح لى لأول مرة أن القوى القوية التى تربط الجسيمات الأولية يمكن أن توجد بصحبة قوى الجاذبية الأضعف . وبالطبع ، فإن الثقوب السوداء لها فتنة خاصة بها وحدها بسبب ما فيها من غموض وبسبب الصور التى توصلها إلى الذهن البشرى . "

والثقوب السوداء هى النتاج الطبيعى لموت النجوم . وإذا كان تقلص أحد النجوم قد يؤدى فى النهاية إلى مفردة ، فإن الثقب الأسود يمكن أن يوصف بأنه الطور النهائي فى موت النجم قبل الوصول إلى نقطة المفردة . والثقب الأسود هو الذى يحجب نهائيا المفردة عن سائر الكون ، خالقا انفصاما عما حوله من المكان – الزمان العادى .

وقد استخدم العالم الفرنسى بيير سيمون لابلاس أفكار نيوتن وحدها عن الجاذبية والضوء ، ليطرح لأول مرة فى ١٧٩٦ ما يمكن

أن يحدث لأحد النجوم عندما يكون كبيرا بما يكفى ، وقد كوّن نظرية بأنه من الممكن أن يحدث شد بالجاذبية هو قوى بما يكفى لاسترجاع كل ما يشعه النجم ، بما فى ذلك الضوء .

ويكتب لابلاس سابقا زمنه بما يقرب من قرنين ، فيقول « من الممكن لأكبر الأجــرام المضيئة فى الكون أن تصبح بالفعل غير مرئية » .

وفى حالة الشمس فقد ظل هناك تعادل بين القوى المتصارعة لما يقرب من خمسة بلايين سنة ، ويعتقد علماء الفلك أنها ستظل فى توازن لمدة هى على الأقل تماثل ذلك طولا ، ونظرياً ، فإنه بعد ذلك الوقت تبدأ الجاذبية فى النهاية فى كسب الصراع العنيف إذ ينفذ الوقود الذرى للشمس ، وعندها فإن كتلة الشمس ، وهى تلك الكرة من الغاز الساخن الكثيف التى يبلغ قطرها ٨٦٥,٠٠٠ ميل ، سوف تبدأ فى التقلص .

وعندما تصبح مادة الشمس كثيفة بما يكفى ، فإنها ستصبح ما يسميه الفلكيون « قزما أبيض » ، وهو إسم مجازى يشير إلى كرة مزبدة من نوى الذرات هى والالكترونات السائبة ، وهى فى حالة الشمس تكون فحسب بما يقرب من أربعة أضعاف حجم الأرض ، أو هى شظية بالمصطلح الكونى .

على أن كتلتها ستظل بمثل ما هى عليه الآن ، وكنتيجة لذلك ،

فإن شد الجاذبية على المادة الذرية عند سطحها سيكون أقوى كثيرا مما هو عليه الآن . وحتى يهرب شيء مثل سفينة صاروخية ، من سطح الشمس فإن السرعة المطلوبة لذلك تزيد لتصبح ٢١٠٠ ميل في الثانية بــدلا مما هــى عليه الآن مـن ســرعة ٣٨٠ ميلاً فى الثانية .

ويمكن للتقلص أن يستمر . والفيزيائيون واثقون من أن النجم قد يتقلص إلى مالا نهاية ، وحتى يصل النجم إلى نقطة اعدام الذات نهائيا فإنه يجب أن يكون نجما كبيرا حقا . أما فى حالة الشمس ، فحيث أن كتلتها الإبتدائية هى فحسب من قدر متوسط ، فإنها ما إن تصبح قزما أبيض حتى تتوقف عن التقلص . وثمة قانون فيزيائى يسمى مبدأ الاستبعاد يتدخل عن هذه النقطة .

ويقرر هذا القانون أن الكترونين اثنين لا يستطيعان أن يشغلا نفس مجال الطاقة ، بمعنى أن هناك حدا للمدى الذى يمكن للمادة أن تعبأ فيه معا بإحكام . وهذا المدى يعد عاليا بالمقاييس العادية : وفى حالة القزم الأبيض ، فإن ملء كستبان من الشمس سوف يزن أطنانا .

وإذا كان للنجم الأصلى كتلة أعظم – بما يقدر أنه ١,٤ ضعف كتلة الشــمس أو أكبر من ذلك – فإن الجــاذبية تتــغلب على مبدأ الاستبعاد . ونجم كهذا إذ يمر من خلال مراحل التقلص بالجاذبية

فإنه سيتقلص بما هو أكثر ، محطما نويات الذرات بعيدا ، ومدمرا للذرات .

وفى النهاية فإنه يصبح " نجم نيوتروني " ، أى كتلة ثقيلة من النيوترونات عرضها أميال معدودة فحسب . وتكون سرعة الهروب من السطح هى ١٢٠,٠٠٠ ميل فى الثانية . وإذا كانت كتلة النجم تفوق ٣,٦ ضعفا لكتلة الشمس ، فإنه لن يتوقف عن الانكماش عند مرحلة النجم النيوتروني . وسيكون من الواضح أن الجاذبية هى التى تسيطر الآن ، وهى لا تظهر أى رحمة . فهى تشد النجم متقلصا على نفسه ، كضحية لوزنه هو ذاته . وأخيرا فإنه يصل إلى نقطة تكون عندها سرعة الهروب من السطح هائلة حتى لتبلغ ١٨٦,٢٨٢ ميلاً فى الثانية – أى سرعة الضوء . ولو أنك رصدت نجما عند هذه اللحظة بالضبط ، فإن إضاءته التى كانت كابية من قبل بحيث لا تزيد عن شبح كهرومغناطيسى ضعيف ، سوف تذوى الآن تماما .

وهكذا فإن الجاذبية تجعل من الضوء ضحيتها النهائية . وما كان نجما فيما سبق يصبح الآن ثقبا أسود غير مرئى مطلقا وبالكامل ، وسوف يظل هكذا لزمن طويل جدا جدا .

وقد استطاع الفلكيون التقاط آثار الأقزام البيضاء التى مازالت تشع ضوءا بما يكفى لأن يتم تصويرها بالتلسكوبات

الكبيرة ، وأمكن الكشف عن الأنّات الكهرومغناطيسية لنجوم النيوترون بواسطة تلسكوبات الراديو . أما الثقب الأسود ، فهو بطبيعته مراسل سيء . وثمة اتفاق عام على أن الثقوب السوداء موجودة ، ولكن الفيزيائين - الفلكيين - بل وحتى علماء الفيزياء النظرية - يتلهفون على إلقاء نظرة عليها .

وفيما يتعلق بهوكنج نفسه ، هل هو يؤمن حقا بأن للثقوب السوداء وجوداً يتجاوز وجودها فى معادلة ملفقة ؟ الحقيقة أنه مع بعض فيزيائيين آخرين قد وصلوا إلى الإقتناع بأنه قد تم العثور على ثقب أسود واحد على الأقل .

ويقول مؤكـــدا « لو أنك نظـــرت إلى كوكبة نجوم الدجاجة Cygnusفإن هناك احتمالا كبيرا بأنك تنظر تجاه ثقب أسود » .

إن بعض النجوم تتحرك فى أزواج تسمى بالثنائية ، وهما يدوران حول مركز جاذبية مشترك . ويستدل الفلكيون على أنه لو تقلص أحد النجمين اللذين فى منظومة ثنائية إلى ثقب أسود ، فإن النجم الأسود غير المرئى سيظل محتفظا باحتضانه الجذبوى لرفيقه المرئى . وهوكنج واثق من أن الفلكيين قد عثروا على زواج مختلط هكذا فى كوكبة الدجاجة (سيجنوس) ، التى تبعد ٦,٠٠٠ سنة ضوئية عن الأرض . وهو يقول « إن النجم المـــرئى هو نجم أزرق ممطوط ومشوه » . والسـبب : هو أن رفيقه الثقب الأســـود يمارس عليه قوة شـــد جاذبية هائلة ، ليشـــده فى شـكل بيضة .

وعندما تم فى ١٩٧٣ اكتشاف ما يبدو هكذا أنه ثقب أسود فى المنظومة الثنائية المسماه سيجنوس إكس – ١ ، فإن ذلك أدى إلى هياج المنظرين من علماء الفيزياء الفلكية بأكثر مما لو كان كوكب آخر قد انطلق فجأة أمام الأنظار فيما وراء نبتون (ونبتون الآن بانعطافة مؤقتة فى مداره ، هو أبعد الكواكب عن الشمس) . وأصل هذا الثقب الأسود مازال موضوع تخمينات لا تنتهى .

وقد تراهن هوكنج مع واحد من أعز أصدقائه ، وهو كيب ثورن المنظّر الخطير فى معهد التكنولوجيا بكاليفورنيا ، والرهان هو عن سلف ذلك الشيء الغامض فى منظومة سيجنوس إكس – ١ . فلو ثبت فى النهاية أن المنظومة الثنائية لا تحوى ثقبا أسود – مما سيحطم قلوب الكثيرين من الفيزيائيين – فإن هوكنج سيكسب اشتراكا لأربعة أعوام فى المجلة الفكاهية الانجليزية " العين الخاصة " . وإذا كان هناك ثقب أسود فإن ثورن يكسب اشتراكا لمدة عام فى مجلة " بنتهاوس " .

وهذا الرهان غير المتساوى بأربعة إلى واحد قد أصبح مشهورا نوعا فى دوائر الفيزياء . ما الذى يجعل هوكنج ، الذى تتطلب أبحاثه وجود الثقوب السوداء فعلا ، يراهن ضد وجودها ؟ وقد قال لى هوكنج ذات يوم أثناء حديثنا عن احتمال احتواء سيجنوس إكس – ١ على ثقب أسود « إن هذا الرهان هو فى الحقيقة حكم

على حالتى النفسية . والواقع أنى أستطيع أن أكسب الرهان بأسهل من كيب . إن أى عدد من الملاحظات - من مثل بث النبضات - يمكن أن يفند وجود الثقب الأسود » .

وعلى كل فهو واثق من أنه سيثبت فى النهاية أن سيجنوس إكس - ١ هو الشىء الحقيقى . ويقول « اذا لم يكن ثقبا أسود ، فلابد وأنه فى الحقيقة شىء عجيب جدا » .

ومن الممكن أن يكون الفلكيون قد عثروا على أكثر من ثقب أسود . فقد أعلن فريق من الكنديين والأمريكيين فى ١٩٨٣ أنهم قد اكتشفوا ثقبا أسود ثانيا ، وهو هذه المرة خارج مجرتنا . وقد كشفوا عنه بواسطة بثه لأشعة إكس قوية ، وقد وجدوه فيما يسمى « السحابة الماجلانية الكبيرة » ، وهى مجرة تابعة لدرب التبانة لا يمكن رؤيتها إلا من نصف الكرة الجنوبى .

وباستخدام تلسكوب من ١٥٨. بوصة فى المرصد الأمريكى المشترك فى سيرو تولولو بشيلى ، قدروا أن بعد هذا الثقب الأسود عن الأرض هو ١٨٠,٠٠٠ سنة ضوئية ، وأن وزنه يقرب من عشرة أضعاف وزن الشمس ، وأن بعده عن رفيقه الثنائى هو مجرد ١١ مليون ميل .

والثقب الأسود سواء كان فى داخل سيجنوس ، أو السحابة الماجلانية الكبيرة ، أو أى مكان آخر فإنه حسب أى تعريف له قاطن

غريب فى الكون . ووجوده فيه ازعاج لقوانين الفيزياء . وفوق ذلك ، فما الذى يمنع الثقب الأسود من أن يزيد حتى تقلصا - أى أن يتقلص حقا إلى مفردة ، شظية صغيرة بالغة الصغر من كثافة لانهائية ، من مثل المفردة التى كانت عند بدء الانفجار الكبير ؟

وهوكنج وبنروز قد برهنا فى أبحاثهما الأولى على أن هذا بالضبط ما يمكن توقع حدوثه فى حالة بعض النجوم التى ذوت محترقة . وتمكن هوكنج بعدها ، وهو يعمل مع زملاء آخرين ، من أن يبين أن الثقب الأسود هو فيما يحتمل سيستقر فى حالة ثابتة نوعا لا تعد بعد على علاقة بالنجم الذى تقلص منه الثقب . والحقيقة أن الثقوب السوداء التى من هذا النوع ستخضع فقط لثلاث معلمات قابلة للقياس : الكتلة ، وسرعة الدوران ، والشحنة الكهربائية .

ويقول هوكنج « لقد ثبت فى النهاية أن لهذا أهميته العملية الفعلية . » وكنت قد سألته أى فارق هناك ، عندما تكون هناك معلمات بالفعل لشىء لا يمكن رؤيته ولا قياسه .

وقال مفسرا " حسن ، إن هذا يعنى أول كل شىء ، أن بنية المجال الجذبوى لأى ثقب أسود يمكن التنبؤ بها على وجه الدقة . ويعنى ذلك أنه يمكن للمرء أن يشيد نماذجا للأشياء الفيزيائية - الفلكية التى يعتقد أنها تحوى ثقوبا سوداء - من مثل سيجنوس إكس - ١ . وعندها فإنه يمكن مقارنة خواص النموذج بالمشاهدات الفعلية .

وقد بدأت الثقوب السوداء فى الظهور كظاهرة فى سبعينيات هذا القرن . وأكدت لنا الملصقات خلف السيارات ، وكذلك قمصان تى أن « الثقوب السوداء لا ترى » . وأصبحت موضوعا شائعا فى الاستعراضات الكلامية ، وموضوع قفشات ونكات لا نهاية لها . ولعل الانفعال العام بالثقوب السوداء فى منتصف السبعينيات كان مجرد موضة . وبهذا المعنى فإن الثقوب السوداء كانت هكذا نوعا من مثلث برمودا فى الفضاء ، شىء يقبع فى مكان ما بين الباراسيكولوجيا ، والتنجيم ، والأطباق الطائرة ، والفلك .

وصورة الثقب الأسود هى أو صورة الانفجار الكبير كلاهما فيه ما يشوش العقل الباطن ويسره معا . وقد تكون الثقوب السوداء استعارة تعبر عن مصيرنا أو مصير الكون . وإذا كان من الممكن أن ينسحق نجم للداخل على نفسه ، فلم لا يحدث ذلك للكون كله ؟

ويقول هوكنج « إن تسمية هذه الأشياء بالثقوب السوداء كانت ضربة معلم من جون هويلر . إن الاسم ليستحضر الكثير من أوجه العصاب للبشر . ولا شك أن هناك رابطة نفسية بين تسمية الثقوب السوداء وشعبيتها » .

ثم يقول وهو يتأمل للحظة فى سيكولوجية المصطلحات العلمية ، « من المهم أن تطلق إسما جيدا على أحد المفاهيم . فإن ذلك يعنى أن اهتمام الناس سوف يتركز عليه . وإنى أفترض أن اسم (الثقب

الأسود) له بالفعل ما يكاد يكون نبرة درامية فيها مبالغة ، ولكنه أيضا فيه توصيف لأقصى درجة . إن له وقعا نفسيا قويا . ويمكن أن يكون منه صورة جيدة لمخاوف الانسان من الكون » .

وكما أن هناك خواءً تاماً بشأن ما كان قبل الانفجار الكبير ، فإن هناك خواءً تاماً فى المركز من الثقب الأسود . فالزمان الطبيعى يتوقف عن الوجود بمثلما هو غير موجود على وجه اليقين قبل الانفجار الكبير . وها هنا يكمن الكثير مما يجذب هوكنج إلى الثقوب السوداء وإلى الانفجار الكبير . وفوق ذلك فإن المفهومين يدخل فيهما معا العمودان التوأمان لفيزياء القرن العشرين : نظرية إينشتين عن النسبية العامة ونظرية ماكس بلانك عن الكم . وفى ١٩٧٤ طرح هوكنج فى مغامرة تنظيرية جسورة خطرة ، فكرة جديدة مذهلة عن الثقوب السوداء تشير لأول مرة إلى أن الكواركات والأجرام السحيقة قد تكون فعلا مما يعمل داخل حدود قانون وحيد للفيزياء ، وإن كان قانونا مخبوءا فى الأعماق .

استكشاف الثقوب السوداء

يبعد معمل روزرفورد - أبلتون بأميال معدودة عن الطريق السريع رقم ٤ ، وهى مسافة تُقطع بالسيارة فيما يقرب من ساعة ونصف الساعة للغرب من لندن فى تلك الأراضى المسطحة الجافةالخالية من الجمال والتى تقع جنوب أوكسفورد . وقد بُنى معمل روزرفورد - أبلتون فوق مساحة من أميال مربعة عديدة بما يجاور هارويل مباشرة ، وهو المرادف البريطانى لمعمل لوس ألاموس القومى بالقرب من سانتافى ، فى نيومكسيكو .

ورغم أن العلماء فى كلا المعملين يقومان بأبحاث أساسية فى فيزياء الجسيمات ، والفيزياء النظرية ، والطاقة ، فإن معمل لوس ألاموس وهارويل هما أساسا ورش لتصميم الأسلحة النووية . ورغم تباين الموقع الجغرافى فإن فى المعملين أوجه شبه معينة : أسوار من أسلاك شائكة تبدو بما لا يوفر أمنا ، وحراس لا مبالين فى منتصف العمر ، وعدد قليل نسبيا من نقاط التفتيش ، وكل ذلك مما يعطى فكرة تتناقض والعمل السرى للغاية الذى يجرى فى الداخل بينما يخلق جوا من لا مبالاة مدروسة من النوع الذى يفضله الفيزيائيون الذين يعملون هناك .

وفى شتاء ١٩٧٤ قام هوكنج برحلة من كمبردج إلى روزرفورد – أبلتون . وكان هدفه أن يلقى ورقة بحث ، وهى ورقة كان قد عمل عليها معانيا طيلة شهور . وكان مازال يعانى فيها يوم كان عليه أن يقدمها لمجموعة من الزملاء الفيزيائيين . وكان عنوان ورقة البحث هو « تفجرات الثقوب السوداء ؟ »

ومع أن هوكنج يكون عادة أكثر من واثق بنفسه ، إلا أنه كان قلقا على كيفية استقبال ورقة البحث . فما يطرحه فيها هو فكرة جديدة جدة جذرية ، وإذا كانت صحيحة فإنها ستدفع إلى إعادة التفكير على نحو أساسى فى الفيزياء النظرية . وكانت علامة الاستفهام فى العنوان إنعكاس لشكوكه هو نفسه . فالأمر وكأن إسحق نيوتن يشك شكا كافيا لأن يصدر كتيبا بعنوان « هل الجاذبية تشد الأشياء لأسفل ؟ » .

ورغم ما لهوكنج من جدارة سابقة فإن جمهور المستمعين كان محتشدا ضده . وكانت قاعة المحاضرات مليئة بفيزيائى الجسيمات ، والتجريبيين الذين يعملون على المعجلات . وهؤلاء يمكن أن يكونوا هم السم المميت لمنظّرى علم الكونيات ، الذين يتجه عملهم إلى صياغة المعادلات لأكثر مما ينبغى ، ولا يتجه إلا بأقل مما ينبغى إلى النتائج العملية بما يلائم معظم فيزيائى المعمل ، وكان يقف هناك أيضا واحد أو اثنان شاردان من فيزيائى الأسلحة النووية .

وبدأ هوكنج . فخفتت الأنوار ، وبدأت شرائح معادلاته تلمع على الشاشة ، وإذا إستمر هوكنج ، فقد أصبح واضحا أنه قد وصل إلى استنتاج مذهل عن الثقوب السوداء ، فكرة تناقض تماما الحكمة التقليدية وقتذاك .

وكان معظم الفيزيائيين هناك يجدون مشقة فى متابعة حجج هوكنج ، وكان ثمة أسئلة قليلة ، وسرعان ما انتهى هوكنج من طرح ورقته ، وعندما أضيئت الأنوار ثانية ، فإن مقرر الجلسة ، جون تايلور ، أستاذ الرياضة فى جامعة لندن ومؤلف الكتب العلمية الشـعبية من مثـــل « الثقـوب السـوداء » و « شكل العقول الذاتية » (وهو كتاب من التأملات فى الباراسيكولوجى) ، هب واقفا وأعلن قائلا « آسف ياستيفن ، فإن هذا هراء مطلق » .

وورقة البحث التى طرحها هوكنج يومها فى روزرفورد - أبلتون كانت لها أصولها فى عمل كان قد قام به أولا فى ١٩٧٠ ، وكان الاهتمام بالثقوب السوداء قد ثار إلى حد عظيم قبل ذلك بعامين فى ١٩٦٨ ، عند اكتشاف مصادر أشعة كونية لاسلكية تنبض نبضا سريعا . وبعد بعض بلبلة فى أول الأمر فيما بين الفيزيائيين الفلكيين بشأن سبب هذه الأشعة ، اتفق عموما على تفسيرها بأنها ناجمة عن نجوم نيوترون تدور دورانا سريعا ، أشياء لها كتلة تكاد تماثل كتلة الشمس ، إلا أن قطرها لا يزيد عن عشرة أميال .

وقد سميت هذه « بالنابضات » ، ويدا أنها تثبت وجود نجوم النيوترون ، أى النجوم المتقلصة التى تتكون كلها تقريبا من نيوترونات تحتشد بكثافة مثل الاحتشاد فى نواة ذرة ، وهكذا فإنها جد ثقيلة حتى أن ملأ فنجان منها يزن أطنانا . ونجم النيوترون ليس ثقبا أسود ، فهو مجرد محطة فى الطريق إلى الثقب الأسود ، نقطة استراحة فى التقلص الذى يحدث عندما تتغلب جاذبية النجم على ما لقرنه الذرى من قوة ضغط للخارج .

وهذا الإثبات الظاهر على أنها موجودة فعلا يبين أن النظريات عن التقدم فى المسار الذى يتبعه النجم عندما يتقلص جوهريا صحيحة . وهكذا أصبح من السهل على علماء الكونيات أن يخطو لأبعد فى ١٩٦٨ قائلين « إذا كان نجم النيوترون موجودا ، وإذن فلماذا لا توجد أيضا الثقوب السوداء ؟ وعلى خلاف نجم النيوترون فإن الثقب الأسود لا يستطيع حسب تعريفه أن يبث أى نوع من الإشعاع ، وتأثيره الواضح الوحيد هو تأثيره الجذبوى على نجم قريب .وأتى الدليل على ذلك فى ١٩٧٢ مع اكتشاف سيجنوس إكس – ١ ، المنظومة الثنائية التى حثت هوكنج على أن يتراهن مع كيب ثورن .

وكان روجر بنروز قبل ذلك بثلاثة أعوام ، ١٩٦٩ ، قد ابتكر تجربة فكرية تقترح أن الثقب الأسود يستطيع أن يمارس على المادة

القريبة منه ما هو أكثر من مجرد التأثير الجذبوى ، وطرح بنروز أن الطاقة يمكن أن تُستخلص من ثقب أسود - إذا كان دوّارا ، وسميت الفكرة « بالاشعاع الفائق » واقترح بنروز أن أنواعا معينة من الموجات التى على مقربة من الثقب الأسود سيحدث لها تكبير وتُبث بعيدا - بدلا من أن تُمتص - بواسطة الثقب الأسود .

وأشارت تجربة بنروز الفكرية أيضا إلى أن بعضا من طاقة الدوران التى للثقب الأسود نفسه يمكن أن تنطلق بعيدا عنه ، وكانت هذه أول محاولة لإظهار أن الثقب الأسود ليس من الضرورى له أن يوجد ككيان منطو على ذاته ومفصول عن كل المادة الأخرى التى فى الكون . فالثقب الأسود الدوار يمكن له أن يفقد طاقة كهربية أو طاقة دوران من خلال عملية تعرف بخلق الأزواج ، والفكرة هى أن الجسيم ومضاده - كالالكترون مثلا هو ومضاد الالكترون أو البوزيترون - يتكونان فى الخارج مباشرة من الثقب .

وبعدها نفرض مثلا ان الالكترون يتم شده بالجاذبية إلى داخل الثقب الأسود ، إلا أن البوزيترون يهرب ، وفى هذه العملية فإن جزءا دقيق الصغر من الشحنه الكهربية للثقب الأسود نفسه يتم إلغاوه ، كما أن جزءا دقيق الصغر من عزمه الزاوى Angular momentum - أو « اللفّى » - ينطلق بعيدا ، وهكذا فإن الثقب الأسود يكون قد فقد طاقة بالفعل ، وهذا أمر لم يفكر أحد قط فى إمكان وقوعه .

وكان هوكنج فى تلك الأيام يفكر بشأن الحد الذى يحيط بالثقب الأسو ، النقطة المحددة بالضبط التى يستطيع الضوء عندها بالضبط أن يهرب من القبضة القوية لجاذبية الثقب الأسود ، ويسمى ذلك « أفق الحدث » . وكلما زادت كتلة الثقب الأسود ، زادت مساحة سطح أفق الحدث .

ويمكن تصور أفق الحدث كنوع من غشاء يسمح بالنفاذ فى اتجاه واحد ويستطيع الضوء أن ينفذ فيه من الخارج ، ولكنه لايستطيع أبدا أن يخرج من داخله ، ولو كان ثمة راصد يجلس داخل الثقب الأسود فإنه يستطيع أن يرى ومضات الضوء وهو يدخل الثقب كرسالة شفرة من سفينة فضاء وراء أفق الحدث مباشرة . على أن الراصد لن يتمكن من إرسال إشارة رد . فالضوء أو موجة اللاسلكى أو أى شكل آخر من الطاقة لن يتجاوز أفق الحدث ، وقبطان سفينة الفضاء الذى ينتظر رسالة من أحد الكشافين الذى ذهب إلى داخل ثقب أسود ليرى ما يبدو عليه الأمر هناك ويرد بتقريره ، هذا القبطان سوف يظل منتظرا للأبد .

وأفق الحدث هذا الذى يجلب الاحباط للقبطان وكشافه ، هو إلى حد ما أقل احباطا لعالم الفيزياء النظرية ، والحقيقة أنه بالنسبة لهوكنج هو والفيزيائيين الآخرين المربوطين للأرض ، فإن أفق الحدث فيه بعض دلالات خلابة . وإحداها هى فكرة أنه ما إن يسقط الضوء

– أو أى شئ آخر – فى ثقب أسود فإنه يصبح غير مرئى لراصد فى خارج الثقب ، وقد وسع الفيزيائيون هذه الفكرة عن فقدان المعلومة ، إلى ما يسمونه أنه نظرية أن « الثقوب السوداء ليس لها شَعر » .

وهذا التعبير العجيب ، الذى هو نموذج مثالى لنوع التعبيرات التى يحبها الفيزيائيون ، يعنى ببساطة أنه عندما يكون هناك ثقبان أسودان يتماثلان فى الكتلة والشحنة الكهربائية واللف ، فإنهما يبدوان متماثلان للراصد من الخارج بصرف النظر عما قد صنعا منه ، وحتى لو كان أحد الثقبين مصنوع من المادة والآخر من مضاد المادة فإنه لا يمكن التمييز بينهما ، بمعنى أن معظم القسمات الفيزيائية للثقب الأسود هى غير مرئية أبدا للراصد .

وحتى يفسر الفيزيائيون هذه الملامح غير المرئية ، فإنهم أدركوا أن كمية مساحة سطح الثقب الأسود – أو بكلمات أخرى كمية أفق حدثه – هى الملمح الوحيد الذى له دلالة فيما يتعلق بأى فرد فى الخارج معنى بالأمر . وهذا هو الملمح الوحيد الذى يمكن تفسيره بلغة من رقم فعلى له معناه ، حيث أن كل شئ آخر يتعلق بالثقب الأسود يكون خفيا عن الرؤية .

والدلالة الخاصة لكم أفق الحدث ، أى أكثر جوانبه إثارة للاهتمام ، هى ما كان يشغل هوكنج حوالى نهاية ١٩٧٠ ، وذات ليلة

وقد ذهب إلى فراشه خطرت له فكرة ، كانت من الوضوح بحيث تعذر عليه النوم باقي الليلة ، وكانت الفكرة ببساطة هكذا : إن كمية أفق حدث الثقب الأسود ، أى مساحة سطحه ، لا يمكن قط أن تنقص ، وهذا مفهوم مباشر تماما يمكن لأى فرد أن يفهمه دون عون من الرياضيات .

ويتحدث هوكنج بعدها عن مولد هذه الفكرة فيقول « حسن ، يجب أن يفوز المرء بإحدى الأفكار من مكان ما » . وفى الأيام التالية لتلك الليلة التى حرم فيها من النوم ، اختبر هو وقلة من زملائه هذه الفكرة رياضيا ، وبدا أنها صحيحة .وقد طبق هوكنج أفكار النسبية ليصل إلى استنتاجه عن أفق حدث الثقب الأسود . فلنفكر فى قبطان سفينة الفضاء الذى أرسل كشافه لينظر للداخل من ثقب أسود . إن الكشاف إذ يغادر سفينة الفضاء فى مركبه الصغير الطواف سيقترب مباشرة من الثقب ، ثم يهوى من خلال أفق الحدث . وعلى هذا النحو سيبدو الأمر للكشاف ، هذا إذا افترضنا أنه لم يهو إلى الخواء .

أما بالنسبة للقبطان وهو على مركبه ، فسيبدو له أن الكشاف يقترب من الثقب الأسود فى مسار بطئ - بلا نهاية - هو مسار لولبى من حوله الثقب ، وتكون السرعة الظاهرية لطوف الكشاف تتناسب تناسبا مباشرا مع سرعة لف الثقب الأسود نفسه ، إذا

كان ثقـبا دوارا . والقبـطان لن ير قط بالفعل كشافه وهو يخترق أفق الحدث .

ومقاييس الزمن المختلفة هذه يفسرها حال مبالغ فيه من تمديد للزمن ، هو نفس ما يخبره مسافر فضاء يسافر بسرعة الضوء .

وجاذبية الثقب الأسود بالقرب من أفق الحدث تكون هائلة جدا حتى أنها تشد كل الأشياء - بما فيها الكشاف المتقدم - وذلك بسرعة معجلة تقترب من سرعة الضوء .

وبالنسبة للقبطان وهو يرقب الأمر من سفينته للفضاء ، وهو آمن من شد المجال الجذبوى ، فإن الكشاف يبدو له وكأنه مسافر بسرعة تطرد بطئا بمعدل أُسّى ، تماما مثلما يبدو لراصد فوق الأرض أن مسـافر الفضاء الذى يطير بسرعة الضوء لا يزيد سنا على الإطلاق ، وهكذا فإن السرعة التى يبدو للقبطان أن المركب الطواف للكشاف يتباطأ بها هى سرعة تتناسب عكسيا مع شد الجاذبية عند أفق الحدث ، وكلما كانت كتلة الثقب الأسود أكبر- وكانت جاذبيته أعظم - زاد ما يبـدو للقبطـان من التبـاطؤ الظاهرى لعجلة الكشاف والعكس صحيح بالنسبة للكشاف : فكلما كان الثقب الأسود أكبر ، فإنه سيظن أنه يتحرك تحركا أبطأ خلال أفق الحدث .

وبالنسبة لهوكنج فإن فكرة النسبية العامة عن تمديد الزمان تعنى أن كمية أفق الحدث لا يمكن قط أن تبدو للراصد الخارجى فى

انكماش . وهذه الفكرة كانت خطوة لها دلالتها فى البحث النظرى فى الثقوب السوداء ، لأنها أرست لأول مرة قيدا شاملا على مسلك كل الثقوب السوداء : فأفق الحدث لا يمكن أن يقل ، وإنما يمكن له فحسب أن يزيد ، وقبل هذا الحدس لم يكن هناك أى نوع من تحديد للثقب الأسود سواء تحديد أستاتيكى أم ديناميكى .

وفكرة هوكنج من أن الثقب الأسود لا يقبل الأنكماش قد أرست أيضا رابطة مهمة مع مفهوم الأنتروبيا ، والانتروبيا بالتعريف تزيد أيضا بالزمن . وفكرة الانتروبيا ، وهى نتيجة تترتب طبيعيا على القانون الثانى للديناميكا الحرارية ، تعلن أن كمية الطاقة المتاحة لأداء مهمة فيزيائية يجب أن تتناقص دائما . وكلمة « الانتروبيا » هى الكلمة التى تعرّف هذا التدرج فى « قلة جدوى » الطاقة وهى تتحول من نوع إلى الآخر ، كأن تتحول مثلا من الكهرباء إلى الحرارة .

فشكل الطاقة الذى يكون ذا فائدة كبيرة ، كالكهرباء مثلا ، تكون له انتروبيا منخفضة . أما الطاقة من مثل الحرارة التى هى ذات جدوى أقل ، فإن لها انتروبيا كبيرة . والطاقة ذات الانتروبيا المنخفضة يمكن دائما تحويلها إلى طاقة ذات انتروبيا عالية . وهكذا فإن من السهل تحويل الحرارة إلى كهرباء . ومن المستحيل عكس هذه العملية . فالانتروبيا لا يمكن أبدا أن تقل . وهى دائما تزيد

بمعنى أن قلة جدوى الطاقة تتزايد . ويصدق هذا على أى منظومة – سواء كانت سيارة ، أو كمبيوتر ، أو نجما أو كونا . وحيث أن كمية أفق الحدث للثقب الأسود هى أيضا لا تتناقص قط ، فإن من المعقول أن نخصص لأى ثقب أسود قدرا من الأنتروبيا سوف يوصّف هكذا الكثير من خصائصه الفيزيائية والتى بدون ذلك تكون دائما غير مرئية للراصدين من الخارج .

على أن هذا قد أدى إلى صعوبة رئيسية : فلو خُصصت قيمة من الانتروبيا للثقب الأسود ، فلابد من أن يُعطَى له ايضا درجة حرارة حتى يمكن تشكيل نموذج ديناميكى حرارى صالح للعمل . ولكن الشىء ذو الحرارة يجب أن يشع حرارة ، والثقوب السوداء حسب تعريفها الكلاسيكى ، لا تبث شيئا على الاطلاق . وكانت هذه مشكلة لم يتمكن هوكنج من حلها لسنوات عديدة – حتى كتب ورقة البحث التى قدمها فى معمل روزرفورد – أبلتون .

وفى نفس الوقت فإنه لم يتـوقف عن العمـل على الثقـــوب السوداء . ففى ١٩٧٠ طرح فرضابأن موت أحد النجوم ليس هو الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تأتى بها الثقوب السوداء إلى الوجود ، وأنه من الممكن أن الكون يحوى ملايين من الثقوب السوداء ليست على الإطلاق نتيجة تقويض النجوم .

وحتى ذلك الوقت كان المنظرون يعتقدون أن المجال الجذبوى الوحيد الذى فيه ما يكفى لتكوين ثقب أسود هو ذلك الناتج عن

انكماش نجم له كتلة هى من عشرة أضعاف أو خمسة عشر ضعفا لكتلة الشمس . ولكن ما الذى يسبب ثقبا صغيرا أسود - ثقب يكون حجمه مثلا فى حجم نواة ذرة ؟ هل يمكن للجاذبية أن تشد أى نوع من المادة ، نجـميا كان أو مـن أى نوع آخر ، ليصل إلى هذا الحجم ؟ كان هذا أمر يصعب سبره ، ذلك أن الجاذبية تكاد ألا يكون لها تأثير داخل شىء صغير مثل نواة ذرة .

على أن هوكنج وصل إلى استنتاج غير متوقع : فلو وقع ضغط على أى شىء بالدرجة الكافية ، حتى ولو كانت كتلة هذا الشىء هى فحسب كيلو جرام واحد أو اثنين ، فإنه يمكن أن ينضغط إلى كثافة هائلة . وعندما يتم هصر مادة شىء صغير ، مثل قطعة معدن ، إلى حيز صغير بما يكفى - أى إلى حجم بروتون مثلا - فإنه سيحدث عند نقطة معينة أن تصبح الجاذبية الذاتية هى القوة الغالبة . وإذ يستمر الانضغاط فسوف يظهر ثقب أسود دقيق الصغر .

على أن القوة التى تكون كبيرة بما يكفى لبدء عملية من هذا النوع لا وجود لها فى أى مكان على الأرض ، ولا فى مادة الكون المرئى . وقد أدرك هوكنج أن الإجابة تكمن عند بداية الزمان . فوقتها فقط كانت توجد المادة التى تشكل منها الكون وقد تموضعت فى نفس المكان وعند نفس الزمان وتحت ضغط يكفى لانتاج ثقوب سوداء صغيرة .

وكما يعرف هوكنج ، فإنه لا يمكن أن يحدث هذا قط فى كون متسق أكمل الاتساق . ولكن عندما يكون هناك عدم اتساق ، كأن تكون هناك مناطق أكثف كثيرا من غيرها ، فإن المناطق التى تزيد كثافتها إلى حد معين يمكن أن تتقلص إلى ثقوب سوداء صغيرة . وقدرت حساباته أن هذه الثقوب السوداء المصغرة يمكن أن تكون قد هصرت إلى الوجود فى المناطق ذات الكثافة المفرطة الموجودة فى الحساء الأولى البالغ الثراء ، والذى ظهر للوجود خلال جزء صغير من الزمان لا يمكن تصور صغره فهو يقع فى أول $١٠^{-٢٠}$ ثانية بعد الانفجار الكبير .

وهو يعتقد الآن ، أن من المحتمل أن يكون الكون مأهولا ببلايين من هذه النقط السوداء الدقيقة فى صغرها وإن كانت ذات قوة . وهو يتوقع أنها يمكن أن تكون قريبة لبعضها بمثل المسافة بين الأرض وبلوتو . ويمكن ترجمة ذلك إلى ١٠٠ مليون ثقب أسود دقيق لكل سنة ضوئية مكعبة فى الكون كله .

وبعد نشر ورقة بحث هوكنج ، احتضن الفيزيائيون هذه الفكرة عن الثقوب السوداء الدقيقة . وطرحوا بذلك إجابات عن العديد من الظواهر التى لم يكن لها قبلها أى تفسير ، ولعل فى هذا ما يوفر لنا ما يسمى بالكتلة المفقودة التى يظن المنظرون الفلكيون أنها مخبوءة فى مكان ما من الكون . وسرعان ما انتشرت أنباء هذه الفكرة فى مجتمع الفيزيائيين فى العالم كله .

وواصل هوكنج عمله على الثقوب السوداء الصغيرة ليصل إلى خطوته التالية التى كانت أشد خطواته جسارة : فهو يفترض أنه عندما يكون شيء ما دقيقا فى صغره مثل الواحد من هذه الأشياء الأولية ، شيء مثل جسيم فى ذرة ، فإنه يكون قابلا للتوصيف حسب ميكانيكا الكم .

وفى ١٩٧٣ كان يُعتقد على نحو شامل أن ميكانيكا الكم والنسبية العامة يتعارضان معا . إلا أن هوكنج رأى أن الوقت قد حان لاستكشاف احتمال إمكان التعبير عن الثقوب السوداء بلغة من ميكانيكا الكم رغم أن هذه الثقوب نفسها هى ملمح رئيسى من النسبية العامة .

وبدأ هوكنج مؤخرا فى تلك السنة يفكر فى كيفية سلوك المادة التى على مقربة من الثقوب السوداء ، كبيرة كانت أم صغيرة . وبحلول الخريف كان لديه بعض فكرة غامضة . وذات يوم بينما كان يفكر فى الطلاسم الرياضية للثقوب السوداء ، وصل إلى كشف يتعارض جذريا مع الأفكار السابقة بحيث أيقن أنه ولابد قد ارتكب خطأ كبيرا .

وجد هوكنج أن الثقوب السوداء فى تحد لكل قوانين الطبيعة المعروفة ، تبث تيارا ثابتا من الجسيمات . ولكنه مثل أى واحد آخر ، كان يؤمن بالنظرية التى تقول أن الثقوب السوداء لا يمكن أن

تبث أى شىء ، إلا إذا كانت تدور (وهذا فيما يحتمل) . وأنفق بعد ذلك أسابيع وهو يحاول أن يجد الخطأ فى حساباته .

إلا أنه اقتنع فى النهاية بأنه يمكن للثقوب السوداء أن تبث جسيمات وكان ما أقنعه بذلك هو تطبيق ميكانيكا الكم على حرف الثقب الأسود - أى بالضبط عند أفق الحدث . وكان استدلاله هو أن مبدأ عدم اليقين ، الذى هو بمثابة العمود الفقرى لميكانيكا الكم ، يعلن أن الفضاء الخاوى لا يكون قط خاويا حقا . فهو دائما نشط صخب . وهناك أزواج من الجسيمات الأولية مثل الالكترونات ومضادات مادتها أى البوزيترونات ، توجد لجزء من الثانية قبل أن تتحد ويبيد أحدها الآخر فى دفقة صغيرة من أشعة إكس .

وإذا كانت واقعة من هذا النوع يجرى حدوثها عند أفق الحدث ، فإنه يمكن لأحد الجسيمات أن يقع فى قبضة الجاذبية القوية ويهوى للداخل من الثقب الأسود ، فلا يمكن قط رؤيته أو سماع شىء عنه مرة أخرى . وبدلا من أن يتحد مع الجسيم الآخر فى إبادة متبادلة ، فإن الجسيم الآخر يصبح هكذا حرا فى أن يهرب بعيدا . وبالنسبة لمن يرصد ذلك سيبدو له وكأن هذا الجسيم الثانى قد انبثق خارجا من الثقب الأسود . (أى شئ حجمه أكبر ، وتحكمه قواعد النسبية العامة ، يمتنع عليه المساهمة فى واقعة كمية من هذا النوع) .

وفى أواخر ١٩٧٣ عدت هذه فكرة عجيبة وغير متوقعة . وكان

والحقيقة أنه تمكن من أن يبين كيف يمكن تجريبيا إثبات أو تفنيد نظريته عن الثقوب السوداء المتفجرة ، وهذا عنصر مهم فى أى نظرية علمية جديدة .

ولما كان مدى عمر الثقوب السوداء الدقيقة الصغر يقترب من عمر الكون ، فإن هوكنج قدّر أن بعضا منها ينبغى أن ينفجر من آن لآخر فى وقتنا الحالى بالضبط . وهذه الانفجارات سوف ينتج عنها انهمار هائل لأشعة جاما ذات الطاقة المرتفعة . ويعتقد هوكنج أنه سيكون من السهل الكشف عن هذه الدفقات باستخدام كشاف كبير لأشعة جاما يدور من حول الأرض . وقد اقترح أنه يمكن لمكوك الفضاء أن يُنشأ كشافا كهذا ، وهو يقدر أنه ربما يكون هناك انفجاران اثنان لثقبين أسودين لكل سنة ضوئية مكعبة لكل قرن ، يحدثان فى ركننا من الكون .

ومع هذا ، فإنه عندما وصل هوكنج لأول مرة لفكرة تبخر وتفجر الثقوب السوداء ، فإن هذه الفكرة كانت غير تقليدية إلى حد بالغ حتى أن هوكنج شك فى نتائجه هو نفسه . وظل لأسابيع يركز على هذه النتائج وهو يقلب الحسابات فى رأسه المرة بعد الأخرى . كان الأمر جد غريب وجد عجيب . ولن يصدقه أحد . والحقيقة أنه كان يقول « إن الثقب الأسود الذى يتآكل وينفجر لا يكون ثقبا أسود » كان الأمر يُعدّ أكثر مما ينبغى حتى بالنسبة لهوكنج .

ويبين توماس كوهن ، المؤرخ العلمي المبرز في كتابه « تكوين الثورات العلمية » أن الأحداث العلمية الخارقة ذات الأهمية نادرا ما يتم تقبلها عند إعلانها لأول مرة . والعالم الذي ينجز حدثا خارقا - مثل كوبرنيكوس ، أوجاليليو ، أو وليم هارفي - يتعرض لتجاهله لسنوات أو حتى لنفيه .

وكان هوكنج في أوائل ١٩٧٤ يخشى أن يحدث له ذلك . وكان يعرف أنه إذا كانت أفكاره عن الثقوب السوداء المتفجرة هي أفكار صحيحة ، فإنها سوف تثورّ من الفيزياء الفلكية . فقد كانت فكرة الثقوب السوداء الجامدة فكرة راسخة في ثبات . ولو ثبت خطأ هوكنج ، فإنه سيستغرق أعواما ليستعيد مصداقيته .

وهكذا فإنه ظل ينتظر ، وهو يقلب حساباته في رأسه المرة بعد الأخرى ، ولا يتحدث إلا لقلة معدودة من الزملاء والأصدقاء الحميمين، بشأن إشعاع الثقب الأسود الذي لا يذهب بعيدا . وإذ شك بعض زملائه في هذه النتائج فإن هذا لم يكن فيه ما يعنيه . وذات يوم أتى مارتن ريز إلى دينيس سكياما ، وسأله « أما سمعت ؟ لقدغيّر ستيفن كل شيء . »

وطيلة هذه الأيام والأسابيع من عدم اليقين ، أخذ سكياما يحث هوكنج في هدوء على إعلان نتائجه . وأخيرا تغلب رأي سكياما ، وقرر هوكنج أن يقوم برحلته إلى روزرفور - أبلتون . وتبين أن أول

السـؤال النهـائى

بالنسبة لما فى الكون لا يوجد ما هو أصعب من أن يتصور المرء وجود ثقب أســود . على أن الانفجــار الكبير هو وحده الذى أثار الرؤى في ذهن الفيزيائيين بأكثر من الثقب الأسود . وقد ظل الانفجار الكبير يعاود هذه الأذهان المرة بعد الأخرى - فى حسابات لا نهاية لعددها فى آلاف الرء وس - وذلك فى زمن لا يزيد إلا قليلا عن ربع القرن .

أما من لا يكون فيزيائيا فقد يرى الأمر كالتالى : فى خواء مطلق حتى أنه يتجاوز أى مفهوم بشرى عن الخلاء ، تظهر نقطة وحيدة ذات إمكانات أولية . وهذه النقطة التى تحمل فى نفس لحظة تخليقها كل المادة ، وكل الكم ، وكل الطاقة ، وكل الزمان ، لا تلبث أن تنفجر لتفرغ كل محتوياتها .

والمادة كلها ، والقوى كلها ، تكون فى لحظة نشأتها غير متميزة إحداها عن الأخرى . وإذ يتمدد الكون ويبرد ، فإن المادة والقوة تنشق منفصلة ثم تنشق ثانية . وعندما يكون الكون مازال فى أول جزء من بليون الثانية من تاريخه ، فإنه يواصل التكسر . وسرعان ما تتخذ كل مكونات المادة كياناتها المنفصلة - أى تلك الجسيمات

التى نسميها الآن الكواركات واللبتونات (*) ، التى تصبح متدرجة فى صنوف منفصلة لا يحدث قط أنها تنضم معا ثانية .

والقوة الوحيدة التى دفعت إلى هذا الطوفان الجائح هى أيضا تتكسر لتنفصل عنها قوى جديدة مع تشكل الكواركات واللبتونات، وتصبح الجسيمات المختلفة مرتبطة للأبد بالقوى الجديدة التى تم خلقها . ومازالت ثلاث من هذه القوى المنشقة تعمل من داخل الذرة. وأقوى تلك القوى هى القوة القوية التى تُبقى مكونات النواة متماسكة معا – أى الكواركات التى تؤلف البروتونات والنيوترونات . أما القوة الكهرومغناطيسية فهى أضعف من القوية ألف مرة ، وهى تبقى على الإلكترونات التى هى نوع من اللبتونات ، فى مدارها حول النواة . وهذه القوة تجعل الذرات تبدو جامدة وهى أيضا مسئولة عن موجات الراديو والضوء .

والقوة الضعيفة أضعف مائة مرة من الكهرومغناطيسية ، وهى تسبب التحلل الإشعاعى بأن تحلل وئيدا النيوترونات التى فى ذرات عناصر معينة كاليورانيوم . وكل القوى تنتقل بواسطة البوزونات الناقلة – أى الجسيمات الحاملة للقوى والتى توجد لجزء من

(*) اللبتونات صنف من الجسيمات تحت الذرية يشمل الالكترون ، والنيوترينو ، والتاو ، والميون – أى كل الأشياء التى توجد خارج النواة ، أما النواة فتتكون من نيوترونات وبروتونات ، تتكون هى نفسها من كواركات .

وقال فى وقار مفاجئ : «إن هدفى بسيط . إنه فهم الكون فهما كاملا ، ما السبب فى أنه ما هو عليه ، لماذا يوجد على الاطلاق.» .

وخططت هذه الأفكار في إحدى الكراسات . وعندما رفعت بصرى كان هوكنج ينفجر ضاحكا وعيناه تومضان .

وسألنى : «ألا تبدو هذه الكلمات مألوفة لك ؟» وبعد لحظة تفكير وجدت أنها حقا كذلك . وكنت قبلها بسنة قد كتبت قصة عن هوكنج ظهرت فى مجلة علمية شعبية أمريكية . وفى مكان بارز فى أول القصة ، كنت قد استشهدت بهوكنج وهو ينطق بنفس هذه الكلمات التى قالها لى عندما قابلته فى العام الماضى .

ومع ذلك ، فإن هوكنج مثل معظم الفيزيائيين النظريين ، يؤمن الآن أن السر فى أعظم هدف محير بين كل الأهداف إنما يكمن فى الكون المبكر جدا ، فى الفترة التى هى خلال أول جزء من التريليون من الثانية بعد بدء الانفجار الكبير . فعندها كانت القوى الأربع التى نراها الآن فى كوننا البارد المستقر ، هى قوة واحدة فيما يحتمل . وقد تم طرح ذلك بناءً على التفحص فى الأحداث التى وقعت عند اللحظة غير المعقولة التى كان عمر الكون عندها فحسب $١٠^{-٣٢}$ أو $١٠^{-٣٣}$ من الثانية . إلا أن هوكنج يعتقد أنه يلزم الارتداد بالأمر لما هو حتى أبعد من ذلك - بما يزيد فى الحقيقة عن واحد من البليون .

وهو يقول : «أود أن أعرف بالضبط ماذا حدث بين $١٠^{-٣٣}$ من الثانية و $١٠^{-٤٣}$ من الثانية . فهاهنا تقبع الإجابة النهائية عن كل الأسئلة عن الكون بما فيها الحياة نفسها» .

«والفكرة الكلاسيكية عن الزمان تنهار فى وقت ما قبل ذلك - وقت ما هو بين $١٠^{-٣٣}$ و $١٠^{-٤٣}$ من الثانية . وقد كتبت أخيراً ورقة بحث تعنى أساسا بالكون عند $١٠^{-٣٣}$ من الثانية ، ولكن شاغلى الحقيقى هو ما يحدث فى وقت وراء ذلك . ولا أعتقد أن هناك حقا نموذجاً محدداً جدا عند هذه النقطة . ولا يبدو حتى الآن أن هناك ما يمد بإجابة» .

وهناك عدة قيود لأى تفسير لبداية الزمان . وأولها أنه لم يكن هناك أى فرد موجود ليرصدها . وأى نظرية تزعم أنها توصف الانفجار الكبير يكون فيها قدر هائل من الاستقراء من الأدلة التى مازالت موجودة للآن . وإشعاع الخلفية الذى يتخلل الكون كله هو أحد الروابط الرئيسية التى تربط البشرية بالخلق . وكما أن الفحم الذى يتم العثور عليه فى دائرة من الصخور فى الغابات ، يكون دليلا قويا على أن شيئا ساخنا وجد هناك من قبل ، فإن هذه الأشعة تبين للفيزيائيين ما كان عليه الكون عندما انفصلت المادة والإشعاع أحدهما بعيدا عن الآخر . ولما كان هذا الإشعاع متسقا جدا ومنتشراً جدا ، فإنه يدل على أن نماذج علم الكونيات عن كون

ومحطة التوقف التالية هى عندما يزيد على ١٠ ملايين سنة خلت ، عندما كان عمر الكون مجرد ٥٠٠،٠٠٠ سنة . وهذا هو الوقت الذى انضمت فيه الجسيمات الأولية معا لتشكل الذرات . وقبل هذا الوقت كان الكون أسخن من أن يحدث للألكترون أن يقع فى مدار كمّى من حول النواة ، فكان الكون بحر يغلى من الكترونات ونوى سائبة .

والفيزيائيون يمكنهم وضع علامة عند هذه النقطة لأنهم يعرفون بالضبط القدر المطلوب من القوة الكهرومغنطية لإبقاء أحد الإلكترونات مرتبطـا بنــواة أى ذرة لأحد العناصر . وكل ما يلزم هو تحويل هذه القوة إلى مكافئها الحرارى فنرى ما هى النقطة التى مر بها الكون المبترد عند هذه المرحلة . والإجابة هى نصف مليون سنة .

وحسب ما يقول هو كنج « ما إن تبدأ الذرات فى التشكل ، حتى يمكن للمادة أن تتكثف فى مجرات ونجوم ، ويمكن للجاذبية أن تبدأ فى القيام بدور مهم فى نشأة الكون » . وحوالى هذه النقطة أيضا أخذ الضوء يتمكن من الانتقال خلال الكون كله .

ومحطة التوقف التالية فى الرحلة وراءً هى عندما يقرب من ١٠٠،٠٠٠ سنة . ويكون العنصران الرئيسيان فى الكون هما المادة التى تصنع المجرات والنجوم والكواكب والناس ، والإشعاع الذى

يكون خلفية من الميكروويف . واليوم فإن إشعاع الخلفية هو والمادة يكاد لا يكون بينهما أى تفاعل أحدهما مع الآخر .

على أنه فى العمر المبكر للكون - عندما كانت الكثافة والحرارة أعلى كثيرا جدا مما هى عليه الآن - كانت المادة والإشعاع يتفاعلان معا تفاعلا قويا . ويعتقد المنظرون أن فوتونات خلفية الميكروويف كانت فى الحقيقة تقترن مع البروتونات والنيوترونات والإلكترونات التى تصنع المادة . وإذ برد الكون ، تم انفصال الإشعاع والمادة ، وحدث هذا بعد ١٠٠,٠٠٠ سنة . وخلفية الميكروويف التى اكتشفها أرنولد بنزياس وروبرت ويلسون فى ١٩٦١ هى أثر باق من لحظة انفصال الإشعاع عن المادة .

والمحطة التالية وراءً للمنظرين هى عند طفولة الكون - عندما يقرب من دقائق ثلاث بعد وقت الصفر . ويقول هوكنج «إن هذه لنقطة مهمة . وقبل الدقائق الثلاث ، كان الكون أسخن من أن يسمح بارتباط البروتونات والنيوترونات معا فى نواة . وعمر الدقائق الثلاث هو الذى يجب أن نبدأ عنده فى التطلع بحرص بالغ إلى القوة القوية» .

وإذا حدث بالفعل أن اتحد معا أحد البروتونات مع أحد النيوترونات أثناء الدقائق الثلاثة الأولى ، فإن ما يحدث من اصطدامات مع الفوتونات التى من إشعاع الخلفية أو مع

فإن الكون يكون حساءً فائرا من الكواركات ، هو مفعم بالطاقة والكثافة المحتشدة بما لا يسمح بتشكيل جسيمات النواة .

والفيزيائيون يستخدمون بالفعل فكرة «حساء الكوارك» ليتغلبوا على مشاكل نظرية معينة يواجهونها عند هذه النقطة . وعند $١٠^{-٤}$ من الثانية تكون كثافة الكون جد هائلة حتى أن قدر المسافة بين كل البروتونات والنيوترونات يكون صغيرا بمثل حجم أحد هذه الجسيمات نفسه . وهذه المسافة هى أضيق نوعا من أن تريح الفيزيائيين الذين يضطرون إلى كتابة توصيف جديد بطريقة سلوك الجسيمات تحت الذرية فيما لو كان عليهم تبرير كثافة كهذه .

ولحسن حظهم ، فإن إحدى خصائص القوة النووية القوية ، التى تبقى على تماسك جسيمات النواة معا (النيوكلونات) داخل نواة الذرة ، هى أن هذه القوة تزيد بزيادة المسافة . وكلما تقاربت الجسيمات ، قلت القوة . ويصدق هذا على البروتونات والنيوترونات كما يصدق على الكواركات التى تصنعهما .

وهكذا أنشأ الفيزيائيون نماذجا حيث الكون المبكر ذو الكثافة العالية هو مزيج من جسيمات منفصلة بالكاد ولا يتفاعل أحدها مع الآخر - أى النموذج المسمى حساء الكوارك . وهو يفترض أن درجة الحرارة تصبح ببساطة أعلى وأعلى كلما اقتربنا من وقت الصفر . وإذا كان النموذج صحيحا ، فإن ذلك قد يعنى أن الحرارة

تظل تتزايد مباشرة حتى حائط بلانك ، وهو النقطة التي يكون عمر الكون عندها $١٠^{-٤٣}$ من الثانية ، والتي لا تصلح حسابات الفيزيائيين فيما وراءها .

وهناك نماذج أخرى تعرض ما يسمى بالانفجار الكبير البارد . ولا يعني هذا أن الكون بدأ بانفجار بارد ، وإنما يعني بالأحرى حدوث تمدد لفضاء لم تكن حرارته عند البداية أسخن بالضرورة عما ستكونه بعد ذلك بجزء من الترليون من الثانية . والكوراكات في النماذج التي من هذا النوع لا يلزم اشتراكها في الأمر . وبدلا من ذلك ، فإن أنصار النظرية يطرحون أن عدد الأجسام الأولية يتزايد دون أي حد ظاهر قرب بدء الكون .

ويبدو هذا كمفارقة . فالكون تاريخيا ظل دائما يبرد . وهو الآن يبرد . وهكذا فإننا عندما ننظر وراءً في الزمان لأبعد وأبعد ، ينبغي أن نرى الكون أسخن وأسخن ، ويستمر ذلك مباشرة حتى لحظة المفردة عند البداية . على أن هذه النماذج تزعم أن الطاقة الجوهرية للكون المبكر جدا مضت في خلق عدد متزايد أبدا من جسيمات تتزايد كتلتها وتتزايد ، بحيث أننا منذ أول البداية ذاتها نرى انفجارا كبيرا هو بارد نسبيا .

إلا أن نموذج حساء الكوارك هو الذي يتمتع عند المنظرين بشعبية أعظم مما لنموذج الانفجار الكبير البارد ، ورغم أن هوكنج

مسئوليتهم وحدهم ابتداء من هذه النقطة وما يليها . ورغم أن هناك معجلات أكبر تشيد ، إلا أن لم يتم حتى الآن بناء أى شىء على الأرض يقترب مما يضاهى درجات حرارة الكون المبكر جدا ، وهكذا لا يعود بعد فى إمكان التجارب أن تتحقق من تخمينات المنظرين .

وعند ١٠ $^{-٢٠}$ من الثانية نصل إلى النقطة التى يظن هوكنج أن الثقوب السوداء الصغيرة ربما تكون قد تشكلت وقتها . وفى هذه الثقوب المصغرة التى يعتقد هوكنج أنها تنتشر فى الكون كله ، يجب أن يبدأ الفيزيائيون ، لأول مرة ، التطلع إلى تأثيرات الكم بحدود من الجاذبية .

ويقول هوكنج «لا يمكن وجود الكثير جدا من هذه الثقوب ، وإلا لكنا رصدنا الكثير من أشعة جاما – ونحن لا نرصد ذلك . ولا يمكن فى مجرتنا أن يقترب أحد الثقوب من الآخر بأكثر من مسافة بعد الأرض عن بلوتو . وفوق ذلك فإن تأثير جاذبية المجرة يعنى أن كثافة الثقوب السوداء الصغيرة تكون أكبر فى داخل المجرة عما فى خارجها » .

وعند عمر ١٠ $^{-٣٢}$ من الثانية يكون حجم الكون ما يقرب فحسب من من حجم كـــرة لعب لينة . وتكون حرارته ١٠ ^{٢٧} بمقيـــاس كلفن (*) .

---

* درجة الحرارة فى تدريج كلفن ، أى المقياس الديناميكى الحرارى ، وتساوى $\frac{١}{٢٧٣,١٦}$ من النقطة الثلاثية للماء على المقياس نفسه . (المترجم) .

وفيما قبل ذلك بلمحة عابرة عند عمر 10^{-35} من الثانية – تكون آخر وقفة فى الطريق وراء يحس الفيزيائيون عندها بشيء من الثقة فى صحة أفكارهم عن تاريخ الكون المبكر جدا . وهذا الجزء من الثانية بعد المفردة هو أقل ترليون مرة عن الزمن الذى يستغرقه الضوء ليمر عبر أحد البروتونات .

والفيزيائيون الذين يؤمنون بالنظريات الموحدة الكبرى يعتقدون أنه عن 10^{-35} من الثانية كانت القوة القوية متوحدة مع القوتين الأخريين تحت الذريتين – أى القوتين الكهرومغنطسية والضعيفة . وتحاول هذه النظريات الكبرى الموحدة أن توصف ما كان عليه الكون أثناء هذه اللخطة من التاريخ الكونى . وحجم الكون عندها هو فحسب 10^{-24} من السنتيمتر ، وطاقته الخالصة تكون قد بدأت فحسب تتكثف إلى جزيئات دقيقة جدا مثل الكواركات واللبتونات . وتكون المادة هى ومضاد المادة موجودان بكميات متساوية تقريبا .

أما حائط زمن بلانك فيأتى عند 10^{-43} من الثانية . وعند هذه النقطة تنهار إنهيارا أساسيا قدرة الفيزيائيين على توصيف المكان أو الزمان أو المادة . ويفترض أنه عندها فى التو تفصم الجاذبية ارتباطها بالقوة الوحيدة المتوحدة التى وجدت لحظة الانفجار الكبير ولكن أحدا لا يستطيع أن يقطع بذلك على وجه اليقين لأنه لم يوجد بعد تناول كمى للجاذبية .

من القوة بحيث أن تأثيرات الكم – بحكم التعريف – يجب عندها أن تؤخذ في الحسبان . وإذا كنا نريد أن نفهم كيف بدأ الكون ، يجب أن نفهم كيف يمكن ضم الجاذبية وميكانيكا الكم . »

إن زمن بلانك يمثل انهيارا في قدرتنا على توصيف المكان والزمان بالنظرية النسبية الكلاسيكية . وسبب هذا أننا لا نعرف طريقة لتكمية الجاذبية . »

وقد تمكن المنظّرون ، بمعنى ما ، من الاقتراب من حائط بلانك ، ولكنهم لم يتمكنوا من عبوره ، ذلك أنهم قد استطاعوا أن يتلاعبوا بمعادلاتهم بطريقة أو أخرى لتحملهم وراءً عبرنقاط الزمن الحرجة في نشأة الكون . وقد حدث هذا عند ١٠ $^{-٤٠}$ من الثانية ، عندما تقرر أنه لا بأس من التجاوز عن التفاعلات ما بين الحشد الكثيف من البروتونات والنيوترونات .

أما حائط بلانك فهو الانذار النهائي للكون : فلن يُسمح بعد بأي تحايل في المعادلات ، ولا بالقفز من فوق نقاط هي بالغة التعقيد أو الغموض بحيث لا تُفهم .

فها هنا ، لو أردنا معرفة كيف بدأ الكون ، فإنه ينبغي لذلك أن يتم ضم كل حساباتنا وكل تفكيرنا معا في أوضح مقولات تاريخ البشرية عن الكون . ومع ذلك فقد لا نصل قط إلى معرفة ذلك – معرفة مضبوطة .

فقاعة أم انفجار

ظل الانفجار الكبير هو منهج العمل فى نموذج خلق الكون طيلة جيل من الفيزيائيين . على أنك لو زرت اليوم مؤتمرًا لعلم الكونيات فإنك لن تسمع شيئًا سوى الحديث عن االفقاقيع والكون الذى ينتفخ . والمنظرون لم يكونوا قط راضين تمامًا عن بعض العوامل الملفقة فى سيناريو الانفجار الكبير بما فيه من تفجر عارم تولد فيه المادة والقوى لتنطلق فى كل الاتجاهات فتشكل كونًا مازال يتمدد حتى اليوم . والمفردة التى عند البداية تثير ضيق البعض ، وبالنسبة للغالبية فإن الانفجار الكبير لا يفسر تفسيرًا وافيًا اتساق اشعاع الخلفية . وهم يعتقدون أن الأمر وكأن قنبلة قد انفجرت لتقذف بالشظايا خارجها فى كرة متقنة . والانفجار الكبير أيضًا يطرح فرضًا عن طبيعة المكان فى الكون ، يُفترض فيه مسبقًا وببساطة أنه يشبه سطح نضد مسطح وليس سطح كرة وذلك ليفسر تسطح الكون نفسه .

ويوضح هوكنج أن « فكرة أن الكون بدأ كفقاعة تقدم حلاً بسيطًا للكثير من هذه المشاكل » . ونظرية الفقاعة التى نشأت فى

ونظرية الفقاعة تفسر أيضًا تسطح كوننا وذلك بالاعتماد على قانون طبيعى بدلاً من الاعتماد على فرض تعسفى . فعندما تنمو إحدى الفقاعات الى حجم الكون الحالى ، فإنها تتسطح بمثل ما يبدو سطح كرة كبيرة كالأرض مسطحًا .

ما هى المشاكل التى مازال ينبغى حلها فى سيناريو الفقاعة ؟ إن الفيزيائيين الفلكيين ليسوا واثقين تمامًا من الطريقة التى تكثفت بها المجرات والنجوم من تجمعات المادة فى داخل الفقاعة التى أصبحت كوننا . وبعض الفيزيائيين تزعجهم فكرة أن كثرة من الأكوان تُخلق فى نفس اللحظة .

هل هذا أمر سوف نعرفه قط معرفة أكيدة ؟ إن الفيزيائيين يختلفون بشأن هذه النقطة . والحس المشترك يشير الى أن الأكوان المنفصلة مثلها مثل الفقاقيع التى فى رغيف خبز يعلو متخمرًا ، لن تلتقى أبدًا ، ولكن بعض الخوارج من الفيزيائيين يعتقدون فى حماس مميز ، أن التمدد إذ يتباطأ حتى يتوقف ، فإن بعض الأكوان الفردية سيمكنها أن تتلاقى معًا فى النهاية .

ويشرح هوكنج الأمر فيقول « إن الانتفاخ يفسر حقيقة أن تمدد الكون يكون مضبوطا ضبطا دقيقا خلال هذه الفترة ، ومن احدى النواحى فإن هذا يسمح للكون بأن يتمدد بمثل ما فعل دون أن

يتقلص على نفسه ثانية ليصبح ثقبا أسود . ومن الناحية الأخرى ، فإنه يصبح من الممكن أيضا أن المادة قد تم بسطها بسمك هو أرق من أن يسمح بتكوين المجرات » .

وتساءلت عن مشكلة الكون عند المفردة ، أو « بداية الزمان » بلغة هوكنج . هل يساعد مفهوم الفقاعة على التخلص من المفردة هذه التى تزعج الكثير من المنظرين الفيزيائيين ؟

وقال هوكنج « حسن ، من المؤكد أنه قد يصبح فى إمكانك إنشاء نموذج كونى بدون مفردة ، عندما تستخدم الفقاعة . ولكنى لا أعتقد حقا أن ذلك سيكون فيه ما يساعد بشأن المفردة الموجودة عند التقلص بالجاذبية . كما أن هذا لا يتخلص بعد من المفردة التى فى الثقوب السوداء .

« وباختصار فإنى لا أعتقد أن مفهوم الفقاعة سيتخلص من مفردة البداية . على أن هذا أمر ممكن » ، قال ذلك وقد بدا غير واثق بخلاف ما تتميز به شخصيته .

وقد عمل فيزيائيون كثيرون على الكون الفقاعة . ويطرح أحدهم ، وهو ج . ريتشارد جوت الفيزيائى الفلكى الشاب فى برستون ، أن كوننا لا يعدو أن يكون واحدا مما قد يكون عددا لا نهائيا من أكوان خلقت كالفقاعات فى سائل ساخن له كثافة هائلة وإن كانت محددة . وتدل حساباته على أن كل كون من أكوانه

هذه يكون هو نفسه « مفتوحا » أو لا نهائيا فيما يعنى تمدده ، وأنه سيظل يكبر للأبد .

وتتشكل هذه الفقاعات خارجة من نوع من الفضاء سُمى على إسم ويليام دى سيتر ، الذى درسه لأول مرة فى ١٩١٧ . وهو حل خاص لمعادلات المجال فى النسبية العامة لإينشتين والتى توصّف كونا مقوسا لامتناه يتمدد . وقد أضاف دى سيتر إلى حله ثابتا كونيا يماثل قوة كلية طاردة ، هى نوع من جاذبية سلبية . وتمدد الكون بالشروط التى يعرفها دى سيتر يحدث فيه أن أى نقطة منفردة تنزع إلى أن تتحرك بعيدا عن النقطة الأخرى بمعدل سرعة تتزايد بثبات .

أما فى نسخة جوت من الكون الفقاعة ، فإن الفقاعة الأصلية تتكوّن بسلاسة خارجة مما يحيط بها من فضاء دى سيتر . وفى هذه العملية يتم التخلص من المفردة التى عند البداية . وحسب جوت ، فإن ذلك الاتساق الموجود فى الكون على نطاق واسع لا يمكن أن يتأتى إلا إذا كان كل جزء من الكون فى الفترة المبكرة من التمدد على علاقة مباشرة أو سببية بكل جزء آخر ، حتى ولو كان ذلك للحظة واحدة فحسب .

والانفجار الكبير القياسى فى علم الكون ، نجد فيه أن أجزاءً من الكون المبكر جدا هى غير متصلة سببيا لأنها منفصلة بمسافات

أبعد من أن تسمح للضوء بأن ينتقل فيما بينها عندما بدأ الانفجار الهائل . وهذا أمر سبب الإزعاج دائما لعلماء الكونيات . أما فى نموذج جوت ، فكما فى كونيات الكون المنتفخ ، تكون هناك فترة وجيزة من كثافة ثابتة تسمح بوقت كاف تكون فيه كل أجزاء الكون على علاقة سببية أحدها بالآخر ، وهكذا فإن ذلك يؤدى إلى تسوية أى نقط خشنة وخلق كون متجانس .

على أن أحد الأوجه الغريبة فى كونيات جوت هى تطبيقها لإشعاع هوكنج على الكون المبكر . فجوت عندما نظر فى التفاعل ما بين الجاذبية وميكانيكا الكم ، قرر أن آفاق الأحداث المحيطة بالثقوب السوداء تولّد باستمرار إشعاعا حراريا . وتوصل إلى فكرة أن إشعاع هوكنج يفسر إشعاع الخلفية الذى يتوزع فى تساو فى الكون كله .

وقد سبق لهوكنج هو وآخرون أن بينوا أن إشعاع الثقب الأسود عند أفق الحدث هو فحسب حالة خاصة من تنظير عميق : فحيثما يوجد أفق حدث ، يتم بث إشعاع حرارى . ويعنى هذا أنه عند حد أى منطقة لا يمكن للضوء أن يفر منها - كحرف ثقب أسود أو تخم أحد الأكوان - سيكون هناك بث لنوع ما من الإشعاع الحرارى .

ويزعم جوت أن إحدى الخواص ذات الدلالة لفضاء دى سيتر هو أنه ممتلىء بآفاق الأحداث وبإشعاع هوكنج . وهذا التمدد الذى

يتزايد أبداً - والذى فى الحقيقة يتزايد تزايداً آسيّا - هو الذى يخلق كل آفاق الحدث هذه . وعندما تنشأ نقطتان وهما مفترقتان على بعد كبير بما يكفى وتتباعدان بسرعة أكبر من أن تسمح لشعاع ضوء من إحداها بأن يصل الى الأخرى ، فإنه سيحدث فيما بينهما أفق حدث .

وكان هوكنج هو وجارى جيبونز تلميذه وزميل مكتبه السابق ، قد أجريا من قبل الحسابات عن إشعاع هوكنج المصاحب لآفاق الحدث هذه بالذات ، إلا أن جوت خطا بالأمر خطوة أبعد .

فجوت يستخدم نتيجة هوكنج وجيبونز التى توصّف رياضياً كثافة الاشعاع بلغة من تمدد الكون المبكر ، وذلك ليضيف هو عاملاً إضافياً ليجعل كثافة الطاقة هذه متماسكة ومتجانسة ، وهذا الثابت هو بطريقة أو أخرى ، يماثل بلغة الرياضة ملء فضاء دى سيتر بسائل من كثافة متسقة . على أن سائل جوت هذا له ضغط سلبى ، وهو ما يصفه مبتدعه بأنه مص كونى .

ويزعم جوت أن الحسابات الحديثة فى نظرية مجال الكم ينجم عنها نتائج تبين أن اشعاع هوكنج سيسلك بالضبط بهذه الطريقة الغريبة فى ظروف معينة ، وعلى وجه الخصوص فى تلك الظروف الموجودة أثناء الطور المبكر من تمدد فضاء دى سيتر .

وحسابات جوت لها نتيجة شيقة ، فآفاق الحدث تولّد إشعاع هوكنج ، والإشعاع يصبح هو السائل الذى يسبب تمدد الكون الفقاعة . وثابت جوت – أو سائل إشعاع هوكنج – هو ما يسبب التمدد الأُسّى لفضاء دى سيتر ، والتمدد يولد آفاق الحدث .

وهذه الأطروحة الدائرية لا تصلح إلا إذا كان إشعاع هوكنج ساخنًا سخونة هائلة – بما يزيد عن 10^{31} درجة بمقياس سلسيوس – وكثيفًا بما لا يصدق ، بما يصل الى رقم لا يمكن فهمه وهو 10^{93} جرام من المادة لكل سنتيمتر مكعب . وجوت أيضًا واثق الى حد كبير من أن هذه الدرجات المتطرفة من الحرارة والكثافة هى بالضبط ما يقترب من الظروف المناسبة حيث تبدأ الجاذبية فى السلوك بما يُظن أنه يماثل مجال كم – أى النقطة التى تُكمّى عندها الجاذبية .

وجوت يضمن فترة انتفاخية فى نظريته للفقاعة ، وفى هذا الطور الانتقالى ، تتغير المادة تغيرًا حاذقًا . فيطرح جوت مثلاً أن ما كان فى السابق كواركات بلا كتلة قد يكتسب الكتلة فجأة . وأثناء هذه الفترة يدخل إشعاع هوكنج الى الفقاعة من فضاء دى سيتر المتمدد وفى ومضة زمانية – هى 10^{-42} من الثانية – يتحول الى مادة عادية ، وهذا التحول شبه الفورى من الإشعاع الى المادة هو

ما يؤمن جوت أن الفيزيائيين الفلكيين اليوم يتطلعون وراءً اليه ويسمونه الانفجار الكبير .

واشعاع هوكنج الذى تولده آفاق الحدث الجديد هو هكذا مسئول عن كل المادة والطاقة التى فى الكون الآن . ولما كان إشعاع هوكنج هو طبيعيًا متسق فى فضاء دى سيتر فإن هذا هو السبب فى أن موجات ميكروويف الخلفية هى والكون نفسه جد متجانسان معًا .

والجزء الخطر فى نموذج جوت هو أنه يحاول أن يخبرنا بما حدث على الجانب الآخر من زمان بلانك – عند ١٠^-٤٤ من الثانية أو ما هو أكثر تبكيرا . وهو يطرح أنه أثناء هذه الفترة يمكن أن تتكون أيضا أكوان أخرى ، عدد لا نهائى من الأكوان ، بالضبط مثلما ترغى الفقاقيع من فوق الجعة .

على أننا لسوء الحظ لن نتمكن قط من رصد أى من هذه الأكوان الأخري . فكل منها منفصل عن الآخر بأفق حدث ، أى حاجز الضوء الذى يمنع انتقال المعلومات كلها من كون للآخر .

والجوهر لأى نظرية علمية هى أنها يجب أن تكون قابلة للإثبات . وما يلازم ذلك طبعا هو أنها أيضا قابلة للتفنيد . وإذن فما الذى يطرحه جوت كطريقة لإثبات أو تفنيد نظريته عن الفقاقيع التى تنبثق فى رغوة وعن الأكوان اللانهائية فى عددها ؟

والأمر من ناحية يتطلب مزيداً من البحث ليتحدد بدقة أكثر مسلك الفقاعات فى فضاء دى سيتر . وسيضفى هذا على نموذج جوت إطاراً نظرياً أفضل . ومن الناحية الواقعية فإن جوت ينادى بأنه يجب الوصول الى مشاهدات فلكية أكمل وأفضل فيما يتعلق بمسلك الكون وخصائصه على النطاق الكبير

ويعتقد معظم الفيزيائيين الفلكيين أن المجرات وتجمعات الأجرام لا يمكن قط أن تكون قد تكونت فى كون متسق اتساقًا كليًا . ولكن نظرية جوت تنادى بوجود كون من هذا النوع بالضبط فى اللحظة التى تعقب مولده . على أنه فى وقت ما من تاريخ الكون يجب أن تنشأ أوجه من عدم التناغم والتراوحات العشوائية . ويعتقد جوت أنه بإلقاء نظرة أفضل وأعمق فى السماء فإن ذلك سيفسر هذا الشذوذ .

وسألت هوكنج عن نظرية جوت . ما الذى يراه فى استخدام اشعاعه لتفسير كل المادة والطاقة التى فى الكون ؟ وقال هوكنج : « فى فضاء دى سيتر يكون لديك إشعاع حرارى ، وهذا مهم للفقاعات ، ولكن جوت لم يأخذ هذا بالضبط فى حسبانه » ،وأضاف هوكنج بسرعة فى دفاع عن عمله هو نفسه : « لقد اكتشف جارى جيبونز وإياى لأول مرة أن هناك إشعاعا حراريا فى فضاء دى سيتر . وسبب حدوثه هو أن هناك آفاق حدث ، تماما كما فى الثقوب السوداء . وهكذا فإنه مماثل جدا لإشعاع هوكنج » .

وإذن ، فماذا يرى هوكنج فى معادلات جوت لتطبيق إشعاع هوكنج على الكون المبكر ؟ وقال هوكنج بابتسامته المنمطة المراوغة « حسن ، أعتقد أن جوت قد حظى بقدر من الانتشار لا يستحقه . هناك عدة أناس آخرين قد طرحوا أفكارا مماثلة ، وبعضهم قد طرحوها قبله بزمن طويل . وهناك أيضا أفراد آخرون قد قدموا بتفصيل أكبر الآليات التى تنتج الفقاقيع عنها » .

ثم قال « إن أحد هؤلاء هو ألان جوث من معهد التكنولوجيا بماساتشوتس ، والثانى هو ستارو بنسكيى فى موسكو . والحقيقة أن ستاروبنسكيى هو فى الواقع أول من خرج بمفهوم الأكوان الفقاعة » .

وقد انضم هوكنج إلى النزاع على الفقاعة - الانفجار فى أواخر ١٩٨١ عندما سافر إلى روسيا مشدودا بما كان يعده عملا تنظيريا ممتازا للعديد من المنظرين الروس ، فذهب إلى هناك ليستكشف ما كانوا يدرسونه عن الكون المنتفخ . وهناك زار أ . د . لند ، هو وآخرين فى معهد لبديف للفيزياء فى موسكو .

ويقول هوكنج « كانت بعض النسخ الروسية عن مفهوم الكون الفقاعة هى حقا جذابة جدا . والفكرة الأساسية التى أثارت اهتمامى كانت بسيطة نوعا » .

« والأمر هو أنك عندما تكوّن فقاعات ، فإنك تكون عرضة لأن تخرج بأكثر من فقاعة واحدة . وهذه الفقاعات تكون عرضة لأن تتصادم . وهذا ينشأ عنه كون غير متجانس . وهذا لا يتفق وما نلاحظه الآن » .

وقد طرح لند فى ورقة بحث أنه يرى أن من الممكن لفقاعة واحدة أن تتشكل دون أن يتشكل معها فقاعة مجاورة . وكانت هذه الفكرة هى الشئ الرئيسى الذى أراد هوكنج تقصيه . وأنفق ساعات وهو يناقشها مع لند فى موسكو . ويقول هوكنج « سافرت وأنا أعتقد أن نسخة لند هى أحسن ما عند الروس ، ولكنى ما لبثت أن تبينت أن ثمة خطأ فى عمله » .

وعندما عاد هوكنج إلى كمبردج ، كان أول ما فعله أن جلس مع زميله أيان موس وصاغ ورقة بحث تهدف إلى تصحيح الأخطاء التى فى النظريات الروسية . .

ويقـول هوكنج « إن مشكلة سيناريو جوث هو أنه يؤدى إلى كون لا متجانس جدا تهيمن عليه فقاعات ضخمة قليلة تنبثق من الطور الانتفاخى . وقد بينا فى ورقة بحثنا أنه فى ظروف معينة يمكنك أن يكون لديك فترة انتفاخية تحدث فى تواكب عند كل نقاط الفضاء فى الكون المبكر جدا . وهكذا فإنها لا تخلق أيا من اللاتجانس » .

وكان هوكنج هو الذى فكر فى هذا التناول ، وموس هو الذى قام بالحسابات ، وتوصلا إلى هذا الحل بعملية مباشرة نسبيا . ويقول هوكنج « إن أوراق البحث الأخرى عالجت الخروج من الطور الانتفاخى كمشكلة فى مكان – زمان مسطح . وقد أهملت بذلك ما للكون من انحناء وأفق محدد » .

ويقول : « لقد بينا أن الفترة الانتفاخية لا تحدث فى مكان – زمان مسطح ، وإنما تحدث بدلاً من ذلك فى مكان – زمان منحن ، والنتيجة هى أنه يخرج من الفترة الانتفاخية كون بدون لاتجانس الأكوان الأخرى » . وورقة البحث هذه بما فيها من حل لمشكلة شائكة يكاد يكون حلاً بسيطًا ، قد أثارت اهتمامًا واسعًا بين علماء الكونيات .

وفى يونيو ١٩٨٢ استضاف هوكنج وجارى جيبونز مؤتمراً فى كمبردج عن الكون المبكر جداً – أى أول ثانية من حياة الكون . وأتى كثيرون من المبرزين فى هذا المجال : خمسة علماء كونيات من الاتحاد السوڤييتى بما فيهم لند وستاروبنسكى ، ومعهم جوث وأربعة وعشرون آخرون من الولايات المتحدة وأوروبا . وكانت مشكلة واحدة هى التى شدت معظم الاهتمام .

كان ثمة خطأ قاتل فى كل السيناريوهات الانتفاخية . وهو أن الكون وإن كان متناسقًا على النطاق الكبير ، إلا أنه ليس متسقًا

تماماً على النطاق الأصغر ، فهو يحوى تكتلات من المادة في شكل مجرات ونجوم وتجمعات من المجرات . وبكلمات أخرى ، فإن الأمر ببساطة هو أنه ليس من الواضح كيف يمكن لكون انتفاخى أن ينتج النجوم والمجرات التى نلاحظها فى كوننا الآن . ولحل هذه المشكلة توزع الفيزيائيون فى مجموعات منفصلة بورشة الأسابيع الثلاثة – ورأس هذه المجموعات ، مع آخرين ، هوكنج وجوث وستاروبنسكى .

ولاختبار وسبر ما بدأوا يسمونه « الكون الانتفاخى الجديد » أخذ المنظرون والمجتمعون يتجمعون فى جماعات صغيرة حول السبورات وشاشات الكمبيوتر وظنوا لفترة أنهم قد توصلوا الى حل لمشكلة تكوين المجرات . وبينت حساباتهم أن سيناريو الانتفاخ ينتج عنه حقاً العدد الصحيح من تكتلات المادة التى تتوزع توزيعاً صحيحاً خلال الكون كله .

ولكن عندما تم تتبع سيناريو الانتفاخ حتى ختامه الرياضى ، وجد أن تكتلات المادة هذه تتكوّن قبل الأوان وتتقلص بما يكاد يحدث فى التو ، الى ثقوب سوداء ، مخلّفة كوناً أسود بالكامل . وهكذا فان أبسط نموذج للكون الانتفاخى الجديد ، الذى ساعد على خلقه هوكنج هو وآخرون ، هو نموذج يجب أن تعلن وفاته رسمياً – حتى وإن لم يتجاوز عمره ستة شهور .

ويقول هوكنج : « حسن ، لقد بين المؤتمر على الأقل الاتجاه الذى يجب أن نتخذه ، وهكذا فإنه لم يكن فاشلاً . وقد بين لنا أيضا أنه مازال أمامنا عمل كثير » .

ومع هذا ، فإن الكون الانتفاخى هو الكون الذى يحبه أكثر الحب علماء الكونيات . ويقول هوكنج : « إنه يبدو كالتناول الصائب . وهو يحل من المشاكل أكثر مما يخلقه . وإحدى نتائج الانتفاخ التى يغرم المنظرون بها بالذات هو أن دفقة انتفاخية مبكرة تؤدى الى تسوية كل المادة فى الكون المبكر الى كثافة تسمح للكون بأن يتمدد بزمن طوله يماثل طول الزمن الذى تمدد به كوننا .

والكون المبكر الذى ينمو نمواً سريعًا يمكن أن يصبح محشوداً بالمادة حشداً كثيفًا بحيث أنه يمكنه ببساطة أن يتقلص على نفسه ثانية كثقب أسود . أو أن المادة ربما تكون قد بُسِطت بسطًا رقيقًا جدا بما لا يسمح بتجميعها فى مجرات ، وإنما هى فحسب تُجرف بعيداً فى الفضاء . وينبغى أن يكون هذا قد حدث فى أول ١٠$^{-٣٢}$ من الثانية فى الفترة الانتفاخية .

ورغم أن كوننا مازال يافعًا ، فإن المنظرين قد أنفقوا وقتًا طويلاً فى استكشاف مصيره النهائى . هل نعيش فى كون مفتوح ؟ هل يظل تمدده الحالى مســتمراً للأبد ، بحيث تصبح كل المادة فى

النهاية جد منتشرة بما يجعل النجوم والمجرات تنطفىء ببساطة الواحد تلو الآخر ؟ أم هل نعيش فى كون مقفول ؟ هل يبدأ الكون ذات يوم فى الارتداد على نفسه ، عاكساً الانفجار الكبير فى تقلص عارمٍ يسميه الفيزيائيون الكونيون الانسحاق الكبير ؟ إن مصير الكون مازال يمتد بعيداً لبلايين كثيرة من الأعوام ، ولكنى مع ذلك سألت هوكنج عن رأيه .

وقال : « حقيقة ، لا أزعم أنى أعرف مصير الكون . ولا يوجد شخص آخر يزعم ذلك . وأعتقد أن أحسن تخمين هو أن الكون موجود بالضبط على الحافة ما بين التقلص والتمدد . ولكن هذا مجرد تخمين » .

« هناك نموذج كونى بالذات يتنبأ بكون يتمدد بطاقة كافية بالضبط لتجنب تقلصه . وإذا كان على أن أختار أحد النماذج ، فأعتقد أنى سأختار ذلك النموذج – ذلك الذى يكون الكون فيه على شفا التقلص » .

ولكن ألا تطرح فكرة الأكوان الفقاقيع التى توجد جنبًا الى جنب أن الكون مفتوح ، وأنه سيظل يواصل التمدد الى الأبد ، حتى يصبح مظلمًا باردًا بما لا نهاية له ؟

وأجاب هوكنج : « إن فكرة الأكوان العديدة الموجودة جنبًا الى جنب لا تأثير لها فى فكرة الكون المفتوح ، إنها لا يمكن حقًا أن

تُعد مشكلة كلاسيكية . سيكون عليك أن تأخذ ميكانيكيًا الكم فى الحسبان – بكل ما فيها من احتمالات » .

« وعندما نقول أنه يمكن أن يوجد عدد من الأكوان جنبًا الى جنب ، أعتقد أنك تخطو هكذا فوق أرض خطرة – أرض ميتافيزيقية . أظننى سأستشهد هنا بوتجنشتين . لقد أمضى نصف حياته فى كمبردج . وقد قال – أو على الأقل هذه ما أظن أنه قاله – أن وجود أكوان أخرى ليس محمولاً(*) لموضوع . وما يعنيه هو أن القول بوجود أكوان أخرى ليس فيه أى معنى بالغ إلا إذا كان هناك لذلك نتيجة ما يمكننا رصدها .

« والحقيقة أنه لو أمكننا تطبيق ميكانيكا الكم على الكون ، فإن المرء سيتوصل طبيعيًا الى صورة يكون للكون فيها تفرعات مختلفة من كل الصنوف » .

وهل تكون هذه مناطق فيزيقية واقعية يمكن رصدها ؟

ويجيب هكونج : « لا ، لن تكون هذه تفرعات فيزيقية . إنها تعنى فحسب أن هناك احتمال بما ليس صفرًا لأن يكون للكون أشكال كثيرة مختلفة . تمامًا مثلما يوجد احتمال بأن يكون الكون مفتوحًا وإحتمالا بأن يكون مقفولاً » .

(*) : Predicate محمول لموضوع أى يقبل الحكم بالاثبات أو النفى (المترجم) .

ثم قال مستمتعًا بما يتـأمله : « لعل الأمر أننا فحسب موجـودون فى فرع بعينه من الكون هو بالضبط على الحرف بين أن يكون مفتـوحًا أو مغلقًا . وأكثـر شىء رائع فى الـكون أنه قريب جدًا من الحرف بين ما هو مفتوح وما هو مغلق . والاحتمالات ضد أن يكون الكون على حرف كهذا هى احتمالات هائلة . إلا أن الأمر جد متقارب بما يجعلنا غير قادرين على تقرير أى جانب هو عليه » .

هل سنستطيع قط أن نعرف إذا كان مفتوحًا أو مقفولاً ؟ أو أن هذا سيتحول الى سؤال آخر يحسن تركه للميتافيزيقا ؟

وقال : « سرعان ما سيكون لدينا المعدات اللازمة . ومرصد الفضاء ينبغى أن يتيح لنا أن نحدد على نحو أكيد على أى جانب من الحرف يكون الكون . وسوف نستطيع أن ننظر الى الفضاء نظرة أعمق كثيرًا ونحصل على وصف أدق للمادة فى الكون .

« على أننا ربما نظل غير قادرين على البت . فالأمر جد متقارب . ولو كان الكون يقبع على الحرف في توازن كامل ، فإننا لن نعرف قط . ولكن حسب كل ما تدل عليه مشاهداتنا الحالية ، فإنه عندما يصبح مرصد الفضاء فى حالة عمل ، سوف نتمكن بالفعل من تحديد ما إذا كان الكون مفتوحًا أو مقفولاً » .

« وعندها ماذا سنعرف ؟ » .

« مصير ذرات أجسادنا » .

كنت واقفًا على منحدرات جبل مونت بلانك فوق قرية للتزحلق فى جبال الألب الفرنسية تدعى شامونكس . كانت السماء زرقاء صافية ، والجبال مكسوة بباكورة ثلج الخريف ، وأوراق الشجر قد بدأت فى التو تُظهر ألوانها . وخرجت سيارة فيات ، شاحنة صغيرة ، من النفق الذى شُق من خلال مونت بلانك ليربط إيطاليا وفرنسا . وصعدت فيها أنا وروجر أنطوان إحد الموظفين فى معمل المعجل بمركز البحوث النووى الأوروبى الذى يقع على بعد ستين ميلاً للغرب من جنيف فى سويسرا . ولفت الشاحنة فى دورة لتتجه ثانية داخل الجبل .

وفى وسط الطريق خلال النفق الذى يمتد لسبعة أميال ، كان الهواء قد فسد بفعل دخان السيارات ورائحة الديزل . وعند هذه النقطة كان هناك جهاز كبير أقيم فى كهف منقور فى الصخر على جانب الطريق الرئيسى مباشرة ، وذلك لاختبار شىء واحد لا غير : هل البروتون ، وهو أكثر مواطنى الكون رسوخًا وثباتًا ، هل يبقى للأبد ؟ أم أن البروتونات تتحلل مثل معظم الجسيمات الأخرى ؟ ومنذ عشرين سنة كانت فكرة تحلل البروتون تعد هرطقة علمية . واليوم فإن العلماء يأخذون هذه الفكرة مأخذًا جديًا .

والسبب فى ذلك هو أن إحــدى النتــائج للنظريات الموحدة الكبرى ، هى أن البروتونات التى كان يُظن فيما سبق أنها ثابتة ، تتحلل فى النهاية الى جسيمات أخرى . والسبب حسب النظرية هو أن القوة القوية التى تحتفظ بتماسك البروتون هى والقوة الضعيفة التى تسبب التحلل الاشعاعى ، هما فى النهاية ناجمان عن نفس التفاعل الأساسى - تفاعل يظهر للحظة واحدة فحسب أثناء أول $١٠^{-٣٢}$ من الثانية فى حياة الكون . وهكذا فإن البروتون نفسه ، مثله فى ذلك مثل الذرة المشعة ، يمكن أن يكون مصيره المحتوم هو أن يتحلل - فى النهاية .

وتتنبأ النظريات بأن البروتون سوف يستغرق فى المتوسط زمنًا طولاً بالغًا حتى يتحلل - بما هو على الأقل $١٠^{-٣٠}$ سنة أو أكثر . ومع هذا فقد كان من المهام السهلة بما يدهش أن ابتكر الباحثون تجربة لاختبار شىء سيحدث فى المستقبل البعيد ، على مدى زمنى جد هائل حتى أنه أطول من عمر الكون .

وعلى بعد ميلين أسفل قمة مونت بلانك ، حيث الموقع آمن من الاشعاع الكونى الذى قد يؤدى الى إشارات مضللة فى الجهاز ، عرض لى الفيزيائى الايطالى بيتشى بيو تجربة لقياس عمر البروتون .

وقال بيو : « من الواضح أننا لا نستطيع أن نظل منتظرين بلايين السـنين ونحن نرقب بروتون واحـد لنرى إذا كان سيختفى . ولكننا نسـتطيع أن نجمع 10^{30} بروتون أو أكثر ونرى إذا كان واحد منها سـيتحلل خلال فترة معينة لتكن مثـلا عاماً واحـداً فاذا كان تحلل البروتون حقيقة من حقائق الطبيعة ، فانه من الوجهـة الإحـصائية ينبغى أن يمـوت على الأقل بروتون واحد خلال العام .

وعرض لى بيو مجموعة بروتوناته ، كانت محتواة فى نظام من بلاطات حديدية تزن إجمالاً ١٥٠ طنًا . وقد قدر بيو وزملاؤه أن عدد البروتونات فى الحديد يقرب من 10^{32} ، « العدد المناسب تماماً لتجربة جيدة » .

والبلاطات كلها قد جهزت بما يصل الى ٤٢٫٠٠٠ أداة تشبه عدادات جيجر لتلتقط أى دفقة إشعاع يبثها بروتون يموت . وتسمى هذه الأدوات المسعر Calorimeter ، وهى موصلة الى كمبيوتر . ومهمة بيو وزملائه الذين كانوا من العديد من الجامعات الايطالية ومن مركز البحـوث النـووية الأوروبى هى أن يرقبـوا – مجـرد أن ينتظروا ويرقبوا – شـاشة الكمبيوتر فى انتظار الاشـارة الصحيحة . وعندما رأيت التجربة فى ١٩٨٢ ، كان ثمة أربعة أحداث مرشحة لذلك قد ظهرت بالفعل على شاشة الكمبيوتر .

وحصل بيو على طبعة الكمبيوتر لأحد هذه الأحداث . كان ذلك مسارًا فى شكل حرف واى Y كان القائمون بالتجربة مقتنعون الى حد معقول بأنه يبين أن بروتونًا واحدًا قد تحلل الى لبتون يدعى ميون والى الكترون موجب أو بوزيترون ، مخلفًا فى أعقابه دفقة صغيرة من الطاقة التقطتها المسعرات . وكان المسار الآخر الذى أراه لى هو لنيوترينو قال أنه قد مر بالكامل خلال الأرض قبل أن يصل الى النفق فى أسفل مونت بلانك .

وتنفَق ملايين الدولارات على تجارب مماثلة فى الهند وأوهايو ومينوسوتا وداكوتا الجنوبية ويوتاه واليابان للكشف عن زمن حياة البروتون . وحتى الآن فإن معظم النتائج ليست حاسمة ، وإن كان الباحثون فى الهند يزعمون أن لديهم على الأقل ثمانية أمثلة لتحلل البروتون . وإذا أمكن قط أن يظهر بالتأكيد تحلل البروتونات ، فإن هذه يبرهن على أن النظريات الموحدة المختلفة هى على الدرب الصحيح . وسيبين هذا أيضًا للعلماء أن الكون هو جبليًا غير مستقر ، حيث أن البروتونات هى المكونات الرئيسية للمادة .

ويظل هوكنج متشككًا بهذا الشأن .

وذات يوم قال لى بصراحة فى مكتبه : « إنهم لن يجدوا تحللاً للبروتون . ولو فعلوا ، فإن هذا سيعنى أن ثمة خطأ فى التجربة . وما أخمنه هو أن زمن حياة البروتون لهو أطول الى حد كبير مما

يعتقدون . إنهم يبحثون فى مدى من $١٠^{٣٠}$ الى $١٠^{٣٢}$ من السنين . وهذا أفضل ما يستطيعون فى وقتنا هذا . وأنا أقدر أنه يزيد زيادة لها قدرها عن $١٠^{٣٢}$ سنة . وفى هذه الحالة ، فإنه يكاد يكون من المستحيل رؤية ذلك » .

وقلت ملاحظًا : « إنك تبدو جد واثق » .

وقال مسلمًا : « لو كانت أبسط المعادلات فى النماذج الموحدة الكبرى معادلات صحيحة ، لأمكن الكشف عن الأمر . ولكن المرء يستطيع أن يصنع نماذج موحدة كبرى يكون فيها زمان حياة البروتون أطول كثيرًا من $١٠^{٣٣}$ سنة . وعندها لا يمكن قط اكتشاف الأمر » .

« ومن ناحية أخرى سيكون من المستحيل – ليس فقط بالنسبة للآن ، بل وفى المستقبل – أن نميز تحلل البروتون عن أحداث أخرى معينة تسببها جسيمات النيوترينو . وهذه الأحداث ليست هى نفسها ، ولكنها تبدو مشابهة جدا لتحلل البروتون » . وتذكرت نيوترينو بيو ، ذلك الذى شق طريقه مخترقًا الأرض كلها ، ومشابهته للمسار الذى خلفه ما يُزعم أنه بروتون فى سكرات موته .

وقال هوكنج : « وهناك أيضًا نوع آخر من تحلل البروتون ينجم عن الثقوب السوداء الصغيرة . وهذه الثقوب الصغيرة أصغر حجمًا

من البروتونات . ولكن زمن حياة البروتونات فى هذه الحالة أكثر من $١٠^{٤٥}$ سنة . ولا يمكن قط لشىء أن يقيسه » .

وازدراء هوكنج لتجارب بحاث البروتون يمكن ألا يؤخذ فى الحسبان ، باعتبار أنه مما يميز عدم الثقة المتبادل بين المنظرين والتجريبيين . وهو يقول مصراً على أنه ليس كذلك : « لست ضد التجريبيين ، وانما المنهج فحسب » .

« ولكن لو تم قط إثبات تحلل البروتون ، فإن هذا سيقود الى أفكار شيقة نوعًا » .

المبدأ الإنسانى

وجدت التقارير الأولى عن الانفجار الكبير جمهورا مهيأ لتقبلها فى الكثير من الجماعات الدينية .وبعد أن عرف البابا بيوس الثانى عشر بما يتضمنه سفر التكوين العلمى هذا ، فإنه أعلن فى ١٩٥١ أن « العلم الحقيقى يكتشف الله بدرجة تتزايد أبدا وكأن الله ينتظر خلف كل باب يفتحه العلم » . ويؤمن عدد من العلماء ليس بالقليل بأن حقائق الانفجار الكبير التى يتم الكشف عنها وئيدا تشير إلى صنيع الخالق . ومن الواضح أن ليس للعلم أن يتمكن من الوصول بنا إلى لحظة الخلق بالضبط – وانما هو يصل فحسب إلى النقطة التى تبدأ عندها الفلسفة والميتافيزيقا واللاهوت ، وقد قال لى ستيفن هوكنج « ما إن تبدأ فى مناقشة أصول الكون حتى تصبح هناك دلالات دينية واضحة ، ولكنى أعتقد أن معظم العلماء يفضلون البعد عن هذا الجانب » .

ومنذ سنوات معدودة ، بينما كان هوكنج يفكر فى معنى الكون أكثر مما يفكر فى عدد الأكوان ، فإنه هو وعدة زملاء آخرين معدودين استنبطوا مبدأ اعتبره بعض العلماء هرطقة علمية ولكن العلماء الآخرين يعتقدون أنه يضع الكون فى المنظور الصحيح .

وقد تأسس مبدأ هوكنج على تجربة فكرية كلاسيكية ، ويتخذ المبدأ كمقدمته الأولى ، أن كل ملامح عالمنا اليومى ، وعالم ما تحت الذرة ، والكون نفسه ، تتحدد بعدد قليل من القوانين الفيزيائية الأساسية والثوابت ، قد لا يتجاوز عددها الإجمالى الخمسة عشر ، وهذه قد تم الكشف عنها بواسطة العلم وتتضمن كتل الجسيمات الأولية والشدة النسبية للقوى الأساسية التى تعمل ما بين الجسيمات .

وقد اكتشف هوكنج مع براندون كارتر وزملاء آخرين أن ثمة توازناً رهيفاً للغاية موجود فى الطبيعة . وكمثل ، فلو أن القوة القوية التى تؤثر على الكواركات والنيوترونات والبروتونات التى فى نواة الذرة كانت فقط أضعف شيئا بسيطا ، فإن العنصر الوحيد الذى سيكون مستقرا هو الهيدروجين ولن يمكن تواجد أى عنصر آخر .

ولو كانت القوة القوية أقوى شيئا بسيطا بالنسبة للقوة الكهرومغنطية التى تنظم مسلك اللبتونات مثل الالكترونات والنيوترينات ، لأصبح أحد الملامح الثابتة للكون أن تكون هناك نواة للذرة تحوى بروتونين لا غير – أو ثنائية البروتون ، وسيعنى هذا أن الهيدروجين لن يوجد ، وأن النجوم والمجرات ستنشأ بطريقة تختلف أبعد الاختلاف عن الطريقة التى قد نشأت بها ، هذا إن كانت ستنشأ أصلا .

ولو كان ثابت الجاذبية أقوى – بما يصل فقط إلى أن يكون أقل قوة من القوة النووية القوية بـ 10^{-25} ضعفا بدلا من أن يكون أضعف منها بـ 10^{38} ضعفا – لكان كوننا صغيرا رشيقا ، وستكون كتلة النجم المتوسط هي فقط 10^{-12} من كتلة الشمس وسيتمكن من البقاء لما يقرب من سنة فحسب ، وهو زمان لا يكفى لنشأة ظاهرة بيولوجية معقدة مثل الجنس البشرى .

ولو أن الجاذبية كانت أقل قوة مما هى عليه الآن ، لما تكتلت المادة في نجوم ومجرات ولكان الكون باردا خاويا . ولكن حيث أن الجاذبية هى أضعف جدا من القوى الثلاث الأخرى فإن هذا هو بالضبط السبب فى أن نشأت مجرتنا هى ونظامنا الشمسى ، وكما يبين هوكنج ، فإن نمو الكون – الذى هو نمو قريب من الحافة ما بين التقلص والتمدد الأبدى بما لم يتمكن الإنسان من قياسه – هذا النمو هو بالضبط بالسرعة المناسبة لإتاحة تكوين المجرات والنجوم .

ويقول هوكنج « والحقيقة أن كونا مثل كوننا بمجراته ونجومه هو بالفعل قليل الاحتمال تماما . ولو تدبر المرء فيما يمكن أن ينبثق من ثوابت وقوانين ممكنة ، فإن نسبة الاحتمالات ضد كون ينتج حياة مثل حياتنا لهى نسبة تصل إلى قدر هائل » .

وهناك أيضا مسألة الانتروبيا ، وهذا العامل من التحلل والفوضى اللذين يتزايدان أبدا يحكمه القانون الثانى للديناميكا

الحرارية ، الذى يعلن أن أى تغير فى الكون سيؤدى إلى أن يصبح مكانا أقل تنسيقا بعض الشئ . فالانتروبيا دائما فى تزايد ، والنظام دائما فى تناقص ، والبرهان على هذه النزعة الشاملة نحو التحلل ، موجود فى كل مكان . فالعربات تصدأ ، والنجوم تبرد وتموت ، وأجهزة الستريو تتخرب ، والناس يصبحون مسنين ، والجبال تتآكل ، والمبانى تنهار . ويؤدى هذا إلى موقف حرج : إذا كان الكون مكانا يشبه ساعة تكف عن الدوران وئيدا ، فكيف تم فى المقام الأول لف زنبركه فى مواجهة هذه النزعة الطبيعية ؟ فالنظام هكذا يكون قد نشأ من الفوضى فى تحد للقانون الثانى للديناميكا الحرارية .

والقـــانون الثـــانى للديناميكا الحـــرارية ليس قانونا مطلقـــا . فالانتروبيا يمكن أن تتناقص ، بمعنى أن النظام يمكن أن يزيد طبيعيا ، ولكن هذا أمر قليل الاحتمال قلة بالغة . ولننظر فى نسبة الاحتمالات لأن تهز أجزاء إحدى الساعات فى برميل بحيث يحدث أن تقع كل الأجزاء فى مكانها كآلة تعمل فعلا فى قياس الزمن . هل هذا هو نوع الحدث الذى أدى إلى الانفجار الكبير ؟ هل كوننا هذا هو عكس عارض هائل للانتروبيا ؟ أو هل هو معجزة – بالمعنى الحرفى للكلمة ؟

إن هوكنج يعتقد أن الطريقة الوحيدة لتفسير كوننا هى بواسطة وجودنا فيه . « وهذا المبدأ يمكن إعادة صياغته كالتالى (إن الأشياء موجودة بما هى عليه لأننا موجودون) » .

ويقول « حسب إحدى صيغ هذا المبدأ ، هناك عدد كبير من أكوان مختلفة ومنفصلة ولكل منها قيم مختلفة لمعلماته الفيزيائية ولظروف بدايته . ومعظم هذه الأكوان لن يكون فيه الظروف المناسبة لنشأة حياة ذكية » .

« على أنه سيكون في عدد قليل منها ظروفه ومعلماته مثل ما في كوننا ، وهذه هي الأكوان التي يمكن أن تنشأ فيها حياة ذكية تسأل عن (لماذا يكون الكون كما نرصده ؟) والإجابة الوحيدة هي أنه لو كان على غير ذلك ، لما كان هناك أحد ليسأل هذا السؤال » .

ويقول هوكنج « من المدهش أن هذا المبدأ يمد ببعض تفسير لكثير من العلاقات العددية الرائعة التي نلاحظها بين القيم التي لمعلمات فيزيائية مختلفة » .

ويسمي براندون كارتر هذا المفهوم الغريب نوعاً « المبدأ الإنساني » . وبعض العلماء يشجبون المبدأ الإنساني لكارتر وهوكنج على أساس أنه لا يقدم أي تفسير على الإطلاق ، ولعل الأمر أن المبدأ الإنساني حتى الآن – وهو نوع من حجة غير مكتملة لا ترضي حقا فضولنا عن أصل الكون – إنما هو أفضل ما يستطيع العلم أن يصنعه .

ويقر هوكنج ، وهو أكثر البشر فضولا ، أن المبدأ الإنساني لا يصل حتى إلى أن يقترب من تزويدنا بتوصيف علمي صادق للكون بالمعنى الحقيقي ، وهو يقول « إذا كنا سنعتمد على المبدأ

الإنسانى ، فإننا سنكون مازلنا فى حاجة إلى بعض نظرية موحدة تفسر ظروف بداية الكون » .

وبعض الفيزيائيين يأخذون هذا المفهوم مأخذا جديا جدا ، وهناك جون هويلر بجامعة تكساس الذى يطلق عليه أنه فيزيائى الفيزيائيين ، وهو يتوسع فى المبدأ الإنسانى ، ويتصور تجمعا من الأكوان فى دورات لا نهائية من التمدد والتقلص الكونى ، ويحدث هذا فى ساحة يسميها « الفضاء الفائق » ، فضاء مقاساته لانهائية حيث كل نقطة يمكن أن تتوافق مع كل هندسة أحد الأكوان .

والفضاء الفائق فيه متسع تقريبا لأى نوع من الأكوان يمكن تخيله - تلك الأكوان التى تتقلص بعد دقائق معدودة فحسب أو تلك التى تكون كل النجوم فيها خضراء أو حمراء ، ومعظم أكوان الفضاء الفائق هذه تولد ميتة بمعنى أنها لا حياة فيها ، وهويلر يتفق مع هوكنج وكارتر على أن كوننا قد ضبط ضبطا دقيقا على نحو فريد لينتج الحياة ، حتى ولو كانت فحسب فى ركن واحد صغير ضائع .

وبهذه النظرة ، فإن الجنس البشرى قد يكون جوهرة التاج لكل الخليقة ، والكون هو على ما هو عليه لأننا قد نشأنا من خلاله . بل ويطرح هويلر أن كونا تفشل الحياة فى أن تنشأ فيه لهو كون فاشل ، وهو قد وصل إلى الإيمان بأن كونا يتم تشييده بحيث لا تنشأ الحياة من خلاله لهو كون لا يمكن أن يظهر للوجود فى المقام الأول .

ويسمي هويلر ذلك بأنه مبدأ « المراقبية » ، وهو امتداد للفكرة التي في الكم من أنه بدون مراقب لا توجد فيزياء تحت ذرية ، وبالنسبة لهويلر ، فنحن نعيش في كون تشاركي يعتمد على وجود مراقب ، وكل قوانين الطبيعة تعتمد على وجود مراقب ليصوغها .

والحقيقة أنه طرح أن هذا المبدأ يؤدى إلى فكرة أن قوانين الفيزياء هي نفسها في الضد من العدم الأصلي – الانتروبيا بالكامل ، وكون بلا رقيب لا يكون كونا على الاطلاق .

وقد وصل الأمر أخيراً ببعض الفيزيائيين إلى رؤية علاقة ، بين عملهم والأفكار التي من وراء الصوفية الشرقية . وهم يعتقدون أن المفارقات ، وأوجه الغرابة ، والاحتمالات هي وميكانيكا الكم أيضا التي تعتمد على المراقب ، كلها مما توقعته الكتابات الهندوسية والبوذية والتاوية ، وهؤلاء الفيزيائيون الذين يُزعم أنهم الفيزيائيون الجدد ، مولعون بأن يوضحوا أن ميكانيكا الكم هي في الحقيقة مجرد إعادة اكتشاف لشيفا أو مهاديفا ، الاله الهندوسي ذو القرن ، والذي هو إله للتدمير ولتحلل الكون .

وشيفا الذي ورد ذكره قديما بما يصل إلى القرن الثالث أو الرابع ق . م ، يتخذ أشكالا عديدة ، وأحدها هو ناتاراجا ذو الأذرع الأربعة ، إله الرقص الكوني الذي يصور وهو يرقص فوق شيطان مدحور ، وترمز رقصة هذا الإله إلى العملية المتصلة من خلق الكون وتدميره . والمادة لا كيان لها على الاطلاق ، والأمر هو مجرد

دوران الطاقة دورانا إيقاعيا ديناميا جيئة وذهابا ودافيد بوهم واحد من هؤلاء المنظرين الجدد وهو يعمل أستاذا للفيزياء النظرية فى كلية بيربك ، وهو يعتقد أن قدرة الذهن البشرى على استيعاب الحقائق العليا هى قدرة يتم إنكارها أو تجاهلها بواسطة العلم التقليدى . فالعلم القياسى هو علم له نهاية مسدودة لأنه يحلل الخبرة فى أجزاء منفصلة ، والذهن البشرى – وخاصة ذهن الفيزيائى – لهو فى حاجة طاغية لفرض المقولات على الخبرة .

وكنتيجة لذلك فإن شبكة الواقع الفيزيائى المتصلة الخيوط دون لفق يتم تقسيمها إلى أحداث منفصلة تبدو وكأنها لا تحدث إلا جنبا إلى جنب أو فى أجزاء مختلفة من الزمان والمكان ، ويطرح بوهم أنه بفهم الصوفية الشرقية سيتمكن الفيزيائيون من تحرير عقولهم من هذا السجن الذى تم خلقه ذاتيا ، على الأقل لفترة وجيزة ، من أجل أن يتوصلوا إلى لحظة من الخلق العلمى .

وفى كمبردج يقوم أحد زملاء هوكنج بممارسة نشطة لتكنيكات التأمل الشرقية ، وهو بريان جوزيفسن الحائز على جائزة نوبل فى ١٩٧٣ ، وجوزيفسن مشغول بالعلاقة بين الذكاء البشرى والعالم الذى يلاحظه هذا الذكاء ، وهو قد وصل إلى الاعتقاد بأنه بفهم الصوفية الشرقية سوف يكتسب بصيرة تنفذ إلى الحقيقة الموضوعية .

ويقول هوكنج « أعتقد أن هذا هراء مطلق » ، ورفعت بصرى من كراستى إليه . فقال آمرا « سجل هذا كتابة ، إنه محض هراء » .

وذات صباح في أواخر الربيع كنا فى مكتبه وكنا نتحدث عن العلاقة بين الانفجار الكبير والمبدأ الإنساني . وكنت أود أن أعرف ماذا يعتقد بشأن حماس بعض الفيزيائيين للعثور على صلة بين تحولات الطاقة – المادة فى فيزياء الكم ودورات الخلق – الهدم فى الصوفية الشرقية ، وكان نيلز بوهر الرائد فى الكم ، قد أكد أيضا أنه مما لا فائدة له محاولة استخدام ميكانيكا الكم كمنصة قفز للتأملات الصوفية أو الميتافيزيقية .

وقال لى هوكنج « إن عالم الصوفية الشرقية هو وهم ، والفيزيائى الذى يحاول ربطه بعمله ذاته يكون قد هجر الفيزياء » .

وفى ٢٩ أبريل ١٩٨٠ ، احتفل بتقليد هوكنج منصب أستاذ كرسى لوكاس للرياضة فى كمبردج ، وهذا المنصب هو من أعلى مناصب الجامعة ، وترقيته إليه تعد إنجازا رائعا ، وكانت محاضرة حفل تولى المنصب هى « هل تكون نهاية الفيزياء النظرية وشيكة ؟ » وقد قرأها عنه أحد تلاميذه ★ .

وكما قال هوكنج ، ففى اعتقاده أنه سرعان ما سيكون للجنس البشرى نظرية جديدة سوف تفسر ما كان عليه الكون فى أول بدايته ولماذا يسلك الآن بالطريقة التى يسلكها . وسوف يتطلب ذلك فهما أقوى للقوى الأربع التى رصدت فى الطبيعة . وسوف يكون المفتاح هو نظرية كم للجاذبية ، يمكن التوصل إليها بسهولة خلال

★ المحاضرة الكاملة مضمنة فى ملحق الكتاب .

عشرين عاما ، وأنهى هوكنج حديثه بما سماه « ملحوظة منذرة بعض الشئ » .

فقال « فى الوقت الحالى نجد أن الكمبيوترات هى أداة بحث مفيدة ، ولكنها يجب أن توجه بالعقول البشرية ، ولكن لو أننا استقرأنا الأمور من المعدل السريع لنمو الكمبيوترات مؤخرا فإنه سيبدو أن من جد المحتمل أنها ستهيمن كل الهيمنة على الفيزياء النظرية » .

« وهكذا فلعل النهاية أصبحت وشيكة بالنسبة للفيزيائيين النظريين ، إن لم تكن للفيزياء النظرية » .

وقد ناقشنا هذا الحديث بعدها بعامين . وتساءلت خاصة عن أقواله الختامية . فقال ، « النقطة هى أننا قد قطعنا طريقا جد طويل فى السنوات العشرين – أو الخمسين – الأخيرة حتى أنه لا يمكن للمرء أن يأمل أن سيستمر الأمر هكذا إلى مالا نهاية .

« وهكذا فإنى أعتقد أنه من الممكن تماما أننا إما سوف نتوقف ولا نتقدم بأكثر ، أو أننا سرعان ما سنجد النظرية الموحدة ، ربما خلال العشرين سنة الآتية » .

وسألت هوكنج عن مستقبله هو نفسه فى الفيزياء .

وقال هوكنج « فيما يختص بالفيزياء النظرية فقد تجاوزت قمة التل من قبل . بل تجاوزتها فعلا بمسافة جد بعيدة » ، وكان هوكنج قد وصل الأربعين من عمره فى يناير ١٩٨٢ ، وقال مفسرا ، وقد

اتخذ وجهة نظره البراجماتية المتميزة التى دمغت طابعها على معركته ضد التوقعات السيئة العجيبة خلال العشرين سنة السابقة :

« حسن ، أنت تعرف أن أفضل الأعمال فى الفيزياء النظرية هى فى معظمها مما قد قام به أفراد فى عمر مبكر جدا - عادة أفراد فى العشرينيات من عمرهم . وهكذا فإن بلوغ الأربعين ليس هو مرحلة الحياة التى يتوقع المرء فيها أن ينجز اكتشافات عظيمة فى الفيزياء النظرية » .

وكما يعتقد ، فإن السبب فى ذلك هو أن المرء يأخذ فى فقدان حيويته العقلية كلما زاد عمره . فيقول « والشبان لا ينحون إلى التعقل ، وعندما يصلون إلى فكرة راديكالية ، فإنهم لا يخشون تجربة فرصتهم فيها » .

إن المرء ليتساءل ما الذى يُبقى هوكنج مستمرا فى طريقه . هل هو العناد كما فى نفوره من أن ينال أجازة حتى ليوم واحد عندما يصاب بالأنفلونزا أو ببرد قاسٍ ؟ أو هل فى الأمر نوع آخر من صلابة عقلية ، نوع من صلابة مع رفع الشفة العليا ، بما يجعل هوكنج عازفا عن الشكوى من حالة مرضه تلك ، وربما حتى عازفا عن التفكير فى تلك الحالة التى قد تصل إلى تدمير أي إنسان آخر أقل منه ؟

ولعل الأمر فيه شئ من كل من الجانبين . فستيفن هوكنج إنسان صلب جدا ، أصلب إنسان لاقيته قط ، ولكن الأمر يتجاوز ذلك . إنه

فى كوننا المخلوق ذى المخ الذى تمت تنميته لأقصى التنمية الكاملة ، إنسان يعيش ليفكر .

ويقول هوكنج « أعتقد أننا سنصل إلى النظرية الموحدة خلال العشرين سنة القادمة ، وربما سيكون ذلك فى سلسلة من الخطوات الصغيرة ، ولكن فكما تعرف ، ما إن نعثر عليها ، فإنها ستقضى تقريبا على أى متعة فى الفيزياء النظرية » .

ملحق

هل تكون نهاية الفيزياء النظرية وشيكة ؟
محاضرة حفل تولى منصب الأستاذية

أود فى هذه المحاضرة أن أناقش إمكانية أن يتم التوصل إلى هدف الفيزياء النظرية فى مدى من المستقبل ليس بعيدا جدا ، هو مثلا عند نهاية هذا القرن ، وما أعنيه هنا أننا ربما سيكون لدينا نظرية موحدة للتفاعلات الفيزيائية هى كاملة ومتماسكة ، وتوصف كل المشاهدات الممكنة . ويجب بالطبع أن يكون المرء حريصا جدا عند القيام بتنبؤات من هذا النوع : وقد حدث من قبل فى مرتين على الأقل أن اعتقدنا أننا على وشك الوصول إلى التركيب النهائى . ففى مستهل هذا القرن كان من المعتقد أنه يمكن فهم أى شئ بلغة من ميكانيكا المجال المتصل .Continuum mechanics . وكل ما يحتاجه الأمر هو قياس عدد معين من معاملات المرونة واللزوجة والتوصيل ، إلخ ، وقد تبدد هذا الأمل باكتشاف بنيان الذرة وميكانيكا الكم . ومرة أخرى فى أواخر العشرينيات من القرن قال ماكس بورن لجماعة من العلماء يزورون جوتنجن أن « الفيزياء كما نعرفها ، سينتهى أمرها فى ستة شهور » ، وكان هذا بعد زمن وجيز من اكتشاف بول ديراك لمعادلة ديراك التى تحكم مسلك

الالكترون ، وديراك هو واحد ممن شغلوا سابقا كرسى لوكاس للأستاذية ، وكان من المتوقع أن معادلة مماثلة سوف تتحكم فى البروتون ، وهو ما كان يفترض أنه الجسيم الأولى الآخر الوحيد فيما يعرف وقتها . على أن اكتشاف النيوترون والقوى النووية قد خيب من هذه الآمال ، وفى الحقيقة فنحن نعرف الآن أن البرتون والنيوترون ليسا جسمين أوليين وإنما يتكون كل منهما من جسيمات أصغر ، وعلى كل ، وكما سأصفه لكم ، فقد وصلنا فى السنوات الأخيرة إلى الكثير من التقدم ، بحيث أن ثمة أسسا لأن تتفاءل فى حذر بأننا قد نرى نظرية كاملة أثناء حيات بعض من أولئك الحاضرين هنا .

وحتى لو أمكننا التوصل إلى نظرية موحدة كاملة ، فإننا لن نكون قادرين على القيام بتنبؤات تفصيلية إلا فى أبسط المواقف ، وكمثل ، فنحن نعرف من قبل القوانين الفيزيائية التى تحكم كل شئ مما نخبره فى حياتنا اليومية : وكما وضح ديراك ، فإن معادلته هى أساس « معظم الفيزياء ، وكل الكيمياء » . على أننا لم نتمكن من حل المعادلة إلا بالنسبة لمنظومة هى أكثر المنظومات بساطة ، أى ذرة الهيدروجين التى تتكون من بروتون واحد والكترون واحد . أما بالنسبة للذرات الأكثر تعقيدا والتى فيها الكترونات أكثر ، فإن علينا أن نلجأ لتقريبات ولتخمينات حدسية مشكوك فى صحتها ،

ناهيك عما يحدث مع الجزئيات حيث فيها أكثر من نواة . أما بالنسبة للمنظومات الكبيرة التى تتألف من 10^{23} من الجسيمات أو ما إلى ذلك ، فإن علينا أن نستخدم مفاهيم احصائية ، وأن ننبذ أى ادعاء بحل المعادلات حلا مضبوطا . ورغم أننا من حيث المبدأ نعرف تلك المعادلات التى تحكم كل البيولوجيا ، فإننا لم نتمكن من تبسيط دراسة السلوك الإنسانى ليصبح فرعا من الرياضيات التطبيقية .

ما الذى نعنيه بنظرية فيزياء كاملة وموحدة ؟ إن محاولتنا لصياغة نموذة للواقع الفيزيائى تتكون طبيعيا من جزئين :

١ - منظومة من القوانين الموضعية تخضع لها الكميات الفيزيائية المختلفة ، وهذه تصاغ عادة بلغة من معادلات متمايزة .

٢ - منظومات من شروط حدية Boundary Conditians تنبئونا عن حالة بعض مناطق الكون فى وقت معين وما هى التأثيرات التى تنتشر فيها بالتالى من سائر الكون .

وسيزعم أناس كثيرون أن دور العلم مقصور على القسم الأول من هذين القسمين وأن الفيزياء النظرية تكون قد توصلت إلى هدفها عندما نحوز منظومة كاملة من القوانين الفيزيائية الموضعية . وسوف يعتبرون أن مسألة ظروف بداية الكون إنما تنتمى إلى مجال الميتافيزيقا أو الدين . وهذا الموقف يشبه بطريقة ما موقف أولئك

الذين كانوا فى قرون سابقة يثبطون البحث العلمى بقولهم أن كل الظـواهر الطبيعية هى من صـنع الله وينبغى عدم البحث فيها . وأنا أعتقد أن الظروف الابتدائية للكون هى موضوع مناسب للدراسة العلمية والتنظير مثلها مثل قوانين الفيزياء الموضعية ، ولن تكون لدينا نظرية كاملة إلا إذا أمكننا أن نفعل ما هو أكثر من مجرد القول بأن « الأشياء تكون على ما هى عليه لأنها كانت بما هى عليه » .

ومسألة تفرد الظروف الابتدائية هى على علاقة وثيقة بمسألة تعسفية قوانين الفيزياء الموضعية : فالمرء لا يعتبر أن نظرية قد اكتملت إذا كانت تحوى عددا من المعلمات القابلة للتعديل مثل الكتل أو ثوابت التقارن التى يمكن أن يعطى لها المرء أى قيمة يحبها . والحقيقة أنه يبدو نظريا أن الظروف الابتدائية هى وقيم المعلمات ليست تعسفية وإنما هى قد تم اختيارها أو التقاطها على نحو ما بحرص بالغ . وكمثل ، فلو أن الاختلاف بين كتلة البروتون - النيوترون كان لا يقرب من مثلى كتلة الالكترون لما حصلنا على المائتى نكليد المستقرة ، أو عدد ما يقرب من ذلك من النكليدات المستقرة ، التى تصنع العناصر والتى هى الأساس للكيمياء والبيولوجيا . وبالمثل ، فلو كانت الكتلة الجذبوية للبروتون مختلفة عما هى عليه اختلافا ذى دلالة ، لما كان لدينا النجوم التى يمكن أن

يتم فيها بناء هذه النكليدات ، ولو كان تمدد الكون فى البداية أقل هونا أو أكبر هونا ، فإن الكون إما أنه كان سيتقلص قبل إمكان نشأة هذه النجوم وإما أنه كان سيتمدد بسرعة جد كبيرة حتى أن النجوم لن تتكون قط بالتكثيف بالجاذبية . والحقيقة أن بعض الناس قد ذهبوا بالأمر بعيدا إلى حد رفع هذه القيود التى على الظروف الابتدائية والمعلمات ، وبما يصل بنا إلى وضع مبدأ ، هو المبدأ الانسانى ، الذى يمكن إعادة صياغته كالتالى « الأشياء موجودة بما هى عليه لأننا موجودون » وحسب إحدى صور هذا المبدأ ، فإن هناك عددا كبيرا جدا من أكوان مختلفة منفصلة بها اختلاف فى قيم المعلمات الفيزيائية كما تختلف فى الظروف الابتدائية . ومعظم هذه الأكوان لن تتوفر فيها الظروف الملائمة لنشأة البنيانات المعقدة اللازمة للحياة الذكية ، ولن يكون هناك إلا عدد صغير من الأكوان ، تكون الظروف والمعلمات فيها مماثلة لما فى كوننا ، بحيث يمكن أن تنشأ حياة ذكية يمكن أن تطرح السؤال « لماذا يكون الكون كما نرصده ؟ » والإجابة عن هذا السؤال هى بالطبع أنه لو كان الكون على غير ما هو عليه ، لما كان هناك أى واحد ليسأل هذا السؤال .

والمبدأ الإنسانى يوفر فعلا نوعا من التفسير للكثير من العلاقات العددية الرائعة التى لوحظت بين قيم مختلف المعلمات

الفيزيائية . على أنه ليس مرضيا على الوجه الأكمل ؛ فالمرء لا يتمالك أن يشعر بأن هناك تفسيرا ما أعمق . كما أنه لا يستطيع تفسير كل مناطق الكون . وكمثل ، فإن نظامنا الشمسي هو يقينا مطلب مسبق لوجودنا ، مثله في ذلك مثل جيل أحدث من النجوم المجاورة حيث من الممكن تكوين العناصر الثقيلة بالتخليق النووى . بل ولعل الأمر أن وجود مجرتنا كلها هو من المطلوب ، ولكن ليس من ضرورة ظاهرة لوجود المجرات الأخرى ، دع عنك ما نراه من وجود مليون مليون مجرة أو ما يقرب ، تتوزع في اتساق خلال كل الكون الممكن رصده . وتجانس الكون هذا على النطاق الواسع يجعل من الصعب جدا أن نتمسك بنظرة يكون الإنسان فيها هو المحور أو أن نعتقد أن بنيان الكون قد تحدد بواسطة شئ ما في أقصى أطرافه هو بعض تكوينات من جزيئات معقدة على كوكب صغير يدور من حول نجم من مستوى جد متوسط وذلك في الضواحي الخارجية لمجرة لولبية نمطية إلى حد ما .

وإذا كنا لن نلجأ إلى استدعاء المبدأ الإنساني ، فإننا نحتاج إلى نظرية ما موحدة لتفسير الظروف الابتدائية للكون هي وقيم شتى المعلمات الفيزيائية . على أن من الصعب جدا استنباط نظرية كاملة عن كل شئ ، كلها في دفعة واحدة (وإن كان يبدو أن هذا لا يقف في سبيل بعض من الناس ؛ فأنا يصلني في كل أسبوع

فى بريدى نظريتان أو ثلاثة نظريات موحدة) ، والذى نفعله بدلا من ذلك هو أن نبحث عن نظريات جزئية توصّـف مواقف يمكن فيها تجاهل تفاعلات معينة أو تقريبها بطريقة مبسطة . فنحن أولا نقسم المحتوى المادى للكون إلى قسمين ، جسيمات « المادة » مثل الكواركات والالكترونات والميونات ، إلخ ، ثم « التفاعلات » مثل الجاذبية والكهرومغنطية ، إلخ ، وجسيمات المادة يتم توصيفها بمجالات من لف يصل إلى نصف عدد صحيح من اللفات وهى تخضع لمبدأ باولى للاستبعاد ، الذى يمنع أن يكون هناك أكثر من جسيم واحد من نوع معين فى نفس الحالة . وهذا هو السبب فى أنه يمكن أن يكون لدينا أجسام صلبة لا تتقلص إلىٰ نقطة أو لا تشع إلى مالا نهاية . والجسيمات الأساسية للمادة تنقسم إلى مجموعتين ، الهدرونات التى تتكون من الكواركات ، واللبتونات التى تشمل ما يتبقى .

والتفاعلات تُقسم ظواهريا إلى أربعة صنوف ، وهى حسب ترتيب قوتها : القوى النووية القوية التى تتفاعل فحسب مع الهدرونات . والهدرونات والقوة الكهرومغنطية التى تتفاعل مع الهدرونات واللبتونات المشحونة ؛ والقوى النووية الضعيفة التى تتفاعل مع كل الهدرونات واللبتونات ؛ وأخيرا الجاذبية وهى أضعف هذه القوى ، وتتفاعل مع كل شئ ، والتفاعلات تمثلها مجالات من

لف بعدد صحيح من اللفات ولا تخضع لمبدأ باولى للاستبعاد ، وهذا يعنى أنه يمكن أن يكون فيها عدد كبير من الجسيمات التى فى نفس الحالة ، وفى حالة القوة الكهرومغنطية هى والجاذبية ، تكون التفاعلات أيضا ذات مدى بعيد ، بما يعنى أن المجالات الناجمة عن عدد كبير من جسيمات المادة يمكن أن تتضايف كلها لتعطى مجالا يمكن الكشف عنه بمقاس كبير (ماكروسكوبى) .ولهذه الأسباب فإن هاتين القوتين كانتا أولى القوى التى نشأت لها نظريات ، نظرية الجاذبية لنيوتن فى القرن السابع عشر والنظرية الكهرومغنطية لماكسويل فى القرن التاسع عشر . على أن هذه النظريات كانت أساسا غير متوافقة ، لأن النظرية النيوتونية كانت لا متغيرة invariant إذا أُعطى للنظام كله أى عجلة متسقة ، فى حين أن نظرية ماكسويل تحدد عجلة مفضلة ، هى سرعة الضوء . وفى النهاية ثبت أن نظرية نيوتن هى التى يجب أن تعدل لتصبح متوافقة مع خواص اللاتغير فى نظرية ماكسويل . وقد تم التوصل إلى ذلك بواسطة نظرية النسبية العامة لاينشتين والتى تمت صياغتها فى ١٩١٥ .

ونظرية النسبية العامة للجاذبية هى ونظرية ماكسويل للديناميات الكهربية ينتميان إلى ما يسمى بالنظريات الكلاسيكية ، بمعنى أنهما يشملان كميات تتغير باستمرار ، ويمكن من حيث المبدأ على الأقل ، أن يتم قياسها بدقة تعسفية . على أنه تثور مشكلة عندما يحاول

المرء استخدام هذه النظريات لانشاء نموذج للذرة . فقد اكتشف أن الذرة تتكون من نواة صغيرة مشحونة بشحنة موجبة ويحيط بها سحابة من الكترونات ذات شحنة سالبة . وكان من الطبيعى أن يفترض أن الالكترونات تدور فى مدار حول النواة مثل دوران الأرض فى مدار حــول الشــمس . إلا أن النظــرية الكلاسيكية تنبأت بأن الالكترونات تشع موجات كهرومغنطية ، وهذه الموجات ستحمل الطاقة بعيدا بما يسبب أن تهوى الالكترونات لولبيا إلى داخل النواة ، بما ينتج عنه انهيار الذرة .

وقد أمكن التغلب على هذه المشكلة بما لا يشك فى أنه أعظم انجاز فى الفيزياء النظرية فى هذا القرن ، وهو اكتشاف ميكانيكا الكم . والفرض الأساسى فى هذه النظرية هو مبدأ عدم اليقين لهايزنبرج ، والذى يقرر أن أزواجا معينة من الكميات ، مثل وضع وعزم أحد الجسيمات ، هى مما لا يمكن قياسه فى نفس الوقت بدقة تعسفية . وفى حالة الذرة ، فإن هذا يعنى أن الالكترون وهو فى حالة أدنى طاقة له لا يمكن أن يكون ساكنا فى النواة ، لأنه فى هذه الحالة سيكون موضعه هو وسرعته كلاهما محدد بالضبط . وبدلا من ذلك فإن الالكترون يكون عليه أن يُبسط Smeared للخارج حول النواة حسب بعض توزيع احتمالى ، وفى هذه الحالة فإن الالكترون لا يمكنه اشعاع الطاقة فى شكل موجات كهرومغنطية لأنه لن يكون له حالة من أدنى طاقة ليصل إليها .

وقد تم فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن تطبيق ميكانيكا الكم بنجاح عظيم على منظومات من مثل الذرات أو الجزيئات ، التى لها فحسب عدد محدود من درجات الحرية . إلا أنه قد نشأت المصاعب عندما حاول الناس تطبيقها على المجال الكهرومغنطى ، حيث هناك عدد لا نهائى من درجات الحرية ، هو على وجه التقريب اثنتان لكل نقطة فى الزمان - المكان .

ويمكن للمرء أن ينظر إلى درجات الحرية هذه على أنها متذبذات لكل منها وضعه وعزمه الخاصان به ، ولا يمكن للمتذبذات أن تكون فى سكون لأنها عند ذاك سيكون لها موضع وعزم محددان بالضبط ، وبدلا من ذلك ، فإن كل متذبذب يجب أن يكون له قدر أدنى معين مما يسمى « تراوحات نقطة الصفر » وله طاقة من لا صفر ، وطاقات تراوحات نقطة الصفر لكل العدد اللانهائى من درجات الحرية ينتج عنها أن تصبح الكتلة والشحنة الظاهرة للالكترون لا نهائيتين .

وقد تم إنشاء طريقة تسمى إعادة التطبيع للتغلب على هذه الصعوبة فى أواخر الأربعينيات . وهى تتألف مما هو تقريبا عملية طرح Substraction تعسفى لكميات معينة لا متناهية ليكون المتبقى كميات متناهية ، وفى حالة الديناميات الكهربية ، كان من الضرورى القيام بعمليتين من عمليات طرح اللامتناهيات هذه ،

إحداهما لكتلة الالكترون والأخرى لشحنته . وطريقة إعادة التطبيع هذه لم توضع قط على أساس رياضى أو عقلى جد متماسك ، ولكنها عند التطبيق كانت صالحة تماما للعمل ، وكان نجاحها العظيم هو التنبؤ بإزاحة صغيرة ، هى إزاحة لامب ، التى تحدث فى بعض الخطوط فى طيف ذرة الهيدروجين . على أنها لا تعد طريقة مرضـيـة تمـامـا من وجهة نظر محاولة إنشـاء نظـرية كاملة ، لأنهـا لا تعطى أى تنبؤات عن قيمة البواقى المتناهية التى تتبقى بعد عمليات طرح اللامتناهى . وهكذا يكون علينا أن نعود ثانية إلى المبدأ الإنسانى لتفسير السبب فى أن الالكترون له الكتلة والشحنة اللتان له .

وأثناء الخمسينيات والستينيات كان من المعتقد بعامة أن القوى النووية الضعيفة والقوية مما لا يمكن إعادة تطبيعه ؛ بمعنى أنهم يتطلبان رقما لا متناهيا من عمليات طرح اللامتناهيات لجعلهما متناهيتين ، وسيكون هناك عدد لا متناهى من البواقى المتناهية التى لم تتحدد بالنظرية ، ونظرية كهذه لن تكون لها قدرة على التنبؤ لأن المرء لايستطيع أبدا قياس كل العدد اللامتناهى من المعلمات . على أن هوفت بيّن فى ١٩٧١ أن أحد النماذج الموحدة لتفاعلات القوى الكهرومغنطة والضعيفة والذى كان قد طرحه من قبل سلام و وينبرج هو حقا نموذج يمكن إعادة تطبيعه بعدد متناه فحسب من عمليات

طرح اللامتناهى ، وحسب نظرية سلام – وينبرج فإن الفوتون ، ذلك الجسيم من لف – ١ الذى يحمل التفاعل الكهرومغنطى ، ينضم إليه ثلاثة زملاء آخرين من لف – ١ تسمى W^+ و W^- و Z^O . وعند الطاقات العالية جدا يتم التنبؤ بأن هذه الجسيمات الأربعة تسلك كلها بنفس الطريقة . أما عند الطاقات الأكثر انخفاضا فإن الظاهرة التى تسمى « كسر السمترية التلقائى » تستخدم لتفسير حقيقة أن الفوتون له كتلة سكون من صفر ، بينما يكون W^+ و W^- و Z^O كلها ذات كتلة كبيرة جدا ، وتنبؤات هذه النظرية عند الطاقة المنخفضـــة تتفق على نحو رائع مع المشـــاهدات ، وأدى هذا بالأكاديمية السويدي إلى منح جائزة نوبل لسلام و وينبرج وجلاشو الذى أنشأ هو أيضا نظريات موحدة مماثلة . على أن جلاشو نفسه ذكر أن لجنة نوبل فى الحقيقة كانت بذلك تقوم بمقامرة تقريبا لأننا ليس لدينا بعد معجلات جسيمات ذات طاقة عالية بما يكفى لاختيار النظرية عند النظام الذى يحدث فيه فعلا التوحيد بين القوى الكهرومغنطية التى يحملها الفوتون ، والقوى الضعيفة التى تحملها جسيمات W^+ و W^- و Z^O . والمعجلات التى لها قوة كافية لذلك ستكون مهيأة خلال سنوات معدودة ، ومعظم الفيزيائيين على ثقة من أنهم سيثبتون نظرية سلام – وينبرج .

وقد أدى نجاح نظرية سلام – وينبرج إلى البحث عن نظرية

مماثلة لاعادة تطبيع تفاعلات القوة القوية ، وقد تبين فى مرحلة مبكرة نوعا من هذا البحث أن البروتون هو والهدرونات الأخرى مثل الباى ميزون لا يمكن أن تكون حقا جسيمات أولية ، وإنما يجب أن تكون حالات من اتحاد لجسيمات أخرى سميت بالكواركات . ويبدو أن لهذه الجسيمات خاصية عجيبة ، هى أنها وإن كانت تستطيع الحركة بحرية إلى حد ما داخل الهدرون ، إلا أنه يبدو أن من المستحيل الحصول على كوارك واحد فحسب مستقل بذاته ، فهى دائما تكون فى مجموعات من ثلاثة (كما فى البروتون أو النيوترون) أو تكون فى أزواج تتكون من كوارك ومضاد كوارك (مثل الباى ميزون) . ولتفسـير ذلك ، أضفى على الكواركات خاصة تسمى اللون . ويجب التأكيد على أن هذا ليس له علاقة لإحساسنا الطبيعى بالضوء ، فالكواركات أصغر جدا من أن ترى بالضوء المرئى . فهذا مجرد اسم مناسب ، والفكرة هى أن الكواركات تكون فى ثلاثة ألوان – أحمر وأخضر وأزرق – إلا أن كل حالة وحدها من حالات اتحادها كهدرون مثلا ، ينبغى أن تكون غير ملونة ، فهى إما أن تكون توليفة من الأحمر والأخضر والأزرق كما فى البروتون أو مزيجا من الأحمر ومضاد الأحمر ، والأخضر ومضاد الأخضر ، والأزرق ومضاد الأزرق كما فى الباى ميزون .

والتفاعلات القوية ما بين الكواركات يفترض أنها محمولة

بجسيمات من لف - ١ تسمى جلونات ، وهى تشبه نوعا الجسيمات التى تحمل التفاعل الضعيف ، والجلونات أيضا تحمل لونا ، وهى والكواركات تخضع لنظرية إعادة تطبيع تسمى الديناميات اللونية للكم ، Quantum Chromodynamics أو هى ما يختصر إلى QCD . وإحدى نتائج عملية إعادة التطبيع ان ثابت التقارن الفعال للنظرية يعتمد على الطاقة التى يقاس عندها وينخفض إلى الصفر عند الطاقات العالية جدا . وهذه الظاهرة تعرف بالحرية التقريبية . ويعنى هذا أن الكواركات التى فى داخل أحد الهدرونات تسلك تقريبا مثل جسيمات حرة فى تصادم بطاقة عالية بحيث أن تفاعلاتها يمكن تناولها بنجاح باستخدام نظرية الاضطراب Per-turbation . وتنبؤات نظرية الاضطراب تتفق كيفيا اتفاقا معقولا مع المشاهدات ، ولكن المرء لا يستطيع حقا أن يزعم أن النظرية قد تم التحقق منها تجريبيا . وعند الطاقات المنخفضة يصبح ثابت التقارن الفعال كبيرا جدا وتنهار نظرية الاضطراب . ومن المأمول أن هذه « العبودية تحت الحمراء » سوف تفسر لماذا تكون الكواركات دائما مقيدة فى حالات اتحاد لا لون لها ، ولكن حتى الآن لم يتمكن أحد من البرهنة على ذلك بما هو مقنع حقا .

وبالوصول إلى نظرية إعادة تطبيع للتفاعلات القوية ونظرية أخرى للتفاعلات الضعيفة مع الكهرومغنطية ، كان من الطبيعى أن

يبدأ البحث عن نظرية تجمع النظريتين معا ، وقد أعطيت النظريات التى من هذا النوع عنوانا فيه بعض مبالغة هو النظريات الموحدة الكبرى GUTS ، وهذا فيه ما يضلل نوعا لأن النظريات لا هى بالكبرى على هذا النحو ولا هى موحدة توحيدا كاملا ، بل ولا هى نظريات كاملة حيث أنها لها عدد من معلمات إعادة التطبيع غير المتحددة مثل ثوابت التقارن والكتل . ومع ذلك فإنها قد تكون خطوة ذات دلالة نحو نظرية موحدة كاملة . والفكرة الأساسية هى أن ثابت التقارن الفعال للتفاعلات القوية ، والذى يكون كبيرا عند الطاقات المنخفضة ، لايلبث أن يتناقص تدريجيا عند الطاقة العالية بسبب الحرية التقريبية . ومن الناحية الأخرى ، فإن ثابت التقارن الفعال لنظرية سلام – وينبرج ، والذى يكون صغيرا عند الطاقات المنخفضة ، لا يلبث أن يتزايد تدريجيا عند الطاقات العالية لأن هذه النظرية ليست ذات حرية تقريبية ، وإذا قمنا بعملية استقراء لمعدل زيادة ونقص ثابتى التقارن بالطاقة المنخفضة ، سنجد ان ثابتى التقارن يصبحان متساويان عند طاقة تبلغ حوالى $١٠^{١٥}$ جى فى . وتفترض النظريات أنه عند الطاقة الأعلى من ذلك تتوحد التفاعلات القوية مع التفاعلات الضعيفة والكهرومغنطية ، أما عند الطاقة الأقل فإنه يكون هناك كسر تلقائى للسمترية .

والطاقة التى بقدر $١٠^{١٥}$ جى فى هى كبيرة تماما بما يتجاوز

مجال أى تجربة عملية : فالجيل الحالى من معجلات الجسيمات يستطيع أن ينتج طاقات مركز - كتلة تقرب من ١٠ جي فى ، والجيل التالي سينتج طاقات من ١٠٠ جي فى أو ما يقرب . وهذا يكفى فقط لاستقصاء مدى الطاقة الذى ينبغى أن تتوحد عندها فيه القوى الكهرومغنطية مع القوى الضعيفة حسب نظرية سلام - وينبرج ، ولكنه لا يكفى لاستقصاء الطاقة العالية الهائلة التى يُتنبأ بأن تفاعلات القوى الضعيفة والكهرومغنطية تتوحد مع التفاعلات القوية ، ومع ذلك فثمة تنبؤات ممكنة عند الطاقة المخفضة فيما يتعلق بالنظريات الموحدة الكبرى يمكن اختبارها فى المعمل . وكمثل ، تتنبأ النظريات بأن البروتون ينبغى ألا يكون مستقرا بالكامل ، وإنما يجب أن يتحلل بمدى حياة يصل إلى قرابة $١٠^{٣١}$ من الأعوام . وحاليا ، فإن الحد التجريبي الأدنى بالنسبة لمدى الحياة هو ما يقرب من $١٠^{٣٠}$ من الأعوام ، ومن الممكن فيما ينبغى أن يتم تحسين ذلك .

وهناك تنبؤ آخر قابل للرصد وهو يختص بنسبة الباريونات إلى الفوتونات فى الكون . وقوانين الطبيعة يبدو أنها هى نفسها سواء بالنسبة للجسيمات أو مضادات الجسيمات ، أو بصورة أدق فإنها تكون هى نفسها لو وضعنا مضادات الجسيمات مكان الجسيمات ، ووضعنا ما على الجانب الأيسر مكان ما على الجانب الأيمن ،

وعكسنا سرعات كل الجسيمات . ويعرف هذا بنظرية CPT ، وهى نظرية تترتب على فروض أساسية ينبغى أن تصح فى أى نظرية معقولة . إلا أن الأرض بل وكل النظام الشمسى مصنوعان من بروتونات ونيوترونات بدون أى من مضادات البروتونات أو مضادات النيوترونات . والحقيقة أن عدم التوازن هكذا بين الجسيمات ومضادات الجسيمات إنما هو شرط بديهى آخر لوجودنا ، ذلك أنه لو كان النظام الشمسى يتآلف من خليط متساو من الجسيمات ومضادات الجسيمات ، فإنها كلها سيفنى أحدها الآخر مخلفة إشعاعا فحسب ، ويمكننا أن نستنتج مما نلحظه من غياب اشعاع فناء كهذا أن مجرتنا مصنوعة بالكلية من جسيمات وليس مضادات جسيمات ، وليس لدينا أى دليل مباشر عن حالة المجرات الأخرى ، ولكن يبدو أن من المحتمل أنها تتآلف من جسيمات وأنه يوجد فى الكون ككل عدد من الجسيمات يفوق عدد مضادات الجسيمات بما يقرب من جسيم لكل ١٠^٨ من الفوتونات ، ويمكن للمرء أن يحاول تفسير ذلك باستخدام المبدأ الإنسانى ، على أن النظريات الموحدة الكبرى توفر بالفعل آلية ممكنة لتفسير عدم التوازن هذا . ورغم أنه يبدو أن كل التفاعلات تكون ثابتة فى توليفة من « C » (وضع مضادات الجسيمات مكان الجسيمات) ، و« P » (تبديل ما فى الجانب الأيمن بما فى الجانب الأيسر) ، و« T » (أن يعكس اتجاه الزمان) ، إلا أنه مازات هناك تفاعلات معروف أنها ليست ثابتة فى

« T » وحدها ، وفى الكون المبكر ، الذى يكون فيه سهم زمان جد ملحوظ بسبب التمدد ، فإن هذه التفاعلات يمكنها أن تنتج جسيمات أكثر من مضادات الجسيمات . إلا أن العدد الذى تنتجه يعتمد بالكلية على النموذج المستخدم ، بحيث أن الاتفاق مع المشاهدات يكاد لا يكون فيه أى إثبات للنظريات الموحدة الكبرى .

وحتى الآن فإن معظم الجهود قد كرست لتوحيد الصنوف الثلاثة الأولى من التفاعلات الفيزيائية ، أى القوى النووية القوية والضعيفة والكهرومغنطية ، والقوة الرابعة والأخيرة ، أى الجاذبية ، قد تم إهمالها ، وأحد مبررات ذلك هو أن الجاذبية على درجة من الضعف بحيث أن تأثيرات الكم الجذبوية لا تكون كبيرة إلا عند طاقات للجسيمات تتجاوز كثيرا تلك التى فى أى معجل للجسيمات . وهناك مبرر آخر هو أن الجاذبية لا تبدو قابلة للتطبيع : فحتى يمكن الحصول على إجابات متناهية يبدو أن يجب على المرء أن يجرى عددا لا متنـاهيا من عمليات طرح اللامتناهى مع ما يناظر ذلك من عدد لا متناه من بواقى طرح متناهية غير متحددة ، ومع ذلك فإنه للحصول على نظرية موحدة كاملة لابد للمرء من أن يضمّن فيها الجاذبية ، وفوق ذلك فإن نظرية النسبية العامة الكلاسيكية تتنبأ بأنه ينبغى أن يكون هناك مفردات للمكان - الزمان يكون مجال الجاذبية عندها قويا قوة لا متناهية . وهذه المفردات حدثت فى الماضى عند بداية التمدد الحالى للكون (الانفجار الكبير) وتحدث فى المستقبل

عند تقلص النجوم جذبويا ، وربما تقلص الكون نفسه جذبويا . وفيما يفترض ، فإن التنبؤ بالمفردات يدل على أن النظرية الكلاسيكية مآلها إلى الانهيار . على أنه يبدو أنه لا يوجد أى سبب لأنهيارها قبل أن يصبح مجال الجاذبية قويا قوة كافية بحيث تكون تأثيرات الكم الجذبوية أمرا له أهميته . وهكذا فإن نظرية كم للجاذبية هى أمر ضرورى إذا كان علينا أن نوصّف الكون المبكر وأن نعطى بعض تفسير للظروف الابتدائية بما يتجاوز مجرد استدعاء المبدأ الإنسانى .

ونظرية كهذه مطلوبة أيضا إذا كان علينا أن نجيب عن السؤال التالى ، هل للزمان حقا بداية وهل له فيما يحتمل أيضا نهاية ، كما تتنبأ به النسبية العامة الكلاسيكية ، أو أن المفردات فى الانفجار الكبير والانسحاق الكبير قد بُسِطت على نحو ما بتأثيرات من الكم ؟ وهذا سؤال أصعب من أن يُعطى له معنى محدد تحديدا جيدا ، بينما ذات بنيان المكان والزمان نفسيهما هما عرضة لمبدأ عدم اليقين ، وإحساسى الخاص هو أن المفردات هى فيما يحتمل مازالت موجودة ، وإن كان المرء يستطيع أن يواصل العودة فى الزمان بما يتجاوزها بمعنى ما رياضيا . وعلى كل فإن أى مفهوم ذاتى للزمان يتعلق بالوعى أو القدرة على إجراء قياسات مآله إلى إنتهاء .

ماذا نتوقع أن يترتب على الحصول على نظرية كم للجاذبية وعلى توحيدها مع صنوف التفاعلات الثلاثة الأخرى ؟ يبدو أن أفضل ما نأمله يكمن فى توسيع للنسبية العامة يسمى الجاذبية الفـائقة ، وفى هذه النظـرية فإن الجرافيتون ، وهو جسيم من لف - ٢ ، والذى يحمل التفاعل الجذبوى ، يكون على علاقة بعدد من المجالات الأخرى ذات اللف الأصغر ، وذلك عن طريق ما يسمى تحولات السمترية الفائقة . وهذه النظرية لها جدارتها الكبرى فى أنها تتخلص من ثنائية الانقسام القديمة بين المادة التى تمثلها جسيمات من لف نصف كامل ، والتفاعلات التى تمثلها جسيمات من لف كامل ، وهى أيضا ذات مزية عظيمة فى أن الكثير من اللامتناهيات التى تنشأ عن نظرية الكم يلغى أحدها الآخر فى هذه النظرية . ولا يعرف بعد هل ستُلغَى كلها بحيث ينتج نظرية متناهية دون أى عمليات لطرح اللامتناهيات أم أن ذلك لا يحدث . ومن المأمول أن يحدث ذلك لأن من الممكن إظهار أن النظريات التى تتضمن الجاذبية هى متناهية أو غير قابلة للتطبيع ؛ بمعنى أنه لو كان على المرء أن يجرى أى عمليات لطرح اللامتناهيات ، فسيكون عليه أن يجرى منهـا عددا لامتنـاهيا مع ما ينـاظر ذلك من عـدد لا متناه من بواقى الطرح غير المحددة . وهكذا ، لو ثبت فى النهاية أن كل لامتناهيات الجاذبية الفائقة يلغى أحدها الآخر ، فإنه يمكن أن يصبح لدينا نظرية لا تقتصر على أن توحد كل جسيمات

وتفاعلات المادة ، وإنما هى أيضا نظرية كاملة بمعنى أن ليس فيها أى من معلمات إعادة التطبيع غير المحددة .

ورغم أننا ليس لدينا بعد نظرية ملائمة من كم للجاذبية ، دع عنك أن يكون لدينا نظرية توحدها مع التفاعلات الفيزيائية الأخرى ، إلا أننا لدينا فكرة عن بعض الملامح التى ينبغى أن تكون فى هذه النظرية ، وأحد هذه الملامح مرتبط بحقيقة أن الجاذبية تؤثر فى بنيان السببية للمكان – الزمان ؛ بمعنى أن الجاذبية تحدد أى الأحداث يمكن أن تكون على علاقة سببية أحدها بالآخر . وكمثل لهذا فى نظرية النسبية العامة الكلاسيكية ، المثل الذى يمدنا به الثقب الأسود ، وهو منطقة من المكان – الزمان حيث مجال الجاذبية جد قوى حتى أن أى ضوء أو إشارة أخرى ينشدّ وراءً لداخل المنطقة ولا يستطيع الهروب إلى العالم الخارجى . ومجال الجاذبية المكثف بالقرب من الثقب الأسود يسبب خلق أزواج من الجسيمات ومضادات الجسيمات ، ويهوى واحد منها لداخل الثقب الأسود بينما يفر الآخر إلى المالا نهاية ، والجسيم الذى يفر يبدو وكأنه قد تم بثه بواسطة الثقب الأسود . وإذا كان هناك راصد على مسافة من الثقب الأسود فإنه سيتمكن فقط من قياس الجسيمات المنطلقة للخارج ، ولا يستطيع الربط بينها وبين الجسيمات التى هوت فى داخل الثقب لأنه لا يستطيع رصدها . ويعنى هذا أن

الجسيمات المنطلقة للخارج لها درجة إضافية من العشوائية أو عدم قابلية التنبؤ ، بما يتجاوز ويفوق الدرجة التى تصاحب عادة مبدأ عدم اليقين . وفى الأوضاع الطبيعية فإن مبدأ عدم اليقين يعنى أن المرء يستطيع أن يتنبأ على وجه التحديد « إما » بموضع الجسيم « أو » بسرعته « أو » بتوليفة من الموضع والسرعة ، وهكذا فإن قدرة المرء على القيام بتنبؤات محددة تهبط على وجه التقريب للنصف .إلا أنه فى حالة الجسيمات التى يبثها الثقب الأسود ، فإن حقيقة أننا لا نستطيع رصد ما يجرى فى الداخل من الثقب الأسود تعنى أننا لا نستطيع التنبؤ « لا » بمواضع « ولا » بسرعات الجسيمات التى تبث ، وكل ما يمكن أن نعطيه هو احتمالات عن أن الجسيمات سيتم بثها بأسلوب معين .

وهكذا ، فإنه يبدو أننا حتى لو وجدنا نظرية موحدة فربما سيمكننا فحسب أن نقوم بتنبؤات إحصائية . وسيكون علينا أيضا أن ننبذ الرأى بأن هناك كونا وحيداً هو الذى نرصده . وبدلا من ذلك سيكون علينا أن نتخذ صورة يوجد فيها تجمع من كل أنواع الكون الممكنة مع بعض توزيع للاحتمالات . وقد يفسر هذا سبب أن الكون قد بدأ فى الانفجار الكبير وهو تقريبا فى اتزان حرارى كامل ، ذلك أن الاتزان الحرارى يناظره وجود أكبر عدد من التشكيلات الميكروسكوبية وبالتالى أكبر عدد من الاحتمالات . وفى ترديد لما

قاله بانجلوس ، فيلسوف فولتير « إننا نعيش فى عالم هو الأكثر احتمالا من بين كل العوالم الممكنة » .

ما هى التوقعات فيما يتعلق بعثـورنا على نظرية موحدة كاملة فى مستقبل ليس بالبعيد جدا ؟ فى كل مرة نوسع فيها مشاهداتنا عن الأشياء ذات المقاس الأصغر والطاقة الأكبر ، فإننا نكتشف طبقات جديدة من البنيان . ففى بداية القرن ، كان اكتشاف الحركة البراونية لجسيم طاقة نموذجى من ٣ × ١٠$^{-٢}$ الكترون فولت ، وقد بين لنا هذا الاكتشـاف أن المادة ليسـت متصلة ولكنها مصنوعة من ذرات ،، وبعد هذا بزمن وجيز تم اكتشاف أن هذه الذرات التى كان يفترض عدم قابليتها للانقسام إنما هى مصـنوعة من الالكترون تدور من حول نواة بطاقات تقدر بعدد معدود من وحدات الالكترون فولت . ثم وجد أن النـواة بدورها تتـآلف مما زعم أنه جسيمات أولية ، هى البروتونات والنيوترونات ، التى تتماسك معا بروابط نووية تقدر بـ ١٠^{٦} الكترون فولت . وآخر حدث فى هذه القصة هو أننا قد وجدنا أن البروتون والنيوترون مصنوعان من كواركات تتماسك معا بروابط تقدر بـ ١٠^{٩} الكترون فولت . وكضريبة عن مدى ماتقدمنا به فعلا فى الفيزياء النظرية أصبح الأمر يتطلب الآن ماكينات هائلة وقدرا عظيما من المال لأداء تجربة لا يمكننا التنبؤ بنتائجها .

وقد يكون فى خبرتنا الماضية مايطرح أن هناك تعاقبا لا نهائيا

من طبقات البنيان عند الطاقات الأعلى والأعلى . والحقيقة أن نظرة كهذه عن ارتداد لا ينتهى من صناديق توجد من داخل صناديق كان هو الدوجما الرسمية فى الصين تحت حكم عصابة الأربعة . على أنه يبدو أن الجاذبية ينبغى أن تمد بحد لذلك ولكن هذا لا يكون إلا عند مقياس طوله صغير جدا هو $١٠^{-٣٣}$ من السنتيمتر أو عند طاقة عالية جدا من $١٠^{٢٨}$ الكترون فولت . أما عند مقاييس الأطوال الأصغر من ذلك ، فإن المرء ليتوقع أن يتوقف المكان – الزمان عن السلوك كمتصل سلس وأنه سيكتسب بنيانا يشبه الزبَد بسبب التراوحات الكمية لمجال الجاذبية .

وهناك منطقة كبيرة جدا لم يتم استكشافها هى ما بين الحد التجريبى الحالى عندنا وهو ما يقرب من $١٠^{١٠}$ الكترون فولت ، وبين توقف الجاذبية عن العمل عند $١٠^{٢٨}$ الكترون فولت ، وقد يبدو من السذاجة أن نفترض ، بمثل ما تفترضه النظريات الموحدة الكبرى ، أن هناك فحسب طبقة أو طبقتين من البنيان فى هذه الفترة الفاصلة الهائلة . على أن هناك أسساً للتفاؤل ؛ فيبدو فى هذه اللحظة على الأقل أنه يمكن توحيد الجاذبية مع التفاعلات الفيزيائية الأخرى ولكن هذا يتم فقط فى نظرية ما للجاذبية الفائقة ، ويبدو أن هناك فقط عددا محددا من مثل هذه النظريات . وهناك بالذات أكبر نظرية من هذا النوع ، وهى ما يسمى ن (N) = ٨ عن الجاذبية الفائقة الموسعة . وهى تحوى جرافيتوناً واحدا ،

وثمانية جسيمات تدعى جرافيتينو من لف ـ $\frac{٣}{٢}$ ، وثمانية وعشرين جسيما من لف - ١ ، وستة وخمسين جسيما من لف ـ $\frac{١}{٢}$ ، وسبعين جسيما من لف صفر . ورغم كبر هذه الأرقام إلا أنها ليست كبيرة بما يكفى لتفسير كل الجسيمات التى يبدو أننا نرصدها فى التفاعلات القوية والضعيفة . وكمثل فإن نظرية ن = ٨ فيها ثمانية وعشرين جسيما من لف - ١ ، وهذه كافية لتفسير الجلونات التى تحمل التفاعلات القوية ، ولتفسير جسيمين من الجسيمات الأربعة التى تحمل القوة الضعيفة ، ولكنها لا تفسر الجسيمين الآخرين منها ، وهكذا فإن على المرء أن يؤمن بأن كثيرا من الجسيمات المرصودة أو أغلب هذه الجسيمات من مثل الجلونات والكواركات ، هى ليست فى الحقيقة جسيمات أولية كما تبدو فى وقتنا هذا ، وإنما هى حالات من اتحاد للجسيمات الأساسية لنظرية ن = ٨ . ومن غير المحتمل أن سيكون لدينا معجلات قوية بما يكفى لسبر هذه البنيانات المركبة فى المستقبل المنظور ، بل ولا حتى للأبد ، خاصة إذا وضعنا رأينا على أساس من الاتجاهات الاقتصادية الحالية . ومع كل ، فإن حقيقة أن حالات الاتحاد هذه قد نشأت عن نظرية ن = ٨ وهى النظرية المحددة تحديدا جيدا ، هذه الحقيقة ينبغى أن تمكننا من القيام بعدد من التنبؤات التى يمكن اختبارها عند طاقات متاحة لنا الآن أو ستكون متاحة فى المستقبل القريب ، والموقف

هكذا قد يكون مشابها للموقف بالنسبة لنظرية سلام – وينبرج التى توحد التفاعلات الكهرومغنطية والضعيفة . فتنبؤات هذه النظرية عند الطاقات المنخفضة تتفق على نحو جيد مع المشاهدات بحيث أن النظرية تعد الآن مقبولة بعامة حتى رغم أننا نتوصل بعد للطاقة التى ينبغى أن يحدث التوحيد عندها .

والنظرية التى توصف الكون ينبغى أن يكون فيها شئ متميز جدا . فلماذا تصبح هذه النظرية حية بينما النظريات الأخرى لا توجد إلا فى ذهن مبتكريها ؟ ونظرية ن = ٨ عن الجاذبية الفائقة فيها بالفعل بعض ما يؤدى للزعم أنها نظرية خاصة ، ويبدو أنها قد تكون النظرية الوحيدة التى هى :

١ – نظرية بالأبعاد الأربعة .

٢ – تشمل الجاذبية

٣ – نظرية متناهية دون أى عمليات من طرح لامتناهيات .

وقد سبق أن بينت أن الخاصية الثالثة ضرورية إذا كان علينا أن نحصل على نظرية كاملة دون معلمات . على أن من الصعب تفسير الخاصتين ١ ، ٢ دون استدعاء المبدأ الإنسانى . ويبدو أن هناك نظرية متماسكة تفى بالخاصتين ١ ، ٣ ولكنها لا تشمل الجاذبية . وعلى كل ، ففى كون كهذا ، يكون من المحتمل أن هذا ليس فيه الكفاية لأن تقوم قوى الجاذبية بتجميع المادة معا فى التكتلات

الكبيرة التى هى فيما يحتمل ضرورية لنشأة البنيانات المعقدة . والسبب فى أنه ينبغى أن يكون للمكان - الزمان أربعة أبعاد لهو مسألة تعد طبيعيا خارج مجال الفيزياء . على أن هناك حجة قوية لذلك فى المبدأ الإنسانى أيضا . فمن الواضح أن أبعادا ثلاثة للمكان - الزمان - أى بعدين للمكان وبعد واحد للزمن - لهى غير كافية بالنسبة لأى كائن معقد . ومن الناحية الأخرى ، فلو كان هناك أكثر من ثلاثة أبعاد مكانية ، فإن مدارات الكواكب حول الشمس أو الالكترنات حول النواة ستكون غير مستقرة بما يجعلها تتجه لولبيا نحو الداخل . ولا يبقى إلا إمكانية وجود أكثر من بعد واحد للزمان ، ولكنى واحد ممن يجدون أن من الصعب جدا تخيل كون من هذا النوع .

وحتى الآن فقد افترضت ضمنيا أن هناك نظرية نهائية ، ولكن هل توجد هذه النظرية ؟ هناك على الأقل ثلاثة احتمالات :

١ - توجد نظرية موحدة كاملة .

٢ - لا توجد نظرية نهائية ، ولكن هناك تعاقب لا نهائى للنظريات هو بحيث أنه يمكن التنبؤ بأى نوع معين من المشاهدات باتخاذ النظرية التى تكون على البعد الكافى من السلسلة .

٣ - لا توجد نظرية ، والمشاهدات لا يمكن توصيفها أو التنبؤ بها بما يتجاوز نقطة معينة ، ولكنها فحسب تعسفية .

والنظرة الثالثة قد طرحت كحجة ضد علماء القرن السابع عشر والثامن عشر . « كيف يمكنهم أن يصوغوا قوانين تحد من حرية الله فى أن يغير رأيه ؟ » ومع ذلك فقد فعلوها ونجوا بأنفسهم . وفى العصور الحديثة تمكنا من إزالة الإمكانية الثالثة على نحو فعال بأن أدخلناها داخل خطتنا : فميكانيكا الكم هى فى الجوهر نظرية لما لا نعرفه ولا يمكننا التنبؤ به .

والإمكانية الثانية تصل إلى صورة من تعاقب لا نهائى للبنيانات عند الطاقات الأعلى والأعلى . وكما قلت من قبل فإن هذا يبدو من غير المحتمل لأن المرء يتوقع أن سيكون ثمة توقف عند طاقة بلانك التى تبلغ $١٠^{٢٨}$ الكترون فولت . وهذا يتركنا مع الاحتمال الأول ، وفى وقتنا هذا فإن نظرية ن = ٨ للجاذبية الفائقة هى المرشح الوحيد الذى يمكن رؤيته . ومن المحتمل أن سيكون هناك عدد من الحسابات الحرجة خلال السنوات القليلة التالية فيها الإمكانية لأن تبين أن النظرية ليست صالحة . أما إذا تم للنظرية البقاء بعد هذه الإختبارات ، فمن المحتمل أنه قبل مرور عدة أعوام أخرى سوف ننمى مناهج حسابية تمكننا من القيام بتنبؤات فنستطيع تفسير ظروف ابتداء الكون كما نستطيع أيضا تفسيرالقوانين الفيزيائية الموضعية . وستكون هذه هى المشاكل البارزة لدى الفيزيائيين النظريين خلال الأعوام العشرين القادمة أو ما يقرب . على أنى

سأنتهى بملاحظة فيها ما ينذر بعض الشئ ، فلعل هؤلاء الفيـزيائيين النظريين لن يكون لديهم من الوقت ما يزيد عن ذلك كثيرا . ففى الوقت الحالى نجد أن الكمبيوترات هى أداة بحث مفيدة ، ولكنها يجب أن توجه بالعقول البشرية . ولكن لو أننا استقرأنا الأمور من المعدل السريع لنمو الكمبيوترات أخيراً ، فإنه ليبدو أن من جد المحتمل أنها ستهيمن كل الهيمنة على الفيزياء النظرية ، وهكذا فلعل النهاية وشيكة بالنسبة للفيزيائيين النظريين إن لم تكن بالنسبة للفيزياء النظرية .

معجم

عجلــة السـرعة : المعدل الذى تتغير به سـرعة الشـــىء

Acceleration

العزم الزاوى Angular momentam

المبدأ الانسانى : Anthtopic principle

نحن نرى الكون بما هو عليه لأنه لو كان مختلفا لما كنا هنا لنرقبه

مضاد الجسيم (ضد يد) : Antiparticle

كل نوع من جسيمات المادة له مضاد جسيم مناظر له ، ولو اصطدما فإنهما يفنيان ولا يتخلف إلا طاقة .

حرية تقريبية . Asymptomatic Freedam

الذرة : Atom

الوحدة الأساسية للمادة العادية ، وتتكون من نواة (من البروتونات والنيوترونات) محاطة بالكترونات تدور من حولها .

باريون : Baryon

جسيم من الجسيمات الأولية للمادة كتلته تساوى كتلة البروتون أو تزيد عليها .

وهو من الهادرونات . (أنظر Hadrons).

الانفجار الكبير : Big bang

المفردة التى عند بدء الكون ، وهى عند هوكنج بدء الزمان والمكان .

الانسحاق الكبير : Big Crunch

المفردة التى عند نهاية الكون بالتقلص .

ثقب أسود : BLack Hole

منطقة فى الزمان – المكان لا يستطيع أى شىء أن يهرب منها، ولا حتى الضوء ، لأن الجاذبية عندها قوية جدا .

نظرية الفقاعة : Bubble Theory

نظرية بأن الكون يبدأ كفقاعة تنتفخ متمددة مثل البالونة .

مسعّر : Calorimete

جهاز لقياس الطاقة

مركز الكتلة : Center - of - mass

نقطة يفترض أن تتمركز فيها كتلة الجسم ، ومن ثم يكون مجموع عزوم عناصر كتلته حولها مساويا صفرا .

ميكانيكا المجال المتصل Con tinuum mechanics

الثابت الكونى : Cosmological Constant

حيلة رياضية استخدمها إينشتين ليضفى على المكان – الزمان نزعة للاستقرار ، ليعارض ما ظهر من نظريات بأن الكون ينزع إلى التمـــدد ، وهى نظـــريات ظهرت كنتيجة لنظـــرية النسبية الـعـامة لاينشتين !

علم الكونيات : Cosmoloyy

دراسة الكون ككل .

ثابت التقارن : Coupling constant

ثابت يعبر عن شدة تقارن معين .

درجة الحرية DEgree of freedam

ذرة ثنائية البروتون . Diproton atom

القوة الكهرومغناطيسية (أو الكهرومغنطية) :

Electro magnetic force

قوة تنشأ بين الجسيمات ذات الشحنة الكهربائية . وهى ثانى أقوى قوة من القوى الأربع الأساسية . وهى التى تبقى على الالكترونات فى مدارها حول النواة ، وتجعل الذرات تبدو جامدة . وهى أيضا المسئولة عن موجات الراديو (اللاسلكى) والضوء .

الكترون : جسيم له شحنة كهربائية سالبة ، ويدور حول نواة الذرة Electron

جسيم أولى : Elementary Particle

جسيم يعتقد أنه لا يمكن انقسامه لما هو أصغر .

انتروبيا : Entropy

نظرية بأن ترتيب جزيئات المادة يميل دائما إلى التغير من الانتظام إلى ما هو أكثر اضطرابا وفوضى ، بما يظهر كزيادة فى

الانتروبيا . والانتروبيا لها كمية رياضية متداولة فى علم الديناميكا الحرارية وتساوى $\frac{\text{ءح}}{\text{ت}}$ و حيث ءح هى كمية الحرارة التى تكتسب أو تفقد ، وت درجة الحرارة المطلقة التى يحدث عندها ذلك .

حدث : Event

نقطة فى المكان – الزمان تتعين بزمانها ومكانها .

أفق الحدث : Event horizon

حد الثقب الأسود .

مبدأ الاستبعاد (لباولى) : Exclusion principle

لا يمكن لجسيمين متماثلين من لف نصف أن يكون لهما معا نفس الموضوع ونفس السرعة (فى الحدود التى يفرضها مبدأ عدم اليقين) .

استقراء : Exctra polation

أن يُستنتج من سلسلة من الملاحظات تطورات محتملة الوقوع وإن كانت غير ملحوظة .

فراغ زائف : False vacaum

حسب نظرية نشأة الكون بالفقاعات فإن هناك مناطق يحدث لها أن تبرد تبريدا فائقا فيصبح لها خاصية الفراغ الزائف التى تسمح لها بشد الطاقة من مجال الجاذبية الذى يحيط بها ، وهكذا تتفجر فى فقاعات مصير كل منها أن تصبح كونا .

مجال : Field

شيء يوجد خلال كل المكان والزمان ، وذلك في مقابلة مع الجسيم الذى لا يوجد إلا عند نقطة واحدة في الوقت الواحد .

أشعة جاما : Gamma Rays

موجات كهرومغنطية طولها قصير جدا وتنتج عن التحلل الاشعاعى أو عن اصطدامات بين الجسيمات الأولية .

النسبية العامة : General relativity

نظرية إينشتين المؤسسة على فكرة أن قوانين العلم ينبغى أن تكون متماثلة بالنسبة لكل القائمين بالملاحظة ، بصرف النظر عن كيفية تحركهم ـ ، وهى تفسر قوة الجاذبية بحدود من انحناء المكان – الزمان ذى الأبعاد الأربعة .

جلون : Gluon

جسيم حامل للقوة (بوزون) وهو المسئول عن القوة النووية التى تمسك الكواركات معا داخل البروتونات والنيوترونات في الذرة وهو جسيم من لف (–١) .

نظرية موحدة كبرى : Grand umified theory .(GUT)

نظرية لتوحيد القوى الكهرومغنطية ، والقوية ، والضعيفة ، أى أنها لاتشمل القوة الرابعة في الكون وهى الجاذبية .

جرافيتون : Graviton

جسيم ناقل للقوة (بوزون) من لف (–٢) وهو مسئول عن نقل

قوة الجاذبية أضعف القوى الأربع الأساسية ، ولم يتم الكشف عنه بعد ، ولكنه نظريا هو الذى يسبب الجاذبية .

هلدرونات : Hadrons

مجموعة من الجسميات الأولية شديدة التفاعل مع الجسيمات الأخرى ، وهى تتكون من الكواركات وتشمل الميزونات والباريونات .

كون موحد الخواص Isotropic universe

لبتونات : Leptons

جسيمات تحت ذرية (أصغر من الذرة) تشمل الالكترون والنيوترينو والتاو والميون وكل الجسيمات التى توجد خارج نواة الذرة هى من اللبتونات

مدى حياة ، عمر . Life time

فيزياء موضعية Local physics

الكتلة : Mass

كمية المادة فى جسم ما ، أو قصوره الذاتى ، أو مقاومته لعجلة السرعة .

قطب مغناطيسى أحادى Magnetic monopole

اشعاع الخلفية الميكروويفية: Micro background radiation

اشعاع من توهج الكون المبكر الساخن ، ينزاح الآن إزاحة حمراء كبيرة بحيث لا يبدو كضوء ، وإنما يبدو كموجات ميكروويف (موجات راديو طول الموجة منها سنتيمترات معدودة) .

ببولوجيا جزيئية : Molecul ar biology

البحث فى علم الأحياء على مستوى الجزيئات الكيميائية .

ميون : Muon

نوع من اللبتونات أى الجسيمات التى خارج النواة

نكليدة (نويدة) : Nuclide

اسم يطلق على الذرة متى تحددت نواتها بعدد ما تحتويه من البروتونات والنيوترونات وما يكفى فيها من الطاقة .

النواة : Nucleus

الجزء المركزى للذرة ، ويتكون فقط من البروتونات والنيوترونات، التى تتماسك معا بالقوة القوية . والبروتونات والنيوترونات هى بدورها تتكون من الكواركات .

نيوكلونات : Nucleons

جسيمات نواة الذرة أى البروتونات والنيوترونات التى تتكون من كواركات

نيوترينو : Neutirno

جسيم أولى للمادة خفيف للغاية (بلا كتلة فيما يحتمل) لا يتأثر إلا بالقوة الضعيفة والجاذبية . وهو ينبعث عند انطلاق جسيم بيتا من بعض العناصر الاشعاعية ، ولفة $\frac{١}{٢}$.

نيوترون : Neutron

جسيم بلا شحنة ، مشابه جدا للبروتون ، ومسئول فى أغلب الذرات عما يقارب نصف جسيمات النواة .

نجم نيوتروني : Neturon star

نجم بارد ، يقوم على التنافر بين النيوترونات حسب مبدأ الاستبعاد . وهو ينتج عن تقلص النجوم لنفاذ وقودها النووى .

معلمة Parameter

باراسيكولوجى : Parapsychology

فرع من العلوم النفسية يبحث فى التخاطر (Teleparhy) وما أشبه .

نظرية الاضطراب Perturbation theory

ضوء كهربية (كهرضوئية) Phoroelectric

فوتون : Photon

جسيم بلا كتلة هو في خارج الذرة يكون الضوء أى أنه كم ضوء . وهو المسئول عن نقل القوة الكهرومغنطية .

بوزيترون : Positron

مضاد الجسيم للاكترون وهو موجب الشحنة .

حساء أولى : Primordiql soup

حالة من حالات الكون بعد الانفجار الكبير .

بروتون : Proton

جسيم فى النواة ذو شحنة موجبة ويتكون من الكواركات . والبروتونات تكون بالتقريب نصف جسيمات النواة فى معظم الذرات .

نابضات : Pulsars

أحد النهايات المحتملة عند تقلص أحد النجوم لنفاذ وقوده الذرى . وهى نجوم الكترونية سريعة الدوران ، قطرها لا يزيد عن عشرة أميال ، ولكن كتلتها تقارب كتلة الشمس .

الـكم : Quantum

وحدة لا تنقسم هى التى يمكن أن تبعث بها الموجات أو تمتص .

الديناميات اللونية للكم Quantum chromodynamics (QCD)

تراوحات كمية Quantum fluctuations

ميكانيكا الكم : Quantum mechanics

النظرية التى نشـــأت عن مبدأ الكم لبـلانك ومبدأ عدم اليقين لهايزنبرج ، وهى نظرية فيزيائية رياضية عن المادة والاشعاع الكهرومغنطى والتفاعل بينهما .

كوارك (كواركات) : Quark(s)

جسيم أولى مشحون يحس بالقوة النووية القوية . والبروتونات والنيوترنات يتكون كل منها من ثلاثة كواركات .

أجرام سحيقة : Quasars

الأجرام السماوية فائقة البعد فيما وراء المجرة .

اشعاع الخلفية Radiotion background

نشاط اشعاعى : Radio activity

التحلل التلقائى لأحد أنواع النوى الذرية إلى نوع آخر .

إزاحة حمراء : Red shift

أحمرار الضوء من أحد النجوم التى تتحرك مبتعدة عنا ، ويرجع إلى ظاهرة دوبلر التى تؤدى إلى إزاحة الخطوط الطيفية للنجوم المبتعدة نحو الطرف الأحمر للطيف

إعادة التطبيع Renormalizotion

مفردة : Sinyularity

نقطة فى المكان – الزمان يصبح انحناء المكان – الزمان عندها لامتناه . ونظرية المفردة تبين أنها لابد وأن توجد فى ظروف معينة ، وبالذات أن الكون قد بدأ ولابد بمفردة .

الكترونات قد بسطت Smeared out electrons

المكان – الزمان : Space - time

المكان ذو الأبعاد الأربعة (أبعاد المكان الثلاثة وبعد الزمان) ونقطه هـ هى الأحداث .

النسبية الخاصة Special relativity

نظرية إينشتين التى تتأسس على فكرة أن قوانين العلم ينبغى أن تكون متماثلة بالنسبة لكل القائمين بالملاحظة ممن يتحركون حركة حرة بصرف النظر عن سرعتهم .

لف الجسيمات . Spin of particles

القوة (النووية) القوية : Strong force

أقوى القوى الأربع الأساسية فى الكون وأقصرها كلها في المدى . وهى تمسك الكواركات معا في داخل البروتونات والنيوترونات ، وتمسك البروتونات والنيوترونات معا لتكون الذرات .

جسيمات تحت ذرية : Subatomic particlec

أى جسيم من مكونات الذرة .

جاذبية فائقة Super gravity

اشعاع فائق Super radiance

فضاء فائق Super Space

المذهب الطاوى : Taoism

فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسى ، وتعد أحد الأديان الثلاثة بالصين وهى الطاوية والبوذية والكونفوشيوسية . والطاو هو المبدأ الأول الذى انبثق منه كل وجود وتغير فى الكون

تاو : Tau

نوع من اللبتونات أى الجسيمات التى فى خارج النواة .

مبدأ عدم اليقين (لهايزنبرج) Uncertainty principle

مبدأ أساسى فى ميكانيكا الكم بأنه لا يمكن قط أن يتأكد المرء بالضبط من كل من موضع الجسيم وسرعته معا ، وكلما عرفنا واحدا منها بدقة أكبر قل ما نستطيع أن نعرفه عن الآخر .

بوزون ناقل : Vectov boson

الجسيمات الحاملة للقوى مثل الفوتون والجلون والجرافيتون ، وتعيش فحسب لجزء من الثانية أثناء نقلها لقوتها .

جسيمات دبليو (W) : W. Particles

جسيمات ناقلة للقوى (بوزونات) تنقل القوى المسئولة عن التحلل الإشعاعى أى القوى النووية الضعيفة، وهى من نوعين + W و W^-. وهى من لف ١- وذات كتلة كبيرة جدا .

القوى الضعيفة (النووية) Weak force

ثانى أضعف قوة من القوى الأربع الأساسية ، ومداها قصير جدا ، وهى تؤثر فى كل جسيمات المادة ، ولكنها لا تؤثر فى الجسيمات حاملة الطاقة (البوزونات) وهى مسئولة عن التحلل الاشعاعى .

الوزن : Weighr

القوة التى يمارسها مجال الجاذبية على أحد الأجسام ، وهى تتناسب مع كتلته ولكنها ليست مماثلة لها .

قزم أبيض : White dwarf

عندما ينفد الوقود الذرى لأحد النجوم تتغلب قوى الجاذبية الداخلية على قوى تمدده بالتفاعلات الذرية ، فيتقلص النجم إلى حجم أصغر كثيرا ، ويعود ليستقر ثانية فى حجمه الصغير فى عديد من الحالات ، إحداها هى حالة القزم الأبيض ، وهو نجم بارد مستقر يقوم على التنافر بين الالكترونات حسب مبدأ الاستبعاد .

جسيم زد° Z : Z^{o}particles

جسيم ناقل للقوة (بوزون) وهو ينقل القوى المسئولة عن التحلل الاشعاعى (القوة النروية الضعيفة) ، مثله فى ذلك مثل جسيمات دبليو W، ، . وهو من لف –١ وله كتلة كبيرة جدا .

الفهرس

رقم الإيداع : ٤٣٧٥ / ١٩٩٢
I . S . B . N
977 - O7 - O775 - 2

روايات الهلال تقدم

الرجل المناسب

(رجل طيب فى أفريقيا)

الرواية الفائزة بجائزة بوكر سنة ١٩٨٢

بقلم

ويليـام بويـد

ترجمة

عبد المنعم صادق

تصدر : ١٥ يونيـة سنة ١٩٩٢

كتاب الهلال القادم

قراءة فى طبقات وعى الناس

بقلم

د. يحى الرخاوى

يصدر: ٥ يولية سنة ١٩٩٢

هذا الكتاب

تعريف ممتاز لأبرز علماء النصف الثانى من القرن العشرين وهو ستيفن هوكنج أستاذ الرياضيات بجامعة كمبردج . ويعرض الكتاب لتاريخ حياة هوكنج وصراعه الرهيب ضد مرضه المقعد الذى ألزمه كرسيه ذى العجلات . ومع ذلك فإن ذهنه المتألق ظل يعمل دائما بنشاط غريب ، وذاكرة أغرب تتيح له إملاء عشرات الصفحات من ذاكرته وقد امتلأت بمعادلات تتناول نظرياته المبتكرة عن أسرار الكون بأجرامه الضخمة من نجوم ومجرات ، وأصغر مكوناته من ذرات وجسيمات .

وقد أدت نظرياته هذه عن نشأة الكون ونهايته وعن الثقوب السوداء والمبدأ الانسانى ، وعن النظرية الموحدة الكبرى التى تفسر كل الفيزياء وكل الكون ، أدى هذا كله إلى أن أقر العلماء بأن هوكنج هو علامة رئيسية فى مسار الفيزياء بحيث يوضع فى مرتبة واحدة مع جاليليو ونيوتن وإينشتين .

والكتاب يعرض لكل هذا بأسلوب مبسط ممتع ومتعمق معا ، والكتاب هكذا مما لا غنى عنه لكل مثقف .

الاشتراكات

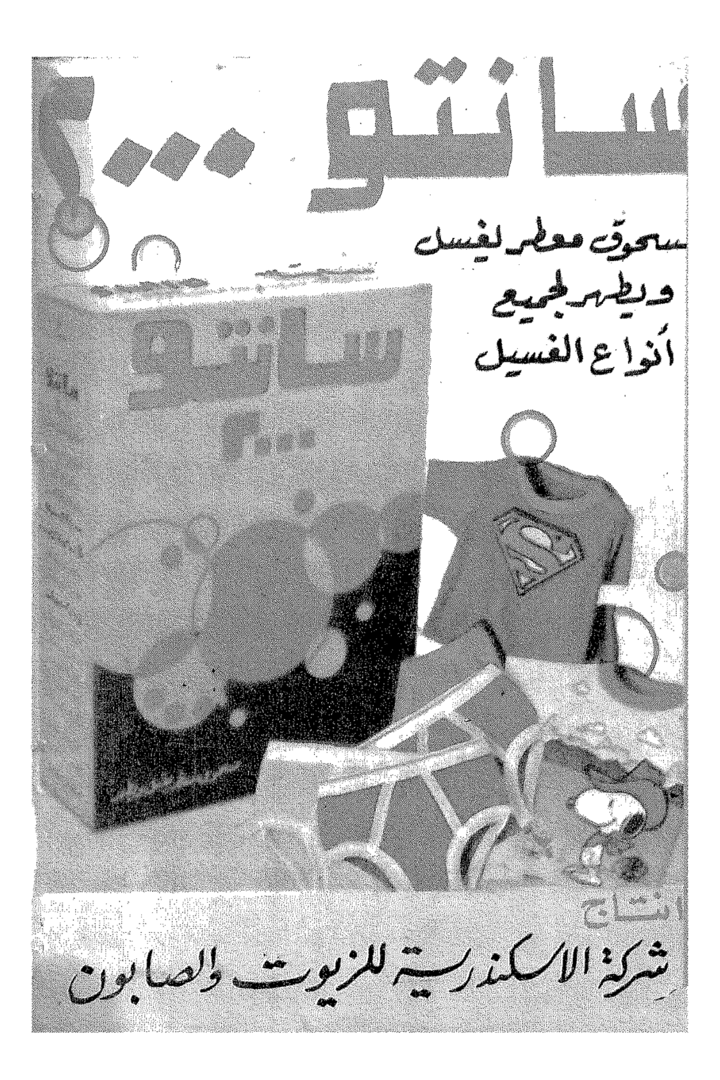
قيمة الاشتراك السنوى ٢١ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٠ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت   السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


سانتو...
مسحوق معطر لغسل
ويطهر لجميع
أنواع الغسيل
سانتو
انتاج
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

مثل.. وموّال

قراءة في النفس الإنسانية

د. يحيى الرخاوي





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد
نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
KITAB AL-HILAL
NO 499 - JU - 1992
العدد ٤٩٩ /محرم - يوليه ١٩٩٢
FAX 3625469 : فاكس

اسعار البيع للعدد فئة ٣٠٠ قرش

سوريا : ١٠٠ ليرة ، لبنان : ٥٧٠٠ ليرة ، الاردن : ٢٫٤٠٠ دينار ، الكويت : ٠٫٢٥٠ دينار ، السعودية : ١٢ ريال ، تونس : ٢ دينار ، المغرب : ٢٥ درهم ، البحرين : ٢٫٠٠٠ دينار ، الدوحة : ١٢ ريال ، دبى/ ابوظبى : ١٢ درهم ، مسقط : ١٫٢٠٠ ريال ، غزة والضفة والقدس : ٢ دولار ، الجمهورية اليمنيه : ٣٥ ريال ، لندن : ١٫٥٠ جك

مثل .. وموال

قراءة فى النفس الانسانية

بقلم

أ.د. يحيى الرخاوى



دار الهلال

تصميم الغلاف

للفنان : محمد حماد

الإهــداء

إلى سعيد (أبو عيد)*

---

*أحد أساتذتي : شاب أمّي فلاح
مصري فيلسوف معاصر – صديقي

مقـــدمة

هذه محاولة لكى نتعرف على أنفسنا من خلال الوقوف أمام حكمة الـناس المركزة فى مثل سـائر ، أو في غناء تلقائى يردد مـوالا جميـلا ، ولا يمكن أن نزعم أن ما تقدمـه هذه الدراسة يلتزم بأى قواعد اكاديمية لدراسة التراث الشعبى ، أو أنه حكم دامغ يثـبت هذا الجانب من طبـاع الناس دون ذاك ، أو يصف سمات خاصة بشعبنا الذي أطلق هذا المثل أو غنى ذاك الموال ، وإنما نحن نتصور أنه مجرد « مدخل إلي النفس » فى عمقها الخاص حيث يصل وجود الأنفس والتحامها إلى منطقة المعرفة المشتركة، وهى التى أسميناها علماً بالنفس، ليكمل ماهو علم النفس .

فحين تلتحم الأنفس « هنـــاك » تنطلق الحكمـة بلا مؤلف له اسم ولقب، ونصبح جميعا تلاميذ فى مدرسة حدس النـاس المباشـر ، ذلك الحدس الأقـدر علي أن يعرفنا « بعض ما هو نحن » بطريقة أكثر صدقا وأعمق غورا مما يفرض علي وجداننا وحدسنا وفكرنا بإحصائيات جامدة باردة كقوالب الثلج الصغيرة ، أو بلغة علمية ثقيلة الرائحة قد تجعلنا نتنفس الضباب لا الهواء ، أو باحتكار علماء لشفرة المعرفة بوصاية صارمة معطلة .

الباب الأول

مثل .....وموال

١- فصل فى الحاجة إلى كبير

٢- فصل في احتمال فضل النذالة والخسة

٣- فصل فى الأخلاق بما يستأهل

٤- فصل فى الجذب والصد فى الصداقة والهجر

٥- فصل فى مواجهة الواقع ومعانى الصبر

٦- فصل فى لعبة العلاقات البشرية

٧- فصل فى الحرمان والشبع والطبقية

٨- فصل فى قانون الواقع من الجبر والاختيار إلى الحساباتوالتعلم

٩- فصل فى الهم والناس (مصرياً)

١٠- فصل فى الفروق الفردية، والتناسب

١١- فصل فى التوقى الواعى

١٢- فصل فى تفسير شعبى للغش الجماعى

١- فصل فى الحاجة إلى «كبير»
(من الإعتمادية الصحية إلى رحاب الناس)

المثــل :

« إللى مالوش كبير... يشتريله كبير »

علاقة الكبير بالصغير (وبالعكس) حكاية قديمة، قدم الوجود البشرى، أو قدم وجود الحياة ذاتها، وإلى يومنا هذا ومعالم هذه العلاقة لم تتضح بالدرجة الكافية، ثم جاء ما يسمى بعلم النفس الحديث، فأسهم إسهامات لا بأس بها فى تقنين الصراع بين الأجيال وتوصيفه، كذلك ظهرت إشاعات التربية الحديثة فسمحت بحركة أوسع، وحرية أخدع لمن هو صغير فى مواجهة الكبير، وكعادتنا، وبسبب اضطرار أملته ظروف مرحلة تطورنا (تخلفنا) أخذنا نردد، ونقلد، ثم نتراجع، ثم، يبدو أننا نقف على السلم الآن، نرقص أو نترنح (سواء) ولكننا لا نصعد ولا نهبط ولا يرانا أحد.. ولكن يتربص بنا مصيرنا والتاريخ، المهم، تعالوا نبحث فى أوراقنا القديمة والحديثة ثم ننظر أين نحن ؟ وكيف؟ ثم ماذا؟.

١ - يبدو أننا [1] مازلنا ندرك حاجتنا الشديدة إلى «الكبير» بشكل ما، وأننا قبل وبعد الإغارة الغربية، كنا أقرب إلى « كونفوشيوس » منا إلى « لاوتسو » [2]، وإلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام منا إلى إبن نوح، وهذا المثل يعلن عدة أساسيات يمكن أن ننظر فيها على الوجه التالى :

أولاً : أننا كبشر - صغار مهما كبرنا، وتعبير «اللى مالوش » لا يقتصر على الصغير، بل يمتد إلى كل من ليس له كبير (كبيرا هو فى ذاته أم صغيرا).

ثانياً : أن « حاجتنا » إلى الكبير هى « حاجة أصيلة »، لايمكن الاستغناء عنها، أو حتى الاستسلام للعجز عن إشباعها، وهذا وذاك وارد دائما، وخاصة لو افتقرنا إلى مصادر إشباعها.

ثالثاً : أن الكبير - إن لم يوجد طبيعيا أو تلقائيا - فإنه يمكن أن يصنع تصنيعا (أو يشترى شراء) ، ليسد هذه الحاجة الأساسية .

رابعاً: أن ثمة تناقضا بين أن يكون الكبير مُشترى، وبين أنه يقوم فى نفس الوقت بدور الكبير القادر على تحمل الاعتماد، وتوجيه المسار [٢] .

والمثل بهذا التركيز، وبهذه الدقة ، يذكرنا بأن معركتنا فى سلسلة التطور ليست فى التخلص من الحلقة السابقة (الوالد) ، وإنما فى الاعتماد عليها حتى تجاوزها دون الاستغناء عنها، أى بإعادة تنظيم القوة بحيث تأخذ مكانها المناسب فى التركيب الجديد ، فليس المطلوب هو أن يتحرر الإبن من أبيه ، وإنما المطلوب فى النهاية هو أن يصر الإبن - فى الوقت المناسب - أن يكون قائد المسيرة « بأبيه » - وليس بالرغم منه ، ولا تحت أمره، ولا بدونه - مكمّلا حلقات التطور المتداخلة إلى من يليه.. هكذا.

فإذا رجعنا إلى المثل وجدناه يعلن عن « الحاجة إلى الكبير»، دون تقديس له أو انسحاق تحته ، بل هو يشير إلى تفوق واع ، فالمشترى عادة هو تحت أمر وإذن الشارى لغرض ما، إذ لا يعقل -

من حيث المبدأ - أن يكون ما أشتريه هو سيدى وقائدى حيث أن فعل الشراء نفسه يضعه فى حجمه المتواضع، ولأن أشترى لى كبيرا أتوكأ عليه، وأستعمله في حوارى ومسارى، لهو أمر يحمل معنى أنى (الشارى) أنا القائد، وفى نفس الوقت أنى أحتاج إلى شراء هذا الكبير وأنا قادر على ذلك ، لماذا ؟ لأستمر به إلى ما هو بعدنا : هو وأنا، اللهم إلا إذا اضطرب المسار واهتزت القوانين ، وطغى المشترى بعد أن تمكن (وهذا « وارد » جدا ، تاريخا ، وفعلا) .

ثم يأتى موضوع « شراء الكبير » فى الصداقة والعلاج النفسى وفى رحاب مشايخ الطرق ، والشراء فى المثل (وفى الحياة) لا يستلزم بالضرورة مقايضة مادية : مالا محددا، وأبسط وأعظم أنواع المقايضة يجرى « بالاعتمادية المتبادلة » Interdependency، يكون فى الصداقة، فصديقى هو «كبيرى » لأنه ناصحى ومستشارى وملجئى ورفيق طريقى ، وأنا له كذلك ، واحدة بواحدة ، أو ثمة (صديق) ثالث يقوم لأى منا بدور الكبير وهكذا ، أى أن عقد « شراء صداقة » قد لا يكون بين اثنين

فحسب ، بل بين مجموعة من الناس تتبادل الشراء دون علم أفرادها بطبيعة الصفقة وحسابات المكسب والخسارة، وشراء الصداقة يشمل شراء الكبير .

ثم تغير الحال ، وشك كل طرف فى شركة الصداقة أنه الخاسر، وادّعى المثاليون أن الصداقة تضحية بلا ثمن، وأحبط آخرون حين وجدوا أن الكبير المعين هو أحوج إلى أن يعان .

جبتك يا عبد المعين تعينى

أتاريك يا عبد المعين تتعان

ويتفاقم الموقف حين تتصادم احتياجات « الأخذ » و« الاعتمادية » بعضها ببعض .

وفى الصداقة ليس ثمة كبير أو صغير إلا بتبادل الأدوار، فمن هو كبير اليوم هو صغير – لصديقه غدا، وحتى الاعتمادية الخفية أو المعلنة، تضع فى عمق العلاقة – هذا المعنى الكريم الذى نحاول الآن أن نقدمه، لنتجاوز من خلاله المعارك الوهمية التى فرضت علينا وأعاقت نمونا نريد أن نجعل لفظ الكبير لفظا لا يعنى إلا الموقف

المحدد بالمقدرة على الدعـم (ولو المؤقت) وصـدق النصـح وبـذل الخبرة ، وحين ندخل إلى باب الصداقة من هذا المدخل نتصـور أننا نتخطى أوهام صراعات الأجيال إذا ما استعملنا لفظ « كبير » لصـياغة : « تبادل الاعتماد » ، وبالتالى تبادل أدوار من هو كبير حسب الأحوج والأقدر.

المـــوّال :

فرض هذا الموال نفسه من خلال التداعى المناسب، وهو أرق ، وأدق فى إعلان طبيعة الاحتياج، وصعوبة التعرّى ، وهو يصور ما وراء الصداقة، ويعرّى احتياج البشر لبعضهم، وعجزهم – بصدق – عن ادعاء التضحية قصيرة العمر ، خفية الشروط .

يقول الموال :

صـاحبت صـاحب وقلت ف يوم يشيل حملى

جـاب حملـه التقيـل وحطـه على حمـلى

لفيت جميع البلاد على صاحب يشيل حملى

وتعبــت وشــــــقيت، لــكن بــدون فـــايدة

واللى اشتكيله يقولّى : وانا مين يشيل حملى

ولأول وهلة يبدو لنا هذا الموال وكأنه يعرّى حياتنا الآن، ولكن إذا نظرنا إليه من بُعد أعمق وأكثر واقعية فربما يبدو لنا أكثر وصفا للموقف الانفرادى (الشيزيدى Schizoid) فى عالم الغرب (مثلا) حيث استغنى الناس عن الصداقة، لأنهم رفضوا فروسية مشبوهة، وشكوا فى تضحية مشروطة، وتبينوا هموما ذاتية تكفيهم عن ادعاء معونة الغير وهم أحوج ما يكون إلى من يعينهم .

نعم : نحن نشيع ذلك عن الغرب ، ولكن هذا الموال (وغيره) يشير إلى أن الأصدق منا ، قد يكتشف أننا كذلك، أو ربما « دون ذلك » ، وأن المطلوب ليس هو أن ندمغ الغرب بافتقاره إلى هذا النوع من التعاون الصداقاتى، ونفخر نحن بتصور التضحية وبتوهم الفداء ، لأن المطلوب : لنا ولهم ، أن نتجاوز يأسنا من إلصداقة ، بأن نعلن طبيعة الصفقة التي تسمح لنا بأن نشيل أحمال بعضنا البعض بعض الوقت، ذلك أنه بالرغم من أن كلا منا .

« إللى فيه مكفيه »

وأنّ

« كلا من هُـوَ ملهى على حاله ».

إلا أنه لابد من أمل فى « حسن توقيت تبادل الاعتمـاد بالتناوب » ، فهذه الأحمال التى هى أمانة الحياة، والتى تبدو عند التركيز أنها « قاصمة الظهر » أو على الأقل « مغلقة التواصل » ، هذه الأحمال والهموم تختلف شدتها من وقت إلى آخر، ويستحيل أن نتصور أنها ستلحق بنا جميعـا فى نفس الوقت ، وبالتالى فثمة فرصة للخروج من هذا المأزق بما يمكن أن نسميه : التعاون بالتناوب

ولذلك فالموال يحتاج إلى أكثر من قراءة :

فهو لم يقرر ابتداء أن الصداقة منذ البداية ترمى إلى أن يحمل الصديق عنى ما أنوء به، ولكن الصداقة تنشأ ومعها هذا الاحتمال الكريم منذ البداية ، فالشـطر الأول لم يقل : « صاحبت صـاحب –

يا ناس [٤] علشان يشيل حملى » وانما وضع صيغة الاحتمال والتوقع قائلا.. «.. وقلت ف يوم يشيل حملى » – وهنا يصبح فعل الصداقة نقيا فى ذاته ، ولكنه قابل لمزيد من الثراء بما يحمل من احتمالات الأخذ والعطاء حسب وقت وطرف الاحتياج ، لكن الطرف الآخر سارع بإلقاء حمله على الطرف الأول – فورا – فناء ظهره بحمليهما معا، فما كان من الصاحب الأول الطيب المتألم إلى أن كشف عن حاجته هو الآخر ودار بها على « جميع البلاد » مطالبا بحقه المباشر فى الاعتماد الفورى من خلال الصداقة، ولكن المفاجأة كانت صريحة وبسيطة، وهى مواجهة اليأس من الصداقة لو انقلبت إلى مجرد احتياج للاعتماد دون وعى بصفقة « الأخذ والعطاء » و«التساند الدورى» إن صح التعبير، وبألفاظ أخرى : إن « التساند الدورى » يعنى أن أحمل حمل صديقى حين يكون حملى الشخصى أخف ، وأن يحمل عنى حملينا بدوره حين تشتد حاجتى ويكون قد أفاق – ولو قليلا – بما سبق أن حملت عنه « بعض الوقت » .

أما أن تصبح المسألة شكوى واحتياجاً ملحاً متواصلاً ، ثم ننعى الحظ ونندب الأيام ، فلابد أن يتحوصل كل منا على ذاته ، وكل يبادر « بالتخلى » ، وهات يا جرى .

٣ - وعلى كل حال، فإنه لما صار الحال إلى هذه الحال نشأت « تجارة الصداقة » فيما يسمى ، العلاج النفسى بصورته المعاصرة، وهى خطوة شجاعة رغم بشاعتها ، أن نسمى الأشياء بأسمائها ، نقرأ كتابا يقدم هـــذا النوع من العـــلاج بعنـــوان « صداقة للبيع »، فأنت تذهب للطبيب النفسى (أو المعالج النفسى) تشترى وقتـه وعواطفـه واهتمـامـه ورأيـه ، تـدفـع له فى مقـابـل أن « يشيل حملك » ، وهو يفعـل بتفسـيرات تحليلية أو تأويلات تركيبية تطورية، فالأهـم - كما دلت أغلب الأبحـاث الحديثـة والأمينة - هو « حضوره » وإخلاصه، وحمله (ولو بعض الوقت) هموم الناس اللاجئين إلى رحابه ، ورغم بشاعة تعرية هذه المهنة الكريمة باعتبارها « صداقة للبيع » ، فإنها تبدو حلا مناسبا - للأسف - ولو لمرحلة صعبة من التحوصل على الذات ما دام الكل قد اتخـذ موقف « وانا مين يشيل حملى » على أن هذا ليس هو دور كل طبيب وخاصة «

طبيب العائلة » (تلك الوظيفة التى يقوم بها حاليا طبيب الأطفال أو الممارس العام بوجه خاص) والموال « المعاصر » يتبه إلى هذه الحقيقة حين يقول :

« يا مين يجيب لى طبيب، يحــل لى إشــكال
مش بس يــكتب دوا، ويقــولهم إيش كال [٥]
يا ما قلبى شايل ومش قادر أقول إيش كان »

وهنا تتجسد وظيفة الطبيب كـ « حلال المشاكل » « أيضا » وليس كاتب روشتة « فقط » وقديما قالت الأرجوزة « واحد اتنين سرجى مرجى، إنت حكيم ولا تمرجى ؟ » وقد ميزت بين الحكيم والتومرجى بأن الحكيم (وليس الطبيب أو الدكتور) [٦] هو راعى الصحة بكل أبعادها، الصحة الجسمية.. والصحة الاقتصادية (مارا بالصحة النفسية والصحة الاجتماعية) : إذ يأتى الرد:

« أنا حكيم بتاع الصحة
العيــان أديلــه حقنـــة
والمســكين أديلـه لقمــة »

وهنا يشار أيضا مرة ثانية إلى فرط الاعتمادية على الطبيب ، اعتمادية تذكرنا باحتياجنا المفرط إلى « الكبير » لدرجة أننا ننتظر أن يكون له دور حتى فى علاج « الفقر » و « الجوع » بالمعنى المادى المباشر، ولا نستطيع أن نرفض أمل شعب يعانى كل هذه المعاناة ولا يثق فيه أحد ممن هم فوق، أن نرفض أمله الملح فى أن يأتى الحل دائما من « فوق » ، بل إنه يتمادى فى تلك الاعتمادية حتى يصبح الكبير طبيبا كان أم حاكما هو مصدر كل شئ، وعليه أن يقوم بكل العمل .

وتؤكد هذه الأرجوزة الأخيرة على مفهوم آخر للطبيب غير حل المشاكل، وهو مفهوم الاستماع لما يحمل القلب من هموم لا يجد لها متنفثا ومستمعا متعاطفا ، حتى ولو لم يحل - فعلا - شيئا، هذا المفهوم الذى شاع حول الطب النفسى خاصة حتى أصبح معنى العلاج النفسى عند أغلب الناس هو «الفضفضة » و «الحكى» ، وتمادى قصر دور الطب النفسى على هذا المستوى دون غيره يعتبر خطأ شديداً ، ذلك لأن الحكى والشكوى والتداعى ليست هى الحل

الأوحد أو الأول ، وإنما هى بداية لها ما بعدها، والتوقف عند البدايات – كما يحدث عادة، وكما يصر كثير من الأهل والمرضى – لا يحل شيئا ، ولا يفيد شيئا ، بل لعل التمادى فى البحث عن السبب، مع تزايد الاعتماد على « حلال العقد » يأتى بعكس النتيجة إذ يثبت الضعف وقد يبرر المرض ، وحذق الطبيب النفسى يأتى من مهارته فى ضبط الجرعة بين الشكوى والفضفضة وبين البناء والاستقلال باستمرار .

ولو قبل الطبيب أو غيره أن يقوم بهذا الدور شبه الإلهى القادر على كل شئ ، فقد دخلنا فى مرحلة مخاطر الانحراف لدرجة السيطرة المطلقة أو الفرعنة.

والوقاية تستلزم أن يتذكر أى كبير أنه يحتاج بدوره إلى كبير ، وكبير الكبير إلى من هو أكبر ، و قد يكون ذلك فى اتفاق معلن أو خفى يسمح بأن يأتيه الدعم المناسب من مجموع المعتمدين عليه، وبغير هذا الحوار بين القائد والجموع، لا مفر من الإنحراف إن أجلا أو عاجلا ، والحوار الصحى هو الذى « يرد » الكبير عن

انحرافه واغترابه وغروره فى الوقت المناسب ، وقد ورد هذا التحذير من التمادى في الاعتماد وتميز المشروط على الكبير في المثل القائل :

« قالوا لفرعون إيش فرعنك

قال مالقيتش حد « يردني »

ولا أظن أن الرد هنا « رد » بمعنى « رد القاضى » ورفضه ، وإنما أظن أنه يعني : يمنعني من التمادى والتبادل فى الرعاية بين الكبير الطبيب، أو الكبير الحاكم وبين مرضى الأول ورعية الثانى ، هو تبادل قائم حتما حتى لو أنكره كل من الطبيب والحاكم ، وفى الطب النفسى خاصة ، حين تتعمق الممارسة بدرجة إيجابية، لابد أن يكتشف الطبيب اعتماده على مرضاه كمصدر لثروة معرفته وإثبات ذاته وتأكيد وجوده، (ولكن ليس كمصدر أساسى لاحتياجه العاطفى). كما أن الحاكم فى المجتمع الديمقراطى الحقيقى، لابد أن يستشعر أن رعيته المعتمدة عليه هى هى « الكبير » الذى يرده إذا مال أو نسى أو تمادى أو ظلم (فى صورة الصحف الحقيقية أو الهيئة التشريعية المحاسبة أو القضاء.. إلخ) .

وهكذا يمتد معنى المثل الأصلى الذى بدأنا به إلى أنه حتى الكبير (الحاكم) إنما يعين له (ويشترى له) كبيرا (مجموعة المحكومين أو من يمثلهم نيابيا أو غيره) حتى يرحموه من تماديه فيما لا يدرى من انحرافات محتملة .

لكن ثمة اعتمادية أخرى فى مجتمعنا لها دلالتها الخاصة ، وأنت تكتشفها ويمكن أن ترصدها أيضا فى كثير من حكمتنا السائرة ، وهى الاعتمادية على شيخ هو « سيدنا » بالضرورة، سواء كان هذا الشيخ جثماناً فى ضريح ، أو هو شيخ طريقة يمشى على الأرض ويقوم بدور الموصل الجيد إلى شيخ الضريح، الذى هو بدوره خطوة نحو الاعتمادية على المطلق الكونى اللامتناهى، ونحن نقصر حديثنا هنا على حاجة البشر الأحياء إلى البشر الأحياء « الأكبر » ، وشيخ الطريقة والدرويش هما صورتان لهذا الكبير الذى قد يوصى المثل بشرائهما ، لكن الشراء هذه المرة يتم دون « فيزيتة » ولكن مقابل « عهد » والتزام ، ويقدم لنا هذا الموال، الطويل نسبيا ، بعض ملامح هذا الكبير المتميز ، ولكن لنبدأ خطوة خطوة ، يبدأ الموال :

ياعينى إبكى وهاتى اللى عندك ولا تخبيش

دمعك صحيح غالى [٧].... ولا بيجيش

والدنيا هى كده... الحلو [٨] ما بتديش

وإلى هنا والموال يؤكد على حاجة الإنسان دائما أبدا إلى التنفيث ، والبكاء ، وارتفاع ثمن دمع العين ، وصعوبة إدراره ، هما أصدق فى الحزن ، وأكثر احتواء للألم ، وهذا أيضا عكس الشائع فى العلاج النفسى وعند العامة: من البكاء قد يكون مفيدا دائما أبدا فى التفريج والترويح ، ذلك أن البكاء إذا تكرر وتمادى أصبح مجهضا لألم أعمق قد يكون صاحبه أحوج ما يكون إلى معايشته .

ثم يؤكد الموال - بعد عتابه على الدنيا - أن طبيب القلوب لم ينفع، وهذا حكم جيد من العامة، يقلل كثيرا من تأليه دور الطبيب النفسى، على أن فشل الطبيب كثيرا ما يكون لصالح صاحب الحاجة فى أن يرتد إلى الاعتماد على نفسه، أو أن يلجأ إلى طريق أكثر صحة وصدقا.

أنا رحت لطبيب القلوب ؛ لا رقت، ولا فادنيش

ثم يكمل الموال :

قالولى أهل الغرام بالوعد إرضى و عيش

وقبل أن يذكر لنا الموال شيئا عن البديل الآخر الذى طرق بابه ، يعلن حقيقة بسيطة مطروحة دائما وهى « ضرورة الرضا » وتؤكد هذه الضرورة إذا كان الحاكم المنفذ هو « القدر » ذاته ، والوعد هنا هو ما يعنيه « الوعد المكتوب » ، ومع أن الايحاء قد يذهب بالمتعجل إلى تصور الرضا دائما أبدا على أنه تسليم ، إلا أن الرضا قد يكون أول خطوات تجاوز الواقع ، لأن الوعد الذى تحقق لابد أن تغييره يتعلق بالخطوة التالية ، لا بمحاربة ما تم ، فه « مكتوب » كشف عن وجهه ، فالرضا هنا ليس تخديرا بقدر ما هو بداية مما هو الآن ، ثم يستطرد الموال :

نزلت ساحة الرضا وقابلت فيها درويش

حاز الأدب وماشى لابس ثياب مع خيش

نظر لى بعين الرضا ساعتها ولا سابنيش

ويلاحظ هنا ان تعبير « ساحة الرضا » يحمل أنه المكان الفسيح الذى تدور فيه الحركة ، وليس السجن الذى يفرض السكون بالتسليم العاجز .

وتطل علينا أيضا « عين الرضا » لتدل مرة أخرى على أنه القبول والفهم بما يشمل « المعية » ، الأمر الذى يؤكده تعبير « ولا سابنيش » ، هى نظرة « نعم.. أنا معك » ، ويجدر بنا أن نتذكر خطأ آخر كان قد وقع فيه العلاج النفسى (والتحليل النفسى خاصة) حين ألغى فعل النظر فى تأكيد التفاهم والمعية ، وجعل الطبيب يتجنب عمدا النظر فى عين مريضه ، حتى قال « بيرلز » [٩] عن فرويد أنه كان مصابا بمرض تجنب النظرات Gaze avoidance ، مما جعل هذا النوع من التحليل يسمى أحيانا : العلاج بالكلام حيث يغفل وسائل التواصل الأخرى ، عبر قنوات متعددة ليست لفظية بالضرورة .

ثم يكمل الموال :

رحنا على المقصورة شفنا الأحبة جيش

والانتماء هنا ليس فقط إلى الكبير (الدرويش) الذى نظر وقبل وصاحب (وماسابنيش)، ولكن إلى الجموع الذين توجهوا نفس الاتجاه ، ثم يقول :

وخدت منه العهد وبقيت أنا معاه درويش

وهكذا - نرى هنا أن ثمن شراء الكبير هو عهد والتزام ، ثم يأتى التقمص بالكبير ليصبح مثله أو هو هو ، كخطوة أولى ، وهذا طيب ، أو كخطوة قصوى وأخيرة ، وهذا خطر.

والجرح الأليم طاب [10] وسؤالى لقيت له جواب

ومن أجمل ما نلاحظ هنا ، فنتعلم ، - أنه لم يكن ثمة سؤال من البداية ، ولم يرد فى مقاطع الموال السابقة أنه ذهب إلى طبيب القلوب أو إلى الدرويش ليحصل على إجابة لسؤال محدد ، وانما بدا الأمر وكأنه مشكلة عاطفية ، أو حرمان أو إحباط يحتاج إلى دواء قلب ، إلا أنه يبدو أن نظرة الدراويش السمحة والواعدة ،

وجموع الأحبة ذات الوجهة ، الواحدة جعلته يتجاوز هذه الحاجة الفردية إلى ما بعدها من رحابة العلاقة الجماعية الأغنى ، فضلا عن المعبر إلى الكبير الأكب ر، ويأتى عثوره على جواب السؤال هنا بمعنى أنه اهتدى لحل لحيرته الأصلية بشأن « من أين يحصل على احتياجه إلى كبير ».

ويؤكد الجواب الذى نستنتجه ضمنا هنا أن المصدر الأكثر أمانا هو « الأحبة جيش » وليس الحبيب الواحد المهدد بالهجر والضعف والإذلال ، وما الدرويش إلا الرمز الذى يجتمع حوله الأحبة الجيش ، لا لشخصه وانما لما يمثله من اتجاه ، ثم يأتى آخر شطر ليعلن عمقا أعظم وأخطر حين يقول :

ما فى شئ كبير ولا عم....

إلا ان كان فى البداية درويش

ويشير هذا الشطر الأخير إلى عدة حقائق لا يمكن التغافل عنها :

فأولاً : أن المسألة كشفت عن نفسها صراحة . وأن الحاجة إلى الكبير (الاعتمادية) هى أصل الدفع إلى الآخر : حبيبا كان

أم صاحبا أم شيخا أم طبيبا أم حاكما أم والدا ، وأن هذا الكبير (العم) يبدأ سلم النمو درويشا بمعنى تنازله عن ذاته الخاصة ثم ترقيه فى مراتب العطاء ، وتأكيد الموال على أن الدروشة ليست غاية فى ذاتها وإنما هى بداية نحو ما هو كبير ، يطمئن الخائفين من الدروشة على أنها اعتماد مطلق وتسليم خرافى ، يطمئنهم أنها بداية لها ما بعدها ، وليست مجرد اعتمادية سطحية .

ويجدر بنا أن نجمع فى النهاية هذا الموال على بعضه حتى يقرأه القارئ متواصلا دون وصاية شرحنا السابق .

ياعينى إبكى وهاتى اللى عندك ولا تخبيش

دمعك صحيح غالى - يا عين - ولا بيجيش

والدنيا هيه كده للحلو مابتديش

أنا رحت لطبيب القلوب لا رقت ولا فادنيش

قالولى أهل الغرام بالوعد إرضى وعيش

نزلت ساحة الرضا وقابلت فيها درويش

حـــاز الأدب ومـــاشى لابس ثيـــاب مع خـيش

نظرة (نظرلى) بعين الرضا ساعتها ولا سابنيش

ورحـــنا على المقصـــورة شـــفنا الأحبـــة جيش

وخـــدت منـــه العهـــــد وبقيت أنا مـــعاه درويش

والجرح الأليم طاب (يابا / يا حسين) (١٠) وسؤالى لقيت له

جواب ما فى شئ كبير ولا عم إلا ان كان فى البداية درويش .

الهوامش

(١) أعنى مصر والمصريين أساسا، ثم بعض ما هو عربى، ثم عمق ما هو إنسانى.

(٢) يقف هذان الحكيمان الصينيان على طرفين متناقضين، فبينما يمثل كونفوشيوس ضرورة الأستاذية ودقة التعاليم ، يمثل لاوتسو أصالة الحرية والفطرة والثقة بالنمو الذاتى، وهما معاصران لبعضهما .

(٣) يمكن مراجعة تاريخ المماليك وحركة تصعيدهم من «شرائهم» إلى تعيينهم "حكاما" ، .

كذلك عبدة الأوثان، ينحتون الحجر ثم ينحنون أمامه تقديسا .

(٤) أضفنا هذه الكلمة الاعتراضية إسهاما فى تحوير واع كما يفعل منشد الموّال بتلقائية (أنظر بعد) ، وربما أقرب إلى إيقاع أفضل .

(٥) المقصود : ماذا أكل، وهو السؤال الذى يسأله الطبيب ليتعرف على مصدر العدوى أو التلبك أو التسمم .

(٦) سبق تناول هذه الأرجوزة بالشرح والتحليل فى حياتنا والطب النفسى : يحيى الرخاوى (ص. ٩ - ١٠٢) - دار الغد للثقافة والنشر - القاهر ١٩٧٢ وأعيدت قراءتها فى الباب الأخير من هذا العمل .

(٧) فى الإعادة يضيف الشاعر أحيانا لفظ - يا عين - بعد غالى أى دمعك صحيح غالى - يا عين - ولا بيجيش.

(٨) وتسمع أحيانا « للحلو » ما بتديش واستعمال اللفظ الأول هو للتنبيه على صعوبة الحياة وتجهم وجهها الدائم ، أما المعنى الثانى فهو أضعف لأن المتألم من شح الدنيا لا يسمى نفسه حلوا أصلا .

(٩) بيرلز Perls هو صاحب طريقة فى العلاج الجمعى تنتمى للعلاج الجشتالتى .

(١٠) فى الإعادة يضيف الشاعر الشعبى بعد هذا اللفظ مرة « يابا » ومرة « ياحسين » ، ومرة ثالثة « يابا » ويا « حسين » ، وكل ذلك يؤكد أن الدرويش هنا - وهو الكبير المشترى بالعهد - هو فى عمق وجوده ليس الا معبرا إلى الوالد وإلى الحسين (الرمز) اللذين هما بدورهما معبر إلى ما فوقهما من كبير فاكبر كما أشرنا فى المتن .

٢- فصل فى احتمال فضل النذالة والخسة.. !!

<< واقعية الناس لا مثالية المكاتب >>

النذالة خلق كريه ما فى ذلك شك وهو ضرب من الخسة والحقارة يسمح لصاحبهما بالدون من الفعل دون حرج، مع سبق الإصرار، وأفظع من ذلك أن تكون نذلا دون أن تعرف ، نذلا بالسليقة ، مع تصور غير ذلكو ، والأفظع من الأفظع أن تكون نذلا وتدعى ضد النذالة .

ولكن ، أليس للنذالة وجه آخر ؟ استعمال آخر ؟

- ١ -

أول ما انتبهت إلى احتمال وجود هذا الوجه الآخر للنذالة ، كان ذلك حين سمعت زميلا (من ساقية أبو شعرة) ، يقول فى مناسبة جيدة :

« عيش ندل [1] تموت مستور »

ورفضت هذا المثل رفضا تقليديا ، وحين عدت إلى إعادة النظر تبين لى أن المسـألة لها - فعـلا - وجه آخر ، ذلك أن بعض النذالة يمـكن أن يكون وقاية محسـوبة ضـد المثـالية المدعاة، أو أنه كشـف لغطاء ادعاء عدم النذالة (المصاحب عادة بممارستها فى الخفاء) ، أو أنه إعلان لحق أن تحمى نفسك - بالنذالة - فى مجتمع نذل، فما أسهل أن يقولوا لك هذا عيب، وهذا لا يصح ، ليمارسوا هم كل ما لا يصح ؛ ماداموا قد استحوذوا - بأى طريقة على القوة من احتكار أو ثراء أو سلطة ، ويحذق هذه اللعبة بوجه خاص الأقليات التى تعتبر أغلب وجودها ليس إلا دفاعا فى حرب عنصرية متصلة ، فتستعمل النذالة خارج دائرة فصيلتها ، فى حين أنها قد تتزاحم فيما بينها بشكل أو بآخر [2] .

إذن ، فثمة احتمال أن هذا « المثل الواقعى » لا يدعو بالضرورة إلى خسة أو هوان بقدر ما ينبه إلى نوع من النصاحة والانتباه ، وأن فرط ادعاء الشهامة قد يخرب البيوت، وأنه قد يكون من حق

الواعى من الناس أن « يستعمل » النذالة بحرص وشجاعة ، لا أن يكون نذلا فى سر أو علن ، وشتان بين استعمال النذالة من مضطر واع ، وبين دونية الوجود النذل المستتب !!

- ٢ -

على أن ثمة إقترابا آخر من موضوع النذالة من حيث أن النذل لا يُعتمد عليه ، ولا يُنتظر منه شهامة أو مساعدة أو سند إذ يقول المثل الثانى :

النذل ميت وهو حى ، ما حد يعمل حسابه .

زى الترمس النى ، وجـوده يشـبه غيابه .

وهذا المثل ضعيف فى تفاصيله ، والمناقشة التى تتجاوز ما قيل من أجله قد تكشف ضعفه هذا بدرجة كبيرة، ولكن لا يصح أن نتجاوز كثيرا . إذ لابد أن نأخذ هذا المثل – وغيره – فى حدود ما قيل فيه لا أكثر ولا أقل .

فهو ينبه الذى يأمل فى النذل خيرا ألا يرجو منه ذلك، وهذا ما يعنيه بقوله : « ما حد يعمل حسابه » ، إذ لا ينبغى أن ينتظر منه

أحد شيئا طيبا، ذلك أنك إذا ذهبت تستدين منه لم يسعفك ، وإذا استشرته لم يصدقك .. وهكذا، ومع هذا فتعبير ، ما حد يعمل حسابه ، يوحى بالإهمال أكثر من مجرد عدم الترجى ؛ ومن هنا يأتى ضعف آخر فى وظيفة المثل الذى عادة ما ينصح الغافل ، لا يزيده غفلة ، وهذه النصيحة هنا معكوسة، فكيف لا تعمل حساب النذل ورصيده لا ينفد من المقالب الجاهزة والمصنعة ، ومن هنا لابد أن يعمل حسـابه ، مرة وألف مرة ، « لتوقيه » ، و « إبطال شره » ، و« إلا » .

كما أن التشبيه بالترمس الني هو تشبيه قاصر ، فضلا عن أن الترمس النى له فوائد حقيقية، فإنه يعد بأن « يستوى » أو حتى أن يزرع فينبت، فوجود الترمس قد يشبه غيابه « حالا » ، (حالة كونه نيئا) وليس "مستقبلا" (والنذل ليس كذلك) .

هذا مثل ضعيف ، ورغم أنه يؤدى واجبه فى حدود ما قيل له . إلا أن ثمة مثلا ثالثا لابد أن يستوقفنا حين يقول :

«النذل يوعد ويوفى، والكريم يوعد ويخلف»

وقد قدرت أول ما قدرت أن هذا المثل يدعم أى أنه ليس دائما « يحيا الثبات على المبدأ » ، بل إن الثبات على المبدأ مع تغير الظروف قد يكون دليلا على الجمود والغباء ، وبالتالى فان «الوفاء» (هذه الفضيلة الجيدة) قد لا تكون دائما صفة حسنة ، فها هو النذل « يفى » بالوعد لأنه جامد متعصب لا يلين أو يتكيف مع اختلاف الأحوال ما بين وقت الوعد وما بين أوان الوفاء، حتى لو أضر هذا الوفاء بالوعد بعد تغير الظروف .

أما الكريم فعنده من الشجاعة والوعى ما يسمحان له بإعادة النظر، فهو لو أخلف وعده، فإنه يفعل ذلك لأنه شجاع، ولأنه ربما اكتشف حلا أفضل. فالمسألة ليست فى أن يقال « وفيا » ، ولكن المسألة أن يكون شجاعا كريما واعيا بتغير الظروف دائما أبدا .

وهذا هو ما يمكن أن يخطر بالبال حين يسمع هذا المثل فى بادئ الأمر .

لكننا بتأمل أهدأ ، ومن عمق آخر، نكتشف أن كلمة « يوعد » هنا تعنى « يتوعد » ، وبالتالي يصبح المعنى المراد هو إشارة إلى أن النذل قلبه أسود ، إذا توعد نفذ وعيده (لا « وفى » بوعده) بقسوة ونذالة ، فلا مجال عنده للسماح ولا رحمة فى قلبه (الأسود) ، أما الكريم فهو يتوعد ولكنه قادر على السماح والعفو عند المقدرة ، ومع أن هذا هو المعنى الأصح فان الغيظ لا يفارق السامع ، وكلمة « يوفى » ترن فى أذنه لأن الإنسان لا يفى بالوعيد، وانما ينفذه .

– ٤ –

فالنذالة جزء لا يتجزأ من الحياة، وهى مرفوضة ابتداء ، إلا أن الوعى بها، ومعاملتها بالمثل أحيانا، هما نوع من اليقظة الواقية والواقعية، ولكن على أن ذلك أبدا لا ينبغى أن يكون تبريرا ولا ديدنا، فلنتشجع أكثر لنرى كيف يفل الحديد الحديد ، فثمة أمثال أخرى تعلمنا كيف نحدد مصالحنا من النذل فى حدود جزئية ، فلا نقبله كله ، ولا ننسحب أمامه فيخلو له الجو ذلك أن كون النذل نذلا لا يمنع معاملته بالحذر ، بل إنه يمكن أن تكون هذه المعاملة

سبيلا إلى الحد من نذالته إذا لقى من هو أكثر منه يقظة ومناورة ، فمثل آخر يقول :

خد بنت الندل وخاصمه

وفى هذا المثل دعوة إلى المواجهة الواعية ابتداء، ثم إنه يدعو ألا يأخذ الإبن (البنت) بجريرة أبيها .

وأخيرا فإن تجنب أذى النذل – حتى بعد مصاهرته – ممكن ، ويتدرج هذا الموقف أمام النذالة (واللؤم) ليس بمجرد التجنب (المخاصمة) وانما إلى المواجهة بالهجوم بعد الحصول على بعض الحق :

«خد القليل من اللئيم وذمه»

وهى مناورة واقعية أيضا ، صلحت حتى فى السياسة مما لا يعجب المثاليين الذين لا يتحركون من أماكنهم تحت عنوان « الكل أو لا شئ » ومع ذلك، فإذا كان مبدأ "الخطوة خطوة" فيه شبهة التنازل المؤقت عن الحق ، فإن مبدأ « الكل أو لا شئ » هو مبدأ طفلى لغير الواثق من نفسه ولا من قوته المتنامية ، والسياسة الحكيمة قد تضطر إلى استعمال كل الأسلحة فى مختلف الأوقات حسب مقتضى الحال، والساسة أعلم .

- ٥ -

فإذا تصـورنا بعد ذلك أن هـذا الموقف (خذ بنت النذل وخاصمه ، وكذا : خذ القليل من اللئيم وذمه) هو موقف هجوم دفاعي واقعي تجاه الأنذال ، حتى نصير في قدرتهم وزيادة ، فإننا يمكن أن نفسر أمثلة أخرى في نفس الاتجاه، حسب ظروف استعمالها ، مثل :

« اللى ييجي منه أحسن منه »

وهذا المثـل من أصرخ الأمثـال الانتهـازية ، إذا تصـورنا أنه موجه لكل الناس ، ولكن إذا تصورنا أنه موجه للئيم والنذل فحسب ، فإنه يصبح في نفس اتجاه الواقعية والهجوم الدفاعي الذي أشرنا إليه، ويؤكد هذا الرأى مثل قريب منه يقول :

شعرة من الخنزير أحسن من دقنه

- ٦ -

على أن ثمة وضعا آخر قد لا يكون لائقا في ظروف تجعل الهجوم الدفاعي مخاطرة ثمنها أبهظ من مكسبها، وهنا يصح المثل البديل :

« عتاب الندل اجتنابه »

وإن كنت أفضل أن أقرأه أحيانا « عقاب الندل اجتنابه » والاجتناب قد يكون استعلاء وإهمالا، ورفضا للمساواة به كما يقول المثـل :

إن عضنى الكلب ماليش ناب أعضه
وان سبنى الندل ماليش لسان أسبه

والمعنى أنه ليس لى نفس نذالة وقدرة لسانه على الفحش .

لكن الندل لايعاقب أصلا ، ولا يهمه إلا الفريسة الماثلة أمامه ، واجتنـابه لن يعلمه شيئا ، لأنه لا يتعلـم مـن الخبـرة ، ولا يخجـل ولا ينظر لبعيد بحيث يردعه عقاب أو حتى اجتناب. فالاجتناب هنا لصالح المنسحب إذا لم يكن فى مستوى الهجوم بنفس اللغة للعجز عن استعمال النذالة « من الظاهر » مع الترياق المضاد والموقظ ، خشية التمادى أو التعود فالنسيان .

وبلادة الندل فى عدم المبالاة بما يصله من إيذاء تذكرنا بتفاعل الرذيل فى مثل هذه المواقف :

تفوا على وش الرذيل قال دى مطره

وبلادة النذل وافتقاده للكرامة يبرر استشهادنا ببلادة الرذيل ، وتتأكد بلادة النذل فى المثل :

إضرب الندل واكفيه

وبوس رأســـه يكفيه

وهذا ليس تسامحاً بقدر ما هو افتقاد للتفاعل الأبى

- ٧ -

وهكذا يعلمنا الأدب الشعبى - بحذر شديد - أن التعميم على كل الناس هو أمر غير مطروح ؛ لأن الناس تختلف ، والمواقف تختلف. كما ينبهنا إلى واقع « ضرورة التعامل » ، ثم يتقدم خطوة إلى تجزئة المواقف ، فما كل نذل هو نذل « طول الوقت » ، ولا هو نذل فى كل ما يفعل، وكل ما يملك، وكل ما (ومن) ينتمى إليه، وبالتالى فإمكانية التعامل مع أجزائه الطيبة ، أو خلقه البرئ ، أو عطائه القليل ، هو ممكن حتما وواقعا . إلا أن الوقاية الحقيقية من ألاعيب النذالة لا تكون إلا بالقوة الذاتية المتزايدة، فى مواجهة الأنذال واللئام . فثمة أساليب أخرى مطروحة دائما للتعامل مع اللئام ، من مركز أقوى ولكنه أصعب - يقول الموال :

خسـيس عمـل مقبحـة رايد بهـا عنـدى

عملت أنا الطيبـة شـوف فـرق دى من دى

والله ان كسيت الخسيس حرير من الهندى

ياكل فى خيـرك وعنـد النـاس يدم فيـك

هـلبت يا عـين بعـد الشـرد ما تنـدى

فالخسـيس هنا (وهو مرادف للنذل) يرد عليه بالإحسان ، ولكن من مركز القوة ، ومعـرفة أن من يتعامـل بالطيبـة الواعيـة القادرة لا ينتظر جزاء، بل لعله ينتظر العكس (إنكار الجميل ، والتنكر للعطاء) .

بل إن الملاحظ أن من طبع الخسيس ألا يكتفى بإنكار العطاء.بل إنه يبادر بالهجوم على صاحب الفضل عليه ، ومن عمق معين يمكن أن نفهم هذا الهجوم باعتباره نوعا من الدفاع ضد الاعتراف بالضعف والحاجة، وهو موقف عام ليس من صفات الخسيس خاصة ، بل إن الأخذ المعلن والمشروط هو أمر شديد الصعوبة حتى على الشخص العادى وخاصة من لم يتجاوز الموقف البارنوى [٢] .

غير أن الفرق بين الموقف البارنوى (التوجسى) المجرد الذى لم يتشـوه بانحـرافات خلقية، هو أن هجـوم البارنوى على من يعطيه، يكون مباشرا ومن منطلق رفض العطاء، أو الشك فيه، أو إنكاره الحاجة إليه، خوفا من إعلان الضعف فالاستهداف للإحتواء والتلاشى:

"فبقدر شعورى بحنانك، سوف يكون دفاعى عن حقى
فى الغوص إلى جوف الكهف
وبقدر شـعورى بحنانك، سـوف يكون هجـومى
لأشـوه كل الحب وكل الصـدق"

فهو هنا فى الموقف البارنوى يتجنب الأخذ ، ويخاف من الاقتراب والحنان : مرة بالإنسحاب إلى عزلته فى حالة من اللاعلاقة، ومرة أخرى بالهجـوم المباشـر والتشـكيك فى الحب والصـدق ، ولكنه انسحاب وهجوم من واقع رفض موقف الاعتراف بالضعف والحاجة للأخذ - وفى نفس الوقت : هو موقف يعلن احترام المتألم الأبى لصدق العطاء وفيض الحنان .

ثم قد يتحور هذا الموقف (البارنوى) ويتلوث ليصبح الهجوم تحت الحزام ، وفى غير المواجهة. فالموال هنا يقول « عند الناس يذم فيك » ولا يقول يذمك أو يهاجمك. وجها لوجه، ذلك أن الخسيس إذا هاجم صاحب الفضل وجها لوجه ، فقد ينقطع فضله ، أو تكشف خسته، لكنه يتمسكن أو ينتظر أو يناور حتى يحصل على مطلبه ثم يمارس نوعا دنيئا من الهجوم بتشويه صورة الكريم « عند الناس » بالذم وإنكار الجميل .

- ٨ -

ثمة موقف آخر قد يضطر إليه الإنسان فى مواجهة اللئيم ، خاصة إذا انتقل وضع اللئيم من المستذل المتمسكن : إلى صاحب السلطة بشكل أو بآخر، هنا يصبح الألم مضاعفا فى معاملته، فأنت لا تستطيع أن تأخذ منه « شعرة » أحسن من ذقنه ، ولا تملك أحيانا أن تخاصمه ، وقد تضطرك الأمور إلى معاملته من واقع سلطته ، وهنا يصبح الوعى بالموقف شديد الإيلام .

الله يلعنك يا زمان وأنت بقيت بالهم
والكلب لما حكم قاله الأسد ياعم

وهذه الرؤية ليست تبريرا للنفاق ، وإنما هى مواكبة للألم نتيجة للاضطرار ، تراها فى كل موقع سلطوى حين تأتى السلطة نتاجا غير طبيعى لظروف طارئة – ولعل الصورة التى نشأ فيها هذا المثل – أصلا – كانت – مثلا – صورة عمدة فى قرية هو قاطع طريق ، ومحتكر أرزاق ، وإذ يقف أمامه شيخ بلد كريم ، أو فقيه فاضل عاقل، يرجو قضاء حاجة له أو للناس المستجيرين به ، فيصده بنذالة الأوغاد ، فيتوالد المثل ويتردد ، إلا أن هذه الصورة قد أصبح لها ما يقابلها على أعلى مستوى علمى ثقافى ، فأحيانا يشعر الأصغر والأكثر أمانة فى مجال مناقشة رسالة علمية ، أو حكم على بحث ، أو ترشيح لجائزة ، يشعر هذا الأصغر أن محكميه أدنى منه ، وأن الزمان هو الذى اضطره لقبول هذا الوضع ، وأن عليه أن يمضغ ألم الواقع ويصبر ويقول ، وهو الأسد ، يقول للكلب « يا عم ».. حتى تتعدل الأمور أو يعدلها ، على

أن الأكثر إيلاما ليس فى مجرد أن الأسد صاحب الحاجة يقول للكلب الحاكم يا عم ، بل إن الحاكم (الكلب) قد يرده بعد هذا التنازل الواقعى المؤلم المهين ، وقديما سئل أعرابى ما أشق الأمور على النفس قال :

« وقوف الكريم بباب اللئيم ثم يرده »

- ٩ -

ونحب أن نؤكد أن دقة هذا الموال وما ارتبط به من تفسير واستشهادات تكمن فى الألم المصاحب للتنازل المؤقت ؛ فأن تلعن الزمان وتشعر بالهم وأنت - الأسد - تقول للكلب يا عم، أمر يختلف تماما عن ما يشير به المثل العكسى :

« اللى يتجوز أمى أقوله يا عمى »

الأول .. اضطرار واقعى مؤلم .

والثانى .. ذل إرادى إنتهازى مستسهل .

وأحسب أننا يمكن أن نتذكر من هذه الإطلالة على بعض أقوال الناس ، أن الأمثال والمواويل ليست حكما عاما على شعب ،

ولا هى دلالة على طباع غالبة ، بقدر ما هى رؤية مخترقة فى موقف محدد. ولابد أن نشك فى جدوى أية دراسة تعتمد على إحصاء كمى لاتجاه الأمثال عامة، ما لم تأخذ فى الإعتبار التفرقة النوعية فى توقيت ظهور المثل ومواقف استعماله، وهو أمر يكاد يكون بعيدا عن متناول الدراسات المتعجلة أو المسطحة.إذن، لتكن رؤيتنا لهذه الأمثال وعادة معايشتها لنا مجرد فتح أبواب احتمالات راجحة فى مواقف بعينها دون تعميم أو تعصب .

الهوامش

(١) تستعمل اللغة العامية لفظ ندل بدلا من نذل ، ولكنها تتفق مع العربية فى أن الخسيس هو النذل ، نذل : خس حقير ، وسوف نستعمل اللفظ العربى فى الشرح ونحتفظ باللفظ العامى فى نص المثل .

(٢) فكّر فى معنى استنقاذ إسرائيل ليهود أثيوبيا دون سائر الأثيوبيين !!

(٣) الموقف البارنوى ليس مرفوضا، ولكنه مرحلة من مراحل النمو تتصف بعلاقات الكر والفر، والشك والتوجس، والهرب والملاحقة .. ويتجاوز الإنسان هذا الموقف باستمرار النمو ، ولكن قوته تظل كامنة جاهزة للتنشيط فى أى وقت .

[أنظر قصيدة جلد بالمقلوب من ديوان « سر اللعبة » للكاتب]

٣- فصل فى معنى الأخلاق
وأنواعها واختراقها بما يستأهل

جاءنى من زميل مثابر (د. أحمد حربى) . رأى فى مثل سائر ، وطلب أن نتحاور حول ذلك . يقول المثل :

« إن سرقت اسرق جمل
وان عشقت اعشق قمر"

المثل يضرب لما هو أخلاق، ويوضح معرفته بدخائل النفس وطبيعتها ، والسرقة من الكبائر ، وعطف العشق عليها يوضح أن المقصود بالعشق هنا أيضا : العلاقة الكاملة ، والقائل عالى الهمة، واضح الطريق ، فإذا كان لابد من خروج ، فليكن على قدر أولى العزم ، فهنا قدر كبير من الواقعية بل والنفعية" .

إنتهى المقتطف من كلام وتعليق د . أحمد حربى

ولنا وقفة

فأما أن المثل يعرف طبيعة النفس

فنعم .

وأما أن القائل عالى الهمة، فشك كبير فى ذلك

وأما أن فى المثل قدرا كبيرا من الواقعية، فلابد من إعادة تعريف للواقعية نفصله بعد قليل .

وأما أن فيه قدرا كبيرا من النفعية ، فنعم .

والمثل يضرب لما هو أخلاق ، ولكن أى أخلاق ؟! إن صح أن هذا المثل يضرب ما هو أخلاق أصلا ؟ وما زالت مشكلة الأخلاق لم تحل حلا يرضى الجميع ، أو حتى تتفق عليه الغالبية .

* فثمة أخلاق العبيد.. حيث تعلو القيمة الخلقية بقدر الطاعة والإذعان.

* وثمة أخلاق التجار حيث يحسب رصيد الأخلاق ضمن حسابات الأرباح وميزانيات العام ، أو ميزانيات العمر ، حتى فى الآخرة.

* وثمة أخلاق الكتبة : حيث الأخلاق ألفاظ شيقة مرصوصة ، ومثاليات حالمة مكتوبة (لم تُختبر) .

* وثمة أخلاق الخطباء والساسة : حيث الأخلاق صفات معلنة ووعود مشروطة ، ورشاو محسوبة ، وتأجيل هروبىّ و "على ما ينقطع الجريد يفعل الله ما يريد".

* وثمة أخلاق الجبن والسلامة: وأنه بقدر ما "لا تفعل" "تسلم"..الخ..الخ.

فأى أخلاق يا صديقنا يضربها هذا المثل ؟

دعنا نزعم ابتداء أن :

"الأخلاق: هى الفطرة فى جدل مبدع"

فإذا كان الأمر كذلك، فهذا المثل لا يضرب الأخلاق ، ولا يدعو إلى السرقة، ولكنه يكشف الخبىء ، ويعرى للمواجهة، فكأنه يقول :

إن كنت ولابد سارقا كجزء من طبيعتك الداخلية ، ثم اضطررت أن تعيها فتطلقها : فلتقدم بقدر ما يحمل قرارك من مسئولية المخاطرة .

وإن كنت ولابد عاشقا (بالمعنى الموازى للسرقة من مغامرة، وتخط للحواجز ، وتدبير للوصال..الخ) فلتفعلها بما يبرر اقتحامك وجسارتك ..

هنا يُضرب المثل التردد ولا يَضرب ما هو أخلاق ، وهو يحفز على المخاطرة ما دام الوعى يقظا ، فيقول لنا : تحمل مسئولية قرارك ، وعمق فعل إرادتك ، وحدد أبعاد فعلك حتى تستبين أين أنت ، وإلى أين ، ولماذا ، فإذا دفعت ثمن كل هذا ، كان الثمن على قدر البضاعة ، أما أن تكون سارقا سريا مدعيا العفة فيسرق "لا شعورك" وأنت ترفع شعارات الفضيلة ، أو تكون عاشقا مع وقف التنفيذ ترضى من القليل أقله، فسوف تدفع ثمنا غاليا دون مقابل ، وسوف تخدع نفسك مغتربا غير فاضل ولا واع بدخيلة خبثك ، ولا مسيطر على ناتج فعلك .

والسرقة الخفية أبشع أنواع السرقة، تجدها فى إعلانات السياسة، كما تجدها فى مناهج البحث العلمى ، وتجدها فى رشاوى مسطحى الأديان ، كما تجدها فى العقاقير المزركشة المصقولة لشركات الأدوية القوية ، والذى يخفى لافتة "حرامى" من فوق كل هذه النشاطات ثلاثة أمور: **الأول** : لبس ثوب العصرية والتحلى بأرقام الإحصاء والتكنولوجيا ، **الثانى** : أن الذى يقوم

بها هم غالبية بشكل يصعب تصورهم جميعا لصوصا ، **والثالث** :
إذعان المجنى عليهم واستسلامهم فى تخدير منبهر ، وأكاد أتصور
أن المثل أصدق وأصرح من كل هذا إذ يسمى الأشياء بأسمائها ،
فالسرقة فيه سرقة ، ليست اقتباسا ، ولا شركة توظيف أموال ،
ولا بنك استثمار ، ...الخ ، والجمل فيه جمل ظاهر للعيان ،
وكأنه يقول :

فلنكن صرحاء ونعلنها ، ليس فقط لكى نجعل المخاطرة
"تساوى" ، ولكن أيضا وقبلا لنجعل الناس يعينوننا على عكسها
إذا كان فى الأمر مجال لحوار أو فرصة لمراجعة ، أو سبيل
لتعويض معلن .

وثمة مثل آخر لا يكتفى بأن يعلى من شأن السرقة المعلنة مقارنة
بالسرقة الخفية ، وإنما هو يحفز على التحدّى الصعب ، حين يتهم
الناس إنساناً شريفا بأنه ليس كذلك ، فينتقم منهم (ومن نفسه) بأن
يكون عند سوء ظنهم (واللى عاجبه) :

إن سمّوك حرامي، شرشر منجلك

وهذا خطر آخر ، لكنه فى اتجاه التمادى فى الأمر حتى لو كان خطأ بعداً عن الميوعة ، ورفقاً للموقف الدفاعى الفاشل .

وقفة من بُعد آخر تجاه الشطر الثانى من المثل تنبهنا إلى أن الدعوة إلى عشق من هى "كالقمر" بحيث تستأهل ما يبذله العاشق فى سبيلها ليست هى القاعدة دائما فى الحس الشعبى ، فالجمال وحده ليس هو مؤهلات الحب دائما أبدا ، فالحب أينما توجه، يبرر نفسه بنفسه حتى لو لم يكن المحبوب فيه ما يبهر من ظاهر ما يلفت الانتباه ، وفى هذا يقول مثل آخر :

حبيبك حب، ولو كان دب

ولكن يبدو أن علينا أن نفرق بين الحب ، والعشق ، وأن نتذكر أن "ضرب التردد" هو الذى يجمع بين شطرى المثل ، فالنقد الشعبى للموقف المتردد شائع ، ومرفوضة تلك التى :

"نفسها في "الحب"[1]. وخايفة مالحَبَلْ"

كذلك على المرء أن يكون محددا في اختياراته ومواقفه وأن يتحمل نتاج إعلان رأيه، ثم إقدام فعله، أليس هذا هو الرد المراد من :

"إن خفت ما تقولش
وان قلت ما تخافش"

الهوامش

(١) في أصول الحكي الشعبي كلمة أكثر صراحة ودلالة من كلمة الحب تشير إلى الفعل الجنسي والأولى أن نذكرها كما هي، ولكن !!!

٤- فصل فى الجذب والصد
فى الصداقة والهجر

-١-

الصاحب اللى يفوتك يقّن انه مات (١)
أترك سبيله ولا تندم على اللى فات
الصقر بيطير و بيعلّى و له همات
يقعد فى الجو عام و لا اتنين
يموت من الجوع و لا يحوّد على الرمّات
(٢)

هذه الصورة تجسد نوعا من الإباء الشديد فى التعامل مع إعلان حاجة الانسان للصديق ، والاعتراف بعدم تحمل الهجر بوجه خاص.

والتفسير الخلقى لأول وهلة يوحى بأن هذا الموقف هو موقف كريم رائع ينبغى أن يتصف به كل ذى كرامة وشمم ، ولكن

يبدو أن الأمر ليس كذلك تماما ، فهذا أمر قد يدل-أيضا- على الصلف وشدة التأثر بالهجر ، نتيجة للحاجة الخفية الشديدة للاعتماد بشكل ما على صحبة هذا الهاجر ، وبالتالى فإن صاحب مثل هذه الشخصية (٣) يشعر أن هذا الهجر هو رفض وليس مجرد ترك ، وهو لشدة حاجته للآخر- دون إعلان خشية إظهار الضعف (الموقف البارنوى) يحتج على هذا الرفض برفض أشد ، يتمثل فى هذا التصعيد إلى هذا العلو الشاهق الذى يتصف به الصقر(٤) (عند العرب خاصة) وهو فى الظاهر علو ، ولكنه فى الواقع وحدة ما بعدها وحدة ، وكأن مثل هذا الإنسان بدلا من أن يتفاعل للهجر بالألم والتفهم واحترام الخلاف والانتظار والاستمرار على مسافة ، وكل هذا ليس فيه مذلة أو خنوع ، بدلا من ذلك يطير إلى أعلى متخذا موقفا فوقيا حاكما على هذا التارك أنه "رمة" (٥) وهو يعتبر هذا السلوك الصقرى هو الهمة العالية مصدر الفخر ودليل العزة ، وكل ذلك مقبول كدفاع طبيعى ضد إظهار الضعف و الإعتراف بالحاجة ، وهو مستوى جيد من الخلق ، خلق الاستغناء وعدم الأخذ ، أليس هذا ما يقوله البارودى :

خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة علىّ يدا أغضى لها حين يغضب

ولكننا ينبغى أن ننتبه إلى أن عدم الأخذ هو "عجز عن الأخذ" (أيضا) وهو دليل وحدة صعبة ليست هى الفضيلة الوحيدة ، أو الفضيلة الأولى فى العلاقة بين البشر ، ورغم أن مثلا عاميا آخر يؤكد نفس الإتجاه :

"الصقر صقر وله همّه
يموت من الجوع
ولا يحوّد على رمه"

فإن أمثالا أخرى تفتح أبوابا أخرى لكيفية التعامل مع الصداقة والهجر محترمة حاجة الانسان للإنسان بأى صورة وبصفة دائمة :

١- فلنبدأ المسألة "بالموافقة" وما يحدث يحدث :

اللى ترافقه وافقه

وليست الموافقة هى المرادف للنفاق دائما أبداً ، فهى تحمل معانى كثيرة من بينها أن تبحث عن مناطق الاتفاق (أيضا)

ولا تتوقف عند الخلاف (دائما) ، والاتفاق قد يأتى من الاختلاف حيث يكمل الصديق صديقه كالمفتاح والقفل أو بالتعبير العامى المستعمل فى "النجارة" والمستمد من الصداقة والحب أصلا

"عاشق ومعشوق".

وقد اختلفت الآراء حول أيهما أفضل لاستمرار الصداقة وتأكيد التكيف ، أن يكون صديقك مثلك أم أن يكون مكملا لك وأنت مكمل له؟ ، وفى كلّ خير :

أما عن الاحتمال الأول وهو "التماثل" -فهو المعنى الموجود فى "إن الطيور على أشكالها تقع" وكذلك "كل شىء له يشبه اللى له" (تنطق بالعامية).

كل شيلُه يشبهلُه

كل شيله يشبهله حتى الحمار واللى آنيه (٦)

أما التكامل فقد يتفق مع ما يشير إليه المثل الأصعب :

زى القط ما يحبش الا خناقه

٢- لكن الصداقة أمر صعب ، وهى امتحان متجدد ، وقولهم فى المثل:

الصاحب علّه

ليس مجرد تنبيه إلى ما فى الصداقة من التزام وتحمل الاعتمادية ، ولكنه أيضا إعلان أنها امتحان عسير يحتاج إلى الصبر والتفويت:

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا

صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

ومن لا يتحمل التفويت ، فليدفع الثمن وهو الوحدة الجليدية.

فعش واحدا أوصل أخاك فإنه

مقارف ذنبا مرة ومجانبه.

وفى المثل:

"التعبان من رفيقه يوسع له"

٣- وعملية الصداقة عملية ذات اتجاهين: ذهابا وإيابا ، فأنت تطرق الباب فى محاولة تلقائية مثابرة ولا تكتفى بالإنتظار :

"استوَدُّوا تِسْتَحَبُّوا"

ثم إنك تفتح بابك لمن يطرقه للصداقة مرحبا ومتجاوبا:

"مين زق بابنا ياكل لبابنا".

فأهلا وسهلا بالطارق ،

وإن لم يحضر فلنذهب إليه :

عدّى يا المحبوب وتعالى

وإن ما جيتش لأجيلك أنا

٤- ثم يبدأ تبين الاختلاف ، ولكن هل بالضرورة يكون الاختلاف هو بداية الخلاف؟ ذكرنا حالا ان اختلاف الطباع قد يكون سببا فى الحفاظ على الصداقة ، **بل إن تشابه الطباع قد يكون سيئا إذا كان باعثا للتنافس فقط** حتى تصبح العلاقة عميقة غير مثمرة .

زى نخل أبو قير   دكر قدام دكر

ثم إن ثمة طريقة أخرى لتحمل الاختلاف: هى أن تعرف صاحبك وتقبله دون محاولة تشكيله فورا بحيث يصبح نسخة منك لتجنب الاختلاف ، وهذا ما فهمته من قولهم فى مثل آخر.

إعرف صاحبك و اتركه.

فأنا لم أستقبل هذا المثل باعتباره تركا بمعنى إنهاء الصداقة أو الانصراف عن الصديق ، وإنما استقبلته بمعنى "اتركه فى حاله" ولا تفرض عليه – فورا – ما تتصوره أصوب ، ولا تحاول أن تشكله كما تريد ، أو كما تتصور وباستمرار صداقتكما سوف يتطور التفاعل إلى ما يثمر ما يتطور بكما ، وهذا الاستمرار مع المعرفة هو من أعظم ما يعلن النضج ، وهو ما يسمى بتحمل الغموض Tolerance of ambiguity (أو تحمل التناقض) – وهو أفضل من ألا ترى فى صاحبك الا ما هو حسن ، بل ترى فيه "حسنا ما ليس بالحسن".

أكما ينعتني تبصرنني حسبكن الله أم لا يقتصد(٧)

فتضاحكن وقد قلن لها حسن في كل عين ما تود.

٥- وبعد المبادأة والتفويت وحسن التلقي ، والمعرفة والتحمل ، لابد من الرضا بالقليل من الصاحب حتى لا يتزايد الطلب فالإلتهام ، فيزداد الطلب فالإلتهام ، وهكذا كشارب الماء المالح .

"إذ قد إلتهم الواحد منكم تلو الآخر دون شبع".

"من فرط الجوع التهم الطفل الطفل".(٨)

فالتركيز على القليل والرضا به ، ينميه ويبارك فيه :

"الحر من راعى وداد لحظة"

يظهر ذلك جليا عند الاختلاف: فالخلاف ، حيث لا يتذكر الانسان الكريم (الحر) القسوة والأخطاء فحسب ، بل هو يستدعى أيضا ، وقبلا ، لحظات الوداد والكرم والعطاء والتفاهم ، فلا يفرط فى العشرة بسهولة :

العشرة ما تهونش إلا على ابن الحرام

٦ – وقد يكون من بـاب الضمـان أن تتعـدد الصداقات حتى لا تصبح احتياجات الواحد منا مطلوبة من مصدر واحد فقط ، وكأنه المنبع لماء الحياة ، فإذا نضب بالهجر ، هاج بنا الإباء وهات يا صعود: صقورا متعالين حتى الموت !!.

فالهجر تخف حدته ويأخذ حجمه الموضوعى ، ووقته المحدود إذا كان ثمة بديل جاهز للتعويض والتخفيف ، وهذا ليس ضد الوفاء والإخلاص كما يدعى الأخلاقيون المثاليون المسطحون الذين يعتبرون الصداقة ملكية خاصة ، وأنه كلما ضاق نطاقها ، تعتقت نكهتها ، نعم؛ على الانسان أن يتعمق ويتحمل ويستمر ، ولكن عليه أيضا أن ينمى قدرته على المصادقة بلا تردد ومن كل مصدر .

خدلك من كل بلد صاحب

٧ – ولا بأس من بعض الصفقات الصغيرة ، بل والكبيرة مما لا يعيب الصداقة ، فـ :

الرغيف المقمر للصاحب اللى يدور

وما المانع من أن من يبحث عنى ويسأل ويترقب ، ما المانع أن أختصه بأطيب العطاء فى مقابل ذلك .

٨- والإنسان إذا ما تيقن من انعدام الحنان فى علاقة الصداقة القائمة ، وظل فى نفس الوقت مصرا على ضرورة الصداقة إذ لا بديل فإنه "يركب الصعب" إذ يستحيل أن يستغنى عن هذا الخل الغريب:

وكيف نعيش بغير حنان

وصفو حديث حبيب لخل(٩)

نعم كيف نعيش بغير حنان؟ فلنصطنعه إصطناعا ولو من غير مصدره ولو من عدو ، من يدرى ، وهنا يقفز مثل صعب يقول :

من قلة الحنية بتنا على جفا

وخدنا من بيت العدو حبيب

وهى مغامرة محسوبة ، أفضل من العزلة والصقرية ذات الاستعلاء المتكبر ، ثم من يدرى ، ألا يجوز أنه باتخاذ الحبيب من الأعداء نكتشف فيه الجانب الآخر ، فننضج بمسئولية أروع ، أم أننا سنظل ملتحفين بحاجتنا إلى توظيف العدو كمسقط لعدواننا حتى ولو لم يكن هو المسئول عن إثارة هذا العدوان؟ إن القائل بأنه :

"نهار العدو ما يصفى يخفى"

إنما يعنى أيضا أنه بذلك قد فقد مهمته لى كعدو ، فلم يعد بى حاجة إليه ، كمسقط لعدوانى وكأنى كنت أحافظ على كيانى باستمرار عداوته .

ومهما يكن من أمر ، فإن الحرص على العلاقة مع الآخر ، بالعداء أو بالصداقة هو حرص واجب ورائع فيما هو انسان وهو أفضل ألف مرة من العزلة والانسحاب المتعالى ، وقد يكون اتخاذ العدو حبيبا هو من باب انتظار الفرج حتى يظهر صديق جديد يلبى الحاجة بحق فى الوقت المناسب ، وإذا كنا رضينا أن نتخذ من بيت العدو حبيبا ، فمن باب أولى علينا أن نقبل صديقا مؤقتا بكل ما فيه ، حتى نعثر على الصديق الصدوق الذى نتخيله. ألا يقول مثلنا العامى فى مثل هذا التأجيل الإيجابى المحسوب :

تجمز بالجميز (١٠) حتى يأتيك التين

ليكن هذا أو ذاك ، لكن كلا الاحتمالين هو صراع ضد احتمال الهرب إلى أعلى ، مهما أغرتنا لمعة القمة المنعزلة ، فهى لمعة الجليد الأملس المجمد .

٩ – فإذا لم ينفع كل ذلك ، وظل سيف الهجر مسلطا حاسما مهددا ، فلا بأس من انسحاب اختيارى (مؤقت بالضرورة) ، مادام الإصرار على رفض العزلة قائماً بهذا الوضوح وما دامت البدائل بهذه الوفرة ، فإنه فى النهاية يقول المثل :

مِنْ سابك سيبه

من فاتك فوته

حتى إذا وصل الأمر إلى الهجر غير الجميل ، فقد يكون الرد بالمثل ، مهما بلغت قذارته ، فهو أفضل من حيث المساواة واستمرار الحوار ، أفضل من تلك العزلة الاستعلائية فليكن حتى لو لجأنا إلى المثل القائل :

من شخ عليك شخ عليه واهى كلها نجاسة

والمسألة هنا ليست تصعيدا للموقف ، وإن كان كل ذلك محتملا ، لكنها أيضا معاملة الأنداد ، وهذا أرحم من الحكم الفوقى بأن الخصم "رمّة" لا يستأهل ، وبديهى أنه لا تعميم فى مسألة "كلها نجاسة" ولكنى جئت بهذا المثل على قبح ما فيه لأعلن أن حوارا يجرى ، حتى بتبادل الأقذار ، هو أفضل من الانسحاب المتعالى .

الهوامش

(١) الأصل الوارد فى كتاب الأغنية الشعبية للدكتور أحمد على مرسى (دار المعارف ، ١٩٨٣) ص١٨٣ مكتوب فيها القاف جيما غير معطشة (باللهجة الصعيدية) فقلبناها للتسهيل قافا ونطقها الأصح ألف مهموزة فى معظم اللهجات العامية الأخرى وذلك فى "يقن" وفى "الصقر" وفى "يقعد" ، وأصلها يجّن ، الصجر ، يجعد "فعذرا".

(٢) جمع هـمّه ، ورمـّة علـّى التوالى.

(٣) يقال لها عادة البارنوية وهى ليست مرضا ورحم الله أستاذنا العقاد.

(٤) وربما النورس عند الغرب ، مع الافتقار إلى قوة الانقضاض ومهارة الصيد والاتفاق فى العلو والوحدة.

(٥) الرمة: العظام البالية (بالعربية)- ولكن المقصود هنا فى الأغلب هو الجثة النتنة بالعامية.

(٦) آنيه: أى مقتنيه أى من يملكه ويعوله ، وهو تعبير شائع فى العامية ويطلق على المرأة فى السباب معايرة لزوجها وإلزاما له بأن يتحملها ، أو إشارة إلى ذوقه الذى انتقاها فى قولهم "روحى كتك داهية فيكى وفى اللى آنيكى".

(٧) عمر بن أبى ربيعة.

(٨) سر اللعبة: دراسة فى علم السيكوباثولوجى للكاتب.

(٩) من شعر الكاتب القديم جدا.

(١٠) الجميز نوع رخيص من التين ، أقل حلاوة وأمسخ طعما ، وثمره كان متاحا بالمجان للغالبية فى الريف المصرى ، حتى لو لم يكونوا من مالكيه مثل شجر التوت على الزراعية أحيانا.

٥- فصل فى مواجهة الواقع ، ومعانى الصبر

مقدمة : فى نقد الكشاف الموضوعى لكتاب الأمثال العامية: أحمد تيمور (باشا)"

أخيرا [١] صدرت طبعة جديدة من كتاب الأمثال العامية ، بقلم العلامة المحقق "أحمد تيمور باشا" عن مركز الأهرام للترجمة والنشر ، طبعة أنيقة ، وملحق بها إضافة جديدة قام بها المركز مشكورا ، وهى "الكشاف الموضوعى"(!) ومع تقديرنا لهذه الخطوة الجادة المفيدة ، فإننا نريد أن نتذكر ، ونتذاكر بعض الدلالات التى يوحى بها هذا العمل الرائد ، ومن ذلك :

أن هذا العمل ما زال أشمل وأوفى وأدق من أغلب (أو كل: حسب ما أعرف) ما صدر حديثا فى نفس الموضوع (الأمثال) ، رغم ظهور وسائل التسجيل الأحدث وتعدد أقسام "الدراسات الشعبية" فى الجامعات ، والمعاهد العليا المتخصصة.، ومع وفرة

الدراسات العليا.. الماجستيرات والدكتوراهات!!! الخ ، ولابد من الوقوف احتراما لهذا "الباشا" الذى اهتم "هكذا" بكلام "عامة" الناس البسطاء.

ولنتساءل عن القيم المتمثلة فى هذا العمل وهى "الإتقان" أساسا ثم "المثابرة" وهل يمكن إرجاعها–فقط–إلى جهد فردى يدل على "الانتماء" و"الأمانة" ، أم أنها صفة دالة عن ما هو أكثر ، وهل "التفرغ" الذى تتيحه سعة الرزق هو الذى ساعد على ذلك ، أم أنه الالتزام التلقائى بالوجود النافع للناس ، كل الناس؟ وأين مثل هذا التفرغ الآن بعد أن توارى "البديل الرسمى" الذى ظهر فى الستينات.

وماذا يفعل "باشوات" هذا الزمان الآن بنقودهم ووقتهم ، وماذا يعمل أساتذة اليوم بطلبتهم وتراثهم ؟

ثم نقول: إنه بعد صدور هذه الطبعة الجديدة أصبح لهذا الاجتهاد فى قراءة الأمثال مصدر منظم مبوب يحتاج لمراجعة وإعادة قراءة وسبر غور.. الخ .

وقد استعنت فى الفصل السابق بكشافه الموضوعى فى باب "صداقة" إلا أننا لاحظنا عدة ملاحظات كانت سببا فى التردد هذه المرة فى الاعتماد على نفس الكشاف بنفس الطريقة ، ولزم علينا أن نوصى بمراجعة هذا "الكشاف الموضوعى" .

فمثلا: ورد مثل :

"آدى السما وآدى الأرض" ،

ومثل

"اللى ما يروح الكوم ويتعفر لما يروح الحلة يتحسر"

ورد هذان المثلان فى الأمثلة المدرجة تحت "الصبر"– وقد راودتنى الشكوك حول أحقية هذين المثلين (وغيرهما) فى هذا الوضع (الصبر) ، فرحت أراجع شرح تيمور باشا الملحق بكل مثل ، فوجدت كلمة "الصبر" قد وردت–لفظا–فى شرحه ، ويبدو أن هذا هو المبرر لهذه الفهرسة هكذا ، وربما تم ذلك بوسائل "كمبيوتورية" أحدث ، لكن مجرد الاعتماد على ورود كلمة "الصبر"

دون النظر فى السياق ودون الرجوع إلى نص المثل أساسا ، لا يكفى ، ففى المثل الأول يقول المحقق :

يضرب (المثل) لمن يطلب المستحيل ، ويكثر ضربه عند فقد الأولاد للتسلية والحث على الصبر....

فهنا نلاحظ أن المحقق أورد "رأيه" فى المثل وأين يكثر ضربه ، وهذا لا يكفى (مع شكره و احترام رأيه بداهة) ، ثم إنه أورد عبارة "للحث على الصبر" ، والمثل الذى يحث على شىء ، غير الذى يدل عليه ، فمثلا لا نستطيع أن ندرج نفس هذا المثل تحت باب يسمى "التسلية" لمجرد أن من رأى المؤلف أنه يضرب للتسلية (وهو يعنى السلوى). ومن عمق آخر نجد أن رأى المؤلف يتضمن وجهة نظر جيدة ، وإن كانت غير مباشرة ، فالمثل هكذا (آدى السما وآدى الأرض) هو دعوة مباشرة لمواجهة الواقع "كما هو" – وهذا يتضمن ويتطلب "صبرا ما"– لكن مواجهة الواقع تتكرر فى أمثلة بلا حصر ، وهى قد تواكب الصبر .

"إن صبرتم أجرتم وأمر الله نافذ

وان ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ"..

وقد لا تواكب الصبر مثل :

"آدى الله وآدى حكمته"

و"آدى الجمل وآدى الجمال".

بل إن الدعوة إلى مواجهة الواقع قد تواكب الحسم الفورى وعدم التأجيل مع قبول التمادى فى الدور المختار: مثل:

"إللى بدّك تقضيه امضيه ،

واللى عايز ترهنه بيعه

واللى بدك تخدمه طيعه"

فالسياق فى مثل هذه الأمور أهم من مورد اللفظ أو العبارة.

والمثل الثانى (اللى ما يروح الكوم ويتعفر.....الخ) هو دعوة إلى الجد والعمل قبل أن يكون دعوة إلى الصبر ، إن كان دعوة إلى الصبر أصلا كما سنرى ، ذلك لأن تعبير "يصبر على (التعفير)" لا

يفيد الصبر بمعنى التحمل والتأجيل بقدر ما يفيد معنى اختراق المشاق مع ضبط الانفعال المعوق ، مما يشمل الكفاح والخشونة والعرق والاجتهاد ، وكل هذا قد يكون الجانب "الفعال" الإيجابى لما هو صبر "على" ، وربما هذا ما برر إدراجه تحت ما هو "الصبر" ، ولكنه ليس مبررا كافيا من وجهة نظرنا ، وذلك أن هذا المثل "اللى يروح الكوم ويتعفر..." أو " اللى عايز الجميلة يدفع مهرها" أو "لابد للشهد من إبر النحل"..الخ هو المقابل لقولنا "من جد وجد ، ومن زرع حصد" ، وبديهى أنه لا يتوارد إلى الذهن أى معنى للصبر-المعتاد-من خلال هذا التقابل السريع ، وليس من المستحسن أن نستسهل فرط التضمين هذا ونحن نحاول أن "نبوّب" هذا السفر الضخم ، اللهم إلا إذا شمل تفاصيل وتفاسير أكثر فأكثر ، مثل أن نقسم الصبر إلى: الحث على الصبر ، الصبر على الفقد ، الصبر على المشقة ، الصبر التأمل ، الصبر المواجهة .

وبصفة عامة ، ليس من حقنا أن نلجأ إلى كلمة "صبر" بملحقاتها من حروف الجر خاصة كما وردت فى استعمالات اللغة

العربية الفصحى قبل أن نتعمق فى مضمونها فى اللغة العامية ، والعامة لا يتكلمون عن الصبر بالمعنى الإيجابى المكافحى الفعال ، بقدر ما يتكلمون عن صورته التحمّلية في شكل الانتظار وعدم الشكوى :

الصبر يا مبتلى أفضل من الهذيان

وافضل من الحج وافضل من صيام رمضان

وصبر أيوب هو النموذج الشائع لمضمون الكلمة عند العامة ، و كـذلك يشـير البحـث عن الصبر عند العطار ، وإلى متى الإنتظـار (يا عطارين دلونى....الصبر فين ألاقيه) . وثمة افتقاد لشجر الصبر وقت البلاء وفقد الود :

يا زارع الصبر هوا الصبر شجره قل

ولا سواقى الوداد شحت وماءها قل

وبيتا الشعر الفصيح ، يرددها العامة أحيانا بالفصحى :

سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى

وأصبر حتى يأذن الله فى أمرى

وأصبر حتى يعلم الصبر أننى

صبرت على شيء أمّر من الصبر

وهو قريب من المعنى الذى يقوله الموّال :

الصبر من كتر صبرى اشتكى منى

الهوامش

(١) أحمد تيمور (١٩٨٦) الأمثال العامية.

مشروحة ومرتبة حسب الحرف الأول من المثل مع كشاف موضوعى.

الطبعة الرابعة مركز الأهرام للترجمة والنشر.

٦- فصل فى النفاق المحسوب
[التكّيف مطلوب!!]

يقول المثل :

"الإيد اللى ما تقدرش تقطعها بوسها"

ويقول تيمور (باشا) شارحا المرا د: حاسن القوى واخضع له مادمت عاجزا عنه، ثم يضيف: والعرب تقول فى هذا المعنى

"لاين إذا عزك من تخاشن" (انتهى).

ولنا هنا وقفة :

فهذا المثل قد يوحى بما نحب أن نشيعه عن ناسنا من اتهام بالجبن أو النفاق، ويبالغ فى هذا الاتهام أولئك الطفيليون الرومانسيون أو المحرضون المتحمسون، ولكن المثل فى عمقه إنما يعرى طبيعة بشرية أصيلة رغم خفائها، وقد دأبنا مؤخرا على أن نقلل من قيم "التكيف" أو "الملاينة" (تكتيكا أو بعد نظر) لحساب قيم "المثالية" البراقة، أو الأخلاق ذات البعد الأوحد المسطح، دون عمق واقعى مسئول ، قد نعزو ذلك إلى خلط واضح بين ما هو تشكل ،

بمعنى conformity وهو أن يصيغ الواحد منا نفسه كما يراد له تماما حتى يصبح "مقولباً" يتماثل مع من حوله بلا كيان ذاتى، وبين "التكيف" بمعنى adjustment وهو العملية التى تسمح للإنسان أن يعيش كائنا اجتماعيا متعاونا، متنازلا، فارضا ، مبدعا متلقيا ، وكل هذا يحتاج إلى درجة هائلة من مرونة ذاتية متفجرة ، **لا تخشى الظاهر لثقتها من صلابة الباطن وسلامة اتجاه المسيرة.**

وحين مرّ هذا المثل بوعيى، دعانى إلى أن أعيد النظر فى هذه الأمور فواجهت عدّة قضايا كما يلى:

١- إن أحد الأساسات المبدئية فى علاقة البشر بعضهم ببعض هو مبدأ الكر والفر فى حرب العلاقات: المعلنة والخفية، وإذا كنّا ننبه أن "الآخر" "**ليس جحيما**" كما يقول غلاة الفكر الانفرادى، فنحن نعترف فى نفس الوقت أنه ليس **نعيما** كما يقول غلاة الطفلية الرومانسية ، "فالآخر" هو "**التحدى والمواجهة**" وفى نفس الوقت هو "**الضرورة والتكامل**"– ورغم أن نقطة البداية فى العلاقة بالآخر هى الحرب المعلنة (الموقف البارنوى فى النمو)

فإن للحرب هذه أشكالا وألواناً، لكنها دائما ضرورية كخطوة أساسية نحو الحب، وربما أن المثل القائل:

لا محبة إلا بعد عداوة

كان يعنى هذا التسلسل بشكل أو بآخر.

والطفل لا يستطيع أن ينتقل إلى مرحلة "الحب" (وهو ما يتميز به الموقف الاكتئابى[1]) إلا إذا اجتاز مرحلة العدوان التى تعلمه **ماهية - التحدى فى مواجهة الآخر** (الأم فالأب على مسار النمو)، ثم هو يدرك من خلال الضرورة وعدم القدرة على (وكذلك عدم الرغبة فى) التخلص من الآخر: يدرك أن الآخر هو **"المقرر / المختلف / المفيد معا"** :

"مقرر" عليه، إذ لا بديل لوجوده ليكون الإنسان إنسانا أصلا

"مختلف" عنه: من واقع .

"أن صوابعك مش زى بعضها"

وهذا لا يشير فقط إلى طول إحداها وقصر الأخرى وإنما إلى إختلاف البصمة ضمنا .

وأن هذا الاختلاف "مفيد": إذ من خلاله تتكون الذات ويتواصل الحوار .

- ورحلة العلاقة بالآخر ليست سهلة أبدا، فالطفل المنفصل عن رحم أمه (بالعافية) دائم الحنين إلى العودة والاختفاء - حماية وأمنا - من مواجهة الآخر (أمه إبتداء) وهذا الحنين هو الموقف الشيزيدى[1].

لكنه لابد أن يكون فردا مستقلا فتتواصل المسيرة إلى الأمام "فتتخلق المسافة" بينه وبين أمه، وتبدأ معركة الكر والفر ، (الموقف البارنوى)[1] .

ثم سرعان ما يتبين الحاجة إلى الآخر رغم الحذر ، فتبدأ العلاقة وتنمو براعم ما يسمى الحب عادة بما يحمل من آلام وتهديد بالهجر وخوف من العدوان (الموقف الإكتئابى)[1] .

هذه هى المعركة الأولى مع الأم أساساً بإعتبارها مشروع "الآخر" الموضوعى .

ولكن ثمة معركة أخرى أكثر شيوعا وأكثر تحديدا، وهى معركة الطفل (الذكر خاصة) مع الأب خاصة، وهى ما تختزل أحيانا إلى

"عقدة أوديب" ، تلك العقدة التى بولغ فى تفسيراتها تفسيرات جنسية فرويدية فلسفية، إلا أن نظرة أخرى إلى هذه العلاقة يمكن أن تعلن تفسيرا مباشراً من حيث أن الوالد "آخر"، قوى، قاهر، فهو بهذه الصورة يمثل قمة ما هو آخر بمعنى "**التحدى والمواجهة**" – وبما أنها معركة حتمية بطبيعة التواجد البشرى على مسيرة النمو، فإن التفسيرات التحليلية الشائعة التى تتعلق "بالتنافس على الأم" يمكن أن تطرح جانباً بشكل أو بآخر ومآل هذه المعركة مع الأب يقع بين احتمالات ثلاث:

(أ) فإما أن يتوقف عندها ويظل فيها مدى الحياة: (وهذا ما نشاهده فى مسوخ "دون كيشوتات" أشباه الثوار الدائمين، الذين لا يستطيعون تبرير وجودهم إلا بصراع مع سلطة ما، وادعاء حرية ما، لا تتحقق أبدا بحيث لو اختفى مثل هذا العدو صاحب السلطة لاصطنعوا قائدا قاهرا ليحاربوه بلا انقطاع.

(ب) وإما أن يتقمص الطفل (النامى) هذا الآخر (الأب) القوى القاهر، فتختفى المعركة مؤقتا ولكن هذا الاختفاء (بالتقمص) هو عادة مرحلة مؤقتة تؤجل المواجهة لفترة ، فإذا دام التقمص فهو الجمود واضطراب الشخصية .

ثم يتحرك الكيان الطفلى من جديد حين يشتد العود النامى وتتكرر العملية: تقمص ——> فانفصال نسبى، ثم تقمص جديد ——> فانفصال جديد وهكذا، حتى يمكن الإنتقال إلى الإحتمال الثالث:

(جـ) وإما أن يعترف الطفل بدرجة ما من الوعى بتفاوت القوى، فيستسلم بدرجة ما من المناورة، ليتجنب الأوهام شبه الثورية (الحل أ) أو الجمود شبه التشكلى (الحل ب) وهذا الإعتراف (الوعى) بتفاوت القوى يتطلب إستسلاما شبه واع ، ومناورة محسوبة ، وتأجيل آمن ، بدلا من تقمص لا شعورى ، أو جمود خادع .

ومثل اليوم يدعو إلى هذه المناورة بما لا يدع مجالا لتسميتها نفاقا فحسب، يقول المثل مرة ثانية :

"الايد اللى ما تقدرش تقطعها بوسها"

فالتقبل هنا ليس بالضرورة رضوخا بقدر ما هو اعتراف بعجز مرحلى ، تمهيدا لتقوية منتظمة ، ثم معركة أكثر كفاءة .

على أن ثمة احتمالاً آخر يوحى به نفس المثل ، وهو أن هذا التقبيل قد يكون نوعا من العدوان السلبى (مثل جدل العبد والسيد)(٢) بمعنى أنه :

ما دمت تصر على أن أظل أنا الأضعف: فاحملنى (أيها الأقوى الغبى) وادفع ثمن استمرار عنفوانك "ياسيد"... الخ.

وفى الحالين يكون "الوعى" بهذا الضعف والتسليم هو سر القوة الخفية، وهو الدعوة للاستعداد، فهو تأجيل للمعركة بدلا من الاستمرار فى معركة بلا معركة (الحل أ) أو التمادى فى الخداع والإنكار (الحل ب) .

وقد تصورت يوما أن "كامب ديفيد" ، هى نوع من هذه المناورة النموية ، وحلمت-حتى اليقين-بأننا سوف نفعلها بمجرد أن نتمكن من هذه اليد التى عجزنا عن أن نقطعها "الآن" فقبلناها، كراهية وعدوانا، ثم قبلناها مناورة وحساباً ، وانتظارا ، ثم قبلناها تحديا وإذلالا ، ثم قبلناها تنافسا فتجاوزا (مثل المانيا واليابان مع الحلفاء!!) ثم إذا بنا لم نعد مضطرين إلى تقبيلها تحفزا وانقضاضا .

وكنت أتصور أن ذلك الفلاح العظيم داخل السادات يرسم لكل هذا بذكاء سبعة آلاف عام، ولم أستطع أن أتحقق من هذا الفرض لأن "ساداتا" آخر ، انتحر "ساداتي" الفلاح المصرى (اللئين!!!) فأجهض الأمل .

وعلى ذلك فالمسألة فى هذا المثل ليست ترويجا للنفاق كما يبدو من أول وهلة، وإنما هى وعى بالعدوان من "الآخر" الأقوى (مرحليا) ، واحترام للإمكانيات الحالية ، واستعمال للعدوان السلبى المنهك، ثم تحفز واستعداد للجولة القادمة .

وأحسب أن هذا ما يفعله الشعب المصرى طوال تاريخه مع طغاته ومحتليه .

وقد يكمل هذا المعنى ويوضحه (وإن ناقضه ظاهريا) مثل آخر يقول :

"اللى ما تقدرش توافقه نافقه".

فبالرغم من أن هذا المثل يبدو عكس الأول من حيث أن البداية لم تكن معركة (قطع اليد) فى حين أن النهاية بدت مماثلة (باعتبار أن بوس اليد يقابل النفاق) إلا أن النظرة الثانية تقول إن هذا المثل يوضح :

أولا : أن هذه الموافقة ليست هى النفاق، ولكنها تكاد تكون عكسه، فهى موافقة المحاور المجتهد للاقتناع، فإذا كان ذلك يعنى أن الانسانية فى مرحلة استعمال هذا المثل الجديد قد تطورت فلم تعد قاهرا ومقهورا، فإن الآخر يصبح رفيقا/خصما/ عدوا، فى آن، ويصبح الحوار بالتالى ممكنا، والموافقة محتملة، ومتى ثبت – مرحليا – أنه حوار كاذب (ديمقراطية صورية) فقد لزم اللجوء إلى نفس المناورة السابقة، فالديمقراطية الكاذبة تساوى القهر الصريح سواء بسواء .

فإذا تصورنا التحام المثلين فى تكامل، فلنا أن نتصور العلاقة النموية البشرية وهى تتدرج على النحو التالى :

(أ) محاولة للتفاهم: الحوار الحقيقى (الموافقة) .

(ب) عجز عن التفاهم: عادة نتيجة محاولة للقهر من جانب الأقوى ، والرد بمحاولة البتر (قطع اليد) من جانب الأضعف (حالا).

(جـ) إدراك "فرق القوى" (مرحلى) .

(د) تكتيك النفاق أو "بوس" اليد (مرحلى)

(هـ) عودة إلى المحاولة "الموافقة" بالمعنى الذى ذهبنا إليه، وهو المعنى الذى يدل عليه استعمال نفس الكلمة فى مثل آخر بطريقة دالة :

"اللى ترافقه وافقه"

فالرفيق هنا ليس هو الآخر (التحدى/المواجهة، فحسب، لكنه المحاوِر (المختلف المكمّل)-وفرق بين قولهم "اللى ترافقه وافقه" وبين "اللى بدك تخدمه طيعه"

بما لا يحتاج إلى تعليق.

كما قد يؤكد ما ذهبنا إليه عامة، ذلك المثل الآخر الذى يقول:

"اللى ما تقدرش عليه،
فارقه أو بوس إيده"

وهكذا نرى أن قطع اليد (البتر) فى المثل الأول هو المرادف للمفارقة فى هذا المثل ، فإذا استحال الفراق ، فقد يكون لزاما أن نقبل الخضوع لظروف ضرورة الواقع ولو مرحليا .

وشتان بين تقبيل اليد هذا، أو النفاق الواعى، احتراما للواقع ، واستعدادا للانقضاض ، وبين استسلام مهين، أو مثالية عاجزة، تتجسد فى مثل آخر يقول :

"اللى يربط فى رقبته حبل، ألف مين يسحبه"

و هذا هو نقيض بوس اليد الواعى، تكتيكا ومواجهة، لأن هذا الموقف الذى يشير إليه هذا المثل الأخير هو تسليم بدئى يتم بتنازل مسبق وانسحاب قبل المواجهة (١٩٦٧!!) وهو انسحاب (الحبل الجاهز للسحب) ليس فيه "آخر" (التحدى المواجهة) بل هو ردة إلى الذات، و"مونولوج" معها، وضياع فى أوهام سلبية.

وقد استقبلت–ربما خطأ– أن هذا الحبل قد لا يكون بالضرورة تراجع معلن، وإنما هو قد يكون وهما بثورة زائفة، أو تلويحا بسلاح مخزون حتى يصدأ، أو صياحا فى خطبة معادة، أو تباهيا بنفط مهدر، أو ذلا فى قرش مستودع عند عدو، فكل هذه حبال خفية مربوطة فى رقاب فاقدى الوعى بشكل أو بآخر، ونحن الذين نعلقها فى رقابنا ابتداءً، ثم نلومهم على أنهم سحبونا منها .

الهوامش

(١) كلمة موقف Position لا تشير إلى الاكتئاب نفسه، ولكنها تتعلق بمدرسة العلاقة بالموضوع - والموقف الاكتئابى هو موقف لاحق لكل من الموقفين الشيزيدى والبارنوى، الأول (الاكتئابى) يعلن علاقة ما، علاقة حب مشوب بالخوف من فقده، وبالتالى باعث على بعض الكره الحذِر، خوفا من التـَّرك، أما الموقف البارنوى وهو سابق للموقف الاكتئابى، فهو يعلن علاقة الكر والفر مع وجود آخر محدد المعالم ولكنّه يمثل التحدى واحتمال الإغارة، أما الموقف الشيزيدى وهو الموقف السابق للاثنين معا، فهو يعلن عدم وجود الآخر أصلاً وكل هذا لغة سيكوباثولوجية ليس لها علاقة مباشرة بنفس هذه الألفاظ المستعملة فى وصف شخصية ما أو اضطراب نفسى معين، فمن يعايش الموقف الاكتئابى ليس مكتئبا بالضرورة ، ومن لم يتجاوز الموقف البارنوى ليس بارانويا سلوكيا وهكذا.

٧- فصل فى الحرمان والشبع والطبقية

قراءة التراث مسئولية خطيرة، يقول صلاح جاهين "إفعل أى شيء تقرره، وستجد مثلا يبرره"وهو يعنى بذلك أن الأمثال يمكن أن تبرر الشيء ونقيضه ، وأى شيء، و وظيفة استخدامها لاحقة لا مرشدة أو هادية أو باعثا

وهو يدعونا بهذا التحدى أن نتوقف لنتساءل: **هل الأمثال تبريرية ، أم تقريرية ، أم تنبيهية ، أم توجيهية ، ؟**

هنا تقع مسئولية القراءة ، التى هى مسئولية **إبداع التراث بوعى يقظ .**

فيقال - من أبحاث أكاديمية "عظيمة" - أن نسبة كبيرة من أمثالنا تبرر الطبقية، أو تدافع عنها، فهل هذا صحيح؟ فإن صح، فهى معلومة خطيرة مؤلمة، لأنها مستوحاة من المثل الشعبى الذى لا يصدر بمرسوم فوقى، ثم إن هذا الفوق هم القلة التى نادرا ما "تقول"، وهى حتى لا تردد الأمثال، وإنما تسمعها، وقد لا تفهمها، إذن: كيف أن الغالبية من عامة الناس، تردد ما لا ينفع إلا القلة من عالم الفوق ؟ .

ألا يحتمل أن يكون هذا "التقرير للواقع" الذى يصدر من حدس الناس هو تذكرة مثيرة، وتحدّ جدلى صعب ؟

وموضوع اليوم يبدأ بمثل من أكثر الأمثال العامية إيلاما :

"إطعم مطعوم، ولا تطعم محروم".

فكيف بالله يقول لنا هذا المثل أن الذى عنده يأخذ ويُزاد، وأن الذى هو أولى بسبب حاجته وحرمانه، يُهمل ويحرم أكثر ؟

هناك احتمالات تكمن وراء هذا القول، لابد أن نواجهها قبل أن نتسرع بالرفض، أو بالتفسير السطحى، مثلا: احتمال أن الناس رضيت بالحرمان، أو احتمال أن المثل موضوع ومدسوس على العامة (من قبل أصحاب المصلحة) .. إلى آخر مثل ذلك .

ومع ذلك فما وراء المثل من أرضية يمكن أن يرجع إلى "حقائق" لا يصح هزها ابتداء، لمجرد أن نرضى عواطف المساواة ، ودعاوى العدل المناوراتى، نعم نبدأ بالحقائق، ثم نرى مسئوليتنا تجاهها .

فثمة معلومات من واقع الواقع، أو العلم الملاحظاتى، أو المنطق السليم تقول :

١- إن الذى لم ينل القدر الأساسى من أى حق، هو الذى قد لا يعرف أن هذا هو حقه أصلا، لا يعرف، المطالبة به .

٢- وإن الذى لم يعرف، لم يذق، فإذا ما أعطى من هذا الذى لم يعرفه، ولم يطعمه (فيستطعمه) فإنه إما ألا ينتفع به أصلا ، أو أنه سيستهين به جهلا، أو أنه يضعه فى غير موضعه نشازا ، فيثبت فى جميع الأحوال أنه لا يستأهله، وبالتالى لا داعى لإعطائه "منه" [لا تضع طعامك أمام الخنازير، فإنها تدوسه] .

٣- أو أن الذى حرم "جدا"، إذا أعطى بعد فوات الأوان ، فإنه لا يشبع (لا النافية) ، فيظل يأخذ بلا نهاية، وهذا ما سبق أن أشرنا اليه وبما أسميناه الوجود المثقوب (إذ قد ألتهم الواحد منكم تلو الآخر.... دون شبع) ، (من فرط الجوع التهم الطفل الطفل..) (١) . كل هذا جائز، وهو أحد وجوه الواقع (المر) .

ولكن هل يعنى ذلك أن نحرم صاحب الحق من حقه لأنه لا يعرفه ؟ أو لا يطالب به، أو لا يستطعمه ؟

إن هذه الدعوى تجرنا إلى مقاومة الحكم المطلق على العامة (مثلا) : "إيش عرفهم فى الحرية" أو مقولة بعض المستغلين عن

ضحاياهم ، "لا تعطهم حتى لا تفتح عيونهم"..الخ – وكل هذا لا يفعل إلا أنه يزيد من ظلم واقع، ليس للمظلوم إسهام فى نشأته ، فقد لحق به الظلم وهو ضعيف صغير لا يستطيع أن يدفعه أصلا ، فهو، لم يعرف أصلا أن له حقاً حتى يقول "أريده" .

ولكن دعونا نتعمق فى استجابة المحروم لحرمانه فنقرأ المثل من جديد فنعيد القول مستشهدين بأمثلة أخرى ما أمكن :

(١) قد لا يدرك المحروم أصلا طعم ما يحتاج إليه كما ذكرنا، وقد يعبر عن ذلك، أو يعيرونه بذلك :إن المحروم فعلا .

"إيش عرف الفلاح فى أكل التفاح"

والأصعب والأقسى،

"إيش عرف الحمير فى أكل الزنجبيل"(٢).

(٢) وقد يستغنى المحروم عن حاجته أصلا، ما دام ليس عنده "الثمن"، بل إنه قد لا يدرك حقيقة الثمن ، رغم إدراكه ملامح "الحاجة" وهنا يعلن بكبرياء الرضا ، وإباء المستكفى (ولو رغم أنفه) أنه :

اللى ممعاهوش ما يلزموش

فهو يرفض قبل أن يُرفض، بما يوازى أنه

"إن فات عليك الغصب، إعمله جوده".

وهذه الدرجة هى درجة أعلى وأكرم، من إلغاء الحاجة أصلا، لأن المحروم هنا يلغى الطلب بلا جدوى، ويلغى إعلان الحاجة، ولكنه لا يلغى الاحتياج ذاته.

(٣) وقد يكملها المحروم المحتاج بألا يكتفى بالاستغناء، بل إنه يتنازل عما له طوعا خانعا، وكأنه يكملها رضوخا للواقع:

"يخلى الميّه.. ميّة وواحد"

وهذه المهانة الذاتية في تعميق العبودية، قد تحمل نوعا من التحدى بالعبودية مما يذكرنا، مرة أخرى، بجدل العبد والسيد عند هيجل، فكلما إزداد العبد عبودية، إزداد السيد وحدة.. فموتا، ومهما يكن من أمر الاستسلام المتحدى، فهو مرحلى بحكم الضرورة، وإذا كان التمادى فيه خطر التأجيل، فإن به مزية رفض "الحل الوسط" الذى يوهم العبد بعدم العبودية تحت رشاوى تخديرية مشبوهة، وكثير من الأمثال يعلن هذا التمادى فى التنازل

لدرجة نستشعر معها أن المسألة ليست تنازلا ذليلا ، بل تحديا خفيا :

"طلب الغنى شقفة، كسر الفقير زيره
كات الفقير وكسه، ياسوّ تدبيره"

ونحن لا نستسلم لوصم هذا السلوك بسوء التدبير، إلا على المستوى السطحى فحسب، أما من عمق آخر، فقد يصدق ما ذهبنا إليه من حكمة تعميق الواقع تحديا وإصرارا .

وفى نفس الإتجاه يقول مثل آخر:

"إذا شفت الفقير بيجرى
إعرف إنه بيقضى حاجة للغنى

(٤) وقد يتعامل المحروم مع حرمانه بالانتظار، سواء فرض عليه الانتظار من خارج بالوعود والتأجيل، أم أوهم نفسه به، بالصبر والتحمل. وكأن المحروم يحذر أكثر من مغبة الانتظار بلا جدوى، فما أمرّ أن يقول عن نفسه أن:

"موت يا حمار على ما يجيلك العليق" (٢).

فإذا كان هذا هو موقف المحروم من حرمانه، فما هو موقف المجتمع الأوسع من لعبة التمييز المتصاعد هذه ؟

للأسف، إن ظاهر المجتمع- إلا فى فترات التحول الثورى- يميل إلى الاستمرار مهما كانت المعادلة خاطئة، والقوى المتصارعة غير متكافئة، من مدخل :

"تحالف الناس والزمان، فحيث كان الزمان كانوا"

- وهذا ما يؤكده أمثال: مثل :

الغنى غنوا له، والفقير ايه يعملوا له"

أو "الغنى شكته شوكه، بقت البلد فى دوكه

والفقير قرصه تعبان قالوا بطلوا كلام".

كل ذلك تعميق وتثبيت لواقع صعب.

لكن يبدو من عمق آخر أن هذا كله موقف الظاهر لا أكثر و لا أقل، لأن حقوق الإنسان الأولية لما هو إنسانى تفرض نفسها، ولا تنتظر أن يطالب بها أهلها، "فالحق لمن يستحقه، وليس فقط لمن يطالب به"، والقياس بذلك مثلا أن الطفل لا يختار أن يتكلم الطفل لغة مفهومة، هذا حقه لأنها قدرته، فإذا حرم طفل منذ الولادة من أى صوت من الأصوات البشرية. فإنه لن ينطق أصلا، ولا يصح فى هذه الحالة أن نتصور أنه صنف آخر من البشر لا يصح أن ينطق

حتى يطالب- بنفسه- بحق النطق، وعلى نفس القياس، فان ذلك الأمى الذى لا يعرف القراءة والكتابة، إذا أعطيته كتابا "هدية" فإما أنك تسخر منه أو تتعالى عليه، أو تعايره، لأنه لن يستعمله أصلا، إذ هو لن يفك رموزه ابتداء، فلن يستفيد منه بداهة، أما ذلك الذى يقرأ ويكتب (الذى تعلم كيف يقرأ ويكتب لأنه كانت لديه الفرصة) فإنك إذا أعطيته كتابا، فقد يقرأه، وقد لا يقرأه. فإذا جاء أحدهم وقال لك: لا تعط الأمى كتابا، فهو لا يقرر واقعا دائما، وإنما هو ينبه إلى نسيانك مرحلة أسبق وألزم وكأنه يقول "علم الأمى القراءة قبل أن تعطيه كتابا".

ولعل هذا ما يعلنه هذا المثل المؤلم فى عمقه الحقيقى.

أى أنه يعلن أن من تجاوز الانتباه إلى ضرورة تكافؤ الفرص المبدئية الأولية ، فإنه لا ينبغى أن يتمادى فى ادعاء المساواة، حتى إذا عجز المحروم أن يستعمل، أو يستطعم ، أو يتفهم طبيعة ما حرم منه أساسا ، قيل إنه هو الذى استغنى عنه ، وأنه بالتالى لا يستحقه .

وكأن هذا المثل المحورى فى هذا الفصل "إطعم مطعوم، ولا تطعم محروم" هو مجرد إعلان لمستوى معين من الوجود الطبقى ، فهو يعرّى نتيجة ظلم سابق، ولكنه أبدا لا يرسى قاعدة ولا يرضخ لواقع .

وعلى ذلك فإذا كان هذا المثل الشعبى يعلن حقيقة ما، وأنها نقطة بداية فحسب، وتذكرة لما كان ينبغى أن يكون فى "الوقت المناسب" أى أنه ما كان للمحروم أن يحرم لدرجة تصل به ألا ينفع له عطاء بعد ذلك، وما لم نأخذ هذا المثل بهذا المنطق، فنحن نتهم المثل أنه يؤكد أن يظل المحروم محروما ، والمطعوم مطعوما إلى ما لا نهاية .

فتعالوا نبحث عن صحة إيجابية تفسير هذا المثل من واقعه، ومما يواكبه معا.

فالحدس الشعبى لم يقل أن تطعم شبعانا، بل مطعوما، والمطعوم هو الذى استطعم الشىء حتى تذوقه فعرف قدره، فهو يقدره إذا ما أعطيه، فيضعه فى مكانه، وينتفع به إذ ينفع به، لأن

من استطعم الشىء الذى ميزه انسانا، لا يستطيع أن يعيش مكتفيا بحق منفرد هكذا، بل هو أحوج ما يكون إلى أن يتيح الفرصة لغيره، بما أعطى فيعطى، حتى تتسع دائرة إنسانيته ، وهذه التفرقة هى التى تظهر حين نتذكر أن المثل لم يقل "أطعم شبعانا" وإنما قال اطعم مطعوماً أما الشبعان فقد نهى عن إطعامه إذ يقول : "الأكل فى الشبعان خساره"

لأن الشبعان الذى يقبل أن يأكل بعد الشبع، هو الخطر الأكيد على دائرة العطاء الدائمة التوليد للدوائر التالية، لأنه يمثل دوامة تدفع إلى القاع، ولعل هذا الشبعان الذى لا يشبع (لا النافية)، أو الذى إذا شبع لا يفيض على غيره من ناتج ارتوائه، وإنما يغوص فى دوامته الذاتية، هو الخسيس الذى يعنيه الموال:

أصل الخسيس لو شبع زى السباخ لو زاد
بيتلف الأرض و لا بتجبش زرعتها

وهنا تنبيه جديد إلى أن للعطاء حدوداً ، وحدوده هو حاجة الفرد إلى الآخر، وحاجة المعطى للعطاء فى نفس الوقت، ثم قدرته على الفيض بهذا العطاء، ثم نوع وقدر عائده عليه و على غيره، وقد

يكون المطعوم هو الذى أخذ أكثر من حاجته، فى حين أن الشبعان (دون استطعام) لا يهمه إلا أن يلتهم ويلتهم حتى يغمى عليه ، إذ لا يستطيع أن يتوسط أو أن يكف عن الاستزادة حتى لو كانت الزيادة مفسدة: وهكذا يكمل الموال :

والملح حسن الطعام وبيفسده لو زاد

وشجرة ما فيهاش ثمر يا سوء زرعتها

فالإطعام له حدود ، ووظيفة ، وجرعة مناسبة ، وإن لم يساهم إطعام المطعوم فى التقليل من عدد المحرومين باستمرار ، فلا جدوى منه ، لأن العطاء والعمل والزرع والكلمة، كلها تقيّم بعائدها على دوائر الأكثر فالأكثر من البشر الأحوج فالأحوج:

عمل مافيهش أمل يبقى بلاش منّه

وشجر ما فيهش ثمر برضه بلاش منّه

وخلف ما فيهش نفع غوّر بلاش منّه

ورغم كل ذلك، فالحدس الشعبى منتبه تماما إلى أن المسألة ليست مجرد "دعوة" تقول لمن يأخذ: أن يعطى، ففى فترات "عدم

الأمان العام" و"الاغتراب الفردى" الذى يثير التنافس حتى الغل، لا نتوقع لا من المطعوم و لا من المحروم خيرا، الأول قد ينسى طعم ما طعم حتى يصبح شبعانا (خسيسا) لا يشبع، والثانى قد يفقد الأمل فى أي حق، حتى يتنازل حتى عن بعض ما فاض عليه من فضلات، ويتفكك الناس عن بعضهم تفككا يعلن موت الكيان الاجتماعى بالعزلة، واللامشاركة:

خليك فى حالك بلاش اللف عالفاضى
ما عدش فيه حد يستحمل بلاوى حد

وهكذا تجهض مسيرة دوائر العطاء الحتمية التى تعطى للمجتمع صورته الإنسانية وتصبح القاعدة هى "نفسى ويعدى الطوفان" الا ما ندر.

فى الألف واحد ملان بيكب عالفاضى
والغل بحره اتسع أصبح مفيش له حد

وقبل أن نوجز ما ذهبنا اليه ، نستأذن القارىء فى إعادة كتابة الموال "على بعضه" ، عله يقرأه بنفسه لنفسه "معا" دون تدخل ، ثم نرى :

أصل الخسيس لو شبع زى السباخ لو زاد
بيتلف الأرض و لا بتجبش زرعتها
والملح حسن الطعام..... و بيفسده لو زاد
وشجره ما فيهاش ثمر يا سوء زرعتها
عمل ما فيهش أمل يبقى بلاش منّه
وخلف ما فيهش نفع، غوّر بلاش منه
فى الألف واحد ملان بيكُبّ عالفاضى
والغل بحره اتسع أصبح مفيش له حد

خلاصة القول :

إن المثل الشعبى لا يُقرأ وحده.

وإن التفرقة بين مضمون الكلمة والأخرى ، كلها فى سياقها، هام جدا، ففرق بين المطعوم والشبعان.

وإن المثل ليس – فقط – تقريرا لما نريد ، ولكنه تذكرة – أيضا – بما ينبغى ، فنحن لا نعلم كيف نشأ المثل ، ولكننا نعرف ، أو ينبغى أن نعرف ، أين يوضع ، ولماذا؟.. وإلا..

الهوامش

(١) دراسة فى علم السيكوباثولوجى (يحيى الرخاوى) ص٣٠٠.

وذات مرة قديمة باكرة، كتبت شعرا مباشرا يقول فى هذا المعنى:

"إيش يفهم فى الفنوة الأطرش؟

إيش يفهم فى الصورة الأعمى؟

إيش يفهم محروم من يومه، فى الحنّية، والذى منه؟"

"أغوار النفس"، يحيى الرخاوى، ١٩٧٨،ص١٩٧، دار الغد للثقافة والنشر.

(٢) الزنجبيل ، تنطق أحيانا الجنزبيل ، وهو شراب حار ، ثمنه فوق المتوسط ، يوجد عند العطارين ، ويقال أن له فوائد طبية متعددة ، ولا يشربه إلا الندرة، والمقصود هنا هو أنه شراب الخاصة من البشر . يشربونه فى ظروف خاصة ، ناهيك عن أكله .

(٣) عبرت عن خطورة موقف الانتظار هذا بصورة مباشرة :

"مش يمكن لعبة "إستنى" تفضل على طول ؟

القلب مقدد والجرح ممّـــــد ، فى الأرض الشوك ، والميّه عصير صبار" (المرجع السابق، ص١٩٨) .

٨- فصل فى قانون الواقع

"من الجبر والاختيار إلى الحسابات والتعلم"

موال:

عتبت عالوقت قال لى الوقت: إيه مالك

عمال بتبكى من الأيام، إيه مالك

اللى جرالك يكون فى الأصل إهمالك

عتبت ع الوقت قال لى الوقت: ونا مالى

أنا كل ما اعطيك تفضى الجيب، وأنا مالى (١)

إعمل لنفسك "**قانون**" وبطّل اهمالك

١- كتبنا فى الفصل الرابع ما يشير إلى علاقة المثل العامى **بأرض الواقع**، كما ننبه هنا- رغم الشائع - أن المثل العامى (كالموال) يقوم - من بعد معين - "بشد أذن" البنى آدم منّا حتى لا يمضى حياته نعّابا، قدريا، معتمدا، يشد أذنه ليذكره أنه "عيب عليه كذا!!".

وقد شاعت فى حياتنا مؤخرا الأمثلة القدرية ، والاستسلامية ، والتبريرية ، أو التى تبدو كذلك ، وقد انتشرت حتى أزاحت من الساحة الأمثلة العامية الواقعية والإيجابية غير التبريرية ، لذلك فعلى الدارس الأمين أن يهتم بشيوع أمثلة بذاتها فى أوقات بذاتها، لاأن يكتفى بالدراسة الكمية ، بتفسير تواتر أمثلة دون أخرى باعتبار عددها الذى يدور حول معنى بذاته ، فالأمثلة تظهر وتختفى من مخزون ذاكرة التاريخ بتنوعها وتناقضها ، ونحن الذين نختار من بينها ما يناسب ما نحن فيه الآن ، إذن فقيمتها ليست فى ذاتها بل فى وجودها "الجاهز" للظهور بحسب أحوال اليوم وما هو نحن-فلما شاعت فينا القدرية والتبعية والتسليم ، استدعينا ، وتذكرنا ، وكررنا أمثال القدرية والتبعية والتسليم. إذن فالعكس محتمل ، ولكن علينا- بعد ذلك وقبل ذلك- أن نعيد النظر فيما تصورناه سلبيا إذ يبرر القدرية والاعتمادية ، فقد "نقرأ" فيه "قولا" آخر من بعد آخر.

٢- وها هو ذا "الموال" الذى تصدّر هذا الفصل يقول ما يؤكد "الاختيار" فالمسئولية ، فاللوم والتقريع لمن أهمل أو تخلى عن

مسئوليته متهما الأيام والزمن ، ولكننا فى نفس الوقت سوف نرى ما يبدو عكس ذاك فى أمثلة أخرى ، وكأننا بعرض هذا التناقض الظاهر نواجه كيف تناول الوعى الشعبى هذه المسألة الفلسفية (الجبر والاختيار) بمنتهى الدقة والتكامل ، فالموال هنا قد أشهر فى وجوهنا المسطرة ، وهو يستعد ليلهب بسنها ظهور أيدينا معلناً أنه :

اللى جرى لك يكون فى الأصل إهمالك

لينتهى آمرا متوعدا أن :

إعمل لنفسك "قانون" وبطل اهمالك

فهو بذلك قد أكد على الاختيار والمسئولية ، وبالتالى على تحمل نتائج الإهمال كاملة غير منقوصة .

ثم ننظر بنفس الدهشة إلى الجانب الآخر فنجد عديدا من الأمثال تبدو وكأنها تؤكد عكس ذلك ، بمعنى أنها تكاد تفصل بين الفعل ونتائجه ، بحيث يبدو الناتج خاضعا لمتغيرات "أخرى" مضافة إلى الفعل ، أو حتى بديلا عنه .

يقول المثل (مثلا) :

إجرى يا ابن آدم جرى الوحوش
وغير رزقك لم (٢) تحوش

فيخيل إلينا أنه - بذلك - يوحى لنا أنه لا طائل وراء الجرى والاجتهاد ، ما دام الرزق مقدّورا ومقدرا ، ولكن النظرة الثانية والمتعمقة توحى لى بأنه ينهانا عن الجرى بل لعله يصر على أن نواصل الجرى ، حتى لو كان الرزق مقـدرا مسبقا ، ومحدد ابتداءً ، وكأنه يأمرنا بأن نجتهد إلى أقصى المدى-شريطة ألا نتصور-غرورا- أن جرينا مهما بلغ ، هو السبب "المباشر" للعائد منه ، **ذلك أن عائد الجرى لا يتوقف "فقط" على شدة الجرى وسرعته ، بل هو يتأثر حتما ، وربما أكثر ، بطبيعة الأرض التى نجرى عليها ، والطقس الذى نجرى فيه ، والرفيق الذى نجرى بجواره ، والآخر الذى نجرى فى عكس اتجاهه ، والآخر الذى يزاحمنا فى اتجاهنا.. ثم على المفاجآت التى تفوق حساباتنا.**

وكأن المثل إذ يؤكد على ضرورة الأخذ فى الأسباب بمنتهى الجدية والعرق ، يؤكد أيضا على ضـرورة التسـليم بالنتـائج ، لا

الاستسلام لها ، فالتسليم هو مبادرة بالتأهب لقرار جديد من واقع جديد ، والرزق-بالذات- له وضع خاص فى وعينا الشعبى ، إذ هو مرتبط بطبيعتنا الزراعية المتصلة بالمناخ وتقلباته وظروف الفيضان ومفاجآت الآفات ، ثم إن "الرزق" لا يعنى أساسا "كمّ الكسب" كما يطل فى وعى الغربيين ومقّلديهم المعاصرين ، لكنه يتطرق إلى **خصوصية الاكتفاء الآمن الدافع إلى الرضا الفاعل .**

فإذا كان الأمر كذلك ، وأصبح "الرزق" مرتبطا **بالوعى بطبيعة "العائد" وفاعليته للوجود الفردى المتميز** ، فإن هذا المثل يرشدنا إلى أن هذا "الرزق" (بهذا المعنى) يكاد ينفصل عن الجهد المبذول فيه ، وعن كم الفائض المغترب عن احتياج صاحبه ، وإن كان يتطلب كل الجهد ، ويستعمل كل المتاح-والمتأمل فى أصل كلمات "السبوبة" ، و"المتسبب" ، لابد أن يلحظ هذا الاستعمال الخاص لكلمة "السبب" ومشتقاتها ، **ليس بمعنى العامل المحدث للنتيجة ، وانما بمعنى "السبيل الميسر لجريان الأقدار فى مسارها"** فالبضاعة لدى المتسبب

(المتجول عادة) ليس لها قيمة فى ذاتها ، وإنما هى سبب يجرى من خلاله توصيل الرزق إلى صاحبه ، وبغيرها لا يصل الرزق ، وهى – فى ذاتها – لا تكفى لأن تكون مصدرا للرزق ، بل إنه من بعد آخر ، لابد أن نلحظ ما للرزق من قوة جاذبة فى ذاته ، يتوازى هذا مع قولهم :

كلّ لقمة تنادى أكالها

فهذا المثل– من حيث لا ندرى– يكشف عما يمكن أن يكون علاقة غائية كامنة فى معادلة "**السعى/الارتواء**" ، وكأن فى الهدف قوة موجّهة متناغمة مع السعى إليه ، وكأن التأكيد على الفعل المندفع (جرى الوحوش) لا يصح أن يغيب عنا تواكبه مع الجذب الغائى (المقدر) .

ثم أنظر معنا إلى كلمتى "**تنادى أكالها**" ، فاللقمة لا تذهب إليه ، فلا تعفيه من السعى إليها ، لكنها "**تناديه**"– وهكذا يتأكد لدينا ما تقصده هذه الأمثال من محاولة نفى "**المباشرة**" بين "**السعى**" و"**عائده**" ، دون الإقلال من قيمة السعى وضرورته ، ودون المبالغة فى فيضان الرزق سلبيا ، فإذا إنتقلنا خطوة أخرى

إلى أعلى لأمكن تصورنا ذلك القانون الأشمل الذى يضفر الجهد مع عائده فى إطار التكامل فى قانون يحتويهما معا ، وبذلك تنتفى هذه العلاقة المختزلة التى بالغ فى قيمتها غرور الانسان المعاصر بتملكه آلات الحساب بتركيزه على الجانب المادى من الانتاج ، وهكذا ينتفى التناقض بين تقريع الموال ، وبين هذا المثل العامى كما يبدو لأول وهلة.

لكن لابد لى أن أعترف أننى عثرت على مثل آخر ، كاد يستحيل أن أجد له كل هذا التأويل لكى أقلب سلبيته إيجابا ، فهو تحدٍّ صارخ يدعو إلى النوم (الكسل) فى كل الأحوال.

"إن اقبَلِتْ نام ، والنوم فيهـا تجــارة ،

وإن أدبَرِت نام والجرى فيها خسارة"

ولاستحالة تصديق أن هذا المثل يعنى ما توحى به ظاهر ألفاظه قد يكون المخرج الوحيد هو افتراض ضمنى - استعملناه كثيرا- بأن التمادى فى السلبيات هوالمخرج الحقيقى لتعريتها وإيقافها ، ليخرج منها عكسها وهو ما يسمى فى الفسيولوجيا: الكف بفرط الإثارة Supramaximum inhibition.

٣ – وثمة تناقض مع موال آخر يحتاج إلى وقفة أخرى فالموال إذ يدع\و إلى التخطيط تبعا لقانون يقينا من الإهمال يكاد يعارض – ولو ظاهريا – تلك الدعوة التى يدعو إليها المثل الآخر الذى يقول :

أحينى النهاردة وموتنى بكره

فرحت أتأمله أكثر ، إذ أقرأه (أعيشه) أعمق: فوجدته – ويا للمفاجأة – لا يطلب لذة عاجلة على حساب مكسب حقيقى آجل ، ولكنه يؤكد على ضرورة "الحياة" الآن ، حتى لو كان الموت هو حتم (أو تهديد) الغد ، فهو يعرى هذا الجزء من وجودنا الذى يؤجل "الحياة" ليربط بدايتها بتحقيق مكسب معين (شهادة ، مال ، سفر..الخ) فى حين أن السعى إلى الهدف وليس مجرد تحقيقه هو فى ذاته حياة ، فالحياة هى "الحركة إلى" وليست "الوصول عند"– فحين يرفض المثل تأجيل تعميق الحياة واستطعامها الآن ، تحت عنوان أنها سوف تأتى غدا ، وحين يغامر بأخذ الفرصة ، فيعيش ، الآن ، حتى لو "هددوه" بأنها

الفرصة "الأخيرة"؛ حين يفعل هذا وذاك يمسك بزمام المبادرة "فيعيش" "الآن" ، وهو هو "بكرة" حين يصبح "بكرة" هو "النهارده" باعتبار أن كل "بكرة" سوف يصبح "النهاردة" بمجرد أن نعيشه متى حل ، ثم يكون له "بكره" وهكذا ، وكأن **الوعى الشعبى** بذلك-**قد ضحك على الموت**؛ وكأنى بالمثل يرفض الاغتراب فى كذبة الوعد بالتأجيل ، تأجيل الحياة... لا تأجيل المكسب أو اللذة أو الارتواء ، هكذا قال لى المثل: إما حياة "الآن" أو لا حياة أبدا. وحتى يتضح المعنى أكثر فلنتصور عكس المثل: "أمتنى اليوم واحينى غدا" أنظر الخدعة والكذب ، إذ هل بعد "هذا" الموت حياة ، الحياة تولّد الحياة و"غدا" هو الذى عليه أن يتأجل لأنه لا يأتى فغدا هو: "النهارده" فى زمن آخر.

وثمة بعد آخر أحسست به من نبض المثل الأعمق وهو بعد التحدى ، فقد قرأت المثل بعد إضافة "ان كت جدع".

إحينى النهارده ، و موتنى بكره (إن كنت جدع)

هذا وقد سمعت الاستعمال المتعجل لهذا المثل فى موقف لا أنساه ، فمازلت أذكر جمال عبد الناصر وهو يعايرنى به (فى خطبة

له فى بورسعيد قبيل خيبة ٦٧ مباشرة) ، كان على ما أذكر يمن علينا بأنه يريد "أن يوظف الأولاد ويسكنهم ويزوجهم" (والأولاد هم الشعب فهو الوالد الأوحد التمام التمام) ، وأن ذلك يتطلب التأجيل والتخطيط ، ثم استشهد بهذا المثل يلومنا على استعماله ، كما تصور. بمعنى استعجال تحقيق اللذة الفورية ، ولن أدخل هنا فى شعورى تجاه وصايته ، واستهانته ، وكذبه ، بل أكتفى بأن أصف رفضى للتأجيل ، وخاصة تأجيل "ما هو حياة".

فقد اختزلت الحياة فى فكر هذه الفترة إلى ظاهر الحاجات الأولية ، حتى بدون أساس أو امتداد ، ولعل الفرق بين قراءة هذا المثل إيجابيا ، وبين قراءته سلبيا ، هو الفرق بين ما قد تعنيه كلمة "حياة" عند بعض الناس ، وما قد تعنى عكسه عند البعض الآخر ، ويبدو لى أن "المرحوم" كان من الذين يتصورون أن من يطلب "الحياة" الآن ، هو من قبيل من يطلب رفاهية لا لزوم لها حاليا ، حتى لو تضمن مطلبه مخاطرة مواجهة الموت غدا ، ولم أستبعد أن تكون المسألة برمتها إسقاط فى إسقاط (٣) ، وقد بدا لى أنى

أتصور أنهم برفضهم هذا المطلب (أحينى اليوم...الخ) إنما هم يختارون لنا العكس ، أى يميتونا اليوم بالاعتمادية ، والمكاسب المليئة بالحماس الأجوف ، وبظاهر بناء الشكل دون الجوهر ، لنموت غدا بالهزيمة وتقويض البناء بلا أساس ، يفعلون ذلك فى نفس الوقت الذى يعايرنى فيه المرحوم طيب الذكر بأنى قصير النظر حين أطلب الحياة اليوم ، نعم أماتونا أمس فمن يحيينا اليوم.. خاصة أن البديل الذى جاء من بعده ، كان- رغم ظاهر عكسه- هو الوجه الآخر لنفس العملة ؟ .

٣- ثم تناقض ثالث نواجهه ونحن نقرأ الموال ، وهو يوصى بعدم "تفضية الجيب" (أنا كل ما أعطيك تفضى الجيب ، وأنا مالى) فى حين نقرأ مثلا يقول العكس .

إصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب

وبالتمادى فى الدفاع عن الوعى الشعبى نرجح أن الصرف قد لا يكون مرادفا للتبذير (تفضّى) ، بل قد يشير إلى تنشيط حركة القرش بحفزه إلى مغامرة الصرف ، والتصرف ، حتى لو كان

العائد فى ضمير الغيب ، فتحريك رأس المال يحتاج دائما إلى إتخاذ قرار محفوف بالمخاطر حتما ، كما أنه لا يليق بنا أن نفهم كلمة "الغيب" كما يفهمها الغربيون ، باعتبار أن الغيب هو المجهول ، أو الخرافة ، أو الميتافيزيقا . ذلك أن الغيب فى الوعى الشرقى عامة ، والاسلامى خاصة ، هو "حقيقة" "الأخرى" مكملة وفاعلة ، وفى الإسلام يتقدم الإيمان بالغيب على الإيمان بتفاصيل أخرى ظاهرة للعيان ، فهذا الغيب هو الذى يرسل لى بديلاً عن ما صرفت ، بل مقابل ما صرفت فهو هو من قانون الحياة (الحركة) الغيب إذن ليس "سلبا" لما نعرف (كما هو عندهم) ولكنه "حقيقة" ما لا نعرف ، وبهذا التفسير يكون المثل دعوة إلى عدم "التخزين" ، ونهى عن حبس القرش فى الجيب ، أو تحت البلاطة ، خوفا من المجهول ، فهذه دعوة إلى الحياة والحركة اطمئنانا إلى أن الغيب هو فى جانبنا - جانب الحياة - وليس ضدنا ولا هو - دائما - متربص بنا . !!

وبهذه القراءة (المتحيزة حتما) لا نرى تناقضا حقيقيا بل تكاملا لقوانين الحياة ، وإصرارا على دوام الحركة والمسئولية معا .

٥- يقول الموال: إعمل لنفسك "قانون" - ونحن لا نتصور القانون الذى يوصى به الوعى **الشعبى للوقاية من الإهمال والاتكال والتبرير** - لا نتصوره قيدا على الحركة ، بقدر ما نتصوره وعيا متكاملا بالمتناقضات ، وقد حاولت-لاهيا فى البداية أن أستجيب للموال وأضع لنفسى "قانونا" مناسبا من واقع نبض الوعى الشعبى الذى يغمرنى الآن ، فجاءت صياغته على الوجه التالى:

قانون أحوالى الشخصية:

(حالة كونى أعيش هذا الموال)

أولا: تمهيد: بعد الإطلاع على هروبنا فى ادعاء المثالية ، وعلى التأجيل الممتد وأوهام التاريخ ، وعلى التخدير المنظم ، المقصود منه والعفوى ، ودون المساس بالقوانين الأطول عمرا ولا بالاستراتيجية الحركية ، المنطلقة ، يتنبه على شخصى الضعيف ، مما وصلنى من وعينا الشعبى ، بما هو آت :

ثانيا : نص القانون:

مادة (١) أن أنكسف على دمى ، وأحسم أمرى وأحدد وضعى: الآن وليس غدا.

مادة (٢) أن أقبل الممكن المتاح بشجاعة القادر المستمر الواثق من استراتيجية ممتدة.

مادة (٣) أن أنظر فى مرونة متحفزة إلى نتائج الخطوات المتوسطة أولا بأول ، محافظا على الإتجاه الأمامى مع التعلم الدائم.

ثالثا : المذكرة التفسيرية :

١- بالنسبة للمادة الأولى (الحسم والوضوح) :

فقد سبق أن أوردنا ما يؤكد ضرورة "الحسم" مهما كان الواقع مؤلما أوجائما وقد استشهدنا بالمثل :

"اللى بدك تمضيه اقضيه

واللى بدك ترهنه بيعه

واللى بدك تخدمه طيعه"

وبالنظر فى هذا المثل – فإننا نأتنس – تفسيرا للمادة الأولى – بالتأكيد على الحسم والوضوح "الآن" وليس بعد ، لكننا نحتاج إلى وقفة مؤلمة أمام "إللى بدك تخدمه طيعه" فلماذا أخدمه ولماذا أطيعه ؟ وأى حسم فى هذا ؟

وفى البداية نرى – كما ذكرنا سابقا– أن الاعتراف بالضعف هو الطريق إلى القوة ، وأن الطفل الذى ينافس أباه إبتداء ودائما ، لا ينمو أصلا ، وأخيرا فإن الأمر الواقع الذى يفرض أن يكون معنى الخدمة هى الطاعة المعلنة ، هو إعلان لطبيعة علاقة صعبة وربما ظالمة ، لكن هذا الإعلان فى ذاته هو بداية حركة جدلية تتجاوز مثل هذه الصعوبة ، وهذا الإعلان هو ضد العبودية السرية ، وأوهام المساواة ، فطاعة العبد للسيد إذا امتدت إلى مداها ، فهى إنما تحيى الجدل الهيجلى بين العبد والسيد ، وحين يتألم التابع من التبعية ، لابد وأن "يخطط" للتخلص منها ، وفى تصور تطبيقىّ : لو أننا إعترفنا بطبيعة المعونة الأمريكية (وقبل ذلك السوفيتية) – إعترافا صعبا شريفا ، لما صرفنا مليما فى إستهلاك أو رفاهية ،

بل فى إنتاج وبناء ، وهنا تصبح الطاعة مبعث الألم البانى دون الإختباء تحت لافتات التعاون الدولى وتبادل المصالح ، وهذا الألمَ هو الخليق بأن ينبه التابع إلى أن يوجّه قرش السيد إلى تحريره لا إلى تخديره ، وهذا ما يقوله ناسنا سبقا لكل علوم الإقتصاد المستحدثة :

إدّاين وازرع ولا تدّاين وتبلع

٢- بالنسبة للمادة الثانية : (الممكن المتاح للقادر الواثق)

لعل أصعب ما يعلمنا إياه المثل الشعبى ، هو هذا التواضع فى المطالب ، الذى لا يبرره ولا يؤمّنه إلا الوثوق بالقدرة المتنامية وحسن توجه الحركة ، مع اليقين بوصول الحق لأصحابه ، وفى هذ يتعارض "المثل الشعبى (عامة) مع **فعل الشعر**: فى اتجاهـ للاختراق المستحيل ، ولكنه تعارض مظهرى ومرحلى ، فقبول الممكن ليس بديلا ، عن طلب المستحيل ، ولكنه استعداد لخوض غمار المسئولية بقوة متنامية ، والأمثلة المؤكدة لذلك التفسير تتواتر - كما سبق الاشارة إليها - بلا حصر ، خذ عندك؛ مثلا :

١-إلعب بالمجرى [٤] لما يجيلك البندقى.

٢-إلعب بالمقصوص لما يجيلك الديوانى

٣-تجمـز بالجـميز حتـى يأتيك التين.

ولابد أن نلاحظ كلمة "إلعب" فى المثل الأول والثانى ، فهى ليسـت كلمـة "رضـا" أو "توقـف" ، ولكنها حركة شـطارة وتيقظ ، أما كلمة "تجمز" فهى منحوتة بلا معنى محدد لتترك لك أن تسقط عليها ما تشاء من معان ، المهم هو إرتباطها بكلمة جميز" أى أن تناول كل شىء يكـون بحسبه تمـامـا ، لا أكثر ولاأقل ، غير أنى أرجح أن القارىء لابد أن يشاركنى رفضا كثيرا أو قليلا لاستعمال أفعال "يجيلك" "يأتيك" فهى تعطى شعورا بأن "المسألة" فى يد "آخر" ، وأكثر منها أنها توصى بقبول الممكن للصبر عليه بلا شروط ، ولكن قد يخفف من هذا الشعور أن هذه الصيغة ترجح "حتمية" النتيجة ، أكثر مما تؤكد على انتظار "فاعل" قادم بالحل السـهل ، بمعنى أنه ما دمت قد رضيت ، وقدرت ، ولعبت ، وتحركت ، فى إطار الواقع الحالى ، فطبيعى أن ينتج منه

ما تريد ، يأتيك نتاجا لصبرك النشط ، وهذا ما يمكن أن أسميه: الانتظار الفاعل ، أو الصبر الحركى ، وهو نوع الصبر الذى هو على يقين من النتيجة النهائية ويتمثلها ويعلنها بهدوء وتحد مهما اختفت معالمها خلف سحب الشك وأوهام المثالية ، وهو الصبر الذى يزيح الدخيل من طريقه ، بالمقاومة السلبية ، والإهمال.

أصــبر على جارك السو

يا يرحل يا تجيله مصيبة تاخده

فالدخيل-محتلا أو حاكما ظالما- لا يبقى على قلب شعب رافض ، يقظ ، ساخر ، متحفز ، ولعل هذا الأسلوب الواثق ، مضروبا فى نتاج حصيلة الزمن الممتد ، هو سر ثبات الشعب المصرى فى مواجهة محتليه والمستبدين به على حد سواء (٥) ، وكأنى بهذا الشعب المصرى يجرب حكامه مثلما يجرب أحذيته ، وكأنى به يستعملهم وهم يتصورون العكس.

"إلبس خف واقلع خف لما يجيلك خف"

فصبر الشعب المصرى هو حركته فى الممكن المتاح ، وثقته بالحق الراسخ ، وصداقته للزمن الممتد ، الزمن الذى طوعه لإرادته

بترسيخه لفكرة الخلود ، وعظمة الهرم الأكبر – عندى – هو أنه ذلك الاعلان الماثل أمام وجدان البشرية أن وحدة الزمن عندنا ليست هى "ساعة الحظ" ، ولا "انتخابات الرياسة" ولكنها وحدة الحركة المتواصلة بين الأجيال ، بل بين الأحياء ، ولا أنكر أنه قد مرت بى أمثلة أخرى لا تطمئن ، ولا تسمح لى بالتمادى فى هذه الحماسة الدفاعية ، فليس من الصبر النشط ، ولا من التحفز "المتحرك فى الممكن" أن يقبع الواحد منا ساكنا فى كمون لا يستجيب الا لفعل فاعل خارجى ، كما يوحى المعنى الظاهر للمثل القائل:

خليك فى عشك لما ييجى حد ينشك

فإذا تماديت فى الدفاع ، واعذرونى ، لقراءة هذا المثل باعتبار أنه تحذير من فساد السكون ، وإنذار بأن الهرب الساكن لا يدوم ، إذ لابد سيأتى من يقتحمه ، فتواجه مصيرك بضعف الخائب ، ما لم تستعد لهذه اللحظة أو تغامر بالسبق إلى المبادرة ، ومن هذا المنطلق الدفاعى أقرأ هذا المثل هكذا .

خليـك فى عشـك ، (ولن تقدر) لأنه سوف يأتى – حتما – من ينشك (٦) .

٣- بالنسبة للمادة الثالثة : (مرونة التعلم ودوام التقدم)

وهنا أدرج فى المذكرة التفسيرية للقانون ما يكمل المادة الثانية ، إذ لا يجعل الإنتظار (بالحركة فى الممكن) آمنا لمجرد أنه يقظ أو متحفظ أو أنه خطوة ضمن استراتيجية طويلة معروفة ، ولكنه انتظار يحمل القدرة على التعلم من نتاج الخطوات الوسطى، والأهداف الجزئية ، فحين أتجمز بالجميز ، وألعب بالمجرى ، لا أفعل ذلك لاهيا أو مستلقيا مطمئنا إلى حسن النية وسلامة العاقبة ، فالتين لا يأتى ، والبندقى لا يظهر إلا من خلال الفعل المستمر مهما بدا صغيرا ، والتأكيد على ذلك – من الأمثلة العامية بلا حصر مثل:

الأرض مش شهاوى دى ضرب عالكلاوى(٧)

فالأرض هنا هى الزراعة ، والضرب على الكلاوى هو وجع الظهر من طول الانحناء الرى والعزق...الخ

والمسألة لا تحتاج فقط للجهد والتعب ، ولكن أيضا الحذق الماهر ، ماذا وإلا...

كما أن المسألة ، هذه المسألة بالذات ليست بالحظ بل هى بالجهد المثابر ، والرعاية المنتظمة.

كل شيء بالبـخت   إلا القلقاس مية وفحت (٧)

فإن تحقق الهدف الوسيط- بالجهد والتعب والحذق والمهارة- إستمرت المسيرة فى نفس الاتجاه ، وأسرعت الخطى ، وإن أخطأت الهدف فلا مفر من المراجعة بكل الألم والحرص على التعلم:

ا-إن طـاب لك ، طاب لك ،

وإن ما طـاب لك حـوّل طبلك .

ب - إن كان فى العمود عيب يبقى م الأساس .

جـ - إن كنتم نسيتوا اللى جرى ، هاتوا الدفاتر تتقرا .

ومع كل هذا التعلم بمرونة ، والتقدم بإصرار ، فلابد من تحديد علامات على الطريق حتى لا يسرقنا الزمن ، فالإنتظار المتحرك فى المكن لا ينبغى أن يسحبنا مخدرين إلى ما لا نهاية ، فثمة علامات تفرق بين إيجابية التحرك فى المكن ، وخدعة التأجيل العاجز .

إن كانت ندّت كانت ندت مالعصر

فالسماء الخالية تماما من السحاب الواعد ، في جو قائظ ، لا يرتجى منها- في بلادنا خاصة- أن ترسل الغيث بلا علامات ، وبالتالي فإن طال الإنتظار ولم تظهر العلامة (ولكل موقف علامة) فلا مفر من التغير والتحرك وإعادة الحساب .

وبعد

فلكلّ قانونه ، وتبريراته ، وهذا هو ما استوحيته من تراثي: ألتزم به ، وأفهم من خلاله من يشاركنى فى اتباعه ، وأحسب أنى أستجيب "لأمر" الموال من خلال استلهام وعينا الشعبى دون افتعال- وليس دون تحيز - .

وقد تصورت ، وأنا أكتب هنا هكذا: **أن المثل العامى - عندنا على الأقل - هو "قلب الواقع النابض" وهو الثقالة التى تربط أقدامنا بالأرض ، وهو - فى نفس الوقت - الطاقة الدافعة التى تحركنا على هذه الأرض (أرض الواقع) - ثم هو النذير الذى يطلق نفيره حين ننسى أو نطير أو نحلم .**

فمتى....؟ متى يكون "ذلك" "كذلك" ؟ .

الهوامش

(١) يقال أن أنا مالى هنا تفيد "أنا أملأ" (جيبك) وهى غير أنا مالى الأولى التى تعنى "ليس من شأنى" أن أتحمل مسئوليتك نيابة عنك ، وإن كان هذا التمييز ليس ضروريا دائما .

(٢) لاحظ استعمال حرف "لم" وليس "لن" للمستقبل .

(٣) حين تعرى قصر النظر بمصيبة ١٩٦٧ ، ثم بتعرية خراب البنية الأساسية ، أيقنت أكثر فأكثر احتمال صحة تفسيرى .

(٤) المجرى والمقصوص نوعان من الدنانير أدنى من البندقى والديوانى .

(٥) هناك مثل أقل تصويرا لهذه الثقة ، وأقل إشارة إلى إيجابية الصبر وإن كان يحمل نفس الاتجاه .

أصبرى يا ستيت لما يخليلك البيت

(٦) هذا إذا لم يكن هذا المثل يؤكد على فائدة الكمون الاختيارى ، وترجيحى أنه لا يفعل ذلك ، لأن الكمون الاختيارى لا يحتاج لمن يقطع حضانته (بأن يهشه)- لذلك فالموقف التحذيرى هو الأقرب للتفسير الذى أرتضيته ، وإن كان هناك مثل آخر أقرب إلى السكون والتسكين والإنسحاب يقول :

من خرج من داره يتـقّلّ مقداره

(٧) كتبت شعرا عاميا(موازيا) يخاطب إحدى الصديقات التى كانت تمارس نوعاً من الرقة المحبّه أزعجنى حتى الرفض ، قائلا :

والنظـره إللى بْتُغْمر الكـونْ بالحنـانْ مـن غير حسـاب

بتقـول: "حـرام.. ، يانـاس حرام ، أرض الشـراقى

مشققة جاهزه، بلاش نجرح شعورها بالسلاح..."

يا ناس يا هُوه!! بقى دا كلام ؟ بقى دا حنان ؟

"الزرع لازم يتروى" ، أيوه صحيح ، بس كمان.. الزر لازم

يتزرع أوّل ، ماذا وإلا البذرة حاتْنَبّتْ ويس .

. . . . . .

يا ست ياصـاحْبةْ بُحـــور الحـب والخيـر والحنـــان ، إوعــى

يكون حبك دا خـوف ، إوعى يكـون حبك "قلّة مافيـش" ،

إوعى يكون حبك طريقه للهرب من ماسـكة المحـرات ،

وصُحْيـانك بطـول الليـل لَيِغْـرق زرعنـــا .

٩ – فصل فى الهم والناس "مصرياً"

أكثر فأكثر ، بفعل إغارة الطب النفسى ، والرطان النفسى ، والأبحاث الأرقامية ، يصبح – للأسف – حديثنا عن الحزن ، ومعايشتنا للهم ، من الأمور المستوردة ، فنستعمل كلمة الاكتئاب بدلا من الحزن ، ونستعمل كلمة الإنقباض بدلا من الهم ، (أو بدلا من أن يقول أحدنا: أنه متنيل بستين نيلة!!!) ، وحين نحاول أن نبحث فى الفروق الحضارية نصيغ بحثا علميا بمنهج مستورد أيضا ، نسأل فيه الناس أسئلة ماسخة فيجيبوننا إجابات جوفاء ، والبادى أظلم ، ثم ننشر أبحاثنا فى مجلاتهم ، أو الـ "كنظام مجلاتهم" ، تحت عنـــوان ما هو "عبر الحضـــارات Cross Cultural ولا يعتنى العالم منا أو حتى المريض ، أن ينظر حوله (وخلفه وداخله) ليتعرف على جذور الحزن وحركية الهم ومداخل الغم وتداعيات "النيلة الغريقة" كما تظهر فى نبض الناس بلا تشويهات مسلسلاتية ، أو وصايا طبية ، أو علم نفسية .

وسوف نحاول فى هذا الفصل من هذا الباب أن نلقى بالرشاء إلى بئر الحدس الشعبى فى هذا الموضوع: موضوع الحزن فى عمق نبضه ، وكيف يعايشه الناس بأمثالهم التلقائية)

فلنسمع :

"باب الحزين معلم بطين"

وهذا أول إعلان لطبيعة الحزن إذا ما أعلن ، وظهر سلوكا ظاهرا معيقا لصاحبه ، منفرا منه مَنْحوله: لأن حضور هذا النكدى جاثم وثقيل.

وقد يحمل هذا المثل أيضا : فكرة وشم المرضى بمرضهم ، كما قد يكون حافزا ضمنيا لعدم التمادى فى الحزن إلى هذه الدرجة.

على أنه يبدو أن «لفظ الحزن» يرتبط بهذا الظاهر السلوكى أكثر من ارتباطه بالغم الداخلى المتغلغل حيث يوصف هذا الداخل أكثر فأكثر بالهم ، فحين يقول المثل:

"قلوب عليها دروب ، وقلوب مِالْهَم تدوب "

إنما يشير إلى علاقة الهم بتلك الرقة الشاعرية التى تنبض مع الأحداث وتواكب الآلام وتذوب تجاوبا وتفاعلا ، فى مقابل أولئك

الذين تبلدت مشـاعرهم إذ توارت وراء جدران اللامبالاة والجمود ، الأمر الشديد القرب من تعبير القرآن الكريم: "بل على قلوب أقفالها" .

وأصحاب الهم ، الذين يعيشون هذه الرقة المفرطة ، لا يخدعون بمظاهر الهم المبالغ فيها ، أو بظاهر الشكوى ، ونعابة الألفاظ ، وقد يكون من أكبر ما يجرح المهموم أن يشاركه آخر بغير مشاركة ، أو أن يسمع توجعا هزيلا من إنسان لا يعيش عمق ألم المعاناة ، وهنا يحتج عليه المثل :

"خل الهم لاصحابُهْ"

وهذا الإنسان الصادق الهم ، العظيم الألم ، قد يصبح فى قبضة رقة مشاعره ، وفرط تفاعله بطريقة متصاعدة يعجز إزاءها أن يوقف التيار ، أو يحد من التمادى بأن يلملم نفسه ويجمعها ، وهنا يقفز لفظ عامى شديد الحضور : "اللم" وهو لفظ له جذوره العربية (تنبو الحوادث عنه وهو ملموم) ، ويستعمل استعمالا ذكيا فى المثل والأغنية الشعبية :

إتبعزق وانا المّك(١) : يا غصن البان

فحين يحاول المهموم أن يلم همه فيتكاثر عليه يعلن أنه :

"هم ما يتلم"

ثم يأتى الشعور بالزمن للمحزون فيثاقل حتى يكاد يتوقف ، ويشـــعر المحزون بهذا البطء الجاثم كجزء لا يتجزأ من معاناته ، إلا أن هذا لا ينبغى أن يؤخذ بالمعنى الشائع: من أن المكتئب أو الحزين يصاب ببطء فى الحركة والإيقاع ، بل إن الأولى أن نرى هذا البطء الظاهر من وجهة نظر أخرى باعتباره زيادة فى حدة وعيه بالحركة من جهة ، فيرصدها بألم مفرط ، يرجو معه أن تسرع خطاها ، فلا تفعل ، لذلك هو يدرك تماما أن :

" السنة السودة خمستاشر شهر"

فهى خمسة عشر شهرا على الأقل ، لأنه يرصد حركتها بوعى يستعجل مرورها ، لعل الهم يزول ، أو على الأقل تقل حدته ، ونجد هذا المعنى فى الأصل العربى بأدق ما يمكن وصفه حين ننصت إلى امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علىّ بأنواع الهموم ليبتلى

ويتأكد هذا الإبطاء فى عند امرىء القيس حين يتمطى الليل

"... وأردف إعجازا وناء بكلكل"

والأجمل والأجثم حين رُبطت نجوم هذا الليل (بلا حراك)

"بأمراس كتانٍ إلى صـُمّ جندل"

هنا يصبح التعبير المصرى بالمثل العامى : "السنة السودة خمستاشر شهر" أخف وطأة وأسرع إيقاعا من شعر امرئ القيس هذا الذى يكاد يجمّد اللحظة من فرط الأسى والهم .

لكن المسألة ليست مسألة مقارنة زمنية لإبطاء الايقاع ، بقدر ما هى رسالة دالة على نفس المعنى فى الحالتين .

كذلك لا ينبغى أن نسارع باعتبار أن الهمود هو بالضرورة إشارة إلى مجرد الإبطاء إذ أنه أيضا ، وربما قبلا ، تعبير عما هو عجزٌ عن حمل ثقل الرؤية المتعلقة عادة بالوعى بتكاثر الهموم على قلب يذوب رقة ، فيتقطع هما: ففى العديد :

"أهِم ما قدر أهـم ، أكنى جمل تقل علىّ الحمل"

(لاحظ هناقرب فعل " أهم" من لفظ " الهم")

وقد يكون هذا العجز فى حالة الحزن ناتج عن الإعاقة الداخلية الناتجة بدورها عن فرط الرؤية ، وقد يكون ناتجا عن فرط الوعى بشماتة الناس وتخليهم ومعايرتهم ، فالقدرة موجودة لولا هؤلاء .

"وإن حمّلونى حمل الجمال الحمر ،

الحمل أشيله بس الكلام المر

وإن حمّلونى حمل الجمال البيض ،

الحمل أشيله بس الكلام يكيد"

وبدءا من هذا المنطلق نحاول أن نتقدم خطوة إلى علاقة الحزن (بما يسمى الاكتئاب) بمشاعر الشك والتوجس (ما يسمى البارانويا) ، فأصل الموقف الاكتئابى أن يلوم الإنسان نفسه ويحط من قدرها دون الناس ، "أنا مخطىء وأنت تمام التمام" Iam not O.K.you are O.K. حسب مقولة "إريك بيرن" .

وأصل الموقف البارنوى هو العكس أى الفرد يلوم الناس ويتوجس منهم ، وفى نفس الوقت هو يبرىء نفسه معليا من شأنها ، "أنا تمام التمام وأنت المخطىء" .I am O.K. you are not O.K ، لكن الخلط بين الموقفين شديد إذ قد يتبع أحدهما الآخر: فعلاقة المكتئب بالناس (بالموضوع) متعددة الأشكال :

فهو فى شدة معاناته يفكر فى ألم الشماتة ، وفرحة العدو :

"اتحرق الوش والقفا ، والعدو لسه ما اشتفى" (٢)

وأحيانا ما تصل المبالغة فى تشويه الذات وإيذائها إلى ما يشير- بشكل غير مباشر- إلى محاولة تقمص المعتدى وإرضائه بهذا التمادى فى التدنى ، نرى هذا فى أوقات المهانة الساحقة والتسليم المذل (قارن ما فعلناه بأنفسنا بعيد حرب ١٩٦٧ وهو أكبر مما فعله بنا العدو بشكل ما) .

وعلى العكس من ذلك فقد يخفى المكتئب حزنه ، إما مسايرة للناس ، وإما يأسا من مشاركتهم :

"السن للسن يضحك ، والقلب كله جرايح"

وهناك من الناحية المدرسية التقليدية ما يسمى الاكتئاب الباسم Smiling depression وقد يكون قريبا مما نشير إليه هنا ، أو لعله قريب أيضا من إخفاء المكنون- إن كان هما أو وحدة أو يأسا :

على أن الوعى الشعبى يفرق بين أنواع الهموم بما يتناسب مع الفروق الفردية بحيث لا يجوز أن تجمع فى تصنيف واحد (تشخيص) واحد ، كأنه يرفض معنا طريقة التعميم التى توحى بها النظم الحديثة فى التشخيص يقول المثل :

كل هم فى الدنيا له قلب بالعنيا .

وله قلب بالعنيا تعنى "بالذات" ، أى قلب يليق به تماما .

"يا قلبى يا كتاكت يا ما انت شايل وساكت"

وأخيرا فإنه من عمق بذاته ، قد يصل الموقف إلى الاستسلام ، وبدلا من أن يظهر الحزن على ظاهر السلوك فى تعبير الوجه ، أو نبرة الصوت أو محتوى الكلام تحل محله لا مبالاة تسمى أحيانا "البلادة الاكتئابية"Depressive apathy ، وهذا العرض بهذا الاسم يشير إلى أن الاكتئاب بلغ من الشدة بحيث كادت البلادة تحل محله تخفيفا لما لا يطاق .

ويقال هنا إن المكتئب نفسه لايكاد يعلن اكتئابه رغم شعور المحيطين به وظهور آثاره فى سائر مجالات السلوك الأخرى ، وعندى أنها ليست بلادة بمعنى اللامبالاة فعلا ولكنى تصورتها تراكما للإنهاك حتى الاستسلام .

" واهو كله محصل بعضه"

"قال : شنق ولا خنق ، قال: أهو كله فى الرقبة"

وهذا أقرب ، مع الفارق ، إلى :

"وما يضير الشاه سلخها بعد ذبحها"

وبعد :

فما أبعد حزن الناس الجاد والشريف عن مرض الاكتئاب الذى يسجله الأطباء فى شكل أعراض ولافتات تشخيصية .

وما أولانى بقبول الحزن تحملا لمسئولية وجودنا ، مع رفض الإنهباط (وهو الاسم المرضى الذى أطلقه المرحوم أ.د. عبد العزيز القوصى ، ترجمة لما هو اكتئاب مرضى[٣] Depression ولم ينل حظا كافيا فى الشيوع) .

الهوامش

(١) لمّ لمّا: جمعه جمعا شديدا ، ويقال: لمّ الله شعثه

ولاحظ أن اللفظ المقابل بالعامية الذى يشير إلى العكس هو بعزق ، له أصله العربى الجميل: بعزقه : فرقه وبدده فى غير موضعه.

(٢) بديهى أن هذا المثل غير قاصر على المكتئب

(٣) اقترح المرحوم أ.د. عبد العزيز القوصى كان قد اقترح لفظ "الإنهباط" لتحديد ما هو اكتئاب أو حزن ، وهو لفظ فارق جيّد

١٠- فصل فى الفروق الفردية ، والتناسب

أما أن

"صوابعك مش زى بعضها"

فهذا مثل شائع لدرجة أن الناس يستعملونه وسط الكلام باعتباره حقيقة جارية ، وليس تجريدا يستشهد به ، وهو يعلن مباشرة اختلاف الناس عن بعضها.

ومبدأ أن الناس تختلف عن بعضها البعض ، يبدأ من منطلق عيانى بسيط تثبته دراسة البصمات ، بدءا من بصمات الأصابع وحتى بصمات الصوت فى التسجيلات الحديثة أصبحت فروقاً دالة.

ولم يخلق الانسان الفرد بكل هذا "التفرد" لاستخراج بطاقة شخصية ، أو فيش وتشبيه ، أو لتسهيل مهمة البصاصين والمتنصتين ، للتعرف على الجناة والمتآمرين والثوار ، فلابد أن هذا التفرد يعنى شيئا شديد الدلالة ، فهو يقول ابتداء: إنه مهما تشابهت الصفات العامة ، والاستعدادات الوراثية ، والظروف الأسرية والتربوية فسيظل كل فرد هو نفسه ، من عمق بذاته .

وتطبيقات هذه الحقيقة الشديدة البساطة ، الشديدة الأهمية ، فى مجالات التربية والسياسة والرأى ، هى تطبيقات بلا حدود ، فعدم احترام الاختلافات الفردية هو سر فشل فسقوط الحكم الشمولى أيا كان ، والاختلافات الفردية هى أصل الحوار فى كل ما هو حوار بين فردين فأكثر والاختلافات الفردية هى وراء التصنيف والتوجيه والانتقاء فى التربية والتخصص ، ورغم أهمية الاختلاف ، فنحن نعلنه ونحدده سعيا إلى اتفاق ، ولكن شتان ما بين اتفاق و تماثل ، مثلما هو شتان ما بين الحوار و ترديد الصدى .

وتتجسد هذه الحقيقة أكثر فأكثر فى الأسرة الواحدة ، ذات الظروف الواحدة والتطبيق العملى لهذه الحقيقة فى مجال علم النفس والطب النفسى والمعالجة النفسية أظهر من أن يشار اليه ، فمهما كان التشخيص واحدا [1] (مثلا) فإن التناول يختلف من فرد إلى فرد ، حتى يصل من النقيض إلى النقيض ، واعجب معى لمن يصر على تسمية مرض باسم مشترك ، وكأن اسم المرض سيصنفه مع من يحملون هذا الاسم ، والأمر ليس كذلك.

وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل السابق مع ذكر الهم :

كل هم في الدنيا　　　له قلب بالعنيا

واحترام هذه الفروق التى بين البصمات ، والأصابع ، والناس ، والطباع ، والمزاج هو الإطار الحقيقى الذى يمكن أن يسمح بالحركة "معا" ، لكن التمادى فى تقديس الفروق الفردية حتى التسليم لها باعتبارها حقيقة أزلية لافكاك منها ، يباعد بين الناس ، ويجعل الحوار أشبه بنشرة الأخبار المتبادلة ، وليس بالتفاعل الحى والجدل الخلاق ، فالفروق الفردية ينبغى أن تكون منطلقا متجها لاتفاق وإثراء ، ومواكبة ، وتعاون ، فهى -بذلك- ليست نهاية مطاف للتباعد ، والوحدة ، والحساسية الذاتية ، واليأس من الآخر.

والمثل الشعبى يعرف كل ذلك وأكثر ، ويؤكده وهو يتناول هذا الأمر ومتعلقاته من أكثر من جانب بدءا من أن.

(١) " صوابعك مش زى بعضها "

إلى ما هو أكثر تحديدا أو تعميما :

(٢)　　" ما زول زى زول ،

و لا الصلاية زى دق الهون".

والزول هو "الشخص" الفرد ، والكلمة تستعمل فى شمال السودان أكثر من استعمالها فى العامية المصرية الحالية ، والتقابل هنا له عمق غائر رائع ، لأنه بعد مقارنة ذات بأخرى ، راح يقارن الإسم بفعل (فعل الدّق) ، وكنا نتوقع التبسيط ودقة المقابلة أن يكون بقية المثل: " و لا الصلاية زى الهون" (٢) ولكنه ذكر " دق الهون " هنا ، مع حذف "دق" قبل الصلاية ، [فلم يقل أيضا: دق الصلاية زى دق الهون) وقد نقلنى هذا فجأة ، وبإصرار ، إلى أن ما يترتب عن الاختلافات الفردية هو اختلاف الأداء ، أى أنه ليس المهم أن تستقبل الاختلاف وتحدده ، ولكن الأهم هو أن تجعلك رؤية هذا الاختلاف تتوقع من "زيد" ما لا تتوقعه من "عبيد" ، من كل حسب ما هو (وأنا أدرك ما فى هذا التأويل من تعسف).

وإن كان المثلان المتقدمان قد أعلنا الفروق الفردية بفعالية موضوعية ، فإنك تشم رائحة تمييز طبقى وسلطوى فى أغلب الأمثال الأخرى التى تتناول النصح بضرورة التمييز بين الناس ، ونبدأ الأمر بالتنبيه إلى التلميح بهذه الطبقية فى قولهم :

"إيش جاب لجاب"

والمثل يضرب هكذا-تعميما-أحيانا ، كما قد يضاف اليه تفصيل لاحق (انظر بعد) وبمجرد استعمال "إيش جاب" نشعر بهذه التفرقة الطبقية بشكل أو بآخر ، حتى لو جاء بعده لفظ جديد منحوت لدلالته الصوتية وتركيبه الأطول والأكثف فحسب ، أى بلا مضمون متفق عليه ، يظهر ذلك حين يقول المثل:

"إيش جاب التين للتنتين"

وقد حسبتها خطأ مطبعيا وقرأتها لأول وهلة "التنيّن" (٣) لكن شرح أحمد تيمور أكد على أن " كلمة التنتين لا معنى لها ، وإنما أتوا بها فى معنى شىء يشبه التين ، وليس هو" وإن كنت أضيف أن الزيادة فى المبنى قد تحمل ترجيح الزيادة فى المعنى ، يتأكد ذلك بتكملة المثل بقولهم:

إيش جاب التين للتنتين

وإيش جاب الترعة للبحر

فالتنتين يفوق التين بما يفوق به البحر الترعة ، والبحر يطلق هنا على الترعة الكبيرة أو الرياح (بحر موسى- بحر وهبه....الخ) ،

وليس على البحر بمعناه الأصلى ، فهم عادة يضيفون كلمة المالح أى البحر المالح إذا أرادوا به بحرا غير الترعة الكبيرة.وكلمة إيش تستعمل عادة فى المثل العامى إذا أريد بها التهوين (والتحقير) أحيانا ، متضمنا النصح بأن يلزم "الأقل" حدوده. (لاحظ الطبقية من جديد) وذلك فى مثل قولهم :

"إيش عرف الحمير فى أكل الزنجبيل" (٤)

(وكذا)

إيش لك فى الحبوب يا جعبوب

(أى يا صعلوك) أو:

إيش لك فى القيراط يا ظرّاط

(أى كثير الكلام)

وكل هذا يضع "إيش" فى الموضع الذى رجحناه

وننتقل خطوة فى التفرقة الطبقية حيث يقول مثل آخر:

"إيش جاب أحمد للحاج أحمد"

وأغلب الظن أن "الحاج" تستعمل هنا ليس بمعناها الدينى ، ولكن بمعناها الطبقى ، فالحج كان دليلا على القدرة المالية قبل أن

يكون دليلا على الورع ، فضلا عن استخدام التجار للقب الحاج ، تسهيلا لتجارتهم ، وتأكيدا لموقفهم المالى .

ثم تظهر الطبقية فيما هو أكثر صراحة فى قولهم :

"إيش جاب العبد لسيده"

وهناك صيغة أخرى لهذا المثل حيث يكمله البعض قائلين:

"إيش جاب العبد لسيده

قال : لِدا طلعة ولِدا طلعة"

فالرد هنا "قال" يعلن أن لكل منهما ما يميزه ، فنحن لا نحسب عادة أن للعبد "طلعة" ، إذ نتصور أنه "نكرة" أو مجرد "كمالة عدد" أو "أداة" ، لكن تكملة هذا المثل هكذا -قد- تخفف قليلا أو كثيرا من التأكيد على الطبقية ، ومن هنا فعلينا أن نفرق بين الطبقية ، وبين التمييز والتحديد ، فأن تضع كلا فى مكانه ، وأن تحسب لكل طلعته ، ليس بالضرورة اعترافا أو تأكيدا للطبقية بالمعنى الأحدث ، وإنما قد يكون تحديدا لمنطلقات ، وبالتالى فهو تأكيد ضمنى للفروق الفردية ابتداءً ، ثم يأتى بعد ذلك ما يأتى ، وإعلان الحقائق الفارقة - كمبتدأ - هو أكرم وأعدل من ادعاء

المساواة المثالية ، بل إن هذا الإعلان الصريح قد يشير ابتداء إلى أن المسألة هى مجرد تمييز ، ليس بالضرورة تمييزا طبقيا ، فإن هذا التمييز يمتد إلى الملبس ، والمكان على حد سواء ، ففى قولهم:

"إيش جاب لجاب
العايقة لأم حجاب"

لا نستطيع أن نتبين تأكيدا من هى الأفضل من واقع هذا المثل إلا فى استعمالاته التى قد يحددها السياق ، فإذا كان هذا المثل يمدح أناقة "العايقة" فهو يرجح كفتها ، وإذا كان مدحا لوقار و "حشمة" أم حجاب فكفتها هى الراجحة (وإن كان بعد التطور الأحدث لبدعة الحجاب فى صورتها العصرية ، أصبحت العايقة هى أم حجاب وليس العكس).

والتفرقة لا تقتصر على الفروق الفردية وإنما تمتد إلى الانشغالات ، والاهتمامات وغيرها ، مثل قولهم:

الريس فى حساب والنوتى فى حساب

فما يشغل الرئيس غير ما يشغل المرؤوس (والمقصود هنا رئيس المركب ، والبحار) ، وهذا المثل يشير إلى ما هو تحديد

اختصاصات مما لابد أن يترتب على تحديد الفروق الفردية الجبلية ، فالمكتسبة بالمركز والحرفة .

كذلك فإن التأكيد على الاختلاف قد يمتد إلى ما يشغل كل فرد ، حتى ولو توحد الموقف ، وثبت المتغير ، كما يظهر فى المثل :

مال الجنازة حارة؟

قال كل منهو بيبكى على حاله

بمعنى أنه رغم إتفاق المظهر ، فإن المحتوى يختلف والسبب يختلف والتوجّه يختلف.

فإذا كانت الفروق الفردية واضحة كل هذا الوضوح فى الحدس الشعبى ، فإنها لم تتضح لمجرد التصنيف والتمييز حتى لو كان التمييز طبقيا ، وإنما اتضحت للتطبيق والوعى العملى بما يترتب عليها ، فبادىء ذى بدء ومهما اختلف هذا عن ذاك ، فعلى الانسان أن يقبل نفسه "كما هو" مهما اختلف عن غيره ، ومهما تميز غيره عنه ، وفى هذا يقولون :

"وحشة وعاجبة نفسى وأشوف الناس تقرف نفسى

أو حتى :

"كل إنسان بربوره على حنكه حلو"

فما دام ما تدلى منه هو جزء منه ، فهو قد قبل بما هو ، ورضى به بل واستطعمه !! ولكن هذا لا يعنى تحبيذ العمى الكامل بالنفخ فى الذات ، بالقبول غير المشروط لما هى حتى بعيوبها ، ولكنه الدفاع الأولى الواجب فى بدء المواجهة ، وذلك بأن تكون أولى الخطوات هى التمسك بما هو "أنا" كما ترونى "وحشه" أو "ذات بربور"..الخ

أما الجولة الثانية فهى مع الداخل ، وهى تختلف باختلاف الرؤية ، ولكن الحدس الشعبى قد وصل إلى تقرير جذور القلق (بما هو) ، فلسان حال متقمص المثل يقول: إذا كنت أؤكد على قبولى لظاهرى (الوحاشة أو البربور) فليس معنى هذا أننى استسلمت ، أو أن هذا هو غاية المراد من رب العباد ، بل إن الداخل أعتى وأقوى وأكثر أصالة من الظاهر الذى أعلنت (تحديدا وتكتيكا) ، يقول المثل:

"كل قناية متضايقة بميتها"

قد أبلغنى هذا البعد الواعى بما يضيق به الداخل إذا لم تستوعبه الإمكانيات المتاحة أو تفجّر الفرص الحقيقية للإنطلاق و الرى .

وقضية الرضا عن الذات لها أيضاً حضور فارقى فى المثل الشعبى:

"وزعوا العقول عالناس ما حدش عجبه إلا عقله
ووزعوا الأرزاق ما حدش عجبه رزقه"

٣- وانطلاقا من هذا الاعتراف بالاختلاف مع التمسك بالقبول المبدئى للذات الظاهرة كيف كانت ، يأتى تطبيق عملى يعلى من قيمة التناسب الواقعى من أكثر من منطلق.

(أ) فمن ناحية الصفات الفردية وانتقاء ما يناسبها ما دام الاختلاف بهذا التحديد يقولون :

"كل واحد يبرد لقمه على قد بقه"

وهنا يظهر فعل الاختيار الإرادى ، والتصرف التفصيلى فى حدود القدرة الفردية ، وفى نفس الوقت قد يظهر هذا التناسب بغير إرادة صريحة ، ولكن بتوجه تلقائى بناء على اختيارات من واقع

مستويات أخرى من النفس ، بما ينتج عنه هذا التناسب كنتيجة يرصدها الوعى الشعبى فى قولهم :

"كل شيلّه (شىء له) يشبهن له"

فالفرد يقتنى ويمتلك ما يتفق مع ذوقه أو ذاته (أو فروقه الفردية) المتميزة ، فإذا تمادى المثل لغرض آخر فى سياق آخر فإنه يضيف ساخراً :

"كل شيله يشبهن له حتى الحمار واللى قانيه"

ولاحظ هنا استعمال لفظ "حتى" ، إذ أنه يخفف من التعميم ويحدد الانتقاء ، ومع ذلك... فهو يذكرنا بأن ما تقتنيه وتملكه هو إعلان ضمنى على ما هو أنت .

٣- ثم يؤكد المثل ناحية أخرى للتلاؤم مع من يحيط ، والتصرف فى حدود واقع الحال ، وواقع القدرة ، وحدود التميز فنجده يقول:

"كل واحد ينام عالجنب اللى يريحه"

أو "على قد لحافك مد رجليك"

أو: "على قد فلوسه يمرجح رجليه"

ثم يمتد الحدس الشعبى ليعلن نوعا من الانتقاء الفائى ، لا يتوقف فقط على اختيار إرادى واع ، أو على اختيار لا شعورى ضمنى ، وإنما يعلن ان المطلوب يحدد طالبه ، مثل قولنا أن "المهنة تنتقى شاغلها" ، أو حتى مثل قولنا فى قانون التطور أن البيئة تحافظ (وتبقى) على من يتلامم معها ، وينقرض من لا يستطيع ذلك ، وفى مثل ذلك يقول المثل (كما أشرنا سابقا) :

كل لقمة تنادى آكالها

أو كل هدمة تنادى لباسها

وإذا كان التناسب قد تأكد فى النصح بأن تصرف كل واحد يجرى فى حدود قدراته ومسئوليته ، فإن تناسبا مقابلا ينبّه أن يكون موقفنا حدود ظروف (وفروق) من نتعامل معه :

على قد فوله كيلو له

وعلى قد زيته خايل له (٥)

ويمتد الوعى بالفروق الفردية إلى احترام الفروق الواردة من اختلاف فرص المعرفة الخاصة لكل واحد بشئون نفسه وظروفه المختلفة عن الآخرين حتما ، وفى ذلك يقولون :

كل واحد عارف شمس داره تطلع منين

أو كل واحد من صندوقه يلبس

ولكن كل هذا التأكيد لا يعنى أن الفروق الفردية دائمة :

والا لكانت هى التوقف والجمود ، والواقع أنى ضقت ذرعا بهذا الافتراض ، إفتراض دوام الفروق لأنه لو ثبت لكان ضد التطور ، ومع ذلك فإن التمادى في تصور إمكان تغيير الشخصية ، أو تغير الطبع ، هو خدعة خطيرة ، وأعترف أن المثل العامى قد بدا لى ساكنا سكونا مزعجا فى هذا الصدد ، وكأنه ضد احتمالات التغير (والتطور!!) .

وقد استسلمت لهذا الافتراض الصعب ، ولم أحاول-هذه المرة- أن أبحث عن التوازن المقابل الذى يخفف عنى من تحدى السكون القابع فى هذه الأمثال المستسلمة ، مثل قولهم :

١- "مكتوب على باب الحمام

لا الأبيض يسمر و لا الأسمر يبيض"

والألعن:

٢- أكّل الفلاح سنتين تفاح تضربه علقه

ينّزله جلوين (أو جعضيض) (٦)

٣- أو ما يطلع الطبع الا إن طلعت الروح

ويتأكد الإستسلام للفروق الجبلّية ، والتهوين من الإكتساب والمهارة اللاحقة في قولهم :

الحلو حلو ولو قام من النوم

والوحش وحش ولو غسل وشه كل يوم

وكذا فى قولهم :

نهيتك ما انتهيت والطبع فيك غالب .

وعمر الكلب ديله ما يتعدل ولو علقت فيه قالب

لكن هذا لا يعنى الإستسلام للفروق الفردية الوراثية خاصة .

لكن يا ترى ، أليس من الأفضل أن نعتبر هذا اليأس (الواقعى) هو هو التحدى الحافز ؟

الهوامش

(١) كثيرا ما يصر المريض ، وإلى درجة أكبر: أهل المريض على السؤال "هو عنده إيه" ، ودائما ما أرفض تسمية المرض ، حيث أن مجرد تسمية المرض للأهل هو نوع من تحصيل الحاصل أو الوشم ، لأن الاسم وحده فى الأغلب لا يفيد شيئا وقد يدمغ صاحبه.

(٢) الصلاية هى وعاء خشبى مستطيل الارتفاع نسبيا يدق فيه الثوم والكفتة بيد خشبية ، والهون هو وعاء نحاسى أكبر ، وهو أقل إرتفاعا ويدق فيه بيد نحاسية ثقيلة ، ويشاهد حاليا فى السبوع أكثر من استعماله فى المطابخ بعد الإغارة العصرية.

(٣) التنتين: بحثت عن معنى فعل تنتن المشتق منه تنتين فوجدته فى الوسيط "تنتن": ترك أصدقاءه وصاحب غيرهم ولا أحسب أن هذا المعنى ورد على خاطر الحدس الشعبى أصلا ، وينفى السياق ذلك .

(٤) يقال فى بعض اللهجات الجنزبيل ، ومع أن أكل الزنجبيل ليس مما يتميز به علية القوم ، خاصة الآن ، إلا أننى أعتقد أن النغم والمبنى وندرة زرعه وشربه ، هو الذى برر استعماله هنا بشكل أو بآخر لأداء المراد ، ناهيك عن احتمال الصدفة الصوتية.

(٥) المقصود هنا خيال الظل ، لأنهم يوقدون فيه القطن بالزيت لإظهار الخيال.

(٦) الجلوين ، و الجعضيض: نباتان ينبتان وسط البرسيم تلقائيا عادة ، يجمعهم الفلاح الأجير بالمجان من أى حقل ، ويأكل بهم العيش (الحاف) معظم وقت عمله .

١١- فصل فى التوقى الواعى

يكتب لنا -مرة أخرى - الصديق د. أحمد حربى يقول :

إبعد عن الشر وقنى له على أن هناك قول آخر يقول : إبعد عن الشر وغنى له .

ثم يقول : يبتعد المرء عن الشر ثم يقْنى له ، بمعنى أنه يجعل بينه وبين الشر قناة وحاجزا؟ أو أن يقتل ما بينه وبينه ، كما جاء فى القاموس فى .

مادة "قنا": فلانا أى قتله القاموس المحيط) .

وحين يبتعد المرء عن الشر ثم يقنى له ، تكون الطامة الكبرى فى: السلبية وتشجيع الظلم فى آن .

ولعل مثلا كهذا يدعو للجبن الذى هو سوءة تماما مثل التهور ، بل هو أشد سوءا من التهور .

ولعل أول من قال بهذا المثل حاكم عربى ، وكثيرا قالوا :"إلزم بيتك وأمسك عليك لسانك تسلم" .

ولكن : أى سلامة ؟ إنها سلامة مخلوق وسط ، لا هو إنسان قبل

التكليف وحمل الرسالة والأمانة ، ولا هو حيوان خلت حياته من هموم لم يعرفها .....

التعقيب :

نحن ننبه ابتداءً – ودائماً – إلى وجود المثل ونقيضه فى التراث الشعبى ، وتتوقف دلالة المثل على توقيت استعماله وحسن توظيفه ، ولا ينفع تحليل مضـــمونه الآن ، بالإكتفاء بالرجــوع إلى تاريخه مثلا ، بأثر رجعى ، للدلالة على ما وراءه ، وإنما تلزم رؤيته فى إطار نشأته ثم تواتر استعمالات ورصد توقيت ذلك .

والبعد عن الشر – إن أمكن – ليس دائما جبنا وسلبية ، بل قد يكون حذرا وروية ، وعندى أن الغناء للشر (فى الصورة التى تقول وغنّى له ، وليس وقنىّ له) هو نوع من التشفى فيه إذ تكاد نقول له : "إنى بمناورة البعد عنك ، جعلتك أعجز من أن تنالنى ، فأصبحت المبادرة فى يدى" .

أما معنى قتله أو أن تجعل بينك وبينه قناة فهما معنيان غير متواترين مثل تواتر "غنّى له" ، وهذا يحتاج إلى بحث ميدانى لمعرفة حقيقة المثل وأشكال وروده ، والمعنيان عموما لا يشملان

الانسحاب أو الجبن فقط ، بل قد يحتملان الحذر والحمية ، أو الكر بعد الفر .

على أن المثل قد أورده " تيمور"[1] بشكل حوار شمل المعنين :

"قال :إبعد عن الشر وقنّي له   قال :... وغنّي له"

وفي شرحه له ، ربط بين المعنيين في اتجاه واحد حيث جاء "..أي قيل لشخص تباعد عن الشر واجعل بينك وبينه قناة من الماء تحول بينكما ، فقال لا أفعل ذلك فقط ، بل أغني له أيضا حتى يمر بسلام" ، وقد استشهد في تأكيد معنى الفرار من الشر بما قاله الميداني "أجر ما استمسكت" أي لا تفتر من الهرب وبالغ فيه ، وما أورده جعفر بن شمس في كتاب الآداب :

"اترك ، والشر ما تركك"

ومع كل ذلك ، فقد يكون في كلمة "أبعد" ما لا يعني الهرب المتواصل كما ذهب اليه د.حربي أو أحمد تيمور ، وقد يكون في الرد بالغناء ما لا يعني تأكيد مواصلة الهرب من الشر ، ونفاقه حتى يمربعيدا دون أن يلحقني بأذى– وأظن أن من حقنا أن نتصور هذا البعد الإيجابي ، والصبر الواعي ، والفخر الشادي بالسلامة نتيجة

لحسن التبصر والثقة بكسب الجولة الأخيرة ، كل ذلك قد يبطن هذا المثل ، لأن لعبة المناورة بالانسحاب المدروس ، أو بالصبر الواعي "على الجار السوء (أو الحاكم الظالم) .

.. يا يرحل يا تجيله مصيبة تاخدُه"

هى لعبة اشتهر بها الشعب المصرى بصفته الحضارية ، وعلاقته بالدورة الزراعية البطيئة الحركة ، وعلاقته بفيضان النيل ، **وانفصال تيار الحضارة الإنتاجى عن ألعاب السياسة القشرية** ، وقد ظل الشعب المصرى يحتوى غزاته ، حتى يذوبوا فيه أو يهربوا منه ، بهذا التمثل الصبور ، وهذا الموقف الواثق:

"حاتروح منى فين"

وهذا عندى هو الأصل فى استيعاب كثير من الأحداث البادية الشر ، ومع ذلك القابلة للذوبان فى الكل الأبقى .

لكل ذلك ، لم أجد في هذا المثل فى ذاته تبريرا للانسحاب الأول ، سنة ١٩٥٦ والذى تكرر بشكل عبثي تلقائى سنة ١٩٦٧ ، متصورين أننا بالانسحاب "هكذا" جعلنا بينهم وبيننا قناة السويس"وقنى له" وذهبنا نغنى له "ثلاث دول ما تقدموش ولا قدم" ،

فالانسحاب السلبى المستعجل الدال على خيبة الحسابات وعدم المسئولية ، ليس بعدا عن الشر من البداية بل هو استغراق فيما هو أشر من كل شر ، أما البعد عن الشر فقد يكون حكمة القادر أحيانا ، والغناء له قد يكون ثقة المتمكن .

وقد يكمل هذا المثل أو يواكبه أنه حين يكون الأمر ملزما بالاقتحام والمبادرة ، فلا حساب ولا تراجع :

إن كان خير عجّل به   وان كان شر: لابد منه

فهنا ليس ثمة بعد عن الشر ، الذى لابد منه ، وبالتالى لابد من احتمال عواقبه ما دام القرار بهذا الوضوح ، والاختيار واع بنتائجه ، وبنفس حسم المواجهة .

وبنظرة تتجاوز الإسراع بالاتهام بالاتكال والاستسلام ، يمكن أن نرى ما يقابل: "ان كان شر لابد منه" بمعنى أن القدرية هنا ليست تسليما بواقع وإنما هى مواجهة للنتائج الناجمة عن قرار المبادرة ، من باب "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" فلماذا القعود ؟ ولماذا الجبن؟-وما دام الذى "لابد منّه" مجهولا ، وما دمنا قادرين على استيعاب النتائج أيا كانت ، فهو دعوة للإقدام على كل حال وليس العكس .

ومرة أخرى فإن نظرة أشمل للأمثال مع بعضها ، تكمل استيعاب حكمتها ، ففى مجال الشر أيضا ، حين يحذر الحدس الشعبى من إنكار الجميل ، ومقابلة الخير بالشر قائلا :

"خيرٍ تعمل.. شرٍ تلقى"

لا يوصى بذلك ضمنا بأن نكف- إذن- عن فعل الخير ، حتى نتجنب أن نلقى الشر ، بل هو يقرر حقيقة مؤلمة ، قد تكتمل بأنه ومع ذلك : "إعمل الطيب وارميه البحر" (٢)

وهذا السلوك هو من أرقى أنواع تجنب الشر "إبعد عن الشر" وهو ألا تنتظر جزاء الخير الذى نقدمه ، حتى إذا قوبلنا بنكرانه (وهذا هو من أشر الشر) أو بعكسه ، كنا مستعدين له بحيث لا يؤثر فينا أصلا .

الهوامش

(١) أحمد تيمور ، الأمثال العامية: لجنة نشر المؤلفات التيمورية ، الطبعة الثالثة١٩٧٠ ص٣٦٤ .

١٢- فصل فى تفسير شعبى لظاهرة الغش الجماعى فى المدارس

(حول : "العقد الاجتماعى والغش الجماعى")

حين أعلنت ظاهرة الغش الجماعى ، فجأة بلا مفاجأة ، بدا وكأن وزير التربية والتعليم اكتشف أنه فى إمتحانات بعض المدارس الإعدادية ، أو حتى الشهادات العامة يجرى "غش" تعاونى سمّى فى الصحف غشا جماعياً ، كأن ثمة تعاونا بين المدرسين وأولياء الأمور والطلبه.

وكانت فضيحة ، فجاءتنى إحدى الصحفيات الشابات تطلب تفسيرا "نفسياً" للظاهرة ، فأجبتها بهذ المقال ، الذى لم ينشر طبعا فى صحيفتها ، مع أننى لست كاتبه ، لكنهم الناس هم الذين كتبوه فى وعيى بأمثالهم التى وصلتنى صمتا واضحا .

فماذا قالوا ؟

كانت المفاجأة أنه بمجرد أن أعلنت هذه الظاهرة حتى سرت موجة من الدهشة لدى الناس ، عامة الناس ، "دهشة من الدهشة" ، وكأنها تقول :

"صح النوم" أو "طبعا" ، أو "بعد أيه ؟"... الخ .

ورغم بشاعة الظاهرة بكل مقياس الا أنها استشرت ، وتأكدت ، وتكررت ، حتى صارت سهلة وطبيعية و..و "شريفة" !!!

وقد لاحقتنى عدة أمثلة شعبية كانت تطرح تفسيرات قاسية ، لأنها صحيحة فهذه الظاهرة التى تعد من أبشع الظواهر قوة وتحديا وبشاعة فى آن لابد وأن تعنى عمقاً خطيراً .

وأول بديهية قفزت إلى وعيي كانت تقول إنه من غير المعقول أن هؤلاء الذين يمارسون هذا "التعاون الجماعى" (الغش الجماعى)يعتبرون أنفسهم ، أو حتى يحسبون أنهم فى نظر الحدس الشعبى آثمين أصلا .

فتصورت أن ثمة عقدا جماعيا / اجتماعيا بين الناس والحكومة ، وبين الناس والناس يفسر هذا الشيوع وذاك التحدى وهذا ما قرأته فى الوعى الشعبى العام المفسر لهذه الظاهرة .

قال لى هذا العقد الاجتماعى " الخاص " بشأن ظاهرة الغش الجماعى :

(١) "على قد فوله... كيّلو له"

فكأنى بالناس يقولون أن شهادة بلا قيمة ولا جهد (يحصل عليها الطالب بالغش) هى المؤهل المناسب تماما لوظيفة بلا عمل ، ومرتب لا يستر صاحبه ولا يحفظ كرامته أو شرفه .

(٢) (أ) " اللى ييجى منه أحسن منه"

(ب) " شعرة من دقن الخنزير"

فقرأت استهانتهم بالحكومة والمدرسة ، وموقفهم العدائى الحذر من السلطة ، (وقد سبق تناول هذين المثلين فى الفصل الثانى) فحيث تمارس السلطة نشاطها وتخطيطها بشكل فارغ من المعنى ، منفصل عن الناس ، تصبح فى موقف العدو الطاغى اللامبالى ، الذى يستحل الناس إزاءه كل ما يمكن نهبه و اغتصابه منه ، والحصول على الشهادة الرسمية (بهذه الطريقة) هو مثال لاسترداد بعض الحق ، أحسن من لا شىء.

(٣) (أ) " يا بخت من نفع واستنفع "

(ب) " شيلنى وأنا أشيلك "

فقرأت:

نتعاون معا نحن أولياء الأمور والمدرسين ضد من يضحكون على أولادنا (السلطات الحكومية) بتعليم مثل قلته وشهادة لا تأتى بهمها .

(٤) (أ) " كله عند العرب صابون

(ب) " كله محصل بعضه"

فقرأت :

أنه ما دام حامل الشهادة بحقها ، لا يستعمل فى الحياة العملية ما درسه من أجل الحصول عليها ، فإنه يتساوى- عند هذه الحكومة وعلى أرض هذا الوطن- مع من حصل على شهادته بلا تحصيل اصلاً .

(٥) "خلى المِيّه (المائة) تبقى ميّه واحد"

فقرأت :

أنه مادام أولادنا (الغلابة) يضيعون وقتهم فى تعليم بلا علم ، ويعيشون مواطنين بلا مشاركة ، ويتوظفون موظفين بلا عمل ، وما دامت الدولة تستدين بلا رد ، وتخطط بلا إنتاج ، وما دام ، ... وما دام ،... وما دام فـ " خليها تكمل" ، بالغش (سوا سوا) .

وأخيرا (٦) "سيب وأنا سيب"

فقرأت

الناس تساوم الحكومة وتغمز لها أنها ستفوت لها الخطأ والظلم والتخبط فى مقابل أن تفوت الحكومة للناس ، هذا الغش وبعض الشهادات ، وبعض الضرائب:

وكأن الناس يقولون للحكومة خففوا الرقابة والانضباط ، وأنا أفوت لكم كرسى السلطة وأنجحكم فى الانتخابات.

فترد الحكومة قائلة:

لا تنقدونى وتحبكوها ، وافعلوا- مقابل ذلك- ما تريدون (بما فى ذلك الغش فرادى وجماعات).

***

وليس معنى ذلك أن الحدس الشعبى يبرر الغش. وإنما المعنى الأهم هو أن الغش ليس غريبا عن الحال التى وصلنا إليها ، فهو ليس لونا نشازا فاقعا ، لأنه يجرى على أرضية من نفس اللون ، وبالتالى فعلينا ، ومن واقع هذا الاحتجاج الشعبى الصارخ الذى

أخذ صورة"هذا الغش" ، علينا أن ننظر أولا ، وجيدا ، ثم نحاول الإجابة على السؤال الذى"يقول" :

* كيف تلونت أرضية حياتنا – هكذا – بنفس اللون حتى صار الغش سلوكا شعبيا ذا دلالة ؟

كيف ، ومتى ، ومن الذى لونها ؟ ثم راح يكتشف فينا ما فعله هو ؟

الحكومة تغش الناس بالجملة ، ثم تتهمهم أنهم يغشونها بالجملة ، فقفز فى وعيى ، مثل صاروخ صعب ، نعم ، مثل قد يصور الحكومة وهى "تستعبط" (وهى ترفض النقد الحقيقى) ثم تروح "**تضبط فينا**" : **ما "تفعله هى فينا**" ، يقول هذا المثل الصعب (غير المناسب تماما) :

"لا تشتم الأحْبة تلهيك ، وكل اللى فيها تجيبه فيك"

فهل يا ترى عرفت كيف أقرأ الحادث يفسره حدس الناس ، بدلا من الإجابة على صحفية شابة أرادت أن تفسر تدهور القيم ومرض النفوس بلغة الطب النفسى والتحليل النفسى ؟ .

الباب الثانى

حواديت

أربع حواديت
من طفلة أمّيّة شغّالة
عن : توظيف العدوان
واكتشاف طبقات الذات ، والتكامل

مقدمة :عن المنهج والقراءة المزدوجة

لم نتكلم عن المنهج(١) ، منذ بداية النشر عن ما هو قراءة نفسية فى وعى التراث الشعبى ولم يكن هذا إهمالا ، كما لم يكن بقصد مبيت ، وكان لابد لنا أن نعود لما سبق أن نشرناه بتلقائية نسبية ، لننظر فى معالمه لعلنا نكتشف منهجه بأثر رجعى ، فوجدنا أن أغلبه اتبع طريقا يمكن رصد بعض معالمها كالتالى :

١- نقرأ النص كما ورد فى التراث بانتقاء عشوائى أو ترابطى حسب السياق .

٢- نبدأ بالفكرة (القيمة ، أو المعلومة) مستمدة من النص .

٣- بعد التأويل المباشر نبحث عما يدعمهما ونناقش ما يعارضهما – من معالم تراثية أخرى .

٤- نحاول تفسيرها والتأكيد على توازيها مع بعض المعلومات والنظريات النفسية والطبنفسية دون وصاية عليها ، بل باستلهام منها .

٥- نستطرد-أثناء ذلك-استطرادا تختلف أبعاده باختلاف حدة التداعى ودفعة الحماس .

ومن خلال هذا الموقف السابق ، لاحظنا كما لاحظ قراؤنا أن هناك تحيزا[٢] واضحا .

(أ) نحو ما نريد تقديمه من أفكار .

(ب) نحو ترجيح إيجابية الحدس الشعبى (دون سلبية) .

وقد وصل التحيز[٢] أحيانا أننا كنا نتعسف فى التفسير ، كما كنا نقلب السلبيات إلى إيجابيات لدرجة تستجلب الغيظ حتى الاعتراض والتحفظ ..

ولكننا ونحن نقدم الآن هذا النوع الآخر من الأدب الشعبى ، وهو الحدوتة ، نجد أنفسنا أمام نص قد ترامت أبعاده وتعددت إيحاءاته ، كما نجد أنفسنا ناظرين إلى الراوى ، جنبا إلى جنب مع الرواية. .

المحاولة قراءة مجتهدة ، فرضية بالضرورة ، مرنة متغيرة .

وقد اخترنا ان يكون مصدرنا فى هذه البداية "واحدا" [٣] محددا "منشورا" وقد انتقينا هذا المصدر لأسباب عدة (بعد الصدفة طبعا): منها :

١- إن الذى قام بجمعه وتبويبه ليس أكاديميا متخصصا (فهو يعمل بالتدريس العادى) واعتبرنا ذلك مزية خاصة .

٢- وبالتالى فإن المنهج فيه ليس سجنا محكما ، بقدر ما هو تلقائية ملتزمة .

٣- إن الذى قام بالجمع هو شخص واحد لا أكثر.

٤- إن منطقة الجمع تحددت جغرافيا (الدقهلية: السنبلاوين ، وميت غمر ، والمنصورة) بشكل متواضع- فى حدود فرص الباحث فى التنقل والتواصل .

٥- إن وسيلة البحث كانت التسجيل الصوتى .

٦- إننا لاحظنا شدة الأمانة فى تسجيل النصوص المدونة ، من حيث دقة النقل الحرفى ، والالتزام بالرسم (المظهر) للعامية كما هى ، بما يشمله ذلك من "أخطاء" دالة .

ولكن كل هذه الميزات لم تخفِ عنا ما كنا نرجوه من الباحث من مزيد من التعريف بالرواة ، كل الرواة ، وليس التركيز على بضعة منهم ، وكذلك ما كنا نأمله من إعادة التصنيف والتبويب والفهرسة ، بطريقة أرحب وأكثر إحاطة ، وأيضا ما كان يستطيع أن يضيف من هوامش شارحة وموضحة لمواقف بذاتها-لكننا نعترف أن

الباحث غير ملوم فى أى من ذلك لأنه حدد هدفه من البحث فى "جمع مادة التراث الشعبى.. حتى تكون سجلا فيما بعد يدرس من خلاله ... الخ".

لذلك ، فقد اعتبرنا أن ما بين أيدينا هو مادة خام ، جمعت بعناية خاصة ، تستأهل القراءة من كل جانب ، وأحد جوانبها هو مدخلنا هذا.

فما هو مدخلنا هذا؟

هذا هو ما يريد أن يقوله هذا الباب لعله ينجح

الحدوتة الأولى

الأستاذ الغول (٤)

"كان فيه أستاذ ، الأستاذ ده غول ، المدرسة موظفاه ، بس ما يعرفوش يعنى.. إنه غول ، فبعدين قام قال للعيال ، اللى حييجى بدرى ، هنجحه فى المدرسة ، فحبة تلامذه جم بدرى ، قام حبسهم فى الفصل ، وقعد ياكل فيهم.

قام جت "فرع الرمان" وفى رجلها قبقاب كويس ، قام بصت من الخرق ، كانت واخده له شالية لبن ، بصت من الخرق ، لقته بياكل العيال ، هوه لمحها ، قامت جريت ، القبقاب وقع منها ، سابته ومشيت ، ماقلتش حاجة ، وبعدين الغول بقى يجيلها وهى نايمة ، يشق لها الحيط ويدخل ، وبعدين يقول لها "شفتينى

باعمل إيه فى العيال؟" قالت له "ماشفتش" قال لها ، قولى الجد "قالت ل ه: ماشفتش" ، وبعدين يسيبها ويمشى .

وكل يوم يجيلها . قامت زهقت.

قامت راحت بقا لعيلة ، قالت لهم "بيتونى مع المواشى بتوعكم ، أنام معاهم" أصل أنى حكايتى كذا و كذا ، فراحت وبيتوها .

جالها الغول بالليل ، قال لها "شفتينى باعمل إيه بالليل؟" قالت له "مفيش حاجة" ، قالها: لأ. قولى. قالت له "ماعرفشى" وبعدين قتل البهايم وطلع.

صبحوا الصبح ضربوها ، وتهموها فيها ، قامت هى كبرت ، ومشيت ، وهى حلوه قوى ، لكن إبن السلطان شافها ، طلب من أبوها إنه يتجوزها ، قام إيه ؟ إتجوزها . وبعدين خلفت أربعة ، كل ما تخلف عيل ، الغول بيجى يأخذه وهى فى السبوع ، ويعوص

بقها دم ، وبعـدين جوزهـا يقول لها : إنت بتكليهم ؟ تقـول له : "أبـدا" وبعـدين قام قـال "أنى حاتجـوز واحده غيرها".

كان سيدها (حماها) [٥] بيسافر بلاد بعيدة ، قال لها "عايزة إيه من البلاد يا فرع الرمان" قامت قالت له "هات لى علبة مر ، وعلبة صبر" وبعدين جاب لها ، تحطهم قدامها وتقول "يا علبة المر مررتينى ، يا علبة الصبر صبرينى" وبعدين قام الغول شق الحيطه ، ودخل لها وهى قاعده ، وفى ايده أولادها ، بقوا كبار قوى ، واتوظفوا ...... دكتور .. قامت قالت له "دول ولاد مين" قام قال لها: "ولادك إنت" قامت قالت له "هو انت ماكلتهومش؟" قال لها: "لأ" وبعدين قامت قالت لأولادها "انتو عارفين الفرح اللى هناك ده؟" قالولها "آه" قالت لهم: "فرح أبوكم" ، قاموا العيال راحوا بقى ياخدوا التراب ، ويزقلوا ، ويقولوا: "الفرح فرح أبونا ،

والغرب يطردونا" قام أبوهم قال ، احنا لازم نروح نسأل "فرع الرمان" ، قاموا راحوا يسألوا فرع الرمان ، قامت قالت له: "دا دول ولادى ، والحكاية بتاعتهم كذا وكذا".

توتة توتة ، خلصت الحدوته".

لقد اخترنا أن نبدأ بهذه الحدوتة (الأستاذ الغول) لما فيها من معالم تستأهل الوقوف عندها ، ومن ذلك :

١- شخصية الراوى (أنظر بعد) .

٢- إنها اشتملت على وجوه متعددة لشخصية الغول (وهى شخصية مكررة فى الحواديت) .

(الغول هنا كان "أستاذا" (مدرسا) [٦] - وكان قدَرا غامضا ، وكان قدَرا طيبا ...أنظر بعد) .

٣- إن الحدوتة لم تحتو على استقطابات أخلاقية مسطحة ، مما تشتمل عليه الحواديت عادة ، فهى لا يوجد فيها خير مطلق فى مقابل شر مطلق مثلا .

٤- إن العقاب (لصق التهم واختطاف الأولاد) فى هذه الحدوتة بدأ غير مفهوم وبلا جريمة محددة ، أو عصيان صريح.

٥- كذلك لم يرتبط الثواب (عودة الأبناء) بأى حديث يبرره.

٦- إن النهاية كانت مفتوحة ، (دون إعلان مباشر للتبات والنبات مثلا) .

لكل هذا ، بدت لنا هذه الحدوتة مختلفة عما يتواتر فى مثل هذا التراث ، فركزنا على شخصية الراوى لعلها تنير بعض معالم هذا الشتات ، فوجدناها :

"اسمها "نور منصور يوسف" ، عمرها اثنا عشر عاما ، لا تقرأ أو تكتب ، (أمية) تعمل شغالة من أسرة "المزارعين" ، تحفظ الحكايات عن عمتها ، وهى من بلدة الزهايرة دقهلية".

وكانت هذه هى كل المعلومات الواردة تحت كل ما أوردت (أربع حواديت) .

ثم رأينا أن نقترب من هذه المادة باعتبارها تكثيفا خاصا لمعالم حواديت متعددة ، متداخلة ، حيث لاحظنا ورود مشاهد لا تخفى من حواديت متفرقة مثل :

١- الفقى (المدرس) الذى يقوم بعكس الدور المنوط به ، أو المنتظر منه .

٢- الغولة (أو الغول) التى تخطف العيال ، لتسمنهم وتأكلهم .

٣- إبن السلطان الذى يتزوج من بنت من الشعب .

٤- الأم التى لا يعيش لها عيال ، فيتهمونها بأكل أبنائها .

٥- المعرفة المحظور إذاعتها ، أو كشف سرها .

٦- الصبر على الظلم بلا شكوى ، مع الثقة فى حتم الفرج .

٧- الزواج الثانى ، وإفساده بأولاد الزوجة الأولى الذين أنكرهم الزوج .

لكننا عدنا نتوقف عن محاولة إرجاع كل جزئية إلى أصلها المحتمل ، لأن ذلك عمل يحتاج إلى دراسة أخرى أشمل وأعمق ، يحتاج إلى فروض أكثر تحديدا ووضوحا ، فاكتفينا بقراءة هذا "المتن" قراءة كلية أساساً باعتباره مادة قائمة بذاتها اختلط فيها التراث بخيال الراوى الطفلة فى ظروفها الشخصية (شغالة أمية) ورأينا أن نقرأ نفس الحدوته مرتين ، من بعدين مختلفين :

الأول : باعتبار أن المتن - كما هو - ممثل للتراث الشعبى الجمعى ، وأن الراوى الطفلة ، سواء أضافت أم لم تضف ، هى ممثلة له ، جزء منه ، ماثلة به ، بذاكرتها وخيالها وذاتها ، فى جوف هذا التراث .

والثانى : باعتبار أن محتواها المشتت ، لم يجمعه إلا انتقاء ذاتى ، حكمته ظروف الراوى الطفلة وشخصيتها ، وقدراتها ، فجاء مترجما - أساسا - لحاجتها وحرمانها وآمالها ومآزقها وظروفها الذاتية الشديدة الخصوصية . أى باعتبار الحدوتة فى صورتها الماثلة إسقاطا ذاتيا بالإضافة إلى كونها حدسا شعبيا جمعيا .

القراءة الأولى :

باعتبار الحدوتة رواية دالة (بما هى) عن التراث الشعبى (الحدس الجمعى) .

فى هذه الحدوتة ، نستطيع أن نتبين صورتين للغول (على الأقل) ، تتكثف فى كل منهما صور أخرى أو وجوه أخرى فرعية :

الأولى : صورة الغول : الأب/السلطة/المعلم .

والثانية: صورة الغول: القدر/ الممتحِن/ الشرير/ المانح .

والأستاذ "(أو الفقى) الغـول ، هو غول لما يغتال به براءة أطفاله ، بما يحشر فى عقولهم المعلومات حشرا ، يخنق بها فطرتهم ، ويمحو ، ذواتهم-ولو مرحليا- ليصيروا- حالة كونهم تلاميذ ممتثلين- نسخة مكررة في سجن محكم يسمى "الفصل" (أو الكتاب) .

والأستاذ المعلم غول حين يبدو عقابه على سوانح الأخطاء وكأنه السحق والإبادة والنفى من الوجود....الخ .

فالأستاذ المعلم هو غول بما يقتحم من معلومات جاهزة مشلّة[٧] ، وبما هو من قوة ساحقة مُنقضّة .

معنى الالتهام ، ودلالته :

وعادة ما يلتهم الأستاذ المعلم من تلاميذه الأشطر والأسرع ، والأنصح ، والأكثر حرصا على اتباعه واكتساب رضاه (على حساب ذاته) ، لأن التلميذ البطىء والبليد ، قد يحتمى فى ذاته من خلال

إيقاعه البطيء ، فتنضبط جرعة تلقيه ما ليس هو ، وهكذا تشير الحدوتة إلى أنه. "اللى حييجى بدرى (الأشطر ، الأسرع ، الأنصح) حنجحه فى المدرسة" .

وإذا بالنجاح هو أن يتخلى عن ذاتيته ، ليصبح كتابا مصقولا ، أو درسا محفوظا ، أو تسجيلًا نقيا ، فالاتهام هنا-مادام المعلّم غولا- هو فناء الذات فى جوف هذه الآلة التدريسية العمياء التى تردم الذات تحت أكوام المعلومات الجافة الساكنة ، والتى يقوم بقيادتها سائق ماهر مُتَخَفٍّ تحت اسم الأستاذ ، .

ولكن من يكتشف هذه الحقيقة (لاحظ أنها نصف حقيقة فقط:[٨] أنظر بعد) ؟

هنا تظهر فتاة عابرة "فرع الرمان"- ونحن لم نعرف من خلال الحدوتة إن كانت تلميذة هى الأخرى أم لا ، والأرجح أنها مجرد طفلة عابرة ، قد يصلح أن تكون أخت أحد التلاميذ النجباء ، أو بنت "دادة" المدرسة ، أو حتى شغالة صغيرة فى المدرسة تحضر الإفطار (شالية من اللبن) للأستاذ المجتهد المبكر ، لكنها- بمحض الصدفة – تكتشف السر .

وترجيح أن شخصية المكتشف هى من خارج (من خارج المشروع التعليمى المبيد) قد يكون له دلالة خاصة ، من أن المنهمك داخل الإيقاع اللاهث لا يستطيع أن يدرك ماهية الخطر المحتمل من هذه الملاحقة الضاغطة ، أما العابر–بسذاجة–من خارج العملية ، فقد يكون أقدر على الإحساس بالخطر القائل: أن "هذا التعليم يمحو كيان الذات الفردية" وبألفاظ أخرى ، إن التعليم– هكذا– هو على حساب كل ما هو طفلى فطرى طبيعى ..الخ .. لكن هذا الخطر – كما ألمحنا حالا – هو نصف الحقيقة لا أكثر ، لأن النص الآخر يقول : إن التعليم بكل مخاطره هو حتم إنسانى لا بديل عنه إذ هو صك المرور إلى أحقية الوجود البشرى (وعلّم آدم الأسماء كلها) ، لذلك فإعلان نصف الحقيقة (إن الأستاذ غول) لا يعنى أن المطلوب هو الاستغناء عنه بما يعطل العملية التعليمية اللازمة لإنسانية الإنسان .

ونحن لا نعنى هنا – رغم استعمال كلمة الأستاذ– أن نخص بهذا المأزق موقف التعليم المدرسى فحسب ، بل إننا نعنى أن أى جرعة زائدة من سلطة جاهزة ، تلغى تلقائية فطرية الأصغر ، هى

التهام بشكل ما ، وإنى لأرجو من قارىء هذا التفسير الصعب ألا يتسرع بالرفض ، وأن يحاول أن يستوعب الفكرة فى مجملها دون تطبيق تفصيلى ، أو أن يمد تطبيقاته إلى كل علاقة موازية ، ففى المجتمع القبلى مثلا لا يوجد تعليم أو أستاذ ، ولكن يوجد الغول: "شيخ القبيلة" ، والغول "تقاليد القبيلة"... وهكذا ، والتراث الشعبى ينقد ، ويكشف ، ويفسر دور الأستاذ ، المدرس ، الفقى ، بحيث يعرّى كل ما يتعلمه التلميذ منه ، ليس فقط القراءة والعلوم وإنما ما هو أعمق وأخطر بكل طريقة (٩).

لحظة:

ونقف لحظة عند زائدة ربما تكون مجرد أرضية ، وربما تكون لها دلالة ، فلبس "فرع الرمان" قبقاباً "كويسا" ثم وقوعه منها ، قد يكون دلالة على فقد الأرض الثابتة بعد هذه المعرفة الناقصة ، وغير المتوقعة ، من لبس قبقاب (خشب/كويس) إلى الجرى حافية ، وأخيرا ، فقد يكون لمجرد إيراد آلة لها صوت هو السبب فى أن الأستاذ الغول سمعها قادمة ، ثم وهى تعدو مولية ، فبدأت المطاردة لضمان عدم إذاعتها السر .

نقلة :

انتقل المسرح إلى المدخل (داخل النفس) ، فالغول يأتيها وهى نائمة ، فالمسرح الآن هو عالم الداخل باعتباره الواقع الآخر ، وليس بديل الواقع ، والغول الذى أصبح جزءا (كيانيا) من عالمها الداخلى يقتحم وعى النوم ، ليطمئن أنها لم تذع السر ، وكأنه يؤكد ضرورة الكبت (وربما الكف الإرادى أيضا) ، فهو يريد أن يمحو ما رأت أصلا ، إذ هو لا يسألها فورا ، وتماما ومكررا ، (ماشفتيش) وعموما فكثير من الحواديت ، (والأساطير وبعض الديانات) قد تسمح بمعرفة السر ، لكنها لا تعاقب إلا على إذاعته ، وكأن السر المضنـون به على العامة ، أو على غير أهله ، هو سر الحياة الأعمق ، فمثل هذه الأسـرار إذا ما أذيعت ، وأخذت بنصف معناها ، (وليس بتناقض تكاملها وتداخل مكوناتها المعلنة والخفية) قد تعطل المسيرة .

هرب فاشل :

ولكن إلى متى تظل فرع الرمان فى مواجهة ملحة (كل ليلة) مع هـذا الذى يريد أن يتـأكد من قـدرتها على الكتمان والحفـاظ على السر ؟ .

لابد أن تضيق فرع الرمان بكل هذا الإلحاح والمطاردة والتشكيك ، فضاقت ، (قامت زهقت)- ورغم أن المعركة داخلية (يأتى بالليل) فإن الهرب الممكن هو خارجى بالضرورة ، فتلجأ إلى الناس ، إلى أسرة ما تحتمى بها ، وكأن ثمة أملا يلوح يغريها بأن تغيير الخارج سوف يغير الداخل - وهى تبدو شديدة الحرص على أن تقبلها "هذه العائلة" (لعلها عائلتها ، أو أى عائلة ، أو أى ناس) حتى ولو ساووا بينها وبين بهائمهم ، فرضيت بل طلبت ، أن"تنام مع المواشى".

فهل يا ترى كانت تحتمى بمستوى أدنى ، لعل ذلك أدعى لتصالح "ما" مع العدوان الملاحق ؟ أم أنها كانت - بذلك - تعلن مدى حرصها على الإنتماء إلى "العائلة" أى عائلة ، حتى ولو كان ذلك فى أسفل سافلين ، فهى راضية بأى موقع "حتى مع المواشى؟" ومهما تكن الاجابة ، فهى تستجير بهؤلاء الناس ، وتحكى لهم حكايتها ، لكنها حين حكت لهم - مستجيرة - بأن "حكايتها" كذا كذا " ، لم نتبين إن كان هذا الـ "كذا كذا" قد تضمن إذاعة سر تفاصيل الحادث أم لا ، لكننا نلاحظ من السياق مايلى :

إن السؤال الذى عاد يطرحه الغول قد تغير ، فهو لم يعد يكرر محاولة أن يطمئن على أن أحدا – غير فرط الرمان– لا يعرف سر التهامه لتلاميذه الأطفال(٩) ، وإنما هو يعمم تساؤله حول "مجرد مجيئه ليلا وما يفعله أو ما يمكن أن يفعله" (شفتينى باعمل إيه بالليل ؟) – وهكذا انقلبت المطاردة إلى نوع جديد ، غامض ، عام ، والجواب على مثل هذا السؤال أصعب من الجواب على السؤال الأول (شفتى باعمل إيه فى العيال ؟) – وإنكارها أنها شافته أبعد من التصديق ، لان ما "يعمله بالليل" هو أى شىء ، وكل شىء ، وبالتالى كأنه يتساءل عن اعترافها بوجوده أصلا ، فإن أنكرت وجوده أصلا ، فإنها تلغيه وإن اعترفت به فإنها لا ترضيه ، لأن سؤاله يتضمن إصراره على أن تنكر أنها رأت "أى شىء" فتظل تنكر (مفيش حاجة) وتغمض ، (معرفشى) .

وبما أن هذا العقاب من داخلها ، فهى تتجرع المرارة كاملة ، وعليها الصبر – ولتتقبل التهديد بالزواج بأخرى ، ما دامت – من فرط الحرمان– عاتبت نفسها بحرمان أقسى– وهكذا انعكس

العــــدوان إلى الداخــل [8] ، إلى أطفــالهـــا ، أكبادها، ذواتها الطفلية ...

لكن ثمة دعما حقيقيا كان قائما طول الوقت ، وها هو ذا يظهر صريحا فى الصورة بعد أن رجحنا وجوده من قبل (حين لم يُلحق باتهامها بذبح المواشى طردها) ، ألا وهو ذلك السيد/ السلطان/ (السيد الحامى الحانى) الذى يحترمها ، ويسألها عن طلباتها ، ويستجيب لها ، ويحضر لها ما طلبت (علبة مر وعلبة صبر) ثم لتعلن بمناجاتهما كم هى مُرّة الحياة ، وكم هى صابرة عليها.

التصالح مع التداخل:

فما دامت فرط الرمان قد مرت بكل هذه الامتحانات: **الرؤية ، الكشف ، كتم السر ، التحمل ، شرب المر ، الاتهام الباطل ، فقد الولد ، الصبر** ، مرت بها دون أن تلغى بالعمى الهروبى أيامن حدة بصيرتها وتحمل تناقضاتها ، فلابد أنها تصالحت مع داخلها ، فلا يصبح الغول غولا ، ولا يكون الاتهام التهاما (قالت له هوه انت ماكلتهمشى قال: لا) - فتكتسب -

بعد تجرع المر وطول الصبر- أمانا يسمح لها باستعادة ذواتها ، فزوجها ، وذلك من خلال تخلصها من تصور عقاب على جريمة لم ترتكبها ، فهذا الإعلان للأمان هو إشارة إلى جرعة النضج الهادىء بالصبر الواعي ، ثم يتأكد الأمان ، ليس فقط بتغير الموقف الخارجي بما في ذلك موقف الغول ، وإنما باليقين فالاستقلال فالنضج فأخذ الحق ، فالأولاد عادوا كبارا ، وكانوا سببا في استرداد حق أمهم ، وليس استجداءه أو العثور عليه بضربة حظ.

الوجه الآخر لعودة الغول ورد الأطفال كبارا :

ولكن لابد من رجعة إلى الموقف الأصلي منذ البداية ، فإذا كان الغول العدوان بالداخل هو الذى أقلق مضجعها ، وألصق بها التهم الباطلة فشعرت بالذنب لدرجة أنها عاقبت نفسها- عاقبها- بكل هذا الحرمان ، فأين يكون موقع الغول الأستاذ ، وما حال الأطفال (التلاميذ) الذين أكلهم من قبل ؟ .

أحسب أن ذلك يتطلب مدخلا آخر ، لا ينفي المدخل الأول ، وإنما يوازيه ويتداخل معه ويتكثف به ، فالالتهام [١٠] "التعليمي"

(الذى أشرنا إلى أنه ليس إلا نصف الحقيقة) لم يكن - إذن - التهاما هو أيضا فلعله كان احتواء لدرجة محو الذات فى حضانة جديدة ، لتفريخها كبيرة ناضجة من خلال إستمرار إعادة الولادة النموية ، وكأن هذا التفسير يقول:

إن الانسان لكى يكون نفسه ذات المعالم الخاصة ، لابد أن يقبل التنازل عن نفسه - بلا معالم خاصة - أى لابد أن يستسلم لحضانة محيطة تخفيه لفترة ، تطول أم تقصر لصالح نضجه ، ثم يعود كبيرا مستقلا (موظفا/ دكتورا!!) قادرا على الدفاع عن حق أمه (ومن مثلها) ، يبرىء ساحتها بما كبر به .

قفلة مفتوحة :

وتنتهى الحدوته بأن يفسد الأولاد فرح أبيهم بزوجته الجديدة لتعلن الحقيقة لأبيهم وللناس .

لكننا لا نعرف إن كان الوالد قد رجع لفرع الرمان ليعيشوا فى التبات والنبات ، أم لا ؟ .

وقطم الحدوتة هكذا دون إعلان محدد لطبيعة نهايتها قد يكون ذا دلالة من حيث أنها نهاية مفتوحة ، أو أن استنتاج النهاية السعيدة غنى عن التقدير .

وبعد :

فنحن لا نستطيع أن نجزم أن هذا التفسير له أحقية أن يكون كذلك ، باعتباره تعبيرا عن الحدس الشعبى للطبيعة البشرية ومسار النمو ، لذلك كان علينا أن ننظر من بعد آخر ، بُعد الخيال الشخصى ، وتلاحق الصور الطفلية بأدنى الروابط ، فنعيد قراءة نفس الحدوته من زاوية شخصية تماما ، وهى ظروف الراوى الخاصة جدا ، والتى جعلتها تلتقط هذه الحدوتة مع غيرها بالذات ثم ترويها هكذا من الذاكرة ، وقد تكون قد أضافت إليها ما شاء خيالها أن تفعل لتخرج بالقصة بهذه الصورة دون غيرها .

القراءة الثانية (إسقاطات طفلة فقيرة شغالة) :

فرحت أعتبر رواية هذه الحدوتة هكذا ، بما هى تكثيف لأجزاء متفرقة من حواديت أخرى ، ليست إلا نشاط خيال شخص بذاته ، فى ظرف بذاته ، عبر بها عن حاجاته ، وآلامه ، وآماله بطريقة فضفاضة دون أن يدرى .

فالراوى هنا هو محور هذه القراءة الثانية ، وخيال الراوى الشخصى وقدراته ، لا الحدس الشعبى العام هى المسئولة عن الغموض ، والمفارقات ، والهلهلة ، فى نسيج الحدوتة "هكذا".

فهذه الشغالة الصغيرة مقهورة مقهورة ، وهى فى نفس الوقت متقمصة لأسيادها الصغار الذين يذهبون إلى المدرسة مرغمين ، ويشكون (سرا وعلانية ، بوعى أو من وراء حجاب) من إغارة الأساتذة [١٢] على طفولتهم حتى الالتهام ، وهى تتعاطف معهم كشاهد عابر ، وقد تقدم تحية لبعض المدرسين الخصوصيين شالية بلبن أو ما شابه ، وكلما زاد أحدهم تفوقا زادت معالم الإغارة وضوحا فى أرضية وعى مجتمع أطفال المنزل جميعا ، دون إستثناء الشغالة .

فهى تحكى – من خلال الحدوتة – ما تباشره عيانا بيانا من حرمان أسيادها الأطفال من طفولتهم ، وبالتالى حرمانها من مشاركتهم بطفولتها طفولتهم ، فضلا عن حرمانها الذاتى من الطفولة والشوفان والتلقائية ، بل الحرمان حتى من أن ياكلها غول

التعليم مثلها مثلهم ، فإن كانوا هم قد حرموا من طفولتهم بالتعليم الساحق الماحق الملتهم ، فهى قد حرمت من طفولتها بدون تعليم أصلا ، فهى تطلق لخيالها عنان الإسقاط والإحتجاج والاتهام بالأصالة عن نفسها والنيابة عنهم ، فهى شاهدة ، راصدة للأحداث فى صفحة وعيها ، متقمصة ، مشاركة معا ، ونستطيع أن نستنتج درجة ما من "الطيبة" فى هذه العائلة التى تعمل عندها بما سمح لخيالها بالاحتجاج على "هذا" الأستاذ الغول بما تتعاطف به مع أسيادها الأطفال ، وهذا التعاطف هو نتيجة الطيبة بما يقرب المسافة و يتطور بالسماح إلى السماح درجة من التقمص – وكذلك نستنتج نفس الطيبة من خلال ما ورد فيما بعد من لجوئها لعائلة ما استجارة من غولها الداخلى ، وأيضا من موقف سيدها (حماها) قبيل سفره حين راح يسألها عما تريد ، ثم استجابته لطلباتها (علبة المر وعلبة الصبر).

وهى فى موقفها الراصد هذا ، ومع هذا الجو الطيب (بشكل ما) تظل العارفة الصامتة ، كاتمة السر ، شاربة المر ، حليفة الصبر ، فهى تعيش كل خبراتها فى صمت راصد ، رغم مطاردة الداخل (كل ليلة) وحرمان الخارج طول الوقت .

ولو أنها كانت (تعيش) فى جو أكثر قهرا ، لا يسمح حتى بحركة الداخل فى حلم أو قص حدوتة ، لما عاشت كل هذه الخبرات الداخلية كما بدت لنا فى حركية داخلها مسقطا فى الحدوتة ، ولما تجرأت حتى على مجرد التخيل ناهيك عن الحكى .

واستمرار المطاردة بهذه الصورة الملحة ، إنما هو دليل على استمرار نشاط الداخل ، وخاصة إذا ما خلت إليه ليلا (نائمة أو مستلقية) ، واستمرار نشاط هذا الداخل هو دليل بالتالى على هذا الوضع الخاص الذى هو جماع خليط من: الحرمان المبدئى (شغالة تنام مع المواشى) والأمان (مع عائلة طيبة) والتقمص (لأولئك الأطفال المقهورين بالأستاذ الغول) فيتراكم كل ذلك فى قفزة متوقعة نحو تفكير حالم يحقق حلما منقذا : فكيف ذلك ؟

تتزوج من ابن سيدها (ابن السلطان) بعد أن تكبر ، وبما هى جميلة ، (ولا تنسى هنا أنها استعملت كلمة "سيدها" لتعنى بها حماها كما أثبت الباحث).

لكن القفزة كبيرة عليها.

والجريمة (الجرائم) التى لم ترتكبها ، تلح عليها بالذنب ، وأنها لا تستأهل هذه القفزة ، فهو الذنب لأخذها ما لا تستحق حتى فى الخيال الحالم ، ولا يتصور أحد أن مجرد براءتها الحقيقية ، ويقينها منها ، هى مبرر لرفض الشعور بالذنب ، بل إن الشعور بالذنب يأتى عادة على جريمة لم ترتكب ، وبالذات هو تفاعل تقمصى لعملية التأثيم Guiltifying [11] التى تمارسها السلطة الوالدية (بكل درجاتها وصورها) منعا لقفزة تطور متجاوزة غير مضبوطة.

وحتى لا تتمادى الشغالة الصغيرة فى حلمها من الاقتران بابن سيدها فإنها تسارع بضبط جرعة قفزة الحلم بإجهاضها بقتل/التهام/ خطف أطفالها أولا بأول - فتحقق بذلك تسوية محدودة ، فهى تتزوج من إبن السلطان مع وقف التنفيذ المؤمّن لهذا الزواج ، وحيث لا أمان ، يظهر المنافس الواقعى ، الأحق منها بفتاها - الزوجة الجديدة ، وهذه "التسوية" Compromise تفيد وظيفة أخرى ، وهى أنه "بيدى لا بيد عمرو" ، وكأنها إذ سمحت

بعدوانها أن يرتد عليها فيخطف أولادها واحدا وراء الآخر ، ويتهمها بأكلهم ، قد حققت بنفسها ما يبرر حرمانها من حلمها الجامح ، فخففت من احتمال وقع آلام جديدة ، وبررت هجرا محتملا .

لكن إلى متى هذا القهر الداخلى والعجز حتى عن الحلم ؟

فلابد من قفزة جديدة إصلاحية تصالحية ، ذلك أنه باستمرار صبرها ، وكتمانها يبدو أنها شعرت بأنها قادرة على تجاوز ذنبها ، فتسمح لخيالها (بما فى ذلك عدوانها المتصالح) أن يعيد إليها أبناءها كبارا مستقلين ، فيعيدون بدورهم لها أباهم .. حتى لو لم تعلن نهاية الحدوتة ذلك صراحة .

وبعد

فكأن هذه القراءة الثانية تتحرك فى أحلام وخيالات شغالة طفلة مقهورة رغم طيبة العائلة التى تعمل عندها ، وتقارب عمرها من أعمار "أسيادها" الصغار ، واشتراكهم معها فى الحرمان من الطفولة ، رغم اختلاف الأسباب .

وهكذا ومن خلال النظر فى القراءتين معا: نستطيع أن نحدد عدة ملامح دالة فى تعاملنا مع هذا النوع من التراث ، من خلال إيحاءاته لما هو تركيب بشرى شديد الغور والتكثيف ، ولما هو مأزق التعليم فى مواجهة نبض النمو الطبيعى ، ومن ذلك :

١ - إن الخيال الطفلى - فى ذاته - هو أقرب موازيات مسارات وعى الحدوتة .

٢ - إن ظروف الراوى - وخاصة إذا كان طفلا - وظروف الرواية وقدرات حاكيها [١٢] ، وسنه طبعا - كل ذلك متغيرات لابد من أخذها فى الاعتبار عند القراءة والتأويل .

٣ - إن توظيف جدل الخيال الطفلى مع الحدس الشعبى ، فى مسيرة التربية والتعليم ، مع مواجهة مأزق "الالتهام فى مقابل الحضانة" من جانب الإغارة التعليمية .. هو من أصعب تحديات العصر الحاضر لتنشئة الأطفال بعد تسطيح التدريس فى المدارس ، وتشويه الإعلام لوعى الناس ، ولوعى الأطفال خاصة بالتهام كل الوقت حتى أثناء النوم .

٤ – إن اعلان تحدى المدرسين وكراهية التعليم ، وثقل المدرسة فى اللعب والأغنية والحدوته ، في ود عابث (١٣) ، ليس موقفا أخلاقيا ضارا ، بل إنه اعتراف تربوى واع يساعد على التجاوز ، ويقاوم تعتيم الوعى وتشويه الوجدان الطفلى خاصة ، باصطناع صورة زائفة وكأنها محببة ، لعملية التدريس. بمعنى أن السماح بالتعبير عن المشاعر السلبية ، هو الذى يعمّق الجانب الآخر للانتماء الحقيقى .

٥ – إن "عالم" الشغالات الصغيراتً خاصة – لم يدرس الدراسة الكافية ، وهذه الفئة –إذا درست– إنما تدرس من الظاهر مثل حيوانات التجارب (حتى فى الإبداع القصصى) فى حين أن عالمهم الداخلى زاخر بكل ما هو إنسانى عميق .

ثم إننا – بعد القراءة المزدوجة – نجد أنفسنا أمام مزج دقيق بين ما هو خاص وما هو عام ، وبين ما هـو حاجة طفلية آنية ، وما ـهو تاريخ شعبى ممتـد ، نراه وهـو يتكثـف فى حـدس شـعبى آنى رائع .

وقد كنت أريد أن أتوقف عند هذه المرحلة وأكتفى بهذه القراءة المطولة لهذه الحدوتة دون غيرها ، إلا أننى عثرت على ثلاث حواديت أخرى روتها نفس الراوية (الطفلة الشغالة) فى نفس المرجع ، فرجحت أن الأفضل أن أتقدم خطوة أخرى ، أتعرف عليها - وعلينا - من خلال هذه الفرصة النادرة ، واخترت أن أبدأ بالحدوتة التى لوّحت لى بعمق داخلى آخر ، حيث تكثف إسقاط العالم الداخلى على شخوصها تكثيفا يكاد يغرق أى ربان فى زخمه ، هذا فضلا عن تناولها لمسألة " الغول" كذات داخلية ضمن ذواتنا المتعددة ، ثم إنها تميّزت بنقلاتها الشاسعة التى تبدو لأول وهلة بلا رابط أصلا .

الحدوته الثانية :

قمر بين حيطتين [١٤]

كان فيه واحد إسمه الشاطر محمد ، وأبوه ملك ، الشاطر محمد كل ما يعدى ، يلاقى واحده عجوزه ، عامله حجتها إنها بتصلى ، فقال لها: يا ستى قومى ، قالت له "يا أخى قوم" ، هوا أنت عامل زى القمر[١٥] بين حطتين ؟؟ قام كل نوبه تقول كده ، قام راح لابوه "يابه ، فيه ست عجوزه ، كل ما تعدى تقول لى انت ولا قمر بين حيطتين ، وقال : أنا لازم حاوصل لها ، قال له "يا بنى ، أنت لو عديت مالسبع الأولانى ، مش حتعدى مالسبع الثانى" قال له "لا سيبنى وهاروح".

قام فات ، لقى واحد اسمه محمد برضه ، لقاه بياكل الناس ، وبيقتلهم ، والملك حاكم عليه بالإعدام ، فالشاطر محمد هوه اللى نجاه ، ولما طلع ، قال له: أطلب منى حاجة يا شاطر محمد " قال له: أطلب منك

توصلنى لقمر بين حيطتين". قال له: طب تعالى: إركب الفرس ، ونى هركب وراك ، قام ركبوا ومشيو ، ومعاه السيف ، بقى يقابلهم الحيوانات الوحشه ، يقتلهم ، وبعدين وصلوا كده - لقوا القصر بتاع قمر بين حيطتين ، لكين عالى قوى ، وعليه الناس واقفين ، قام خدلهم سندوتشات وفيها مخدرات ، وهم لابسين أبيض - لبس أبيض زيهم ، وقعدوا يفأروا ، قاموا نعسوا.

قام طلع لقمر بين حيطتين فى القصر ده بقى ، قام قال لها إيه ؟ "أنى أخويا عايز يتجوزك" قالت له "إيه اللى جابك؟" قال لها "انى عملت فى الحراس ، وأكلتهم مخدرات فى السندوتشات" ، قالت له " طيب إعمل كده بكره وخليه ييجى" قام قال لها "طيب".

فعمل (١٦) ، فطلع لها الشاطر محمد نفسه ، قالت له "إنت عاوز ايه منى" قال لها "عاوز أتجوزك" قالت له

"إذا أبويا طلب منك أنك تعمل لى القصر ده[١٧] كله ، تصورهولى بالقشاية ، كله يعنى". قام قال لها "ونى حعمل إيه فيه" ؟ قامت قالت له "خد صورة م القصر أهه ، أنى مصوراها" - وبعدين راح لأبوها ، قام قال "صورلى القصر بالقشاية من جوه كله" قام قال له "إدينى فرصه" قال له "خمستاشر يوم" ، بعد ما الخمستاشر يوم إيجو ، قام راح إداله الصورة.[١٨]

هى قالت " أنا حابقى فى الجمل الأخير اللى معلهوش نور ، الجربان" الملك راح جاب كل عرسان بلدها ، بتوع بلدها ، يختارو الجمال الحلوه ، وبعدين قام هى فضلت فى الجمل الأخير .. بتوع بلدها اختارو الجمال الحلوه ، وهو قال له "أنى حختار الجمل ده".

قال له : طيب يا شاطر محمد مبروك عليك ، وهيه العروسة فيه .

وقال له : "أنى عاوز أروح بها على بلدنا" – قام خدها وراح .

وهم فى الطريق ، التلاتة جالهم النوم – عاوزين يناموا – فالشاطر محمد قال له "نام ونى وهى حنفضل صاحيين" قال "لا نام أنت .. وهى الأول ، عشان أنى برضه مش حيجيلى نوم إلا أما أنتم تصحو "فالشاطر محمد نام" ، والغول (١٩) نعس هو كمان وهى فضلت قاعدة .

فات واحد سحير ، قام سحرها وخدها ، صحيوا ملقوهاش جنبهم ، قام الشاطر محمد قال له "مش أنى قلت لك" قام قاله "ياللّه ندوّر" قام قعد يدور. الناس يقولوله : دا فى البلد دى راجل سحير يسحرك ، قال لهم وصلونى له ، قام وصلوه ، قام دخل عنده وقعد وكله معاه ، فالسحير طلع ، فمحمد دخل لقمر بين حيطين ، قالت له إطلع من هنا ليقتلك عمى ، قال

"لا دنى حنجّيكى" قالت له "حتنجّينى إزاى؟" قالها اقعدى إضحكى معاه ، وخليه سكران ، وقولى له : "إحنا روحنا بتطلع ازاى" وبعدين لما إيجا ، وقعدوا يضحكوا قالت له: إحنا روحنا بتطلع ازاى" ، قال لها "أنى روحى مش زى روحكو" قالت له "أمال روحك ازاى" قال لها "دانى روحى فى زور كتكوت ، والكتكوت فى كوز ، والكوز فى بطن أرنب ، والأرنب فى بطن سبع".

وبعدين لما جالها محمد [٢٠] ده قالت له ، قام خد الجمال اللى عند الساحر معاه ، وقال له [٢١] أوعى الأرنب يطلع من بطن السبع ، أصل [٢٢] اقتلك أنت ، قال "طيب" قام مسكوا الأرنب ، ومسكوا اللى فيه والكوز ، والزور [٢٣] وكله ، قام راح للسحير قال له " أنى عايز قمر بين حيطتين" قال له "أسكت أصل

أسحرك" "روحك فى إيدى أهه" – ووراه روحه ، وقال له "خش خدها". قام خش خدها ، قال له "شيل تراب من تحت رجليه والناس تطلع" كل ما يشيل ، الناس اللى مسحورة تطلع ، وبعدين قام قال له "سيبنى أعيش بقى" قال له "لا" قام موّت الكتكوت قام السحير مات .

وبعدين بقى يوريهم لهم (٢٤) العيال المسحورة ، وأبوهم يقول : أطلب كيل من المال ، ونىِ أديك "يقول لأ مش حاطلب حاجة ، قام راح لواحده". واحده قالت له "ودينى دنا أبويا يقولك أطلب كيل من المال ، قول "حط لسانك على لسانى" وبعدين قام راح ، قام قال له "كده" قال "لا يبنى. دا اللى يقول بالسر ده حيموت" قال له "محدش" كان اللى يحط لسانه على لسانه يسمع كلام العصافير ، وكلام الطيور كلها ، وبعدين قام راح

حط لسانه على لسانه ، قام وهو ماشى ، سمع الحمامة واليمامة بيكلّموا بعض ، وتقولّها: إن أم الساحر وأخته حييجوا على الشاطر محمد ، ومراته ، وهم نايمين يقتلوهم ، قام سمع ، وفضل صاحى ، لغاية ما إيجو ، وبعدين قام ، إيجَتْ برضه حمامه ، ويمامة ، وقالت للثانية ان هيقتلوه الساعة واحدة بالليل ، قام محمد قال "طب وَنيِ حدخل لهم إزاى؟ وادى واحده وواحده نايمين "قال طب انى فكرت" ، قام دخل وهم نايمين قتلهم – أم الساحر وأخته – وشالهم بعيد. فالشاطر محمد صحى هو ومراته ، قاله "إيه اللى دخلك من غير ماتستأذن بالليل؟" قال "إنت كنت حتتقتل بالليل" قال له "من مين؟" قال له "تعالى وأنا أوريك الجثة" قام وراها له ، قال له "طب قولّى الحكاية" قال "لو قلتها لك حتموت" قال له "لازم تقول"

قال له "أنى حاطط لسانى على لسان راجل عالم ، وباسمع كلام العصافير". وقام ميت .

قامت مراته قالت له "كده ، موّت اللى هو بينجينا من الوحوش؟ وقالت له لف البلاد واسأل وقول: "اللى موت صاحبه يعمل إيه؟" وبعدين مشى مشى ملقاش أى حد يقول له ، وبعدين لما رجع قالت له "جيت بخير؟" قالها "لأ" - قالت له "لف تانى" قام لف ، قام واحد فلاح قال له: إللى موت صاحبه يجيب عيّل يكون مولود ولسه ماشمش هـّوا ، واقتلوه ، وحطوا الدم عليه.

كانت مراته حامل فى سبع أشهر ، قام راح قال لها كده وجاب الدكتور ، وقام منزّل الولد وهو ناقص ، وخد دمه ، وقام حاطط عليه ، قام محمد صحى ، وعاشوا فى التبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

القراءة :

تمهيد :

يلاحظ ابتداء كيف أن هذه الحدوته أطول ، وأقل تماسكا وأشد تكثيفا ، وبالتالى أصعب قراءة ، وأدعى إلى الخطأ فى التأويل طبعا .

وقد وضح لنا منذ البداية صعوبة قراءة هذه الحدوته أساسا من منطلقين: فالأرجح أنها تمثل – فعلا – حدسا شعبيا عاما ، وهذا ما سنركز عليه ، ثم نعيد القراءة بايجاز من منطلق أنها تعبر عن راويها لتكون بمثابة هامش لاحق للقراءة الأساسية أكثر منها قراءة موازية مثل التجربة الأولى.

ذلك أن الحدوتة بصياغتها هذه تفرض علينا فرضا يقول بضرورة قراءتها بداية ، أو تماما ، من الداخل ، بمعنى أن نرى كل شخوصها (أو أغلبهم على الأقل) باعتبارهم تركيبات ذاتية فى حوار وجدل وصراع

وتبادل مستمرين ، وهذا لا يعنى أنها ذاتية تماما (فى مقابل مفهوم مسطح للواقعية) وإنما يعنى أنها تحقق - من منطلق شعبى / طفلى معا - فكرة تعدد الذوات من ناحية ، واعتبار - الراوى (الأديب) ممثلا ومختبرا ، ودالا ، وجمّاعا ، ومَصهرا لشخوص واقع آنى ، وواقع تاريخى معا ، فالذات الماثلة هنا ، نقرأها من الداخل ، ليست ذات الطفلة مما يمثلها وعيها الأظهر فى حدود منطق الحياة العادية ، وإنما نفترض أنها هى ذات " قد جمعت تاريخها وتاريخ تراثها الشعبى فى تراكيبها وتنظيماتها الكياناتية الذاتية ، لتسقطها على هذا العمل الأدبى المتميز هكذا.

ولقد انتبهنا إلى هذا الفرض من خلال ما يلى :

١- من بداية الحدوته لم يحدد الحكى أن من تدعى "قمر بين حيطتين" هى فتاه بعيدة المنال مثل (إبنة سلطان) ، إنما أعلن وجه الشبه مباشرة "أنت عامل زى القمر بين حيطتين" فالتشبيه هنا وصلنا كتنبيه مبدئى أن بداخل الشاطر محمد يوجد وجه آخر

محجوز خلف حواجز وعى آخر ، ويلحق ذلك مباشرة ما يوحى بالتفضيل أو التقرير: إنتى ولا قمر بين حيطتين" – ولم نتبين احتمال وجود هذا القمر فى صورة فتاة بالخارج إلا حين قبل الشاطر محمد التحدى "أنا لازم هوصل لها" رغم تحذيرات العجوز من مخاطر المحاولة (السبع الأول والسبع الثانى) إلا أن هذا السعى إليها الذى وجهنا للخارج قد لا يكون إلا سعيا للداخل مسقطا على الخارج (أنظر بعد) .

٢– من البداية أيضا ، أعلنت الحدوته احتمال أن **الشاطر محمد ، هو هو محمد** (القاتل والمتهم والمحكوم عليه بالإعدام والمنقذ والبطل الحامى والراعى المفتدى .. إلخ) – ولا يوجد ما يبرر التسمى بنفس الإسم إلا حدس غائر يؤكد أنهما واحد "كثير فى واحد" – وعلاقتهما (رغم كون أن واحدا "شاطر" والآخر قاتل / أو غول ... إلخ) هى علاقة أخوة : "أخويا عايز يتجوزك" – وصداقة "اللى موت صاحبه يعمل إيه" ، وتعاون معظم الوقت .

٣- طوال الحدوته ، كان لابد للسامع (والقارىء) أن يجهد نفسه قبل أن يميز من هو المقصود فى هذا المقطع دون ذاك: هل هو الشاطر محمد ، أم محمد (وسنسميه تجاوزا القاتل محمد ، والبطل محمد - وان كان التأكيد على ظهوره (ظهورهما المتداخل) هكذا - دون تحديد فى كل مرة عن من "هو" "منهما" هو مرجح أيضا لفرضنا الحالى (أن الكل: نوات داخلية أساسا).

وانطلاقا من هذا الفرض الذى يقول: **(إن شخوص الحدوته ليسوا إلا ذوات الداخل مسقطة إلى الخارج)**، نستطيع أن نواجه ونفسر ما ورد فى الحدوته من معالم مألوفه ، وذلك من خلال النظر إلى تعددادات التركيب الداخلى ، ومن هذه المعالم :

١- إن الشاطر محمد ، أنقذ القاتل محمد من حكم الإعدام ، دون مبرر ظاهر ، وبالرغم من جريمته (جرائمه) المتكررة.

٢- أن ما قام به محمد الثانى[٢٥] كان أغلبه خيرا سواء فى (أ) قتل الوحوش ، (ب) أم فى تحقيق أمل محمد الأول فى الزواج

من فتاة أحلامه ، (جـ) أم فى تخليص صديقه من أزماته: إما باسترداد فتاته من الساحر ، وإما بحمايته من مكيدة أم الساحر وأخته لقتله ، وقتلهم قبل أن يقتلوا محمد الأول.

٣- إنه بعد كل هذا الفضل والحماية كان نصيب محمد الثانى هو الموت بسبب حب الإستطلاع وعدم مسئولية محمد الأول – (مما يذكرنا بقيمة (مقولة) ضرورة حفظ السر ... الخ) فكأن محمد الأول قد أنقذ محمد الثانى فى البداية بلا مبرر ظاهر ، ثم عاد فأماته بلا مبرر أيضا ، اللهم إلا حب الاستطلاع!! .

٤- أن محمد الأول عاد فأنقذ (أحيا/بَعَثَ) محمد الثانى بالتضحية بجنين من صلبه ، لكنه جنين لم يتخلق بعد .

٥ - أنه يبدو أن الراوية (الشغالة / ١٢ سنة) لم تتقمص بطلة هذه الحدوته بنفس درجة الحدوته السابقة ، هذا إن كانت قد تقمصتها أصلا ، وذلك رغم الاسم "قمر بين حيطتين" الذى يوحى بموقفها السجين حالة كونها شغالة .

٦- إن إحياء ضحايا الساحر من أطفال بلا عدد ، جاء حشرا وسط السياق بما يحتاج إلى غوص إلى البحث عن علاقات أعمق ترد على التساؤل عن: من هو الساحر؟ ، ومن هم "العيال المسحورة؟ ، ومن هو أبوهم"؟ (عارف السر ، وعارف الطريق إلى معرفة لغة الطير).

وقد يشير هذا الحدْس الشعبي إلى الفكرة التي أكررها من أن الحوادث والرؤى والذكريات فيما هو تحت السطح هم ، شخوص أكثر منها أفكار ، وأن ما هو تحت الأرض ، تحت الأقدام هو هذه الشخوص تحت الشعور الظاهر.

ثم : إلى محاولة القراءة - أغلبها من الداخل - حسب تسلسل الحكاية :

فنجد أن الشاطر محمد (محمد الأول) بدأ بحثه المعرفي بقبول تحدي عجوز مشكوك في تقواها (عاملة حجتها إنها بتصلى) - فقد تكون هذه العجوز هي إحدى صور الذات الوالدية الوصية والواعظة (سطحيا) ، وأنها من فرط ثقتها بسيطرتها تعلنه أن ذاته الأنثوية

(الطفلية) المكملة لوجوده حتما[٢٦] ، التى هى هو (قمر) ، هى بعيدة المنال (بين حيطتين) ، ومع أنه هو "مثلها" "عامل زى" ، إلا إنه ليس هى ، وإن كنت أميل إلى عدم اعتبار العجوز المدعية التقوى - وكذلك الملك أباه [٢٧] ، لا أعتبرهما ، من الذوات الداخلية ، فالعجوز أيضا هى تحديات النمو وإعاقاته ، والملك كذلك : هو التحفظ الواقعى من مخاطر السعى.

ونتذكر هنا أن العجوز لم تقل له - مثلا - أنت موعود بهذه الفتاة ، كما لم تتنبأ له بها ، أو تشير عليه بجمالها وأحقيته بالسعى لنوالها - ولكن الصياغة كانت من الغموض بما يوحى بأنها استثارة للتكامل بالإلتحام بالاستقطاب الغائر فى وجودنا كما أسلفنا - ثم أنها (قمر) : بنت ملك (أيضاً).

ثم تأتى دلالة الاسم لتقول : إن هذه الـ "قمر بن حيطتين" هى فتاة ، وهى جليسة حواجز الداخل (حيطتين) ، وهى بعيدة المنال : فى آن .

ويقتل الشاطر محمد التحدى رغم تحذيرات والده من السبع الأول فالثانى .

وعلينا أن نتذكر – دون ربط مباشر – أن النمو (التكامل) انما يحدث فى قفزات / بعد استيعاب ، وهذه القفزات تتخطى مأزق الإعاقة الناتجة من الميل إلى التثبت عند كل مرحلة.

وتحتاج رحلة "النمو / التكامل" إلى قبول كل محتويات / نوات الداخل ، من أول التنويعات المتبادلة للذات الظاهرة ، إلى إحترام الدفع الغريزى جنسا أو عدوانا ، وقد قدرنا أن محمد الثانى هذا هو التجسيد الذاتوى للكيان العدوانى الكامن فينا [٢٨] (بعد تذكر أنه يحمل نفس الاسم "محمد برضه").

– فالعدوان قاتل ملتهم

– وفى نفس الوقت هو محكوم عليه بالإعدام من الملك (إنكارا وكبتا).

فإذا اعترف محمد الأول بعدوانه ، (إذ نجاه من الكبت/الإعدام) تصالح مع قوته المتمثلة فى التكامل مع الجانب الإيجابى من حفزه

التقدمى المبدع – وهذا الاعتراف فالتصالح يحور العدوان "القتل الالتهام" ، إلى العدوان "الحماية الإقدام" حالة كونهما التوجه معا للأمام (ومعاه السيف ، يقتل الحيوانات المتوحشة) ولا يعود يأكل الناس.

وكأن الذى يجعل العدوان يقتصر على الإغارة فالالتهام ، هو إنكاره (الحكم عليه بالإعدام).

والذى يجعله تقدما وتخلصا من وحشية الوجود البدائية هو الاعتراف به والركوب معه على فرس واحد !!.

وكأن العدوان إذا انفصل عن "الكل" أصبح حيوانا وحشا(٢٩) ، فإذا تصالح مع الوعى المسئول بحثا تواصليا عن المعرفة وحفزا إلى العلاقة بالآخر ، إذا حدث ذلك ، أصبح العدوان سلاحا حياتيا يستعمل الحيلة (الذكاء) لما يحقق أكثر فأكثر إنسانية الإنسان.

رحلة المعرفة:

يحسب أغلب الناس أن رحلة المعرفة هى أساسا (إن لم تكن تماما) رحلة اكتساب معلومات ، فى حين أنها أيضا (وربما قبلا)

رحلة التعرى فالنمو الذاتى بما يشمل ذلك تقليب وتنظيم وترسيخ المعلومات[٣٠] (البيولوجية القح وذات الحضور الرمزى) أثناء النوم ، من خلال نشاط الحلم .

وقد قرأت – لذلك – أن **تخدير حراس قصر "قمر بين حيطتين" هو النوم** ، فيتقدم حفز العدوان (– والكشف المعرفى من أعظم مظاهر العدوان الإبداعية[٣١] – إلى "طلب القرب" من القمر الحبيس .

وأواصل القراءة بمثابرة عنيدة وإلحاح حقيقى لا يخفى فأقول إن شرط القبول (التكامل) هو معرفة أكثر فأكثر ، معرفة الداخل بكل تفاصيله . .

كما أن شرط التكامل (بالالتحام الجدلى بالنقائض) هو **تنشيط البصيرة فى الأعمق فالأعمق .**

وهذا هو ما بلغنى من معنى تصوير القصر "بالقشاية من جوه" (اللاشعور) .

ولكننا نفاجأ هنا فى هذه الحدوته أن تحقيق شرط الملِكْ (والد "قمر بين حيطتين") لم يكف مهرا لابنته ، فنجد أنفسنا أمام شرط

آخر (مستعار من حدوته أخرى فى الأغلب) ، شرط نستنتجه من السياق لأنه لم يُعلن مباشرة وإنما وجدنا أنفسنا فجأة أمام مراسيم تنفيذه .

فنرى "طابور العرض" على الجمّال ، فنعلم أن الملك قد أعلن أنه سيزوج ابنته "قمر بين حيطتين" لمن يعرف على أى جمل تركب من جمال العرض ، فتعطى "قمر بين حيطتين" سر جملها للشاطر محمد (مزيد من معرفة أسرار الداخل) ، والسر هو أن الجمل **الذى تركبه هو طى المجهول (ملهوش نور)** كما أنه ليس جذابا صحيحا مبهرجا (كان الجمل أجربا) – ونحسب أن هذا وذاك – من خلال رحلة الداخل التكاملية قد يشيران إلى أن **الداخل** – رغم بكارته وضرورته وحتم الاتحاد به – **هو طى الكتمان ، وحبيس تشويهنا له بإنكاره وفهمه بما ليس هو .**

ولمجرد النجاح فى اختراق المحاذير والقفز على كل الحواجز ومصارعة كل الوحوش الحائلة دون الإحاطة بالقصر "من جوه" واكتشاف الجمل المظلم الذى تقبع فيه ذاتنا الأخرى ، بعد كل ذلك: لا تنتهى قصة الحياة ، بل لعلها تبدأ .

فالمعرفة مسئولية ، والتكامل اختبار ، ومرونة حركة النمو تحتمل كل حركية **الاتصال / الانفصال / المعرفة / الدفاعات / القتل/ الإحياء / الموت / البعث.**

وهذا ما نراه فى بقية القصة:

إذ تتطور الحدوته بغير ما نتوقعه عادة ، حين يعزم كل من المحمدين على بعضهما البعض بالنوم (أولا) ثم لا يلبثا أن يناما هما الاثنان رغم وعد محمد الثانى (الذات العدوانية الحامية) بالسهر لحماية لقاء التكامل (محمد الأول وحبيبته / زوجته قمر) – فالعدوان هنا يمتد ؛ بعد الحماية والإقدام والتعرف ، إلى وظيفة جديدة متصلة: **باليقظة والانتباه والحذر** ، فإذا أغفلنا وظيفته المستمرة تحت مظلة خادعة تسمى **أمان الوصول**" فنحن نعرض وجودنا إلى بتر جديد بالغوص إلى جوف ظلام جديد ، متجدد .

وهكذا تعلن الحدوته أن البحث المستمر (فى الداخل / الخارج/ الداخل/ .. إلى ما لا نهاية. هو جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة ، والبحث المعرفى بهذه الصورة لابد وأن يظل متتابعا طول الوقت ، ومتسلحا بيقظة عدوان لا يهمد .

وقد قرأت "السحير" (الساحر) هنا باعتباره القوى التى تخفى "في الداخل" – وفورا – كل الشخوص والمعلومات المطبوعة من الخارج ، فتحرمنا من التفاعل معها ، والنمو بها ، وهذا ما أعرفه عن نشاط أغلب الحيل الدفاعية العامية – مثل الكبت والإنكار والمحو .. الخ فهذه الحيل تدفن الشخوص الذوات الداخلية فلا يبقى على السطح إذا إشتدت هذه الحيل إلا وجود مسطح ، نفعى ، ذو منطق قشرى.

فكأن اختطاف "قمر" واختفاؤها هو نوع من التراجع – بالغفلة – عن استمرار الإحاطة التكاملية بالمعرفة ، وكأن السحير هو الحيل (الميكانزمات) الشديدة الخفاء[٣٢].

إذن – هكذا قالت لى الحدوته – علينا ألا نكتفى بمعرفة أغوارنا الداخلية وذواتنا النقيضة ، وإنما علينا أن نعرف كيف نحافظ عليها وعلى كشفنا لها وخاصة ضد ألاعيب الحيل المعتّمه "والعامية" "والخافية" ولا يفل الحيل إلا فضح سرها (معرفة مكان روحها) والمعرفة تتبع المعرفة ، والكشف ينير الكشف إلى كشف أعمق وهكذا – والحدوته تعبر عن ذلك أنه :

بمعونة وإقدام وذكاء العدوان ، محمد الثانى ، تحصل قمر على سر هذا الساحر الذى خبّأ طفولتنا وغيرها (العيال المسحورة) بعيدا عن نبض الحياة الكشفى النامى.

وفجأة تقفز الحدوته قفزة أخرى واسعة تدهشنا فعلا ، لكننا سرعان ما نكتشف أنها فى نفس الاتجاه : مزيد من كشف السر ، واختراق حواجز اللغة ، حتى لغة الطير ، ذلك أن المحمدين بعد أن استعادا نبض التكامل (قمر بين حيطتين) بقتل الساحر (بمعرفة سر بقائه / موقع روحه (٣٣)) لم يكتفيا باطلاق سراح قمر ، بل **أطلقا سراح "المحتوى" المسحور جميعه (يشيل تراب من تحت رجليه والناس تطلع)**

وحين يصل المرء إلى هذا المستوى المعرفى ، لا يصبح المال هو هدف سعيه ، ولا يرضيه إلا مزيد من أدوات المعرفة ، فالمكافأة هنا – مكافأة المعرفة – هى معرفة – أعمق وأرحب: لغة الطير (تذكر مغزى قصة سيدنا سليمان) ، أى اكتساب سلاح جديد لمواصلة الكشف ، وهذا الكشف – مثل ما سبق – ليس لمجرد اتساع

الإحاطة ، وإنما هو ضرورى للنجاة من هجوم جيوش الظلام والإظلام ، فالكشف هو سلاح العدوان الإيجابى ، والعدوان (محمد الثانى) هو وسيلة الكشف ، ومزيد من الكشف ، وهكذا .

وهنا نواجه مأزقا آخر ، إذ كيف أن الحيل الدفاعية (الساحر) هى –فى جرعتها المناسبة – دفاع ضد فرط المعرفة ، ومن ثم احتمال الإعاقة بالتوقف المنبهر أو اليأس العاجز أمام هول المسيرة ، وفى نفس الوقت فإن مزيدا من المعرفة (على حساب الحيل الدفاعية / الساحر) هو حفز إلى حركية أرحب ، ونمو أشمل؟ وهو الحامى ضد حيلة أخرى بديلة (أم الساحر وأخته) .

ثم إن النقلة التالية فى الحدوته تنبهنا – كما فعل معظم المتصوفة – أن ثمة معرفة لابد أن تظل طى الكتمان الشخصى ، حتى على الشعور نفسه (محمد الأول) – وأن الحقيقة إذا أعلنت (بلا داع ولغير أهلها) قد تفقد سر فاعليتها ، وهذه الفكرة تتكرر باستمرار فى الأدب الشعبى وفى الفكر الدينى التصوفى على حد سواء .

وهنا ، حين لا يستطيع الشاطر محمد أن يضبط جرعة حب استطلاعه (مثل حكاية الهبوط من الجنة) (وحكاية موسى والخضر) فيكشف العدوان الحامى (محمد الثانى) عن طبيعة وجوده ، وكفاءة قدرته على الحماية ، ولكن حين يظهر العدوان صريحا مستقلاً مباشرا. فإننا لابد أن نرفضه ، ما دام عدوانا.

ومازلت في كل كتاباتي وحواراتى أدافع عن حق العدوان (لا العدوانية ولا الاعتداء) فى التواجد فى وعى الناس ، وما زلت ألقى دائما نفورا من اللفظ (لفظ العدوان) ورفضا لأى احتمال إيجابية فيه ، وهذا الرفض والإنكار للعدوان (من الكافة الساكنة) هو قتل له ، وبالتالى هو حرمان لنا من وظيفته الإيجابية .

وهكذا قتلوا محمد الثانى بإعلان سره ، فأنكرناه .

وباختفاء دور العدوان الإيجابى - يبتر الوجود من جديد ، فيجهض التكامل ، ويتعذر الالتحام بالشق الآخر من الوجود / أى يجهض الإبداع ، أو على الأقل - بحسب ما ورد فى الحدوتة - يوقف حتى يستعيد طاقته الخلاقة (إحياء العدوان) :

فيبدأ البحث من جديد ، ويبدأ الكشف من جديد ، وتعطينا الحدوته قيمة جديدة لعدواننا اليقظ ، حتى على حساب مجرد تكاثرنا العددى فى تكرار سطحى ، وكأنها تقول "أولى أن نلد أنفسنا ، وأن نبعث "دائما" من جديد ، من أن نختبىء فى أولادنا تحت زعم أنهم الأمل والمستقبل دوننا نحن الآن ، بل إن عمانا فى وهم الاستمرار الجسدى يستحق وقفة يقظة تخيرنا بين استعادة يقيننا بما فى ذلك العودة للاعتراف بحق العدوان فى التواجد وضرورته لمسيرة التكامل ، وبين الاختباء فى زعم المستقبل والولد ، اختارت الحدوته أن تقدم الأخير قربانا للأول ، قدمته قربانا حسيا(إجهاضا)[٣٤] لم يتخلق لبعث العدوان التكاملى اليقظ المبدع .

وبهذا البعث ، تعود حركية التكامل من جديد .

وتنتهى الحدوته بالصيغة المألوفة ، وإن كنت قد تمنيت ألا تكون كذلك ، حيث كنت أفضل أن تكون النهاية مفتوحة مثل الحدوته الأولى .

وبعد

فأحسب أن القارىء لابد قد انزعج - مثلى وأكثر - من هذا التفسير البالغ الإدهاش حتى الرفض ، وليطمئن : فلا أنا متمسك به تماما ولا أنا رافض غيره أصلا ، لكننى اكتشفته أثناء القراءة - كتابة - هنا ، فلم أرفض إيحاءاته ، وما زلت متمسكا بدور الراوى الشخصى فى هذه الصياغة :

كما أننى أرجح أيضا أن تكون الراوية هى نفسها "قمر بين حيطتين" ، ولا تقتصر هذه الرغبة على مجرد الخلاص الجسدى والعملى من "الخدمة" بل إنها - وكل الشغالات فى سنها - تحتاج إلى من يراها (الحاجة إلى الشوفان) ، من يراها فى ظروفها فيقدر همس وجدانها ، ومن يراها إنسانة لها "داخل" ، ولها أحلام ولها لغتها الصامتة ، ولها حسنها رغم اختبائها فى الظلام (جمل بلا نور) وفى ظروف مشوهة (الجمل أجرب) (هل تذكرون "قرفصة" مثل هذه البنت فى ركن المطبخ بجوار صفيحة الزبالة وقد أطفىء النور وغلبها النوم من التعب طول النهار ، وهى لا تجرؤ أن تذهب للنوم قبل ستها؟؟)

ثم إن أحلامها أن ابن سيدها (الذى تحبه أو ربما تتوهم أنها تحبه). (راجع الحدوته السابقة). ،هو شاطر ، لكنه دمث ، عرفت

أنه لا يستطيع اختطافها ورؤيتها وإنقاذها .. الخ ، فأدارت صورته لترى وجهه الآخر فتبدت لها صورة البطل الذكى العارف المقدام (محمد الثانى) فتتضاعف قدراته فيتغلب على الصعوبة تلو الأخرى، ويكتمل بإقدامه حتى يلتقى بها فى النهاية فينقذها .

وكما نلاحظ ، فهذه ليست قراءة ثانية مثل المحاولة الأولى ، إلا أنها الأرضية "الشخصية" التى أثبتها لأعلن للقارىء أنه لم يغب عنى الوجه الأبسط لهذه الحدوته ، لكننى مازلت أفترض .

(١) قدرة هذه الطفلة - والوعى الشعبى - على اختراق طبقات النفس إلى أغوار أغوارها .

(٢) أن العالم الخارجى هو مسقَطٌ ومسرح للعالم الداخلى ، وخاصة مع (بدايات حركية المعرفة والتواصل على الأقل) .

(٣) أن العالم الداخلى هو جماع العالم الخارجى - حى كما هو - فى حركية دائبة ، وليس فى مجرد رمزية مختزلة ، بمعنى أنى حين أقول أن "قمر بين حطتين" هو الوجود الداخلى القابل لوجود

"الشاطر محمد" ، لا أنفى وجودها بالخارج حبيبة مجهولة أو معلومة، ولكنى أعلن أن وجودها فى الخارج يبدأ إسقاطا من هذا الوجود الداخلى ، ثم يتواصل حوار الداخل والخارج للتعديل والتطوير حتى يتموضع الداخل فى الخارج ، وفى نفس الوقت يتموضع الداخل بالخارج ، فنعرف ونتعارف ، ونكشف ونكتشف فى آن .

(٤) وأخيرا فإننى أفترض أن رؤية هذه الراوية بالذات ، وشطحات خيالها رؤيتها الشخصية باعتبارها كياناً فردياً محدداً ، ثم وباعتبارها جماعا لحدس شعبى من جهة أخرى له طبيعة خاصة باعتباره مادة خاما تتجمع فيها حدس الناس طولا وعرضاً قد يضيف أبعاداً وينفى أبعاداً أخرى مما قدّمنا فى محاولة القراءة فبالإضافة إلى الحدوتين السابقتين ، فإنها قدمت - فى نفس العمل - حدوتتين أخريتين ، رأيت فى أولاهما (الحدوته الثالثة) رؤية جديدة لما سمى فى تراث التحليل النفسى : عقدة أوديب ، وكانت هذه الرؤية تقع فى وعيى موقع التساؤل بعد أن رأيتها فى خبرتى

المهنية وبحثى العلمى ماثلة أمامى ، تعلن العلاقات الجنسية الخطرة بين الام وابنها فى موقف الذهان خاصة.

ولو صحت – أو رجحت – هذه الرؤية (اعادة النظر فى العلاقة الجنسية بين الأم وابنها) لأمكن أن نقترب أكثر فأكثر من الاهتداء إلى طبيعة العلاقات البدئية من خلال النظر الأعمق فى التراث الشعبى والخيال الطفلى على حد سواء .

الحدوتة الثالثة:

التفاح المسحور

كان فيه ست جوزها صياد ، والست ديه ، نفسها تخلف لكن ما بتخلفش ، لقت راجل بيقول "التفاح التفاح اللى يحبل الصبايا الملاح" قامت قالت له "هات يا عم". قامت خدته ، وراحت حطته تحت الطشت ، قام إيجا جوزها صايد ، وجعان ، قام كشف الطشت لقى تحته التفاح ، قام وأكله ، قامت جت مراته وقالت له "أجيب لك تأكل؟" قال لها "لا دنى كلت التفاح اللى كان تحت الطشت" قالت له: إيه؟؟ دانت هتحبل ، دنى جايباه لىّ. قال لها : واعمل إيه فى المشكلة ديه ؟ قالت له:" روح خد متر حرير معاك ومتر خيش ، إن جت

بنت لفها في الخيش وسيبها ، وان كان ولد ، هاته في المتر الحرير وتعالى ، قام قعد تسع تشهر ، وبعدين قام ، جاب بنت ، من بطن رجله الشمال ، قام حطها في الخيش وسابها ، الحيوانات اللى بيطيروا صعب عليهم ، وبعدين قاموا خدوها ، وحطوها ، وصيفوها ، وبقت أحسن واحده بقى.

وبعدين كان إبن السلطان رايح يسقى الحصان بتاعه من البحر ، قام الحصان شاف الخيال ، قام خاف من الخيال قام رجع ، بص إبن السلطان لقى نور فوق ، ما اقدرش يبص ، قام رجع عيان ، جابوا له دكاتره كتير محدش عرف يطيبّه ، وكان عندهم الداده بتاعته العجوز ، قالت له: إنت عيان يا ابنى ؟ قال لها .. آه ، قالت له: لكن أنت عياك حب. قال لها: جدعه يا أمنا العجوز ، وبعدين قالت له : هات لى خروفين ، خروف محشى جير ، وخروف حقيقى ،

وبعدين جاب لها ، وقالت له .. هات لى سكينة مش حامية - تِلْمَه - ، وبعدين قام جاب لها ، قامت راحت قدام النخلة ، وتجز ، قامت البنت اللى فوق النخلة تقول لها: جزى من رقبته يا أمنا العجوزة من رقبته. قامت قالت لها ياختى أنزلى ، أصل ما أعرفش أجز ، جزى أنت بدالى. قامت قعدت تقول : يا نخله أبويا اقصرى اقصرى ، لحد الأرض واوصلى.

قامت النخلة نزلت لغاية الأرض.

قام إبن السلطان خدها ، وطار بقى ع الحصان ، ومشى وراح لأمه قال لها يامه "دى فى عينيكى" ..

قالت له .. حاضر يا بنى ، دى مرات ابنى ، وكده.

وقال لها "أنى هروح أحج ، وعيبه لما آخد مراتى واحنا لسه عرسان".

قامت قالت "يا ابنى مراتك فى عنيه وكده.."

ابن السلطان سابها وراح

هى قالت لستها (حماتها) "أنا جعانة"

قالت لها "إدينى الغوايش اللى فى إيدك وانى أديكى رغيف وخرطة جبنة".

قامت إدتها ، تانى نوبة قالت لها "إدينى هدومك" إدتها ، شعرها ، إدتها ، لغاية عينيها خدتهم ، قامت بتقول لها : "إدينى" قالت لها "إنتى معتش ..... فيكى حاجة ياللّه ، وقامت رمياها م الشباك ، البنت وهيه جنب الحيطة ، تلم العيش الوحش ، تحطه فى جنب ، والحلو تاكله ، وبعدين ، وهى بتاكل كده لقت خاتم ، قال لها "شبيك ، لبيك ، اطلبى من بين إيديك" قالت له: أطلب عنيه ، وشعرى قام جابلها ، قالت له: أطلب لبسى وغوايشى وسيغتى ، جابلها ، قالت له : بقى أطلب قصر عالى ، فى وسط بحر كبير ، ملهوش أول ولا آخر ، ويكون فيه جنينة فيها كل حاجة ، قصر

أعلى من قصر الملك ، وما فيهوش زى حاجات الملك ، قام قال لها طيب ، بصت لقت نفسها فى قلب قصر والقصر مفروش وكله.

إبن السلطان جه من الحجاز "واتجوز أمه ، عشان قالت له أمك ماتت ، ونى مراتك ، لبست لبسها ، والعنين ، والسيغة وكله ، بقت هى ... وبعدين ، قامت حبلت منه ، وهى لسه ما ولدتشى ، قامت اتوحمت على إيه ، على قطف عنب ، قام شيخ بربرى م اللى عنده ، راح يقول لها "يا ست يا ستنا ياللى قصرك أعلى من قصرنا هاتى حتة عنابة للوحيمة اللى عندنا ، قام البربرى راح قال لها ، قامت قالت له ...... أنى أبويا حبل فىّ بَىْ بَىْ ، واللُغرِيّة والصُقُّرة[٣٥] عششت علىّ ضَىْ. ضَى ، وابن السلطان حبني ، واتجوز أمه علىّ ، يا مقص قص طرف لسانه ، ليروح يفتن

علّى. "قام راح ، ميعرفش يتكلم ، يضربه ، ميعرفش ، والتانى والثالث ، والرابع ، قال "أما أروح أنِـى ، يمكن اَجي كده ، قام راح يقول لها": يا ست يا ستنا ، ياللى قصرك أعلي من قصرنا ، هاتى عنابة للوحيمة اللى عندنا" قالت له : "أبويا حبل فى بَـى بَـىْ ، واللّغْـربة والصُقَـرة عششوا على ضَـىْ ضَـىْ ، وأنت يا بن السلطان ، حبتنى ، واتجوزت أمك علـىّ ، يا مقص ، قص طرف من شعره ليروح يفتن على ، "قام قالها "انتى مين؟؟" .

قالت له "أنى مراتك اللى كنت فوق النخلة" قام قال لها : "أمال الثانية دى مين؟" قالت له "دى أمك ، وخدت عنيّـه ، وشعرى ، وغوايشى ، وهدومى ، ورمتنى تحت القصر" قام قال لها "طيب" وخد السيف ، وراح قتل أمه وعاش معاها فى التبات والنبات ، وخلفوا صبيان وبنات .

القراءة

فى هذا النص الثالث ، نركز على قراءة جديدة فى ما أطلق عليه من بعد التحليل النفسى عقدة أوديب مشيرين إلى العلاقة الجنسية الطفلية بين الطفل الذكر وأمه منافسا لأبيه .

فهذه الحدوته تنفذ إلى هذه العلاقة من منطلق مختلف تماما :

١- فالفتاة - منافسة الأم - هى إبنة الطبيعة ، سواء لأن بذرتها (أصلها) من تفاحة سحرية ، أم لأن نشأتها كانت فى حضن الطبيعة ، على فرع نخلة. وقد تبنتها الطيور "اللغربة والصقرة عششوا على" .

٢- وابنة الطبيعة هذه تنافس الأم / الممتلكة/ الزوجة .. تنافسها فى إبنها .

٣- ثم إن ذلك يستتبع أن نرى المعركة بين ممثلة الطبيعة الفطرية الواثقة فى حضن الصقور (الأمان) ، وممثلة شهوة الامتلاك (بسبب عدم الأمان)[٣٦] هما أصل العلاقات البشرية ، فيأتى الجنس تعبيرا وليس أصلا ، يأتى بدفعه ، ولذته ، وما يرمز إليه تاليا لهذه العلاقة الأساسية .

٤- كذلك نرى أن مبعث هذه العلاقة الجنسية المحرمة هنا كان شهوة الأم صريحة ، وليس رغبة الإبن ، الدفينة تنافسا مع الأب.

٥- كما أن العلاقة قد تمت بعلم الأم وتحايلها وخداعها وقصدها الواعى - دون علم الإبن (عكس جهل الطرفين فى أوديب سوفكليس).

٦- كذلك لم يعقب اكتشاف طبيعة هذه العلاقة شعور الإبن بالذنب أو كف رؤيته - أو الحد من بصيرته بأن يفقأ عينيه.

٧- وأخيرا فلم يظهر الأب [٣٧] فى الصورة أصلا كمنافس خطر فى هذه العلاقة.

٨- ثم إن نهاية الأم هنا كانت القتل (بلا شعور بالذنب أصلا [٣٨]

ورغم أن تركيزنا فى هذه القراءة - كما ذكرنا - هو على هذه المسألة الموازية لعقدة أوديب ، والمفسرة من جانب آخر للعلاقة المحرمة بين الأم وإبنها ، إلا أن الحدوته تضيف أبعادا أخرى إلى رؤية التركيب البشرى من زوايا أعمق وأكثف وأخطر ، ومن هذه الأبعاد :

١- أن "الرجل" يمكن أن يحبل ، ويلد ، وهذا ليس خيال أطفال بقدر ما هو إعطاء معنى جديد للحمل والولادة ، واحترام لتوليد الداخل وثنائية الجنس عند الجنسين .

٢- أن الرجل حين ولد - فقد ولد أنثى ، فى حين أن زوجته حين تمنت الخلف تمنت ذكرا ، وإن "لم يظهر ذلك إلا مؤخرا" .

٣- إن ناتج ولادة الرجل متسق مع ما هو فطرة لم تشوه .

٤- إن النشأة الفطرية (تذكر : حى بن يقظان) هى أضمن الطرق لترعرع إمكانيات البشرية من جمال وذكاء وصبر واستمرار.

ثم إلى قراءة الحدوته فى تسلسلها الوارد :

تبدأ الحدوته بأن الرجل الصياد ، هو الذى يحبل ويلد بمحض الصدفة التى سمحت له بزواجه مع الطبيعة (التفاح) ، وكما ألمحنا حالا (وكذلك فى الحدوته السابقة) فإن الاعتراف بالقطب الأنثوى فى الوجود الذكرى هو من خطوات التكامل اللازمة ، كما أنه من معالم الإبداع الكامنه[٣٩] والإبداع هنا يتجسد من الرجل بنفس الطريقة العيانية التى تتميز بها المرأة بيولوجيا والرمز هنا جيد ، حين يحمل الرجل ويلد من بطن رجله[٤٠] .

ولكن هل يا ترى كانت ستختلف الدلالات التى سنذهب إليها لو أن المرأة هى التى أكلت التفاح المحبِّل ؟ .

أو دعونا نضع السؤال بهذه الطريقة: "هل كان من اللازم لكى تكون المولودة أنثى ، ثم إبنة الطبيعة أن يكون مولدها من هذا المصدر الذكرى غير المألوف ؟ .

وأنا لا أستطيع الجزم بالإجابة إلا أنى أقبل تصور أن هذا الخيال بهذه الصورة هو الذى نبهنى إلى علاقة بطلة الحدوته بالطبيعة أكثر فأكثر ، حتى لا يوجد أى شك أنها تمثل إبداع الرجل حيث تتفجر فطرته عن ولادتها ، إذ لو أن المرأة هى التى أكلت التفاح ثم حملت ، وولدت ، لكنا أميل إلى تصور أن هذا التفاح قد عالج عقمها – مثلا – ولم يكن هو بذرة مسئولة عن ولادة هذا الكيان الأنثوى الطبيعى مباشرة – (من إبداعية الرجل) .

ثم تنتقل اللقطة بخطوة واسعة (كالعادة) إلى عشق ابن السلطان لابنة الطبيعة (حيث الطبيعة متفاعلة مع ابداعية والديه الذكر) [٤١].

وتحكى الحدوته حيلة معروفة من عجوز عارفة (٤٢) ، تمكن ابن السلطان من خطف معشوقته الجميلة والطيران بها إلى أمه التى رحبت بها دون أدنى إشارة رفض داخلى أو خارجى ، وهذا نسج جميل بدلا من التمحك فى أسباب ظاهرة سطحية تبرر الخطوات التالية كما اعتاد بعض مقترفى الأدب ، (حيث اعتادوا أن يجعلوا لكل خطوة تمهيدا ، ولكل نتيجة سببا ، مع أن الأمر ليس - بهذا المستوى -كذلك - إذن لم ترفض الأم رعاية زوجة ابنها ، ورحبت بها باعتبار أن ذلك من البديهيات ، ومع هذه المصالحة الحافلة ، بعد الترك بما يشبه الوأد ، لا تكاد تنعم إبنة الطبيعة باستقرارها الجديد حتى يسافر زوجها ، فتساومها أمه عينا برغيف ، وعينا بخرطة جبنة .. الخ ، ويتأكد لنا ، عابرين ، أن الحياة فى ذاتها (بعيش وجبن) أغلى من كل شىء حتى العين والشعر .. الخ ، ولم يكن ذلك عقابا وتخلصا فحسب ، بل كان انتحالا وتقمصا أيضاً ، أو أساساً ، وهكذا تحاول الأم أن تسترد ابنها بأن تكون زوجته .

وهذا هو الجديد فى تفسير العلاقة المتبادلة (ذات الظاهر الجنسى) بين الأم والابن :

١- تبدأ هذه العلاقة الخطرة منذ الولادة حيث ليس سهلا أصلا أن تسمح الأم لجزء من كيانها أن ينفصل عنها ، اللهم إلا بضمان أنه انفصال ظاهرى ، أو مؤقت .

(واضطرابات ذهان الولادة ، أو ذهان النفاس Peurpeural Psychosis هو أحد صور ذلك) .

٢- إذا تهددت الأم - بجرعة غير مناسبة - بالانفصال الحقيقى عن ابنها "كموضوع مستقل" .

(أ) إما أن تقع فريسة اضطرابات الهَجْر (مرض الأم).

(ب) أو تحاول استعادته بوهم احتوائه (إعاقة نمو الابن حتى المرض) .

(جـ) أو تقتله فعلا (جرائم قتل الرضيع Infanticide)

٣- إذا كان المولود أنثى فقد يسهل على الأم أن تتقمصها فتستمر فيها ، وبها ، فكأنها تلغى الانفصال بأثر لاحق .

٤- إذا كان المولود ذكرا فقد تأخذ محاولات الاستعادة ، خاصة إذا استمرت المعركة حتى فترة المراهقة للإبن ، قد تأخذ شكلا جنسيا من جانب الأم أولا ، فليستجيب الإبن لاحقا .

(يتم هذا بداهة فى اللاشعور فى الأحوال العادية) .

٥- تظهر هذه العلاقة بشكل صريح فى بعض مظاهر الذهان (المرض العقلى) عند الإبن خاصة وعند الأم أحيانا. فإذا ظهر الميل الجنسى (وهو فى الحقيقة استجابة)عند الابن تكلمنا عن عقدة أوديب وما هى كذلك ، [٤٣] ومما يميز هذا عن ذاك عادة هو السن ، ونقطة البداية ، (هذا إن كان لعقدة أوديب أصل ثابت فعلا) .

وقد تظهر فى شكلٍ أبسط فيما يبدو من غيرة الأم من زوجة ابنها عليه فى الحياة العادية دون مرض صريح .

٦- فى مثل هذه الخبرات (حيث تلح الأم أن تستعيد ابنها - إلى رحمها - عن طريق الإثارة الجنسية الكامنة رمز اعادة) يكون الأب من ذوى الشخصية المتنحية والسلبية غير الكفء ، بمعنى أنه

يفتقد الحضور الذكرى الحيوى الذى يملؤ كيان الأم ووجدانها ، فيبدو أنها تستعيض عنه بابنها - فالأم هنا هى الطاغية بعكس العلاقة الأوديبية حيث الأب هو الطاغى وهو الخاصى Castrating - وكأن الأب هنا من هذا المدخل (مدخل رغبة الأم فى إستعادة الابن كما تظهر فى الجذب الجنسى) هو أب غائب (بعكس أب أوديب المنافس) وغيابه إما غياب مجازى مثل تمتعه بالصفات السلبية السالفة الذكر ، وإما غيابا حقيقيا - كما لم يظهر فى هذه الحدوته أصلا. ويكون الإبن عادة فى هذه الحال إبنا وحيدا ، أو الإبن الأول (البكرى) أو ابنا ذا صفات رجولية خاصة ، كما تتضح هذه العلاقة بشكل غير مباشر - كما ذكرنا - فى فترة المراهقة وعند الزواج (زواج الإبن) .

وإذا كانت العلاقة الأوديبية (الابن ←—— أموية) تحل بأن يتقمص الابن أباه فتختفى المعركة المفروضة ولو إلى حين ، فإن العلاقة ("الأم ←— بنوية) هنا تُحل بالكشف عن حقيقة مصدر الرغبة ، ثم برفضها حتى التخلص من جذورها بقتل الأم ، على أن

القتل عامة ، وقتل الأم خاصة (خيالا طبعا) ليس فى صالح مسيرة النمو (مثل قتل الأب سواء بسواء) .

فإذا لاحظنا اختفاء الشعور بالذنب فى هذه الحدوته (مهما كانت جريمة الأم) لرجحنا أن النهاية عادة تصيغ هذه الأم ، فى مواجهة الزوجة بأنها **الإمتلاك بالكذب والصناعة الزائفة فى مواجهة الطبيعة السلسة ، والتصالح مع القدر فى ظل مثابرة لا تهمد** ، وبالتالى يكون التخلص من الأم هو تخلص مما تمثله فى هذه النقطة فحسب ، فيكون قتل الأم هو التخلص من الماضى لصالح الحاضر ، أو من الزيف لصالح الحقيقة ، أو من اللاأمان التملكى لصالح الأمان الفطرى .....

ونلاحظ أخيرا أنه – بذلك – (وحتى بالنسبة لإعادة تفسير عقدة أوديب كما أوردناها فى مكان آخر) فإن الجنس ليس هو الدافع المسئول عن هذه الوقفة ضد مسار جدل النمو ، وإنما هو المظهر القوى لرغبات تداخل وتراجع للاحتماء بأمان تملكى ، أو احتوائى ساكن ، ضد مغامرات الإنفصال والاستقلال المهدّدة .

ثم نظرة عابرة من موقع الراوية :

وكما فعلنا فى الحدوتتين السابقتين ، فقد قرأنا الحدوته باعتبارها حدوته مستقلة بذاتها ، دالة بمحتواها ، عما هى دون أن ننتبه إلى ماهية الرواية الصغيرة ، لكننا إذ نعود نستوفى المنهج الذى اتبعناه ، نجدنا مرة أخرى فى مواجهة ملامح الراوية – أيضا – من خلال هذه الحدوته على الوجه التالى:

هذه الطفلة الشغالة ، "**الملقاة**" بعيدا عن أهلها وكأنهم استغنوا عنها ، هى إبنة لغير والد ، إلا صدقات العواطف العابرة ، وقد لاحظنا فيما سبق أن ثمة احتمال حنو وارداً من سيدها (حماها فى "الأستاذ الغول" ، والسلطان فى "قمر بين حيطتين") ، فإن صح ذلك ، فقد يصح أن نعتبر أنها وهى تصبر على هذا الرفض من أهلها الذين ألقوها فى بيت الخدمة ، قد لقيت بعض الرعاية بما سمح لخيالها أن ينسج حول إبن سيدها الصغير صورة فارس أحلامها ، ثم يصور سيدها الكبير قلبا مسامحا ، يعينها أن تصبر (علبة الصبر) على مرارة حياتها (علبة المر) ، وحنان الصقور

واللغربة و هنا نشير إلى أن الحنان أتى راويتنا الصغيرة من مصدر غير معـروف بطبيعـته الحانيـة ، فـلا الصقـر معـروف بحـنانه ولا الغراب ، لكن هذا ما حدث ، مثل سيدها المفروض أنه قاس قاهر ، (لكن الحواديت الثلاثة تقول بغير ذلك) .

فإذا تمادينا فى هذا الفرض فقد يتطلب أن تكون سيدتها هى القاسية رغم ظاهر حنوها أمام ابنها أو زوجها ، وهذا (قسوة الست فى مقابل عطف السيد على الشغالات الصغيرات) وارد فى البيوت المصرية عامة فى تلك الحقبة التى سجلت فيها هذه الحواديت ، فتسلسل الحدوته على هذا النمط ، حين تستولى سيدتها على كل ميزاتها لتحرمها من خيال الاقتران بابن سيدها (إبنها) قريب تماما للقياس ، لكن الأحلام التعويضية تعود بسحر خاتم له خادم تعويضاً هائلا يرد إليها ذاتها ويخلص لها فتاها من سيدتها (أمه) بخبطة سريعة ناجحة دامغة .

ومرة أخرى فهذا التفسير ليس بديلا عن التفسير الأول بل هو مكمل له ومتداخل فيه .

خاتمة :

انتهت الحواديت الثلاثة ، ولم يبق أمامنا فى هذه المجموعة القصصية من روايات هذه الشغالة الأمية (١٢ سنة) سوى حدوته واحدة لم أجد فيها ما يضيف إلى ما ذهبنا إليه ، أو يناقضه ، بالقدر الذى يسوغ لى أن أوردها كاملة[٤٤] أو أقرأها بنفس الطريقة .

"الزوج المسحور" (وصفحتها ١١١) [٣] .

وأكتفى بأن أقول فيها أن ما استرعى انتباهى فى كل هذه الحواديت .

فهذه الحدوتة الأخيرة تبدأ - أيضا - بتمنى زوجة السلطان فدعائها أن تنجب ، فيدعو السلطان وهى تصلى "يا رب مراتى تخلف جمل" .

ولم نجد ما يبرر هذه الدعوة بالذات ، ولو كانت صياغتها "يا رب مراتى تخلف" ولو "جمل" لفهمنا أن الحرص على الإنجاب قد يبرر هذه الدعوة ، أو لو أن شرط الإنجاب جاء جزاء فعل بذاته ، ولو كان الشرط هو إنجاب الجمل ، لساغ الأمر أيضا ... وهكذا ،

ولكن لا هذا ولا ذاك حدثاً أصلا. - وتروى أحداث هذه الحدوته الأخيرة ، بنفس درجة الغرابة والخرافة حيث يكبر الجمل (إبن السلطان) ويتزوج بنات الملك الثلاثة الواحدة تلو الأخرى ، لكن الأولى والثانية تتلكآن فى القبول "قطع الجمل وأبو الجمل" فيبرك عليهما الواحدة تلو الأخرى لتموتا.

فتصبر الثالثة "وماله الجمل" فينبرى الجمل يحارب عن أبيه ، ثم ينتصر له .

لكن ثمة زوبعة غيرة تثار حول علاقة الجمل - بعد عودته من الحرب - بزوجته الصبور ، ثم حين يعرف ويتأكد من حقيقة طهارة زوجته يرجع إنسانا من جديد (ونحن لم نعرفه إنسانا أصلا) .

أقول أن كل ما فى هذه القصة من دلالات هى مرتبطة بما سبق ، مع مبالغة فى الخرافة ، وضعف الترابط ، و إعلاء لقيمة ، وسهولة القتل ، وسحرية الحل ، ومفاجآت النهاية ... مما لم أجد فيه ما أضيفه تحديدا .

تعقيب عام

ونستطيع أن نخرج من كل ما قدمنا ببعض الملاحظات والاتجاهات لطرح الفروض الجديرة بالنظر ، ومحاولات التطبيق على مدى أوسع بمنهج أكثر التزاما وتحديدا وتربيطا ، وذلك من واقع المادة الشديدة الثراء الواردة هنا - كمثال - ومن ذلك :

أولا : أن الحدوته الشعبية ليست كيانا ثابتا ، ولا هى رواية واحدة مكررة ، بل هى مسقط مرن لحركة خيال متجدد من الراوى والسامع على حد سواء .

ثانيا : وبالتالى فإن العوامل الذاتية ، المحكومة بالظروف الخارجية ، والكينونة الداخلية (والمحتوى الخفى) تتدخل فى صياغتها بدرجات متفاوته .

ثالثا : إن الحدوته "من طفل بالذات" ترتبط بالعالم الداخلى ارتباطا جوهريا بحيث يصبح الواقع الخارجى بمثابة مسقط مرن أيضا لهذا العالم الداخلى (فيلتحم النص مع الواقع الخارجى مع الحلم الداخلى فى شكل الصياغة النهائية كما تعلن فى لحظة بذاتها) .

رابعا : إننا بذلك لا نعطى أهمية خاصة للعالم الداخلى منفصلا عن الواقع ، بل إننا نعلن - بشكل ما - أن هذا العالم الداخلى ليس الا الواقع مكثفا فى ذات ممثلة له بفجاجتها الفطرية هنا.

خامسا : إن فكرة (وحقيقة) تعدد الذوات داخل (خارج) الكيان الفردى هى أساس الإبداع الروائى (والمسرحى) خاصة ، والحدوته هى جماع بين الاثنين - وهى تسمح الذات إلى أصولها المتعددة فى مرونة مطلقة دون الالتزام بإيقاع زمنى تتبعى أو منطق مقنع محسوب.

سادسا : إن مدارس السيكوباثولوجى (التحليلية والتركيبية وغيرهما) يمكن أن تسهم فى تفسير الحدوته ، وفى نفس الوقت يمكن أن تتعدل وتثرى ويعاد صياغتها من استيعاب حدس هذه الحدوته ومثلها (بما هو حدس شعبى وكشف بدائى أو طفلى فى آن).

سابعا : إن سن الراوى لابد أن يوضع فى الاعتبار كمتغير أساسى يسهم فى تحديد كم الخيال الشخصى فى مقابل استيعاب

جرعة الحدس الشعبى العام ، وقد حاولت فى هذا العمل ، (الكتاب المرجع جميعه) أن أقارن حواديت هذه الراوية الشغالة الأمية – ١٢ سنة – مع حواديت راو آخر يبلغ من العمر خمسين عاما ، فوجدت فروقا دالة تحتاج إلى دراسة خاصة لاحقة .

ثامنا : إن على الدارسين أن يهتموا باستقصاء هادف يشرح بتفاصيل كثيرة ما يمكن من جوانب شخصية الراوى من حيث تاريخه الشخصى (طوليا) بما يمتد فى تاريخ عائلته (وراثيا أيضا) وكذلك ظروفه الحالية الخاصة ، وخاصة بما يتعلق بقهره وعجزه ، وأحلامه التعريضية .

تاسعا : إن الفصل بين جرعة الحضور الذاتى وبين جرعة الحدس العام فى حدوتة ما ، قد يحتاج إلى اعادة تسجيل نفس الحدوته أكثر من مرة ، من نفس المصدر ، تحت نفس الظروف ، ثم تحت ظروف أخرى: تكون إما قد تغيرت تلقائيا ، أو تغيرت بتأثير متعمد من الباحث .

ودراسة فروق الاستعادة هنا ينبغى ألا تلتفت إلى تقييم ثبات الراوى Reliability وإنما إلى تفسير معانى ودلالات التغيير ، وإلى درجة أقل أسباب الاختلاف بين الروايات .

عاشرا : أن علينا أن ندرس - بمسئولية خاصة - دراسة مقارنة ، تقارن فيها بين أثر هذه الحواديت (من طفلة أمية شغالة) ودورها التربوى الحقيقى لمسيرة النمو للأطفال خاصة ، وبين تلك الحواديت المسطحة ، والوعظية والأخلاقية ، والصارخة التى نحيط بها وعى أطفالنا تحت زعم أننا نخاف عليهم من سماع قصص الجان وأبى رجل مسلوخة ، وما شابه ، ناسين أن الجان وأمنا الغولة ، والحيوانات المتوحشة والمستأنسة والوجودات الناقصة ، هى نحن ، أطفالا وكبارا ، بما لا يليق معه إنكارها تحت وهم نظريات تربوية غبية ، أو تشويهها بمواقف أخلاقية ميتة.

حادى عشـر : إن بعض كتاب القصة القصيرة أراد أن يستلهم نبض هذه الحواديت لكنه بدلا من أن يغوص فيها ثم ينساها ، فيخرف على حسابه لحسابنا (القراء) راح يفتعل اللاترابط ويغرق فى الرموز بوعى ساذج - فما حصل الاختراق الغائر الذى أدت اليه عشوائية الشغالة ، ولو أدى الأمر إلى دراسة نقدية مستقلة.(٤٥) .

الهوامش

(١) لم أغيّر ضمير المتكلم الجمع "نتكلم ، رأينا ، فعلنا" كما ورد فى النشر الأول لهذا العمل ، ذلك لأن هذا العمل قد صدر بدون اسم الكاتب أو الباحث ، فكأن هذا الضمير يشير إلى هيئة التحرير مجتمعة من ناحية كما أنه كان يشير ضمنا إلى احتمال أن يكون الباحث ليس ممثلا لنفسه فقط بل لجمع من الناس.

(٢) انظر مدى التحيز فى الفصل -٧- الباب الأول ص ٩١ فى تناول مثل "أطعم مطعوم ولا تطعم محروم" أو مثل: "أحينى النهارده ومتنى بكره" فى الفصل - ٨ ص ١١٢

(٣) مصدر هذه الحواديت (وسوف نستعمل اللفظ العامى بدلا من مقابله الفصيح "الاحدوثة") هو كتاب القصص الشعبى/ فى الدقهلية "جمع وتبويب وتقديم" فتوح أحمد فرج. الناشر: المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٧٧.

(٤) يظهر الغول (أو الغولة) فى الأدب الشعبى بدلالات ومعان كثيرة ، فليس الغول هو ممثل الشر على طول الخط ، ولكنه بشكل ما (والفروض

من عندى) (أ) يمثل "القوة والخطر والالتهام المتربص (ب) كما يمثل العالم الخارجى ، أو الواقع الصعب المتحفز بما فى ذلك قهر السلطة (كل سلطة) (جـ) كما يمثل العدوان الداخلى مسقطا فى الخارج (د) وهو يمثل أصل الانسان العارى الحيوانى المقاتل للبقاء بأنيابه وأظافره (هـ) كذلك هو يمثل صورة الأم البشعة Bad mother figure فللأم فى الفكر التحليلى صورتان متقابلتان : الصورة الحانية المرضعة ، والصورة العدوانية الملتهمة (و) كما يمثل الوالد الساحق الخاصى Castrating father المستحوذ على الأم جنسيا (ز) وأخيرا فالغول هو القدر الشرير عادة ، الخير أحياناً ، إذ هو الغموض المنقض غير المفسر ، كما قد يحمل لنا المكافأة فيبدو خيرا إذا قبلنا شروطه ، أو سترنا" عليه .

(٥) ما بين القوسين إضافة من مسجّل المتن/مؤلف المرجع/ تفسيرا لكلام الراوية ، وليس فى نص كلامهما ، فسيدها هنا (بألفاظها) يعنى حماها ، (كما أثبت المؤلف) وليس كما وردت فى الرواية.

(٦) ليس مألوفا فى القصص الشعبى الأقدم استعمال لفظ الأستاذ ، وإنما كان اللفظ الذى يستعمل هو لفظ "الفقى" ، واستعمال هذا الاسم الجديد (الأستاذ) من هذه الشغالة هنا ، قد يوحى بأنها سمعته "هكذا" من أسيادها التلاميذ الصغار .

(٧) يقول ديستويفسكى فى الإخوة كارامازوف: على لسان التلميذ كوليا "فاعلم أن تعليم اللغات القديمة هو فى نظرى إجراء بوليسى للقمع والإضطهاد إنهم يعلمون هذه اللغات لأنها مملة مضجرة تخبل العقل ، كانت الحياة حزينة غبية ، فأرادوا لها مزيدا من الجهامة والبلادة والغباء ، كان السخف يحكم العالم ، فرأوا أن يفاقموا ذلك إذا أمكن.

(٨) وذلك مثل إعلان أن الفقى يعلم أولاده قلة الأدب (بدلا من الأدب) فى حدوته فردة الخلخال الموازية لهذه الحدوته واختصارها:

"ان ست الحسن ذهبت مبكرة إلى الكتاب ، فنظرت - أيضا - من ثقب الباب ، فوجدت الفقى يعلم أولاده قلة الأدب ، فولت هاربة عدوا ، فانشبكت فردة الخلخال فى العتب ، مما لفت أنظار أمها حين عودتها فسألتها "شفت إيه من فقيكى لما فردة الخلخال انشبكت فى العتب؟" فترد شفت وشفت ، وشفت فقينا بيعلم أولاده قلة الأدب".

(ب) كذلك دور المعلمة (معلمة الخياطة عادة) التى تسهل للعشيق لقاء صبيتها ليلا وهى نائمة ، أو شبه نائمة: فتتململ الصبية فى لذة خفية: "يا معلمتى إشى بيعض وبيبوس" فترد عليها المعلمة : "نامى يا بنتى دا كابوس" .

(جـ) على أن هذا الدور التعليمى (تعليم قلة الأدب ، تعليم الغرام) ليس مرفوضا أصلا اللهم الا من منطلق أخلاقى مسطح ، لأن التعليم يشمل الجدل والسماح والتعرى والحضانة والمرونة جميعا ، وكل طور من هذه الأطوار قد يبدو مزعجا وهو منفرد ، ولكنه يتناغم بوضعه فى السياق العام (انظر بقية القراءة) .

(٩) قتل الرضيع بواسطة أمه Infanticide يعتبر عادة نوعا من الانتحار المحور ، لأن الأم التى تقتل رضيعها إنما تقتل طفلها الداخلى المسقط على هذا الرضيع ، فضلا عن أنها تحميه من مرارة الحياة التى تنتظره ، وهذا القتل من أهم مظاهر الاكتئاب من ناحية والشعور بالذنب وعدم أحقية الحياة من ناحية أخرى .

(١٠) الالتهام نوع أشمل من العدوان: أنظر العدوان والإبداع – الانسان والتطور – عدد ٣ مجلد ١ ص ٤٩ وإن كان يتصف بعدوان الأنثى بوجه خاص .

(١١) هى العملية التى يحرص بها المجتمع والسلطة والأديان على ملاحقة الوعى بأنه مذنب طول الوقت ، بحيث لا يكون أمامه الا مواصلة التكفير عن هذا الذنب بدلا من النمو ، وقد تجسدت هذه الظاهرة فى مسرحية الذباب لسارتر .

(١٢) خيل إلى أن هذه الطفلة تتمتع بذكاء ابداعي خاص ، وفي نفس الوقت فإنها تفتقر - بشكل ما - إلى ملامح الذكاء العادى كما يظهر في تجاوزاتها اللغوية وأشكال خلل الترابط الفكرى. ومثلا فإن اسم بطلة الحدوته "قرع الرمان" ، هو تقريب دال للاسم الشائع - عادة - وهو "فرط الرمان" أو "حب الرمان" . . الخ ، وهذا التقريب هو إبداع خاص وقصور فى نفس الوقت ، وقس على ذلك أغلب قفزاتها اللاترابطية .

(١٣) يتكرر ذلك منذ كنا نهتف "يابرميل النفط يا يوم السبت على الصبيان" - وقد عدت أتذكره حين سمعت أولادى يغنون: حين كنا يغنى أولادنا بالفرنسية أو ما يقابلها "تحيا الاجازة . . . لم تعد ثمة عقاب . . فالكراريس فى النار والكتب وسطها" - لذلك عجبت لوقف عرض مدرسة المشاغبين فى التليفزيون ، فهى ليست هى سبب فساد الأخلاق ، فكل ذلك جزء من وجدان التلاميذ الصادق ، وهذا كله أفضل من تسطيح مشاعر الأطفال بالنصح والإنشاء ومسخ العلاقة بالمدرسة والمدرسين.

(١٤) نفس المرجع ص ٢٢١ .

(١٥) لاحظ البداية بكلمة قمر (مُعرّفة) ثم عدم تحديد أن هذا اسم فتاة أو خلافه .

تناقضاً مع العنوان "قمر" غير معرّفة ، وكذلك مع ما يلحق من المتن .

(١٦) لاحظ مرة أخرى طريقة الإيجاز ، والإيقاع السريع ، لفظا وأحداثا .

(١٧) صحتها : تعمل للقصر ده كله .. ، تصور هوله .." ولكن هكذا جاء رسمها فى الأصل ، والتصحيح من السياق .

(١٨) نقلت الكلام فى أكثر من موضع إلى أول السطر مخالفا المرجع ، ليشعر القارىء معى بالنقلة الشاسعة ، وكذلك ربما يستشعر قدر الكلام الناقص (أو المتروك لاستنتاج السامع!!) .

(١٩) لاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى استعملت فيها الرواية لفظ الغول فى هذه الحدوتة .

(٢٠) لاحظ التبادل المستمر - ربما دون قصد - بين محمد والشاطر محمد ، باعتبار أن محمد هو القاتل (الغول) والشاطر محمد هو البطل الأصلى ، لكن التحديد يبدو صعبا والخلط يبدو مفيد للقراءة عمق التداخل .

(٢١) لا يعرف من الذى قاله هنا .

(٢٢) لاحظ خلط اللغة ، "أصل" هنا تعنى "أحسن" (أى : والا..) .

(٢٣) لاحظ فرط التضمين Overinclusion حيث الكوز والزور قد تعنى هنا: زور الكتكوت والكوز معاً ، كما أن بطن الأرنب ، قد تتضمن بطن السبع أيضا .

(٢٤) لاحظ فضفضة اللغة .

(٢٥) سوف نسمى "محمد الأول" إشارة إلى الشاطر محمد و"محمد الثانى" ، إشارة إلى محمد الآخر ، (محمد برضه) حتى لا أكرر ذكر صفة القاتل ، أو الغول مما يتعارض مع غلبة شهامته وأعماله البطولية كما وردت فى الحدوتة .

(٢٦) باعتبار أن التكامل (أو التفرد Individuation) بلغة يونج ، يشمل قبول الذات الداخلية المقابلة لما هو خارجى فى التحام جدلى فائق ، وهذه الذات الأنثوية (فى الذكر) والذكرية (فى الأنثى) إنما تسقط على صورة المحبوب الخارجى فى كثير من الأحيان ، على الأقل فى إحدى المراحل من تطور ما يسميه العامة "الحب" أو "الغرام" بالجنس الآخر .

(٢٧) مما لا يستبعد معه أن يكون ذات الملك الوالد .

(٢٨) أنظر العدوان والإبداع عدد ٣ مجلد ١ ص ٤٩ . "مجلة الانسان والتطور" .

(٢٩) بإعتبار أن المسألة لا تقتصر على الحوار مع الآخر لعمل علاقة إبداعية ، بل تتمادى إلى التهامه للحفاظ عليه من جهة بامتلاكه الكامل ، وللتخلص من احتمال خطره من جهة أخرى - فيقع فى التناقض الذى أشار اليه جانترب "إنك لا تستطيع أن تحتفظ بالكعكة وتلتهمها فى نفس الوقت" .

"You cannot have the cake and eat it".

لكنه يخرج من هذا التناقض بإبداع مكوّناته .

(٣٠) أنظر مرجع ٢٨ وما ورد فيه عن التأكيد على التمييز بين نوعين من الإبداع ، أحدهما متعلّق بدافع الجنس والآخر بدافع العدوان مع اختلاف المظاهر .

(٣١) أنظر الايقاع الحيوى ونبض الابداع .. للكاتب (فصول) مجلد ٥ ، عدد ، ١٩٨٥ .

(٣٢) يعبر الوعى الشعبى عن ما هو تحت الشعور (اللا شعور) بتعبير تحت الأرض (أختك تحت الأرض - اسم الله عليكى وقعت على أخوكى أحسن منك - سبع أراضى - العالم التحتانى ... الخ) .

(٣٣) لاحظ كيف يحتفظ بروحه فى جوف تاريخنا بعيدا عن الكشف .

(٣٤) لاحظت مؤخرا العلاقة بين نوبات البسط الجسيمة Mega Unfolding التى تظهر فى صورة دورات الهوس والاكتئاب وبين تكرار الاجهاض عند السيدات المرضى وخاصة في نوبات الهوس - وقد افترضت أن هذا البسط الذى ينوى الولادة الجديدة (وإن لم يحققها) هو البديل التطورى للولادة التكاثرية العددية بالإنجاب ، مما يبرر الإجهاض المتكرر غائيا ، وهذا ما لا يعنى أن التطور يستغنى عن التناسل ، وإنما هناك التقاء آخر على مستوى أعلى مما لا مجال لذكره هنا .

(٣٥) تقصد الغربان والصقور .

(٣٦) ينطبق ذلك كثيرا أو قليلا فيما يقابل المرحلة الأولى عند إريك إريكسون: الثقة فى مقابل التوجس Trust versus Mistrust .

(٣٧) نعنى الأب السلطان وليس الأب الصياد وآكل التفاح طبعا .

(٣٨) تفسر مدرسة "العلاقة بالموضوع" الشعور بالذنب نتيجة للقتل (الخيالى) للأم حين تصبح - رغم أنها مصدر الحياة والحب - هى التهديد الملاحِق للوجود باحتمال أنها قد تنساه فيموت :

أضغطْ تحلبْ - اتركْ تنضبْ -

لكن هل تنضب يوما دوما؟ فكرهت الحب ، وقتلت البقرة

أنظر : دراسة فى علم السيكوباثولوجى ص : ١٩٤ .

(٣٩) أنظر : تحرير المرأة وتطور الانسان : المجلة الاجتماعية القومية المجلد الثانى عشر ، العدد الثانى والثالث ١٩٧٥ ص ٢١ "إن كمال الرجل هو أن يقبل الأنثى فى داخله ليصنع جُماعا مؤلفا من ذكورته الظاهرة وأنوثته الكامنة فتتحقق كينونته" ثم أنظر العدوان والإبداع : ص ٤٩ "الانسان والتطور" مجلد ١ عدد ٣ .

(٤٠) وفى روايات أخرى من "بز رجله" واختيار بطن الرجل هو إشارة إلى انتفاخ بطن المرأة فى الحمل ، واختيار "البز" لأن الثدى لفظ أنثوى أصلا .

(٤١) يؤكد هذا التزاوج قول البنت فيما بعد "يا نخلة أبويا اقصرى اقصرى .. الخ" .

(٤٢) نلاحظ هنا عدم الحبكة (وهى صفة سائدة فى هذه الحواديت لهذه الراوية) فنحن لا نعرف ماذا فعلت العجوز بخروف الجير ، المحشى جير) لأن هذه الحيلة (كما تواترت فى حواديت أخرى) يكفى لها أن تأخذ سكينا باردة ، وأن تحز الخروف بظهر السكين لا بسنها ، وفى موقع غير الرقبة وغير صالح للذبح .

(٤٣) فى حالة من حالاتى ، كانت الأم لا ترحب - بالعلاج - باختفاء ضلالات ابنها ، ومحاولاته الغزل بأختها (خالته) كبديل لها ، وكلما اختفت

هذه الأعراض وأبدت الأم رضاها الظاهرى ، انطفأت حيويتها الأنثوية ، والعكس صحيح .

وفى حالة أخرى ، قالت لى الأم فخورة مبتسمة ، عن إبنها المريض أن شفاء إبنها إنما يتم بالعودة إلى قيم قدماء المصريين حيث يسمح للابن بالزواج من أمه .

(٤٤) قد يكون ذلك العزوف بسبب طول الدراسة ، ويكون هذا تبريرا للايجاز فالخاتمة .

(٤٥) حين نشر هذا التفسير فى الأصل أنهيته بنداء يقول:

أرجو من القارىء – جدا جدا – أن يرسل لى رأيه فى هذه القراءة ، فأنا منزعج منها أشد الانزعاج ، فخور بها غاية الفخر ، آمل فيها عظيم الأمل – لكنى وحدى هكذا أخشى أن أشطح أكثر فأقيد أقل ، أو أصير وحيدا بلا معنى رغم صدق الرؤية ، ووضوح اليقين وقد أثبت ساعة الانتهاء من كتاباته هكذا:

الساعة ٢٥ ،١١ صباحا / الأحد ١٩٨٧/١/٢٥.

وإثبات الساعة والتاريخ والمكان لبعض أعمالى حين أستشعر أن جرعة الدفق التى تم بها قد هزتنى حتى أتصور أن هذه اللحظة هى ذات دلالة خاصة فى مسيرتى .

تعقيبات وردود حول "الحواديت"

تقديم :

تعود الناس أن يتمسك صاحب الرؤية أو الرأى بما أقدم عليه من تفسير وما رجحه من فروض ، يتمسك بهذا وذاك تمسكا شديدا إن لم يكن مطلقا ، وقد حاولت أن أكسر ذلك بإعلان انزعاجى ، وفتح أبوابى لمن يعدل اندفاعتى هذه فى الدراسة التى قدمتها عن هذه الحواديت ، وما زلت أتمنى أن يكون الحوار هو هذا الجدل الخلاق ، وليست تلك الموافقة التابعة المستسهلة أو الرفض المتعجل أو المعاند .

وقد عشت بعد النشر الأول لهذه المحاولة موجتين من المراجعة ، ثم عدت أقرأ ما ذهبت إليه ، فإذا بى أزداد تمسكا به ، كما ازددت جوعا إلى مشاركة أعمق وأدق ، حتى وجدتنى أكرر مستفيئا ".. لكنى وحدى ، هكذا ، أخشى أن أشطح أكثر ، فأفيد أقل ، أو أصير وحيدا بلا معنى رغم صدق الرؤية ووضوح اليقين".

ثم جاءتنى عدة استجابات مناسبة ، متناقضة معاً ، رأيت أن إدرجها موجزة مع الرد عليها ضمن هذه الفرصة الحالية .

(١) يوسف عزب : يرفض ويحتج

جاء هذا الاعتراض وهو كاد أن يكون قاصرا على الحدوته الأولى دون الأخريات ، فلماذا اختص بتعليقه "العام" جدا ، هذه الحدوته الأولى بالذات ، اللهم وكأنه لم يضع يده على الخط المشترك بينها وبين غيرها ذلك أنه قال فى نص خطابه "ليس لى رد إلا على الحدوته الأولى" (لماذا ؟) .

ثم أخذ يسرد رفضه بشكل عام وسأكتفى هنا باقتطاف ما وصلنى مما اعتبرته إنكارا شاملا ورفضا مبدئيا لنوع القراءة برمتها يقول :

"... إن الحدوته الأولى هى مزيج من حكايات عادية جدا دون أن أتحمل أى مضامين بتاتا" .

فلم أفهم يا يوسف ما هو العادى جدا عندك ، وكيف أن العادى لا يحمل مضامين بتاتا (أهكذا ؟ بتاتا) .

ثم تتحدث عن :

"واقع مسقط وبسيط لا يتجاوز مجرد وصف الحال والتمنى..".

وأذكرك أنك بمجرد أن تتحدث عن الإسقاط ، فثمة مضامين ، ثم

إنى قصدت القراءة على مستويين لهذا السبب حتى لا أغفل الواقع الخارجى ، وكيف يمكن أن نسقط عليه واقعنا الداخلى ، ثم نستعمل التراث للإزاحة والإحياء معا .

وتعود تؤكد يا يوسف :

"إن المسألة تتم على مستوى الوعى الكامل والذى لايُخْفِى أى أعماق".

أهكذا ؟ ومن أين لك هذا الحسم والجزم ، وكيف أحاورك وأنت تبدأ وتنتهى بالإنكار المطلق ، ومتى كانت المسائل عند مثل هذه الطفلة المحرومة الشغالة الأمية.. تتم على مستوى الوعى الكامل ؟ وأين ذهب ما وراء الوعى ؟ أم لأنها شغالة ، وأميّة ولم يبقى الا ظاهرها ؟ ؟. ثم تقول تأكيدا : "وليس هناك أى صراعات داخلية".

يا خبر ...!

أعتقد أنه يحق لى أن أكف عن عتابك؛ وأنى بذلك أبرىء ساحتى بالنسبة للتمادى فى الحوار معك وخاصة أنك جعلت الأصل فى الحدوته أنه للتخويف بما هو غول أو جنى وأنه لابد أن يتخفى ،

وبالتالى فصورة الأستاذ (كما وردت فى الحدوته) ليست إلا وسيلة ، أى وسيلة ، للتخفى ، مثلها مثلما يتخفى الجنى فى صورة "حمار" كما ذكرت دون تفريق ، هكذا بالصدفة البحته مما لا يحتاج إلى تفسير ، فقط ينبغى علينا - فى رأيك أن ننتبه إلى "التنكر للتخويف".

فاعذرنى يا يوسف ، وتقبل شكرى الجاد ، ثم دعوتى لك أن تعيد -كما سأعيد- قراءة الحواديت الأربعة .

ثم دعنى بعد ذلك آمل أن تعود تشاركنى - جادا معانيا - (رفضا أو قبولا) :

١- تشاركنى - مثلا - رؤيتى لتعدد الذوات (محمد + محمد برضه) وكيف أننى افترضت عكس إتجاه العلاقة الأوديبية من الأم إلى الإبن قبل أن تكون من الإبن إلى الأم فى حدوتة التفاح المسحور ، وتداخل الحلم مع اليقظة ، وتعدد أشكال العدوان : من العدوان بالإلغاء ، إلى العدوان بالالتهام إلى العدوان بالحرمان ، إلى العدوان الصريح...

٢- ألم تنتبه مثلا إلى المأزق الطفلى : الالتهام فى مقابل الحضانة ؟.. وغير ذلك وارد جدا وكثير ، فماذا وصلك تحديدا ؟ وماذا رفضت تفصيلا ؟

٣- وهل حاولت أن تعيش-متقمصا- ع   ول) ،
وكفاحك إليها ، وهل حاولت ضدها ؟

لو كنت حاولت فاكتشفت أبعادا أخرى ، أو عدلت أبعادا مقترحة ، لكنت كسرت وحدتى ، إذ قد أحس بمعاناة المشارك المجتهد ، لكن " هكذا" ؟ لا!! فعذرا ، برجاء أن تقرأ خطابك وتفسيراتى مرة أخرى مع مراعاة التخفيف من تعميماتك.

٤- وأخيرا ألم تلحظ نص قبولى لأى تفسير آخر جاد ومواكب مهما اختلف مع ما ذهبت إليه ألم أقل نصا "**ولا أنا رافض غيره أصلا**"

وبالتالى فإن ما ختمت به تعليقك هو سؤال ليس له موقع أصلا حين تقول عنى أنى أربط".. تفصيلات المسيرة التطورية للانسان.. باستنتاجات من هذه القصص ، فهل هذه التفاصيل والمعرفة عن المسيرة التطورية تسقط إذا وجدت تفسيرات أخرى للقصص. ؟"

بالذمة يايوسف هل هذا سؤال. ؟

وهل يحتاج إلى جواب ؟

أليس لى أن أطالبك أن تحاول جادا فعلاً ، حتى نتحاور بنفس قدر الجهد. لقد زادت وحدتى سامحك الله ؟

(٢) أمين ريان : يحيّى ويعد

ثم جاءتنى هذه "الكلمة" الطيبة التى رغم قصرها فإن مافيها من حضور واعد قد غمرنى.

"...سيطول ردى على "خاتمة الدراسة" فقد أهاجت ما طمس من المواجع ، أو ما يحاول المرء أن يدفنة من الوعى.

وقد أشار فيما أشار إلى التقاطه محور نظرتى للعدوان وصور ظهوره فى هذه الحواديت وغيرها ، وفى انتظار تفصيل آخر أقول :

الواقع أنى كلما اقتربت من رؤية العدوان ، فإعلان ذلك ، بإظهاره ، وإظهار دوره الايجابى (والسلبى) فى حياتنا الإبدعية خاصة ، هاج النقاد والباحثون والعلماء ورفضونى ابتداء ثم تماما ، قابلت ذلك من دارسى الإبداع المنهجيين ، ومن النقاد مثلا : فى

ندوة عن كتاب "بعض أوراقى" للكاتبة الصحفية سلوى العنانى ، ومن الرومانسيين الحالمين ، ومن التحليليين النفسيين الدائرين فى دائرة الجنس أولا ثم أخيرا.

فأتصور أن ما لحق بهذه الغريزة الرائعة من تشويه وإخفاء وإنكار قد برر ظهورها فى أبشع صورها التاريخية (القتل التكنولوجى الجماعى عن بعد...الحرب الحديثة !!) .

وقد رجحت أن مقاومة الصديق يوسف أن يفهم ما ذهبت اليه ، هى نابعة من الخوف من رؤية العدوان داخلنا ثم خارجنا -جزئياً- هكذا بهذا الحجم والبشاعة (الغول) ، ذلك أن الإحاطة بموضوع العدوان ، كجزء لا يتجزأ من تاريخنا وحاضرنا معا ، لم تعد مطروحة على الوعى البشرى أصلا بما تستحق من عناية ، ولا بما يناسب موضوعها (العدوان) من أدوات رؤية ولغة ايضاح.

٣- هالة نمّر : ترشد إلى دراسة سابقة (صفوت كمال[١] : دراسة مقارنة)

(٣) ثم أرشدتنى المجتهدة هالة نمر إلى دراسة سابقة قارنت - عرضا وإجمالا - بين حدوتة الأستاذ الغول بالذات كما

تروى فى الحــكايات الشــعبية فى الكويت وكما جاءت فى مرجعنا هذا.

وبصفة عامة فإنى لم ألتق بما ذهب إليه الباحث قليلا أو كثيرا رغم أنه :

(١) التقط حكاية " الفتاة المقهورة" .

(٢) وأكــد على تكرار تصــوير الأســتاذ أو المطوع أو العريف أو الملا أو الفقى فى هذه الصورة (الغول).

(٣) وجعل يعلى من قضية" الكتمان والصبر[٢] ، فتكون النهاية السعيدة جزاء هذا وذاك...الخ .

أقول إن كل ذلك لم يضف إلىّ إلا قليلا ، فاستقبلته ابتداءً كما استقبلت خطاب الصديق يوسف ، وصبرت حتى فوجئت بالباحث يقول (ص٢٢٩) : والحكايات الشعبية بصفة عامة لابد وأن تفسر على ضوء علم النفس الاجتماعى ، ولكن للأسف ما زال المجتمع العربى فى مختلف قطاعاته خاليا من كثير من الدراسات الاجتماعية الميدانية الواقعية لواقع المشكلات النفسية التى تحوط الانسان العادى .

فوقفت عند "لابد" متذكرا اللفظ "**دائما**" التى راح يوسف يكررها.

ووقفت عند قوله "واقع المشكلات النفسية التى **تحوط حياة الانسان العادى**".

وتذكرت تأكيدات يوسف أنها حكاية عادية جدا ، وأنها لا تحمل أى مضامين بتاتا ، ... الخ وإزاء هذا فقد رحت أفضل ألا تحمل مضامين أصلا إذا كانت سوف تختزل هكذا (ولو تحت عنوان علم النفس الاجتماعى) إلى دراسة ميدانية لمشكلات "تحوط "حياة الأنسان ، وتصورت مدى التسطيح والعصرنة المحتملة بكل التشوية القادم مع أدوات علم محدودة ، ومناهج كمية تدعى المصداقية دون سواها ، تحت زعم تقنينها ، ثم عدت أرفض وأرفض حين قدم الباحث تفسيره لحكاية العريف ، الفقى ، الأستاذ الغول من خلال صورته الشائعة فى الريف (فى الكتاتيب خاصة) وما يقابلها عند إخواننا العرب.

"وكان الملا أو الفقى يتصف دائما بالقسوة على الأولاد والبنات فى التعليم ، وعقابه لمن يخطىء عقابا شديد".

إلى أن قال : "كما أن حالات الهروب من البيت أو المدرسة كان مردها تلك الشخصية (شخصية الملا أو الفقى) بمكوناتها الجسمية والنفسية.(كذا؟).

ثم قال : "كما ارتبط وجودها الثقافى بالمقولة السائدة الخاطئة عن رجال الدين وقسوتهم".

ثم راح الباحث يشد الانتباه إلى ضرورة دراسة تلك الشخصية التى كان لها دور مباشر فى ثقافة المجتمعات العربية

ثم ينتهى خطيبا ليقول (حامدا شاكرا كما تصورت) أنه :

"..وفى الواقع أن سلطان مثل هؤلاء المدعين قد انتهى الآن.. تحت تأثير رجال الدين المستنيرين وبخاصة رجال الأزهر الشريف الذين أخذوا على عاتقهم نشر العلم والمعرفة الدينية الصحيحة وتطهير المعتقد الدينى من الخرافات والأوهام. وتدعيم المعرفة الدينية للإنسان بالايمان السوى والمعرفة الواعية دون أوهام أسطورية ، أو تفسيرات وثنية ، وخرافات وثنية".

وهنا عذرت الصديق يوسف عذرا شديد ، وفضلت أن أحذو حذوه فأعتبر الحدوته بلا مضامين أصلا ، فلأن تُترك "هكذا" بما

هى ، تخترق وتنتقل وتبقى ، لهو خير ألف مرة من أن يكون هذا هو "الدرس الوعظى" الذى أخرج به منها.

وقد رجعت أقارن بين هذا المستوى من الدراسة الذى يوصى به هذا الباحث ، وبين ذلك الإختزال حتى الإنكار من جانب الصديق يوسف عزب ، أقارن بين هذا وذاك وبين استشهاد الناقد الشاعر حلمى سالم ، وتوضيحه لكيفية تضمين **التراث الشعبى بكل أبعاده المتداخلة فى التعامل الداخلى الضمنى مع التراث** (٢) **لا التعامل الخارجى القشرى الذى يرصع النص** (الشعرى) ويبهظه ..

قارنت هذا ، وذاك ، ثم ذلك وخفت أكثر من حكاية علم النفس الاجتماعى ، ودور الأزهر فى تدعيم المعرفة الدينية ...

[دون أوهام أسطورية أو تفسيرات وثنية !!!] نعم خفت خوفاً شديدا .

على أن رفضى لمعظم هذه التعقيبات والدراسات يعنى - تلقائيا - تمسكى بما ذهبت اليه من قراءة تركيبية خاصة .

ومع أنى زدت يقينا بحقى فى هذه القراءة من خلال ما وصلنى ، فإنى ما زلت منزعجا منها ، منتظرا عمقا موازيا ، مستغيثا بأى وعى قادر يقظ ، مستغيثا به من نفسى أساسا.

(٤) د. عصـــام اللباد يضـــبطنى متلبسا.

فيخلع عنى ما تبقى .

لا لم تكن رسالة ، وإنما كانت مقدمة لدراسة عن قراءة هذه الحواديت المصرية الشعبية .

فاستأذنت الزميل كاتبها أن نجعلها رسالة مستقلة ، لحاجتنا إلى مثلها الآن. كتب الزميل يقول :

كتابات الدكتور الرخاوى ، (التى تركز مثالها فى حد قراءته لهذه الحواديت) ، تتميز بأنها :

١- غير قابلة للقياس ابتداء ، بأى من مناهج القياس الفنية أو العلمية ، بل إنها غير قابلة للقياس على كتاباته نفسها.

٢- متعددة فى رؤاها ، ومستوياتها ، واتجاهتها ، والأهم من ذلك أن موقف الكاتب من الموضوع يتعدد ، ويختلف ، بل ويختلط

أحيانا ، كأنما هو يتنقل حول وداخل موضوعه ، فتأتى رؤاه وكأنما هى بانورامية ، أو كلية تستعصى على القياس الذى يعتمد أساسا على ثبات نقطة القياس ، فكيف يستطيع أى منهج قياسى قياس المسافة بين نقطتين دائمتى الحركة ؟

٣- إنها تثير من الدهشة والرضا (الذاتى - الإنسانى) بقدر ما تثير من الخوف والرفض (التقليدى - الأكاديمى - العقائدى - الثابت) إلى درجة أنها تثير دهشته ، وانزعاجه ، ورفضه هو نفسه فى أحيان كثيرة.

٤- أنها تثير من التساؤلات والإحتمالات الغائبة (وربما الغيبية) أكثر مما تقدم من إجابات وتفسيرات حاضرة.

٥- أنها شمولية ، متحركة ، إذ تعتمد أساسا ، كما أرى ، على قوانين الاحتمالات والنسبية والتطور الدوامى ، مما تعجز الثوابت (حتى لو كانت فكرة الأمس) فى مجاراتها وقياسها.

وهكذا وجدتنى فى نهاية الأمر ، أو قبل النهاية بقليل ، عاجزا عن إقامة دراستى ، ولم تعد أمامى حواديت أربع ودراسة ، وإنما

أنا فى مواجهة يحيى الرخاوى (بحاله) وما يمثله لى كقارىء وتلميذ له ، وما يمثله عمـــوما فى حياتنا ، وفى قلب الحركة الفكرية المعاصرة ، وصرت فى مواجهة كم هائل من الأسئلة والتساؤلات.

وقد وجدت أن المنهج الرخاوى ، وما يتخلق فيه من رؤى وأفكار إنما هو نابع أساسا من الدم واللحم ، هو لحمه ودمه ، لا يمكن ربطه إلا به ، ولا يمكن دراسته إلا من خلاله ، بعيدا قليلاً عن المبادىء التقليدية والمدارس ، والأكاديميات والقواعد الجامدة ، فهو وفكره ليسا جامدين قابلين فقط للزيادة والنقصان عن طريقة عمليات الحساب ، وإنما هما حياة تنمو وتزداد وتتغير وتتحرك ، وربما كان هذا هو بالتحديد سبب ومعنى تلك العزلة التى يعيشها فكر - رؤية/ دم - لحم يحيى الرخاوى ، فما الذى يجعله ، وهو على هذا القدر من الرؤية والبصيرة ، الفكر والاستنارة ، وعلى هذا القدر من الجدية والمثابرة ، وبما يمتلكه من قدرة على إثارة الدهشة والتساؤل المتعدد الاتجاه ، واستنفار الثابت من الفكر من داخله ، ما الذى يجعله رغم كل هذا بعيدا عن طبطبات أو ركلات ، قبول أو رفض المفكرين والمثقفين والنقاد والمهتمين بالفكر عموما ، رغم أنى

أعرف وأرى فرط اهتمامهم به ، وبما يمثله ، وبرغبتهم فى استمراره ، وأسمع كثيرا همهماتهم (التى لا تصله أبدا على ما أعتقد) بذلك بين أنفسهم وبينهم وبين بعضهم البعض ولم أجد لذلك إجابة إلا ما وصلت إليه : إن ما يمثله الرخاوى هو اللحم والدم وأن المنهج الوحيد أو السبيل الأوحد للاقتراب منه (الاقتراب المشاركة ، أو الوعى ، أو التناقض ، أو التعلم) هو أيضا اللحم والدم ، بما يحمله هذا الاقتراب أو التوجه من تماس ، وجرح ، وعناق ، وركل ، وعلاقات قبول – رفض – تناقض ، لا تنفع فى الحماية منها دروع المناهج والمدارس والأكاديميات والقواعد الجامدة ذات المنطق الواحد ووجهة النظر الواحدة .

وهنا يأتينى الشطر المنطقى الآخر من السؤال : ما الذى يبعده عن الآخرين ؟ مالذى يحجم به عن التواجد وسطهم ؟ فوجدته بنفس المنطق السابق ، لا يجد سبيلا إلى الإقتراب إلا بالمنهج الثابت الذى يرفض إعتباره المسلم به الوحيد ، بما فى هذا الإقتراب من نفس إحتمالات التماس والجرح والقبول والرفض .

هكذا صارت وحدته ، على ما أعتقد ، وعزلته ، فلا هو قادر على الحياة دون تناقضات اللحم والدم ولا الآخرون ، قادرون على قبول هذا التناقض الحى ، ولو مرحليا لحين منهجته ، فى طريق الجدل المؤلم الشائك .

ولكن أين هذا من الناس الذين يودون فتح مسرح هذا الصراع عله ينير بقعة ما ، فمن حقنا عليه أن نقول له : "ضع منهجا حسبما تريد ، من لحمك ودمك" .

ونقول للآخرين "اتركوا مناهجكم قليلا ، ولكن لا تفرطوا فتخافوا ونخاف" وهذا حقنا عليكم ، فجوهر أفكار وكتابات الرخاوى هو الإنسان وأفكاره وثقافاته وليست معتقدا ثابتا حتى تصبح مواقف الأطراف وكأنما "لكم دينكم ولى دين" أو "لك دينك ولنا ديننا" ، فالمشكلة - إن صح تعبير مشكلة - هى فى اللحم والدم : الإنسان .

خلاصة تلك المقدمة ، أن الرخاوى بما يمتلكه من رؤية (غير متكررة) وبصيرة ، ووعى ، وقدرة على إثارة الدهشة والتساؤل ، وبما

يمتلكه من منهجية خاصة ، ومنطق خاص/عام ، له حق رفض التوقف عند خط المناهج التقليدية ، وأن رؤاه وأفكاره تكتسب شرعيتها وصلاحيتها ، بل وصلاحية تطبيقاتها ، ما دامت دوائرها تمس محيطات دوائر العديد من البشر ، تماما كما مست دراسته التي نحن بصددها (الحواديت الثلاثة) أعماق كل من قرأها ممن قمت بسؤالهم عنها.

إن تعدد نقاط ومستويات التماس ، والتأثير الانتشارى لكتاباته ورؤاه هو قانون شرعيتها ، والمدافع عنها ضد النقد الأكاديمي المعتقدى المنهجى الجامد (... الغائب !!)

تعقيب :

وقد توقفت المقدمة عند هذا الحد ، دون أن تتقدم إلى قراءة تفسير الحواديت ، لكنها حتى قبل أن تتقدم أثرتنى وأنستنى حتى كأنه قد ردّ تماما وكاملا وعن قراءتى للحواديت بالذات ، فرحت أقول له ، وما كان ينبغى أن أقول :

كسرتَها يا رجل ، كسرتَـها وما كنت أحسب أنها تنكسر ، وحدتى ، فوجدتنى أتعرى دون تحسب ، وكلما أملت أن أختبىء منك

فى السـطر التالى ، كشـفتنى أكثر ، حتى غصـت تحت جلدى ، يا رجل – هكذا ، .... أهكذا ؟

من أين لك – يا عصام – وأنا أتحرك بين نقط متحركة ، بكل وجودى / جسدى ، يفرز فكرا / وجدانا ، فيتهموننى بالغموض واللامنهجية ... إلى آخر ما قلت ورأيت.

وما دمت قد وصلت إلى هناك ، هكذا ، فلابد أنك عرفت استحالة الاستجابة إلى مطلبك "ضع منهجا حسبما تريد" لأنك نقضته بالتعبير اللاحق "من لحمك ودمك".

ولعلك تعلم أنه لم يضع أحد منهجا محددا – هو أو تلاميذه من بعده – إلا ضاعت معالم الخبرة الأولى ، (من مولانا الغزالى ، حتى فرويد) ، وفى نفس الوقت أنه لم يمتنع أحد ، أو يعجز ، عن وضع منهج محدد (من النفرى إلى هيجل) ، إلا وأسىء فهمه أو شرح بالشىء ونقيضه.

لكننى كما تعلم صاحب حرفة ، وحرفتى هى نخاع معرفتى ، فهـل يا ترى ينفع أن أخـرج من هـذا المأزق بأن أصنع بشرا ، لا منهجا ؟

لا أظن ، فهذا طريق صوفى مغلق إلا على الخاصة ، وهمى كما تعلم هو عامة الناس ، همّى لا يقف عنده الخاصة أبداً .

أريد أن أتوقف ، فلم يعد عندى ما أقوله وأنا أقف هكذا أمامك - فالقراء - دون ساتر ، لكنى أقول لك قبل أن أحاول أن أختبىء فى كلمات أخرى :

سنفترق يا عصام ، فلا تنس هذا ، أما عزلتى فلعلك خير من تعلم أنى لم أخترها تماما ، لكننى رضيت بها حالا ، حيث لا أجد لها بديلا واضحا أو قريبا ، اللهم إلا طرق أبوابكم بكل اللغات .

الهوامش

(١) الحكاية الشعبية الكويتية تأليف صفوت كمال (١٩٨٦) الطبعة الأولى ، وزارة الاعلام دولة الكويت ادارة الثقافة الصحية والصحافة والرقابة. مركز رعاية الفنون الشعبية .

(٢) جاء فى الصورة الكويتية أن ما طلبته الفتاة المحرومة كان لعبة الصبر وليس علبة الصبر ، ولعل الخلط بدأ لفظيا ثم حوله التراث؛ أو لعلهما صورتان مختلفتان من البداية ، لكنهما تؤديان نفس الدلالة .

(٣) الإنسان والتطور (١٩٨٧) عدد ٣٠ ص ٦٧ .

الباب الثالث

إعادة قراءة فى كتابات باكرة

فى نفس الموضوع ومثله

مقدمة :

وأنا أختتم مراجعتى لهذه القراءات فى التراث الشعبى ، تذكرت أن لى عملين باكرين كنت قد نشرتهما فى مجلة "الصحة النفسية" فى الستينات ، ثم أعدت نشرهما فى كتاب هو مجموعة مقالات باسم "حياتنا والطب النفسى"(١)

العمل الأول هو قراءة فى أرجوزة "واحد اتنين سرجى مرجى ، إنت حكيم ولاّ تمرجى" ، والثانى هو دراسة بعنوان "الحيل النفسية فى الأمثال العامية" .

وبدون قراءة (جديدة – الآن) رحت أجمعها المادة كما هى ، لتنشر كملحق لهذا العمل "قراءة التراث الشعبى المعاصر فى وعى الناس" .

ثم رحت أصحح الأخطاء المطبعية ، فتعجبت من هذه الكتابة السلسة ومن هذا الوضوح المباشر الذين هما نقيض ما يميزنى الآن ، وبالذات الوصف الذى وصفنى به عصام اللباد فى تعقيبه على الحواديت ، وتذكرت كيف أن كثيرا من القراء من مختلف المستويات قد أتحفونى بتعليقات طيبة على هذين العملين الباكرين

بالذات ، وعلى عمل ثالث هو كتاب شبه قصصى جمعت فيه صورا من عيادة نفسية ، بشكل شبه مباشر ، ونشرته بعنوان "عندما يتعرى الإنسان"(٢) .

ومع هذا فحين قرأت العملين وهممت بضمهما إلى المجموعة الحالية رحت أتراجع ، وقد كنت قد انتهيت لتوى من هذه القراءة الأخيرة فى الحواديت الأربعة ، وأزعجنى ما فيها من تكثيف وغموض وتعسف وفرط تأويل واقتحام وراء إقتحـــام دون ما دليل أو تراجع . رحت أراجع نفسى ، وكنت قد راجعتها فى هذا الصدد عدة مرات من قبل .

فأتساءل : ماذا يريد الناس أن يعرفوا من شخص مثلى ؟ .

وأجيب : يبدو أنهم يريدون أن يعرفوا ما يعرفونه فعلاً لا أكثر .

وسألت :

– وهل هذا هو واجبى الآن ، بعد كل هذه الرحلة ؟

وأجبت :

– يبدو أن هذا ما ينتظرونه من طبيبٍ نفسى ، يمسك بالقلم أحيانا ثم أردفت :

- لكننى لا أستطيع ، لم أعد أستطيع أن أقرر وأسجل وأكتب وأنشر ما هو ، فى نظرى ، تحصيل حاصل .

فسألنى :

من أين تميز ما هو تحصيل الحاصل ، عن ماهو حق الناس فى معرفة أوضح ، معرفة أمور بسيطة ومباشرة حتى لو كانوا يعرفونها ؟ .

فأجبت :

علىّ أن أجتهد فى كل مرحلة بحسبها ، أما عن الأمور التى يعرفونها فهذا عمل يقوم به آخرون ، ولم أعد متأكداً من فائدته بعد طول هذه الخبرة ، بل إننى بدأت أشك فى أضراره لو سطّح النفس البشرية بهذه الصورة الشائعة ، (من أمثال : دع القلق وابدأ الحياة ، وعلى الأم أن تحب إبنها . . إلخ) .

وظل هذا الحوار يهدد صدور هذا الهامش ، بل كاد يهدد صدور العمل الأصلى ، بعد أن امتد حوارى مع نفسى ليدمغ هذا العمل الحالى باعتباره النقيض البعيد ، متهماً إياه بالغموض

التكثيف والإفتقار إلى منهج متسق ...إلخ (وهى نفس ملاحظات معظم المعقبين الذين اقتطفت بعض أقوالهم آخر الباب السابق) .

ثم تراجعت عن التراجع ، ورضيت بتسوية سخيفة : وهى أن أستبعد من هذه الكتابات الباكرة ما أتصور أنه لايتناسب مع المرحلة التى أمر بها حاليا مثل : "أن الطبيب لابد أن يحب مريضه جداً" ، أو مثل أن "الإنسان جسم ونفس ومجتمع" ، وأن أضيف ما أرى أنه أنسب للمرحلة ، وعلى من يريد أن يرجع للأصل أن يفعل ، فهو منشور وفى المتداول فى مكان آخر .

وقد انتهى الأمر إلى مايلى :

١- اختصرت أغلب ماجاء بعد قراءتى الأولى لأرجوزة "واحد اثنين سرجى مرجى" ثم أضفت تعقيبا على ما تبقى .

٢- تذكرت قراءتى لأرجوزة أخرى هى "ياطالع الشجرة" لم تنشر ، فأعدت صياغتها من الذاكرة لأنى لم أعثر على أصلها .

٣- ثم نشرت الهامش الثالث عن الحيل النفسية والأمثال العامية بأقل قدر من التعديل وقدر متوسط من الإضافة .

وهكذا تحددت ملامح هذا الباب .

الأرجوزة الأولى :

واحد اتنين سرجى مرجى

إنت حكيم . . ولآتمرجى ؟

"واحد إتنين سرجى مرجى

إنت حكيم . . ولاتمرجى

أنا حكيم بتاع الصحة

العيان أديله حقنه

والمسكين أديله لقمة

نفسى أزورك يانبى

ياللى بلادك بعيدة

فيها أحمد وحميدة

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

مشته عالمشاية

خطفت راسه الحداية

حِدْ يابِدْ يابوزِ القِرد

القراءة :

سمعت من هو إبني – كإبني – يردد هذه الأرجوزة مرة ومرات ، وبدون مناسبة – كالعادة – سألني : "يعني إيه" ؟ – وتشاغلت ، فألح ، وقلت له : ممن تعلمت هذه الأغنية ؟" قال "من جدتي" قلت : "أسالها ياأخي" . وذهب يسألها فلم تتهرب مثلي ، فهي دائماً أكثر شجاعة ، وفطرتها أصدق من علمي ، وإجاباتها على الأطفال حاضرة دائماً ، وأخذت تحكي له "حدوته" . . ووجدتني أسمع بنصف أذن ، ثم بكل حواسي ، لأكتشف أن في هذه الأغنية البسيطة قصة الإنسان والحكمة والطب والمرض والموت .

فقد وجدتها تحكي أن أصل الإنسان هو أحمد وحميدة ، وأن الإنسان نشأ في بلاد بعيدة ، وما زال تواقاً إلى زيارتها لمعرفة أصله . . وأصل الحكاية .

فرحت أكمل لنفسى بعدها أن أصل الحكاية نبى ، والنبى هو الإنسان المتصل بأصل الخليقة ، وتريد الأرجوزة أن تصل الإنسان بأصل الوجود .

وما دام هناك أحمد وحميدة ، فالنتيجة الطبيعية أن حميدة تلد إنساناً جديداً ، وأن تأخذ بيده فى دروب الحياة ، وما يكاد يمشى حتى يخطفه الموت فجأة وبدون مبررات كافية ، وكل ما نملك أن نقوله للموت هو "حد يابد يابوز القرد" .

وأثناء هذه الرحلة الغريبة التى بدأت فى بلاد بعيدة ، وانتهت بغير تفسير ، يقابل الإنسان صعوبات وآلام لا مبرر لها أيضاً .

ويحاول بكل ما أوتى من قدرات وتحد وإصرار أن يجعل هذه الرحلة أروع ما تكون . . رغم أنها رحلة لها نهاية محتومة .

ويحاول الإنسان أن يرفض تلك النهاية . . . ويبدأ السعى نحو الخلود .

ويحاول أن يجده (الخلود) لنفسه . . أو حتى فى ولده . . ولكن الحداية تخطف رأسه . لا محالة . .

وما دام الخلود مستحيلا – جسداً ، فليكن خلوداً بالعمل والكلمة والفن والحكمة . . من أجل حياة فاضلة وسعيدة . مليئة بالأمل والصحة . فماذا تقول الأغنية عن الحكمة . . وعن الصحة .

تقول إن الفرق بين الحكيم والتمرجى ، (بلا تجريح للتمرجى ما دام لم يدّع الحكمة أو الطب) أن الحكيم هدفه الإنسان المريض والإنسان المسـكين على السواء ، وأن هذين أمران لاينفصلان ، وأن المـريض مسـكين والمسـكين مريض ، وبهـذا فقط يكون الحـكيم حكيما .

والحكمة – لغةً – **هى معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم .**

(وما أروع هذا التعريف وأصدقه . .)

والطب من علوم الحكمة . .

وطَبّ **الشىء** : أصلحه وأحكمه ، والأجمل من ذلك أنه : "طَبّ به : ترفّق وتلطف .

نظرة فى القراءة :

وقد تبينت فيما عدا هذه المقدمة المعقولة نسبيا (أنظر بعد) أننى لم أقرأ من الأرجوزة – فى النشر الأول بعد ذلك إلا حكاية "أنت حكيم ولاّتمرجى" ، فرحت أصف مهنتى باعتبارها تكاملاً طبيا يعتنى بفهم المريض وحسن الاستماع له ، وقلت فى ذلك ما يحتاج إلى تسجيل بعض ما سبق نشره ثم إعادة قراءة فمراجعة (مقتطف مما سبق) :

مقتطف (١) :

واللغة هى وسيلة الإتصال بين الناس ، ووسيلة التعبير عن الذات ووسيلة التكيف ووسيلة الحضارة .

والطفل يتكلم منذ ولادته إلا أن طريقة الكلام تختلف وتتطور ، فهو أولا يتكلم بأحشائه بمعنى أنه يعبر عن نفسه بالتبول والتبرز والدموع ، ولا يسمع إلا جوع بطنه ولا يحس إلا بعملية إخراجه .

ثم ينتقل إلى الحديث بلغة الحركة والإشارة ، فيعبر الطفل عن نفسه بحركات يديه ورجليه – بالإشارة والإيماءات وغيرها .

وأخيراً يصل إلى مرحلة الكلام اللفظى ، وفيها يعبر الطفل عن نفسه بالألفاظ التى يستطيع بها أن يترجم مشاعره وأن يجرد المعانى والمفاهيم .

إذن . . فالانسان مختاج إلى التعبير عن ذاته منذ لحظة الولادة ، وبأى وسيلة ، فإذا حرم الانسان الناضج فرصة التعبير الكلامى بحنجرته ، فإنه قد يعبر عن نفسه بجسمه وأحشائه .

فالفتـاة التى لاتسـتطيع أن تقنع الآخرين بما فى نفسـها ، أو التى لاتجد فرصـة لذلك ، فإنها قد تقنعهم بالإغمـاء ، فالإغماء هنا "لغة" .

والرجل الذى لايستطيع أن يعبر عن صراع قائم داخل نفسه بين الاستقلال والاعتماد على والديه ، قد يصاب بقرحة المعدة التى تعلن الاحتجاج على هذا الموقف غير المستقر .

والموظف الذى لا يستطيع أن "يبلع" رئيسه ، يتقيأ.

والزوجة التى لاتستطيع أن تشتم زوجها قد تسعل . . وهكذا ،

وقديماً كنا نتحدث عن "الأراجوز" الذى يتكلم من بطنه بالمرض .

يقول الشاعر العربى :

"ولابد من شكوى لذى مروءة

يواسيك أو يأسوك أو يتوجع"

أن يسمع ، يواسى ، أو يأسو ، أو يتوجع

هذه هى وظيفة الطبيب فعلا

وكم يكون المرض الجسمى لغة . . مجرد لغة . .

إعادة القراءة (١) :

فوجدت أننى بعد ربع قرن من نشر هذا الكلام ، ومن الممارسة العنيدة الصعبة ، وجدتنى أقر وأعترف أن المرض لغة حقيقية وفعلاً ، لكن ذلك لا يعنى أن تكون وظيفة الطبيب النفسى هو حسن الإستماع إلى المريض بالصورة السالفة الذكر فحسب ، حقيقة أن الاستماع هو من بين وظائفه ، ولكنه ربما كان من أقلها ، بل إننى أتجه حاليا مع كثير من المرضى "النعّابين" إلى وقف "نزيف الشكوى" كما أسميه فى هذه الحالات ، حيث تصبح الشكوى بالكلمات هى بمثابة دق على رءوس مسامير المرض لتثبيته ، وكأن المريض يخاف أن ينسى أعراضه فيروح يكررها وكأنه يشكو للتنفيث فإذا بها تثبت أكثر .

والحكمة التى ذكرتها الأرجوزة لا تعنى- هكذا- حسن الاستماع بقدر ما تعنى : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم ، والمعرفة هنا هى فعل قادر أكثر منها نصائح رنانة ، أو تعاطف مستمع

مقتطف (٢) :

"وليس المرض النفسى بدعاً من الأمراض" .

ويذكر لنا التاريخ أنه لا يوجد مرض طبى أو جراحى لم يمر بامتحان الشعوذة والدجل ، ولم يعالج بالتمائم والرقى ، حتى انتهت البشرية - بعد خسائر ليست يسيرة - إلى أن الطبيب هوالمسئول الأول عن هذه المهمة الإنسانية الخطيرة .

ولم يختلف المرض النفسى عن سائر الأمراض . فقد مر بنفس مراحل التخطيط بالتشوش . غير أنه تلكأ فى تلك المراحل طويلا ، ولم يكن ذلك إلا لطبيعته الإنسانية! وافتقاره إلى الأدلة المادية الصارخة التى توقف هذا الهراء عند حد .

إعادة القراءة (٢) :

قلت ذلك فى معرض التأكيد على دور الطبيب "العلمى جداً" الباحث عن الأسباب المحددة حتماً .

ولكن بعد خبرة ربع قرن ، لم أجد أن هذه التمائم والرقى مجرد هراء ، كما لم أجد فى نفسى حاجة إلى انتظار الأدلة المادية الصارخة لتوقف هذا الهراء ، لكننى لمحت فى هذا المقتطف الشارح للأرجوزة إشراقة باكرة وهى أن الطبيب هو المسئول الأول عن "هذه المهمة الإنسانية الخطيرة" فحمدت الله أننى لم أكتب "أنه المسئول الأوحد" وإنما المسئول الأول و ليس الأخير .

مقتطف (٣) :

"وهدفه (هدف الطبيب) هو أن يأخذ بيد الإنسان المريض ، كائنة ما كانت شكواه ، وأن يقف بجـواره حتى يجمع شـتات نفـسه ، ويواصـل رحـلة الحيـاة كأحـسن ما يكون ، وأصـح ما يـكون إلى أن يجىء الوقت حين تخطف رأسـه الحـداية . والتى لا نملك إلا أن نقول لها :

حد يابد يا بوز القرد .

إعادة القراءة (٣) :

وقد توقفت فرحاً عند تعبير "يقف بجواره حتى يجمع شتات نفسه" فاطمأننت إلى رؤيتى القديمة التى تبلورت الآن ، إذ أننى منذ كتبت هذا الكلام ، توصلت إلى نظرية كاملة شاملة تقول إن العلاج النفسى ، والتطبيب النفسى ليسا تنفيثاً أو طبطبة أو ترفقا أو تسكينا ، ولكنه "مواكبة" ، "وجمع شتات" و "مواصلة سعى" وأحسب أن هذا المقتطف الأخير كان يشير إلى ذلك .

وكل ذلك زعم صادق ظاهره يؤكد أننى لم أعش الأرجوزة كما ينبغى ، وأننى ركزت فعلا على تعبير "أنت حكيم ولاّتمرجى" وأخذت أمدح فى الطبيب والطب النفسى ، وأدافع عن تخصصى وأعلى من شأنه وكأنه هو الحكمة الخالصة ، وكأنه "أفضل الطبوب بأفضل الترياق" ، وكل هذا حماس يناسب المرحلة الباكرة ، لكنه لا يبرر إهمالى للأرجوزة بهذه الصورة التى كنتها ولا يغفر لى تجاوزى عن معايشتها لاستيعاب إيحاءاتها .

فالأرجوزة إذ تقول :

"نفسى أزورك ؛ يا نبى" لا تسمح بأن أقرؤها أن أصل الحكاية "نبى" .

وهى إذ تقول :

"ياللى بلادك بعيدة" إنما ترسم سهما إلى الآتى ، أكثر من أنها تصل الإنسان بأصل الوجود ... وهكذا .

فتأكدت أننى أخذت ما يهمنى حينذاك (أنت حكيم ولاّتمرجى) ورحت أكتب مقالا عن فوائد الطب النفسى وكلام من هذا- فكانت النتيجة هى أننى ابتعدت قليلا أو كثيرا عن الأرجوزة .

مراجعة :

على أننى عثرت لاحقا على مثل يؤكد الفرق بين نوعين من المداواة ، بين البيطرة والحكمة ، يقول المثل :

"كنا فى البيطرة صرنا فى الحكمة"

والبيطرة مداواة الحيوان ، والحكمة مداواة الإنسان ، ورغم أن البيطرة عمل حاذق وعطوف وكريم إلا أنه ليس مثل الحكمة التى تتضمن احتكاك عقل بعقل وحوار وجدان مع وجدان ، ثم مواكبة

نحو التكامل الذى هو الصحة ، وإذا كنا قد أكدنا أنه لامساس بمهنة التمريض ونحن نقارنها بالحكمة ، فلامساس أيضا بمهنة البيطرة ونحن نقارنها بالحكمة . . . لأن المقارنة لها غرض التفرقة لا التفضيل وسوف أكتفى بأن أشير إلى بعض ما تبين لى أنه ينبغى أن يثبت "هنا والآن" ، بعد المراجعة :

١- "نفسى أزورك يانبى" ذلك الشوق الغامض المتكرر فى السير الشعبية ، والمديح ، والأراجيز ، الشوق للزيارة (زيارة النبى ، زيارة الضريح البعيد) : أهل طنطا يزورون سيدى عبد الرحيم القنـاوى ، وأهـل قنـا يزورون السـيد البـدوى ، هـذا الحنين القوى "نفسى أزورك" هذه ظاهرة نفسية تتعلق بالترحال والتغيير والسعى إلى الكشف رمزا وشوقا .

٢- "ياللى بلادك بعيدة" لا بد أن تكون بلد المزار بعيدة تحتاج شد الرحال ، بل أظن أنه يستحسن أن يكون المسار إليها بطيئا ، ومازالت بعض رحلات أهل الصعيد البسطاء إلى السيد البدوى تتم حتى الآن (١٩٩١) على الجمال- "والشيخ البعيد له كرامة" .

٣- و "فيها أحمد وحميدة" لا أظن أنها إشارة إلى أصل الإنسان كما جاء فى قراءتى القديمة ، بل إن أحمد وحميدة فى بلاد النبى البعيدة يمثلون ودّ الحياة وحاجة الرجل للمرأة وبالعكس فى تكامل متناغم يعلن حتما كسر الوحدة واستمرار الحياة ،

٤- ثم أوافق وأؤكد ما جاء فى التفسير السابق للجزء الأخير ، أن الحدأة هى الموت ، ومازالت روح الميت فى الوعى الشعبى هى تلك الذبابة الكبيرة الخضراء ، أو الحمامة التى تطير وحدها أو بصحبة البلبل ، ومازالت الأغنية الحزينة تعلن المفارقة :

حمامة بيضا	طارت يانينا
ماخدها البلبل	وطار وياها
قصده يانينة	يسمع لقاها

وبعد

فأظن أن كل هذه الرؤى والاحتمالات هى كشف أشمل للنفس البشرية ، بما يحقق لمن يقرأ التراث بحق أن يتعلم

فيضيف إلى ماهو تكامل نفسى حقيقى : سواء كان طبيبا أم تمورجيا أم بيطريا أم بائع لبن .

على أن يكونوا كلهم حكماء .

الأرجوزة الثانية

ياطالع الشــجرة

(من الذاكرة)

ياطالع الشجرة

هات لى معاك بقرة

تحلب وتسقينى

بالمعلقة الصينى

المعلقة انكسرت

يا مين يربينى

دخلت بيت الله

لقيت حمام اخضر

بيلقط السكر

يا ريتنى آكلتُه

هذا ما وعته ذاكرتى من الأرجوزة .

أما ما كتبته حينذاك ورفض الأهرام نشره فى حينه (ولعل معهم الحق) فكان تفسيراً يتعلق برؤيتى لموقفنا نحن العرب (ممثلين للعالم الثالث المتخلف) من استيراد الجاهز العصرى الهش فى آن ، الذى تشير إليه "المعلقة الصينى" حيث تصورت أنها يمكن أن ترمز بشكل ما إلى التكنولوجيا ، فقد خيل لى أننا جالسون تحت شجرة الحياة (الحضارة المعاصرة) التى لم نزرعها ، أو التى لم نتعهدها بعد زرعها ، جالسون نرسل المراسيل وننتظر الفرج ، إما فرج من قرض ميسر ، (تسهيلات إئتمانية) أو أدوات رفاهية من ناتج صناعة جاهزة ، تؤكد الدعة والكسل .

هم يطلعون الشجرة ونحن ننتظرهم حتى يرجعون إلينا بالسلامة ، ومعهم طلباتنا جاهزة "مستوردة" : "هات لى معاك . . ." فلا نحن زرعنا الشجرة ، ولا نحن ربينا البقرة ، نحن لا نفعل إلا أن نستورد ناتج التكنولوجيا وأدواتها دون أن نستوعب متطلباتها وشروطها، دون أن نحاول أن نساهم فى تحديثها وتطويرها ،

فنصبح مستهلكين لا مستعملين للتكنولوجيا ، فإذا توقف استيرادها (كما تهدد أمريكا روسيا والصين والعالم أجمع) توقفت عجلة الحيا، أو حتى إذا أسيئت صيانتها (التكنولوجيا) -لأننا لسنا صانعوها - توقفت الحياة أيضاً ، فرددنا إلى نكوص بشع ، أطفالاً بلا حول أو قوة ، نبحث عن مرضعة أخرى (يامين يربينى)

وحين نحرم من التكنولوجيا - بكسرها أوفشلنا فى استيعابها- ، ثم نروح نصرخ أطفالا بدلا من أن نجتهد على طريق أشواك النضج ، نتراجع إلى مزيد من النكوص .

فبيت الله هنا - فى هذا السياق - ليس مسعى بعيدا أسعى إليه مثل الأرجوزة الأولى "نفسى أزورك يا نبى ، ياللى بلادك بعيدة" وإنما هو مرفأ يستجير به من لم يجد من يحلب ويسقيه ، ثم كسرت منه الملعقة الصينى ، وهو مرفأ سهل أيضا رغم وجاهته ، لأن الصورة التى قدمتها الأرجوزة هى صورة ناعمة ساكنة ، لبيت جاهز ليس فيه ترحال وشوق ، رغم ما يتبدى فى داخله من جمال (حمام أخضر ، بيلقط السكر) ، وما يوحيه من سكينة الطفولة التى غلبت على الصورة داخله ، حتى أقلقتنى .

فأنا – إذن– لم أقرأ فى هذه الصورة أى سعى حقيقى بديل عن استسلام وانتظار للجالس تحت الشجرة "لطالع الشجرة" ليأتى له بالبقرة التى تحلب وتسقيه هكذا ، وهو مستلقى .

وقد تشوهت الصورة أكثر بالحمام الذى كان يلتقط السكر ربما لأسباب شخصية : ذلك أن علاقتى بالسكر كرمز للحلاوة أو الجمال (حلوة زى السكر) هى علاقة سيئة فعلاً– كانت أمى ، وأحيانا خالتى– تدهن لنا الرغيف الساخن بالسمن ثم تحشوه سكرا ، ونجرى نغنى "ستى بتعمل سمن وسكر ، ونا باحب السمن بسكر" ولم تكن تلك هى الحقيقة ، ولكنهم كانو يفرضون علينا الأغنية لنستطعم الوجبة التى تترك قدراً من الدهننة باقية فى فمى تنفرنى من هذا "السكر" وحلاوته ، واكتمل ذلك بالمصيبة المسماة "سد الحنك" التى هى أيضا عجين بسمن وسكر ، تذكرت كل ذلك وأنا أتصور الحمام الأخضر الجميل ، يلتقط حبات السكر هكذا فيحط على الأرض كسلا بجوار المنتظر الكسول الأول ، الذى ينتظر تحت الشجرة دون محاولة تسلقها شخصياً ، على أننى كنت قد تصالحت مع هذا المنظر حين رحت أرصد حمام الكعبة الشريفة ، وحمام

ميدان سان ماركو فى فينيسيا ، وميدان الكنيسة الكبيرة فى ميلانو ... الخ (لكننى أحسب أن الحمام هناك لم يكن يلقط حب السكر وإنما فطر الطبيعة والحمد لله) .

لكن هذه الأرجوزة قالت لى شيئا آخر يتعلق بموضوعنا هنا وهو "علم بالنفس" من وعى الناس :

١- أشارت إلى علاقة الوجود البشرى بالشوق إلى أعلى (ياطالع الشجرة)

٢- وإلى علاقة الإنسان بالطبيعة نباتا وحيوانا (الشجرة- البقرة)

٣- وإلى ضرورة الوسيلة حتى لا تكون العلاقة بالطبيعة هى البديل الفج البدائى (بالملعقة الصينى) .

٤- وإلى ضرورة الحرص على هذه العلاقة (حتى لا تنكسر) وإلا انقطع الخيط بيننا وبين النهل من منابع الفطرة وانفصلنا عن الطبيعة وأصبحنا "جسما غريبا" .

٥- وإلى أنه (كما يقول مولانا جلال الدين الرومى) كل من انفصل عن أصله ، يطلب أيام وصله ، أى أنه كل من كسرت علاقته بالطبيعة ، فهو يعاود السعى إلى رحاب الكون رحاب الله صعودا ما أمكن ، أو دخولاً سلساً آمناً (دخلت بيت الله) .

٦- وإلى عودة الحياة إلى تناسقها بمنظر هذا الحمام الأخضر (طبيعة أخرى) فى بيت الله تلتقط الحلو (رغم تحفظاتى الشخصية).

٧- وإلى الحفاظ على الشوق والأمل طول الوقت . . . حتى بعد الإنفصال والنكوص .

وأكتفى هنا بذكر رءوس مواضيع هذه المراجعة على ما تم نقله من الذاكرة لأنتقل إلى الموضوع الأخير عن الحيل النفسية فى الأمثال العامية .

الحيل النفسية فى الأمثال العامية
(هذا أصل كامل تعدل أضيفت إليه إضافات طفيفة فى أضيق نطاق)

شعر الإنسان أثناء تطوره بالحاجة الملحة إلى التكيف مع بيئته والدفاع عن نفسه ، وكذا إلى تجنب الألم والسعى إلى تحقيق أهدافه . .

ونعنى بالبيئة فى مجال التكيف كلا من البيئة الداخلية (محتوى اللاشعور) والبيئة الخارجية (المجتمع الكبير) على حد سواء .

وليس التكيف بمعناه الواسع قاصراً على الإنسان ، فإن بعض أنواع الحيوانات قد تلجأ إلى وسائل للتعمية مستعملة أساليب الخداع حتى تحمى نفسها من عدوها فى البيئة الخارجية ، ومثال ذلك ما تلجأ إليه الفراشة أو الحرباء من تغيير لونها ، فتماثل الأولى ما حولها من أزهار وتماثل الأخيرة ما حولها من أحجار ، وبالتالى تتجنبان الخطر .

والحيل النفسية ما هى إلا أساليب دفاعية تهدف أساساً إلى التخلص من التوتر وتساعد الإنسان على التغلب على ما يلاقيه من صعوبات فى بيئته ، تلك الصعوبات التى قد تكون شعورية يعلم الإنسان ماهيتها ويقدر خطورتها كما قد تكون لاشعورية تهدد كيانه دون وعى منه . . وفى كلا الحالين يكون دفاعا مباشراً أو غير مباشر بوعيه أو بدون وعيه .

ولنا أن نتساءل مطالبين بتفصيل أكثر؛ ما هو المثير الحقيقى لهذه الأساليب وما هو الهدف الأساسى من ورائها ؟ . والجواب هو "إن القلق الشديد الذى لا يستطيع الإنسان احتماله هو المثير لكل هذا السلوك ، وإن الهدف الأساسى من وراء تلك الأساليب هو "خفض التوتر" .

وينشأ التوتر من حدة الصراع الدائر فى النفس الإنسانية؛ ومتى اشتد الصراع زاد التوتر والقلق ، وعانا الإنسان بالتالى من حالة تهدد سعادته وتشقى نفسه المطمئنة . . الأمر الذى يدفعه إلى التخلص منها بكل وسيلة . . ومن أهم هذه الوسائل : "الحيل النفسية" . وهى الأساليب التى لا دخل للتفكير الشعورى فيها . . فهى تحدث تلقائياً دون إدراك الإنسان ، أى بعيداً عن دائرة إرادته

الواعية . . وهى تحدث آلياً بقصد خفض التوتر عند الأسوياء من الناس . ولكنها قد تتكرر حتى تصبح عادة سلوكية تكون معوقة أحياناً لا سيما فى الأشخاص ناقصى النضج أو المهيئين للأمراض النفسية – أما إذا زاد اللجوء إليها زيادة أعمت الفرد عن إدراك نقصه ودراسة عيوبه فخدعته عن حقيقته ، وألجأته إلى تجنب الألم مهما صغر أو كان ضرورياً لمعرفة مجريات الأمور والوصول إلى أهداف الحياة فى إطار الواقع . . وإذا بلغت زيادتها حداً أبعده عن الحياة الإجتماعية والمشاركة فى معترك الحياة المتلاطم بالأهواء والأنواء ، إذا حدث هذا أصبحت هذه الأساليب أساليب مرضية تعوق التوافق السوى رغم أنها فى البداية كانت تهدف للتوافق وخفض التوتر .

وهذه الحيل النفسية قديمة قدم الإنسان ذاته ، وهى متأصلة فى عاداته وسلوكه من قديم الأزل ، وقد أدرك الأقدمون هذه الحقيقة وصاغوها فى تعقيبات متداولة مما تمثل فى الأمثال العامية والأغانى الشعبية العريقة فى مجتمعنا ، وهذه ظاهرة تدل على عمق جذور الاستبصار عند الإنسان على مر العصور ومع اختلاف

مراحل التطور ، كما تدل كذلك على قدرته الفائقة على التعمق فيما وراء السلوك الظاهرى من دوافع خفية ملتوية .

وتبدأ كل الحيل النفسية بعملية أساسية ، وهى "الكبت" . فالكبت حيلة دفاعية أساسية تحدث وحدها أو تسبق حيلة أخرى تكميلية أو ثانوية ، وهى العملية اللا إرادية اللا شعورية التى تحدث بصفة آلية فتنتقل الأفكار والخبرات من دائرة الشعور والوعى إلى دائرة اللاشـــعور حيث لا يمكن فى الأحوال العادية استرجاعها أو تذكرها ، ويمكن بهذا أن يعتبر الكبت "عملية نسيان آلى للأفكار والنزعات . . ."وهذا النسيان يصاحبه إنكار للحدث أصلا ، وشتان بين الكبت والقمع ، فإذا أحسست مثلا برغبة فى مصاحبة إحدى الفتيات وامتنعت عن ذلك لظروف اجتماعية فهذا ليس كبتاً لأنك أدركت رغبتك واحترمتها ثم تحكمت فيها ، أما إذا أنكرت أصلاً أنك ترغب فى مصاحبتها فإن إلغاء الإعتراف بهذه الرغبة – رغم وجودها فى اللاشعور – هو الكبت بعينه وفيه ما فيه من خداع النفس ... وعادة ما تكون النزعات والأفكار المكبوتة مشحونة بالانفعال الذى عجز الإنسان عن أن يتحمله فى حياته الشعورية

فآثر أن يخفيه فى داخل نفسه ظاناً منه أنه تخلص منه ، فى حين أنه يدخل اللاشعور بكل شحناته .

إذن فالكبت هو العملية التى تمحو من الشعور والتعبير الحركى المباشر إندفاعات وأفكار لو أدركها وعاشها الإنسان لكانت مؤلمة أو مخزية أو مخيفة ، أو باختصار هو عملية نفى فكرة أو اتجاه بما يصاحبهما من انفعال - من حظيرة الشعور إلى غياهب اللاشعور .

و عملية **الكبت** لا تكفى وحدها لخفض التوتر ، لذلك فهى تحتاج لأن تدعم بحيل دفاعية كثيرة أخرى ، ثم إن الإنفعال الذى يصاحب الفكرة المكبوته يبحث له عن تصريف مناسب ، محّور ، ويتم هذا جزئيا عن طريق بقية الحيل النفسية .

والحيل النفسية قد تكون حيلا إعتدائية مثل "**العدوان**" Aggression ويتجه العدوان هنا - كحيلة نفسية - إلى غير هدفه الأصلى . . . أى أنه يتجه إلى هدف غير ذلك السبب المسئول عن التوتر الذى كان يستوجب الإزاحة والعدوان ، فإذا كان التوتر ناشئاً من الحيلولة بين الإنسان وغايته مثل إشباع دافع ما ، وليكن

دافع الجوع فإن العدوان قد يأخذ سبيلاً آخر للتنفيس عن هذا التوتر ، وقد عبر ذلك المثل القائل :

"مالقوش عيش يتعشوا بيه جابوا عبد يلطشوا فيه"

وقد يتجه العدوان إلي الجماد وهو غير مسئول عن الإعاقة ، فنرى أن دافع العطش مثلا إذا لم يشبع أنشأ حالة من التوتر لاقبل للمرء باحتمالها فقد يكسر الإناء عدوانا عليه . . . وفي هذا قيل :

"العطشان يكسر الحوض"

ولكن قد يكون لهذا المثل تفسير آخر مثل أن يكون وصفاً مباشراً للهفة العطشان على الشرب لدرجة أنه يندفع حتى ليكسر الحوض ، أو أنه يكسره إذا فرغ باحثاً عما يمكن أن يحتويه جدرانه إن كان قد خلي محتواه ، وهكذا .

وقد يكون العدوان على أشياء تافهة لا علاقة لها بمصدر التوتر . وقد عبر عن ذلك المثل الذى قيل فيمن يطارد ذبابة ويتابعها فى غيظ يحاول قتلها بأنه لا يعدو أن يكون مليئاً بالتوتر وأن هذا التصرف ما هو إلا تنفيث عن عدوانه . . فالمثل يقول :

"دى مش دبانة . . . دى قلوب مليانة" .

وقد يكون الإعتداء عن طريق إسقاط المشاعر الضارة على الآخرين ، **فالإسقاط** Projection حيلة لاشعورية نلقى بها اللوم عن أنفسنا وننسبه إلى الآخرين فنتحرر من المسئولية التى نشعر بها بأن ننسبها لغيرنا ، ولهذا يلصق الإنسان بغيره ما يعتمل فى نفسه ولايرضى عنه . . فالزوج الذى تنطوى نفسه على رغبة فى خيانة زوجته يرميها هى بالعزم على الخيانة . . وفى المثل :

"زانى ما يآمن لمراته"

رغم أن المثل قد يعبر أيضاً عن حيلتى التعميم والتقمص .

ومثل آخر أكثر مباشرة فى **الإسقاط** ، وأكثر علاقة بالعدوان لأنه رد مباشر على عدوان عابر .

لاتشتم القحبة تِلهيك

وكل اللى فيها تجيبه فيك

والشطر الثانى هو الذى يعنينا فى الإشارة إلى الإسقاط ، ولكى يسمى حيلة فهو لابد أن يحدث ، مثل كل الحيل الأخرى ، دون

أن يعى صاحبه بحقيقته ، أى لا شعوريا ، فالقحبة هنا وهى تعاير خصمها بأنه "مشيه بطال ، وعلى غير خلق . . ." إلخ ، تعتقد ذلك فعلاً . . . وتندفع فى إثباته دون أن تدرى أنها هى التى تتصف بكل ذلك قبلا وأساساً .

وعكس الإسقاط تماماً "**الاحتواء**" Introjection وهو يحدث غالباً فى الأشياء الحبيبة إلى النفس ، فالطفل يحتوى "شكل" أمه . . . والأغانى الشعبية فى الحب والغزل فيها من معانى الإحتواء أكثر من أى مظهر آخر . . فالأغنية الشعبية تقول "احطك فى عينى واتكحل عليك" أو "أحطك فى شعرى واتضفر عليك . . وإن جم يسألونى ماقولشى عليك" وهذا هو الاحتواء بعينه .

وقد تكون الحيل فى كثير من الأحيان **إنسحابية** ، وفى هذه الحال يهرب المرء بعيداً عن مصدر التوتر والقلق . . فينسحب عنه إلى ذاته أو إلى أحلامه يحقق بها ما عجز عن الوصول إليه فى عالم الواقع .

وأوضح هذه الحيل هى حيلة **الإنطواء** Introversion حيث يكون الإنسحاب مادياً ومعنوياً فيعزف الإنسان عن مشاركة الناس ويهرب منهم ثم يأخذ فى تبرير موقفه وكأنه القائل :

"اللى يخرج من داره ينقل مقداره"

أو المثل القائل :

"أقعد فى عشك

لما الدبور ينشك"

وهناك حيلة أخرى فيها قدر أكبر من العمى بالإنسحاب والتراجع وهى "**الإنكار**" Denial فهى تعتبر حيلة هروبية كذلك وفيها ينكر الإنسان وجود أحد شقى القوى المتصارعة فى داخل نفسه ، وبالتالى ينهى الصراع القائم؛ وقد ينكر وجود الخطر الخارجى الذى يحتمل أن يسبب قلقاً وتوتراً فى النفس وكان ذلك ما يعبرون عنه فى قولهم

"ودن من طين . . ، وودن من عجين"

وقد يلحق الإنكار أو ينوب عنه حيلة أخرى تسمى ، "**الإبطال**" Undoing ويعنى إبطال مفعول عمل ما ، أو شعور يشعر به الإنسان بتغطيته بفعل آخر ، وهذا الذى قيل فيه :

"زى اللى الصابونة فى ايد . .

والنجاسة فى ايد . . . يطرطش ويغسل"

وهذا الموقف هو ما يحدث أيضاً فى حيلتى **التكفير والإصلاح** Reparation حيث يقوم الفعل الأخير بإصلاح ما حدث من أذى فعلا - أو تخيلا - وبذلك يتخلص من شعوره بالذنب عن طريق محاولة تعويض الخسارة أو إصلاح الفساد .

أما **التبرير** Rationalisation فهو الحيلة التي تمثل اللمسة الأخيرة فى معظم الحيل الأخرى ، فالتبرير هو محاولة من جانب الشعور لتفسير وتسويغ فعل أو رأى ليس له فعلا ما يبرره . . إلا دوافع خفية لا يقبلها الإنسان على نفسه ويأبى الإعتراف بها - أى أنه تقديم أعذار مقبولة للنفس تبدو مقنعة لكنها ليست الأسباب الحقيقية .

وإن دراستنا للتراث الشعبى لتوضح كيف تعمل الأمثلة العامية بصورة ملحة فى هذا الغرض ، وكأنها ذخيرة لا تنضب لتبرير الأعمال غير المقبولة حتى قيل ، إفعل أى شىء تقرره . . .

وستجد مثلا يبرره" والتبرير يعمل لتغطية الشعور بالنقص فى الخبرة أو العجز فى القدرات وهذا ما يعبر عنه المثل القائل :

"اللى ما تعرفش ترقص . . تقــول الأرض عــوجة"

أو :

"إيــش حايشــك عن الــرقص يا اعرج . .

قال قصر الأكمــام"

وحيلة التبرير موجودة فى قصص شائعة ومتداولة ، ولا أظن أن أحداً لا يعرف قصة الثعلب والعنب المر فى كل اللغات ، فى العربية مثلا نظمت شعراً يقول :

وثب الثعلب يوما وثبةً   شغفاً منه بعنقود العنب

لم ينله ، قال هذا حصرمٌ   حامض ليس لنا فيه أرب

وصلاح جاهين ينظمها بالعامية المصرية قائلا :

"العنب دا طعمه مر

قال كده التعلب فى مرة

والدليل على إنه مر

إنه جوه وأنا بره"

أما الحيل **الإبدالية** فهى الحيل التى تعنى إبدال هدف مكان هدف أو إزاحة شعور مكان شعور غير مقبول من النفس ومثال ذلك أن تتحول مشاعر الكره التى قد تراود الطفل تجاه والده إلى هدف أكثر إحتمالا لهذا الكره دون أن يلحق بالطفل شعور بالذنب ، فإن بغض الطفل لمدرسه-مثلا - لا يثير عنده شعورا بالذنب ، فى حين أن كرهه لوالده يثير عنده خليطاً من المشاعر مما قد يسبب له التوتر والألم ، وكذلك المدرس الذى يقسو على طلبته قد يكون هدفه هو القسوة على المجتمع الكبير الذى حرمه حظه من التقدير والرعاية ثم أزيح هذا الشعور العدوانى وانصب على الطلبة الأبرياء وهذا ما يعبر عنه المثل القائل :

"ما قدرشى على الحمار اتشطر على البردعة" .

وقد يكون **الإبدال** هو إبدال شعور خفى بعكسه : فيظهر على الإنسان عكس ما يبطن دون وعى منه أو إرادة ، وهذا ما يسمى

"**تكـــوين رد الفعل**" Reaction Formation فإذا ما أظـــهر طفل مثـلا حنـواً بالغاً نحو أخيه الأصـــغر فإنه يخفى عـادة دافعاً عـــدوانياً وكأن حنـوه هو حنـــو القط على الفـأر ولهــذا قالوا فى ذلك :

"الفار وقع من السقف . القط قال له اسم الله . .

قاله ابعد عنى وخلى العفاريت تركبنى .

ويضرب هذا المثل فى التحذير من العواطف الزائدة التى ليس لها ما يبررها .

وقد تمتد دائرة الإبدال حتى تشمل كل المثيرات المشابهة للمثير الأصلى بلا استثناء ، وهذه الحيلة هى حية **التعميم** Generaliza-tion وإن كان التعميم ليس دائما حيلة ، فهو جزء لا يتجزأ من مراحل التعلم الشرطى ، والمثل الذى يعلنه بوضوح يقول :

اللى يتلسع من الشربة ، ينفخ فى الزبادى

أو :

اللى اتقرص من التعبان يخاف من الحبل

أما **التقمص** Identifieation فهو أن يدمج الفرد شخصيته فى شخصية آخر وذلك بشعوره وسلوكه جميعاً - فالطفل يتقمص شخصية أبيه وقارىء القصة يتقمص شخصية بطلها . . . وهكذا ، وقد يتقمص الآباء شخصية أبنائهم سواء بسواء - وهنا يحس الوالد - مثلا - بشعور ابنه فى الفرح والألم وغيرهما ، ولعله يحس حتى بإشباع حاجاته العضوية مصداقا للمثل السائر

"من اطعم صغيرى بلحة . . نزلت حلاوتها بطنى"

وكأن الوالد شعر بالشبع واللذة الذين شعر بهما الصغير .

أما **التقديس** Idealisation فهو أن يبالغ الشخص فى تقدير من يحب وتنزيهه بشكل زائد عن الحد حتى يصفه بكل المحاسن التى فيه فعلا والتى ليست فيه كذلك ، بل ويخلع عليه أفضل أفكاره وغاية أمانيه وبهذا يجد مبرراً للتعلق العاطفى به ويحس أن عواطفه قد اتجهت اتجاهاً تستحقه ، فالوقوع فى الحب مثل واضح من أمثلة المبالغة فى صفات المحبوب والتغاضى عن عيوبه ، أو بتعبير أصح التعامى عنها ، وهنا نحب

أن نشير إلى ما يتواتر فى هذا الصدد من آثار وأقوال ، فحين قال عمر بن أبى ربيعة "حسن فى كل عين ما تود" كان يعنى إغفال المحبوب عيوب المحب وإبراز الحسن دون غيره إرضاء لنزعة الحب . . . وقد تصل المبالغة ما وصل إليه قيس بن الملوح (مجنون ليلى) فى قوله "محب لا يرى حسنا سواها" . . ففى الحالة الأولى أضفى الحب الصفات الحسنة على المحبوب أما فى الحالة الأخرى فقد نفى صفات الحسن عن أى أحد إلا محبوبته ، وهذا هو مصداق المثل القائل :

"عين الحب عميا" .

وفى هذا أيضا ما فيه من إلغاء رؤية الجانب السيىء من المحبوب ، وهو نوع من "الكبت" باعتباره الحيلة الأساسية التى بدأنا بها الحديث ، وهذا العمى لا يقتصر على الغرام الشائع ولكنه هو المسئول أيضا عن أنه

"القرد فـ عين أمه غزال"

أو "خنفسة شافتْ بنتها عالحيط
قالت دى لوليّةْ فى خيط"

وبعد ،

فلعل ما ذكرنا يشير أصدق إشارة إلى أن مفهوم النفس الإنســانية وأبعادها لم تغب عن الأذهان لحظة من زمان ، وأن ما حـدث مؤخراً أثــناء تطور العلوم هو النظرة العلمية للمظاهر النفسية أما دينــاميات النفس ، وإدراك القوى المتصارعة فيها ، فهى حقيقة موجودة منذ وجد الإنسان ، لذلك لنا أن نعجب كل العجب من هؤلاء الذين ينكرون اليوم ما أقره الشخص العادى منذ آلاف السنين !

وأحـسب أن المثل العامى لا يصـف الحيـلة النفســية بقدر ما يعريها ، وهو إذ يفعل ذلك ، لا يسعى إلى إلغائها بقدر ما يسعى إلى تقريبها من الشعور ، بحيث تصبح أقل ضغطا ، وبالتالى أقل تشويها للنفس وللعالم الخارجي .

لذلك فإن استعمال الأمثال العامية قد ينبهنا إلى الحيلة ليؤكد ضرورتها ، وفى نفس الوقت يعترف بها ، ثم يخفف من ضغطها ، كل ذلك على مستوى مناسب من الوعى البشرى الفردى والعام .

ص

فهـــــرس

ص

الباب الثانى

الباب الثالث

رقم الأيداع : ٤٨٨٦ / ١٩٩٢

I . S . B . N

977 - 07 - 0182 - 3

روايات الهلال تقدم

الأزمنة

بقلم

سعيد سالم

تصدر : ١٥ يولية سنة ١٩٩٢

كتاب الهلال القادم

الحملة الفرنسية
بين الأسطورة والواقع

بقلم

د. ليلى عنان

يصدر : ٥ أغسطس سنة ١٩٩٢

هذا الكتاب

هو قراءة فى النفس البشرية من واقع التراث الشعبى المصرى .

وقد تناولت الكشف عن أغوار النفس واختلاف الطباع من واقع حدس الناس الجمعى حين يتكثف فى مثل عامى ، أو يصدح فى موّال شعبى ، أو ينساب فى "أحدوثة" (حدّوتة) من خلال خيال طفولة فجّة ، أو يتردد فى أرجوزة شائعة.

وقد شملت القراءة فى المثل والموال فصولا تشرح واقعية الأخلاق ، وطبيعة العلاقات البشرية ، وشرف الهم (مصريا) وفصول عن الصد والهجر والصداقة والود ، وكذا عن الغش والنذالة .

كما عرضت لإعادة تفسير عقدة أوديب وقهر التعليم السلطوى من خلال حواديت طفلة شغالة .

وأخيرا فقد شرحت جذور الحيل النفسية فى الأمثال الشعبية والعلاقة بين الطب والحكمة والاستيراد السلبى للتكنولوجيا ، والتبعية .

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي ٢٥ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N


المنظف الصناعي
نيون ٢٠٠٠
ذو الرغوة الوفيرة
والرائحة الذكية
إنتاج:
شركة الاسكندرية للزيوت والصابون

الحملة الفرنسية

بين الأسطورة والحقيقة

عدد ممتاز



ليلى عنان

الكتاب رقم ٥٠٠ من السلسلة



سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

NO – 500 - au - 1992 العدد ٥٠٠ صفر ـ اغسطس ١٩٩٢

FAX 3625469 : فاكس

أسعار البيع فى الخارج لكتاب الهلال أغسطس فئة ١٧٥ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة ، لبنان ٣٢٠٠ ليرة ، الاردن ١٥٠٠ فلس ، الكويت ١٠٠٠ فلس ، السعودية ١٢ ريالاً ، تونس ٥ر١ دينار ، المغرب ٢٠ ردهماً ، البحرين ١٠٠٠ فلس ، قطر ١٠ ريالات ، دبى ١٠ دراهم ، سلطنة عمان واحد ريال ، الجمهورية اليمنية ٣٥ ريالاً ، غزة والضفة والقدس ٢ دولار ، لندن ١٥٠ بنساً .

الحملة الفرنسية
بين الأسطورة والحقيقة

بقلم

د. ليلى عنان

الأستاذة بقسم اللغة الفرنسية
بكلية الآداب - جامعة القاهرة



دار الهلال

الغلاف للفنان :
حلمى التــونى

بسم الله الرحمن الرحيم

« .. رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى
واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى .. »

صدق الله العظيم

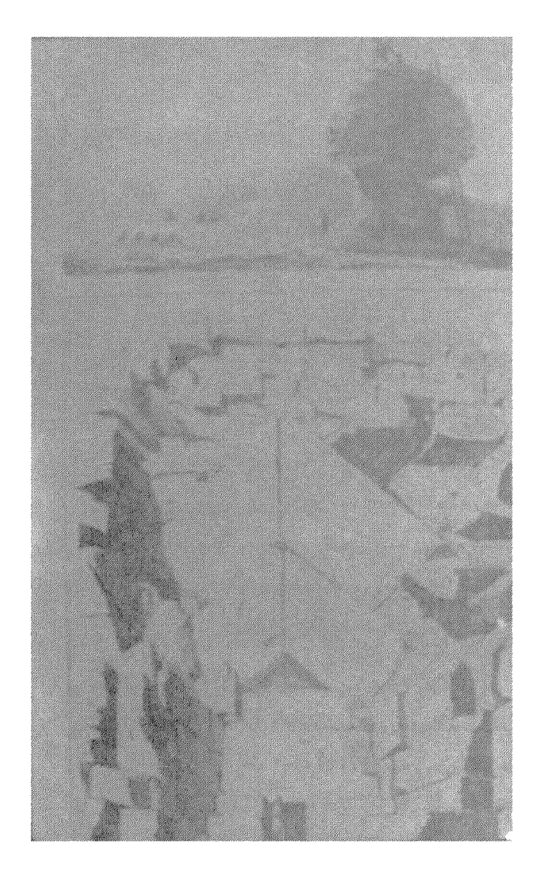
مقـــدمة

موريس بيچار ، الذى يعتبر من أكبر مصممى الباليه الحديث فى العالم ، حضر الى مصر ليقدم حفلاته فى دار الأوبرا . وبهذه المناسبة ، صمم رقصة جديدة ، تحكى تاريخ مصر . وقد عرضت فى ليلة ١٩ من شهر مايو سنة ١٩٩٠ . وإنتقى بيچار من التاريخ ، ما يراه قد أثر تأثيرا كبيرا على الشعب المصرى ، فبدأ بأوزيريس ، ثم انتقل الى ذى النون ، ثم العصر العثمانى ، وفجأة ، فوجىء المشاهد بسماع الموسيقى تصدح بإنشودة الفرحة من السيمفونية التاسعة لبيتهوفن ، وهذه الأنشودة لها معنى معين ، يذخر بالتفاؤل وبالسعادة التى تبشر بها . وإذ ببونابرت يدخل على المسرح ، ويرقص ويرقص ويرقص . وانتهى من رقصته بعد مدة طويلة ، وإذ بالشباب العربى والمصرى الموجودين على خشبة المسرح ، يلتفون حوله ، ويقبلونه ويهنئونه .

ثم مرت الأيام ، وقدم لنا التليفزيون المصرى ، فى ليلة ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٩١ ، سهرة من دار الأوبرا أيضا ، لرقصة أخرى ، اسمها « ليالى أبو الهول الثلاث » ، وهى قصة مصر مرة

أخرى ، كما يراها فى هذه المرة ، مخرج عربى لبنانى الجنسية . وإذ بنا نفاجأ ، مرة أخرى ، ببونابرت الذى ظهر فى هذا السرد السريع ، الذى يحكى قصة عشرة آلاف سنة من تاريخ مصر فى ساعات قليلة ، ويرقص بونابرت ويرقص ويرقص . ثم يدخل محمد على ، ويرقص معه ، والحقيقة تقال أننا لم نفهم إن كانا يتعانقان أم يتصارعان ، مع أنهما فى حقيقة الأمر والتاريخ ، لم يتقابلا شخصيا أبدا . ولكن العجيب أن يقدم بونابرت بهذه الصورة ، بينما الأحداث الجسام فى تاريخ مصر لا حصر لها ، وكان لها من التأثير على تكوين الشخصية المصرية ، ما غيّر وجه مصر كلية ، مثل دخول المسيحية فى القرن الميلادى الأول ، ودخول العرب والاسلام فى القرن السابع ، ثم العثمانيين فى القرن السادس عشر ، ثم الانجليز الذين مكثوا إثنين وسبعين عاما . ولكن السنوات الثلاث (وعليها شهران) ، التى قضتها الحملة الفرنسية ، بدت لمصممى هذه الرقصات ، ولكثير من المؤرخين ، أهم بكثير من هذه الأحداث ، بينما بونابرت نفسه لم يمكث فى مصر إلا أربعة عشر شهرا لا غير .

ليلى عنان



صورة جانبية لأبى الهول ، تشير الى حالة تحطمه
وخصوصية ملامح هذا الوجه فى الأجزاء المتبقية

نزل الجيش الفرنسي في الاسكندرية في اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ ، وسافر بونابرت سرا عائدا الى فرنسا في أغسطس ١٧٩٩ ، وسلمت الحملة الفرنسية مدينة القاهرة في يونيو ١٨٠١ ، وسافر مينو مع ما تبقى من الجيش في سبتمبر ١٨٠١ . وما بين هذه الأيام ، سجل حافل من الحروب والثورات والمقاومة المستمرة في مصر السفلى والعليا والقاهرة ، وقد أخذ بونابرت جنده حتى فلسطين ، وعاد مهزوما وقد فهم أن الحلم لا أمل في تحقيقه . وفشلت الحملة في كل أهدافها .

ونتساءل من أين جاءت إذن هذه الأهمية القصوى التي تجعل حملة بونابرت تأخذ هذا النصيب من الاهتمام وسط تاريخ يمتد لأكثر من عشرة آلاف عام . وقد تساءل قبلنا مؤرخ فرنسي قائلا : « لو لم يكن بونابرت قائدا لهذه الحملة ، أكنا سمعنا عنها وكان لها هذا القدر من الدراسة ؟ » والاجابة على هذا التساؤل

واضحة لمن يعرف أن فرنسا أرسلت ، بعد حملتها على مصر ، حملة أخرى الى سان ـ دومنج ، شديدة الشبه بالحملة على مصر ، ولم تثر أى انتباه ، ولا يسمع حتى عنها إلا المتخصصون .

وهناك طبعا حقيقة يجب مراعاتها إذا ما طرحنا سؤالنا هذا . هو أن بونابرت نفسه كان ، ولايزال ، أسطورة . كان أسطورة منذ أول حملة قام بها كقائد عام للقوات الفرنسية التى فتحت ايطاليا قبل الحضور الى مصر مباشرة . وهناك مناقشة حول حقيقة عبقريته الحربية ، ولكن ما من أحد يشك فى حقيقة عبقريته الإعلامية ، ومن يدرس كيف ساعد هو نفسه على خلق أسطورته ، وهو مع جيش ايطاليا ، يفهم أن كل ما يمسه لابد أن يأخذ أكثر من حقه بكثير ، ونبذة سريعة تشرح لنا ما كان يفعله : فمثلا ، أخذ من ايطاليا خمسين مليونا ، لم يرسل منها الى حكومة الإدارة إلا عشرة ، وأنشأ بهذا المال الوفير ثلاثة جرائد تتغنى به وبعبقريته وانتصاراته الباهرة (وبعضها كان كاذبا) ، جرائد توزع بالمجان على القراء ، فى جيشه وفى باريس . وبعد وفاته ، أخذ جنده المسرحون ، تحت تأثير حنينهم الى الماضى ، يقصون الأساطير عنه ، بينما السياسيون والمثقفون فى حالة استياء شديد من حكم آل بوربون الذين عادوا الى الحكم . فأخذ الجميع يذكرون أيام المجد العسكرى ، أيام نابليون ، حتى الجمهوريون الذين

حاربهم طوال حياته ، بل كاد أن يقضى عليهم . وأخذ الشعراء والمؤلفون يقصون أمجاده ، وما كانت تتمتع به فرنسا من سلطة على أوربا أيام حكمه الدكتاتورى . وقد نُسى كل شىء ولم يتبق إلا ذكرى الانتصارات الحربية ، حتى أن الكاتب شاتوبريان والشاعر لامارتين ، اللذين عملا بالسياسة ، قالا أن هذا يدل على أن الشعب الفرنسى ، المولع بالحرية ، لا يحب فى الحقيقة هذه الحرية التى يتغنى بها طول الوقت .

والسبب الآخر الذى قد يجيب أيضا باقتضاب شديد على سؤالنا ، هو صورة مصر فى أعين الأوربيين فى نهاية القرن الثامن عشر ، مصر فى ذلك الحين ، كانت أسطورة تقع فى نهاية العالم ، وكأنها القمر أو المريخ فى عصرنا الحالى . ومن يذهب اليها كان يحكى العجائب التى رآها فيها ، حتى أن الأوربيين ظنوا أن مصريى ذلك الحين لا يختلفون عن الهنود الحمر عندما اكتشفهم كريستوفر كولومبوس . وكان هذا هو بالضبط شعور من اشترك فى الحملة مع بونابرت . وكان اسم مصر مرتبطا أيضا بهزيمة الملك لويس التاسع أثناء الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر . ويجعل هذا من يفكر فيها يفكر أيضا فى الانتقام لهذه الهزيمة المنكرة . وكان المؤلفون يكتبون القصص عن مصر الفرعونية ، مهد الحضارة وبلد العلم والحكمة ، وكهنة الأهرامات الذين يحتفظون

بأسرار الكون والمعرفة وكأن مصر هى الجنة المفقودة للبشرية الجاهلة ، بعد أن فقد الانسان أسرار حكماء مصر .

أما المسافرون الذين نشروا كتبا عن رحلاتهم فكان أشهرهم سافارى الذى أحب كل شىء فى مصر ، وفولنى الذى كره كل شىء فيها . ولكنه كان ينصح باستعمارها ، لأن السلطة العثمانية أصبحت صورية فيها ، ولم يعد أحد يمتلك هذا البلد ، فعلى فرنسا أن تقطف ثماره ، قبل أن يستولى عليه غيرها .

وكان مشروع استعمارها مشروعا قديما ، منذ أن عرضه لايبنتز على لويس الرابع عشر فى نهاية القرن السابع عشر . وكان مهندس تركى فى القرن السادس عشر قد وضع مشروع شق قناة بين البحرين الأبيض والأحمر ، وقد عرضت فرنسا على تركيا أن تقوم بتنفيذ هذا المشروع ، ورفض السلطان هذا العرض ثلاث مرات ، ثم توالت الأحداث ، وفقدت فرنسا كل مستعمراتها فى القرن الثامن عشر ، وكانت الحرب ضد انجلترا ضارية ، فقررت حكومة الإدارة ، فى عام ١٧٩٨ ، وبنصيحة وزير خارجيتها تاليران ، إيفاد بونابرت مع جيش مكون من أربعين ألف جندى الى مصر ، وكانت بداية الحملة .

وفشلت الحملة فى كل أهدافها ، ولكن كل المؤرخين لا يتحدثون عنها - على الأقل حتى عام ١٩٨٠ - إلا وكأنها أسطورة

أضيفت الى أسطورة بونابرت ، الذى أصبح الامبراطور نابليون ، ولا يسعنا هنا الا الأشارة السريعة الى بعض ما قيل فى هذا الشأن ، فلم تكن الحملة قد حققت شيئا بعد ، حتى قال العلامة مونج فى إحدى خطبه ، فى يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٧٩٩ - أى بعد أربعة شهور فقط من وصول الفرنسيين الى الإسكندرية - قال أن « البدو تحت خيامهم يتغنون بأمجاد الجيش الفرنسى » . وعندما كتب المفكر الفرنسى الكبير شاتوبريان عن رحلته إلى الشرق ، فى عام ١٨٠٥ ، أكد أنه بهر بما رأى من آثار الحملة على مصر .. والعجيب أنه لم يفصح أكثر من هذا ، ولم نعرف شيئا آخر عن هذه الآثار التى بهرته . وكتب أيضا فيما بعد أن الحملة على مصر كانت أول شعاع نور يدخل ظلمات الإسلام . ولم يفصح هنا أيضا كيف ولماذا . وزخر القرن التاسع عشر بمثل هذه الأقاويل التى تحولت من شعر الشعراء وقصص القصاصين ، إلى حقائق يؤكدها المؤرخون حتى يومنا هذا . ونأخذ منها بضعة أمثلة عند المؤرخين المعاصرين لنا .

فهناك مثلا كلودين جروسير ، التى تكتب عن إسلام الرومانسيين ، وتؤكد أن الفلاحين فى ريف مصر ، والبدو ، يتغنون حتى الآن بأمجاد بونابرت وجيشه ، ولم تقدم أى مصدر لمثل هذه المقولة . ويؤكد الجنرال سپيلمان الذى ينشر كتابه عن الحملة سنة

١٩٦٩ ، أن المصريين يكرهون الإنجليز ، ويحبون الفرنسيين بسبب حملة بونابرت . فكان لابد لفرنسا أن تحتل هي مصر بدلا من انجلترا ، لأن المصريين كانوا سيستقبلونهم بالأحضان ولا يحاربونهم ، والعجب أنه يقول هذا بعد أن فشلت فرنسا في الاحتفاظ بكل مستعمراتها ، بما فيها الجزائر ، وأن الجند الفرنسيين لم يستقبلوا بالأحضان سنة ١٩٥٦ . ويقول پاتر أن بونابرت أنشأ المعهد الفرنسي الذى نقل المصريين من عهد الى عهد ، ومن القرون الوسطى الى العصر الحديث ، وكأنه يجهل أن هذا المعهد أغلق مع رحيل الجيش سنة ١٨٠١ ، ولم يفتح مرة أخرى إلا في عهد اسماعيل باشا ، بعد أن نقل محمد على مصر بالفعل من عهد إلى عهد . أما ترانييه ، الذى كتب هو أيضا مثل پاتر كتابا عن الحملة ، فهو يؤكد أن الأشعار التى كُتبت في مصر في تمجيد بونابرت ، يرددها الشعب المصرى حتى الآن ، ونكتها لاتزال تسكر من يستمع إليها ، والحق يقال إننا سمعنا من يتغنى بأدهم الشرقاوى من العصر الحديث ، أما بونابرت ، فمن سمع عن شعر يتغنى به ؟ ولكن ترانييه يؤكد هذا وكأنه سمعه هو بنفسه !

وقد يلخص الأمر كله في جملة وجيزة ، نأخذها من قصة كتبت للأطفال ، عنوانها « في مصر مع بونابرت » ، يتعجب فيها الجند عن حرب المصريين لهم ، ويقولون : « لماذا يهاجموننا ؟ لقد

أحضرنا لهم الحرية ... » وكأنها علبة مغلقة لا علاقة لها بما حدث من حرب وفتح وغزو . ولكن الأدهى أن أحد كبار المؤرخين المصريين كتب فى أحد مؤلفاته ، أن الجيش الفرنسى جاء الى مصر مستعمرا ، وفى الصفحة المواجهة بالضبط ، يقول أيضا إن الفرنسيين أحضروا لمصر الحرية ، ومن البديهى أنه لم يفطن إلى المفارقة الغريبة التى تنتج من تأكيده لهاتين المقولتين المتضاربتين .

وما هذه الحرية إلا جزء من الأسطورة الكبرى التى تؤكد أن الجيش علّم الشعب المصرى مبادىء الثورة ، وهى الحرية والأخوة والمساواة ، كما علم بونابرت المشايخ الحياة النيابية . وبالنسبة لهذه النقطة بالذات ، فحدث ولا حرج . وقد يكون الأستاذ جلال كشك قد رد على هذه النقطة بالذات فى كتابه « ودخلت الخيول الأزهر » ، وينسى هؤلاء أن الحرية بالذات مفهوم مرتبط ارتباطا وثيقا بالإسلام وبمصر بالذات ، عندما قال عمر بن الخطاب لعمرو ابن العاص « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » . وجاء هذا المعنى بعد ذلك بقرون فى وثيقة حقوق الانسان الفرنسية، ولكن هؤلاء المؤرخين اعتبروا الحرية من هدايا الجيش الفرنسى للمصريين .



معركة بيرامبار ، وموت الجنرال دوبليسي

ويجدر بنا أن نعرف ، أول ما نعرف ، حقيقة هؤلاء الجند وضباطهم ، قبل أن تحولهم أساطير القرن التاسع عشر ، إلى أنبياء للحرية والتنوير فى مصر . فلنذكر أنهم من هذا الجيل الذى عاش الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ، هذه الثورة التى قننت « الإرهاب » وكان عصرا من عصورها ، لأول مرة فى تاريخ البشرية ، تنصب محاكم تفتيش للرأى ، ويحكم بالإعدام على من لا يوافق على الطريق الجديد الذى تسلكه الثورة ، بينما هذا الطريق يختلف من يوم إلى يوم ، فيتحول جلادو الأمس إلى ضحايا الغد حسب تقلب الأهواء السياسية التى لعبت فيها الغوغاء دورا عظيما . كما أن أكثر الضباط – ومن أهمهم كليبر ومينو اللذان حكما مصر لفترة – أكثر الضباط وأغلب الجنود اشتركوا فى الحرب الأهلية التى مزقت فرنسا ، أثناء الثورة ، عندما رفض الشمال الغربى السياسة الجديدة للجمهورية الوليدة . وقد ذهب ضحية هذه الحرب

عشرون ألفا ، ويرى بعض المؤرخين أن هذا العدد أقل بكثير من الحقيقة ، وتحول هذا الجزء من فرنسا إلى خراب بأمر الحكومة الثورية ، لتلقين المنشقين عليها درسا لا ينسى ، ولايزال المؤرخون يجادلون فيما إن كانت هذه الحرب حربا أهلية ، أم حرب إبادة ، بسبب الفظائع والمجازر التى اقترفت فيها ، فعلينا أن نتخيل كيف يتصرف مثل هؤلاء الجند مع الأجانب إن كان هذا هو تصرفهم مع بنى وطنهم .

أما بونابرت ، فلنذكر أنه ، بعد شهر واحد من عودته الى فرنسا من مصر ، استولى على الحكم فى إنقلاب عسكرى سلمه السلطة المطلقة ، وأنه كبت بعد ذلك مباشرة كل الحريات ، وأزال كل ما اكتسبه الشعب الفرنسى من مكاسب الثورة ، وألغى حتى مبدأ الانتخاب ، وأغلق الصحف ، وأصبحت حكومة فرنسا ، وقضاؤها وفكرها فى يده هو وحده ، أصبح حكمه دكتاتورية فردية مستبدة ومطلقة ، حتى توج نفسه إمبراطورا ، واستمر في سياسته هذه الى أن أوصل فرنسا إلى الخراب فى ١٨١٥ .

هذا عن القواد ، أما عن الجند أنفسهم ، فنحن نجد فى البيانات التى كان يكتبها لهم كليبر ومينو ما يشير إلى تصرفاتهم المشينة ، مثل التبول على المساجد والمقابر ، والاستهزاء بالمشايخ وسوء معاملة النساء . فلنا أن نتخيل كيف يكون رد فعل الشعب المصرى على مثل هذا السلوك اليومى ، ناهيك عما سنقرأه عن حربهم المستمرة مع مقاومة لم تفتر يوما ، ولم ترهب أو تتضاءل .

ولكن الكاتب بلزاك ، الذى اشتهر بواقعيته ، قص علينا فى إحدى رواياته (طبيب الريف) عن جندى من جنود نابليون المسرحين ، وهو يحكى لأصدقائه كيف كانت الحملة ، نفهم منه المستوى الثقافى لهذا الفلاح المجند ، الذى يعزو الحرب فى مصر ، إلى قصة حب مثل التى نقرأ عنها فى ألف ليلة وليلة ، فالمصريون على حد قوله ، يعتقدون أن بونابرت أراد اختطاف ملكة فى غاية الجمال ، وأن بونابرت أغدق عليها كنوزًا وأحجارًا ماسية فى حجم

بيض الحمام ، ولكن زوجها السلطان رفض تسليمها لبونابرت فكانت الحرب ، وأن المصريين شعب يحكمه عمالقة من قديم الزمان، يدفنون ملوكهم فى أهرامات حتى تبقى جثثهم « طازجة » ، ثم يحكى عن الجان الذين جاءوا لمحاربة بونابرت لأنه لم يهزم بسبب بشر ، وذلك لسبب بسيط ، هو أنه تعاهد سرا مع الله منذ مولده ، ونفهم من خلال هذه الخزعبلات ، المستوى الفكرى لجندى أصله فلاح جاهل ، مثله مثل غيره من الجند ، ونتخيل كيف كانت معايشة مثل هؤلاء البلهاء سبب تنوير المصريين ، ونقلهم من عصر الظلمات إلى نور العصر الحديث .

وقد كتب كثير ممن اشترك فى الحملة مذكرات ، وخطابات ، تقول كلها نفس الكلام ، الذى يفند الأسطورة التى تتداول حتى الآن عن تأثير الجيش على الشعب المصرى . وقد اخترنا كتابين بالذات من بين مجموع ما نشر ، وأخذنا منهما بعض المقتطفات ، لنرى ما يقوله « شاهد من أهلها » ، ويكون أبلغ إجابة على افتراء الأساطير التى تحكى عن الحملة وتأثيرها الحسن .

ولكن علينا أن نشرح أولا كلمة ، كثر استعمالها ، ونجدها فى كل كتابات القرن الثامن عشر ، لأنها من نتاج فلسفة التنوير ، وهى تترجم بالعربية بكلمة « تعصب » ، ولكن الكلمة العربية ، مع الأسف تعطى كل الايحاءات السيئة عندما يكتب فرنسي من القرن الثامن عشر كلمة ظنابقىشهشعه ، فهو يعنى الهوس الدينى والتطرف الدموى ، والغباء وضيق الأفق ، والخزعبلات فى العقيدة ، والروح الانتحارية ، والظلمات والجهل المطلق ، والإيمان الأعمى بالغيبيات الجاهلية .



(١) راهب يونانى (٢) يهودى من بيت القدس (٣) أسقف من الاسكندرية ، رجـل ذو عقل نافذ ، كـله نبل و تة ، ولكن صـفاته كـانت مع الأسف بلا قيمـة بسبب كبريائه الشديد
(٤) يونانى آخر عريشيد

كما أن أى « رجل دين » ، أيا كان دينه ، لابد أن يكون عند إتباع فلسفة التنوير ، وهم غالبية جيل نهاية القرن الثامن عشر ، يجب أن يكون منافقًا ، محتالاً ، له نزعة قوية للسلطة من خلال المتاجرة بالخرافات ، يلعب بمهارة فائقة على سذاجة البلهاء والجهلة .

أما كلمة « حضارة » ، فقد حلت محل المسيحية ، لتبرئة الحروب الأستعمارية من تهمة الجشع . فقد استعملت المسيحية لتعطى الحق للصليبيين فى حربهم الاستعمارية ، وجاءت «الحضارة» لتحل محلها عند الأحفاد الملحدين للصليبيين القدامى .

وعلينا أن نقرأ الآن بعض ما كتب فى خطابات برنوابيه ، ومذكرات دينون ، لنرى الوجه البشع للحقيقة التى عاشها كل من هذين الرجلين .

يقدم « كريستيان تورتيل » تسعة عشر خطابا وجدها بين أوراق عائلته ، وهى خطابات كتبها « فرنسوا برنوابيه » إلى زوجته يتحدث فيها عن الأحداث السياسية التى عاشها أثناء مصاحبته لبونابرت ، بصفته « مدير مشغل ملابس جيش الشرق » ، إلى أن عاد معه فى أغسطس ١٧٩٩ . والجزء الآخر خطابات الى ابن عمه الذى يحكى له فيها عن مغامراته النسائية ، فى بلد ، لم يبحث فيه إلا عن المتعة الجنسية ، عندما كان ينتهى من عمله الرسمى .

وإليكم بعض مقتطفات منها :

Avec Bonaparte en Egypte et en Lyrie,1798-1800.19 lettres inédiks de Francois Bernoyer, chef de l,Areliér d,halallement de l,Armeé d,Orient, retrouveés et présenreés par Christian Torel Collection le temps traversé, edir, Lurandara.

(فى ميناء طولون ، بجنوب فرنسا ، قبل الإبحار واستعدادا للرحيل) .

« وجدت بسهولة ما أحتاجه من رجال ، ولكن بعضهم أرهقنى ، لأنهم كانوا يريدون التأكد من الوعود الجذابة التى أجبرت على التعهد بها ليسافروا معنا . وعندما أخبرتهم أن بونابرت يقود الرحلة ، سقطت كل الموانع ، لأنهم كانوا شديدى الرغبة فى مصاحبة مثل هذا الرجل الذى أدهش أوربا بانجازاته » (ص ١٣) .

(وهذا الكلام يدل أولا على شعبية الجنرال الشاب ، نابليون بونابرت ، الذى عرف عنه ، أثناء حملته على إيطاليا ، أنه أغدق العطاء لرجاله ، على عكس ما كان يحدث فى الجيوش الفرنسية الأخرى ، ولو أن جهة الحملة كانت مجهولة ، إلا أن المسئولين وعدوا كل جندى أو رجل اشترك فيها ، بهبة مقدارها ستة (أربنت) من الأرض – وقد تساوى قيراطا – مما أثار سخرية الجند فيما بعد ، عندما قطعوا المسافات الشاسعة فى رمال صحراء مصر) .

(يقوم برنوابيه بزيارة سفينة « لوريان » ، التى كان يسافر عليها الجنرال بونابرت ، القائد العام للحملة ، ويدخل القمريات المخصصة له) .

« لم أر فى حياتى ما فاجأنى وأعجبنى مثل قاعة الاستقبال : كانت مصممة لملك ولد فى الرخاوة والجهل ، أكثر منها ملاءمة لجنرال جمهورى ، ولد من أجل مجد وطنه (...) وقيل لى أن أصول المراسم مراعاة بدقة فى هذا المكان : إنهم يحاولون نسخ العادات القديمة للبلاط الملكى ، وبدا لنا هذا أمرًا مضحكًا للغاية ، وكأننا نشاهد نبيلاً كبيرًا مرفهًا وسط معسكر من الاسبرطيين » (ص ٢٠) .

(تدل هذه السطور أولا على طبع فرانسوا برنوابيه نفسه ، فهو يتكلم بأسلوب الثوار المتقشفين الذين أرادوا فعلا التخلص من

كل ما ينتمى الىَ عهد النبلاء السابقين المترفين . وفى نفس الوقت، تشير هذه السطور الى نمط الحياة التى سيحياها بونابرت فى مصر بعد ذلك ، ناهيك عن تتويجه يوما إمبراطوارًا على فرنسا ، وهو الذى كان فى شبابه يحارب باسم مبادىء الثورة المثالية المتقشفة من مساواة وأخوة : إنه كان يعيش ، حتى فى هذا الزمن ، كنبيل مرفّه أكثر منه ثائرًا على تقاليد الماضى) .

(تقابل القافلة فى طريقها الى الاسكندرية ، سفينة حربية عثمانية) .

« أبلغ بونابرت قبطان هذه السفينة الحربية بنية الفرنسيين الدخول فى أراضى سيده ، بصفتهم أصدقاء ، ما جاءوا إلا لمعاقبة بكوات المماليك بسبب الإهانات التى يوجهونها يوميا الى المسيحيين . ولذا ، فهو ينصحه أن يستقبلنا كأصدقاء ، وإلا أغضب السلطان » (ص ٣٩) .

(يلاحظ أن هذه هى المرة الوحيدة التى ينسى فيها بونابرت أن الهدف المعلن عن حملته هو « تحرير المصريين من سطوة المماليك » ، ويتكلم هنا بون عن المسيحية التى سيتبرأ منها فيما بعد ، عند توجيه حديثه الى المصريين . وسنرى أيضا فيما بعد أن كل ضباط الحملة ، كانوا يعتقدون فعلا أن فرنسا لم تذهب الى مصر إلا بموافقة السلطان العثمانى) .

« عندمـا رأى حـاكم الاسكندرية أننا نسـتـعـد للنزول على الشـاطىء ، أخذ يصلح بسرعة فائقة تحصيناته السيئة ، وأثار الغوغاء ضدنا » .

(سنلاحظ أن كل من قـاوم الغـزو الفـرنسى ينعت دائمًا بكلمات بذيئة ، ولا يطلق عليه أبدًا ما يصفه فعلا ، وهو أنه من قوم يحاربون من أجل استقلالهم) .

(عند نزول الجيش على شاطىء الاسكندرية) .

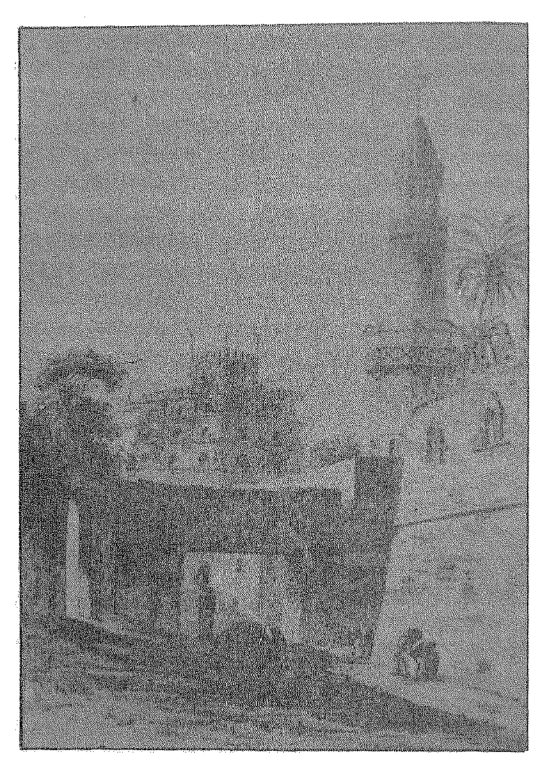
« كان المنظر مهيبًا ، كنا نعجب له ، وكان لابد أن يستغرب له المصريون ، لأن مما لا شك فيه ، أنهم لم يروا مثل هذا المنظر من قبل . ولكنى عجبت جدًا أنا نفسى لعدم المبالاة التى قوبلت بها كل تحـركـاتنا (من طرف الأهالى) . ومن المؤكـد أنهم كـانوا يحتقرون المنظر أكثر مما يعجبون به . ومن يراهم يظن أنهم هم الذين انتـصـروا علينا . (...) وعلى الرغم من تحـركات أكثر من ألف رجل ومعداتهم ، رأيت أهل البلد يتوجهون الى شاطىء البحر ، ويغسلون وجـوهـهم وجسـدهم ، ثم يفتـرشـون جلبابهم الكبير على الرمـال ، وينظـرون نحـو الشرق ، ويقـومون بالصـلاة فى منتهى الهدوء ، ثم ينسحبون دون أن يلتفتوا الى ما يحـدث حولهم ، ما أعجب هذا البلد ! » (ص ٤٣) .

(بل مـا أعجب رؤية الفرنسيين الى أهـل البلد . وهم مقتنعون أن المصريين نوع من الهنود الحمر ، سيفزعون عند رؤية جنس أبيض جديد عليهم ، فينظرون اليهم وكأنهم آلهة هبطت من السماء أو مما وراء البحار !) .

(وتبدأ الحياة فى الاسكندرية ويبدأ استياء كل أفراد الجيش ، كما سنرى أيضا فيما بعد ، وكان هذا الاستياء والتذمر المستمر من أهم أسباب فشل الحملة ، للرغبة الملحة للجيش الى العودة الى الوطن ، بعيدا عن هذا البلد العدوانى الذى لم يرحب بهم . ونذكر أن برنوابيه بالذات بدأ متحمسا جدا لهذه الحملة) .

« أيا كان ، فأنا ألعن مائة مرة من كان سببا فى حضورنا الى هنا ، فى مثل هذا البلد (...) كلما فكرت فى حالنا ، وجدته تعسا ، فإذا ما صادفنا فى الشوارع نساء أو أطفالا ، رأيناهم يهربون أمامنا ، وكأننا حيوانات كاسرة . حتى الحيوانات التى تجدها أكثر أُلفة من حيوانات أى بلد آخر ، مرعوبة منا ، أما الكلاب فتتبعنا بعناد شديد لدرجة أننا لا نستطيع التخلص منها إلا بالسلاح » (ص ٤٥) .

(قصة الحملة مع الكلاب طريفة ، وقد أمر بونابرت فى القاهرة بإعدامها لإزعاجها له أثناء الليل . ويقول الجبرتى فى



شارع من شوارع جرجا ، على اليمين ، منزل لكبير من أهل البلد ، الحائط المحيط به ، يجعله مثل حى مغلق على نفسه ، فى حالة نشوب أى اضطراب سياسى أو حرب معلنة ، ويبقى الباب مفتوحا فى أى حالة أخرى ، كانت القاهرة كلها أبواب من هذا النوع ، وكانت أول عملية قامت بها الحكومة الفرنسية عند دخولها مصر ، هى إزالة كل هذه الحواجز الداخلية .

هذا ، إن الكلاب كانت تنبح وراء الفرنسيين لأن لبسهم كان غاية في الغرابة ، وهو يسخر طبعًا كعادته) .

(خرج الجيش من الاسكندرية ، في طريقه الى القاهرة عبر الصحراء . وكانت مأساة . ولا ننسى أن هذه الرحلة تمت في شهر يوليو) .

« إنني أرى ، ولكن بعد فوات الأوان ، أننا ضحية ، وظيفتها تحقيق مشاريع نبتت في الخيال الهائج المجنون لبعض الرجال ، لتحقيق طموحاتهم المفرطة ، وهم لا يبالون بضحاياهم . وأكثر ما أدهشني أن الجنرال بونابرت لم يفكر في توفير مياه الشرب لجيشه » (ص ٥٠) .

(عن تأثير منظر السراب على الجيش) .

« اجتاح اليأس كل النفوس ، وكانت النتيجة أن السير أصبح أكثر بطأً (...) كثيراً ما كنت أصم أذني وأنا أسمع الآهات وصراخ زملائي في البؤس ، وهم يتوسلون لنساعدهم في لحظة الموت . كنت أراهم يسقطون عند قدميّ ، دون أن يتحرك لي ساكن ، لأن العذاب الشخصي يغلق القلب لأي شعور . كان كل منا يتبع طريقه في صمت كئيب . ولم نكن نلقى إلا نظرة إشفاق عابرة على الجثث المشوهة التي كنا نجدها بكثرة على طريقنا » (ص ٥١)

(ويصل الجيش الى مدينة دمنهور) .

« عندما اقتربنا ، هرب الفلاحون ، ومعهم كل حيواناتهم وكل مؤنهم : لقد خلعوا حتى أبواب منازلهم ، ولا بأس ، فقد تركوا المياه ، وكانت كل ما نبتغيه من متعة فى هذه اللحظة » (ص ٥٢) .

(يتكرر وصفه للهجوم المستمر للبدو عليهم ، وكيف كانوا لا يتركون للجيش لحظة أمان واحدة ، الى أن يصل الجند الى الرحمانية) .

« عندما رآنا أهل هذا الكفر من بعيد ، لاذوا بالفرار ، كانت النساء يطلقن العويل (...) وعلى الرغم من جمال هذا المكان ، إلا أن الحزن قد خيم عليه ، لهروب أهله منه . وعندما شاهد الجيش هذه الحالة ولم يجد أمامه أى مورد ، رأى أن الانتقام من الصواب ، فأحرق الجيش كل شىء ، ياله من منظر بشع ، وقد قضى الحريق على نصف البلدة » (ص ٥٣) .

(لماذا وجد الجند أن « الانتقام من الصواب » ، والفلاحون لم يقوموا بأى عمل عدوانى ضدهم ؟) .

« يركبون مراكب بعد ذلك ، وإذ بفرقة من المماليك تظهر على الشاطىء أمامهم) .

« نظر اليهم الجنرال ياوومسكى باستخفاف . ولم يشعر بأى خوف، وكان يعتقد أن المصريين لا يعرفون المدفعية . كان

يقول : « أريدهم أن يقتربوا لأرى المفـــاجأة عنـدما يسمعون مثل هــذا الدوى ، وجاءت المفاجأة بالفعل ولكن على غير ما كنا نتوقع ! لأننا اكتشفنا فجأة ثلاثة مدافع مختبئة على شاطىء النيل ، كنا بجانبها ولا يمكن أن نختبىء من طلقاتها » (ص ٥٥) .

(نظرة الفرنسيين الى المصريين لاتزال متأثرة بمعلوماتهم عن الهنود الحمر ، الذين لم يروا مدافع قبل هجوم الأسبان عليهم ! وتدور المعركة ، وتكاد المراكب الفرنسية أن تهلك كلها بمن عليها ، لولا ظهور باقى الجيش الفرنسى) .

« وبدل أن يهرب المماليك أمام هذا الجيش المرعب رأيناهم يتراجعــون ليعودوا بأقصى سرعة بخيلهم ، والسـيوف فى أيديهم (...) كانت المعركة غير متكافئة ، فالعدو لم يكن لديه إلا ألف أو ألف ومائتا رجل ليصد هجومنا ! » (ص ٥٦) .

(وتنتهى المعركة لصالح الفرنسيين كالعادة ، لنفس السبب الذى سنراه يتكرر مراراً ، وهو كثرة عدد الفرنسيين وقلة عدد المصريين بالنســبة لهم . ثم يجىء مشـــهد يدل على أن الجنــد الفرنسيين كانوا أقرب الى المرتزقة منهم الى محاربين من أجل مبدأ ، فلا نراهم – ولن نراهم – يهتمون إلا بالغنائم) .

« على شاطىء النيل ، وجدت بعض الجنود يتعاركون من أجل بقايا ملابس أحد فرساننا الموتى ، فاشتريت منهم الحذاء والقبعة والقميص » (ص ٥٧) .

(يحرق البدو فى قرية ، موظفًا فرنسيًا) .

« عندما رأى بونابرت هذه الوحشية ، استولى عليه السخط ، فأمر بإحراق القرية وذبح كل سكانها ، أو إطلاق النار عليهم . وهذا الدرس القاسى لم يمنعنا من مقابلة جثث كثيرة على طريقنا ، وقد شوهها هذا الشعب المفترس » (ص ٥٨) .

(وسنلاحظ باستمرار هذا التصعيد فى العنف ، فكلما حاول الفرنسيون قمع المقاومة ، وكلما كان العقاب قاسيًا ، زاد عنف الثورة واتسعت دائرة المقاومة) .

« وفى اليوم ١٩ ، لم يعد اثنان من الجند يتحملان هذا الطريق الشاق ، فألقيا بنفسيهما فى النيل أمام زملائهما . وآخرون كثيرون فضلوا أن ينهوا حياتهم بالرصاص ، ليهربوا من هذا العذاب الأليم » (ص ٥٨) .

(عن معركة امبابة) .

« لم تكن معركة ، ولكنها كانت مذبحة (...) حاول بعض المماليك استجداء الفرنسيين قبل سقوطهم فى النهر ، ولكن جندنا

لم يستجيبوا ، وأصموا آذانهم لأى شعور بالرأفة : لم يعد يهم إلا المجزرة ... » (ص ٦٠) .

(أكدت آخر دراسات فى هذا الموضوع ، هذه الحقيقة ، حتى إن كثيراً من المؤرخين المحدثين يقولون عنها إنها لم تكن أكثر من « مناوشة لم تذكر فى التاريخ إلا لأنها فتحت أبواب القاهرة أمام بونابرت . وقد حولها المؤرخون السابقون ، والشعراء ، الى كمعركة أسطورية كجزء من أسطورة بونابرت نفسه . وقد أسماها بونابرت « معركة الأهرام » ، مع أن الأهرام بعيدة جداً عن امبابة ، ولكن بونابرت وجد أن اسم « الأهرام » أعظم جاذبية وسحراً من اسم امبابة .

وقد بالغ معاصرو بونابرت فى عدد المحاربين المماليك وفى عدد ضحاياهم ، حتى تلائم أسطورة الجنرال الذى لا يهزم . ولذا ، فشهادة برنوابيه مهمة جداً مع أنه ليس من العسكريين ، لأن كلامه موجه الى زوجته ولا علاقة له بأى نية دعائية أو حتى تسجيلية ، إنه شاهد عيان ولا ينتمى ، مثل غيره الى الجوقة التى كانت تنشد المواويل كلما فعل بونابرت شيئًا) .

(ثم يحاول برنوابيه تحليل طباع المصريين كما يراهم فى القاهرة ، وهو يقول أنهم خانعون لأى سلطة طاغية تستعبدهم ، ومع ذلك ، لم يفكر أى لحظة أنه منذ نزول الجيش الفرنسى على



ديوان حربى : كانت الحالات التى تهم الفرنسيين لا تعرض على المحاكم العادية ، ولكنها كانت تعرض على محكمة قائد المنطقة ، وكثيرا ما كان السكان يطلبون أن تعرض حالاتهم الخاصة عليه ، هذه اللوحة تصور نوعا من هذه المحاكم . الجنرال ، وبجواره أعلام الجمهورية ، يجلس وخلفه إثنان من التراجمة ، وهم أفاقون يأخذون عادة رشاوى من الطرفين

شاطىء الاسكندرية ، لم يقبله أحد . بل حاول المصريون جاهدين التخلص منهم ، وقصصه العديدة عن مقاومة القرى على الرغم من العقوبات الشديدة من الحرق والسلب والنهب ، أحسن دليل على أنهم ليسوا ، كما يدعى ، « شعب عبيد مستعبدين » . وعلى الرغم من ذلك ، فلا مناص من ترديد الأفكار المسبقة ، وهو يقول مثلاً) :

« لقد سخر المصريون لدرجة أنك تجد الخدم كثيرين وبأسعار رمزية ، إنهم يفعلون كل شىء نطلبه ، وهم عادة ماهرون جداً فى عملهم ، وفى منتهى الأمانة » (ص ٧٧) .

(ومن يقرأ هذا الكلام ، يظن أن مصر شعب خدم ، وأنه لا يوجد خدم فى فرنسا ، والقارىء لأى قصة أو مسرحية من الأدب الفرنسى ، يجدها تزخر بهم ، وأشهر شخصية لمسرحيات بومارشيه مثلاً ، المعاصر لبرنوابيه ، هو الخادم فيجارو !) .

(بعد ثورة القاهرة الأولى) .

« من غير المعقول أن نظن أن المصريين المدعوين إلى أعياد الجمهورية (الفرنسية) ، كانوا يشاركوننا فرحتنا الغامرة . وعلى الرغم من مجهوداتهم لإخفاء حالتهم النفسية ، كنا نلاحظ بسهولة الآثار المؤلمة للعقاب البشع ، الذى أنزله بونابرت بهم بعد ثورتهم . وقد حاولوا مع ذلك ، أن يكون تصرفهم طبيعيا ، وكانوا فى منتهى الشجاعة حتى يبدوا مبتسمين وسعداء » (ص ٨٠) .

(... وقد رأى مؤرخون كثيرون أن الشعب المصرى احتفل مع المدعوين والجيش الفرنسى بفرحة صادقة فى أعياد الجمهورية الفرنسية !) .

« حكم بونابرت على السكان ، بعد ثورة القاهرة ، بدفع غرامة قدرها ثلاثة ملايين (...) ومن لا يستطيع الدفع فى الحال ، فى إمكانه كتابة كمبيالات تدفع فى حينها » (ص ٨٣) .

(كان الاحتياج المستمر الى المال أيضا من أهم أسباب فشل الحملة ، وكان الحكام يتحايلون للحصول على أكبر قسط منه ، وكانت هذه الوسائل تسمى « بسياسة الليمونة المعصورة » ، حتى لا يتبقى للشعب إلا الجلد الفارغ الجاف) .

(ونجد بعد ذلك أحسن مثل لما يمكن أن يسمى بالأسطورة والحقيقة ، فبرنوابيه يحلم بالأسطورة ويقص على زوجته الحقيقة التى عاشها هو نفسه . الحقيقة التى أخفاها كل من تحدث بعد ذلك عن أسطورة الحملة وما جلبته من خير وتنوير وحرية للشعب المصرى . الأسطورة كما كانوا يتخيلون أنها وقعت حقيقة ، ولم تكن فى الواقع أكثر من وهم شارك فى وضعه بعض السذج مثل برنوابيه) .

« فى اليوم ٩ من أكتوبر ، مثلا ، وصلنا فى الصباح الباكر الى كفر يبدو بائساً : فأغلب المنازل كانت من الطين ، وكان منظر

الأطفال العرايا يثير الشفقة . ومع ذلك ، كان لابد من أخذ مال هؤلاء التعساء ، الذين رعبوا لمجرد اقترابنا منهم ، وبينما كنا ننصب الخيام ، رأينا بعضهم يهرب ، وأولادهم على ظهورهم ، يجرون وراءهم كل ما يملكون . كان أول هم لنا استدعاء كبير هذا الكفر ، وإبلاغه أننا حضرنا لنأخذ الضرائب . جاء الشيخ وهو يبكي ، ليقول إن البدو مروا عليهم من أسبوع وأخذوا كل شيء . ولكن المحصل دوقال ، مع أنه رجل طيب القلب ، لم يكتف بهذا الشرح – سواء كان الشرح صادقا أو كاذبا – قال إنه لابد وأن يحصل المبلغ وإلا نفذ الأوامر ، وضربهم بالعصى عند أى رفض . عندئذ ، أخبر الشيخ أهل الكفر بالتوجه الى معسكرنا لدفع المال .

« كانت الساعة الثانية بعد الظهر ، ولم يظهر أحد . فأراد قائد فرقتنا أن يستعمل أعنف الوسائل ليحصل الضرائب ، فذهب الى الكفر ومعه مائة رجل (...) أما المحصل دوقال ، فقد بقى معى فى المعسكر حتى لا نرى هذه المشاهد المزعجة. كنا نقول إنه من القسوة على الجمهوريين أن ينفذوا مثل هذه الأوامر ، لأن مثلهم الأعلى هو أن يجعلوا الشعوب سعيدة ، وأن يعاملوها كإخوة ، وبهذه الطريقة ، كانوا مجبرين على تقليد أكثر الطغاة قسوة لابتزاز هذا الشعب ، والعصى فى أيديهم . لمنا بونابرت الذى كان يستطيع أن يحسن من حال هؤلاء البؤساء ، بأن يفرض عليهم قوانين أكثر

انسانية . وبهذه الطريقة ، كانوا سينعمون بحكم يدعى أنه كريم وعادل ومستقل . ولكن ، ومع الأسف ، فالحقائق تثبت أنهم لايزالون يقاسون من استعباد مخجل وظالم إلى أقسى درجة ، وبشع الى أقصى درجة ..

« كان المماليك يحكمون بسيطرة كاملة على الأقاليم : كانوا يجبون الضرائب ويختلقون أنواع الأهانات ضد الفلاحين (...) وما كان يحزننا ، هو أن بونابرت يستعمل نفس وسائل المماليك مع الأسف الشديد .

« وفى تمام الساعة السادسة مساء ، عادت فرقتنا الى المعسكر ومعها عشرة فلاحين ، مغللين وكأنهم ممن حكم عليهم بالأشغال الشاقة ، لأنهم لم يدفعوا الضريبة . وقد أحضرت الفرقة معها أيضا شيخ الكفر . وشرح له دوقال أنه لابد أن يجبر هؤلاء الفلاحين على دفع الضريبة فى ظرف ساعة ، لأنه هو وحده المسئول ، علاوة على ما سيصيبه من ضرب بالعصى ، الى أن يدفع المبلغ (المهم ... دفع المبلغ) وهكذا انتهى اليوم البغيض المضنى .

« قد تظنين يا زوجتى الحبيبة ، بعد هذه الصورة التى وصفتها لك ، أن مصير وبؤس هؤلاء المساكين ، يجب أن يجعلنا ننظر اليهم على أنهم أكثر الناس بؤساً على الأرض !... من المؤكد

أن شعبًا مثقفًا ومستنيرًا ما كان ليتحمل مثل هذا الطغيان ، بل كان سيثور ضد مضطهديه ولا يتحمل بطشهم !... ولكن هذا الشعب الجاهل لا يشعر بذلك ويتحمل كل شيء بصبر واستسلام و دون أن يكون أكثر تعاسة . أنا أوافق چان - چاك روسو الذى يثبت بكفاءة أن العلوم والفنون مضرة لسعادة البشر ، لأنهم لا يعرفون السعادة إلا فى حالهم الطبيعى ، وهو حال المتوحش » (ص ص ٨٤ - ٨٦) .

لا شك أن هذا إعتراف صريح ببطش الفرنسيين ، وإذن واضح بالثورة لو أن الشعب المصرى « مثقف ومستنير » ، وكأن برنوايه نسى كل المقاومة التى رآها فى طريقه الى القاهرة . وتثور القاهرة بالفعل بعد هذا الخطاب ، والمفروض أن تكون المفاجأة ، إذ أثبت له الشعب المصرى أنه ليس شعبًا جاهلاً ومتوحشًا . ولكن ما هو رد فعل برنوايه على هذا الدليل القاطع على أن المصريين ليسوا كما ظن فى أول الأمر ، « شعب عبيد مستعبدين » ؟ وبم سيصف الثوار الذين رفضوا البطش الفرنسى ؟

« ... الحشد الهائج المتعصب تعصبًا دينيًا أعمى (...) وفى هذا الوقت ، وفى الجوامع ، كان كهنة الدين يخطبون فى الناس ضدنا بمواعظ خبيثة ومتمردة ، حيث كانوا يدخلون سلطة الله ونبيه ليزيدوا من ثورة هذا الحشد من المتطرفين : إنه أحسن

وسيلة يلجأ اليها دائمًا القساوسة ليؤثروا ويهيجوا المؤمنين كما يريدون » (ص ٨٨) .

نرى المفارقة العجيبة ، ونذكر ما يحمله هذا الجيل من الفرنسيين الملحدين من بغض لكل ما هو دينى ، سواء كان فكرًا أو رجلاً . وتتحول ثورة القاهرة من أجل الحرية الى تطرف وتعصب أعمى . ولا يحاول برنواييه أن يربط بين الأحداث وما كتبه فى خطابه السابق ، عن جهل الشعب الذى يقبل البطش الفرنسى دون أن يثور !

« أما بالنسبة للنساء يا ابن عمى العزيز ، فإليك قصة طريفة . عندما حضر جنرالاتنا الى القاهرة ، استولوا بالقوة على النساء اللاتى تركهن المماليك فى قصورهم . ظنوا أنها غنيمة طيبة بسبب ثراء لبسهن وجمال زينتهن ، وهجموا عليهن دون تمييز فريسة من الأخرى . ولكن عندما هدأت رغبتهم ، بدأوا يتعرفون على فرائس شهوتهم . كانت خيبة الأمل كبيرة ، عندما اكتشفوا أنهم لم يرثوا إلا بقايا مهملة ! ولذا حاولوا التخلص منهن . ومنذ هذه اللحظة مر وهؤلاء النسوة على كل الأيدى ، حتى أصبحن ملكًا للجنود « (ص ٩٤) .

لقد كتب أحد « المفكرين » المصريين الموصوفين بأنهم « كبار » زاعمًا أن تحرر المرأة المصرية بدأ منذ نزلت الحملة

الفرنسية بمصر ، وأن هذه الحملة كانت تعامل النساء أحسن معاملة . ولا تعليق طبعًا على ما تفضحه قصة نساء المماليك هذه من حقيقة هذه المعاملة ، كما يحكيها ببساطة شديدة شاهد عيان .

أخذ برنوابيه يحكى لابن عمه عن مغامراته ، ونفهم أن همه الوحيد فى القاهرة ، عندما كان ينتهى من تلبية أوامر بونابرت فى رسم ملابس جديدة للجيش وتنفيذها ، هو البحث عن فتيات يشبعن رغبته الجنسية . وقد اشترى ، بمعنى الكلمة ، فتيات مسلمات ومسيحيات ، وصفهن بالتفصيل الفاضح ، وما شعر به من لذة معهن ، وقد زوج إحداهن لخادم لديه ، ثم حل محل العريس فى ليلة الدخلة ، والعريس مسجون فى غرفة أخرى ، لأنها كانت الوسيلة الوحيدة للحصول على هذه الفتاة العفيفة . ثم ذهب يوما مع صديق له الى سوق الجوارى ، وعندما طلبا رؤية أجملهن وأغلاهن ، كان رد التاجر عليهما :

« مع الأسف ، أنا لا أستطيع هذا ، لأن الجنرال بونابرت حرّم علىّ بيع أى واحدة منهن قبل مجيئه .. إنه يريد أن يكون الأول فى الاختيار » (ص ٩٨) .

ويذكرنا هذا بما كان بونابرت يقوله فى بيانه الأول للمصريين عند نزوله على شاطىء الاسكندرية ، ليثير غضبهم :

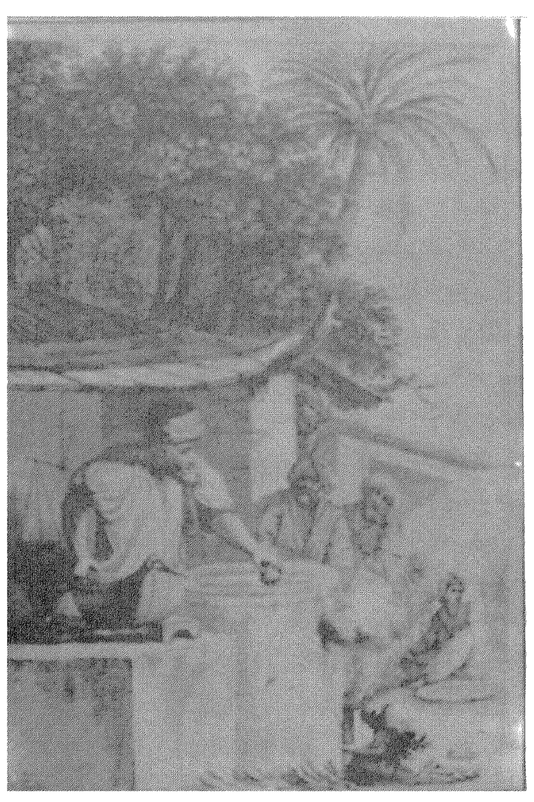
« إن كانت هناك أرض جميلة ، فهى للمماليك . إن كانت هناك جارية جميلة ، أو جواد جميل أو بيت جميل ، فهو للمماليك ... » .

ومن البديهى أنه يحل الآن محلهم فى كل شىء ، حتى فى اختيار أجمل الجوارى !

« أما نحن الفرنسيين ، فواجبنا يحتم علينا تخفيف آلام هذا الشعب البائس ، بأن ندخل عليه تقاليدنا وقيمنا . لقد بدأنا فى كسر سياستهم الطاغية وسلطتهم المطلقة ، ولكنى لا أعرف إن كنا سنستطيع إلغاء الفقر » (ص ١٢٥) .

النفاق واضح فى هذه السطور ، خاصة أن برنوابيه بنفسه هو الذى قص علينا كيف كان يعامل الفرنسيون فقراء الفلاحين . والمفارقة صارخة عندما يؤكد أنهم كسروا السياسة الطاغية ، ولم نعرف كيف حدث هذا ، ولا يمكن أن نستشفه من خلال قصصه الجنسية طبعًا . أما التقاليد ، فلم نر منها إلا اللعب بالنساء ، فكيف يمكن له أن يحلم بأن يقضى على الفقر وكأنه قضى على باقى المشاكل ؟ ولكن ، هذه هى بالفعل حقيقة الأسطورة التى بقيت على مر الأيام ، بعد أن تجاهل المؤرخون الواقع الفعلى للأحداث .

« يريد الانجليز طردنا من مصر : ومن أجل هذا الهدف ، دبروا لثانى مرة خطة لا مثيل لها فى حينها . استعملوا السلطان



كيف تصنع المكرونة : المصنع والحانوت فى الشارع ، مكون من فرن ، عليه أوان كبيرة من النحاس فوق النار ، البائع يسكب عليه عجينة خفيفة وسائلة ، وهى تمر من خروم كوز يمر به البائع على الأوانى ، بعد بضع دقائق ، يجمد العجين وينشف وينضج بفعل الحرارة المستمرة، التى تغذيها عيدان النخيل التى توضع باستمرار فى الفرن وتباع أولا بأول .

لإثارة سكان الأقاليم ضدنا . والبلاط العثماني يعرف جيداً التعصب الديني الأعمى للمصريين ، وهو أعنف تطرف في الشرق كله . فاستغلوا سذاجة المؤمنين الغبية ، لخدمة الهدف الانجليزي : كل الوسائل كانت متاحة ، حتى أكثرها بغضاً .

« إن البلاط العثماني لا يخجل من سحق أي إحساس بالعدالة أو بالانسانية ، من أجل تحقيق طموحاته الآثمة وجشعه النهم ، فألقى بملايين الأفراد في هوة من البؤس والعذاب وخطة هجومه دليل كاف على نفاقه » (ص ١٢٨) .

لا يدرك برنواييه ، بسذاجته الواضحة ، أن كلامه ينطبق أول ما ينطبق ، على الفرنسيين أنفسهم وسياستهم الجشعة ، أكثر مما ينطبق على العثمانيين . ونرى كيف أنه في نفاقه يتجاهل تماماً رفض المصريين للاستعمار الفرنسي ، لأنه لا يستطيع أن يغير من فكرته المسبقة عن المصريين ، أنهم متطرفون وليسوا شعباً يبحث عن حريته ، مثله في ذلك مثل الشعب الفرنسي .

ويتأكد هذا عندما يتحدث عن الثورة التي قامت في مصر السفلى تحت قيادة المهدي ، وقد تناسى برنواييه كل ما قاله عن خنوع المصريين الذين يقبلون البطش الفرنسي دون أن يثوروا .

« من يستطيع أن يتنبأ بالأفعال الضارية لفرقة من المتشردين أعماهم تعصبهم الديني الأعمى ، وخاصة إذا ما أثارهم

مندوب من السماء يمنيهم بالانتصار الأكيد ؟ » (ص ١٢٩) .

(ويقتل المهدى) « عرض الجنرال لانوسى ، على النظرات الملتهفة للشعب ، جسد المهدى ، هذا النصاب ، على أمل أن موت هذا المنافق سيمحى كل أوهام هؤلاء المتعصبين العمى ، ومع الأسف ، لم يحدث شىء من هذا ... (واستمرت الثورة طبعًا !) (ص ١٣٠) .

وتحرك جزء من الجيش تحت قيادة بونابرت الى فلسطين « وأخذ بونابرت معه عشرة من أغنى وأشهر سكان مصر كرهينة ، حتى يأمن سلامة المدينة الكبيرة أثناء غيابه » (ص ١٣٥) .

مما يؤكد الخوف المستمر الذى كان يعيش فيه الفرنسيون من ثورة المصريين .

وهم فى طريقهم الى عكا « كنا ننوى التوقف فى قرية (ما) وعندما اقتربنا منها ، رأينا نارًا عالية ، وظننا فى أول الأمر أن السكان أوقدوا هذه النار ليعبروا عن فرحتهم بمرور بونابرت عليهم . ولكن ، عندما اقتربنا ، فهمنا أنه حريق هائل قضى على كل القرية ، وعندما وصلنا ، إنتابنا الفزع أمام هذا المنظر البشع الذى يصعب وصفه ، فلم نجد إلا رمادًا وفيه جثث اخترقتها الطعنات ، من كل جنس ومن كل سن : كانوا يرقدون فى كل اتجاه،

ولابد وأنهم أصيبوا هكذا وهم يحاولون الفرار من النار ولم يكن يرفرف فوقهم إلا الصمت الرهيب » (ص ١٣٦)

(ثم يعرف السبب) « كان الجنرال بونابرت مع اثنين من قواده (...) وتجمع حولهم بعض الفلاحين ، وظن (الفرنسيون) أنه حب الاستطلاع (ثم اتضح أنهم يحضرون ومعهم العصى ، وانهالوا على بونابرت ورفاقه ضربًا) . فما كان من الفرسان إلا انهالوا عليهم بسيوفهم ، ثم حكم على كل سكان القرية بالقتل ، وأحرقت عن آخرها » (ص ١٣٧) .

هذه القصة ، على قسوتها ، نموذج مضحك لأوهام الفرنسيين ، الذين حضروا الى مصر على أن المصريين سيستقبلونهم كمحررين ، وعلى الرغم من المقاومة فى الأقاليم والثورة فى القاهرة ، فلايزال بونابرت يعتقد أن الالتفاف حوله دليل حب ويظن برنوابيه أن النار تعبير عن الفرحة . فشر البلية ما يضحك ، وقد بقيت هذة الأسطورة حتى أن أحد الصحفيين الذين حضروا إلى مصر أثناء العدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦ ، قال إنه كان يظن أن المصريين سيستقبلونهم بالأحضان كما فعل أجدادهم أثناء الحملة الفرنسية ، مما يذكرنا بجحا الذى أرسل الأطفال إلى فرح وهمى ليتخلص منهم ، ثم جرى وراءهم ليأخذ نصيبه من

الحلوى هو أيضـــا ويأتى لتأكيد أوهــام بونابرت ، ما سيحدث بعـد ذلك ، عندما تقدم بعض الأتراك نحوهم فى غزة.

« فقال لهم بونابرت أنه يجىء إليهم كصديق ، وأن هدفه الوحيد هو معاقبة الطغاة الذين يعذبون الشعب ، ليعطى هذا الشعب الإستقلال المطلق ، كانت هذه الكلمات جديرة بكهربة أى شعب غير الشعب السورى « أى الشعب الفلسطينى » لأن الشعب السورى تعود العبودية منذ قرون طويلة . وكلمات حرية واستقلال غريبة كل الغرابة عليه ولا معنى لها ، بالنسبة له » . (ص ١٤٢) .

لم يشرح برنوابيه مايعنيه بونابرت بكلمات « الاستقلال المطلق » التى جاء ليهديها إلى الشعب السورى ، ولم يفهم برنوابيه أن الشعب السورى أنضج من الفرنسيين ، إذ فهم أن كلمات « حرية واستقلال » مضمون أكثر منها شعارات جوفاء ، وبالتالى ، فلم يصدق هذه الكلمات عندما استعملها جيش مسلح ومستعمر ، كما لم يفهم . مافهمه كليبر وقاله لقائده بونابرت عندما شرح له ما يمكن أن ينتظر من شعب هزم جيشه فأصبح ضعيفا وذليلا » (ص٤٤) .

« فى مدن سوريا (بعد غزة) ... الشعب فى كل مكان طائع ومستعد دائمًا لطاعة المنتصر الذى حضر لاستعباده » (ص ١٤٢) .

ثم تجيء حقيقة « الحرية الفرنسية » التى حضر بونابرت ليعطيها للشعب .

« لو أن انتصاراتنا فى سوريا (أى فلسطين) وصلت الى فرنسا ، فلا شك أنهم سيبتهلون الى الله شكرًا له . ولكن ، إذا ما شاهدوا مثلى الآثار الحزينة لمدينة يافا المسكينة ، والجرائم البشعة التى ذهب ضحيتها السكان ، فإنهم سيتساءلون بسخط عن الآلهة التى تحمى مثل هذه الأفعال . ولو أن قانون الحرب يسمح بذلك ، إلا أن ما شاهدته يجعل البدن يقشعر .

« وصلنا يوم ٢٢ تحت أسوار يافا ، الفرق التى تدافع عن هذه القلعة مكونة من محاربين من دول مختلفة ، وقد جمعوا بسرعة، ومع ذلك ، فهذا التجمع من الجنود الأجانب كان يدافع باصرار ، عن قلعة لا يحميها إلا سور بدون خندق ، التعصب الدينى الأعمى كان يقوى من عزيمة هؤلاء الجند الذين لم يخافوا محاربة الفرنسيين وهم وراء هذه الأسوار الضعيفة » (ص ١٤٤) .

نلاحظ طبعًا أن كل ما هو شجاعة خارقة وبالتالى صفة حميدة ، يتحول فى هذا النص – وفى كل النصوص الأخرى – الى سبة ، وهو التطرف الدينى الأعمى . ولا منطق يشرح هذا الكلام إلا ما سبق وشرحناه عن كره فلسفة التنوير لكل ما هو دين ، وهذا لا يبرر منطق برنواييه طبعًا ، والذى حدث أن بونابرت أرسل

ضابطا يطلب من الحامية أن تستسلم ، فما كان من قائد الحامية إلا أن أمر بقتله ، لما فى هذا الأمر من وقاحة فائقة .

« لم أكن أتخيل مجزرة أبشع مما رأيت : كانت فرقنا تنتقم لوفاة رسولنا ! وعلاوة على ذلك ، فالاصرار المتعجرف الذى جعل المحاصرين لا يستسلمون ، كان يهيج من ثورة جنودنا (...) كل شىء قتل وحرق ، لم تتوقف فرقنا عن القتل إلا عندما أعياها الجهد لكثرة الذبح : لم يمنعهم لا الجنس ولا السن » (ص ١٤٥) .

ثم وعد بونابرت ألفًا وخمسمائة جندى أن يعيدهم سالمين الى بلادهم إذا ما استسلموا ، وعندما وافقوا ، أمر بقتلهم كلهم رميًا بالرصاص ، وتسبب هذا فى استياء ضباط وجنود الجيش الفرنسى ، وقالوا فى خطاباتهم ، أن الله سيعاقبهم حتمًا على هذه الخيانة البشعة ، وعندما ظهر الطاعون بينهم فيما بعد ، قيل إنه عقاب الله لفعلتهم الجبانة ، ولنعود الى يوم المذبحة !

« وبعد ذلك ، شاهدنا مناظر مؤسفة تتلاحق أمامنا : رأينا الجند يعودون الواحد تلو الآخر الى المعسكر ، وهم محملون بكل أنواع البضائع ، ولكن حدث ما لم أره من قبل ، شاهدت تجارة الفتيات وهم يبدلونهن بألف شىء » (ص ١٤٧) .

قالت فريسة أحد الضباط إنها إبنة الحاكم ولا يحق له أن يأخذها ، فأخرج سيفه وذبحها أمام الجميع . وعندما عرف

بونابرت بما تتسببه هؤلاء البائسات من فوضى فى المسكر ، أمر بإعدامهن كلهن !..

وأرسل بونابرت بيانًا الى سكان نابلس ، يطلب فيه من السكان تسليمه المماليك . وإلا حاربهم ، وكان فى نفس الوقت يؤكد نواياه السلمية لمن يثبت أنه صديقه .

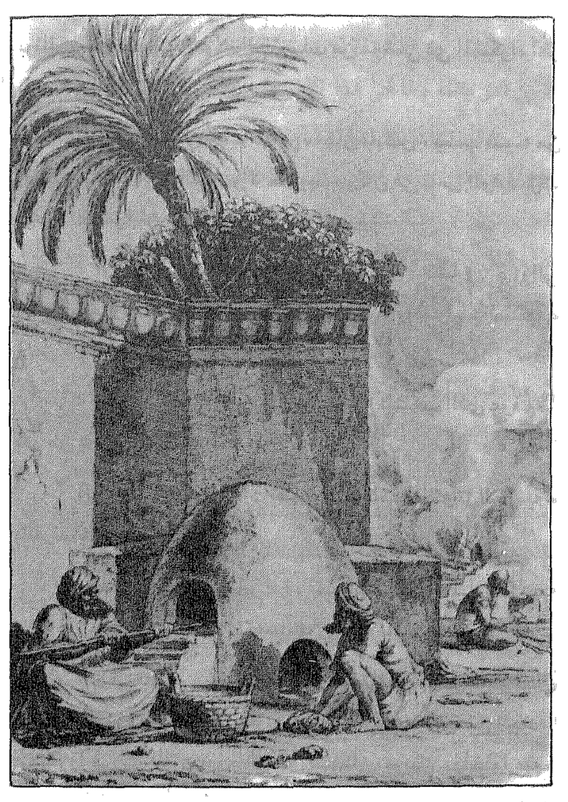
« أرسل بونابرت بيانه هذا الى القدس أيضا (...) والى بيت عانيا وبيت لحم وأريحا ، ليبشر بمجيئه وبنواياه السلمية » (ص ١٤٩)..

« ولكن هذا البيان لم يهدىء من روع الشعب الذى عرف ما بدر من بونابرت فى يافا » (ص ١٥٢) .

ويبدو أن الشعوب بدأت تفهم معنى كلمة « النوايا السلمية » بالفرنسية !..

وبعد أن فشل بونابرت فى حصار عكا ، عاد أدراجه والطاعون والجوع والعطش تحصد من رجاله المئات .

« حتى يعاقب بونابرت سكان هذه المنطقة على الاستقبال السيىء الذى قابلونا به فى طريقنا الى عكا ، أرسل بعض الجند : فانتشروا فى كل القرى ، وجعلوا كل السكان يهربون ، وأخذوا منهم كل حيواناتهم ، وأحرقوا كل مساكنهم . وبعد فترة وجيزة ،



أفران مصرية . هذه المبانى الصغيرة ، التى تبنى فى يوم وتستعمل فى اليوم التالى ،
لها فائدة كبيرة للحملة . إن العرب فى غاية المهارة والسرعة في إشادة مثل هذه الأبنية

أصبحت هذه المنطقة الجميلة صورة للخراب ، استطاع بونابرت ، بانتقامه هذا من السكان ، أن يحرم عدونا من كل موارده ، فى حالة ما إذا فكر فى متابعتنا » (...) . « وفى يافا ، بقى الجيش ثلاثة أيام لينتهى من تدمير المدينة ، وتحطيم كل التحصينات » (ص ١٦٦) .

يقول هنرى لورنس فى كتابه عن الحملة الفرنسية ، إن السكان احتموا من جيش بونابرت فى المرتفعات ومكثوا بها ، حتى جاءت الموجة الصهيونية ، فكان من السهل على اليهود استيطان الشاطىء الخالى من السكان .

وأخيراً ، ولأول وآخر مرة ، نقابل فى خطابات ومذكرات من عاش أحداث الحملة ، نقابل سرد تفاصيل حوار بين الفرنسيين والمصريين حول ما يسمى بمبادىء الثورة ، والحرية منها بالذات ، كان الجيش الفرنسى يشكو من الجوع والعطش فى طريق عودته الى مصر ، بعد فشل حصار عكا ، وإذ ببعض الضباط يجدون ديرا على طريقهم ، فيتوقفون ، ويهددون الكهنة ، ويذعن هؤلاء للتهديد ويسلمونهم الطعام الذى كان مخصصاً لهم ، فيدعو الضباط كبير الكهنة الى الأكل معهم .

« وبسرعة ، أثر نبيذ قبرص الذى كنا نشرب منه الكثير على عقولنا ، وذكرنا بحماسنا الجميل للحرية ، هذا الشعور النبيل

بالاستقلال جعل كل منا يتخيل الحكومة المثلى لإسعاد الشعوب ، ولكن كبير الكهنة أيضًا كان قد تأثر يالنبيذ ، وأراد أن يعبر عن رأيه هو أيضًا (فأخذ يدافع عن الدين) ، هذا الكلام أثارنا ، فاندفعنا نحوه وكأننا الموج الهائج ونحن ننعته بأقذر الحماقات » (ص ١٧١) .

وهكذا ، انتهى درس التنوير الوحيد الذى قابلناه ولم يكن أكثر من حماقات سكارى .

فى طريق العودة الى مصر ، أمر بونابرت طبيب الجيش بدس السم لمرضى الطاعون ، وكان من بينهم لالمان خادم برنواييه، وقد حذره أحد أصدقائه بعدم شرب ما يقدم له ، ثم يسمع المرضى عن إنسحاب بونابرت وجيشه .

وفجأة ، فتح باب الحجرة التى كان يرقد فيها ، بعنف شديد ودخل عليهم بسرعة أتراك وفى يدهم السيوف . وظن أنه لابد هالك ، ولكن ، عندما رأى تصرفاتهم ، كانت المفاجأة ، إذ ارتسمت على وجوههم كل علامات الشفقة ، والاندهاش والفزع من رؤية هذا العدد من المرضى والمحتضرين (...) . وهكذا ، أنقذ حوالى أربعين بفضل تفانى الأتراك (...) . ثم ترك لهم الاختيار ، بين الانضمام الى صفوفهم أو العودة الى الفرنسيين ، وفضل العدد

الأكبر الانضمام الى الأتراك ، ولا شك أنهم سيصبحون بعد ذلك من أشد الأعداء للفرنسيين » (ص ١٨١) .

أما الخادم لامان ، فقد فضل العودة الى مصر ، حيث لحق بسيده برنوابيه ، وعاد كل منهما الى فرنسا مع بونابرت عندما سافر القائد العام فى أغسطس ١٧٩٩ .

Viyage dans Le Basse et La Haute-Egypte par VivantDenor

Présenration de Jean-Claud VATIN, IFAD, Le Caire.

كتاب « رحلة الى مصر السفلى ومصر العليا » هو مذكرات الفنان الرسام فيفان دينون ، التى نشرها بعد عودته من مصر ، حيث كان من المقربين من بونابرت ، لما يقوم به من دعاية له . وقد أعاد المعهد الفرنسى بالقاهرة نشر هذه المذكرات تحت إشراف جان - كلود فاتان ، وهى فى جزئين ، والجزء الثانى مخصص للوحات جميلة استطاع دينون أن يرسمها بين معركة وأخرى . ومن المعروف أنه كان ، قبل سفر الحملة ، من أكثر المشجعين لفكرة استعمار مصر ، لتعوض بها فرنسا فقدان مستعمراتها الأخرى فى أمريكا وفى الهند .

« تجولت فى بلد لا تعرف عنه أوربا غير الاسم ، فكان كل



صورة لإمرأة مصرية

شيء مهما للوصف » .

(الهجوم على الاسكندرية والمقاومة) .

« لم يهرب منهم أحد ، فكان لابد من قتل كل من وجد على الأسوار ، وقد مات منا مائتا جندى » (ص ١٧) .

« أسطورة قديمة كانت قد أكدت أنه اذا ما دخل مركب من الفرنجة الى الميناء القديم ، فسيطرة المسلمين على الاسكندرية ستنتهى ، وقد حققنا بمركبنا هذه النبوءة » (ص ١٧) .

لم نسمع عن هذه النبوءة من غيره ، ولا نجدها مثلا عند الجبرتى ، ولكنها ترشدنا الى ما كان يراه الفرنسيون من طباع الهنود الحمر فى المصريين ، إذ قيل أن نبوءة كانت تؤكد للهنود الحمر أن سيطرتهم ستنتهى عندما تحضر اليهم آلهة من البحار الشرقية للبلاد ، وقيل أن هذه النبوءة كانت مما جعل الهنود يتخاذلون لتأكدهم أن الأسبان القادمين اليهم ، آلهة وليسوا بشرا . والموقف هنا يكاد يكون مضحكًا ، لسذاجة دينون ، لأن هذه المذكرات نشرت فى فرنسا بعد عودة البلاد الى المسلمين بالفعل .

يخرج وحده فى مركب صغير بالليل مع مصرى .

« بدأت أشعر أننى استهنت بنفسى ، فأنا موجود فى هذه الساعة ، تحت رحمة الرياح ، وسط بحر هائج ، وحيداً مع رجل ، يستطيع ، مثله مثل باقى مواطنيه ، أن يبغض الفرنسيين ، وذلك

دون أى ظلم ، وقد يريد الانتقام » (ص ١٨) .

نلاحظ أنه ، على تحمسه الشديد للمشروع الاستعمارى واعجابه بمشروعات بونابرت ، إلا أنه يفهم أن من حق المصريين كراهية الفرنسيين ... أو على الأقل ، إعترف بهذا الحق فى هذه السطور القليلة .

« بونابرت ، الذى استولى على الاسكندرية بنفس السرعة التى استولى بها (الملك) القديس لويس (التاسع) على دمياط ، لم يقترف فيها نفس الأخطاء » (ص ٢٣) .

نلاحظ ربط الحملة الحديثة بالحملة الصليبية للملك لويس التاسع ، وذلك بعد مرور خمسة قرون من الزمن .

عن معركة امبابة .

« أحسن فرسان فى الشرق ، بل قد يكونون أحسن فرسان فى العالم ، إنكسروا أمام حفنة من الجنود مدججين بالسونكى » (ص ٢٧) .

كان عدد الجند الفرنسيين فى الحقيقة أضعاف أضعاف المماليك .

« لقد استطعنا طرد المماليك وهذه حقيقة ، ولكن ، عندما وصلنا ، ونحن تحت وطأة الاحتياجات الشتى ، ألم نحل محلهم بعد

أن طردناهم ؟ » (ص ٣١) .

قسوة حياة البدو لا مغالاة فيها : فالأسرى الذين أخذوا من بيننا ، وهم يصفون ما عانوه من عذاب أثناء أسرهم ، كانوا يعتبرونه جزءًا من طريقة عيش هؤلاء القوم ، وليس نتيجة بربريتهم (...) وهؤلاء الضباط لم يشتكوا من أى معاملة سيئة ، ولم يحتفظوا بذكرى أليمة ، من ظرف بائس ، كان عليهم أن يشاركوا فيه حياة سجانيهم الخشنة » (ص ٣١) .

عن المقاومة ، مشهد يتكرر مرارا .

« بعد أن جرحوا كلهم ، قبض عليهم ، وأعدموا كلهم . أيقن آنذاك الجنرال مينو أنه لابد من تلقينهم درسًا قاسيًا . فانطلقنا ومعنا مائتا جندى (...) . وجدنا العدو على الجياد أمام القرية ، مستعدًا للمعركة . هجموا علينا فى أول الأمر ، وحتى الالتحام بالسونكى (وتكون الغلبة للفرنسيين طبعًا) . تركت القرية للسلب والنهب باقى اليوم ، ثم أحرقت عن آخرها فى المساء : كان اللهب وصوت المدافع يخبر الناس ، على بعد عشرة فراسخ ، طيلة الليل ، أن انتقامنا كان كاملا ورهيبا » (ص ٣٣) .

« عدنا الى فوه ، حيث استقبلنا كمنتصرين ، يعرفون كيف يحدون من انتقامهم (ثم ...) استمع السكان باحترام وخضوع

· مكره أخاك لا بطل : شعب مهزوم يستمع فى خضوع طبعا الى أى شىء ، ولكن ، لم « الاحترام » ؟! إن الأوهام الفرنسية لا حد لها كما نرى .

ونرى الآن كيف يفكر الفرنسيون بمنطلق أعرج ، يسمح لهم بكل شىء ، أو بالأصح ، بالشىء نفسه وضده فى آن واحد : الاستفادة من الوضع الراهن ، وراحة الضمير أمام نواياهم الحسنة التى لم تطبق إلا فى خيالهم وبقيت فى الأسطورة المتداولة.

« مندوبو هذه المنطقة قدموا ما تبقى لديهم من دجاج وأوز للجند الذين حضروا ليخلصوهم من تأنيب الضمير (تأنيب ضمير لأنهم دافعوا عن حريتهم !) الذى كان يؤرقهم منذ ثلاثة أسابيع . كنا نستقبل فى كل قرية على الطريقة الاقطاعية ، وكانت أهم شخصية فى البلدة تستقبلنا ، وتجعل الأهالى يدفعون الثمن بعد ذلك ، كان لابد لنا أن نتعرف على هذا التعسف قبل معالجته ، ولو أننا كنا منبهرين بالسهولة التى أتاحت لنا دراسة تقاليد بلد ، كنا سنغير من طباعه ، فكنا نترك الأمر على ما هو عليه فى هذه المرة (ص ٣٣ - ٣٤) .

الحقيقة أن ما رآه فى أول الأمر هو الذى حدث : لم يغيروا شيئا لأنهم حلوا محل المماليك ، لا أكثر ولا أقل .

مشهد يتكرر كثيرًا :

« رسمت قرية (قرية ألقان Alcan) ، هذه القرية التى قتل فيها الضابط چوليان وخمسة وعشرون من جنده ، وقد طرد سكانه ، وأحرقت كلها » (ص ٥٨) .

الأسطورة تقول إن الجيش الفرنسى جاء ليعلم الشعب المصرى مبادىء الثورة والتنوير وليحرره من سطوة المماليك ، والحقيقة التى سنراها تثبت أنه كان بالفعل جيش مرتزقة لا يهمه إلا السلب والنهب .

« فى كفر شاباس ، عاد الطبيب مسرعًا وهو يقول : إنهم ينتظروننا بالبنادق (...) وأخذوا يطلقون علينا النار (...) سقط الضابط فى الماء ، بينما تشتت جنده ليجروا وراء الأهالى ، الذين كانوا يحملون أمتعتهم ، فركض الچنرالان ليحاولا تنظيم هذه الفوضى لجمع شمل الفرقة ، ومن أجل ذلك ، اضطررنا إلى المرور تحت نيران العدو ، وقد مات وجرح الكثير من العسكر (بسبب هذا النهم للسلب) (ص ٥٥) .

الهدف الأساسى من الحملة : تغيير تقاليد المصريين ، هل لنا أن نسأل لماذا ؟ وما هى الفائدة العائدة على الفرنسيين من تحويل المصريين الى فرنسيين ؟



رسمت هـــذه الصـــورة على الطبيعة ، لإمرأة جالسة على حـــافة الأريكة ،
وترتدى عددا من الشيلان ، بجانبها مروحة من الريش ، وحذاؤها تحت الأريكة

« سعادتى كبيرة لرسم المصريات فى اللحظة التى تسبق تأثيرنا على التقاليد الشرقية ، التى قد ترفع من الحجاب الذى يغلفهن » (ص ٤٩) .

المقاومة مستمرة ولا تهدأ يومًا واحدًا ... مما يجعلنا نتساءل ، متى وجد الجيش وقتًا لتلقين المصريين دروسًا في التنوير ؟

« كان العدو يسير (نحونا ...) وشاهدنا أعلامه (...) أرسلنا اليهم القناصة ، وفى نفس اللحظة ، احتدم العراك ، وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا : كانت شجاعتهم وتفانيهم تحل محل الأسلحة التى افتقروا اليها . ولكن ، بعد أن حطمنا هذه المقدمة أكثر مما دحرناها ، وجدنا المقاومة فى القرى أكثر ضراوة » (ص ١٤٩) .

وكلما ازداد قمع المقاومة عنفًا ، ازدادت ضراوة واتساعًا) .

ان الثورة الفرنسية هى موضع فخر لا حد له بالنسبة للفرنسيين ، أما إذا ثار المصريون أيضا لحريتهم واستقلالهم ، فيكون هذا هو تعليق دينون ، ونذكر هنا بكل ما يعنيه مفهوم الدين لأبناء هذا الجيل من احتقار وإزدراء . عن ثورة القاهرة الأولى ، كتب قائلا :

« إن الغوغاء ، وبعض الكبار ، وكل الأتقياء ، أثبتوا منتهى التعصب الديني الأعمى والشرس أثناء الثورة » (ص ٦١) .

ثم يرحل دينون مع الجنرال ديسى ، فى حملته على مراد بك في صعيد مصر . ولم يستطع الجنرال التخلص منه ، وعاشوا أثناء هذه الحملة الثانية حربا يومية قاتلة ، ولم يهدأ لهم بال لليلة واحدة . وتقول الأسطورة ان الفلاحين في صعيد مصر ، والبدو ، يذكرون حتى الآن محاسن هذا القائد ، الذى يلقب عندهم « بالسلطان العادل » ، وسنرى حقيقة عدل هذا الجيش من خلال ما يحكيه دينون لنا .

« لم نستطع إنقاذ قرية (السق Alsack) من النهب والسلب لأننا وصلنا اليه متأخرين ، لم يمض ربع الساعة ، إلا وخلت البيوت من كل شىء ، هرب السكان العرب فى الحقول ، فقيل لهم أن يرجعوا ، فأجابوا ببرود شديد : « وعم نبحث فى بيوتنا ؟ أليست هذه الحقول الجرداء بالنسبة لنا مثل منازلنا ؟ « ولم نكن نستطيع الاجابة على هذه الجملة البليغة » (ص ٩١) .

« ذهبنا مع فرقة مكونة من ثلاثمائة رجل لنحصل الميرى ، أو ضريبة الأرض ، ومصادرة الخيل والجاموس : كنا فى ذلك نتبع وسائل المماليك الذين يقومون بنفس الرحلة العسكرية فى المقاطعات

التى ولوا عليها ، وهم يعسكرون أمام المدن والقرى ، ويأكلون على نفقة أهلها الى أن يدفع لهم ما جاءوا فى طلبه » (ص ٧٥) .

« كانوا يقولون عنا أننا « آفة من عند الله » أرسلها عليهم ليعاقبهم على خطاياهم ، وفى الحقيقة ، كان يجدر بهم أن يطلقوا علينا إسما أكثر عنفًا » (ص ٨٩) .

قاومت جزيرة فيلة مقاومة عنيفة صدت الفرنسيين أكثر من مرة .

« ولم يكن فى إمكاننا (ونحن على ضفاف النيل) تغيير قرارهم . ولكن ترك حفنة من الفلاحين الوقحين على بعد أربع خطوات من إقامتنا ، قدوة سيئة للآخرين ، ولذا قررنا العودة مرة أخرى في ثاني يوم (...) وعدنا بالفعل ومعنا مائتان من الجند ، وعندما رأوهم ، بدأوا فى الاستعداد للقتال (...) صرخنا فيهم أننا لا نريد لهم مكروها ولا نطلب منهم إلا الدخـــول الودى فى الجزيرة .

... المهم : بدأ ضربهم بالمدافع ، وتم سحقهم طبعا . كان تفريغ ما في مخازن الجزيرة عملية قام بها الجند حتى آخر النهار (ص ١٣٧) . (وهكذا ، عرف معنى كلمة « الدخول الودى » . ويصف دينون كيف كانت الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا تغتصب ،

ويعجب من وحشيتهن . مما يذكرنا بما قاله بونابرت لجنده ، في أول بيان له قبل الوصول الى مصر : « الشعوب التى نذهب اليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا ، ولكن الذى يغتصب امرأة فى أى بلد فى العالم وحش كاسر ، والسلب لا يثرى إلا قلة من الرجال ، ولكنه أمر مخز لنا ويبدد مواردنا ، وهو يجعلنا أعداء للشعوب التى نريدها صديقة لنا لمصلحتنا » . وأغلب المؤرخين نسخوا هذه الكلمات ، ولم يتحدثوا بعد ذلك عن السلب والنهب والاغتصاب ، فكانت النتيجة أن القارئ يظن أن الجند الفرنسيين تصرفوا كملائكة رحمة فى مصر ، ولم يكونوا جيشاً غازيا ومستعمراً بكل المعانى المعروفة للكلمة ولقانون الحرب فى هذا العصر .

« كان لابد من تجويع البلد لنبعد العدو (...) كنا نأخذ معنا الأهالى ، فيتحول البلد بعد مرورنا الى أرض جرداء » (ص ١٣٦) .

« بعد ثلاث عشرة ساعة من السير ، وصلنا لنبيت فى (جمارسييم Gamaressiem) ، لسوء حظ هذه القرية ، لأن صراخ النساء جعلنا نفهم أن جنودنا ، انتهزوا فرصة حلول الليل ، وعلى الرغم من تعبهم ، كان لايزال لديهم فائض من الطاقة ، وبحجة البحث عن مؤن ، كانوا ينتزعون بالفعل ما لا هم فى حاجة اليه ، فما كان من السكان ، بعد أن نهبوا واغتصبوا ، وقد فاض

بهم الكيل ، أن هجموا علي الدوريات التى أرسلناها للدفاع عنهم ، وردت الدوريات بقتل الأهالى لأنهم لا يستطيعون التفاهم مع أهل القرية ، ولا يستطيعون شرح الموقف لهم (...) ما أكثرك يا حرب بريقًا فى التاريخ ! ولكن اذا ما شاهدناك عن قرب ، تحولت الى وجه شنيع ، عندما لا تخفين بشاعة التفاصيل ! » (ص ١٠٢) .

وما أعجب منطقه فى الصفحة التالية ، منطق أقل ما يقال عنه أنه أعرج :

« فى يوم ٢٣ ، علمنا أن فرساننا قابلوا تجمعًا فى المنشية ، وقتلوا ألفًا من هؤلاء المنحرفين ، درس لا أخوة فيه ، ولكن موقفنا يجعله ضروريا : هذه المقاطعة ، التى كانت دائمًا ثائرة ، لها سمعة فظيعة ، وكان لابد لها أن تتعلم ألا تقارن بنا (...) ربما كان لابد لهم أيضا أن يقتنعوا أننا أكثر انتقاما وأقل تسامحا مما يظنون .

« وأخيرا ، قد يكون السبب أننا لا نجد وقتا لموعظتهم ، فلابد ، نظرا للظروف البائسة ، أن نعاقب بشدة من يصرون على عدم تصديقنا عندما نقول لهم أن كل ما نفعله ما هو إلا لصالحهم » (ص ١٠٥) .

لم ير المصريون ، على حد قوله هو نفسه ، إلا القتل والسلب والنهب والاغتصاب ، ويريد أن يفهموا أن كل ذلك ما هو إلا لصالحهم ، منطق أعرج فعلا .

يتأكد خطأ منطقه فى السطور التالية ، وهو يريد تعليم المصريين الشجاعة ، وهو نفسه يصف الفلاحين وهم يحاربون الفرنسيين بمدافعهم وبنادقهم ، وسلاح المصريين الوحيد هو العصى .

« من الممكن أن نقول أن المصرى على المستوى الشخصى حاذق وماهر (...) ولا أعرف الى أى مدى نستطيع جعله يتعلم الشجاعة ، ولكن ، لا يجب أن نرى دون فزع ، صفات الجند التى يتحلون يها ، فهم غاية فى الزهد ، يسيرون كأحسن عدائين ، يركبون الخيل وكأنهم من الأساطير ، يسبحون كالدرافيل ، ومع هذا ، فهم شعب مكون من ملايين كثيرة ، له كل هذه الصفات ، وأربعة آلاف فرنسى منعزلون يحكمونهم بعنف على مساحة مائتى فرسخ ! لأن عادة الطاعة طريقة حياة مثل عادة القيادة ، حتى ينام البعض فى تعسف سلطته ، بينما يصحو الآخر على صوت أغلاله » (ص ١٠٨) .

وفى نفس الصفحة من الكتاب ، وبعد هذا الكلام مباشرة ، يجىء الدليل القاطع الواقعى على افترائه) .

« ألفان من العرب على الجياد وخمسة أو ستة آلاف فلاح من المشاة ، ظنوا أنهم يستطيعون سحق الخيالة (الفرنسية) (...)

تقـدموا أمام طاطا ، عنـدما اكتشفهم الفرسان مستعدين للحرب »
(ص ١٠٨) .

« وصلنا أمام قرية ، لم نعرف اسمها إلا فى اليوم التالى وكانت البيرا ، لأننا عندما وصلنا فى المساء ، لم نجد بها ساكنا واحدا ليخبرنا ، أنا أحب أن نجد القرى دون سكان ، حتى لا أسمع صراخ الأهالى ونحن مضطرون لتجريدهم من كل شىء ، لم يتبق فى القرية إلا الحوائط ، فالأبواب وكل الأخشاب كانت قد خلعت وأخذها أهلها معهم ، والقرية ، بعد تركها بساعتين كانت تبدو وكأنها أثر عمره قرنا من الزمن » (ص ١٠٩) .

« توجهنا الى فارشنت (...) هذه القرية البائسة كانت قد سلبت قبل بضع ساعات على يد المماليك (...) وصلنا ، وسلبنا ما تبقى فى المخازن ، حاولنا جمع العسكر لمنع هذه الفوضى ، ولكن ، كان يجب فى الواقع معاقبة الجيش بأسره (...) وحتى نتفادى نظرات اللوم فى أعين الأهالى ، تركناها فى منتصف الليل » (ص ١١٠) .

« وصلنا فى الحادية عشرة الى قرية كبيرة ، لم أعرف اسمها أبدا ، حيث تجول العسكر ، لسوء حظها ولخراب أصلها »
(ص ١١١) .

« فى اليوم التالى ، لم يكن يتبقى لنا إلا ثلاثة أرباع فرسخ ، حتى نصل الى فرساننا ، وهم لم يتقدمونا إلا لأكل البلد قبلنا » (ص ١٢٧) .

« كنا نحارب منذ ست ساعات دون توقف عدوا عديم الخبرة ، ولكنه شجاع ومتعصب دينيا ، ويقاوم باصرار : لم يكن ينسحب إلا جماعة ، فكان واجب علينا قتل كل ما تقدم منه » (ص ١٥٠)

ثم تكون هذه الصفحة البالغة الأهمية ، لأن دينون فيها ما كان ينبغى أن نقوله نحن

« كنا نتباهى بأننا أكثر عدلا من المماليك ، وكنا نقترف كل يوم وبصورة اضطرارية عددا كبيرا من المظالم . صعوبة تمييز أعدائنا بناء على الشكل واللون ، كان يجعلنا نقتل يوميا فلاحين أبرياء ، كان الجند الذين نرسلهم للاستكشاف ، يظنون التجار المساكين من أهل مكة (الذين حضروا لمساعدة المصريين) . وقبل أن نصل لنعيد العدل - إذا ما كان هناك وقت للعدل - يكون الجند قد قتلوا اثنين أو ثلاثة ، وتكون قافلتهم قد سلبت أو بددت ، وجمالهم تم تبديلها بجمالنا الجريحة » (ص ١٥٨) .

« وعندما كان الفلاحون يذعنون لتهديدنا ، ويحضرون لدفع الميرى ، كما يحدث أحيانا ، كنا نظن تجمعهم بسبب كثرتهم عداء

لنا ، وعصيهم أسلحة ، فكان عليهم أن يتحملوا إطلاق رصاص القناصة ، أو الدوريات ، قبل أن يشرحوا موقفهم ، فكانوا يدفنون موتاهم ، ونظل أصدقاء الى أن تتيح لهم فرصة انتقام أكيد ، والحق يقال أنهم إذا ما بقوا فى منازلهم ، ودفعوا الميرى ، وأوفوا بكل احتياجات الجيش ، لوفر ذلك عليهم مشقة السفر والبقاء فى الصحراء . فى هذه الحالة ، كانوا يشاهدون مواردهم تؤكل بانتظام ، فيأكلون نصيبهم ، ويحتفظون ببعض أبوابهم ، ويبيعون البيض للجند ، ولا يغتصب إلا القليل من نسائهم وبناتهم » (ص ١٥٩) .

(ولا أعرف إن كان ما سيقوله بعد ذلك يقع تحت بند المفارقة أو المنطق الأعرج المستمر) « أما مصير السكان ، الذين جئنا إلى مصر ، بلا شك لإسعادهم ، فحالهم لم يكن أحسن حالا (مما سلف) ؛ إذا ما اقتربنا منهم فخافوا وتركوا منازلهم ، ثم عادوا إليها بعد رحيلنا ، تراهم لا يجيدون فيها إلا الطين الذى بنيت به ؛ فكل الأدوات ، والمحارث ، والأبواب والأسقف ، كانت تستعمل لإيقاد النار (من أجل طهى طعام جنودنا) : كانت كل الأوعية تكسر ، وكل الغلال تؤكل ، وكل الفراخ والحمام يشوى ؛ ولا يتبقى إلا جثث الكلاب لأنها أرادت حماية ممتلكات أسيادها . ولو أننا مكثنا فى هذه القرية ، يصدر الأمر لهؤلاء البؤساء بالعودة ، وإلا



القيادة العامة فى داخل المقابر ، بجوار نجادى ، ومن الجهة الأخرى ، الموظفون الأقباط والمترجمون ، فى الصف الثانى ، الجنرال بليار ، ضباطه وأنا . المنظر لطيف بالنسبة للاضاءة ، وهو يعطى فكرة حقيقية لطريقة عيشنا فى هذه الفترة .

عوملوا على أنهم متمردون متواطئون مع أعدائنا ، وبالتالى ، تضاعف الغرامه التى يدفعونها » (١٥٨) .

(وختاما ، نذكر أن دينون كان من أكثر المتحمسين للمشروع الاستعمارى ، ويحلم بجلب الأوربيين والأمريكان إلى مصر للاستيطان فيها ، ولا يقول طبعا مصير المصريين فى هذه الحالة المثلى ...)

نكتفى بهذا القدر من المقتطفات التى ثبتت لنا أن الجيش لم يكن ، على عكس ما قيل ، حاملا لرسالة تحضر ، ولكنه كان جيشا استعماريا مثله مثل غيره من الجيوش الاستعمارية فى هذا العصر . وهناك أيضا ما نجده فى مكاتبات كليبر وبيانات مينو التى تؤكد هذه الحقيقة . وهى ترشدنا إلى الطريقة التى كانت تدار بها شئون الدولة ، ولا هم للفرنسيين إلا جمع المال ، وتطبيق ما أسموه « بسياسة عصر الليمونة إلى الآخر » .

وكذلك مذكرات النقيب مواريه ، الذى كره البلد ولم يكن لأهلها إلا الاحتقار والإزدراء ، وفرح لتركه بلد « كان شؤما على أجدادنا وعلينا » ، ونرى معه كيف سيطرت فكرة الانتقام للصليبيين ، وهزيمة لويس التاسع فى مصر . وأثناء الأسابيع القليلة التى عاشها مواريه مع فرقته دون حرب أو بشائع كان أول من إقشعر لها بدنه ، وهو الجندى المحترف المحنك ، نراه لا يفكر

إلا فى ركوب الحمير للتسلية ، والبحث عن النساء ، لأن لا هم له ، مثله فى ذلك مثل باقى زملائه ، إلا قضاء وقتا سعيدا ، بعيدا كل البعد عما يسمى بمبادئ الثورة التى لقنها الجيش الفرنسى للشعب المصرى .

ها قد أخذنا فكرة واقعية عن الحقيقة التاريخية وراء أسطورة الجند الذين تعايشوا فى صفاء مع الشعب المصرى ، فعلموهم مبادئ الثورة الثلاث ، وأخرجوهم من ظلمات الماضى التى كانت تحجب عنهم التنوير والتقدم ، فكانت النتيجة نهضة مصر العثمانية المتخلفة فى القرن التاسع عشر ، ودخول مصر إلى يومنا هذا ، فى العصر الحديث على أيدى بونابرت وجنده .

ولو أننا بصدد مناقشة الحملة نفسها وتقييمها كحدث تاريخى له آثاره ونتائجه ، ولو لم يكن هدفنا من هذه الدراسة ، أن ندحض الأسطورة بعد التمحيص فى حقيقتها التاريخية ، لرأينا أن الواقع يثبت أن لا أثر يذكر لها على مستوى التاريخ العام لمصر ، اللهم إلا عودة النفوذ العثمانى العسكرى بقوة كان قد نقدها قبل الحملة ، وجلب محمد على كضابط تركى إلى مصر . ونظرا لعلاقة مصر بالدولة العثمانية ، فكان يمكن وجود سبب آخر لحضوره . ولو أننا قمنا بافتراض أن الحملة لم تحضر إلى مصر ، لما وجدنا شيئا قد تغير فى المجرى الأساسى للأحداث ؛ بينما تاريخ مصر كله فى

القرنين التاسع عشر والعشرين لا يفهم إذا ما تخيلنا غياب محمد علي ، وحتى مشروعاته التي فشلت .

★★★

وبعد هذا ، يتبقى طبعا أسئلة كثيرة ، أهمها لماذا اعترفت فرنسا بكل الحروب القومية الشعبية في أوربا ضد إحتلالها لها ، ولم تعترف إلا مؤخرا - بعد عام ١٩٨٠ - بأن مصر أيضا قاومت الوجود العسكري الاستعماري الفرنسي . وهي مع ذلك لا تعترف بعد أن في مصر ، كانت أولى هزائم بونابرت .

وقد يكون أحسن مثل على هذا ، كل ما حكي عن المقاومات الشعبية في أسبانيا ، والنمسا وألمانيا ، وروسيا ، وظروف أسبانيا أقرب الظروف إلى ما حدث في مصر . وفي كل هذه الحروب القومية ، لعبت الكنيسة الكاثوليكية الدور الريادي مثلما لعب الأزهر دوره الريادي في المقاومة في مصر . فالسبب إذا ليس دور الدين في المقاومة ، ولا بما سمى في كل هذه البلاد من « غوغاء » .

وقد صدق دوبسبيير ، وكأنه يتنبأ بالمستقبل ، عندما حاول منع حكومة الثورة من الانسياق وراء نزوة الفتوحات باسم تصدير مبادئ الثورة ، قائلا : « إن أكثر الأفكار شذوذا تلك التي تجعل السياسي يعتقد أنه يكفي لشعب أن يدخل مسلحا عند شعب غريب،

ليجعله يتبنى قوانينه ودستوره . يجب أن نعرف أن ما من أحد يحب هؤلاء المبشرين المسلحين » .

كما كتب كليبر نفسه فى مذكراته وهو فى القاهرة : « أنا أستمر فى مهنتى لسبب قوى ، (....) ، وهو أن أشارك ، بقدر المستطاع ، فى منع الأجانب من التدخل فى شئوننا الداخلية . إن هذا ، فى نظرى ، أكثر الأمور مهانة ، أن يحدث لأمة ، أن تتلقى حكومة وقوانين من الخارج . إنه الحدث الوحيد الذى يمكن ، إن حدث لى ، أن يجعلنى أتبرأ من وطنى وأعمالى . » فهل وصل إلى هذه النتيجة بسبب ما رآه بعد استعمار مصر ؟ أم تراه كره الحملة، ولذا حاول جاهدا الخروج من مصر بسبب هذه الفكرة ؟

أيا كان ، فلنذكر ما كتبه ، سنة ١٨٤٧ ، المفكر الفرنسى الكبير ألكسى دى توكفيل ، فى تقريره عن استعمار الجزائر : « لقد انطفأ التنوير من حولنا (...) لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤساً ، وأكثر فوضى ، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا .

ولننهى حديثنا عن أسطورة التنوير الذى أحضره بونابرت الى مصر ، بنموذج من حديثه الى المشايخ والعلماء فى الديوان الذى يقال أنه علمهم الديموقراطية ، قال لهم بونابرت من بين ما قال :

« ... بلغوا الشعب وعرّفوه أن منذ بدء الخليقة ، كان مكتوبًا أن بعد تحطيمي لأعداء الاسلام ، وبعد تكسيري للصلبان ، سأحضر من أقاصي الغرب لأتمم المهمة التي وكلت اليّ .. أرشدوا الشعب ، الى أكثر من عشرين فقرة في كتاب القرآن المقدس ، تقول أن ما حدث كان مكتوبًا ، وكذلك أن ما سيحدث كله مشروحًا . فليعرف اذن من يخشى أسلحتنا ويلعننا ، أن عليه تغيير مشاعره . لأنه إذا طلب من السماء دعاوى ضدنا ، فهو يتمنى هلاكه ، فليبارك المؤمنون الحقيقيون انتصار أسلحتنا .

« في استطاعتي محاسبة كل واحد منكم على مشاعره الدفينة في قلبه ، لأنني عليم بكل شيء ، حتى بما لا تبوحون به لأحد . ولكن سيجيء اليوم الذي سيرى فيه العالم أن كل المجهودات البشرية لا تستطيع فعل شيء ضدي ... » .

مع بداية سبتمبر القادم ١٩٩٢ يكتمل عمر دار الهلال قرنًا كاملاً من الزمان ، لعبت فيه دوراً ريادياً في الصحافة والثقافة والفكر .

وبهذه المناسبة تتشرف دار الهلال أن تقدم مع العدد « ٥٠٠ » من كتاب الهلال ملحقًا خاصًا يشمل مجموعة الكتب التى أصدرتها سلسلة كتاب الهلال من العدد « ١ » الى العدد « ٥٠٠ » .

عام ١٩٥١

١ – عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	يونيو
٢ – ماجلان قاهر البحار	ستيفان زفايج	يوليو
٣ – هارون الرشيد	د. أحمد أمين	أغسطس
٤ – أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	سبتمبر
٥ – جنكيزخان – سفاح الشعوب	ف. ريان	أكتوبر
٦ – قلب النسر	أوكتاف أوبرى	نوفمبر
٧ – عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد	ديسمبر

عـــام ١٩٥٢

٨ – غاندى : القديس الثائر	لويس فيشر	يناير
٩ – سعد زغلول	عباس محمود العقاد	فبراير
١٠ – أحمد عرابى	عبد الرحمن الرافعى	مارس
بطلة كربلاء	د. بنت الشاطىء	٢٠ مارس
١١ – اشعب أمير الطفيليين	توفيق الحكيم	ابريل
١٢ – نفرتيتى ربة الجمال والتاج	صوفى عبد الله	مايو
حديث رمضان	الامام محمد مصطفى المراغى	مايو
١٣ – عبقرية خالد	عباس محمود العقاد	يونيو
١٤ – الذئب الأغبـــــــر – مصطفى كمال	الكابتن هـ.س. أرمسترونج	يوليو
١٥ – كليوباترا فى خان الخليلى	محمود تيمور	أغسطس
١٦ – الإسلام دين الفطرة	الشيخ عبد العزيز جاويش	سبتمبر
١٧ – لا تخف	ادوارد سبنسر كولز	أكتوبر
١٨ – مصطفى كامل	عبد الرحمن الرافعى	نوفمبر
١٩ – القائد الأعظم محمد على جناح	عباس محمود العقاد	ديسمبر

عام ١٩٥٣

٢٠ - زينب	د. محمد حسين هيكل	يناير
٢١ - مذكرات عرابى ج ١	الزعيم أحمد عرابى	فبراير
٢٢ - مذكرات عرابى ج ٢	الزعيم أحمد عرابى	مارس
٢٣ - عبقرية عمر	عباس محمود العقاد	ابريل
٢٤ - آمنة بنت وهب	د. بنت الشاطىء	مايو
٢٥ - فاطمة الزهراء والفاطميون	عباس محمود العقاد	يونيو
٢٦ - عصا الحكيم	توفيق الحكيم	يوليو
٢٧ - أبو نواس	عبد الرحمن صدقى	أغسطس
٢٨ - البؤساء	فيكتور هيجو	سبتمبر
٢٩ - علمتنى الحياة	نخبة من علماء الشرق والغرب	أكتوبر
٣٠ - فى الطريق	ابراهيم عبد القادر المازنى	نوفمبر
٣١ - مدرسة المغفلين	توفيق الحكيم	ديسمبر

عـــام ١٩٥٤

٣٢ – لا تقتل نفسك	بيتر شاينكرون	يناير
٣٣ – عصاميون من الشرق والغرب	لنخبة من كبار الكتاب	فبراير
٣٤ – الأرواح المتمـــردة الأجنحـــة المتكسـرة الموسيقى ثلاثة كتب في كتاب واحد	جبران خليل جبران	مارس
٣٥ – ذو النورين – عثمان بن عفان	عباس محمود العقاد	ابريل
٣٦ – محمد الثائر الأعظم	فتحي رضوان	مايو
٣٧ – عش مائة عام	جايلود هاوزر	يونيو
٣٨ – الحرية الحمراء	حبيب جاماتي	يوليو
٣٩ – أهل الكهف	توفيق الحكيم	أغسطس
٤٠ – الله	عباس محمود العقاد	سبتمبر
٤١ – عش شابا طول حياتك	فيكتور برجومولتز	أكتوبر
٤٢ – علم الفراسة الحديث	جرجي زيدان	نوفمبر
٤٣ – نساء النبي	د. بنت الشاطيء	ديسمبر

عـــام ١٩٥٥

٤٤ - ثائرون	محمود تيمور	يناير
٤٥ - زهرة العمر	توفيق الحكيم	فبراير
٤٦ - هذا مذهبى	بأقلام نخبة من الشرق والغرب	مارس
		ابريل
٤٧ - غادة النيل	اميل لودفيج	مايو
٤٨ - مطلع النور	عباس محمود العقاد	يونيو
٤٩ - يوميات نائب فى الأرياف		يوليو
٥٠ - طريق السعادة	توفيق الحكيم	أغسطس
٥١ - ألف ليلة وليلة ج ١	فيكتور بوشيه	سبتمبر
٥٢ - عبقرية الصديق	عباس محمود العقاد	أكتوبر
٥٣ - ألف ليلة وليلة ج ٢		
٥٤ - مدرسة الشيطان	توفيق الحكيم	نوفمبر
٥٥ - ألف ليلة وليلة ج ٣		ديسمبر

عـــام ١٩٥٦

٥٦ – معاوية بن أبى سفيان	عباس محمود العقاد	يناير
٥٧ – ألف ليلة وليلة ج ٤		فبراير
٥٨ – اعرف نفسك	ادوارد سبنسر كولنز	مارس
٥٩ – ألف ليلة وليلة ج ٥		ابريل
٦٠ – مع الله .. في السماء	د. أحمد زكى	مايو
٦١ – ألف ليلة وليلة ج ٦		يونيو
٦٢ – قصة الثورة كاملة	أنور السادات	يوليو
٦٣ – جحا الضاحك المضحك	عباس محمود العقاد	أغسطس
٦٤ – بنات النبى	د. بنت الشاطىء	سبتمبر
٦٥ – عبقرية الامام على	عباس محمود العقاد	أكتوبر
٦٦ – شاعرة الطليعة : عائشة تيمور	الآنسة : مى	نوفمبر
٦٧ – الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد	ديسمبر

عام ١٩٥٧

٦٨ – بطل الكفاح الشهيد		
محمد فريد	عبد الرحمن الرافعى	يناير
٦٩ – قال الرئيس	جمال عبد الناصر	فبراير
٧٠ – بناة النهضة العربية	جرجى زيدان	مارس
٧١ – محمد رسول البشر	توفيق الحكيم	ابريل
٧٢ – القصر المسحور	طه حسين - توفيق الحكيم	مايو
٧٣ – قصة الثورة المصرية	أنور السادات	يونيو
٧٤ – أسرار الثورة المصرية	أنور السادات	يوليو
٧٥ – عصفور من الشرق	توفيق الحكيم	أغسطس
٧٦ – البؤساء	فيكتور هيجو	سبتمبر
٧٧ – أخلاق للبيع	فتحى رضوان	أكتوبر
٧٨ – لا شيوعية ولا استعمار	عباس محمود العقاد	نوفمبر
٧٩ – قصة الوحدة العربية	أنور السادات	ديسمبر

عـــام ١٩٥٨

٨٠ – حياة المسيح	عباس محمود العقاد	يناير
٨١ – الفكاهة فى مصر	د. شوقى ضيف	فبراير
٨٢ – عش سليما بغير مرض	د. ابراهيم فهيم	مارس
٨٣ – شهر رمضان	خليل طاهر	ابريل
٨٤ – ســـارة	عباس محمود العقاد	مايو
٨٥ – صلاح الدين الأيوبى	محمد فريد أبو حديد	يونيو
٨٦ – يا ولدى هذا عمك جمال	أنور السادات	يوليو
٨٧ – ابليس	عباس محمود العقاد	أغسطس
٨٨ – جبران خليل جبران	ميخائيل نعيمة	سبتمبر
٨٩ – روائع شكسبير ج ١	تلخيص شارل ومارى لام	أكتوبر
٩٠ – سكينة بنت الحسين	د. بنت الشاطىء	نوفمبر
٩١ – روائع شكسبير ج ٢	تلخيص شارل ومارى لام	ديسمبر

عام ١٩٥٩

٩٢ – روائع شكسبير ج ٣	تلخيص شارل وماري لام	يناير
٩٣ – آخر الطريق	أمينة السعيد	فبراير
٩٤ – دروس من القرآن الكريم	الامام محمد عبده	مارس
٩٥ – حديث عيسى بن هشام ج ١	محمد المويلحى	ابريل
٩٦ – حديث عيسى بن هشام ج ٢	محمد المويلحى	مايو
٩٧ – مذكرات نجيب الريحاني	نجيب الريحاني	يونيو
٩٨ – ليالى سطيح	حافظ ابراهيم	يوليو
٩٩ – اعترافات شبابى	ليو تولستوى	أغسطس
١٠٠ – عجائب وأساطير	د. شوقي ضيف	سبتمبر
١٠١ – المرأة فى القرآن الكريم	عباس محمود العقاد	أكتوبر
١٠٢ – الملك والثوار فى عربة	فتحى رضوان	نوفمبر
١٠٣ الدكتور زيفاجو ج	بوريس باسترناك	ديسمبر

عـــام ١٩٦٠

١٠٤ – الدكتور زيفاجو ج ٢	بوريس باسترناك	يناير
١٠٥ – مـذكرات مـحكوم عليـه بالاعدم	فيكتور هيجو	فبراير
١٠٦ – الاســـلام فـي القـــرن العشرين	عباس محمود العقاد	مارس
١٠٧ – تيودورا الممثلة المتوجة	شارل ديل	ابريل
١٠٨ – وثبة الاسلام	ابراهيم المصرى	مايو
١٠٩ – طريقك الى السعادة	د. جون دى شندلر	يونيو
١١٠ – أنت وغذاؤك	د. ابراهيم فهيم	يوليو
١١١ – قلب وتاج	اميل لودفيج	أغسطس
١١٢ – الاســــلام بين العلم والمدنية	الامام محمد عبده	سبتمبر
١١٣ – أبو نواس الحسن بن هانى	عباس محمود العقاد	أكتوبر
١١٤ – عش مطمئن النفس	د. فرانك س. كابريو	نوفمبر
١١٥ – الحب أبو العجائب	فكرى أباظة	ديسمبر

عـــام ١٩٦١

١١٦ – عاصفة فى قلب	صوفى عبد الله	يناير
١١٧ – عبقرية الامام على	عباس محمود العقاد	فبراير
١١٨ – الامبراطورية الاسلامية والأماكن المقدسة	د. محمد حسين هيكل	مارس
١١٩ – مذكرات الامام عبده	طاهر الطناحى	ابريل
١٢٠ – الزواج السعيد	عبد المنعم الزيادى	مايو
١٢١ – ذكريات الصبا والشباب	بوريس باسترناك	يونيو
١٢٢ – المرأة فى حياة العظماء	ابراهيم المصرى	يوليو
١٢٣ – هذا طريقنا	جمال عبد الناصر	أغسطس
١٢٤ – الانسان في القرآن الكريم	عباس محمود العقاد	سبتمبر
١٢٥ – سعادتك فى ضوء علم النفس	د. ليلى ويذرهيد	أكتوبر
١٢٦ – غراميات فيكتور هوجو	لطفى سلطان	نوفمبر
١٢٧ – يوميات طبيب	د. كامل يعقوب	ديسمبر

عام ١٩٦٢

العنوان	المؤلف	الشهر
١٢٨ – الساعات الأخيرة	طاهر الطناحي	يناير
١٢٩ – قصة حياتي	أحمد لطفي السيد	فبراير
١٣٠ – ضوء القمر وقصص أخرى	أحمد حسن الزيات	مارس
١٣١ – فن الزواج	د. أمير بقطر	أبريل
١٣٢ – الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد	مايو
١٣٣ – خديجة أم المؤمنين	السيد عبد الحميد الزهراوى	يونيو
١٣٤ – الحب عند شهيرات النساء	ابراهيم المصرى	يوليو
١٣٥ – تفسير الأحلام	سيجموند فرويد	أغسطس
١٣٦ – أسطورة حب وقصص أخرى	فتحى رضوان	سبتمبر
١٣٧ – طريقك الى الشباب الدائم	د. مارجرى ويلسون	أكتوبر
١٣٨ – الاسلام دين الهداية والاصلاح	محمد فريد وجدى	نوفمبر
١٣٩ – رحلة فى دنيا المستقبل	هـ. ج. ويلز	ديسمبر

عـــام ١٩٦٣

١٤٠ – تاريخ الحب ورسـائله الخالدة	ابراهيم المصرى	يناير
١٤١ – رسالة التوحيد	محمد عبده	فبراير
١٤٢ – أزمات الشباب	اوجست ايكورن	مارس
١٤٣ – هذه حياتى	عبد العزيز فهمى	ابريل
١٤٤ – الشيوعية الانسانية فى شريعة الاسلام	عباس محمود العقاد	مايو
١٤٥ – ٢٠ سنة فى حجرة الاعترافات	د. أمير بقطر	يونيو
١٤٦ – أبناؤنا وبناتنا	جان جاك روسو	يوليو
١٤٧ – مبادىء فى السياسة والأدب والاجتماع	أحمد لطفى السيد	أغسطس
١٤٨ – وجوه فى الظلام	أمينة السعيد	سبتمبر
١٤٩ – رجال عرفتهم	عباس محمود العقاد	أكتوبر
١٥٠ – غراميات نابليون بونابرت	جان سافان	نوفمبر
١٥١ – المسلمون والاسلام	الشيخ محمد عبده	ديسمبر

عـــام ١٩٦٤

١٥٢ – الى القرآن الكريم	الشيخ محمود شلتوت	يناير
١٥٣ – الغذاء السحرى	هـ. ج. ويلز	فبراير
١٥٤ – فلسطين والضمير الانسانى	محمد على علوبة	مارس
١٥٥ – الدين والحضارة الانسانية	د. محمد البهى	ابريل
١٥٦ – كازانوفا	ستيفان زفايج	مايو
١٥٧ – نوابغ النساء	صوفى عبد الله – نظمى لوقا	يونيو
١٥٨ – « أنا »	عباس محمود العقاد	يوليو
١٥٩ – ابتسامات ودموع وظلامات وأشعة	الآنسة مى	أغسطس
١٦٠ – الأئمة الأربعة	أحمد الشرباصى	سبتمبر
١٦١ – صقر قريش	على أدهم	أكتوبر
١٦٢ – أنت وأنا من أين جئنا وكيف نشأنا	د. أمين يقطر	نوفمبر
١٦٣ – حياة قلم	عباس محمود العقاد	ديسمبر

عــام ١٩٦٥

١٦٤ محمد رسول الحرية	عبد الرحمن الشرقاوى	يناير
١٦٥ – البحث عن شكسبير	د. لويس عوض	فبراير
١٦٦ – اسرائيليات	أحمد بهاء الدين	مارس
١٦٧ – حقائق الاسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد	ابريل
١٦٨ – مختارات برناردشو	د. عمر مكاوى	مايو
١٦٩ – مختارات الحب والجمال عند الاغريق	دريني خشبة	يونيو
١٧٠ – عشرة أدباء يتحدثون	فؤاد دواره	يوليو
١٧١ – مذكرات شارلى شابلن ج ١	صلاح حافظ	أغسطس
١٧٢ – مذكرات شارلى شابلن	صلاح حافظ	سبتمبر
١٧٣ – كتابات لم تنشر	د. محمد مندور	أكتوبر
١٧٤ – ثورة الزنوج فى أمريكا	د. عبد الملك عوده	نوفمبر
١٧٥ – معارك فكرية	محمود أمين العالم	ديسمبر

عام ١٩٦٦

١٧٦ – أبو ذر الغفارى الاشتراكى الزاهد	عبد الحميد جودة السحار	يناير
١٧٧ – دليل المتفرج الذكى الى المسرح	ألفريد فرج	فبراير
١٧٨ – رسالة نهرو الى أنديرا	أحمد بهاء الدين	مارس
١٧٩ – على هامش الغفران	د. لويس عوض	ابريل
١٨٠ – أول ثورة على الاقطاع	محمد العزب موسى	مايو
١٨١ – الاشتراكية والفن	لأرنست فيشر	يونيو
١٨٢ – الجبرتى وكفاح الشعب	محمود الشرقاوى	يوليو
١٨٣ – دراسات فى الحب	يوسف اسحاق الشارونى	أغسطس
١٨٤ – الغناء المصرى	كمال النجمى	سبتمبر
١٨٥ – علم النفس والفن	يوسف مراد	أكتوبر
١٨٦ – طريق الثورة اليمنية	د. محمد على الشهاوى	نوفمبر
١٨٧ – ما يقال عن الاسلام	عباس محمود العقاد	ديسمبر

عـــام ١٩٦٧

١٨٨ – المسـيح عيـسى بن مريم	عبد الحميد جودة السحار	يناير
١٨٩ – الظرفاء	محمود السعدني	فبراير
١٩٠ – ابليس	عباس محمود العقاد	مارس
١٩١ – العلم للمجتمع	د. مصطفى عبد العزيز	ابريل
١٩٢ – صور وظلال من حياة شوقي وحافظ	طاهر الطناحي	مايو
١٩٣ – الشـرق والاسـلام في أدب جوته	عبد الرحمن صدقي	يونيو
١٩٤ – شخصية مصر	د. جمال حمدان	يوليو
١٩٥ – الأدب الثـوري عـبـر التاريخ	محمد مفيد الشوباشي	أغسطس
١٩٦ – ممنوع الهمس	كامل زهيري	سبتمبر
١٩٧ – دراسـات في النظم والمواهب	د. لويس عوض	أكتوبر
١٩٨ – اسـرائيليات وما بعد العدوان	أحمد بهاء الدين	نوفمبر
١٩٩ – محمد رسول الحرية	عبد الرحمن الشرقاوي	ديسمبر

عــام ١٩٦٨

٢٠٠ – حياة المسيح	عباس محمود العقاد	يناير
٢٠١ – الصــعلوكى فى بلاد الأمريكى	محمود السعدنى	فبراير
٢٠٢ – جيفارا الثائر الكوبى	جورج عزيز	مارس
٢٠٣ – اســـــتراتيجية الاستعماروالتحرير	د. جمال حمدان	ابريل
٢٠٤ – الاشــتراكية والأدب ومقالات أخرى	د. لوس عوض	مايو
٢٠٥ – الله	عباس محمود العقاد	يونيو
٢٠٦ – سلامة موسى المفكر والانسان	محمود الشرقاوى	يوليو
٢٠٧ – أصوات وألحان عربية	كمال النجمى	أغسطس
٢٠٨ – المرض والشــفاء من الفراعنة الى الآن	د. مريدنى حنا	سبتمبر
٢٠٩ – بصراحة غير مطلقة	د. يوسف ادريس	أكتوبر
٢١٠ – الكوميديا المرتجلة فى المسرح المصرى	د. على الراعى	نوفمبر
٢١١ – مطعم النور	عباس محمود العقاد	ديسمبر

عـــام ١٩٦٩

العنوان	المؤلف	الشهر
٢١٢ – ابن الرومى	عباس محمود العقاد	يناير
٢١٣ – تاريخ الفكر المصرى الحديث ج ١	د. لويس عوض	فبراير
٢١٤ – القـاهرة	ديزموند ستيوارت	مارس
٢١٥ – تاريخ الفكر المصرى الحديث ج ٢	د. لويس عوض	ابريل
٢١٦ – مطالعات فى الشئون الافريقية	جمال محمد أحمد	مايو
٢١٧ – اليهود والحركة الصهيونية	أحمد محمد غنيم غانم وأحمد أبو كف	يونيو
٢١٨ – محمـــود درويش – شاعر الأرض المحتلة	رجاء النقاش	يوليو
٢١٩ – قصة السـينما فى مصر	سعد الدين توفيق	أغسطس
٢٢٠ – رامبـو الشـــاعر المتشرد	صدقى اسماعيل	سبتمبر
٢٢١ – محمـد فريد ذكريات ومذكرات	صبرى أبو المجد	أكتوبر
٢٢٢ – توفيق الحكيم فنان الفكر وفنان الفرجة	د. على الراعى	نوفمبر
٢٢٣ – الحسين أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	نوفمبر
٢٢٤ – آراء حرة فى الدين والحياة	فتحى رضوان	ديسمبر

عام ١٩٧٠

٢٢٥ – الفنون والجنون فى أوربا	د. لويس عوض	يناير
٢٢٦ – من أسرار الساسة والسياسة – مصر ما قبل الثورة	محمد التابعى	فبراير
٢٢٧ – الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد	مارس
٢٢٨ – أفكار معاصرة	أحمد بهاء الدين	ابريل
٢٢٩ – ألوان من الحب	عبد الرحمن صدقى	مايو
٢٣٠ – حوار مع اليسار الأوربى المعاصر	أمير اسكندر	يونيو
٢٣١ – ألوان من أدب الغرب	على أدهم	يوليو
٢٣٢ – زوجات مفترسات	د. عبد المحسن صالح	أغسطس
٢٣٣ – مطربون ومستمعون	كمال النجمى	سبتمبر
٢٣٤ – قلب المرأة	ابراهيم المصرى	أكتوبر
٢٣٥ – الاسلام دعوة عالمية	عباس محمود العقاد	نوفمبر
٢٣٦ – حديث رمضان	محمد مصطفى المراغى	نوفمبر
٢٣٧ – التلميذة الخالدة	أحمد الصاوى محمد	ديسمبر

عــام ١٩٧١

العنوان	المؤلف	الشهر
٢٣٨ – دراسات أوربية	د. لويس عوض	يناير
٢٣٩ – أدباء معاصرون	رجاء النقاش	فبراير
٢٤٠ – أبو بكر / حوارى محمد	د. نظمى لوقا	مارس
٢٤١ – الاسلام والمسرح	محمد عزيزه - د. رفيق الصبان	ابريل
٢٤٢ – حكايات مسافر	د. مصطفى محمود	مايو
٢٤٣ – أحمد عرابى المفترى عليه ج ١	محمود الخفيف	يونيو
٢٤٤ – أحمد عرابى المفترى عليه ج ٢	محمود الخفيف	يوليو
٢٤٥ – يوميات فنان	فتوح نشاطى	أغسطس
٢٤٦ – فنون الكوميديا	د. على الراعى	سبتمبر
٢٤٧ – أنت .. كم تساوى	د. عبد المحسن صالح	أكتوبر
٢٤٨ – نور على نور	أحمد فراج	نوفمبر
٢٤٩ – مصرى فى ايرلندا	د. ابراهيم رشاد - صالح جودت	ديسمبر

عــام ١٩٧٢

٢٥٠ – شعراء مصر	عباس محمود العقاد	يناير
٢٥١ – مسلمون ثوار	محمد عمارة	فبراير
٢٥٢ – أدب القفز بالمظلات	معين بسيسو	مارس
٢٥٣ – اكتشاف قارة	د. يوسف ادريس	ابريل
٢٥٤ – أشعب أمير الطفيليين	توفيق الحكيم	مايو
٢٥٥ – أضواء على الأدب الصهيونى	ابراهيم البراوى	يونيو
٢٥٦ – ساعات مع الأحرار	أحمد قاسم جودة	يوليو
٢٥٧ – أنور السادات	حمدى لطفى	يوليو
٢٥٨ – سندباد فى سيارة	د. حسين فوزى	أغسطس
٢٥٩ – سحر الغناء العربى	كمال النجمى	سبتمبر
٢٦٠ – البيت الاسلامى	مقداد يالجن	أكتوبر
٢٦١ – أيامه الأخيرة – قصة مــلك بـاع نفســه للشيطان	حلمى سلام	نوفمبر
٢٦٢ – شعراء المجون	صالح جودت	ديسمبر

عام ١٩٧٣

٢٦٣ - قصة الأزهر رحاب العلم والايمان	أعلام الأدب والفكر والدين	يناير
٢٦٤ - أشعار وشعراء من المهجر	محمد عبد الغنى حسن	فبراير
٢٦٥ - الجنس والجريمة	عبد المنعم الجداوى	مارس
٢٦٦ - الرواية المصرية المعاصرة	يوسف الشارونى	ابريل
٢٦٧ - نوابغ الشباب	أحمد قاسم جود	مايو
٢٦٨ - الزجل العربى	أبو بثينة	يونيو
٢٦٩ - نجوم عرفتهم	فوميل لبيب	يوليو
٢٧٠ - رحلة فى عالم الحيوان والطير	ميشيل تكلا	أغسطس
٢٧١ - فنتازيا فرعونية	محمد عفيفى	سبتمبر
٢٧٢ - الثائر الاسلامى جمال الدين الأفغانى	الشيخ محمد عبده	أكتوبر
٢٧٣ - عصا الحكيم	توفيق الحكيم	نوفمبر
٢٧٤ - شاعر الكرنك « أحمد فتحى » حياته وشعره	صالح جودت	ديسمبر

عام ١٩٧٤

٢٧٥ – العاشق الصغير	موسى صبرى	يناير
٢٧٦ – خليل مطران شاعر الأقطار العربية	فوزى عطوى	فبراير
٢٧٧ – أطياف من حياة مى	طاهر الطناحى	مارس
٢٧٨ – سعادة لكل يوم	طاهر قنديل	ابريل
٢٧٩ – أخر العنقود– مجموعة قصصية قصيرة	د. سعيد عبده	مايو
٢٨٠ – خطابات غرامية	يوسف جوهر	يونيو
٢٨١ – أبى عزيز أباظة	عفاف عزيز أباظة	يوليو
٢٨٢ – عمالقة الصحافة	حافظ محمود	أغسطس
٢٨٣ – الصلاة « صحة ووقاية وعلاج »	د. محمد زكى سويدان	سبتمبر
٢٨٤ – صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك	محمد محمود رضوان	أكتوبر
٢٨٥ – أضـــواء على الأدب والحياة	ابراهيم المصرى	نوفمبر
٢٨٦ – م. ع. الهمشرى حياته وشعره	صالح جودت	ديسمبر

عـــام ١٩٧٥

العنوان	المؤلف	الشهر
٢٨٧ – سان جوست ملاك الارهاب	د. حسين فوزى	يناير
٢٨٨ – العذراء والليل	مجمود البدوى	فبراير
٢٨٩ – بين الوفاء والفداء	د. أحمد الشرباصى	مارس
٢٩٠ – ملك هوايتـــه جمـــع الساعات	تعريب : أحمد عبد المجيد	ابريل
٢٩١ – العرب والمسرح	محمد كمال الدين	مايو
٢٩٢ – عصير حياتهم	عبد التواب عبد الحى	يونيو
٢٩٣ – كائنـــات العـــوالم الأخرى	ميشيل تكلا	يوليو
٢٩٤ – نمـــاذج من الرواية العالمية	محمد الحديدى	أغسطس
٢٩٥ – رجال صدقوا	د. أحمد الشرباصى	سبتمبر
٢٩٦ – المحاسن والأضداد	الجاحظ	أكتوبر
٢٩٧ – يوميـــــات نائب فى الأرياف	توفيق الحكيم	نوفمبر
٢٩٨ – أساطير وحواديت	صالح جودت	ديسمبر

عـــام ١٩٧٦

٢٩٩ – قاتل اسمه اللذة	عبد المنعم الجداوى	يناير
٣٠٠ – مأساة شاعر البؤس عبد الحميد الديب	محمد محمود رضوان	فبراير
٣٠١ – هـؤلاء يقـولون فى السياسة والأدب	عبد العال الحمامصى	مارس
٣٠٢ – ملامح الفكر الأوربى المعاصر	د. صلاح عدس	ابريل
٣٠٣ – مصطفى صـادق الرافعى	حسنين حسن مخلوف	مايو
٤٠٤ – مسرحيات في الوهج والظل	علاء الدين وحيد	يونيو
٣٠٥ – الصور	محمد السباعي	يوليو
٣٠٦ – الصعود الى الهاوية	صالح مرسى	أغسطس
٣٠٧ – ان الله اشترى	د. أحمد الشرباصى	سبتمبر
٣٠٨ – العسـكرية المصـرية فوق سيناء	حمدى لطفي	أكتوبر
٣٠٩ – مع الله فى السماء	د. أحمد زكى	نوفمبر
٣١٠ – بلـزاك أميـر الرواية الفرنسية	أحمد الصاوى	ديسمبر

عـــام ١٩٧٧

العنوان	المؤلف	الشهر
٣١١ – أعـلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر ج ١	عثمان نويه	يناير
٣١٢ – أعـلام الفكر الأوربى ج ٢ من سقراط الى سارتر	عثمان نويه	فبراير
٣١٣ – مجنون سعاد	د. زكى مبارك	مارس
٣١٤ – القصة القصيرة نظريا وتطبيقا	يوسف الشارونى	ابريل
٣١٥ – أرض الأحلام	د. زكى نجيب محمود	مايو
٣١٦ – سـبعة أدبـاء من افريقيا	جيرالدمور – على شلش	يونيو
٣١٧ – ثوار يوليو الوجه الآخر	حمدى لطفى	يوليو
٣١٨ – أحاديث منتصف الليل	د. حسين مؤنس	أغسطس
٣١٩ – الوصول الى السعادة	برتراند رسل ـ نظمى لوقا	سبتمبر
٣٢٠ – أحمد شوقى – شاعر الوطنية	أحمد زكى عبد الحليم	أكتوبر

٣٢١ - الرؤيا الابداعية فى أدب يوسف السباعى	عبد العزيز شرف - رجاء شمير	نوفمبر
٣٢٢ - لا تخف	د. ادوارد سبنسر كولز - د. أمير بقطر	ديسمبر

عـام ١٩٧٨

٣٢٣ – دييز الطفل الذى فقد نفسه	أمينة السعيد	يناير
٣٢٤ – الأبطـال	توماس كارلايل – محمد السباعى	فبراير
٣٢٥ – هذا هو الحب	ستندال	مارس
٣٢٦ – نساء فى حياة برناردشو	هـ. بيرسون	ابريل
٣٢٧ – اعرف نفسك	د. سبنسر كولز	مايو
٣٢٨ – أحاديث جدتى	د. سهير القلماوى	يونيو
٣٢٩ – لغز أم كلثوم	رجاء النقاش	يوليو
٣٣٠ – القصة القرآنية	فتحى رضوان	أغسطس
٣٣١ – عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين	د. محمد عمارة	سبتمبر
٣٣٢ – طريق السعادة	د. فيكتور بوشيه	أكتوبر
٣٣٣ – النهـر	عبد الله الطوخى	نوفمبر
٣٣٤ – أعلام الفن القصصى ج ١ –	هنرى توماس ودانالى توماس	ديسمبر

عـــام ١٩٧٩

العنوان	المؤلف	الشهر
٣٣٥ – أعلام الفن القصصى ج ٢	هنرى توماس ودانالى توماس	يناير
٣٣٦ – الاسلام والوحدة	د. محمد عمارة	فبراير
٣٣٧ – روائع الفكر العالمى	ترجمة محمود مسعود	مارس
٣٣٨ – محمد الثائر الأعظم	فتحى رضوان	ابريل
٣٣٩ – العالم كما أراه	برتراند راسل	مايو
٣٤٠ – الحضارة العربية	ابراهيم أحمد العدوى	يونيو
٣٤١ – عش مائة عام	د. جايلورز هاورد	يوليو
٣٤٢ – الرسول «لمحات من حياته وأنوار من هديه»	د. عبد الحليم محمود	أغسطس
٣٤٣ – فن الحياة	أندريه موروا	سبتمبر
٣٤٤ – الأرواح المتمردة	جبران خليل جبران	أكتوبر
٣٤٥ – الاسلام والمرأة فى رأى – الامام محمد عبده	د. محمد عمارة	نوفمبر
٣٤٦ – الناس والعصر	نصر الدين عبد اللطيف	ديسمبر

عـــام ١٩٨٠

العنوان	المؤلف	الشهر
٣٤٧ – العرب تاريخ وحضارة ج ١	أنتونى نانتج - محمود مسعود	يناير
٣٤٨ – العرب تاريخ وحضارة ج ٢	أنتونى نانتج - محمود مسعود	فبراير
٣٤٩ – شكوى الموظف الفصيح	يوسف الشارونى	مارس
٣٥٠ – قاسم أمين وتحرير المرأة	د. محمد عمارة	ابريل
٣٥١ – أولادنا والأمراض النفسية	د. كلير فهيم	مايو
٣٥٢ – مأساة عبد الحكيم عامر	حمدى لطفى	يونيو
٣٥٣ – رسالة التوحيد – للإمام محمد عبده	د. محمد عمارة	يوليو
٣٥٤ – مذكرات الأميرة جويدان زوجة الخديوى عباس الثانى	الأميرة جويدان	أغسطس

٣٥٥ – رحلة بين العقل والوجدان	د. كمال جعفر	سبتمبر
٣٥٦ – فكرى أباظة – فارس المعارضة	فاروق أباظة	أكتوبر
٣٥٧ – حقبة من الزمان	أحمد عبد السلام الكردانى	نوفمبر
٣٥٨ – تجديد الفكر الاسلامي – محمد عبده ومدرسته	د. محمد عمارة	ديسمبر

عام ١٩٨١

٣٥٩ – المسرح والكوميديا	محمد فكرى	يناير
٣٦٠ – تجارة الرق والرقيق	جون منرك – فينست ماردنج	فبراير
٣٦١ – مؤلفات رائدة لمؤلفين رواد	محمد عبد الغنى حسن	مارس
٣٦٢ – اليهود تاريخا وعقيدة	د. كامل سعفان	ابريل
٣٦٣ – مصطفى كامل – أضواء على حياته	نجيب توفيق	مايو
٣٦٤ – أمين الرافعى شهيد الوطنية المصرية	صبرى أبو المجد	يونيو
٣٦٥ – السياسة الشرعية	شيخ الاسلام تقى الدين أحمد بن تيمية	يوليو
٣٦٦ – من الموسكى الى الحسينية	جاذبية صدقى	أغسطس
٣٦٧ – مذكرات هدى شعراوى	هدى شعراوى	سبتمبر
٣٦٨ – منهج القرآن فى بناء المجتمع	الشيخ محمود شلتوت	أكتوبر
٣٦٩ – أطفالنا وكيف نسوسهم	يعقوب فام	نوفمبر
٣٧٠ – مع الشوامخ فى أبراجهم	ترجمة محمود مسعود	ديسمبر

عـــام ١٩٨٢

العنوان	المؤلف	الشهر
٣٧١ – أنت وقلبك – هـ. م. مارفى	ترجمة : د. ابراهيم فهيم	يناير
٣٧٢ – حكم قراقوش	د. عبد اللطيف حمزة	فبراير
٣٧٣ – لا تقتل نفسك	د. بيتر شتاينكرون	مارس
٣٧٤ – تيـــارات الفـــكر الاسلامى	د. محمد عمارة	ابريل
٣٧٥ – قصة حياتى	أحمد لطفى	مايو
٣٧٦ – ٢٠ سنة فى حجرة الاعتراف	د. أمير بقطر	يونيو
٣٧٧ – حديث رمضان	محمد مصطفى المراغى	يوليو
٣٧٨ – تيـــارات اليقظـــة الاسلامية الحديثة	د. محمد عمارة	أغسطس
٣٧٩ – التصوف العربى	محمد ياسر شرف	سبتمبر
٣٨٠ – أطفالنا والتخلف العقلى	د. كلير فهيم	أكتوبر
٣٨١ – عش شابا طول حياتك	د. فيكتور بوجومولتز	نوفمبر
٣٨٢ – العرب والتحدى	د. محمد عمارة	ديسمبر

عـــام ١٩٨٣

٣٨٣ – الاسلام بين العلم والمدنية	د. نعمات أحمد فؤاد	يناير
٣٨٤ – أزمة الشباب	د. نعمات أحمد فؤاد	فبراير
٣٨٥ – الأزهر بين السياسة وحرية الفكر	د. محمد رجب البيومى	مارس
٣٨٦ – ٢٢ يوليو أطول يوم فى تاريخ مصر	جمال حماد	ابريل
٣٨٧ – الخلافة ونشأة الأحزاب الاسلامية	د. محمد عمارة	مايو
٣٨٨ – الاسلام دين الفطرة والحرية	الشيخ عبد العزيز جاويش	يونيو
٣٨٩ – الى القرآن الكريم	الشيخ محمود شلتوت	يوليو
٣٩٠ – الأسطورة فى الأدب العربى	د.أحمد شمس الدين الحجاجى	أغسطس
٣٩١ – ملامح القاهرة فى ١٠٠٠ سنة	جمال الغيطانى	سبتمبر
٣٩٢ – دنيا الصحافة	محسن محمد	أكتوبر
٣٩٣ – الجريمة والشباب	عبد المنعم الجداوى	نوفمبر
٣٩٤ – المدرسة والأسرة والصحة النفسية لأبنائنا	د. كلير فهيم	ديسمبر

عـام ١٩٨٤

٣٩٥ – الاحساس بالجمال في ضوء القرآن الكريم	محمد عبد الواحد حجازى	يناير
٣٩٦ – الطائفية والحكم فى لبنان	جمال الألفى	فبراير
٣٩٧ – راقصون بلا حكومة	راجى عنايت	مارس
٣٩٨ – المعتزلة وأصول الحكم	د. محمد عمارة	ابريل
٣٩٩ – المعتزلة والثورة	د. محمد عمارة	مايو
٤٠٠ – مواقف تاريخية لعلماء الاسلام	د. محمد رجب البيومى	يونيو
٤٠١ – عش مطمئن النفس	د. فرانك كابريو	يوليو
٤٠٢ – طريقك الى الشباب الدائم	د. مارجيرى ويلسون	أغسطس
٤٠٣ – مذكرات محكوم عليه بالاعدام	فيكتور هيجو	سبتمبر
٤٠٤ – مع المازنى	فاروق خورشيد	أكتوبر
٤٠٥ – التراث والحضارة	د. نعمات أحمد فؤاد	نوفمبر
٤٠٦ – الأحزاب السياسية فى مصر	د. يونان لبيب رزق	ديسمبر

عـــام ١٩٨٥

٤٠٧ – حكايات الأقدمين	د. شكرى محمد عياد	يناير
٤٠٨ – الدين والدولة والثورة	رفعت سيد أحمد	فبراير
٤٠٩ – ١٠ مسرحيات مصرية (عرض ونقد)	بهاء طاهر	مارس
٤١٠ – شخصية المحتال فى المقامة والحكاية	د. على الراعى	ابريل
٤١١ – رواد الفن التشكيلى	بدر الدين أبو غازى	مايو
٤١٢ – ابن تيمية – المفترى عليه	صلاح عزام	يونيو
٤١٥ – فى بيت أحمد أمين	حسين أحمد أمين	يوليو
٤١٦ – أوراق مصرية	د. عبد الله خورشيد	أغسطس
٤١٧ – التـــاريخ الذى أحمله على ظهرى (جزءان)	د. سيد عويس	سبتمبر
٤١٨ – مذكرات السلطان عبد الحميد الثانى	إعداد : د. محمد حرب	أكتوبر
٤١٩ – الحـــلم والحيـــاة فى صحبة يوسف ادريس	د. ناجى نجيب	نوفمبر
٤٢٠ – سكة سفر	محمد عفيفى	ديسمبر

عـــام ١٩٨٦

٤٢١ – الأفغانى ومحمد عبده	و. س. بلنت	يناير
٤٢٢ – رحلاتى حول العالم – جزءان	د. نوال السعداوى	مارس
٤٢٣ – المستقبلية .. والمجتمع المصرى	هانى عبد المنعم	ابريل
٤٢٥ – سلام على النبى	مصطفى بهجت بدوى	مايو
٤٢٦ – المجتمـــع والشريعـــة والقانون	د. محمد نور فرحات	يونيو
٤٢٧ – صفحات من حياتى	للشاعرة : جليلة رضا	يوليو
٤٢٨ – فى بلاد السندباد	فاروق خورشيد	أغسطس
٤٢٩ – التاريخ الذى أحمله على ظهرى ج ٢	د. سيد عويس	سبتمبر
٤٣٠ – محمد على الكبير	شفيق غربال	أكتوبر
٤٣١ – دور الأزهـــر فى السياسة	د. سعيد اسماعيل	نوفمبر
٤٣٢ – المساحة الفارغة	بيتر بروك – ترجمة : فاروق عبد القادر	ديسمبر

عام ١٩٨٧

٤٣٣ – لا للفقر فى ظل القرآن	أحمد سعيد	يناير
٤٣٤ – فلسفة العدل الاجتماعى	د. نصار عبد الله	فبراير
٤٣٥ – فى البدء كانت الكلمة	د. شكرى عياد	مارس
٤٣٦ – حبوبتى الطفلة المجنونة الرائعة	مارى كراكن – ترجمة أمينة السعيد	أبريل
٤٣٧ – المسلمون والاسلام	محمد عبده	مايو
٤٣٨ – كلمات فى العروبة والاسلام	كمال النجمى	يونيو
٤٣٩ – كلمات مصرية	حلمى سلام	يوليو
٤٤٠ – المنقذ – قراءة لقلب أفلاطون	عبد الغفار مكاوى	أغسطس
٤٤١ – أيام وليالى السندباد (رواية)	ألفريد فرج	سبتمبر
٤٤٢ – رسالة فى الطريق الى ثقافتنا	محمود محمد شاكر	أكتوبر
٤٤٣ – من وحى المجتمع		

المصرى المعاصر	سيد عويس	نوفمبر
٤٤٤ - الســـفر على جــواد		
الشعر	فتحى سعيد	ديسمبر

عـــام ١٩٨٨

العنوان	المؤلف	الشهر
٤٤٥ – ثلثـا قرن من الزمـان (مذكرات)	عبد الله عنان	يناير
٤٤٦ – الجميلات يذهبن الى المحكمة	عبد المنعم الجداوى	فبراير
٤٤٧ – عالم الأدب الشعبى العجيب	فاروق خورشيد	مارس
٤٤٨ – كوبا .. للتمساح دموع حقيقية	فوميل لبيب	أبريل
٤٤٩ – أمريكا الحلم والواقع	د. على شلبى	مايو
٤٥٠ – فلسـطين .. النكبـة الأولى ١٩٤٨ - يوميات طبيب مصرى	د. حسان حتحوت	يونيو
٤٥١ – الكاتب المصرى وأدب القصة العالمى	د. سيد كريم	يوليو
٤٥٢ – سعد زغلول زعيم الثورة	عباس محمود العقاد	أغسطس
٤٥٣ – جوائز الأوسكار	محمود عبد الرحمن الزواوى	سبتمبر
٤٥٤ – لا للعنف	د. سيد عويس	أكتوبر
٤٥٥ – عالم نجيب محفوظ من خلال رواياته	د. رشيد العنانى	نوفمبر

٤٥٦ - أوراق من الرماد
والجمـــــر - متابعـات
مصرية وعربية فاروق عبد القادر ديسمبر

عـــام ١٩٨٩

العنوان	المؤلف	الشهر
٤٥٧ - الأعمدة السبعة للشخصية المصرية	د. ميلاد حنا	يناير
٤٥٨ - البحث عن ملامح قومية	محمود بقشيش	فبراير
٤٥٩ - معـــالم التقريب بين المذاهب الاسلامية	محمد عبد الله المحامى	مارس
٤٦٠ - تخـــريب المســـرح المصـــــرى فـى السبعينات والثمانينات	فؤاد دواره	ابريل
٤٦١ - مذكرات الزعيم أحمد عرابى	أحمد عرابى	مايو
٤٦٢ - القيصـر الأصــفر	د. عبد الغفار مكاوى	يونيو
٤٦٣ - من وحى المجتمع المصرى المعاصر	د. سيد عويس	يوليو
٤٦٤ - دع الخجل واستمتع بالحياة	ترجمة محمد عبد المنعم جلال	أغسطس
٤٦٥ - الغراب الأبيض أو ظاهرة سليمان رشدى	زهير على شاكر	سبتمبر
٤٦٦ - المسرح الضاحك	د. نجوى عانوس	أكتوبر
٤٦٧ - هذه المرأة لى	جورج سيمنون - تقديم الطاهر مكى	نوفمبر
٤٦٨ - برنارد شو والاسلام	محمود على مراد	ديسمبر

عام ١٩٩٠

العنوان	المؤلف	الشهر
٤٦٩ – نجيب محفوظ وأصداء معاصريه	كمال النجمى	يناير
٤٧٠ – مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية	عبد الرحمن الرافعى	فبراير
٤٧١ – الفيديو والناس	د. نوال محمد عمر	مارس
٤٧٢ – اغاثة الأمة بكشف الغمة	تقى الدين أحمد بن على المقريزى	ابريل
٤٧٣ – أمريكا يا مريكا	محمود السعدنى	مايو
٤٧٤ – البنك الدولى والعالم العربى	د. ابراهيم شحاتة	يونيو
٤٧٥ – الجريمة فى الرواية العربية	عبد المنعم الجداوى	يوليو
٤٧٦ – اللغة والدرس والتقاليد	د. زكى مبارك	أغسطس
٤٧٧ – نحن والغرب	د. شكرى عياد	سبتمبر
٤٧٨ – مع الأيام – شىء من الذكريات	د. ابراهيم بيومى مدكور	أكتوبر
٤٧٩ – حواء ذات الوجوه الثلاثة	أمينة السعيد	نوفمبر
٤٨٠ – هجـرة اليهـود السوفييت	د. عبد الوهاب المسيرى	ديسمبر

عـــام ١٩٩١

٤٨١ – خليها على الله	يحيى حقى	يناير
٤٨٢ – كيف أصبحت روائيا	ارسكين كالدويل	فبراير
٤٨٣ – قصة البرلمان المصرى	د. يونان لبيب رزق	مارس
٤٨٤ – مولد البطل فى السيرة الشعبية	د. أحمد شمس الدين الحجاجى	أبريل
٤٨٥ – القلق وقيود من الوهم	د. عبد الستار ابراهيم	مايو
٤٨٦ – محمد عبد الوهاب	لطفى رضوان	يونيو
٤٨٧ – عبد الناصر	فتحى رضوان	يوليو
٤٨٨ – أوبــرا تريســـتان وايزولدا	ريتشارد فاجنر – ترجمة بدر توفيق	أغسطس
٤٨٩ – رسالة فى الطريق الى ثقافتنا	محمود محمد شاكر	سبتمبر
٤٩٠ – السينما والعصر	محمد فحى	أكتوبر
٤٩١ – الثقافة والتنمية	د. أنور عبد الملك	نوفمبر
٤٩٢ – الديمقراطية وثورة ٢٣ يوليو	طارق البشرى	ديسمبر

عام ١٩٩٢

العنوان	المؤلف	الشهر
٤٩٣ – كناسة الدكان (سيرة ذاتية)	يحيى حقى	يناير
٤٩٤ – محاكمة جلجاميش	د. عبد الغفار مكوى	فبراير
٤٩٥ – سير عربية	مصطفى نبيل	مارس
٤٩٦ – الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبد القدوس	د. رشاد عبد الله الشامى	ابريل
٤٩٧ – طوق الحمامة	للامام الفقيه ابن حزم الأندلسى – ضبط نصه د. الطاهر أحمد مكى	مايو
٤٩٨ – العبقرى والكون – ستيفى هوكنج	جون بوزلو ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمى	يونيو
٤٩٩ – مثل .. وموال	د. يحيى الرخاوى	يوليو
٥٠٠ – الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة	د. ليلى عنان	أغسطس

رقم الايداع : ٥٥٢٧ / ١٩٩٢

I. 5. B. N

977 - 07 - 0141 - 2

هذا الكتاب

يتضمن الكتاب قضية هامة يكثر الجدل حولها بين المؤرخين والمستشرقين .. وهى صورة مصر فى أعين الأوربيين فى نهاية القرن الثامن عشر .. مصر فى ذلك الحين كانت أسطورة تقع فى نهاية العالم ، ومن يذهب اليها كان يحكى العجائب التى رآها حتى أن الأوربيين ظنوا أن مصريى ذلك الحين لا يختلفون عن الهنود الحمر ، عندما اكتشفهم كريستوفر كولومبس .

وكان هذا شعور من اشترك فى الحملة الفرنسية مع نابليون بونابرت ، واسم مصر كان مرتبطا بهزيمة الملك لويس التاسع أثناء الحروب الصليبية فى القرن الثالث عشر . وهذا جعل من يفكر فيها يفكر أيضا فى الانتقام لهذه الهزيمة .

والكتاب يتناول وبإيجاز شديد السنوات الثلاث التى قضتها الحملة الفرنسية فى مصر .. ويوضح لنا كيف رحل نابليون بسرعة مذهلة من مصر ، حيث لم يمكث فى مصر إلا أربعة عشر شهرا .. ثم سافر مينو مع من تبقى من الجيش فى ١٨٠١ وما بين هذه الأيام سجل حـافل من الحروب والثورات والمقـاومة المسـتمرة فى مصر السفلى والعليا والقاهرة ، ومن ذلك تتضح الأوهام الباطلة ضد المصريين والأسطورة الواهمة بحلم لا أمل فى تحقيقه .. وفشلت الحملة فى كل أهدافها ، وتطرح الكاتبة تساؤلا هاما وهو من أين جاءت هذه الأهمية القصوى التى تجعل حملة نابليون بونابرت تأخذ هذا النصيب من الاهتمام وسط تاريخ يمتد لأكثر من عشرة آلاف عام ؟!

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٢٥ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٢٥ دولاراً - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً - باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

